

جامعة مؤتة

كلية الدراسات العليا

المغرب والأندلس على عهد الخليفة
أبي يعقوب يوسف الموحدي
558-580ه / 1163- 1184م

إعداد الطالب

محمد عطاالله سالم الخليفات

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد نايف العمايرة

رسالة مقدمة إلى كلية الدراسات العليا

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة

الدكتوراه في التاريخ/ قسم التاريخ

جامعة مؤتة، 2015م

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تُعبر
بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة





MUTAH UNIVERSITY — جامعة مؤتة

Deanship of Graduate Studies — عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (١٤)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب محمد عطاالله الخليفات الموسومة بـ:

المغرب والاندلس على عهد الخليفة ابو يعقوب يوسف الموحدي (٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م)

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **التاريخ**.

القسم: التاريخ.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. محمد نايف العمايرة		٢٠١٥/١٠/٠٧	مشرفاً ورئيسا
أ.د. محمد سالم الطراونة		٢٠١٥/١٠/٠٧	عضواً
أ.د. محمود محمد الرويضي		٢٠١٥/١٠/٠٧	عضواً
د. مبارك محمد الطراونة		٢٠١٥/١٠/٠٧	عضواً

عميد الدراسات العليا



د. محمد المحاسنة

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي: ٦١٧١٠
تلفون: ٠٣/٢٣٧٢٣٨٠-٩٩
فرعي 5328-5330
فاكس 375694 ٠٣/٢
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى من شجعني على مواصلة الدرب .. وعلمني البذل والعطاء بدون انتظار ..

(والدي).

إلى زهرة الحياة ونورها .. إلى من بها أكبر .. وبدعائها أسير ..

(أمي).

إلى من آنسني في دراستي .. وآزرني في دربي ..

(زوجتي) .

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة .. والنفوس البريئة الوديعة .. إلى رياحين حياتي ..

(أبنائي .. البراء، لين، عبد الرحمن).

إلى من تطلعوا إلى نجاحي بنظرات الأمل .. وعرفت معهم معنى الحياة والعمل ..

(أخوتي وأخواتي) .

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع، راجياً المولى عز وجل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

محمد عطاالله الخليفات

الشكر والتقدير

الشكر لله أولاً وأخيراً على منه وفضله وتوفيقه، ثم لأستاذي الجليل المشرف على إعداد هذه الدراسة الدكتور محمد نايف العمايرة، الذي لم يبخل علي بنصائحه السديدة وتوجيهاته الرشيدة، التي كانت بمثابة الضوء الساطع الذي أنار لي طريق البحث، فلك مني أستاذي كل التقدير والاحترام.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى جميع الأساتذة الكرام في قسم التاريخ بجامعة مؤتة، الذين نهلت من علمهم وأخذت عنهم المنهج العلمي السليم في البحث، والمثابرة في طلب العلم، وأدب التواضع مع الآخرين .

كما يسرني أن أتقدم بعظيم شكري وخالص تقديري واحترامي إلى الدكتور هارون الطورة والدكتور حمزة الخلايفة والمعلمة الفاضلة فاطمه السلامين لتقويمهم هذه الدراسة لغوياً، وإلى أسرة مكتبة كلية الشوبك الجامعية لتعاونهم معي، وإلى كل من ساعدني في إنجاز هذه الدراسة حتى خرجت بهذا الشكل المتواضع.

محمد عطاالله الخليفات

فهرس المحتويات

الفصل الثالث: علاقات الموحدين الخارجية في عهد الخليفة أبي يعقوب

الفصل الرابع: نظم الحكم والإدارة في عهد الخليفة أبي يعقوب

قائمة الملاحق

قائمة الجداول

قائمة الصور والخرائط والمخططات

أ. الصور:

ب. الخرائط:

ج. المخططات:

قائمة الاختصارات

الاختصارات	المعنى الكامل
ت	توفي
ج	جزء
د . ت	دون تاريخ نشر
د . د	دون دار نشر
د . م	دون مكان نشر
ص	الصفحة
ط	الطبعة
ع	العدد
ق	القسم
كم	كيلو متر
م	ميلادي
مج	المجلد
ه	هجري
/	تفصل بين التاريخ الهجري والميلادي

الملخص

المغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي

(558-580هـ/1163-1184م)

محمد عطاالله الخليفات

جامعة مؤتة، 2015

تسلط هذه الدراسة الضوء على تاريخ المغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي (558-580ه/1163-1184م)، وذلك لما كان لهذه الشخصية من دور كبير في تثبيت أركان الدولة الإسلامية في المغرب، وقيادة حركة الجهاد الإسلامي في الأندلس ضد حركة الاسترداد المسيحي للمدن الإسلامية الأندلسية. وجاءت الدراسة في تمهيد وستة فصول وخاتمة، تضمن التمهيد استعراض لأصل الموحدين وتكوين عقيدتهم، مع تتبع لمراحل قيام الدولة الموحدية وتوسعها إلى عهد الخليفة أبي يعقوب. وتناول الفصل الأول حياة الخليفة أبي يعقوب وأعماله قبيل توليه الحكم، من حيث اسمه ونسبه ولقبه ونشأته وحياته العلمية، وجهوده في بناء الدولة الموحدية في حياة والده إلى سنة 558ه/1163م، كما عرض لظروف البيعة بالخلافة لأبي يعقوب وأسباب وفاته. وعرض الفصل الثاني لثورات المغرب والأندلس على عهد أبي يعقوب، تلك الثورات التي استنزفت الكثير من جهد الموحدين ووقتهم ورجالهم، وكان أهمها ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس، وثورة سبع بن منغفاد في منطقة غمارة بالمغرب الأقصى، وثورة ابن الرند في قفصة. أما الفصل الثالث فعالج علاقات الموحدين الخارجية على عهد أبي يعقوب، حيث تضمن العلاقة مع الممالك الإسبانية في الأندلس وهي ليون وقشتالة وأرغون والبرتغال، فضلاً عن العلاقة ببني غانية في الجزائر الشرقية، والعلاقة مع مملكة صقلية، وكذلك العلاقة مع العالم الإسلامي في المشرق ممثلاً بالعباسيين في العراق والأيوبيين بمصر. وتناول الفصل الرابع نظم الحكم والإدارة على عهد الخليفة أبي يعقوب، من حيث النظام السياسي والنظام الإداري والنظام القضائي والنظام المالي والنظام الحربي. ونوهت الدراسة في الفصل الخامس إلى ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وعرضت في الفصل السادس إلى مظاهر وميادين الحياة العلمية والأدبية، ولأبرز الآثار المعمارية لعهد الخليفة أبي يعقوب. واشتملت الخاتمة على أهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال البحث.

Abstract

Al-Moqhrib and Andalusia during the Time of The Caliph (Abu-Yaqoub Yousif Al-Mowahde (558-580 A.H / 1163-1184 A.D

Mohammad A. S. Khliefat

Mu'tah University, 2015

This study sheds light on the history of Morocco and Andalusia on the reign of Caliph Abu Yaqoub Yousif Almohade (558-580A.H / 1163-1184A.D), it was for this character of a large role in the pillars of the Islamic state in Morocco, and the leadership of the Islamic Jihad compination in Andalusia against the recovery compination of Islamic Andalusian cities.

The study came in preface, five chapters and a conclusion. The preface included a review of the origin of the Almohades and configure the Unitarian faith, with the tracking of the stages of the Almohad dynasty and its expansion to the reign of Caliph Abu Yaqoub.

The first chapter discusses the life of Caliph Abu Yaqoub and his work before he came to power, in terms of his name and lineage, surname, upbringing and scientific life, also his efforts in building the Almohad dynasty in the life of his father until the year 558 A.H / 1163 A.D. It introduced to the circumstances of Allegiance succession to Abu Yaqoub and the reasons for his death.

The second chapter presents of the revolutions of Morocco and Andalusia at the time of Abu Yaqoub, those revolutions that drained a lot of Unitarian effort and time and their men, The most important revolution is Mardnich in eastern Andalusia, and the revolution of Sabe'a Ben Mangfad in Ghamara area of Furthermost Morocco, and the revolution Ibn Rand in Gafsa.

The third chapter addressed foreign relations of Almohad at the time of Abu Yaqoub, which included the relationship with the Spanish kingdoms in Andalusia, Leon, Castile, Aragon and Portugal, as well as the relationship with Bani Ghanaian in eastern Algeria. Also the relationship with the Kingdom of Sicily, as well as the relationship with the Muslim world in the Orient represented AL-Abasien in Iraq and the Ayyubid Egypt.

The fourth chapter dealt with the systems of governance and management of the reign of Caliph Abu Yaqoub, in terms of the political system, the administrative system, the judicial system, the financial system and the rules of war.

The study in Chapter Five noted to the features of social and economic life, and chapter six dealt with the appearances and fields of scientific and literary life. But the most prominent architectural monuments of the reign of Caliph Abu Yaqoub.

The Conclusion included on the most important results that have been reached through the search.

المقدمة

حظي تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي باهتمام وعناية الكثير من المــؤرخين على اختلاف أصولهم، نظراً لما فيه من موضوعات وأحداث تاريخية تشد الباحثين وتثيرهم باستمرار للدراسة، هذا فضلاً عن وجود رجالات مــن حكــام وســلاطين وأمراء، لعبوا دوراً فاعلاً في تحريك تاريخ المغرب والأندلس الإسلامي، فســطرت أسماؤها من خلال مآثر وإنجازات حفظها التاريخ، حتى أصبحت رمزاً يتغنى بها.

من هنا جاء اختيارنا إلى تاريخ " المغرب والأندلس على عهــد الخليفــة أبــي يعقوب يوسف الموحدي 558-580هـ/1163-1184م " موضوعاً للبحث، لما كان لهذه الشخصية من دور كبير في تثبيت أركان الدولة الإسلامية عامة، والموحديــة خاصة في المغرب والأندلس، ومقاومة حركة الاسترداد المسيحي للمدن الإســلامية الأندلسية، بحيث شكلت فترة حكمه بحق صفحة ناصعة البياض لتــاريخ المغــرب الإسلامي، نعمت البلاد خلالها بحياة إدارية مستقرة، ونهضــة اقتصــادية وثقافيــة وعمرانية شاملة.

وتأتي أهمية هذه الدراسة كونها تعالج فترة تاريخية هامة مــن تــاريخ الدولــة العربية الإسلامية، لا سيما المغرب الإسلامي، ففي الوقت الذي كــان فيــه القائــد صلاح الدين الأيوبي يتصدى لحركة الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، قــاد الخليفة أبو يعقوب يوسف حركة الجهاد الإسلامي في المغرب والأندلس ضد حركة الاسترداد المسيحي للمدن الإسلامية في الأندلس، واستطاع من خلال توجيهه حملتين كبيرتين قادهما بنفسه من إيقاف حركة الغزو المسيحي لمدن الأندلس الإسلامية لفترة من الوقت، وقد أفضت الحملة الثانية التي قادها تجاه مملكة البرتغال التي وجد فيها أشد الممالك الإسبانية وطأة على المسلمين، إلى استشهاده في ساحة المعركة مقــبلاً غير مدبر، ليسجل بذلك صفحة مشرقة في تاريخنا الإسلامي في العصور الوسطى على مستوى الحكام والشعوب، إذ إنه من غاية الندرة أن نسمع بســقوط حــاكم أو سلطان دولة في ساحة المعركة، بيد أن أبا يعقوب سطر بسيرته وبســقوطه شــهيداً تحت أسوار مدينة شنترين وهو يجاهد في سبيل الله، اسمه في مقدمة كبار الخلفــاء والسلاطين الذين لا يمكن نسيانهم في تاريخ المغرب الإسلامي.

وتبرز أهمية الدراسة كذلك كونها تتناول موضوعاً لم يبحث فيه من قبل ولم تقرر له رسائل علمية أو أكاديمية متخصصة على حد علم الباحث، ثم أن الدراسات العلمية التي تناولت أو أشارت إلى هذا الموضوع من جهة أو أخرى، تمتاز بالقلة وعدم الشمولية، فهي إما خصت المغرب والأندلس كل منهما على حده، أو انها عالجت الناحية السياسية وأهملت النواحي الحضارية أو العكس، أو انها تناولت تاريخ الدولة الموحدية عامة بعيداً عن التفصيل.

هذا وقد هدفت الدراسة منذ البداية إلى التعرف على شخصية الخليفة أبي يعقوب، وتسليط الضوء على جهوده في توحيد بلاد المغرب والأندلس، مع إبراز دوره في قيادة الجيوش الموحدية، وتعظيم قيم الجهاد لدى المسلمين في المغرب والأندلس، ومن ثم الوقوف على إنجازاته السياسية والحضارية، وكيف انتقل بالدولة الموحدية من مرحلة التنظيم والتكوين إلى مرحلة السيطرة والتمكين، وقد اتبع الباحث في كل ذلك المنهج العلمي القائم على المقابلة بين الروايات التاريخية وتحليلها، واستنباط ما أمكن من حقائق.

وجاءت الدراسة في تمهيد وستة فصول وخاتمة، تضمن التمهيد استعراضاً لأصل الموحدين من حيث: نسبهم وتسميتهم بالموحدين، وكيفية تكوين العقيدة الموحدية وأهم المبادئ التي قامت عليها، مع تتبع لمراحل قيام الدولة وتوسعها إلى عهد الخليفة أبي يعقوب.

وتناول **الفصل الأول** سيرة الخليفة أبي يعقوب وأعماله قبيل توليه الحكم، حيث تم فيه استعراض: اسمه، ونسبه، ولقبه، ونشأته، وحياته، العلمية، وجهوده في بناء الدولة الموحدية في حياة والده من خلال ما قام به من أعمال أثناء ولايته لإشبيلية منذ سنة 551ه/1156م وحتى توليه الخلافة سنة 558ه/1163م، والتي تمثلت في قيامه بالإشراف على بناء مدينة جبل طارق، وإخضاعه حصن طبيرة لسلطان الموحدين، وجهوده في حماية المدن الأندلسية من غارات ملوك الإسبان وابن مردنيش، كما تناول هذا الفصل الكيفية التي تمت فيها البيعة لأبي يعقوب وأسباب وفاته.

أما **الفصل الثاني** فقد عرض لثورات المغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب، تلك الثورات التي استنزفت الكثير من جهد الموحدين ووقتهم ورجالهم وأموالهم، وشغلتهم عن الاستعداد لمواجهة العدو الرئيسي للدولة وهو الممالك الإسبانية، وجاء على رأس هذه الثورات: ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس، ثم ثورة مرزدغ الصنهاجي وثورة سبع بن منغفاد في منطقة بلاد غمارة، وثورة أهل جبل تاسرت في نواحي المغرب الأقصى سنة 563هـ/1167م، وثورة علي الوهيبي في بلدة طبيرة في الأندلس بنفس السنة، وثورة قبيلة صنهاجة القبلة في نواحي جبل درن سنة 572هـ/1176م، وثورة ابن الرند في مدينة قفصة سنة 575هـ/1179م، وأخيراً تمرد قبيلة هرغة في مدينة زجندر بالسوس الأقصى سنة 578هـ/1182م. وقد أشرنا إلى ما بذله الخليفة أبو يعقوب من حزم وشجاعة في التصدي لهذه الثورات التي انتهت جميعها بالفشل.

وعالج **الفصل الثالث** علاقات الموحدين الخارجية على عهد الخليفة أبي يعقوب، حيث تضمن العلاقة مع الممالك الإسبانية في الأندلس وهي ليون وقشتالة وأرغون والبرتغال، هذا فضلاً عن علاقة الموحدين ببني غانية في الجزائر الشرقية، ومملكة صقلية، وكذلك العلاقة مع العالم الإسلامي في المشرق ممثلاً بالخلافة العباسية في العراق والدولة الأيوبية في مصر.

فأما عن العلاقات مع مملكة ليون فقد تم تقسيمها إلى مرحلتين متميزتين، الأولى مرحلة الصداقة والمهادنة واستمرت من 558-569هـ/1163-1174م، وفيها قدم الملك فرناندو الثاني يد العون والمساعدة للخليفة أبي يعقوب في صراعه مع مملكة البرتغال، في الوقت الذي أرسل فيه الخليفة أبو يعقوب بعض قواته لتقاتل جنباً إلى جنب مع الجيش الليوني ضد أعداء الملك فرناندو في بلاد قشتالة وليون، والمرحلة الثانية مرحلة الحرب والصراع بين الموحدين ومملكة ليون واستمرت للفترة من 569-580هـ/1174-1184م، وبدأت هذه المرحلة بغارة للملك فرناندو على بعض الأراضي الإسلامية في الأندلس، ثم كان الرد الموحدي بمهاجمة الملك فرناندو في عقر داره وتكبيده خسائر فادحة في الأموال والأرواح، وبعد ذلك تتبعت الدراسة

الحرب التي كانت سجالاً بين الطرفين والتي لم تسفر عن تحقيق نصر حـــازم لأي منهما.

وفيما يتعلق بالعلاقات مع مملكة قشتالة فقد تعـــرّض البحـــث للجـــوء الـــزعيم القشتالي فرناندو ردريجس حاكم ترجالة للخليفة أبي يعقوب وتحالفه معه ضد شيعته من النصارى، كما تناول حملة القمط نونية على بلاد الأندلس سنة 563ه/1167م، وحملة الخليفة أبي يعقوب على مدينة وبذة سنة 567ه/1172م، وحملـــة القـــومس الأحدب على نواحي قرطبة سنة 568ه/1173م، ورد الموحدين على ذلـــك بغـــزو مدينة طلبيرة في نفس السنة، ثم عرضنا لعقد معاهدة الصلح والسلم بين الموحـــدين وقشتالة سنة 568ه/1173م، ونقض الملك ألفونسو الثامن لهذه المعاهدة بمهاجمتـــه لمدينة قونكة والاستيلاء عليها سنة 573ه/1177م، وما تبع ذلك من تحالف مملكتي قشتالة وليون ضد الموحدين، وقيادة الملك ألفونسو الثامن لحملة كبرى على وســـط وجنوب بلاد الأندلس سنة 578ه/1182م، والتي عاث فيها الخراب والفســـاد فـــي الأراضي الإسلامية حتى وصل نواحي قرطبة وإشبيلية، وكيف رد الموحدون على هذه الحملة بغزوهم لمدينة طلبيرة في نفس السنة.

أما عن العلاقات مع مملكة أرغون، فقد تناولت الدراسة موقف مملكة أرغـــون من ثورة ابن مردنيش وكيف حدث التقارب والتعاون غير المباشر بين الموحـــدين ومملكة أرغون ضد ابن مردنيش، ثم أشارت إلى حملة الخليفة أبي يعقـــوب علـــى بعض أراضي مملكة أرغون سنة 569ه/1174م، واشتراك مملكـــة أرغـــون إلـــى جانب مملكة قشتالة في حصار مدينة قونكة سنة 572ه/1177م، وما تلا ذلك مـــن تبادل للغزو بين الموحدين والأرغونيين براً وبحراً حتى وفاة الخليفة أبي يعقوب.

وفيما يختص بالعلاقات مع مملكة البرتغال، فقد أتمت الإشارة إلى حملة العلـــج جراندة على قواعد غـــرب الأنـــدلس ســـنة 560-561ه/1165-1166م، وإلـــى محاولات الملك ألفونسو هنريكيز في الاستيلاء على مدينة بطليوس للفتـــرة 564-567ه/1169-1171م، كما عرضنا إلى استيلاء البرتغال على مدينة باجـــة ســـنة 568ه/1172م، وما تبع ذلك من دخول العلج جراندة في طاعة الموحدين واستمرار

الحرب سجالاً بين الفريقين في البر والبحر حتى كانت حملة الخليفة علـــى مدينـــة شنترين سنة 580ه/1184م والتي انتهت بالإخفاق واستشهاد الخليفة.

أما عن العلاقات مع بني غانية في الجزائر الشرقية، فقد أوضح البحث أن تلك العلاقات قد سادها نوع من الحذر المتبادل حتى عام 567ه/1172م، نظراً لبقاء بني غانية على ولائهم لبني العباس على أمل إحياء دولة المرابطين بالمغرب، ولانشغال الموحدين بثورة ابن مردنيش، ثم بوفاة ابن مردنيش وتملك الموحدين لإقليم شـــرق الأندلس لجأ بني غانية إلى مهادنة الموحدين ومصانعتهم بالهدايا والأمـــوال دون أن يدخلوا في طاعتهم حتى كانت وفاة الخليفة أبي يعقوب.

وفي موضوع العلاقات مع مملكة صقلية فقد تم بحث حالة التقارب التي سادت بين البلدين في أعقاب إحكام الموحدين قبضتهم على سائر بلاد الأنـــدلس وشـــمال أفريقيا، وما تمخض عن ذلك من توقيع اتفاقية الصلح والسلام بين الموحدين وصقلية عام 576ه/1180م، والتي بمقتضاها تم تبادل التمثيل الدبلوماسي ونشاط المبادلات التجارية بينهما.

فأما عن العلاقات مع العالم الإسلامي في المشرق، فقد أبحثت الدراسة التـــوتر الذي خيم على علاقة الموحدين بالعباسيين والأيوبيين، نظراً للقناعة التي سادت عند الموحدين بأحقيتهم بالخلافة ورئاسة العالم الإسلامي بدلاً من العباسيين، وإيمانهم بأن دار الخلافة الشرعية هي مراكش وليس بغداد، ولما كان وضع الخلافـــة العباســـية المتفكك والضعيف من جهة، وانشغالها بجبهة بلاد الشام والتصدي للخطر الصليبي من جهة أخرى، لا يسمح لها بتحريك ساكن ضد الموحـــدين، فقـــد كتـــب الخليفـــة العباسي للقائد صلاح الدين الأيوبي بولاية مصر والشام واليمن والمغرب وكل مـــا يفتحه بسيفه، وهذا ما شجع الأخير على إرسال بعض قواته لنواحي المغرب فاخضع لسطانه أجزاء واسعة من إفريقية بعد أن خلعها من حكم الموحدين.

وتناول **الفصل الرابع** نظم الحكم والإدارة على عهد الخليفة أبي يعقـــوب، مـــن حيث: النظام السياسي، والنظام الإداري، والنظام القضائي، والنظام المالي، والنظام الحربي، وقد حاولنا قدر الإمكان الإلمام التام بكافة الجوانب والعناصر والمؤسسات المكونة لكل واحد من هذه الأنظمة، مع إبرار دور الخليفة أبي يعقوب فـــي تكـــوين

وبناء الدولة من خلال اتخاذه الوزراء والكتاب والحجاب، وتعيينه الولاة والعمال على الأقاليم، والقضاة في العاصمة مراكش ومراكز الولايات، وقيادته للجيش الموحدي. كما سلطت الدراسة في هذا الفصل الضوء على إيرادات ونفقات الدولة، مع عرض لعناصر الجيش وطبقاته وأسلحته وفنونه الحربية وأنواع السفن التي تألف منها الأسطول الموحدي.

وخصص **الفصل الخامس** للحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية، من خلال العرض لعناصر المجتمع وطبقاته، مع الإشارة إلى أبرز ملامح الحياة من حيث: اللباس، والطعام، والاحتفالات، والأعياد، ووسائل التسلية، وأثر الأوبئة والأمراض في الحياة الاجتماعية. وتحدث في الحياة الاقتصادية عن الزراعة والصناعة والتجارة، فضلاً عن دراسة السكة (النقود) وأبرز الموازين والمكاييل والمقاييس التي كانت معروفة في فترة الدراسة بالمغرب والأندلس.

وعالج **الفصل الخامس** كذلك الحياة العلمية والأدبية والعمرانية، حيث أشار إلى جهود الخليفة أبي يعقوب في دفع الحركة العلمية ببلاده وإلى مؤسسات ومعاهد التعليم على عهده، مع تناول ميادين الحياة العلمية والأدبية التي اشتملت العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وعلم النفس والطب والهندسة والحساب والتاريخ والجغرافيا وعلم الفلاحة. وفي نهاية هذا الفصل أشرنا إلى أهم الآثار المعمارية، والدينية، والمدنية، والحربية التي تعود إلى عهد الخليفة أبي يعقوب.

وفي الخاتمة عرضنا لأهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال البحث.

وأني آمل بهذا الجهد المتواضع أن أكون قد ساهمت في إلقاء الضوء على جزء ولو يسير من تاريخ وحضارة بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الإسلامي.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

عرض وتحليل لأهم المصادر والمراجع

تطلبت طبيعة البحث الرجوع إلى مجموعة كبيرة من المصادر الأولية والمراجع الحديثة المتخصصة، وفيما يلي تحليل لأهم المصادر والمراجع مراعياً في طريقة عرضها ترتيبها في مجموعات حسب طبيعة كل مصدر وحسب التسلسل الزمني لتاريخ وفاة مؤلفيها:

1. **كتب التاريخ**:

1- **كتاب أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، لأبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق (كان حياً في النصف الثاني من القرن 6ه/12م)، ومؤلف هذا الكتاب كان صديقاً ومرافقاً للمهدي بن تومرت، ومن أشد المخلصين للدعوة الموحدية والمعجبين بالخليفة عبد المؤمن بن علي، لذا اتصفت رواياته في كثير من الموضوعات بالتعصب للموحدين والتهويل والمبالغة في مدحهم، ويبدو من بعض الأخبار التي أوردها المؤلف أنه كان حياً في عهد الخليفة أبي يعقوب، وهذا ما يعطي كتابه قيمة كبيرة للدراسة على اعتبار أنه كان شاهد عيان للوقائع والأحداث، ومن هنا فقد أفادنا في تتبع دعوة ابن تومرت، وتتبع بعض الحروب التي نشبت بين الموحدين والمرابطين بالمغرب، وفي التحقق من أولاد عبد المؤمن وضبط تاريخ إسناد ولاية الأقاليم لهم، كذلك أفاد في دراسة بعض ثورات المغرب وثورة ابن مردنيش في الأندلس، وفي التعرف على المناطق التي استقرت فيها بعض القبائل العربية والبربرية بالأندلس على عهد أبي يعقوب، هذا فضلاً عن دراسة علاقة الخليفة أبي يعقوب بالعلج جراندة الجليقي، وإلى ذلك احتوت حواشي الكتاب على الكثير من المعلومات المهمة التي أفادت الدراسة.

2- <u>**كتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**</u>، لمؤلفه عبد الملك بن صاحب الصلاة (كان حياً سنة 594ه/1198م)، ويبدو أن الكتاب يتكون من ثلاثة أقسام، ولكن لم يصل إلينا منه إلا القسم الثاني الذي يبتدئ بأحداث سنة 554ه/1159م وينتهي بأحداث سنة 568ه/1173م. وقد انتهج ابن صاحب الصلاة في تاريخه منهجاً خاصاً، فكان أحياناً يتبع طريقة التأريخ وفق

السنين، وأحياناً أخرى يتناسى هذا الترتيب وينطلق وراء تسـجيل الأحـداث وفـق تسلسلها الزمني مع التوسع في ذكر تفصيلاتها حتى يبلغ الغاية في الإفاضة.

ويتميز ابن صاحب الصلاة بأنه كان مؤرخاً وأديباً معاً، يأتي بالبديع من القول، ويحرص على استقاء أبرز ما يقال من شعر في كل مناسبة تسنح، ويبدو أن مواهبه في الكتابة مع علمه وطرافة اهتماماته أهلته لنيل الحظوة عند الخليفة أبـي يعقـوب حتى عد من طلبة الحضر.

وتكمن أهمية الكتاب من كون مؤلفه كان معاصراً للحوادث وشاهد عيان لكثيـر مما يذكره، وهذا ما جعل منه مصدرنا الأول في الدراسة وخاصـة للفتـرة 558-568هـ/1163-1173م، وقد اعتمدنا عليه في التعرف على ظروف البيعة بالخلافة لأبي يعقوب، ودراسة ثورة مرزدغ الصنهاجي وثورة سبع بن منغفـاد بـالمغرب وثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس، وتتبع علاقة الموحدين بالممالك الإسـبانية، كما أمدنا بمعلومات قيمة عن دور القبائل العربية مع الموحدين في حركـة الجهـاد بالأندلس، وانفرد ابن صاحب الصلاة دون جميع المؤرخين بإعطائنا مادة في غايـة الأهمية عن التنظيم الحربي للموحدين وزي الجنود ورواتبهم وكيفية تعبئتهم وتمييز فرقهم وأنواع الأسلحة التي كانوا يستخدمونها، كما عني بتسجيل مظـاهر احتفـال الموحدين بالمناسبات والأعياد، وأنواع الأمراض والأوبئة السـارية علـى عهـده، والنشاط العمراني من بناء الأسوار والجوامع والمباني في المغرب والأندلس، وكذلك اشتمل الكتاب على العديد من الرسائل والوثائق الموحدية الصادرة عن الخليفة أبـي يعقوب والتي أفدنا منها كثيراً في صفحات البحث المختلفة، ولعل هذا الوعي عنـد ابن صاحب الصلاة في تسجيل التاريخ الحضاري مع السياسي كان احدى مميـزات هذا المؤرخ.

3- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** لمؤلفه أبي محمد عبد الواحـد بـن علـي المراكشي (ت 647هـ/1249م)، ويعد هذا الكتاب من المصادر التاريخية الهامة التي تناولت تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح الإسـلامي إلـى سـنة 621هـ/1224م، وبالرغم أن مؤلفه عاش في فترة لاحقة لفترة الدراسة إلا أنه استقى معلوماته عنهـا من شهود عيان كان أبرزهم أبناء الخليفة أبي يعقوب نفسه، ثم كون المراكشي عمل

كاتباً في بعض دواوين الدولة فقد اطلع على دقائق أمورها، مما جعل روايته جديرة بالثقة والاحترام خاصة وأنه كتب مؤلفه في مدينة بغداد بعيداً عن نفوذ الموحـــدين. ويتميز المراكشي بإظهار تواضع علمي عند سرده للحوادث لا نجده عند الكثير من المصنفين الذين يملاون الأصقاع ضجيجاً وادعاءً، وقد سار في كتابه على أســـاس عهود كل أمير دون الالتزام بالسنين، مع ذكره للمصادر التي استقى منها معلوماته.

والكتاب من المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها الدراسة في مواضيع متعددة، سواء فيما يتعلق بقيام دولة الموحدين، وسيرة الخليفة أبي يعقوب، وذكـــر وزرائـــه وحجابه وكتابه وقضاته، وأمدنا بمعلومات في غاية الأهمية عن نهاية ثـــورة ابـــن مردنيش، وعلاقة الموحدين بالممالك الإسبانية في الأندلس، وببني غانية في الجزائر الشرقية، كذلك أفاد الدراسة في جانبها الحضاري عند الحديث عن أقاليم المغـــرب والأندلس، وسيِّر قبائل الموحدين، وثروات المغرب والأندلس الزراعية والمعدنية.

4- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب " قسم الموحـــدين "**، لابن عـــذاري المراكشي (كان حياً سنة 712ه/1312م)، وقد اعتمدنا عليه كلياً في دراسة تـــاريخ الموحدين لما بعد سنة 568ه/1173م وحتى سنة 580ه/1184م، فمنذ توقف ابـــن صاحب الصلاة في السفر الثاني عند أحداث سنة 568ه/1173م وحتى وفاة الخليفة أبي يعقوب كان كتاب ابن عذاري مرجعنا الأساسي، ويظهر أن المؤلف اعتمد فـــي تدوينه لكتابه هذا على مصادر معاصرة للموحدين، وخاصة علـــى مؤلفـــات ابـــن صاحب الصلاة، واتبع المؤلف في تأريخه للأحداث ترتيبها على أساس السنين مـــع اعتنائه بالنواحي الحضارية بكافة جوانبها، وبذلك فقد أفادنا فـــي دراســـة علاقـــات الموحدين السياسية بالممالك الإسبانية بالأندلس، وفي توضيح النشاط البحري بـــين الموحدين والبرتغاليين، فهو يحتوي على معلومـــات وفيـــرة ومفصـــلة فـــي هـــذا الموضوع، كما أفادنا في دراسة ثورة ابن الرند في قفصة، هذا فضلاً عن شـــرحه لسياسة الخليفة أبي يعقوب تجاه عماله على الولايـــات، وتجـــاه القبائـــل العربيـــة والاستعانة بهم في حروبه بالأندلس، وانفرد ابن عذاري في الإفاضة في الحديث عن وباء الطاعون الذي عصف ببلاد المغرب الأقصى سنة 571ه/1175م وما خلفه من آثار اجتماعية واقتصادية، وعلى ذلك كانت فائدة البحث منه كبيرة جداً.

5- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لابن أبي زرع الفاسي (ت في منتصف القرن 8ه/14م)، وهو يتناول تاريخ المغرب الأقصى من سنة 145ه/763م إلى سنة 726ه/1326م، وقد سار ابن أبي زرع في رواية أخبار الدولة الموحدية على أساس عهد كل أمير مقيداً ما يذكر من أحداث بتواريخها، وتم الاستفادة منه في دراسة مواضيع متعددة سواء فيما يتعلق بقيام دولة الموحدين، وسيرة الخليفة أبي يعقوب وبيعته ووفاته، وذكر أسماء وزرائه وحجابه وقضاته وكتابه وأطبائه، ودراسة علاقات الموحدين السياسية بالممالك الإسبانية ولا سيما بمملكتي قشتالة والبرتغال، وكان أهم ما أورده حصار أبي يعقوب يوسف لمدينة شنترين عام 580ه/1184م، مقدماً لنا حقائق في غاية الأهمية عن سبب فشل غزوة شنترين ومقتل الخليفة، خاصة وأنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة من السفر الثالث المعدود ضمن الكتب المفقودة، هذا فضلاً عما أورده من معلومات عن أعمال الخليفة أبي يعقوب الإنشائية في مدينة إشبيلية خلال غزوته الأولى للأندلس سنة 567ه/1172م، وآثار طاعون عام 571ه/1175م على مدينة مراكش وأحوازها، كما كان للمعلومات التي ذكرها ابن أبي زرع عن القبائل العربية قيمة كبيرة في التعرف على دور العرب في الدولة الموحدية على عهد أبي يعقوب.

6- كتاب أسبانيا الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لمؤلفه الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت 776ه/1374م)، وهو يتكون من ثلاثة أقسام؛ الأول يتناول تاريخ المشرق الإسلامي من السيرة النبوية حتى عصر المماليك، والثاني يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سنة 733ه/1371م، ويختتمه بنبذة يعرف فيها بملوك النصارى بالأندلس على الاختصار، والثالث يتناول تاريخ المغرب منذ قيام دولة الأغالبة حتى قيام دولة الموحدين. ويمتاز مؤلف هذا الكتاب بتقديمه للمعلومة باسلوب سلس بعيد عن التعقيد والإسهاب، وبصدق الرواية وقوة الأسلوب، وقد رجعنا إلى القسمين الثاني والثالث في دراستنا، واعتمدنا عليهما عند حديثنا عن قيام دولة الموحدين، وعند دراسة علاقة ابن مردنيش بالممالك الإسبانية، ومصير ابن همشك، وعلاقة الخليفة أبي يعقوب بأبناء ابن مردنيش بعد وفاة والدهم، كما استفدنا منه كثيراً في دراسة نشأة

الممالك الإسبانية، وتسلسل أسماء ملوكها حيث يكاد يكون المؤرخ الوحيد الذي أورد لنا مثل هذه المعلومات.

7- **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العـرب والعجـم والبربـر ومـن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبـر**، لمؤلفـه عبـد الـرحمن بـن خلـدون (ت 808ه/1045م)، وقد اعتمدنا على جزئيه الأول والسادس في مواضيع كثيرة مـن الدراسة، حيث قدم لنا معلومات غزيرة ومهمة عن أيام الدولـة الموحديـة، فتمـت الاستفادة منه في دراسة أصل الموحدين، وعناصر المجتمع الموحدي لا سيما القبائل العربية والبربرية، كما أفدنا منه في دراسة ثورات المغرب على عهد أبي يعقـوب وخاصة ثورة سبع بن منغفاد في المغرب الأقصى وثورة ابن الرند في قفصة، كمـا أفاد الدراسة عند تناول علاقات الموحدين السياسية بالممالك الإسبانية، وببني غانية أمراء الجزائر الشرقية، كما أمدنا بالمادة اللازمة لتوضيح دور القبائل العربية فـي الدولة الموحدية، وفي التعرف على مدى قوة الأسطول الموحدي على عهـد أبـي يعقوب.

ولا يمكن أن نهمل هنا الكتاب الآخر لابن خلدون وهو " **المقدمة** " الذي عـالج فيه العديد من المواضيع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية بطريقة رائعة، وقد استفاد منه البحث في دراسة نظم الحكم والإدارة عند الموحدين، إضـافة إلـى التعريف ببعض العلوم والفنون التي تناولتها الدراسة.

8- **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصـى**، تأليف أبي العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي (ت 1315ه/ 1892م)، وهو من أهم الكتب التي اعتمد عليهـا البحث، وتعود أهميته لتناوله تاريخ الدولة الموحدية بالتفصيل، ولأن مؤلفه اعتمـد على مصادر أصلية يعود بعضها إلى عصر الموحدين، ثم أن المؤلف لـم يقتصـر دوره على جمع النصوص وتقديمها للقارئ، وإنما يقوم بإبداء رأيه فيهـا والتعليـق عليها، وجاءت الفائدة منه في مختلف فصول الدراسة فأفـاد فـي دراسـة أصـل الموحدين وقيام دولتهم، وفي دراسة سيرة الخليفة أبي يعقوب، وثـورات المغـرب والأندلس، وعلاقة الموحدين بالممالك الإسبانية وببني غانية في الجزائر الشـرقية،

وفي التعرف على نظم الموحدين الحربية وعناصر المجتمع والجيش الموحدي، كذلك أفادنا في دراسة بعض جوانب الحياة العلمية والأدبية.

وإذا كانت المصادر التاريخية السالفة الذكر جميعها أندلسية أو مغربية، فإنه كان للمصادر المشرقية كذلك حضورها في إفادة الدراسة، وتكمن ميزتها في أن كتابها استفادوا من روايات أندلسيين أو مغاربة هاجروا إلى المشرق، إضافة إلى أنها تعكس حال لسان أهل المشرق تجاه الموحدين، ومن هذه المصادر المشرقية نذكر:

9-**كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق** لمؤلفه محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (ت 617ه/1220م)، و**كتاب الكامل في التاريخ** لأبي الحسن علي بن الأثير (ت 630ه/1233م)، و**كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** لشهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة (ت 665ه/1267م)، وظهرت الفائدة منها كبيرة في دراسة علاقات الموحدين بالمشرق الإسلامي.

2. **كتب الجغرافيا:**

1- **كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس،** مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لأبي عبدالله بن محمد الإدريسي (ت 560ه/1164م)، وهو من المصادر الجغرافية الهامة التي أفادت منها الدراسة كثيراً، لغناه بمادته الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية التي جاءت شاملة لمختلف المناطق والبلدان المغربية والأندلسية، وأفادنا كذلك في التعريف بالأماكن والمدن والقرى التي ورد ذكرها في صفحات الدراسة المختلفة.

2- **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار،** لمؤلف مجهول عاش في كنف الدولة الموحدية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأول تناول الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، والثاني جاء خاصاً بمصر وعجائبها، وتناول القسم الثالث بلاد المغرب والسودان، ويظهر أن المؤلف صنف كتابه في سنة 587ه/1191م، كما يفهم من بعض إشاراته التي أوردها خلال سرده للحوادث، ويعد الكتاب مصدراً لمعلومات متنوعة الألوان من جغرافية وتاريخية وأثرية، وخاصة لتلك الفترة التي عاشها فهو يسهب في الحديث عن تاريخ الموحدين ومجهوداتهم المعمارية في المغرب الأقصى وخاصة التي قام بها عبد

المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، وأفادنا الكتاب كذلك بالكثير من المعلومات المهمة عن أنواع المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية لكل مدينة من مدن بلاد المغرب، والمبادلات والطرق التجارية الداخلية والخارجية.

3- **كتاب معجم البلدان،** لمؤلفه شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي (ت 626ه/1228م)، وهو معجم جغرافي جزيل الفوائد، لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه في تبيان مواقع ما يمر به من بلدان ومدن وقرى وجبال وبحار وأنهار وأودية، ومواده مرتبه هجائياً مما يسهل على الباحث طريق الفائدة منه من غير مشقة، وكانت الفائدة منه عظيمة في دراستنا لا سيما في عقد المقارنات التاريخية بغية الوصول إلى الحقيقة، إضافة إلى التعريف ببعض المدن والمواضع التي ورد ذكرها في الدراسة.

4- **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار،** لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحميري (ت 866ه/1461م)، وهو من المصادر المهمة لدراسة واقع المدن الأندلسية وكذلك المغربية من الناحيتين الجغرافية والتاريخية، وقد اعتمد مؤلفه على الكثير من المصادر الجغرافية والتاريخية السابقة دون أن ينص عليها، أما مواده فقد رتبها هجائياً، رابطاً التاريخ بالجغرافية بطريقة سلسة رائعة، وأفادنا هذا المصنف في الكثير من موضوعات الدراسة لا سيما في جانبها الاقتصادي، وفي دراسة بعض جوانب علاقات الموحدين بالممالك الإسبانية، كما اعتمدنا عليه في التعريف ببعض الأماكن والمدن والقرى والحصون الأندلسية التي تعرضت الدراسة لها.

3. **كتب المناقب والتراجم:**

1- **كتاب التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي،** لأبي يعقوب ابن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (ت 627ه/1230م)، وتأتي أهمية هذا المصنف من انفراده بالاحتفاظ بتراجم لأعلام لا نعرف أخبارهم إلا من خلال ما أورده عنهم، وقد أفاد الدراسة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، حيث أمدنا بمعلومات عن بعض العادات والتقاليد السائدة في المجتمع المغربي الموحدي من حيث اللباس والطعام والمسكن والاحتفالات والأعياد، وعن الدور الذي لعبه المتصوفه في المجتمع وعلاقة الناس بهم، بالإضافة إلى ذكره بعض أسماء أبواب

وأحياء مدينة مراكش، كما أفاد في التعرف على بعض أنواع المهن والأسواق المعروفة في عهد الخليفة أبي يعقوب والتي انفرد بذكرها دون غيرها من المصادر.

2- **كتاب التكملة لكتاب الصلة،** لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن الآبار (ت 658هـ/1259م)، ويقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء، وهو من الكتب التي ألفت في تاريخ علماء الأندلس، وبذلك فهو يحتوي على معلومات وفيرة عن علماء مختلف المدن الأندلسية وسيرهم ومصنفاتهم، وقد أفاد الدراسة كثيراً وخاصة فيما يتعلق بجوانب الحياة العلمية والأدبية بالإضافة إلى الإفادة منه في الترجمة لكثير من الشخصيات التي وردت في ثنايا البحث.

ولابن الآبار كتابان آخران في تراجم الرجال لا تقل أهميتهما عن كتاب التكملة، وهما: **كتاب الحلة السيراء** الذي أفاد بمتنه وبحواشيه الغنية بالمعلومات بقلم المحقق، في دراسة ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس، وبعض جوانب علاقات الموحدين السياسية بالممالك الإسبانية، وفي التعريف ببعض شخصيات الدراسة، وبعض المدن والأماكن الأندلسية. والكتاب الآخر هو **كتاب المعجم في أصحاب القاضي الصدفي،** الذي ترجم فيه المؤلف لطائفة من رجال الفكر والأدب في عصر الموحدين، واستفاد منه الباحث في في التعرف على مؤدبي الخليفة أبي يعقوب، وفي التعريف ببعض شخصيات الدراسة.

3- **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،** لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت 714هـ/1314م)، وهذا المصنف عبارة عن سجل حافل لتراجم عشرات العلماء والمؤرخين والأدباء والشعراء وغيرهم ممن عرفتهم مدينة بجاية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين من مشاهير أعلام الجزائر وتونس والمغرب والأندلس، وقد أفاد الدراسة كثيراً في جانبها الحضاري ولا سيما فيما يتعلق بالحياة العلمية والأدبية، فضلاً عن قيمته الكبيرة التي ظهرت عند دراسة علاقة الموحدين السياسية ببني غانية أمراء الجزائر الشرقية، هذا بالإضافة إلى أهميته في التعريف ببعض الشخصيات التي ورد ذكرها في الدراسة.

4. **كتب الأدب:**

1- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، لمؤلفه شهاب الدين أحمد النويري (ت 733ه/1333م)، ويتألف من 27 جزءاً، وقد أفاد الجزء الرابع والعشرون منه الدراسة بكثير من المعلومات وخاصة فيما يتعلق بثورة قبائل غمارة سنة 559ه/1164م، ونهاية ثورة ابن مردنيش سنة 567ه/1172م، وأحداث ثورة ابن الرند بمدينة قفصة، إلى جانب الإفادة منه في إلقاء الضوء على علاقات الموحدين بالممالك الأسبانية ومملكة صقلية والدولة الأيوبية بمصر، كذلك ساعدنا هذا الكتاب في عقد المقارنات المختلفة للوصول إلى المعلومات الصحيحة بالرغم مما اتصف به من إيجاز عند سرد الأحداث.

2- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، للمقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041ه/1632م)، ويبدو أن المؤلف كان ينوي في البداية تخصيص الكتاب للتعريف بالوزير لسان الدين بن الخطيب، ولكنه رأى فيما بعد أن يقدم الكتاب بدراسة موسوعية عن الأندلس؛ تاريخها وجغرافيتها وتراجم أهلها ممن رحلوا إلى المشرق أو ممن قدم من المشرق إلى الأندلس، وهذا ما جعل منه موسوعة فريدة وشاملة في تاريخ الأندلس وحضارتها، وترجع أهميته إلى أنه حفظ لنا الكثير من المعلومات عن مصادر لا زالت مفقودة حتى اليوم، ولاحتوائه على مجموعة كبيرة من المواد التاريخية والأدبية التي تخص عصر الموحدين. وفائدة الكتاب للدراسة تتجلى في احتوائه على معلومات عن المصحف العثماني الذي أشرف الخليفة أبو يعقوب على نقله من قرطبة إلى مراكش، وانفراده بتفصيلات عن نشأة بعض الممالك الإسبانية وتوسعها على حساب المسلمين في الأندلس، وعلاقة الموحدين بهذه الممالك، كذلك أفاد في دراسة بعض جوانب نظم الحكم والإدارة، وفي دراسة بعض ملامح الحياة الاقتصادية والعلمية والأدبية على عهد أبي يعقوب، إذ به إشارات غير قليلة عن مجموعة من علماء وأدباء العصر الموحدي.

أما المراجع الحديثة التي اعتمدت عليها الدراسة فجاءت متنوعة، وقد اقتطفنا منها ما كان له الأثر في إثراء البحث، وأهمها:

3- **كتاب دولة الإسلام في الأندلس،** تأليف محمد عبدالله عنان، ويأتي هذا الكتاب في مقدمة المراجع التي اعتمدتها، وهو كتاب موسوعي يتألف من أقسام عدة، وكان اعتمادنا على القسم الخاص بدولة الموحدين، ويتميز هذا الكتاب بغزارة معلوماته ودقة تحليله، وتعدد مصادره وتنوعها ما بين عربية وأجنبية، مع رصانة وبراعة عالية تظهر جلية عند المؤلف في استخدام اللغة العلمية المتينة التي تمتاز بالوضوح والسلاسة، ولا يؤخذ على المؤلف إلا تقصيره أحياناً في إسناد المعلومات إلى مصادرها بالحاشية، وقد أفادنا بجوانب متعددة، ورافق الدراسة في شتى مناحيها السياسية والحضارية.

4- **كتاب سقوط دولة الموحدين،** تأليف مراجع عقيلة الغناي، وهو من المراجع المهمة التي اعتمدت عليها الدراسة وأفادت منها، ويتسم بوفرة المعلومات وكثرة الروايات وحسن التحليل، مع سلاسة في العرض وتسلسل في الأحداث، وإن كان المؤلف يسير على خطى محمد عبدالله عنان في كثير مما يعرض ويتناول من أفكار وموضوعات. وقد أفاد الدراسة بمعلومات جليلة عن سيرة الخليفة أبي يعقوب وبيعته، وثورات المغرب والأندلس، وعلاقات الموحدين السياسية والحربية بالممالك الإسبانية، فضلاً عن أهميته في إلقاء الضوء على دور الأساطيل الموحدية في النشاط الحربي ضد مملكة البرتغال.

5- **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين "،** تأليف حسن علي حسن، وينقسم الكتاب من حيث واقع الأحداث إلى فترتين مميزتين، الأولى تمتد من أواخر القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري، والفترة الثانية تمتد منذ قيام دولة المرابطين وحتى هزيمة العقاب بالأندلس سنة 610هـ/1213م، وهو من المراجع المهمة التي تحدثت عن التاريخ الحضاري للمغرب والأندلس على عصر الموحدين، وتعود أهميته إلى اعتماد مؤلفه على الكثير من المصادر الأولية على تعددها وتنوعها بين المخطوط والمطبوع فضلاً عن المراجع الأجنبية، مع دقة المعلومة، وتزيين المتون بالنصوص، وإرجاع المعلومات في معظم الحالات إلى مصادرها في الحواشي.

وقد أفاد الكتاب في دراسة نظم الحكم والإدارة عند الموحدين حيث توجد فيه معلومات وفيرة عن نظام ولاية العهد والوزارة والكتابة والحجابة وولاية الأقاليم، كما أفاد في دراسة النظام القضائي والمالي للدولة الموحدية، ودراسة عناصر وطبقات المجتمع، ومظاهر الاحتفالات والأعياد ووسائل التسلية، كما تضمن الكتاب معلومات وفيرة عن البناء والتعمير والحياة الفكرية في العصر الموحدي.

6- **كتاب تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، وهو من تأليف المستشرق الألماني يوسف أشباخ، ونقله إلى العربية محمد عبدالله عنان، وقد أفاد الدراسة في الكثير من موضوعاتها وخاصة فيما يتعلق بنشأة الممالك الإسبانية وأشهر حكامها، وعلاقتها ببعضها البعض من جهة، وعلاقتها بالموحدين من جهة أخرى، كما ساعدنا في التعرف على بعض نظم الإدارة وفنون الحرب عند الممالك الإسبانية والموحدين، ويتميز الكتاب بقدرة مؤلفه العالية على الجمع والتوفيق بين الروايات الإسلامية والاسبانية في كثير من الأحيان، وإن كان لا يسند المعلومات إلى مصادرها في الحواشي.

وإلى جانب هذه المصادر والمراجع اعتمدنا على مصادر ومراجع وبحوث عديدة ومتنوعة لا يتسع المقام هنا لذكرها، وهي مثبتة في القسم الخاص بها في نهاية الدراسة.

تمهيد: نبذة تاريخية عن الدولة الموحدية:

لم يكن أمر قيام الدولة الموحدية في بلاد المغرب بالأمر الغريب أو المفاجئ، إذ نجد أن هذه الدولة كانت تمثل حلقة من سلسلة طويلة من الـدول المتعاقبـة التـي شهدتها المنطقة منذ الفتح الإسلامي لها في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، ثم إنها لم تكن الدولة الوحيدة في تلك الجهات التي اتخذت من الدين والنسب وسيلة لاستقطاب المؤيدين وإحكام وجودها، فقد سبقها إلى ذلك كل مـن دولـة الأدارسـة (172-363هـ/ 788-974م)، والدولة العبيدية الفاطمية التي بدأ أمرها في المغرب سنة 297هـ/910م، قبل أن ينتقل بها المقام إلى مصر لتلفظ فيها آخر أنفاسها عـام 567هـ/ 1172م.

وعلى الرغم من أن الدولة الموحدية لم تعمـر طـويلاً (541-668هـ/1147-1269م)، مقارنة مع بعض دول الخلافة الإسلامية الأخرى التي قامت شرقي العالم الإسلامي وغربه، إلا أنها استطاعت خلال فترة وجيزة من إثبات وجودهـا علـى الساحة كدولة وطيدة الأركان، شامخة البنيان، دانت لها سائر بلاد المغرب، فامتدت جهاتها من المحيط الأطلسي غرباً، إلى قرب الحدود المصرية شرقاً، ومـن جبـل الشارات(1) بالأندلس شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً، وحطت ببلاطها - إضافة إلى الوفود والبعثات الدبلوماسية الإسلامية - وفود الممالك المسيحية في إسبانيا التي قدمت طالبة الصلح والمهادنة لما لحق بها على أيدي الموحدين من هزائم متلاحقة، حتى غدت مع نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي، تمثل بحق دولة مهابة الجانب، مسموعة الكلمة، لها حضورها ومكانتها في مجريات وأحداث منطقة غرب البحر المتوسط.

---

(1): جبل الشارات: يقع وسط بلاد الأندلس، ويمتد من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية في الجهة الغربية من الأندلس. انظر: الإدريسي، عبدالله بـن محمـد الحسـيني (ت560هـ/1164م): المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن 1863م، ص188. سيشار إليه فيما بعد: الإدريسي، المغرب وأرض السودان.

من هنا وجد الباحث أن من الأهمية بمكان قبل تناول موضوع الدراسة، إعطاء لمحة موجزة عن أصل الموحدين وعقيدتهم، وقيام دولتهم وتوسعها حتى بداية عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف عام 558ه/1163م، لما له من أهمية في تكوين مدخل للموضوع، يساعد في الإجابة عن بعض الأسئلة التي تطرح عن حقيقة الموحدين ونشوء دولتهم.

1. **أصل الموحدين**:

الموحدون هم في الأصل طائفة دينية إصلاحية، يعود الفضل في تأسيسها إلى رجل من أسرة بربرية هو محمد بن تومرت المغربي(1)، الذي اتخذ من المهدي لقباً له، وقيل أن الذي لقبه بالمهدي هم أصحابه العشرة(2)الذين هم أول من بايعوه على

---

(1): محمد بن تومرت: هو محمد بن عبدالله بن تومرت، من قبيلة هرغة البربرية إحدى قبائل المصامدة الكبيرة في جبل السوس في المغرب الأقصى، ولد في قرية ايجلي سنة 471ه /1079م، وقيل في سنة 485ه/1092م، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فقيهاً، كثير العبادة والأسفار، لا يصبر عن النهي عن المنكر، وكان حصوراً لا يأتي النساء، توفي سنة 524ه/1121م، ودفن في منزله في تينملل. انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان (748ه/ 1374م): سير أعلام النبلاء، 29 جزءاً، ط11، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت 1996م، جـ19، ص539-552. سيشار إليه فيما بعد: الذهبي، سير أعلام النبلاء؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر (ت 681ه/ 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صار، بيروت (د. ت)، جـ5، ص45-55. سيشار إليه فيما بعد: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(2): أصحاب المهدي العشرة هم: أبو محمد عبد المؤمن بن علي، أبو محمد البشير الونشريسي، أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، أبو حفص عمر بن علي الصنهاجي، إبراهيم ابن إسماعيل الهزرجي، أبو محمد عبد الواحد الشرقي، أبو عمران موسى بن تمارا، أبو يحيى ابن يكيت، عبدالله بن ملوية، أبو الربيع سليمان بن الحضري. انظر: البيذق، أبو بكر ابن علي الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن 6ه/12م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971م، ص34-35. سيشار إليه فيما بعد: البيذق، أخبار المهدي؛ ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808ه/1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب

أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم في شوال سنة 514هـ/1120م حسب ما ذكــر ابن أبي دينار[1]، في حين يروي الزركشي أن البيعة من أصحاب العشرة تمت يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان سنة 515هـ/1121م[2]، أما البيذق الذي يدعي أنه حضر بيعة العشرة فقد سكت عن تاريخ البيعة، واكتفى بقوله إنهـــا تمـــت فـــي تينملل[3] " تحت شجرة الخروب "[4].

أما عن اسم الموحدين؛ فقد جاء من المضمون العقدي الذي اتخذه المهدي أساساً لدعوته وهو حقيقة التوحيد، إذ جعل من التوحيد شـــعاراً لدعوتـــه، وأطلـــق علـــى أصحابه اسم الموحدين، وسميت الدولة التي قامت على دعوته باسم " دولة الموحدين "[5].

والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 8 أجزاء، ضبط المـــتن ووضـــع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 2000م، جــ6، ص34. سيشار إليه فيما بعد: ابن خلدون، العبر؛ ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعينـــي القيروانـــي (ت 1110هـ/1698م): المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونســـية ســـنة 1286هـ، ص108. سيشار إليه فيما بعد: ابن أبي دينار، المؤنس؛ السلاوي، أبـــو العبـــاس شهاب الدين أحمد بن خالـــد الناصـــري (ت 1315هـ/ 1892م): الاستقصـــا لأخبـــار دول المغرب الأقصى، 3 أجزاء، ط1، تحقيق: محمد عثمـــان، دار الكتـــب العلميـــة، بيـــروت 2007م، جــ1، ص234. سيشار إليه فيما بعد: السلاوي، الاستقصا.

(1): ابن أبي دينار، المؤنس، ص108.

(2): الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت فـــي القـــرن 11هـ/ 17م): تـــاريخ الـــدولتين الموحدية والحفصية، ط2، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس 1966م، ص6. سيشار إليه فيما بعد: الزركشي، تاريخ الدولتين.

(3): تينملل: قرية واقعة بأعلى جبال درن، تمتاز بالمنعة والحصانة بحيث أن أربعـــة رجـــال يستطيعون حمايتها ويمنعون الصعود اليها، اختارها المهدي لمقامه وبث دعوته، وفيها دفن المهدي وخليفته عبد المؤمن. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص64.

(4): البيذق، أخبار المهدي، ص34.

(5): النجار، عبد المجيد: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، ط2، المعهد العـــالمي للفكر الإسلامي، هيرندن – فيرجينيا 1995م، ص89. سيشار إليه فيما بعد: النجـــار، تجربة الإصلاح.

ويزعم بعض المؤرخين أن مؤسس الدولة الموحدية – محمد بن تومرت – يعود في نسبه إلى آل البيت، فبعضهم ينسبه إلى العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وبعضهم ينسبه إلى سليمان بن عبدالله الكامل ابن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب[1]، ويتفق ابن خلدون مع ما ذهب إليه جمهرة المؤرخين في إعادة نسب ابن تومرت إلى آل البيت، إلا أنه لما كان هناك اختلاف واضح لا مجال فيه للشك ما بين النسب النبوي والنسب البربري، فإن ابن خلدون حاول إزالة الغموض من خلال الإشارة في نهاية سلسلة نسب ابن تومرت إلى ما يمكن أن يربط ما بين النسبين، فقال: " أنه محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخو إدريس الأكبر الواقع في نسب الكثير من بيته في المصامدة "[2]، ثم يتدارك ابن خلدون ما ذهب إليه في هذا النسب ويقول " بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب "[3].

وبذلك نجد أن هناك اتفاقاً من قبل المؤرخين على نسب ابن تومرت لآل البيت، على الرغم من إقرار بعضهم أنه ادعى هذا النسب، فابن أبي دينار يقول: " هو دعي في هذا النسب "[4]، وابن خلدون يقول " انتسب نسبتهم وصار في عدادهم "[5]، أما

(1): ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي (كان حياً في منتصف القرن 7ه/ 13م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، ط2، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م، ص87-88. سيشار إليه فيما بعد: ابن القطان، نظم الجمان؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص3؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص107؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص229.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص301.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص301.

(4): ابن أبي دينار، المؤنس، ص107.

(5): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص301.

الذهبي فيشير صراحة خلال ترجمته له بعدم تسليمه لهذا النسب، فيقول " المــدعي أنه علوي حسني "[1].

وقد انعكس عدم الاطمئنان من قبل بعض المؤرخين الأوائل، لحقيقة نسب ابــن تومرت لآل البيت، على غيرهم من المؤرخين المعاصرين، فها هو محمد عبــدالله عنان يقول إن ادعاء ابن تومرت للنسب الهاشمي ما هو " إلا نحلة باطلــة، وثوبــاً مستعاراً، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعاراً لإمامتــه ورياسته الدينية والسياسية"[2].

في حين يرى محمد الصلابي أن محمد بن تومرت ادعــى النســب القرشــي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة، إذ أن انتساب ابن تومرت للأصل العربي لم يكن معروفاً عند أتباعه إلا بعد أن ادعى ذلك لحاجة في نفسه[3].

ويبدو أن الرأي القائل بأن ابن تومرت ادعى النسب الهاشمي له ما يؤيده، فابن تومرت لم يظهر ادعاءه النسب لآل البيت دفعة واحدة، بل أنه تدرج في هذا الأمــر لمدة لا تقل عن خمس سنوات، متبعاً طرقاً شتى في استقطاب المؤيــدين والأتبــاع لدعوته، حتى إذا ما اطمأن لقبول الناس واتباعهم له، أعلمهم أن النبي - صــلى الله عليه وسلم - بشر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً وأن مكانه الذي يخــرج منــه

---

(1): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ19، ص539.

(2): عنان، محمد عبدالله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، وهــو العصــر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشــر، القاهرة 1964م، ق1، ص160. سيشار إليه فيمــا بعــد: عنــان، عصــر المــرابطين والموحدين.

(3): الصلابي، علي محمد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي، ط1، دار المعرفة، بيروت 2005م، ص 8-9. سيشار إليه فيما بعــد: الصــلابي، تــاريخ دولتــي المرابطين والموحدين.

المغرب الأقصى[1]، وأخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما علم قبول الناس للأمر، أعلن أنه هو المهدي المنتظر. ولم يكن حصول ابن تومرت على اعتراف الناس به على أنه المهدي المنتظر بالأمر السهل، بل نجده قد عانى في سبيل ذلك، فكان تارة يعد أصحابه بالشرف والجاه ليضمن تأييدهم له، كما فعل ذلك مع خليفته عبد المؤمن ابن علي عندما لقيه لأول مرة فقال له " قد وجدت علماً وشرفاً وذكــراً اصــحبني تنله"[2]، وتارة أخرى من خلال الحيلة والخديعة، كما فعل ذلك في ذات يوم عنــدما أخفى رجالاً في قبور، وجاء في جماعة ليريهم آية تدل على قدراته، فصاح: أيهــا الموتى أجيبوا، فأجابوه: أنت المهدي المعصوم، ولكي لا تنتشر الحيلة بــين النــاس ويفتضح أمره، عمد ابن تومرت إلى خسف القبور فوق رؤوس أولئك الرجال حتى تموت الحيلة بموتهم[3]، أما الثالثة فمن خلال التصفية والقتل كما فعل فــي حادثــة تمييز الموحدين سنة 519ه/1125م، حيث قام بقتل كل من شك في ولائه له، حتى وصل عدد القتلى إلى قرابة سبعين ألفاً[4]، ويذكر الذهبي أنه ما فعل ذلك إلا لأنــه كان " عمالاً على الملك، غاوياً في الرياسة والظهور "[5].

ومن خلال استقراء الروايات السابقة الذكر يمكن الحكم مدى صحة نسب ابــن تومرت لآل البيت، بأن الأمر يبقى غير قطعي، فإمكانيــة نســب المهــدي للبيــت الهاشمي تبقى واردة، لأن المهدي لم يكُذَّب فقط في نسبه بل كُذّب في كل مدعياتــه،

---

(1): ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بــن عبــد الكــريم (ت 630ه/ 1233م): الكامل في التاريخ، 11 جزءا، ط4، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م، جــ9، ص197. سيشار إليه فيما بعد: ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

(2): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص231.

(3): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ19، ص551.

(4): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ9، ص199.

(5): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ19، ص540.

ثم لأن الناس كما يقول ابن خلدون مصدقون في أنسابهم، فإذا كان المهدي قد ادعى فعلاً نسبه إلى أهل البيت وانتسب به فلا دليل يقوم على بطلانه[1].

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في حقيقة نسب ابن تومرت لآل البيت، إلا أنهم قد أجمعوا على أن ابن تومرت ينحدر من أسرة بربرية، من قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة مصمودة الكبرى، التي تعتبر أكثر القبائل البربرية عدداً، وأشدها بأساً، وأعرقها نفوذاً[2].

والبربر الذين ينتمي إليهم مؤسس الدولة الموحدية وبقية العناصر التي تشكلت منها دولته شعباً وحكاماً، هي أمة من أقدم أمم العالم وأشهر أجيالها، عاصرت العرب واليونان والرومان، وهي ذات بطون وعشائر لا حصر لها[3]، وقد اختلف المؤرخون حول أصل نسبهم وموطنهم، فهناك من يجعل موطنهم الأصلي فلسطين وما جاورها من بلاد الشام، وأنهم كانوا ملوكاً، وكان كل من يملكهم يسمى جالوتاً، كتسمية الفرس كسرى، إلى أن ملكهم جالوت الجبار الذي قتله النبي داود - عليه السلام-، وبمقتل ملكهم تفرقوا في البلاد وتوجه أكثرهم إلى أفريقية وبلاد المغرب، وكان سكانها يومئذ الروم، فتغلبوا عليهم وسكنوا موطنهم حتى أصبحت بلاد المغرب منازل البربر[4]. ويذكر السلاوي أن الذي أخرجهم من فلسطين هو أحد ملوك

---

(1): ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت)، ص26-27. سيشار إليه فيما بعد: ابن خلدون، المقدمة.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص229؛ علام، عبدالله علي: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة 1968م، ص44. سيشار إليه فيما بعد: علام، الدولة الموحدية بالمغرب.

(3): حقي، محمد: البربر في الأندلس، ط1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء 2001، ص22. سيشار إليه فيما بعد: حقي، البربر في الأندلس.

(4): التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد (ت بعد 717ه/1319م): رحلة التجاني، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس 1981م، ص160. سيشار إليه فيما بعد: التجاني، رحلة التجاني؛ مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ط1، دراسة وتحقيق: عبد

التبابعة المشهورين وهو أفريقش ابن قيس بن صيفي الحميري[1].

وهناك من يذكر أنهم من أصل يمني، ومنهم من ينسبهم إلى سيدنا إبـــراهيم -عليه السلام-، ومنهم من يقول هم من غسان، ومنهم من يذكر أنهم من قبائل شـــتى من حمير وقريش والعمالقة والقبط[2]، بل أن هناك من ذهب إلى أبعـــد مـــن ذلـــك وأرجع نسبتهم إلى الطرواديين الذين طردوا من طروادة بعد أن حطمهـــا التحـــالف الإغريقي، ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر قبل الميلاد[3].

غير أنه يبقى رأي ابن خلدون الأقرب إلى الحقيقة في كل ما ذكر ســـابقاً، فقـــد ناقش ابن خلدون مختلف النظريات والآراء القديمة في أصول البربر ونسبهم بالنقد والتمحيص حسب علم الأنساب، وخلص في النهاية إلى أنهم من ولد كنعان بن حام ابن نوح، وأن اسم أبيهم مازيغ، هذا الاسم الذي التصق بهم ودعوا بـــه، ومـــوطنهم الأول هو فلسطين، ويجزم ابن خلدون أن كل من يقول غير ذلـــك تبقـــى روايتـــه مرجوحة وبعيدة عن الصواب[4].

ويتفق النسابة والمؤرخون على أن البربر ينقسمون إلى شـــعبين همـــا: البتـــر والبرانس؛ فالبتر هم أبناء مادغيس الذي كان يلقب بالأبتر، والبـــرانس هـــم أبنـــاء برنس[5]، ويرى كل من ابن حزم وابن خلدون أن مادغيس وبرنس من أب واحد هو

القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2005م، ص196. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، مفاخر البربر؛ ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص120.

(1): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص29.

(2): ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص120؛ الميلي، مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القـــديم والحديث، 3 أجزاء، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإســـلامي، بيـــروت (د. ت)، جـــ1، ص83. سيشار إليه فيما بعد: الميلي، تاريخ الجزائر؛ عمار، عمورة: مـــوجز فـــي تاريخ الجزائر، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر 2002م، ص7. سيشار إليه فيما بعد: عمار، موجز في تاريخ الجزائر.

(3): حقي، البربر في الأندلس، ص16.

(4): ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص126-127.

(5): مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص158؛ ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص117.

كنعان ابن حام بن نوح[1]، ويظهر من خلال ما ذهب إليه مؤرخو البربر أن البرانس تفوقوا على البتر من حيث العدد، كما أن الطابع الذي غلب على حياتهم هو الحياة الحضرية نظراً لاحتكاكهم بالحضارات القديمة وخاصة الرومانية منها، وكانت سكناهم في مناطق جبال الأطلس الكبير إلى المحيط الأطلسي، كما استوطنوا وسط الجزائر وجنوبها، أما البتر فقد عرفوا ببداوتهم، إذ استقر غالبيتهم في الصحراء والمناطق الرعوية في ليبيا[2].

ويتفرع عن قبيلتي البتر والبرانس شعوباً وقبائل وبطون كثيرة، فمن قبيلة البرانس اشتهرت قبيلتا صنهاجة ومصمودة[3]، اللتان لعبتا دوراً كبيراً في توجيه سير الأحداث، وصنع تاريخ المنطقة خلال فترة امتدت قرابة القرنين - من منتصف القرن الخامس إلى ما بعد منتصف القرن السابع الهجري - إذ على أكتاف صنهاجة قامت دولة المرابطين، وعلى أكتاف المصامدة قامت دولة الموحدين، وما يهمنا هنا هو دولة الموحدين، لذا سنسلط الضوء على قبيلة مصمودة التي ينتمي إليها كل خلفاء الدولة الموحدية، ومن استحق لقب الموحدين من قبائل.

فالمصامدة هم من ولد مصمود بن برنس ين مازيغ بن كنعان، وهم أكثر قبائل البربر عدداً، حيث كانوا يؤلفون معظم سكان المغرب منذ أيام الفتح الإسلامي، وفي ذلك يقول ابن خلدون " قبائل المصامدة أمم لا يحصرهم إلا خالقهم "[4].

وامتدت بلاد المصامدة حتى شملت معظم بلاد المغرب الأقصى[5]، ويحدد المراكشي جهاتها بقوله: " فحد بلادهم النهر الأعظم الذي يصب من صنهاجة

---

(1): ابن حزم، علي بن أحمد الظاهر (ت 456هـ/ 1063م): جمهرة أنساب العرب، ط5، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة 1982م، ص495. سيشار إليه فيما بعد: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص117.

(2): حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، 3 أجزاء، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 2000م، جـ1، ص24-25. سيشار إليه فيما بعد: حركات، المغرب عبر التاريخ.

(3): مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص158.

(4): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص275، 298.

(5): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص133.

وينتهي إلى البحر الأعظم، بحر أقيانس (المحيط الأطلسي)، ويدعى هـذا النهـر أم الربيع، وأخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لمتونة، فهذا حد بلاد المصـامدة عرضاً، وحدها طولاً من الجبل المعروف بدرن[1]إلـى البحـر الأعظـم المسـمى أقيانس"[2].

ويتفرع عن المصامدة الكثير من القبائل والبطون، وصل عددها أربعة عشـر، هي: حاحة، وزجراجة، ووريكة، وهزميرة، وجدميوة، وجنفيسة، وهزرجة، ودكالة، وهنتاتة، وبني ماغوس، وكلادة، وتينملل، وإيلانة (هيلانة)[3]، وغمارة على قـول، وقيل إنهم عرب غمروا تلك الجهات فسموا غمارة[4]. أما المراكشي فعنده عدد قبائل المصامدة التي تلقب بالموحدين، وتستحق هذا الأسهم سبع قبائل، ورتبهـا حسـب درجاتهم كما يلي: هرغة وهي قبيلة ابن تومرت، ثـم قبيلـة عبـد المـؤمن بـن علي[5]خليفة ابن تومرت وتسمى كوميه ومنها جاء جميع خلفاء الموحدين، ثم أهـل

---

(1): جبل درن: من جبال البربر بالمغرب، فيه عدة قبائل وبلدان وقرى، يبدأ من البحر المحيط في أقصى السوس، وينتهي بجبل طرابلس، ويعرف اليوم بجبال أطلس. انظـر: يـاقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله البغدادي (626ه/ 1228م): معجم البلدان، 5 أجـزاء، دار صادر، بيروت 1979م، جـ2، ص452. سيشار إليه فيما بعد: يـاقوت الحمـوي، معجم البلدان؛ الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص63-64.

(2): المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت 647ه / 1250م): المعجب فـي تلخـيص أخبار المغرب، ط1، شرحه واعتنى به: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت 2006م، ص245-246. سيشار إليه فيما بعد: المراكشي، المعجب.

(3): مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص172؛ ابن خلـدون، العبـر، جـــ6، ص299؛ ابـن القاضي، أحمد بن محمد بن محمد المكناسي (ت 1025ه / 1616م): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، جزءان في كتاب واحـد، دار المنصـور للطباعـة والوراقة، الرباط 1973م، ص14-15. سيشار إليه فيما بعـد: ابـن القاضـي، جـذوة الاقتباس.

(4): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص15.

(5): عبد المؤمن بن علي: هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، ولد فـي قريـة تاجرة من عمل تلمسان سنة 487ه/1094م، وبويع بالخلافة عقب وفـاة المهـدي سـنة 524ه/1130م، وهو الذي قضى على دولة المـرابطين وملـك ديـارهم، تـوفي سـنة

تينملل وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع، وبينهم تمت البيعة الأولى لأبن تومرت، ثم هنتاتة وهي قبيلة ضخمة جداً بها قوي أمر الموحدين، ثم قبيلة جنفيسه وهي صاحبة أجود اللغات وأفصحها، ثم جديوة، فبعض قبائل صنهاجة وهكسورة، وكان أفراد هذه القبائل السبعة هم " الذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية"[1].

وفي الفترة التي لمع فيها نجم ابن تومرت، كان المصامدة يخضعون لحكم المرابطين، الذين اهتموا كثيراً بفرض حكمهم عليهم، فقد كان أمراء المرابطين يرسلون من آن إلى أخر حملات عسكرية لمواطن المصامدة لجباية الضرائب، وكان جنود المرابطين يتصرفون وكأنهم داخلين إلى بلاد مفتوحة[2]. ويبدو أن المرابطين قد استشعروا خطر المصامدة على دولتهم منذ فترة مبكرة بدليل ما يذكره ابن خلدون من أن الأمير يوسف بن تاشفين[3] حرص عند اختطاطه مدينة مراكش[4] سنة 454ه/1062م، أن تكون قريبة من قبائل المصامدة ومواطنهم في جبل درن، لأنه " لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعا "[5]، لكن مع ذلك فإنه ليس ثمة

558ه/1163م ودفن في تينملل إلى جوار شيخه المهدي. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ3، ص237-241؛ المراكشي، المعجب، ص148.

(1): المراكشي، المعجب، ص245.

(2): تورنو، روجي لي: حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة: أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس 1982م، ص13. سيشار إليه فيما بعد: تورنو، حركة الموحدين في المغرب.

(3): يوسف بن تاشفين: هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني البربري الملثم، ويعرف بأمير المرابطين، وهو الذي بنى مدينة مراكش وجعلها دار ملكه، انتصر على الفرنجة في موقعة الزلاقة سنة 479ه/1086م، شمل ملكه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس، توفي مطلع سنة 500ه/1107م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ19، ص252-254.

(4): مراكش: مدينة محدثة بالمغرب، بناها يوسف بن تاشفين سنة 470ه/ 1077م، تبعد عن مدينة أغمات 12 ميلاً. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص67.

(5): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص245.

دليل على أن المصامدة قد فكروا بالثورة ضد المرابطين قبل عودة ابن تومرت من رحلته للمشرق.

2. تكوين عقيدة الموحدين ومبادئها:

يمكن التعرف على عقيدة الموحدين ومذهبهم في الدين، من خلال تصانيف ابن تومرت العقائدية ورسائلة العلمية، التي كان يؤلفها ويرسلها إلى أتباعه، والتي اشتهر منها عقيدة التوحيد المعروفة ب " المرشدة "، وكتابه الذي سماه " أعز ما يطلـــب "، وموطأه الذي عرف باسمه " موطأ الامام المهدي ".

ويظهر من خلال استقصاء الآراء والمبادئ التي اتخذها ابن تـــومرت ركيـــزة لدعوته ومذهبه التوحيدي، أن هذه المبادئ ما هي إلا خلاصة لمذاهب متعددة كـــان ابن تومرت قد اطلع عليها أو درس أفكارها خلال رحلته التي قام بها إلى المشـــرق عام 501ه/1108م[1]. تلك الرحلة التي ما قام بها إلا لطلب العلم والمعرفة والجـــاه والشرف، فجاب خلالها حواضر العالم الإسلامي التي كانت تشع بالعلم آنذاك، فمر بالأندلس ودخل قرطبة[2](Cordoba)، ثم لحق بالإسكندرية وحج إلى مكة، ودخـــل العراق، وزار بلاد الشام[3]، والتقى خلالها بعدد مـــن مشـــاهير العلمـــاء ومشـــايخ المسلمين، فسمع منهم وأخذ عنهم أصول الفقه والدين حتى نبغ في علـــم الأصـــول والاعتقادات، وكان في جملة من لقي من العلماء حجة الإسلام الإمـــام أبـــو حامـــد

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص62؛ المراكشي، المعجب، ص136.

(2): قرطبة: مدينة عظيمة في وسط بلاد الأندلس، كانت سرير ملك بني أمية، طولها 14 ميلاً وعرضها ميلان، تقع على النهر الأكبر الذي يعرف بالوادي الكبير. انظـــر: القزوينـــي، زكريا ابن محمد (ت 682ه/1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صـــادر، بيـــروت 1969م، ص552. سيشار إليه فيما بعد: القزويني، آثار البلاد.

(3): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص229.

الغزالي[1]، حيث لازمه في بغداد مدة ثلاث سنوات[2]، وكان هذا اللقاء من الأسباب الرئيسية التي دفعت ابن تومرت وحفزته إلى القيام بدعوته، حيث يذكر أنه بينما كان ذات يوم جالساً في حضرة الغزالي، وصل لهم أنباء قيام المرابطين في المغرب بإحراق وتمزيق كتاب الغزالي المسمى ب " الإحياء "، وهذا ما أغضب الغزالي ودفعه إلى أن يرفع يديه داعياً على المرابطين، قائلاً " اللهم مزق ملكهم، فقال المهدي له: على يدي يا سيدي، فقال: على يدك "[3]، وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم، فقوي طمعه، وتأكدت دعوته بتلك الحادثة، فقفل عائداً من بغداد إلى المغرب بعد أن نال قدراً وافراً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين[4].

ولم ينتظر ابن تومرت حتى يصل المغرب ليظهر دعوته، بل أنه أخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ أن نزل الإسكندرية، فجرت له بها وقائع، وبالغ في الإنكار على أهلها إلى أن طردوه، فركب البحر إلى أن نزل بجاية[5] من بلاد المغرب سنة 511ه/1118م، فأظهر بها تدريس العلم والوعظ

---

(1): أبو حامد الغزالي: هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، من عظام فلاسفة العرب، ولد في مدينة طوس، وتعلم في نيسابور، وأقام في بلاط نظام الملك السلجوقي في بغداد، ثم انتابته حالة دينية روحية فانصرف إلى الحياة الصوفية، توفي سنة 505ه/1111م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ19، ص322-347؛ هونكه، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، وزارة الثقافة، عمان 2013م، ص206. سيشار إليه فيما بعد: هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب.

(2): ابن أبي دينار، المؤنس، ص107؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص237.

(3): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص4.

(4): المراكشي، المعجب، ص136؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص229.

(5): بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري، في حدود 457ه/1065م. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص339.

وبقي ينكر كعادته، فمالت إليه قلوب الناس، مما دفع والي بجاية إلى نفيه[1]، فخرج منها هائما على وجه إلى أن نزل بقرية ملالة[2] التي لا تبعد كثيراً عن بجاية، وبها لقي عبد المؤمن ابن علي - الذي سيخلفه فيما بعد - فصحبه بعد أن وعده بشرف الدنيا والآخرة[3]، وبعد أن أمضى عدة أشهر في ملالة رحل عنها متجهاً نحو الغرب وبرفقته جماعة من أصحابه فيهم عبد المؤمن، حتى وصلوا في منتصف عام 515ه/1121م مدينة مراكش[4]، وملكها يومئذ علي بن يوسف بن تاشفين[5].

وكان ابن تومرت يدّرس مذهبه الجديد في كل مدينة يمر بها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فكان من أهل تلك المدن من يؤمن بمبادئه ويلتحق بدعوته، ومنهم من يرفضها ويعاديه[6]، غير أن المواجهة الأصعب لابن تومرت مع أعداء مذهبه كانت في مراكش دار ملك المرابطين، إذ انه ما أن وصل إليها عام 515ه/1121م حتى أخذ بها كعادته بالنهي عن المنكر؛ فكان يجوب الأسواق آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مكسراً لأواني الخمر والمزامير[7]، وبلغ الأمر ذروته

---

(1): المراكشي، المعجب، ص137؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص76-77.

(2): ملالة: قرية بظاهر بجاية على مسافة فرسخ منها. انظر: السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص230.

(3): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ19، ص542؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص5.

(4): البيذق، أخبار المهدي، ص18-27.

(5): هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، خلف والده في الحكم سنة 500ه/1107م، فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد، فجاز للأندلس في مدة حكمه أربع مرات برسم الجهاد وضبط أمورها، إلا أن الأمور اضطربت عليه من لدن ظهور المهدي سنة 515ه/1121م، فلم يستقيم له الأمر إلى حين وفاته سنة 537م/ 1142م. انظر: مؤلف مجهول (عاش في القرن 8ه /14م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط1، تحقيق: سهيل زكار؛ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1979م، ص84-102. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، الحلل الموشية؛ المراكشي، المعجب، ص130.

(6): علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص57-58.

(7): ابن أبي دينار، المؤنس، ص108.

عندما دخل على أمير المسلمين علي بن يوسف في المسجد الجـــامع، ورفــض أن يحيي الأمير الذي كان متلثماً على عادة المرابطين، وقال لوزرائه " أين الأمير إنما أرى جواري منقبات "[1]، ثم أتبع ذلك توبيخه لأخت الأمير علي بن يوسف عنـــدما لقيها ذات يوم حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم[2].

أثارت هذه الأعمال حفيظة الأمير علي، فشاور وزراءه وفقهـــاءه فـــي أمـــره، وكانوا قد ملئوا من ابن تومرت حسداً لما كان ينتحل مذهب الأشعرية فـــي تأويـــل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف، فأشار الفقهاء عليه بإحضــــاره لمناظرة بين يديه، يدعى لها العلماء من كل جانب ومكان[3].

وعقدت المناظرة، إلا أن ابن تومرت أفحم الجميع وتغلب عليهم، وهذا ما أغاظ وزير الأمير مالك بن وهيب[4] كثيراً، ودفعه للقول في ابـــن تـــومرت أنـــه رجـــل خارجي وأخذ يلح على الأمير علي بإخراجه من المدينة، فكان له ذلك فخرج ابـــن تومرت من مراكش وأقام في مقبرة المدينة حيث بنى له فيها خيمة، وعندما لاحـــظ مالك بن وهيب زيادة تلاميذ ابن تومرت ومحبة الناس له، أخذ يوغر صدر الأميـــر عليه ويخوفه من ناشئة أمره، حيث قال له: " هذا الرجل لم يرد بك إلا شراً اقتلـــه وإلا فخلده في السجن كي لا تسمع له طبلاً، وأظـــن هـــذا هـــو صـــاحب الـــدرهم

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص27؛ عبد الحميد، سعد زغلول: محمد بـــن تـــومرت وحركـــة التجديد في المغرب والأندلس، دار الأحد، بيروت 1973م، ص18. سيشار إليه فيما بعد: عبد الحميد، محمد بن تومرت.

(2): ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص303.

(3): البيذق، أخبار المهدي، ص27؛ ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص303.

(4): مالك بن وهيب: من أهل الأندلس، فقيه وحافظ مشهور، حسن الخط، كانت لديه فنون من العلم، من مؤلفاته كتاب التبصير، وكتاباً سماه " قراضة الذهب في ذكر لئـــام العـــرب ". انظر: الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، جزءان، ط1، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة؛ دار الكتاب اللبناني، بيـــروت 1989م، جـــــ2، ص618. سيشار إليه فيما بعد: الضبي، بغية الملتمس؛ المراكشي، المعجـــب، ص139-140.

المربع"[1]، فلما علم ابن تومرت بما يحيكه له ابن وهيب من مؤامرات قال لأصحابه: " لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب، وإن لنا بأغمات أخاً في الله فنقصده "[2]، فخرج هو وأصحابه من مراكش إلى أغمات، فنزل بموضع منها يعرف بتينملل تسكنه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة، ومن هذا الموضع انطلق ابن تومرت بتعليم الطلبة والقبائل المرشدة في التوحيد، وتمت له البيعة من قبل المصامدة على التوحيد وقتال الملثمين (المرابطين)[3]، ومن هنا قامت دعوة الموحدين.

كانت هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت من ابن تومرت قرابة أربعة عشر عاماً (501-514ه /1108-1121م) هي التي أدت إلى ظهور عقيدة الموحدين، تلك العقيدة التي انتحل المهدي مبادئها من مذاهب شتى، وقدمها لإتباعه على شكل تصانيف ورسائل، فقد كان يرى رأي الشيعة في الإمام المعصوم، فقال أنه لابد منه في كل زمان ومكان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم، فسمى نفسه بالإمام على مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، ثم أردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام[4]، حتى قيل عنه أنه يخفي شيئاً من التشيع[5].

---

(1): ابن أبي دينار، المؤنس، ص108؛ البيذق، أخبار المهدي، ص27؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص5.

(2): السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (771ه/1370م): طبقات الشافعية الكبرى، 10 أجزاء، تحقيق: عبد الفتاح محمد الجلو ومحمود محمد الطناجي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د. ت)، جـ6، ص113. سيشار إليه فيما بعد: السبكي، طبقات الشافعية.

(3): ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت 630ه/1233م): الكامل في التاريخ، 11 جزءاً، ط4، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م، جـ9، ص196-197. سيشار إليه فيما بعد: ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

(4): ابن خلدون، المقدمة، ص230.

(5): السبكي، طبقات الشافعية، جـ 6، ص117.

وتبنى المذهب الظاهري الذي ينتسب إليه الفقيه المشهور ابن حزم الأندلسي(1)، ذلك المذهب الذي يحث على العمل بظاهر نصوص الكتاب والسنة، على اعتبار أن القرآن والسنة هما المصدران الوحيدان اللذان يرجع إليهما في كل الشؤون الدينية(2)، فكان ابن تومرت لا يقبل من الحديث إلا ما كان متواتراً، ويقيد الإجماع في الصحابة وفي أهل المدينة خاصة(3)، أما القياس فهو عنده على ضربين عقلي وشرعي؛ أما العقلي فهو مستبعد عنده في الشريعة لأن العقل ليس فيه كما يقول " إلا الإمكان والتجويز وهما شك، والشك ضد اليقين "(4)، أما القياس الشرعي فيعرفه بأنه هو ما دل عليه اللفظ وتضمنته الأصول العشرة وهي " أمر الله، ونهيه، وخبره بمعنى الأمر، وخبره بمعنى النهي، وأمر الرسول ونهيه، وخبره بمعنى الأمر، وخبره بمعنى النهي، وفعله، وإقراره، وانحصار فروعها وهي الأحكام في خمسة وهي: الواجب والمندوب والمحظورة والمكروه والمباح "(5).

---

(1): ابن حزم الأندلسي: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي، أحد كبار الوجوه العلمية بالأندلس في عصر الطوائف، ولد في قرطبة سنة 384ه/994م، في أسرة ميسورة وكان إماماً حافظاً لعلوم الحديث وفقهه يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، له عدة مؤلفات منها: جمهرة أنساب العرب، وطوق الحمامة، الفصل في الملل والأهواء والنحل، توفي في مدينة لبلة سنة 456ه/1063م. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ1، 340-342؛ اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت 768ه/1367م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، 4 أجزاء، ط1، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م، جـ3، 61-62. سيشار إليه فيما بعد: اليافعي، مرآة الجنان؛ المراكشي، المعجب، ص43-46.

(2): عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص21.

(3): طارو، جان وجيروم: أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق: أحمد بلافريج و محمد الفاسي، المطبعة الوطنية، الرباط 1349ه، ص90. سيشار إليه فيما بعد: طارو، أزهار البساتين.

(4): ابن تومرت، أبو عبدالله محمد (ت 524ه/ 1130م): أعز ما يطلب، تحقيق: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط (د. ت)، ص268. سيشار إليه فيما بعد: ابن تومرت، أعز ما يطلب.

(5): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص268، 277.

وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري[1] في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها[2]، وهذا ما أشار اليه ابن خلدون بقوله إن المهدي جاء " داعياً إلى الحق آخذاً بمذاهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف في مذهب الأشعرية "[3]، حيث كان المهدي قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية؛ من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها بالحجج العقلية، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل[4].

وأخذ ابن تومرت عن المعتزلة إنكارهم للصفات، بمعنى الصاق الصفات الإنسانية بذات الله، فهو يقول في المرشدة: " اعلم أرشدنا الله وإياك أنه واجب على كل مكلف أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه، ليس كمثله شيء.. لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، ليس عليه حق، ولا عليه حكم "[5].

ويبدو أن الظروف التي كانت تعيشها بلاد المغرب عامة مع مطلع القرن السادس الهجري، كانت مواتيه لقبول مثل الدعوة الموحدية، تلك الدعوة التي تقوم

---

(1): أبي الحسن الأشعري: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري، إمام متكلم، إليه تنسب الأشعرية، توفي في بغداد سنة 324ه/936م. انظر: الزركلي، خير الدين: الأعلام " قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين "، 8 أجزاء، ط15، دار العلم للملايين، بيروت 2002م، جـ4، ص263. سيشار إليه فيما بعد: الزركلي، الأعلام.

(2): المراكشي، المعجب، ص141؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ19، ص548.

(3): ابن خلدون، المقدمة، ص230.

(4): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص230.

(5): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص224؛ السكوني، أبو عبدالله محمد بن خليل (ت بعد 646ه/1248م): شرح مرشدة محمد بن تومرت، ط1، تحقيق: يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993م، ص16. سيشار إليه فيما بعد: السكوني، شرح مرشدة محمد بن تومرت.

على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتخذ من التوحيد شعاراً لها، فقد كـــان الفساد قد استشرى بين العامة والخاصة، من اختلاط النســـاء بالرجـــال، وظهـــور الصبيان في زي النساء بالضفائر والزينة والحلي[1]، وتلثم الرجال بعكـــس النســـاء اللواتي كن يخرجن للأسواق سافرات الوجوه[2]، وانتشار بيع الخمرة في الأســـواق جهاراً نهاراً، والإستقواء على اليتامى وأخذ أموالهم بغير حق، وعمل المسلمين فـــي تربية الخنازير وانتشارها بين أحيائهم، وظهور اللصوصية وقطاع الطرق، وغيـــر ذلك من ضروب الفساد التي يطول ذكرها[3].

من هنا فقد نظر العامة للحركة الموحدية على أنها ليست فقط ثورة على النظام الحاكم القائم، بل هي حركة تحمل في طياتها بوادر تجديد وإصلاح للمجتمع الـــذي ابتعد عن الدين، وانغمس في ملذات الحياة، وهذا ما يفسر سر إقبال الناس وخاصـــة البسطاء على الالتحاق بها، إذ لم يتردد الناس في ملاحقة المهدي والاســـتماع إليـــه حتى عندما تم نفيه خارج مدينة مراكش، واتخذ من مقبرة المدينة منزلاً له، ففي أيام قليلة فقط من حادثة النفي زاد عدد الذين بايعوه عن ألف وخمسمائة رجل، وعلى ما يبدو هذا ما اثار نقمة السلطة الحاكمة عليه ممثلة بابن وهيب[4].

وفي ضوء ما سبق نستطيع حصر النقاط الرئيسية للعقيدة الموحدية في أربعة أمور: التوحيد، والإيمان بالمهدوية وعصمة الإمـــام، وإنكـــار التجســـيم وتكفيـــر أصحابه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فأما التوحيد الذي اتخذه ابن تومرت أساساً لمذهبه، وشعاراً لدعوته، فإنـــه فـــي الأصل يعد ركناً أساسياً من أركان الإسلام، إذ أن الإيمان بوحدانية الله جاء في أول أركان الإسلام الخمسة وهي الشهادة، وهناك من يقول إن ابن تومرت أخـــذ فكـــرة

---

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص93.

(2): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص196.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ5، ص50؛ المراكشي، المعجـــب، ص140؛ الســـبكي، طبقات الشافعية، جـــ6، ص112.

(4): ابن أبي دينار، المؤنس، ص108.

التوحيد عن المعتزلة الذين كانوا يطلقون اسم التوحيد على فكرة الله[(1)]، وجاء اختيار ابن تومرت لمبدأ التوحيد نكاية في أعدائه المرابطين الذين كانوا يأخـــذون بظـــاهر الآيات والأحاديث، فلا يؤولون صفات الله مما يؤدي إلى التجسيم.

ويعرف ابن تومرت التوحيد على أنـــه " قـــول لا إلـــه إلا الله فـــي الأولـــين والآخرين"[(2)]، كما يعرفه بقوله " التوحيد هو إثبات الواحد، ونفي سواه مـــن إلـــه أو شريك أو ولي أو طاغوت "[(3)]. وترمي فكرة التوحيد عنـــده إلـــى تصـــور ذات الله تصوراً روحياً صرفاً، مجرداً من كل مادية أو تشبه أو تجسيم وذلك عـــن طريـــق إنكار الصفات، إذ نجده يقول في المرشدة " اعلم أرشدنا الله وإياك أنه وجب علـــى كل مكلف أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه، خلق العالم بأسره.. لا يتمثل في العين، لا يتصور في الوهم، ولا يتكيف في العقل.. ليس كمثله شيء "[(4)].

ويصل ابن تومرت من خلال تصانيفه إلى حقيقة؛ وهي أن الإنسان إذا علم نفي التشبيه بين الخالق والمخلوق، علم وجود الله على الاطلاق، فيقـــول: " فـــإذا علـــم وجوده على الاطلاق علم أنه ليس معه غيره في ملكه، إذ لو كان معه غيره لوجب تقيده بحدود المحدثات، لوجوب كون الغير المستقل منفصـــلاً، والله ســـبحانه لـــيس بمتصل ولا بمنفصل"[(5)]. ويبدو أن اطلاق ابن تومرت على أتباعه لقب الموحدين لم يكن يعني التنزيه في التصور الإلهي، بقدر ما قصد منه رفض الولاء للمـــرابطين، بحيث غدا اطلاق هذا اللقب من حكومة الموحدين على كل من يخضع لحكمهم صفة ظاهرة حتى زوال دولتهم.

---

(1): عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص21؛ بورويبة، رشيد: إبن تومرت، ترجمة: عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982م، ص99. سيشار إليه فيمـــا بعـــد: بورويبة، إبن تومرت.

(2): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص315.

(3): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص313؛ النجار، تجربة الإصلاح، ص90.

(4): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص224.

(5): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص217؛ بورويبة، إبن تومرت، ص100.

أما بالنسبة إلى الإيمان بالمهدوية وعصمة الإمام، فقد جعلها ابن تومرت واجبة على أتباعه، فمنذ أن أدرك قبولهم لفكرة المهدي المنتظر عام 515ه/1121م، تلقب بهذا اللقب وأخذ من أنصاره البيعة على ذلك، وعلى الرغم من أن المهدوية هي من المبادئ الشيعية إلا أن ابن تومرت لم يهدف من ادعائه للنسب العلوي وأنه الإمـــام المعصوم المهدي[1]، تأصيل المذهب الشيعي ونشر مبادئه، بقدر ما كـــان يريـــد أن يجعلها غطاءً سياسياً لا غير، إذ نجده كثيراً ما كان يحاول أن يروج بين أتباعه " أن الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي، وأن المهدي معلـــوم في العرب والعجم والبدو والحضر، وأن العلم به ثابت في كل مكان "[2]، وجعل ابن تومرت الإمامة مطلقة وطاعتها واجبة، وعبر عن ذلك بقوله " هذا باب في العلـــم؛ وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة، وهي ركن مـــن أركـــان الـــدين، وعمـــدة الشريعة، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان إلى أن تقوم الساعة"[3].

وفيما يتعلق بوجوب عصمة الإمام وهي ايضاً من المبادئ الشيعية، فنجد أن ابن تومرت ما لجأ إليها إلا التزاماً بالشروط التي اشترطها أهل السنة والمعتزلـــة فـــي الإمام، لذا فإنه لم يتعامل معها إلا كشكل من أشكال ترسيخ فكرة المهدي، وما جـــاء به من عصمة الإمام يخالف العصمة عند الشيعة[4]، ومع ذلك فقد نجح ابن تومرت في نزع هذه الصفة لنفسه من أتباعه وهذا ما نلمسه في حديث البيذق الـــذي كـــان يحرص على استخدام مصطلح " سيدنا المعصوم "[5] عند كل حديث عنه.

أما عن التجسيم وتكفير أصحابه، نجد أنه في عصر ابن تومرت كان المـــذهب السائد في المغرب هو المذهب المالكي، الذي كان المذهب الرسمي لدولة المرابطين، فنفقت في ذلك الزمان كتب المالكية، ونبذ ما سواها، ولم يكن يقـــرب مـــن أميـــر

---

(1): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـــ19، ص539.

(2): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص294.

(3): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص297.

(4): النجار، تجربة الإصلاح، ص127.

(5): البيذق، أخبار المهدي، ص11-13.

المرابطين وينال الحظوة عنده إلا من كان مالكياً، وقد أدى ذلك الى الابتعاد عن الرجوع إلى كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قبح فقهاء المرابطين علم الكلام حتى أنه عندما دخلت كتب أبي حامد الغزالي للمغرب، أمر بإحراقها[1]، نتيجة لذلك اتهم ابن تومرت المرابطين بالتجسيم والكفر، لأنهم لا يؤولون المتشابه، وإنما يأخذون بظاهره، كذلك لأنهم كانوا يشبهون الله بالصفات المجسمة[2].

وكان المرابطون قد حاولوا في بادئ الأمر مواجهة اتهامات الموحدين لهم بالتجسيم والكفر بجنس ما اتهموهم به، إذ شنوا حملة دعائية واسعة بين الناس تصور الموحدين على أنهم خوارج، يكفرون الناس بالذنوب، ويمنعون الناس من الصلاة على أهل القبلة، ويستحلون الحرام، ويردون المطلقة ثلاثاً إلى زوجها[3].

إلا أن ابن تومرت واجه تلك الحرب الدعائية من خصومه المرابطين باسلوب عقلاني بعيدٍ عن القوة في البداية، فأظهرهم لأتباعه بمظهر المجسمين في عقيدتهم، والفاسدين في حكمهم، واستغل ما اشتهروا به من تلثم الرجال وتسفر النساء، وبإقناع الناس أن المرابطين قد غدو فاسدين يجب ابعادهم عن الحكم، فقال: " وكذلك المجسمين، هم يشبهون النساء في تغطية الوجوه والتلثم والتنقب، ويتشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب، وقد لعن رسول الله، المتشبهات من النساء بالرجال.. وطاعتهم حرام لأنهم كفار، ومنافقون، ومتبعوا الهوى، ومعتدون، ومفسدون، وجاهلون "[4]. وسمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين تمييزاً لهم عن الملثمين الذين عدلوا عن التأويل ومالوا للتجسيم، ووضع باباً خاصاً في كتابه "

---

(1): المراكشي، المعجب، ص131.

(2): الغناي، مراجع عقيلة: قيام دولة الموحدين، ط1، المكتبة الوطنية، بنغازي 1971م، ص202. سيشار إليه فيما بعد: الغناي، قيام دولة الموحدين.

(3): ابن القطان، نظم الجمان، ص67.

(4): ابن القطان، نظم الجمان، ص98.

أعز ما يطلب " عن المجسمين، سماه " باب في بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين وعلاماتهم "[1].

واستمرت الحرب الكلامية بين الموحدين والمرابطين حتى وصل بهم الأمر إلى الحرب المسلحة التي انتهت بانتصار الموحدين والإعلان عن قيام دولتهم عام 541ه/1146م، وظل الموحدون بعد ذلك على نهج ابن تومرت في اتهام كل من خالفهم على أنهم كفرة مجسمين.

وإذا ما وصلنا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجدنا أنه بهذا المبدأ استفتح ابن تومرت دعوته الموحدية، ولا غرو في ذلك خاصة إذا ما علمنا أنه عاد من المشرق بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين[2]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مبدأ خاص بالإسلام وأصل من أصوله، أمر به القرآن الكريم في قوله تعالى " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ "[3]، وحث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " رواه مسلم[4].

من هنا أخذ ابن تومرت على عاتقه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منذ نزوله الإسكندرية عائداً إلى المغرب، فكان كلما نزل بلداً أو موضعاً ظهر بمظهر الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فكان لا يرى منكراً من آلة ملاهي، أو أواني خمر إلا نزل وكسره، ولقي في سبيل ذلك صنوفاً من الأذى والمعاداة[5].

---

(1): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص384.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص230.

(3): سورة آل عمران، آية 110.

(4): النووي، ابن زكريا يحيى بن شرف (ت 676ه/1278م): رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، ط1، شركة القدس للتصدير، القاهرة 2006م، ص83. سيشار إليه فيما بعد: النووي، رياض الصالحين.

(5): السبكي، طبقات الشافعية، جـ 6، ص110.

وبعد أن تمت البيعة له من أصحابه على أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم عام 515ه/1121م، واستوثق منهم " دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير "[1]، كما حرص على أن يضــمن تصــانيفه العقدية هذا المبدأ، لدرجة أنه جعل أصول الشريعة وفروعها منحصره تحت بــاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: إن " أصول الشريعة وفروعها منحصرة، وانحصار أصولها عشرة وهي: أمر الله، ونهيه، وخبره بمعنى الأمر، وخبره بمعنى النهي، وأمر الرسول ونهيه، وخبره بمعنى الأمر، وخبره بمعنى النهــي، وفعلــه، وإقراره، وانحصار فروعها وهي الأحكام في خمسة وهــي: الواجــب والمنــدوب والمحظورة والمكروه والمباح "[2]، وجاء في أحد رسائله لأصحابه الموحدين قوله " وهذه تذكرة ونصيحة، فقد ذكرناكم فتذكروا، ونهيناكم فانتهوا، ونصــحناكم فــاقبلوا "[3]، وقال في أخرى " وائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، واقطعوا المداهنــة وسوء السيرة وجميع عوائد الجاهلية، واللهو، والنياحة والسخط عند المصائب"[4].

وبقي مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركيزة أساسية في سياسة وعقيدة خلفاء ابن تومرت، ونهج حياة للموحدين، وخاصة خلال الشطر الأول من دولــتهم، وليس أدل على ذلك من وصف ابن القطان للخليفة عبد المؤمن بن علي، عندما قال فيه: " فكل حركاته وسكناته أمر بمعروف ونهي عن منكر، وفضل وعدل لا تــزال آثاره تحمد وتشكر، والتعرض للإحصاء، لآحاد ذلك العلاء، ليس بممكن "[5].

نخلص من كل ما سبق ذكره إلى أن عقيدة الموحدين ما هي إلا خلاصة ومزيج لمجموعة من المبادئ التي نادت بها مذاهب وفرق إســلامية أخــرى كالظاهريــة، والأشعرية، والشيعة، والمعتزلة، وضعها مؤسس الدولة الموحدية محمد بن تومرت على شكل مؤلفات ورسائل باللسان البربري كي لا يعسر على أتباعه فهمها، ولعــل

---

(1): عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص28.

(2): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص268.

(3): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص411.

(4): بورويبة، إبن تومرت، ص113.

(5): ابن القطان، نظم الجمان، ص184.

أهمها كتاب " أعز ما يطلب " الذي أوجب المهدي على كل موحدي أن يقرأ حــزب واحد منه يومياً بعد صلاة الفجر[1]، ومن الملاحظ عن عقيدة الموحدين التي تسمى " المرشدة " أنها جاءت خالية من الإثبات الذي عليه طوائف أهل الســنة والجماعــة، وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة، فعندما سئل شيخ الإسلام أحمد بــن تيميــة عــن مرشدة المهدي ابن تومرت، كيف كان أصلها وتأليفها ؟ وهل تجوز قراءتها أم لا ؟ أجاب قائلاً " صاحب المرشدة لم يذكر فيها شيئاً من الاثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الجنــة والنــار، والبعــث، والحساب، وفتنة القبر، والحوض وشفاعة النبي صلى الله عليه وســلم فــي أهــل الكبائر، فإن هذه الأصول كلها متفق عليها أهل السنة والجماعــة، ومــن عــادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة، بل اقتصر فيها على مــا يوافــق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشــيعة "[2]، أما عن جواز قرأتها وتعلمها، فقال " لا حاجة لأحد مــن المســلمين إلــى تعلمهــا وقراءتها، ولا يجوز أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة "[3].

2. **قيام الدولة الموحدية وتوسعها** (515- 558ه/1121-1163م):

شكلت حادثة خروج محمد بن تومرت من مــراكش عــام 515ه/1121م فــي أعقاب توتر العلاقة بينه وبين مالك بن وهيب نقطة البداية فــي انطــلاق الــدعوة الموحدية، ومجاهرة ابن تومرت بالعداء للموحدين.

---

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص81.

(2): ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728ه / 1328م): مسألة في المرشدة، ط1، تحقيــق: علي رضا عبدالله، دار الوطن للنشر، الرياض 1999م، ص32. سيشار إليه فيما بعد: ابن تيمية، مسألة في المرشدة.

(3): ابن تيمية، مسألة في المرشدة، ص36.

فعندما علم ابن تومرت أن القوم يأتمرون به بعد انتصاره عليهم في المنـــاظرة المشهودة، خرج مسرعاً من المدينة خائفاً يترقب حتى وصل أغمات[1]، ومن هنـــاك سار هائماً على وجهه حتى حط به المقام في قرية إيجلي[2] في جبـــل إيجليـــز[3]، مسقط رأسه ومقام أهله وعشيرته قبيلة هرغة[4]، ليقيم في هذا الجبـــل مـــدة ثـــلاث سنوات من 515-518ه/1121-1124م، عكف خلالها في البداية علـــى تـــدريس العلم، فأنشأ رابطة للعبادة لكي تكون مقراً للدرس، ومركزاً لتدبير أمور الـــدعوة[5]، وسرعان ما عظم صيته في ذلك الجبل وكثر أتباعه، فلما رأى ذلك أظهـــر دعوتـــه ودعا الناس إلى بيعته، فبايعه أولاً أصحابه العشرة السابقين إلى دعوته والمصدقين بإمامته البيعة الخاصة يوم الجمعة 15 رمضان 515ه/1121م، وفي اليوم التـــالي وهو يوم السبت خرج وأصحابه العشرة، متقلدون السيوف، وتقدم إلى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس، وأعلم أنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم ودعـــاهم إلـــى بيعته، فبايعوه البيعة العامة، وفي هذا اليوم أطلق على أنصاره اسم "الموحدين"[6].

---

(1): أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب، وهي مدينتان متقابلتان، تسمى إحداهما أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانه، تبعد عن مراكش ثلاثة فراسخ. انظر: يـــاقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ1، ص339.

(2): إيجلي: مدينة عظيمة قديمة في بلاد السوس الأقصى، تبعد عن مدينة تامدلت 6 مراحـــل انظر: مؤلف مجهول (عاش في القرن 6ه/ 12م): كتـــاب الاستبصـــار فـــي عجائـــب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافيـــة العامـــة " آفـــاق عربية "، بغداد 1985م، ص211-213. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهـــول، كتـــاب الاستبصار.

(3): جبل ايجليز: جبل صغير يشرف على مدينـــة مـــراكش. الإدريســـي، المغـــرب وأرض السودان، ص67.

(4): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص196؛ ابن القطـــان، نظـــم الجمـــان، ص78؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص5.

(5): ابن القطان، نظم الجمان، ص78؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص64.

(6): ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776ه / 1374م): تاريخ المغرب العربـــي فـــي العصـــر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعلام الأعلام، تحقيق: أحمد مختـــار العبـــادي ومحمـــد

ولم يلبث المهدي أن حصل على البيعة من أصحابه وأهله المقربين، حتى أرسل دعاته إلى كافة بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيعته ويزرعون محبته في قلوبهم، وفي موازاة ذلك شرع في تأليف عدة كتب لأنصاره باللغتين البربرية والعربية منها كتاب التوحيد " المرشدة " وكتاب " أعز ما يطلب "، وقد نجح ابن تومرت في الاستيلاء على محبة الناس حتى عظموه ظاهراً وباطناً[1]، فلما استوثق منهم ذلك، واجتمع عنده أكثر من عشرين ألفاً، دعاهم إلى خلع طاعة المرابطين ومحاربتهم[2].

ومع زيادة انتشار الدعوة الموحدية وتعاظم أنصارها، بدأت الدولة المرابطية تتوجس منها خيفة، مما دفع الأمير علي بن يوسف إلى أن يأمر عامله على السوس[3] بالعمل على قتل ابن تومرت بأي وسيلة كانت، لكن قبيلة المهدي من المصامدة أفشلت كل مخططات المرابطين في هذا السبيل[4].

وفي سنة 517ه/1123م جهز المهدي جيشاً من المصامدة وأمرهم بالمسير لقتال المرابطين حيث قال لهم: " اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المعصوم، فإن اجابوكم فهم اخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم، فقد أباحت لكم السنة قتالهم "[5]. فلما التقى الجمعان تبادلا الكتب إلا

ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء 1964م، ص269. سيشار إليه فيما بعد: ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص238.

(1): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص238.

(2): ابن أبي دينار، المؤنس، ص109.

(3): السوس: بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية، وقيل السوس كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصى كورة اخرى مدينتها طرقلة، والمسافة بين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص281.

(4): المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت 647ه/1250م): وثائق المرابطين والموحدين، ط1، تحقيق: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1997م، ص83-88. سيشار إليه فيما بعد: المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص67.

(5): المراكشي، المعجب، ص144.

أن الأمر انتهى بالقتال، فانهزم المرابطون وتبعهم الموحدون بالسيف حتى أدخلوهم مراكش وحاصروها اياماً ثم أفرجوا عنها[1].

وعندما لاحظ المهدي زيادة تهديد المرابطين لدعوته الناشئة، وتردد عساكرهم على جبل إيجليز مرة بعد أخرى[2]، فكر في الانتقال إلى مكان أكثر أمناً لتقوى فيه دعوته، فوقع اختياره على تينملل لما كانت تتصف به من منعة وحصانة، فقد قال عنها ابن القطان " ولا أعلم مدينة أحصن ولا أمنع منها، إذ أنها بين جبلين لا يدخلها الفارس إلا من شرقيها أو غربيها، فأما غربيها فطريق أوسع ما به ما يمشي عليه الفارس وحده، وأضيقه ما ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه، لأن الطريق مصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب، إذا ازيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد ومسافاتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم، وكذلك من شرقيها "[3]، فانتقل إليها سنة 518هـ/1124م، وبنى له فيها داراً ومسجداً، ثم أدار على المدينة سوراً وجعل في قمته حصناً يكشف ما وراء الجبل[4].

وبعد أن استقر أمره بتينملل أخذ المهدي بتوجيه الغزاة والجيوش ضد المرابطين وضد كل من تخلف عن بيعته من المصامدة، وخاض في سبيل ذلك عدة معارك كان أشهرها وأعنفها معركة البحيرة سنة 524هـ/1130م، ففي هذه السنة جهز المهدي جيشاً بلغ تعداده زهاء أربعين ألفاً[5]، وجعل على قيادته البشير الونشريسي[6] وعبد

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص238.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص304.

(3): ابن القطان، نظم الجمان، ص140؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ19، ص545.

(4): ابن القطان، نظم الجمان، ص140؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص304.

(5): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص7؛ عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ص70.

(6): البشير الونشريسي: هو أبو محمد عبدالله بن محسن بن يكنيمان، من أهل المغرب الأوسط، لقي المهدي أثناء مروره بجبال ونشريس عندما كان راجعاً من المشرق إلى وطنه، فاعجب به وتبعه حتى صار من أهل الجماعة العشرة، اسند له المهدي مهمة تميز الموحدين، وقيادة جيش الموحدين في معركة البحيرة التي مات بها سنة 524هـ/1130م. انظر: البيذق: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبد الوهاب بن

المؤمن بن علي، وقد زحف الجيش أولاً إلى أغمات فانتصر على جيش المـرابطين هناك، ثم اتبعوهم إلى مراكش حتى وصلوا إلى بستان كبير أمام باب الـدباغين – والبستان يسمى عندهم آنذاك البحيرة فلهذا قيل وقعة البحيرة – فاسـندوا ظهـرهم للبستان واستمروا في محاصرة مراكش أربعين يوماً[1]، في الوقت الذي كـان فيـه الأمير علي بن يوسف يحشد عساكره من جميع أنحاء دولته، فلما اجتمع عنده مـن الجيش ما لا يحصى عدده خرج للموحدين من باب آخر لمراكش وهو باب إيـلان فاقتتل الطرفان واشتدت الحرب، مما جعل الموحـدون يجمعـون صـلاة الظهـر والعصر، ويصلون صلاة الخوف والحرب قائمة، واستمر القتال حتى جن الليل ولم ينقذ من تبقى من الموحدين إلا سقوط المطر، فاستغل الموحـدون تلـك الفرصـة وانسحبوا إلى ديارهم بعد أن فقدوا نصف أهل الجماعة، ومنهم البشير الونشريسي، وقرابة اثني عشر ألفاً آخرين[2]، وقد وصف البيذق هزيمة البحيرة بقولة " هزمونـا بالعشي ونجا الموحدون ومات من مات وافترق الناس "[3]، وكان عبد المؤمن بـن علي قد تولى قيادة الجيش بعد موت الونشريسي، فلما قفلوا عائدين أرسل للمهـدي من يخبره بأمر الهزيمة قبل وصولهم، فسأل المهدي الرسول " عاش أبو محمد عبد المؤمن ؟ قال: نعم، قال له: كأنه لم يمت أحـد ! والبركـة فـي بقائـه، وكـأنكم بالفتح!"[4].

غير أن المهدي لم يعش بعد هذه المعركة طويلاً، إذ كان قد مرض أثناء حصار جيشه لمراكش، فلما بلغه خبر الهزيمة اشتد مرضه حتى توفي بعدها بأربعة أشـهر يوم الأربعاء وقيل يوم الخميس 25 رمضان 524ه/1131م، ودفـن بمنزلـه فـي

منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971م، ص23. سيشار إليه فيما بعد: البيذق، المقتبس.

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص200؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص6-7.

(2): ابن القطان، نظم الجمان، ص161-163؛ بورويبة، إبن تومرت، ص82.

(3): البيذق، أخبار المهدي، ص40.

(4): ابن القطان، نظم الجمان، ص163.

تينملل سراً، وكان قبل وفاته أوصى أصحابه بتقديم عبد المؤمن بن علـــي وتســـليم الأمر إليه ولقبه أمير المؤمنين[1].

وبعد وفاة المهدي بايع أصحابه بالخلافة عبد المؤمن بن علي البيعة الخاصـــة، وكتموا في الوقت نفسه خبر الوفاة قرابة ثلاث سنين إلى أن تمكنـــت الـــدعوة مـــن نفوس كافة أبناء قبائل المصامدة، عندها كشفوا النقاب عن وفاة المهدي وبايعوا عبد المؤمن البيعة العامة في سنة 527هـ/1133م[2].

ويظهر أن عبد المؤمن قد انشغل في السنوات الأولى من ولايته بتثبيت سلطانه، ونشر دعوة الموحدين وتنظيم جيشه، إذ لم يرد خبراً عن قيامه بعمل عسكري كبير ضد المرابطين إلا في سنة 533هـ/1139م، عندما تولى قيادة الجـــيش المرابطـــي تاشفين ابن علي[3]، ولي عهد الدولة المرابطية، وأخذ على عاتقه مطاردة الموحدين، واستئصال دعوتهم التي استفحل أمرها في منطقة السوس بصفة خاصة[4]، فخـــرج إليه عبد المؤمن بجيش من الموحدين يسير متنقلاً بين جبال درن حتى نـــزل فـــي أرض صلبة بين شجر[5]، فتقدم نحوهم تاشفين وحاصرهم في الجبل لمدة ستين يوماً حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فلم يجدوا مناصاً من النـــزول للمـــرابطين فاصطدموا معهم في معركة عنيفة استمرت لمدة يوم وليلة، انهزم الموحـــدون فـــي

---

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص201؛ ابن خلكان، وفيات الأعيـــان، جـــــ 5، ص53؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص7؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص109.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص43؛ ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص305-306؛ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص271.

(3): هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني، بويع له عقب وفاة أبيه سنة 537هـ/ 1142م، وكانت أيام حكمه كلها حروباً مع الموحدين حتى انتهت بمقتله في وهران سنة 539هـ/ 1145م. انظر: الزركلي، الأعلام، جـــ2، ص82-83.

(4): المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص99-100؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص115.

(5): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص201.

أولها وانتصروا في نهايتها، ثم قفل كل منهم عائداً لبلده، فعاد عبد المؤمن لتينملل ورجع تاشفين إلى مراكش[1].

وفي السنة التالية عزم عبد المؤمن الاستيلاء على المغربين الأقصى والأوسط، فغزا غزوته الطويلة على وصف ابن أبي زرع وابن خلدون، والتي استمرت سبع سنوات منذ سنة 534-541هـ/1140- 1146م، والتي بدأها بالزحف نحو الشمال حتى وصل جبال غمارة[2]، ثم اتجه شرقاً فاستولى على عدد من الحصون المرابطية في منطقة المغرب الأقصى[3]، وفي هذه الأثناء توفي الأمير علي بن يوسف سنة 537هـ/1142م وخلفه ابنه تاشفين، وهذا ما شجع عبد المؤمن وأتباعه الموحدين على مهاجمة المرابطين، خاصة بعد أن كانوا قد استولوا على جزء كبير من المغرب الأقصى، فتوجهوا إلى المغرب الأوسط ففتحوا تلمسان[4] سنة 539هـ/1145م، ومنها زحفوا إلى وهران[5] حيث كان يوجد تاشفين فحاصروه بها، فلما اشتد عليه الحصار حاول الفرار ليلاً، إلا أن فرسه سقط به من بعض حافات

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص46-47.

(2): جبال غمارة: من الجبال المشهورة بالمغرب، تسكنه قبائل كثيرة من غمارة، وعلى مقربه منه تقع مدينة فاس، طوله مسيرة 6 أيام وعرضه نحو 3 أيام. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص190.

(3): ابن أبي زرع، علي الفاسي (ت في منتصف القرن 8هـ/ 14م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط 1972م، ص186. سيشار إليه فيما بعد: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص306.

(4): تلمسان: مدينة بالمغرب، وهي في الأصل مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور، إحداهما قديمة تسمى أقادير، والحديثة تسمى تافرزت، تبعد عن مدينة وهران مرحلة واحدة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص44.

(5): وهران: مدينة على ضفة البحر، تقابل مدينة المرية بالأندلس، بينها وبين تلمسان ثلاثة مراحل. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص83-84.

الجبل، فوقع صريعاً في شهر رمضان سنة 539هـ/1145[1]، فنودي بأخيه إســحاق أميراً للمرابطين من بعده.

بعد الاستيلاء على وهران عاد عبد المؤمن إلى المغرب وفتح مدينة فاس[2] سنة 540هـ/1145م بعد حصار استمر قرابة تسعة أشهر، ثم استولى علــى مكنــاس[3] وسلا[4]، وأخيراً دخل مراكش وقتل أخر أمراء المرابطين إسحاق بــن علــي بــن يوسف سنة 541هـ/ 1146م، الذي كان قد تولى الأمر بعد وفــاة أخيــه[5]. وبــذلك استولى عبد المؤمن على جميع بلاد المغرب الأقصى ليصبح الموحدين هم الســادة الجدد على تلك الجهات، ولينقرض خبر دولة المرابطين بعد فترة حكم دامــت مــن أول ظهورهم قرابة تسعين سنة.

لم يكتف عبد المؤمن باستيلائه على المغرب الأقصى، بل رأى أن يمد ســيطرة الموحدين على المغربين الأوسط والأدنى، مستغلاً في ذلك اضطراب بلاد أفريقيــة بسبب تنازع ملوكها من بني زيري بن مناد الصنهاجيين وتطاول العرب الهلالية[6]

---

(1): المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص100؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص8.

(2): فاس: مدينة محدثة أسست عام 192هـ/808م، وهي في الأصل مدينتان كبيرتان، تســمى الأولى عدوة الأندلسيين والأخرى عدوة القرويين، تبعد عن تلمسان مسيرة عشــرة أيــام. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص180-186.

(3): مكناس: مدينة حسنة مرتفعة على الأرض، سميت باسم مكناس البربري لما نزلها وبنيــه عند حلولهم بالمغرب، وتسمى كذلك بمدينة تاقررت. انظر: الإدريسي، المغــرب وأرض السودان، ص77.

(4): سلا: مدينة متوسطة في الكبر، تقع بأقصى المغرب على البحر المحيط، تبعد عن مراكش عشر مراحل. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ3، ص231.

(5): ابن أبي دينار، المؤنس، ص109؛ عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ص71.

(6): العرب الهلالية: هم أخلاطاً من القبائل العربية التي هاجرت من مصر إلى المغــرب فــي منتصف القرن 5هـ/11م، على أثر القطيعة التي حدثت بين صاحب إفريقية الأمير الزيري المعز بن باديس وبين الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر، وأطلق عليهم اسم الهلالية من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، فبني هلال الذين أطلق اسمهم على باقي القبائل العربية إنما يكونون إحدى القبائل العربية التي غزت المغرب، وتنتمي العرب الهلالية إلى ثلاثــة

عليهم، بالإضافة إلى استيلاء فرنجة صقلية النورماند[1] على معظم الثغور من طرابلس إلى تونس[2].

ولم يشأ عبد المؤمن أن ينفرد برأيه في أمر الفتح، فشاور بعض مشايخ الموحدين، فوافقوه، عندها خرج من مراكش في أواخر سنة 546هـ/1151م، وأحاط مشروعه هذا بسرية تامة، حيث أظهر أنه يريد العبور إلى الأندلس، فلما وصل سبتة[3] استدعى فقهاء وأعيان الأندلس وسألهم عن أحوالهم ثم وصاهم وودعهم، ورحل عن سبتة مظهراً أنه يريد العودة إلى مراكش[4]، وقام في هذه الأثناء بمنع الترحال والسفر بين المدن وعين أمناء وحراس على الطرق حتى لا يسلكها أحد فينكشف أمره[5]، ثم سار بخطى سريعة قاصداً بجاية فدخل الجزائر على حين غفلة من أهلها وملكها دون مقاومة تذكر سنة 547هـ/1152م، ومنها سار إلى بجاية وما هي إلا أيام حتى استولى عليها عنوة في نفس السنة، بعد أن فر صاحبها يحيى بن

قبائل هي: قبائل بني هلال ومن بطونها رياح وجشم والأثبج، وقبائل بني سليم أقوى عناصر الهلالية وأعرقها، ومن أهم بطونها زغبة وذباب، وقبائل المعقل وتنقسم إلى ثلاث فروع هي بنو عبيدالله وذوو منصور وذوو حسان. انظر: ابن خلدون، العبر، جـ6، ص17-30؛ أبو ضيف، مصطفى: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، ط1، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1982م، ص197-230. سيشار إليه فيما بعد: أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية.

(1): النورماند: هم من الشعوب الاسكندنافية الذين استقروا في شمال فرنسا، ومنحهم ملك فرنسا سنة 299هـ/911م المقاطعة التي عرفت باسمهم نورمانديا، فاختلطوا بالشعب الفرنسي ثم استولوا على انجلترا وايطاليا وامتد نفوذهم إلى شمال أفريقية. انظر: هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص62.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص258؛ أبو رميلة، هشام: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، دار الفرقان، عمان 1984م، ص61. سيشار إليه فيما بعد: أبو رميلة، علاقات الموحدين.

(3): سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص182.

(4): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص258.

(5): البيذق، أخبار المهدي، ص73.

عبد العزيز الصنهاجي (515-547ه /1121-1152م) آخر ملــوك بنـــي حمـــاد الزيريين الصنهاجيين، وولى عليها ابنه عبدالله وعاد هو إلى مـــراكش ســـنة 548ه /1153م[1].

وفي سنة 553ه/1158م عاد عبد المؤمن بن علي ليقود حملـــة جديـــدة نحـــو تونس، وهدف من هذه الحملة أمرين، أولاً: وضع حد لعصيان القبائل العربية فـــي تونس، الذين هزموا ابنه السيد عبدالله ســـنة 552ه/1157م[2]، وثانيـــاً: التصـــدي لاعتداءات النورمانديين الذين تمكنوا من احتلال العديد من أقاليم تـــونس وبخاصـــة مدينة المهدية[3].

غادر عبد المؤمن بن علي مراكش في أواخر سنة 553ه/1158م علـــى رأس جيش عظيم قدر بمائة ألف فارس، وبدأ حملته بالاستيلاء على مدينة تـــونس عنـــوة سنة 554ه/1159م، ثم توجه إلى المهدية التي كانت تمتاز بحصانة أسوارها، وقوة حاميتها من الفرنج النورماند، فحاصرها براً وبحراً قرابة سبعة أشهر، وعندما يأس النورماند من فك الحصار راسلوا عبد المؤمن على تسليمه المدينة مقابل تأمينة على أرواحهم، فوافقهم على ذلك شريطة خروجهم من البلد، وتم تجهيز ســـفن موحديـــة نقلتهم إلى صقلية، ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية في محرم 555ه/ كانون ثـــاني 1160م[4]. ولم تنته هذه السنة حتى كان الموحدون قد فرضوا سيطرتهم على كامل إفريقية وطرابلس[5]، لتتحقق بذلك وحدة بلاد المغرب تحت سلطان الموحدين بـــدءاً من طرابلس وحتى البحر المحيط (الأطلسي)، وتخليداً لانتصارات هذه السنة وعظم

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص74؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 193.

(2): المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص112.

(3): المهدية: مدينة عظيمة بناها عبدالله الشيعي، تبعد عن مدينة القيروان 60 ميلاً، ويحيط بها البحر من جميع جهاتها، إلا من الجانب الغربي. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصـــار، ص117.

(4): المراكشي، المعجب، ص168-169؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص110.

(5): طرابلس: مدينة حصينة في نحر البحر، كثيرة شجر التين والزيتون، بينها وبـــين مدينـــة صرت من جهة الشرق 230 ميلاً. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص121-122.

ما حصل فيها من فتوحات أطلق الموحدون عليها اسم سنة الأخماس؛ لأنها توافــق سنة خمس وخمسين وخمسمائة[1].

أما فيما يتعلق بضم الأندلس لسلطان الموحدين، نجد أن الخليفة عبد المؤمن بن علي قد أرجأ أمرها إلى أن ينتهي من الإجهاز على المرابطين في المغرب، وما أن تم له ذلك حتى بادر بإرسال الجيوش تلو الأخرى لإخضاعها لأمره، وكانت أحوال الأندلس قد اضطربت مع نهاية حكم المرابطين، إذ أدى تصدي المرابطين لــدعوة المهدي إلى انشغالهم عن الاهتمام بالأندلس من ناحية، ومن ناحية أخرى سحب عدد كبير من قواتهم بالأندلس للاستعانة بها في مواجهة الموحدين[2]، وهذا مـــا اســتغله الاسبان وبعض رؤساء الأندلس؛ فالأسبان تكالبوا على الأندلس واستطاعوا احــتلال الكثير من الثغور والمدن الأندلسية، أما الرؤساء الأندلسيين فقــد انتهــزوا انشــغال المرابطين بحرب الموحدين في المغرب، فثاروا عليهم وطردوا ولاتهــم وأعلنــوا أنفسهم حكاماً مستبدين في نواحيهم، حتى كادت الأندلس أن تعود ســيرتها الأولــى زمن ملوك الطوائف[3].

في ظل هذه الأوضاع روج عبد المؤمن لعدالة القضية الأندلسية، وأظهر نفســه من خلال استقباله لبعض الثوار وأعيان الأندلس على أنه المخلّص لهم مــن جــور الثوار الجدد وولاة المرابطين، والمنقذ لهم من اعتداءات الأسبان، وكان لذلك أثــر كبير في مبايعة عدد كبير من ولاة الأندلس للموحدين، فبينما كــان عبــد المــؤمن يحاصر مراكش سنة 541ﻫ/ 1146م، قدم إليه وفد يضم عدداً من أعيان الأنــدلس،

---

(1): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص12.

(2): الدوري، تقي الدين عارف: تاريخ العرب المسلمين وحضــارتهم فــي الأنــدلس، ط1، منشورات جامعة ناصر الخمس، ليبيا 1997م، ص263. سيشار إليه فيما بعد: الــدوري، تاريخ العرب المسلمين.

(3): المراكشي، المعجب، ص154؛ دندش، عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين – عصر الطوائــف الثــاني 510-546ﻫ/1116-1151م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م، ص103-104. سيشار إليه فيما بعد: دندش، الأنــدلس في نهاية المرابطين.

ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها لـــه، ودخـــولهم فـــي طاعـــة الموحدين، فأكرم عبد المؤمن وفادتهم، ووعدهم بتقديم النصرة لهم ضد الفرنج[1].

على أثر ذلك بعث عبد المؤمن ثلاثة جيوش تحت قيادة ثلاثة من أشياخ الموحدين لقتال كل من يرفض إعلان الولاء والطاعة للموحدين من ثوار ومرابطين، وقد جعل على قيادة الجيش الأول بدران بن محمد المسوفي، وأسند قيادة الجيش الثاني إلى موسى بن سعيد، بينما جعل على قيادة الجيش الثالث عمر بن صالح الصنهاجي، وعبرت هذه الجيوش للأندلس بعد فتح مراكش سنة 541هـ/1147م[2]، واستطاعوا الاستيلاء على جزيرة طريف[3](Tarifa) والجزيرة الخضراء[4] (Algeciras)، ثم ساروا إلى شريش[5](Jerez) ففتحت طواعية، فسمى الموحدين أهلها بالسابقين الأولين لأنها أول بلد فتحت من الأندلس[6]، ثم قصدوا لبلة[7]

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص342-343.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص255.

(3): طريف: جزيرة على البحر الشامي في أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمة، بينها وبين الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. انظر: الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 866هـ/1461م): الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1984م، ص392. سيشار إليه فيما بعد: الحميري، الروض المعطار.

(4): الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، يقابلها من بلاد المغرب مدينة ســبتة حيــث يضرب بسورها ماء البحر، وأعمالها متصلة بأعمال شذونة، بينها وبــين قرطبــة خمســة وخمسون فرسخاً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ2، ص136.

(5): شريش: مدينة من كور شذونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص340.

(6): دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص105-106.

(7): لبلة: مدينة قديمة في غرب الأندلس، بينها وبين طلياطة مرحلة من عشرين ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص507-508.

(Niebla) وشلب[1](Silves) وباجة[2] (Beja) وبطليوس[3](Badjoz) وطلياطة[4] (Tejada) فافتتحوها طواعية على التوالي، ومن ثم توجه الموحدين إلى إشبيلية[5] (Sevilla) وضربوا عليها الحصار براً وبحراً إلى أن افتتحوها في شعبان 541هـ/ كانون ثاني 1147م، وأعقب هذا الفتح قدوم وفد من أهل الأندلس سنة 542هـ/1148م للخليفة عبد المؤمن وهو في مراكش فأحسن استقبالهم وأكرم نزلهم وعادوا لبلادهم فرحين بما حصلوا عليه من جوائز وأعطيات[6].

غير أنه لم تكد جيوش الموحدين تغادر الأندلس حتى عاد ثوار الأنـــدلس إلـــى الخروج على طاعة الموحدين مرة أخرى، حتى لم يبق على طاعة الموحدين سوى مدينة شريش، ولما علم عبد المؤمن بهذه النكسة بادر بإرسال جيش موحدي كبيـــر إلى الأندلس سنة 543هـ/1148م، تمكن من استعادة نفوذ الموحـــدين علـــى جميـــع المناطق المرتدة في غرب الأندلس، كما استولوا في هذه السنة على مدينة قرطبة[7].

(1): شلب: مدينة بالأندلس، وهي قاعدة كورة أكشونبة، منها إلى مدينة بطليوس ثلاث مراحل. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص342.

(2): باجة: مدينة وكورة بالأندلس، تتصل بكورة ماردة، لها مدن ومعاقل وأقاليم، ومن مـــدائنها القصر وأورش، مسافة ما بينها وبين ماردة للراكب ثلاثة أيام. انظر: ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي الأندلسي (عاش في القرن 6هـ/12م): قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابـــن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق: لطفي عبد البـــديع، مجلـــة معهـــد المخطوطات العربية، مج 1، جـــ2، نوفمبر 1955م، ص290. سيشار إليه فيما بعد: ابـــن غالب، فرحة الأنفس.

(3): بطليوس: مدينة بالأندلس من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلاً، وبينها وبين قرطبـــة ســـت مراحل. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص93.

(4): طلياطة: ناحية بالأندلس، بينها وبين اشبيلية محلة من عشرين ميلاً. انظـــر: الحميـــري، الروض المعطار، ص395.

(5): إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس، تقع إلى الغرب من مدينة قرطبة بينهما ثمانون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص58-59.

(6): ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص313.

(7): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص256؛ دندش، الأندلس في نهاية المـــرابطين، ص108-110؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص183-184.

وفي سنة 551هـ/1156م ملك الموحدين مدينة غرناطة[1](Granada)، وفي السنة التالية 552هـ/1157م كان الفتح الأهم بالنسبة للموحدين وهو تحريرهم مدينة المرية[2](Almeria) من قبضة الأسبان التي كانوا قد احتلوها عام 542هـ/1147م[3]، وباستعادتها توحدت معظم بلاد الأندلس الإسلامية تحت سلطان الموحدين.

وعلى الرغم من إحكام الموحدين سيطرتهم على بلاد الأندلس الإسلامية، إلا أن الأسبان بالتعاون مع بعض المتواطئين معهم من الأندلسيين، عادوا يجددون هجماتهم على المدن الإسلامية، مما جعل الأندلسيون يعودون لالتماس النجدة من الموحدين، ولم يتأخر عبد المؤمن من إجابة نداء الاستغاثة، فعبر بنفسه للأندلس سنة 555هـ/1160م وقيل سنة 556هـ/1162م، وافتتح في طريقه مدينة جبل طارق[4](Gibraltar) التي أمر ببنائها، وضمت جيوشه جميع المدن الإسلامية في الأندلس إلى سلطان الموحدين، واتخذ من إشبيلية حاضرة لدولته في الأندلس[5].

وفي سنة 557هـ/1162م تاقت نفس عبد المؤمن للجهاد خاصة بعد أن دانت له بلاد المغربين وأفريقية والأندلس، فعزم على غزو بلاد الفرنج في الأندلس براً وبحراً، وجهز لهذه الغاية جيشاً بلغ قوامه ثلاث مائة ألف فارس، غير أن القدر

---

(1): غرناطة: مدينة قديمة بالأندلس، تقع بالقرب من البيرة، وهي من أحسن مدن الأندلس وأحصنها، ومعناها الرمانة بلغة الأندلسيين. انظر: القزويني، آثار البلاد، ص547.

(2): المرية: مدينة محدثة بالأندلس على ساحل البحر المتوسط، أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 344هـ/955م. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص537-538.

(3): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص416-417.

(4): جبل طارق: هو جبل منقطع عن الجبال في الزقاق بين الأندلس وبلاد المغرب، سمي بهذا الاسم نسبة إلى طارق بن زياد، بينه وبين الجزيرة الخضراء ستة أميال. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص177.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص112؛ الدوري، تاريخ العرب المسلمين، ص263؛ سالم، السيد عبد العزيز: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية 1985م، ص21. سيشار إليه فيما بعد: سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام.

عاجله فتوفي في مدينة سلا وهو في طريقه للعبور إلى الأندلس في جمادى الآخــرة سنة 558ه/ أيار 1163م، واحتمل إلى تينملل ليدفن إلى جانب شيخه المهــدي بــن تومرت[1].

---

(1): المراكشي، المعجب، ص173؛ ابن الأثير، الكامــل فــي التــاريخ، جـــ9، ص461؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص274-275.

الفصل الأول

الخليفة أبو يعقوب: نشأته وحياته وأعماله قبيل توليه الحكم

1.1 اسمه ونسبه ولقبه:

هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يعلا بن علي بن حسن بن نصر ابن الأمير أبي نصر بن مقاتل[1]بن عون الله بن يحيى بن ورزايع بن سطفور بن نفور ابن مطماط بن هودج بن قيس بن غيلان بن مضر[2]، وقد كثر الاختلاف بين المؤرخين في صحة هذا النسب، غير أن البيذق يذكر أن الصحة من هذا النسب ينتهي إلى مقاتل بن عون الله، " والأسماء ما بعد عون الله إلى قيس بن غيلان ابن مضر فيها اختلاف وتصحيف وتأخير "[3].

وأمه امرأة حرة هي صفية [4]وقيل زينب[5] وقيل عائشة[6] بنت أبي عمران موسى ابن سليمان الضرير، وموسى هذا هو من شيوخ أهل تينملل وأعيانهم، كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن في تينملل، ولم يكن للخليفة يوسف من الأشقاء من أمه إلا أخيه الأكبر أبو حفص عمر[7].

ويرجع في نسبه إلى قبيلة كوميه إحدى قبائل البربر المصمودية، التي كانت تتواجد ببلاد المغرب الأوسط بالقرب من مدينة تلمسان، الذين انتقل معظمهم في

---

(1): البيذق، المقتبس، ص13.

(2): المراكشي، المعجب، ص148؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص199؛ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص271.

(3): البيذق، المقتبس، ص14.

(4): البيذق، أخبار المهدي، ص76.

(5): المراكشي، المعجب، ص174.

(6): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص205.

(7): المراكشي، المعجب، ص174؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص210.

عهد والده الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى حاضرة الدولة مراكش فاشتد بهم عضد الخلفاء[1].

أما عن كنيته فهو أبو يعقوب نسبة لأكبر أبنائه " يعقوب المنصور "، الذي تولى الخلافة من بعده، وتلقب بأمير المؤمنين[2]، والخليفة الامام[3]، والملــك الأســعد[4]، ولقبه الكثير من المؤرخين بالسلطان، والسلطان الكبير[5].

2.1 مولده ونشأته وأبنائه:

ولد الخليفة أبو يعقوب يوسف في مدينة تينملل، يوم الخميس 3 رجب من ســنة 533ه/6 أيار 1139م[6]، ونشأ في أحضان والده عبد المؤمن بن علي الذي عــرف عنه غزارة علمه وحبه للجهاد، وكانت السنوات الثمان الأولى من عمره، قد شهدت الحرب الضروس التي كان يخوضها والده مع دولة المرابطين والتي انتهت بنصـــر حاسم للموحدين بسقوط مراكش دار ملك المرابطين بيد الخليفة عبد المــؤمن فـــي أواخر سنة 541م /1147م[7]، لتنتقل بذلك أسرة أبو يعقوب يوسف من تينملل حيث

---

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص446.

(2): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص157؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (774ه / 1372م): البداية والنهاية، 20 جزءا، ط2، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2010م، جــ 9، ص461. سيشار إليه فيما بعد: ابن كثير، البداية والنهاية.

(3) : ابن القطان، نظم الجمان، ص206.

(4): ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي (كان حياً سنة 594ه/ 1198م): المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، ط1، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت 1964م، ص276. سيشار إليه فيما بعد: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة.

(5): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ21، ص199؛ الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص352.

(6): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص158؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص205.

(7): ابن أبي دينار، المؤنس، ص109.

الحياة الجبلية الصعبة، إلى مدينة مراكش حيث القصور المترفة والبساتين اليانعـــة، ليفتح أبو يعقوب يوسف عينية على حياة جديدة مليئة بالعمل والتدريب والتهذيب، فقد كان الخليفة عبد المؤمن يولي أبناءه ومنهم أبو يعقوب يوسف عنايته الشديدة، فكـــان يطعمهم الطعام الحسن ويلبسهم مثل ما يلبس من الثياب، وكان يعلمهم منذ صغرهم الدين ويشتد عليهم فيه ويعلمهم الأذان، ويحرص علـــى تعلـــيمهم الرمـــي والعـــوم وركوب الخيل والتدرب عليها مع صغار الطلبة من الموحدين، وكان مـــن حـــرص عبد المؤمن على تأديب ابنه أبو يعقوب؛ أنه يأخذه لحضور الصلوات الخمس فـــي الجماعات، وقراءة حزب من القرآن الكريم إثر كل صلاة، والحضور مع المـــؤذنين في الأسحار لارتقاب الفجر والمنازل[1]، وفي قراءة العلم بين افاضل العلماء[2].

وقد أثرت هذه التربية في حياة وشخصية أبي يعقوب، فنشأ وعاش رقيق اللسان، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، بعيد الهمة سخياً جواداً، فاضلاً عـــدلاً ورعاً جزلاً مستظهراً للقرآن كتاب الله تعالى بشرحه في ناسخه ومنسوخه[3]، ولعل هذه الصفات التي تميز بها هي التي أهلته لتولي أمر الموحدين بعد وفاة والده، إذ أن أخيه أبو حفص عمر قدمه على نفسه لأنه كان يعلم أن تدبير المملكة وضبط أمـــور الرعية لا يصلح لها إلا أبو يعقوب، فبايعه أبو حفص وبايعه الناس واتفقت الكلمـــة عليه[4].

وتزوج الخليفة أبو يعقوب في بادئ حياته من امرأة نصرانية أســـلمت تـــدعى "سحر"[5]، كان قد أهداها له أحد زعماء الأندلس، وهو سيدراي بن وزير[6] صاحب

---

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص172.

(2): اليافعي، مرآة الجنان، جـــ3، ص316.

(3): المراكشي، المعجب، ص175؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص233.

(4): المراكشي، المعجب، ص174.

(5): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـــ21، ص312؛ يسميها المراكشي " ساحر "، انظر: المراكشي، المعجب، ص192.

(6): هو أبو محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي، أحد الثوار الذين قاموا بالأندلس في أعقاب دولة المرابطين، ثم انتظم في سلك الدولة الموحدية وصار من خيرة رجالها، وشارك في عدة غزوات لحسابها، وكان يجيد اللغة الاسبانية، وتوفي بعد سنة

باجة وشلب وأحوازهما سنة 552ه/1157م، في مطلع ولايته لأبيه على إشــبيلية، وهي التي أنجبت له ابنه يعقوب الخليفــة مــن بعــده الملقــب بالمنصــور ســنة 555ه/1160م[1]، ثم تزوج ثانياً من امرأة صنهاجية تسمى " مريم "، من أهل قلعة بني حماد[2]، أنجبت له أربعة ذكور وأربع إناث، ثم تزوج ثالثاً من امــرأة ســكتت المصادر عن ذكرها أنجب منها أيضاً أربعة ذكور[3]، كذلك عرفنا من زوجاته امرأة تدعى " فاطمة " وهي ابنة الشيخ اسماعيل بن يحيى الهزرجي (ت 555ه/1160م) - وهو أحد أصحاب ابن تومرت العشرة - طال عمرهــا لمــا بعــد ســنة 611ه /1214م، ولم يترك منها عقب[4]، وفي سنة 570ه/1175م تــزوج مــن زوجتــه الشهيرة التي تغنت المصادر في ذكرها ووصفها، وهي " زائدة " وقيــل " صــفية " بنت محمد بن مردنيش أحد زعماء وثوار الأندلس الذي وقعت بينه وبين الموحدين حروب طويله، وتم زفافه اليها ليلــة الســبت الخــامس لربيــع الأول مــن ســنة 570ه/1175م في حفل زواج عظيم قال عنه ابن أبي زرع بأنه يقصر اللسان عــن وصفه[5]، وكان صداقها خمسين ديناراً إلا أن الخليفة أبو يعقوب وجه اليهــا ألــف دينار عيناً تأنيساً لها، ولما وصلت إليه مع خادماتها أعطى كل واحدة منهن بركــة

565ه/1169م بقليل. انظر: ابن الآبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت 658ه/ 1259م): الحلة السيراء، جزءان، ط2، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة 1985م، جــ2، ص271. سيشار إليه فيما بعد: ابن الآبار، الحلة السيراء؛ البيذق، أخبار المهدي، ص87.

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص555؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص216.

(2): قلعة بني حماد: هي قاعدة ملك بني حماد بن يوسف الملقب بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي البربري، وهو أول من أحدثها في حدود سنة 370ه/981م، وهي قرب أشير من أرض المغرب الأدنى. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ4، ص390.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206؛ حسن، إبراهيم علي: يعقوب المنصور الموحدي، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1986م، ص22. سيشار إليه فيما بعد: حسن، يعقوب المنصور الموحدي.

(4): المراكشي، المعجب، ص172.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

كبيرة، ووهـب للزوجـة جميـع مـا اهـدي إليـه مـن اخوتهـا عنـد فتحـه لمرسية[1](Murcia)، وكانت زائدة زرقاء العينين، شقراء، فائقة الجمال، مما جعلها تحظى بتقدير الخليفة وإعجابه، فقدمها على جميع نسائه " حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء المردنيشية "[2].

وترك الخليفة أبو يعقوب من الأبناء الذكور ثمانية عشر، هم يعقوب المنصـور خليفته في الحكم وشقيقه إسحاق ويحيى من الزوجة الأولى، وإبراهيم وشقيقه موسى وإدريس وعبد العزيز من الزوجة الثانية، وأبو بكر وشقيقه عبدالله وأحمد ويحيى من الزوجة الثالثة، ولعل محمد وعمر وعبد الرحمن وعبد الواحد وعبد الحق وإسـحاق وطلحه من زوجته زائدة المردنيشية[3]، أما عن البنات فمن المؤسف أننا لا نعـرف عددهن ولا الشيء الكثير عنهن باستثناء واحدة لعلها أشهرهن وهي " زينب " التـي اشتهرت بعلمها وفهمها، وقد كانت ولدت بالأندلس، وتفقهت على كبار مشايخ العلـم في المغرب والأندلس، وكانت عالمة بعلم الكلام وأصول الـدين، صـائبة الـرأي، فاضلة الصفات، معروفة بالتفوق على نساء أهل زمانها متحدثة بنباهة شأنها، شُـهد لها بالباع في علوم العقل والنقل، وبالقدرة الفائقة على مجابهة الرجال ومقـارعتهم،

---

(1): مرسية: مدينة بالأندلس، وهي قاعدة تدمير، بناها الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم سنة 216هـ/ 832م. انظر الحميري، الروض المعطار، ص539.

(2): ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/ 1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين -، ط1، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ دار الثقافة، الدار البيضاء 1985م، ص135. سيشار إليه فيما بعد: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين؛ ابن الخطيب: تاريخ إسبانية الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ط2، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت 1956م، ص271. سيشار إليه فيما بعد: ابن الخطيب، أعمال الأعلام.

(3): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص157؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص166؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص138.

تزوجها ابن عمها أبو زيد بن أبي حفص عمر بن الخليفة عبد المؤمن، ولم نعثر لها على تاريخ ولادة أو وفاة[1].

وتملّك الخليفة أبو يعقوب صفات جسمية أشار لها بعض المؤرخين منها أنه كان شاباً مليحاً، أبيض اللون تعلوه حمرة، مستدير الوجه، أشعر اللحيــة، شــديد ســواد الشعر، واسع العينين، تام القامة، أعسر أيسر يعمل بيديه جميعاً، في صوته جهارة، وكان عاقلاً صالحاً ورعاً فاضلاً، محباً للجهاد، واشتهر عنه أنه لما ولي الخلافة أخذ بنهج أبيه وسلك سبيله واهتدى بهدية واقتدى بأفعاله[2].

3.1 حياته العلمية:

نشأ الخليفة أبو يعقوب في بيت محب للعلم، مجلاً لقدره ولقدر العلماء، فقد كان والده الخليفة عبد المؤمن " مؤثراً لأهل العلم، محباً لهم، محسناً إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى السكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم "[3]، وكان من العلماء الذين استدعاهم الخليفة عبد المؤمن لتأديب ابنه أبو يعقوب وسائر أخوته، المؤدب أبا جعفر أحمــد بــن عبــد الجليــل التدميري[4] الذي كان متقدماً في صناعة اللغة العربية، والمؤدب أبا العباس أحمــد

---

(1): ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، 4 أجزاء، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت 1995م، جــ4، ص262. سيشار إليه فيما بعد: ابن الآبار، التكملة.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جــ7، ص134؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص205؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ21، ص99.

(3): المراكشي، المعجب، ص150.

(4): هو أحمد بن عبد الجليل بن عبدالله التدميري، سمع من أبي علي بمرسية في سنة 510ه/1116م، وسكن المرية وأخذ بها عن أبي الحجاج بن يسعون وغيره، له شرح في أبيات الجمل للزجالي، توفي سنة 555ه /1160م. انظر: ابن الآبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ط1، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1989م، ص48-49. سيشار إليه فيما بعد: ابن الآبار، المعجم.

ابن حسن الجراوي[1]، الذي كان من كبار النحاة والأدباء بالأندلس، سار إلى مراكش بطلب عبد المؤمن فأدب بنيه، فسما قدره وعظم صيته [2].

من هنا فلا عجب أن ينشأ الخليفة أبو يعقوب على إيثار العلم، وتعلقه الشديد به، إذ نجد أنه عندما أرسله أبيه والياً على إشبيلية عام 551ه/1156م، صرف جل عنايته هناك إلى تعلم اللغة العربية والنحو والقرآن الكريم، حيث لقي بها رجالاً متفوقين في مختلف أنحاء المعرفة والأدب، منهم الأستاذ اللغوي المتقن، والنحوي الجليل أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الملك[3]، فأخذ عنهم جميع معارفهم وبرع في كثير منه[4]، حتى غدا أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها وآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس الفاظاً للقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية[5].

ويبدو أن فترة ولايته لإشبيلية قد أثرت فيه كثيراً من الناحية العلمية، وذلك لأن أهل الأندلس كانوا أحرص الناس على التميز في فنون العلوم " فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعه، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه

---

(1): هو أحمد بن حسن سيد الجراوي المالقي، من كبار النحاة والأدباء بالأندلس، درس النحو والأدب كثيراً، وكان شاعراً كاتباً بليغاً، انتقل لمراكش بطلب الخليفة عبد المؤمن، وبها توفي بعد سنة 560ه/1165م. انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911ه/ 1505م): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جزءان، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، (د. م) 1979م، جــ1، ص302. سيشار إليه فيما بعد: السيوطي، بغية الوعاة.

(2): غضبان، أكرم حسين: التأديب في عهد الموحدين، مجلة اداب البصرة، العدد 44، لسنة 2007م، ص137. سيشار إليه فيما بعد: غضبان، التأديب في عهد الموحدين.

(3): هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن منذر بن سعيد المعروف بابن ملكون، له ذكر في جمع الجوامع، من مؤلفاته شرح الحماسة، والنكت على تبصرة الصيمري، توفي سنة 584ه/1188م. انظر: السيوطي، بغية الوعاة، جــ1، ص431.

(4): المراكشي، المعجب، ص175.

(5): الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص352-353.

ويحال عليه"[1]. وهذا ما دفع خليفتنا لإيثار العلم، والتعطش في طلبه، والإكثار مــن مجالسة العلماء، فكانت فترة ولايته لإشبيلية هي ما صنعت عقليته العلميــة، حتــى أصبح كوكباً لامعاً ونبراساً ساطعاً في العلم، فحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، وحفظ القرآن الكريم مع جمله صالحة من الفقه، وحفــظ اللغــة العربيــة وتبحّر في علم النحو، مع تضلعه الواسع في علم الفلسفة والحكمة، إذ كان ميله لهما أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم[2]، وكل ذلك في حياة والده وقبــل أن يســتقر أمر الموحدين إليه.

ثم عندما آلت إليه مقاليد الحكم سنة 558هـ/1163م، واستقرت قواعــد ملكــه، وصلحت عليه الأمور، وكان قد حصّل معرفــة واســعة فــي العلــوم الشــرعية والأصولية، وإحاطة تامة في علوم العقائد الموحدية التي أملاها الإمام المهــدي[3]، انصرف إلى النظر في علوم الطب والفلسفة، فضم إلى بلاطه جماعة مــن أعظــم أساتذة الفكر العالمي في عصره، يأتي في مقدمتهم طبيبه الخاص الفيلسوف أبو بكر محمد ابن طفيل[4]، الذي كان من أعظم فلاسفة المسلمين على الإطــلاق، وتلميــذه الفيلسوف النابغة القاضي أبو الوليد بن رشد[5]، المعروف بالحفيد، والطبيب الفذ أبو

---

(1): المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/ 1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 8 مجلدات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968م، مج1، ص220. سيشار إليه فيما بعد: المقري، نفح الطيب.

(2): اليافعي، مرآة الجنان، جــ3، ص316؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص284.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص233.

(4): هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي من أهل وادي آش، يكنى أبا بكر، كان عالماً حكيماً فيلسوفاً وطبيباً ماهراً، من مؤلفاته: رسالة حي بن يقظان، والأرجوزة الطبية المجهولة، وتوفي بمراكش سنة 581هـ/1185م. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 4 مجلدات، ط1، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة 1974م، مج2، ص478-482. سيشار إليه فيما بعد: ابن الخطيب، الإحاطة؛ الزركلي، الأعلام، جــ6، ص249.

(5): هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في قرطبة سنة 520هـ/1126م، عني بكلام أرسطو وترجمه للعربية، له أكثر من خمسين كتاباً، منها فلسفة ابن رشد، وتهافت

بكر بن عبد الملك بن زهر[1]، الذي كان مقامه في الأندلس إلا أنه كان كثير التردد على مراكش حتى انتقل اليها بجملته وأهله سنة 578ه/1182م فأقام بها إلى وفـــاة الخليفة أبو يعقوب سنة 580ه/1184م[2]. ويبدو أن ابن طفيل قد حاز على مكانـــة الحظوة عند الخليفة من بين هؤلاء، إذ كان أبو يعقوب لا يصبر على فراقه ويصحبه في كل أموره، وبلغ من شغفه به وحبه له أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً لـــيلاً ونهاراً لا يظهر[3]، ولو لم يكن أبو يعقوب نفسه ضلوعاً في علم الفلسفة لمـــا أقـــام عنده ابن طفيل على هذا النحو.

ونورد هنا خبر عن لقاء أو اجتماع دعي إليه الفيلسوف ابن رشد، بمحضر كل من الخليفة أبو يعقوب يوسف والحكيم ابن طفيل، إذ صوّر لنا هذا اللقاء الذي روى أخباره ابن رشد إلى تلامذته، مدى المكانة العلمية التي وصل اليهـــا الخليفـــة أبـــو يعقوب في مجال الفلسفة، حيث قال (ابن رشد): لما دخلت على أمير المؤمنين أبـــي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل، فأخذ أبو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وســـلفي ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لم يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي ونسبي أن قال لي: ما رأيهم – أي الفلاســـفة – بالســـماء،

التهافت، توفي سنة 595ه/1198م. انظر: النباهي، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن (كان حياً عام 793ه/1431م): تاريخ قضاة الأندلس، ط5، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983م، ص111. سيشار إليه فيما بعد: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس؛ ابن أبي أصيبعه، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم (ت 668ه/1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965م، ص530-533. سيشار إليه فيما بعد: ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء؛ الزركلي، الأعلام، جـــ5، ص318.

(1): هو أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر الإشبيلي، ولد بمدينة إشبيلية ونشأ بها وتميز بالعلوم، وأخذ صناعة الطب عن ابيه، لم يكن في زمانه أحد مثله في صناعة الطب، توفي بمراكش سنة 596ه/ 1199م. انظر: ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء، ص521-522؛ الزركلي، الأعلام، جـــ6، ص250.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص207.

(3): المراكشي، المعجب، ص179.

أقديمة هي أم حديثة ؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزاره حفظ لم أضنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له[(1)].

وكان الخليفة أبو يعقوب حريصاً على الجمع بين علمي الشريعة والحكمة، فلم يزل يبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب[(2)]، وبلغ من اهتمامه وشغفه بالدراسات العلمية عامة، والفلسفية خاصة، أن اجتهد في جمع كتبها، فعمل في التنقيب والبحث عنها في سائر أنحاء المغرب والأندلس، وبذل في سبيل ذلك جهوداً وأموالاً عظيمة، فأجتمع له منها كماً كبيراً، قيل أنها بلغت من حيث العدد ما يقرب مما اجتمع للخليفة الأموي الحكم الثاني المستنصر بالله (350-366ه/962-976م)[(3)].

ومما يذكر عن جهود الخليفة أبو يعقوب يوسف في جمع الكتب، ما أورده المراكشي على لسان أحد العلماء المتحققين بعلم الطب وأحكام النجوم في بلاد الأندلس، الذي كان يستعير كتب صنعته في الطب والفلك من رجل من أهل إشبيلية يعرف بأبي الحجاج يوسف المراني، كانت عنده جمله كبيرة من هذه الكتب، حصل عليها أبيه في أيام الفتنة، التي انتهت بزوال الدولة الأموية بالأندلس سنة 422ه/1030م، وأن خبر هذه الكتب انتهى إلى أمير المؤمنين أبو يعقوب، فأرسل فور علمه بها إلى دار أبي الحجاج من يأخذها جميعاً، مقابل منح صاحبها ولاية ضخمة ما كان يتوقعها في يوم من الأيام[(4)].

---

(1): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ21، ص99-100؛ الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر العام، 5 أجزاء، ط6، دار الثقافة، بيروت 1983م، جـ2، ص24. سيشار إليه فيما بعد: الجيلالي، تاريخ الجزائر.

(2): المراكشي، المعجب، ص176؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص284.

(3): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص291؛.

(4): المراكشي، المعجب، ص175-176.

وكما عرف عن الخليفة أبو يعقوب تقديره للعلماء وإغداقه عليهم بالأموال، كان له معهم قصص ونوادر تنم عن حلمه وعلمه وسعة صدره، فمن نوادره في هذا الشأن أنه حضر يوماً إلى باب قصره في مدينة مراكش الأديب أبا العباس أحمد بن عبد السلام الكرواني[1]، وكان قد حاز درجة عالية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة وله فيها تآليف، وصادف أن التقى أبا العباس على باب قصر الخليفة بالطبيب البربري سعيد الغماري، فقال الخليفة لبعض خدمه: انظر من بالباب من الأصحاب، فخرج الخادم إلى الباب ثم عاد إليه فقال: أحمد الكرواني وسعيد الغماري، فقال الخليفة من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غماره، فبلغ ذلك الكرواني فقال: " وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه "[2] أعجب منهما والله خليفة من كوميه، فيقال أن الخليفة يوسف لما بلغه ذلك قال: أعاقبه بالحلم عنه والعفو فيه تكذيبه[3]، وهذا ما دفع الكرواني إلى مدح الخليفة يوسف بقصيدة طويلة منها قوله:

إن الإمام هو الطبيب وقد شفى   علل البريّة ظاهراً ودخيلا
حمل البسيطة وهي تحمل شخصه   كالروح توجد حاملاً محمولا[4]

أما عن الآثار العلمية للخليفة أبو يعقوب يوسف، فقد وصل إلينا من نتاجه بحث ديني يكشف براعته في علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو " كتاب الجهاد "[5]، سار

(1): هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الكرواني، نسبه في بني مخزوم وأصله من تادلا، وسكن مراكش، وكان من أبرز الشخصيات الأدبية في دولة الموحدين، خدم بشعره الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيدة يعقوب المنصور، وكان له مع الخليفة أبي يعقوب يوسف بالخصوص شأن غير شأنه مع الاخرين، فكان يعد شاعر دولته الخاص، وكان لا يبرح مجلسه، وتوفي بإشبيلية سنة 609هـ/ 1213م عن عمر يناهز الثمانين. انظر: ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص112-113؛ كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، 3 أجزاء، ط2، (د. د)، طنجة 1960م، جـ1، ص169. سيشار إليه فيما بعد: كنون، النبوغ المغربي.

(2): سورة ياسين، آية 78.

(3): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص284.

(4): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص137.

(5): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص137.

فيه مؤلفه على نهج الإمام المهدي بن تومرت في وضع الرسائل والعقائد الموحديه، حيث تناول فيه ثلاثة مواضيع رئيسية، هي: الترغيب في الجهاد، وفضل الجهاد في سبيل الله، والجهاد بالمال، من خلال تقديم مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية التي ترغب وتحث على الجهاد، وتبين منزلته وفضائله، وجاء الكتاب مختصراً في خمس وعشرين ورقة، ويحمل في خاتمته إشارة إلى ثلاثة أمور، أولها أنه بتمام هذا الكتاب تكون قد كملت جميع التعاليم الدينية التي كان قد أملاها الإمام المهدي، وثانيهـــا أن مؤلف هذا الكتاب هو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المـــؤمن، وثالثهـــا أن تـــاريخ الانتهاء من وضع الكتاب هو العشر الأواخر من شعبان ســـنة 579ه/1183م، أي قبل وفاة مؤلفه الخليفة بأشهر، وقد الحق هذا الكتاب، بكتاب المهدي بـــن تـــومرت المعروف ب " أعز ما يطلب "[1].

4.1 جهوده في بناء الدولة الموحدية في حياة والده:

1.4.1: اسناد ولاية إشبيلية لأبي يعقوب يوسف سنة 551ه/1156م

اتبع الخليفة عبد المؤمن بن علي في إدارة شؤون دولته، سياسة تنم عن كفاءته الإدارية ومقدرته العسكرية، جمّلها بحسن التدبير وجودة الرأي، فمنذ اليـــوم الأول الذي تمت فيه البيعة له بعد وفاة المهدي، نجده قد اعتمد علـــى مشـــايخ الموحـــدين وخاصة المصامدة منهم في تسيير أمور دولته الناشئة وولاية أعمالها، فلما تم له فتح أفريقية، وعاد إلى حاضرة مراكش سنة 548ه/1153م قرر أن يعهد لأولاده الـــذين كثروا حوله حكم البلاد، فنظر عبد المؤمن فيمن حوله فوجد أنه كان قد استعمل على الأعمال شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدي، فكان يتعـــذر عليـــه أن يعزلهم، لما عرف عنهم من علو قدرهم[2]، إلا أن عبقريته لم تعجز أن تجد لـــذلك حلاً، فدبر أمراً لم يحصل من خلاله على تحقيق مراده وحسب، بل كسب به قلـــوب

---

(1): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص412-437.

(2): النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733ه/ 1333م): نهاية الأرب في فنون الأدب، 27 جزءا، تحقيق: حسين نصار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1983م، جـــ24، ص308. سيشار إليه فيما بعد: النويري، نهاية الأرب.

وود أشياخ الموحدين، إذ عمد إلى أخذ أولادهم بدافع تعليمهم وتربيتهم تربية إسلامية عسكرية، تؤهلهم إلى تولي مناصب الإدارة والقيادة في الجيوش والدولة ليحلوا محل ابائهم(1)، وفي ذلك يقول صاحب الحلل الموشية، أنه اجتمع للخليفة عبد المــؤمن " نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة، من المصامدة وغيرهم، وقصد بهم سرعة الحفــظ والتربية على ما يريده، فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب، ويوماً بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع، ويوماً يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة، فتأدبوا بهذه الآداب، تــارة بالعطــاء، وتارة بالأدب، وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده، وخيلهم وعدتهم كذلك "(2).

ولما مهر هؤلاء الأولاد بالعلوم، وكمل لعبد المؤمن ما أراد، قال لآبــائهم مــن الأشياخ " إني اريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده ويكون أولادكــم في أعمالكم "، فأجابوه إلى ذلك وفرحوا به(3)، وأبقاهم معهم في المشورة، ثم أرسل إليهم من يثق به ليقول لهم أنهم ارتكبوا بفعلتهم هذه أمراً عظيماً، كيف قبلتم علــى أنفسكم أن يكون أولادكم على الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس إليهم شيء منهــا مع ما هم فيه من العلم وحسن السياسة ؟، فلما عاد أشياخ الموحدين لأنفسهم ونظروا لأبناء الخليفة وقد كملت فيهم الصفات الحميدة، ذهبوا إلى عبد المؤمن وســألوه أن يستعمل السادة أولاده على البلاد، وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبنــاءهم بالســادة، فأظهر لهم عبد المؤمن عدم موافقته على طلبهم، فلم يزالوا يسألوه ذلك حتى استجاب لهم وأمر باستعمال أولاده على البلاد(4).

---

(1): العبادي، أحمد مختار: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية 2000م، ص148. سيشار إليه فيما بعد: العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد.

(2): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص150-151.

(3): النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص308.

(4): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ9، ص408؛ النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص308-309؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص260.

فاستعمل ابنه وولي عهده أبا عبدالله محمد على بجاية، وولى ابنه أبا سعيد سبته والجزيرة الخضراء ومالقة[1](Malaga)، وجعل ابنه أبا حفص عمر علـــى مدينـــة تلمسان وأعمالها، وأعطى ابنه يوسف حكم إشبيلية وقرطبه، وولّا كذلك غيرهم[2].

هذا وقد اضطربت المصادر التاريخية في تحديد السنة التي اتخـــذ فيهـــا عبـــد المؤمن هذه الخطوة بتعيين أبنائه، فالبيذق شاهد العيان ورفيق عبد المؤمن خطـــوة بخطوة، وابن عذاري وابن خلدون ذهبوا إلى أن تولية أولاد عبـــد المـــؤمن علـــى الولايات كان سنة 548ه/1153م، في حين ذهب كل من ابن أبي زرع والســـلاوي إلى أن التعيين تم في سنة 549ه/1154م، ويوافقهم علـــى ذلـــك مـــن المـــؤرخين المعاصرين محمد عبدالله عنان، والمستشرق الألماني أشباخ، وفي الوقت الذي سكت فيه ابن القطان وصاحب الحلل الموشيه عن تاريخ الاستعمال، جعل كل مـــن ابـــن الأثير وأبو الفداء وابن كثير والنويري سنة 551ه/1156م هي ســـنة توليـــة أولاد الخليفة[3].

---

(1): مالقة: مدينة قديمة بالأندلس، على شاطئ بحر المجاز المعروف بالزقاق، بينها وبين أرشذونة ثمانية وعشرون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص517-518.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص76-77؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص179؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص151.

(3): البيذق، أخبار المهدي، ص76-77؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص50؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص316؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص194؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص260؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص339؛ أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، جزءان، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1941م، جـ2، ص52. سيشار إليه فيما بعد: أشباخ، تاريخ الأندلس؛ ابن القطان، نظم الجما، ص179؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص151؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص408؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت 732ه/ 1331م): المختصر في أخبار البشر، 4 أجزاء، ط1، المطبعة الحسينية المصرية، 1988م، جـ3، ص30. سيشار إليه فيما بعد: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص144؛ النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص308.

ويبدو أن سبب هذا الاضطراب راجع إلى أحد أمرين، إمـــا خلـــط المصـــادر التاريخية ما بين البيعة بولاية العهد لابن الخليفة أبا عبدالله محمد التي تمت فعلاً سنة 549ه/1154م، وما بين تعيين أولاد الخليفة على الولايات على اعتبار أن الأمرين تما معاً، وإما أن يكون الخليفة نزولاً عند رغبة أشياخ قبائل الموحدين الذين وفـــدوا إليه من مختلف بلاد المغرب والأندلس سنة 549ه/1154م للتهنئـــة بتعيـــين ولـــي العهد، قد قام بتسمية أولاده الثلاثة عشر الذين كانوا قد ظهروا في ذلك الحين علـــى الولايات(1)، حسب ما خطط لذلك مسبقاً، على أن تكون ولايتها وراثية في عقـــبهم بغض النظر عن سنة التنفيذ، وذلك لأنه كان منهم صغار السن، وهذا الـــرأي هـــو الأرجح بدليل ما يذكره البيذق أن الخليفة سما لمن هم صغار في السن ولم يســـيروا لولاياتهم لصغرهم(2)، ثم أن معظم المصادر بإستثناء البيذق، التي جعلـــت تـــاريخ تعيين أبناء الخليفة على الولايات قبل سنة 551ه/1156م، لم تذكر ســـوى تعيـــين أربعة أبناء هم: ولي العهد أبا عبدالله محمد، وأبا حفص عمر، وأبا الحسن علي، وأبا سعيد عثمان(3)، ثم أننا أيضاً نجد أنه عندما بلغ لعلم الخليفة عبد المؤمن ما قام بـــه أحد ثوار غرب الأنـــدلس، وهـــو علـــي الـــوهيبي بمهاجمـــة مدينـــة لبلـــة ســـنة 549ه/1154م، وأخذ اهلها على حين غرة، فلما وصل لوالي إشبيلية وقرطبة آنذاك يحيى بن يغمور أنباء ما حدث، توجه من فوره في عسكر من الموحدين إلى لبلـــة، فبادر الوهيبي بالفرار، وخرج أهل لبلة في اليوم التالي طائعين معتذرين، ولم يقبـــل يحيى عذرهم وأعمل فيهم السيف حتى قتل منهم ثمانية آلاف وباع نساءهم وأبناءهم، وقد أغضب ذلك العمل الخليفة عبد المؤمن فبادر من فوره بعزل يحيى بن يغمـــور واستجلابه له في حاضرته، وعين على إشبيلية أحد أشياخ الموحدين وهو أبو محمد

---

(1): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص151.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص76-77.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص50 ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص194؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص316؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص260.

عبدالله بن أبي حفص بن علي التينمللي[1]، وكان هذا الحدث بعد أن انتهى عبد المؤمن من تولية أولاده حسب ما تذكر ذلك بعض المصادر سنة 549هـ/1154م، فلو أن التعيين تم فعلاً لجميع أبناء عبد المؤمن، وأن السيد أبو يعقوب الذي منح ولاية إشبيلية كان جاهزاً لتلك المهمة، لتم توجيهه لها بعد حادثة يحيى بن يغمور تلك.

ومهما يكن من أمر فإن تولية أبو يعقوب يوسف الفعلية لمدينة إشبيلية، قد تمت سنة 551هـ/1156م، حيث في هذه السنة قدم وفد من أشياخ وأعيان مدينة إشبيلية إلى حاضرة الخليفة عبد المؤمن مراكش، وسألوه أن يولي أمر مدينتهم " سيد " يرجع معهم إليها، ويذكر ابن عذاري أن الوفد طلب تعيين أبا يعقوب يوسف لولاية مدينتهم بالاسم، فقال لهم عبد المؤمن أنه صغير، فقالوا بل هو كبير، فأجابهم إلى ذلك وبعثه معهم أميراً[2]، وكان عمره وقتذاك ثماني عشرة سنة، ليتسلم ولاية إشبيلية وقرطبة من صاحبها السابق عبدالله بن أبي حفص اعتباراً من سنة 551هـ/1156م وحتى استدعائه لتولي الحكم عقب وفاة والده سنة 558هـ/1163م.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الخليفة عبد المؤمن عندما عين أولاده على الولايات، عين إلى جانب كل واحد منهم من الأشياخ الأكفاء اثنين أو ثلاثة باسم وزراء أو كتاب، في حين لوحظ أنه لم يفعل مثل ذلك مع ولده السيد أبو يعقوب، بل اكتفى بأن أقر إلى جانبه أبا زيد عبد الرحمن بن تجيت الذي كان يتولى أمر قرطبة قبل قدومه، ووجه معه الوزير ابن عطيه[3] كرفيق درب فقط إلى أن يصل إشبيلية

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص195؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص316؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص340.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص56.

(3): هو أحمد بن جعفر بن محمد بن عطيه القضاعي، أصله من طرطوشة من شرق الأندلس، ولد بمراكش سنة 517هـ/1123م، تقلد الكتابة في بلاط المرابطين، ولما دالت دولتهم تقدم بالكتابة في دولة عبد المؤمن بن علي حتى بلغ الوزارة، وكثر حساده والواشون به فقبض عليه عبد المؤمن وسجنه ثم قتله سنة 553هـ/1158م، وعمره إذ ذاك ست وثلاثون سنة. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص238؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص263-271؛ الزركلي، الأعلام، جـ1، ص107.

ثم يفارقه في مهمة خاصة كلف بها[1]، ويرى أشباخ أن الخليفة عبد المؤمن ما فعل ذلك مع ابنه يوسف دون اخوته الأخرين إلا عن قصد منه، أراد بذلك منحه شيئاً من الاستقلال أوسع مما منح لإخوته[2]، وكأنه أراد بذلك اختباره ومعرفة كفاءته لما هو قادم. وكانت ولاية أبو يعقوب يوسف لإشبيلية سنة 1156/551م، باكورة أعماله في طور خدمة وبناء الدولة الموحدية، إذ لم نسمع له أي دور له قبل ذلك.

2.4.1 **أعمال أبي يعقوب يوسف أثناء ولايته لإشبيلية (551-558ه/1156-1163م):**

1.2.4.1 **إخضاع حصن طبيرة**[3]:

دخلت مدينة طبيرة في طاعة الموحدين سنة 542ه/1148م، عندما أعلن صاحبها الثائر بها في نهاية حكم المرابطين، عامل بن مهيب الولاء والطاعة للموحدين أثر سقوط مدينة إشبيلية بقبضة جيوش عبد المؤمن، وعندما عادت مدن غرب الأندلس للانتفاض على الموحدين في سنة 543ه/1148م كان عامل بن مهيب من الذين خلعوا طاعة الموحدين، غير أنه عاد في نفس السنة للاعتراف بحكم الموحدين طوعاً[4]، وبقي ابن مهيب على ولائه فعندما سار عبد المؤمن إلى مدينة

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص179؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص195.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص52-53.

(3): طبيرة (Tavira): مدينة بالأندلس، تقع على نهر وادي آنه الأدنى، جنوبي البرتغال على شاطئ المحيط الأطلسي، لم يذكرها الحميري، وعرفها ياقوت الحموي بقولة بلدة بالأندلس دون تحديد موقعها، ووقع كثير من المؤرخين في لبس بينها وبين طلبيرة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص21؛ حتاملة، محمد عبده: موسوعة الديار الأندلسية، جزءان، ط1، عمان 1999م، جـ2، ص643. سيشار إليه فيما بعد: حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية.

(4): علام، الدولة الموحدية، ص184.

سلا وهو في طريقه لفتح بجاية سنة 546هـ/1151م كان ابن مهيب من بين زعمـــاء الأندلس الذين وفدوا عليه هناك معلناً بيعته وطاعته له[1].

وبقيت طبيرة على ولائها للبيت الموحدي، إلى أن تغلب عليها ثائر آخر وهـــو علي الوهيبي، الذي لم يكتف بخلع طاعة الموحدين في طبيرة، بل سار إلى مدينـــة لبلة وتغلب عليها في سنة 549هـ/1154م، وجر أهلها إلى العصـــيان معـــه ضـــد الموحدين، بيد أن والي إشبيلية وقرطبة يحيى بن يغمور نجح سريعاً فـــي اســـترداد المدينة، من هذا الغادر الذي تمكن من الافلات من قبضة ابن يغمور[2]، ليبقى علي غيه خارجاً على سلطان الموحدين في طبيرة منذ سنة 549هـ/1154م إلى أن تولى السيد أبو يعقوب ولاية إشبيلية.

فكان أول عمل ابتدأ به أبو يعقوب ولايته على إشبيلية هو غزو طبيرة، وتأديب صاحبها الوهيبي الذي نبذ طاعة الموحدين وأخذ يشجع الساخطين عليهم في مناطق غرب الأندلس، فجهز لذلك حملة برية بحرية وظل ينتظر بإشبيلية إلى أن يلتحق به الوزير ابن عطية الذي كان قد صحبه في رحلته إلى إشبيلية ثم سار إلى تقديم العون لابن الخليفة السيد أبو سعيد في حصاره لمدينة المرية، وبعد أن وصل ابن عطيـــة سار السيد أبو يعقوب على رأس الحملة الموحدية حتى وصل طبيرة، فـــامتنع بهـــا علي الوهيبي، مما اضطر أبو يعقوب إلى حصارها براً وبحراً[3]، واستمر الحصار عليها قرابة شهرين من أول عام 552هـ/1157م، فلما طالت مدة الحصار رأى السيد أبو يعقوب مفاوضة الوهيبي وانتدب لهذه المهمة الوزير ابن عطيه، فتم الصلح على اقرار الوهيبي حاكماً على طبيرة مقابل طاعته للموحدين وذكره الخليفة في الخطبة، وتعهد بعدم الاعتداء على المناطق المجاورة[4]، كما استولى الموحـــدون فـــي هـــذه

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص44-45؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص257.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص195؛ ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص316.

(3): دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص119.

(4): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص348؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص119.

الغزوة على بلاد سيدراي بن وزير وهي شلب وباجه - تخلى عنهـا ابـن وزيـر طواعية - وعين عليها السيد أبو يعقوب، بدلاً منه حاكم موحدي هو يعقـوب بـن جبون الهزرجي مع بعض الحفاظ المتوجهون معه من الموحدين[1]، ويـذكر ابـن عذاري أن أبو يعقوب ما أن انتهى من تدبر أمور بلاد ابن وزير، حتى قـدم عليـه ثائراً آخر معلناً الطاعة وهو صاحب ميرتلة[2](Mertola) تاشفين اللمتوني، فملكها الموحدين دون جهد، وكان ذلك يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأول من سنة 552هـ/1157م، وكانت مدينة ميرتلة أول مدينة خرج عنها المرابطون، وآخر مدينة ثار فيها المرتدون على الموحدين[3].

وعلى هذا النحو وفق أبو يعقوب في أول غزواته بالأندلس من اخضاع ثـلاث مناطق للسيادة الموحدية جملة واحدة، ومما يذكر من أخبار هذه الغزوة الأولى للسيد أبو يعقوب، أنه لما وصل إلى طبيرة وفد عليه أشياخ بلاد بني وزير، وكـان فـي جملتهم الشاعر أبو بكر بن منخل[4]، فقال يمدح السيد أبو يعقوب في قصيدة طويلة أولها:

فقالوا: أغزو ؟ قلت: لاشك أنه   فقالوا: فمن يغزو العدى؟ قلت: يوسف
سليل أمير المؤمنين وكفه   وصارمه الغضب الذي يتخوف[5]

---

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص271؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص56-57.

(2): ميرتلة: وتكتب ايضاً مرتلة ومارتلة ومرتولة، وهي حصن من أعمال مدينة باجة، من أمنع وأحمى حصون بلاد غرب الأندلس، تقع على نهر وادي آنة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص242؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص198.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص57.

(4): هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن المنخل الفهري الشلبي، كان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجودين، توفي في حدود سنة 560هـ/1164م. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص208-209.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص57.

2.2.4.1 نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش:

كان هذا المصحف أحد المصاحف الأربعة المشهورة التي بعث بها الخليفة الراشدي عثمان بن عفان – رضي الله عنه – إلى الأمصار الاسلامية مكة والبصرة والكوفة والشام، وهو المصحف الذي قيل أن عثمان رضي الله عنه خطه بيمينه، وكان من ذخائر بني أميه بالأندلس، حيث كان يحتفظ به الخليفة عبد الرحمن الناصر[1]، ثم أودع جامع قرطبة، فاحتفظ به في بيت منبره، على كرسي من العود الرطب بمسامير من الذهب، وكان عليه حلية من ذهب مكللة بالجوهر والياقوت، وظل ذلك هو شأنه حتى زمن الخليفة عبد المؤمن بن علي[2]، وقد أحسن الإدريسي وصفه عند حديثه عن جامع قرطبة، حيث شاهده بأم عينه فقال: " وعن شمال المحراب بيت فيه.. مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه، وفيه نقط من دمه، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد وإمامهم رجل ثالث بشمعة، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه "[3].

ومنذ أن استولى الموحدون على قرطبة سنة 543ه/1148م، شغف عبد المؤمن بهذا المصحف وجعل من غاية امنياته نقله إلى حاضرته، فكان كثيراً ما يجلس مع نفسه ويتباحث في كيفية جلبه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم، واجتهد في سبيل

---

(1): هو عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله، يكنى أبا المطرف، تولى الإمارة على الأندلس سنة 300ه/950م، وتسمى بأمير المؤمنين عندما بلغه ضعف الخلافة العباسية وذلك سنة 316ه/928م، وقد أخضع جميع أقطار الأندلس لطاعته، وامتدت فترة ولايته إلى حين وفاته سنة 350ه/962م. انظر: الضبي، بغية الملتمس، جـ1، ص39.

(2): مؤلف مجهول: وصف جديد لقرطبة الإسلامية، تقديم: حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 13، مدريد 1965-1966م، ص19. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، وصف جديد لقرطبة الإسلامية؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص152.

(3): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص210-211.

ذلك كثيراً قبل الاقدام على إحضاره، لأنه كان يتوقع أن يتأذى أهل مدينـــة قرطبـــة بفراقه، ويستوحشوا بفقدان اضاءته وإشراقه، أو أن يرفضوا التنـــازل عنـــه علـــى اعتبار اقترانه بجامع قرطبة مثواه ومنزله، فاستعمل في سبيل ذلك الرفق والـــدهاء، إلا أن كل ذلك لم ينفع إلى أن كانت ولاية السيد أبو يعقوب على إشبيلية وقرطبة، إذ قام أهل مدينة قرطبة في سنة 552ه/1157م بتقديم هذا المصحف هدية إلى الخليفة عبد المؤمن عن طريق ابنه أبو يعقوب[1].

حمل السيد أبو يعقوب يوسف المصحف من جامع قرطبة ليلة السبت 11 شوال من سنة 552ه/1157م، وسار به مغرباً بصحبة أخيه السيد أو سعيد، فلما وصـــل إلى مراكش استقبله الخليفة فقدمه إليه تحفة سنية وهدية هنية، فبادر الخليفـــة عبـــد المؤمن إلى المصحف بما يجب من التبجيل والإكرام[2]، وعكف على صناعة كسوة عظيمة له، فكتب بذلك للصناع والمهرة في سائر مملكته، فحضر عنده للعمل فيه كل من عرف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق بصناعة، من مهندسين وصواغين ونقاشين ونجارين ومجلدين وغير ذلك، فصنعوا للمصحف كسوة عظيمة مرصـــعة بـــأنواع الياقوت والأحجار النفيسة، ومحمل تغلفه صفائح من الذهب، واتخذ للمحمل كرســـي على شاكلته، ثم صنع للجميع تابوت مرصع بالياقوت الأحمـــر وتوابعـــه، وعمـــل للتابوت هودج لكي يحمل فيه على ناقة حمراء خصصت لذلك، وكان عبد المـــؤمن يحمله بعد ذلك في مقدمة جيشه في جميع حملاته تبركاً به، ولم يـــزل الموحـــدون يحملونه في أسفارهم وحروبهم متبركين به، إلى آخر دولتهم[3].

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص262-263؛ علام، الدولة الموحدية، ص386.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص343.

(3): الإشبيلي، بكر بن إبراهيم (ت629ه/ 1231م): كتاب التيسير في صناعة التسفير، تقديم: عبدالله كنون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلدان 7-8، مدريد 1959-1960م، ص2. سيشار إليه فيما بعد: الأشبيلي، كتاب التيسير؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص605-615؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص152-153.

3.2.4.1 جهوده في بناء مدينة جبل طارق

جاء بناء مدينة جبل طارق بناءً على الأمر السامي من الخليفة عبد المؤمن إلى ابنيه السيدين أبو يعقوب يوسف والي إشبيلية، وأبي سعيد عثمان والي غرناطـــة[1]، ففي الوقت الذي كان فيه عبد المؤمن يسير في طريقة لامتلاك مدينة المهدية وإجلاء الفرنج النورماند عنها، كانت حوادث الأندلس ممثلة بتعاظم غـــارات محمـــد بـــن مردنيش، وحلفائه النصارى على مدن وسط الأندلس الإسلامية تؤرقه وتشغل معظم تفكيره، ولما كانت الأندلس ذات أهمية تعادل بلاد المغرب عند عبد المؤمن فإنه كان حريصاً على تنظيم وسائل الدفاع عنها، وكان قد عقد العزم على العبور إليها بنفسه بعد أن ينتهي من أمر المهدية، وهذا ما أفسح عنه في رسالته المؤرخة في عشـــرين من ذي القعدة سنة 554ه/1159م، وهو بظاهر المهدية إلى أشياخ الموحدين والطلبة في غرناطة وإشبيلية، التي يخبرهم فيها عن نيته تلك وعن خططه في تحصين قاعدة جبل طارق، بإنشاء مدينة مباركة فيه، ويطلب منهم في الوقت نفسه معاونته علـــى ذلك العمل بالذهاب إلى جبل طارق لاختيار المكان المناسب للمدينة[2].

وعقب افتتاح المهدية في محرم 555ه/ كانون ثاني 1160م، أرسل الخليفة عبد المؤمن كتبه بالفتح، وفي مقدمتها كتابه إلى ولده السيد أبي يعقــوب، يشـــرح فيـــه حوادث الفتح، وما وقع من إجلاء النصارى عن المدينة، فلما وصل كتـــاب الفـــتح لإشبيلية أمر السيد أبو يعقوب أن يكتبه الناس والطلبة وأن يحفظوه، وأمـــر كـــذلك بقرع الطبول وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة، فعمت البشرى بذلك جميع أنحـــاء المدينة[3]، ثم وصل كتاب آخر من الخليفة للسيدين أبي يعقوب وأبي سعيد عثمـــان، مؤرخ في التاسع من ربيع الأول من نفس السنة، يتضمن تكليفهما ببناء مدينة جبـــل

---

(1): علام، الدولة الموحدية، ص212.

(2): مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، اعتنى بإصدارها: ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط 1941م، ص95-99. سيشار إليه فيما بعد: مجموع رسائل موحدية.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص65؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص378.

طارق، لتكون منزلاً للجيش الموحدي الرابض لنجدة جيوش الولايات الأندلسية، إذا هاجمها النصارى[1].

وبين الخليفة في هذا الكتاب مهام كل واحد منهما، فأمر السيد أبو سعيد عثمـــان أن يسير بنفسه وعلى عجل من غرناطة بجملة عسكره وأصحابه إلى جبل طـــارق ليلتقي هناك بأشياخ إشبيلية وبالحاج المهندس يعيش المالقي[2] ومن معه من مهندسين وقادة للتشاور واختيار مكان البناء، أما السيد أبو يعقوب فقد كلفه أن يستنفر جميـــع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس التي تحت حكم الموحدين، ويستعجلوا بالوصول إلى الجبل لامتثال الأمر الكريم[3].

فصدع الأميران للتكليف الأسمى، واجتمع جميع ولاة الأقاليم الموحدية وما فيها من عمال وصناع ومهندسين في الجبل المذكور لانجاز رغبة الخليفة في أقرب وقت ممكن، وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجمع عليه والاتفاق من نواحيه، بسيف البحر مما يلاصقه ويليه، ويذهب كل من ابن أبي زرع والسلاوي إلـــى أن ابتـــداء البناء كان في التاسع من ربيع الأول من سنة خمس وخمسين[4]، وقد مـــر بنـــا أن وصول الكتاب السامي بأمر البناء كان في ذلك التاريخ، وهذا يعني ان ابتداء البناء الفعلي بالمدينة كان بعد 9 ربيع الأول وعلى أقل تقدير مع نهاية شهر ربيـــع الأول من سنة 555هـ/ مطلع نيسان 1160م، بدليل ما يذكره ابن صاحب الصـــلاة وهـــو شاهد عيان ومرافق لأبي يعقوب في معظم غزواته وحروبه، أنه في الوقـــت الـــذي كان فيه السيد أبو يعقوب على أهبة الاستعداد للسفر إلى جبل طارق بصحبة حشـــد

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص138.

(2): هو من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم في عصر الموحدين، خاصة في عهد عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف، ومن أبر انجازاته مقصورة المسجد الجامع بمراكش التي تفتح وتغلق ميكانيكاً عند دخول وخروج الخليفة، والرحى التي ابتناها سنة 555هـ/1160م على جبل طارق لتطحن الأقوات بالريح، وجره للمياه من قلعة جابر إلى داخل مدينة إشبيلية لسقي العامة والخاصة والبحيرة الملكية. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص138-142،468-469؛ سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص244-245.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص138-139.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص199؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص272.

كبير من البنائين والمهندسين والصناع والعمال، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة 15 ربيع الأول 555ه/ 25 أيار 1160م، إذ بلغه خبر اقتحام ابن همشك حليف محمد بن مردنيش مدينة قرمونة(Carmona)[1]، مما دفعه إلى إرسال قوة موحدية لإنقاذها، وتأجيل السفر إلى حين الاطمئنان على أمر قرمونة، وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة: " امتنع السيد الأعلى من سفره ورجع إلى مقره وحضره، ووجه عسكراً إليها – أي قرمونة – وتكدرت الأحوال بهذا الطارئ من الخبر.. ونظر السيد الأعلى في مقابلة هذا العدو"[2].

رتب السيد أبو يعقوب أمور استعادة قرمونة من يد ابن همشك وحلفائه النصارى، وكان في هذه الأثناء يعمل على شحذ همم الفعلة والرجال للبناء المذكور، ثم استناب بإشبيلية من طلبة الموحدين من ينوب عنه في متابعة جهاد النصارى، وارتحل هو إلى جبل طارق على وجه السرعة[3]، وكان قد تقدمه في السير من إشبيلية العريف أحمد ابن باسه بجميع البنائين ومن يشاكلهم، فما أن نزلوا بالجبل حتى ابتدأوا البناء، فاحكم البناؤون فيه بناء القصور المشيدة والديار، مما هو عجيب الآثار، وصنع الحاج يعيش في أعلى الجبل رحى تطحن الأقوات بالريح، ويضيف ابن صاحب الصلاة أنه " اتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقل التي لا تمكين لطامع فيه طمع، ولا يحظر على خاطر ساكنه جزع من بر ولا بحر، إذ هو معقل أشب ومنزل للسماك منسب "[4].

---

(1): قرمونة: مدينة قديمة تقع شرق إشبيلية وغرب قرطبة، وتبعد 35 كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من إشبيلية. انظر: أرسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، ط1، 3 أجزاء، المطبعة الرحمانية بمصر، 1936م، جـ1، ص74. سيشار إليه فيما بعد: أرسلان، الحلل السندسية؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص829.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص145-146.

(3): علام، الدولة الموحدية، ص193.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص139-143.

واستغرق العمل في البناء شهوراً قليلة بفضل اجتهاد المهندسين والعمـــال فـــي أعمالهم، واشتغال السيد أبو يعقوب في تنفيذ أوامر الخليفة، ونصحه للعمـــال علـــى الاشتغال قدر طاقتهم من أحوالهم، فتعاون الجميع في إتمام المشروع دون هوادة أو كلل، فتم البناء على أحسن وجه وفي أقرب مده[1]، حتى قيل في وصف هذا البنـــاء الذي يشهد للموحدين بالنهضة والتقدم، والبراعة والنبوغ " الملوك تبني على قـــدرها من الأقدار، وربما لو عاينها المتقدمون من آل عاد بن شـــداد لأقـــروا للموحـــدين بالعجز، وفضلوهم على الذين بنو القصر من سنداد "[2].

وابتني في المدينة قصر للخليفة، وقصور أخرى للسادة بنيه في جـــواره، ودور ومنازل للحاشية وأعيان الموحدين، وغرس فيها الأشجار وجلب إليها الماء العـــذب من آبار الجبل، كما جددت أسوارها وحصنها القديم[3]، وكان الانتهـــاء مـــن بنـــاء المدينة في شهر ذي القعدة من سنة 555ه/ تشرين ثـــاني 1160م[4]، وبـــذلك لـــم يتجاوز انجاز بناء المدينة أكثر من سبعة أشهر، إذ ابتدئ في بنائها في أواخر شهر ربيع الأول / مطلع نيسان، وافتتحها الخليفة عبد المؤمن فـــي شـــهر ذي القعـــدة / تشرين ثاني من السنة المذكورة، وينبه هنا ابن صاحب الصلاة إلى أن الســـيد أبـــا يعقوب قد انشغل عند اقتراب تمام بناء المدينة، بأمر استيلاء ابن همشـــك وحلفائـــه على مدينة قرمونة، فكان يتنقل بين إشبيلية للنظر في سبل إنقاذ قرمونة، وبين جبل طارق لمعاينة البناء، وكانت أثناء ذلك تتردد المراسلات بينه وبـــين والـــده عبـــد المؤمن، لتحديد موعد العبور، إلى أن وصلته الأخبار وهو في إشبيلية أن والده فـــي أحواز فاس، يهم بالسير إلى مدينة سبته ومعه جموع غفيرة من الموحدين والعرب،

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص381.

(2): ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت799ه/1377م): رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، 5 أجزاء، تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1997م، جـــ 4، ص213. سيشار إليه فيما بعد: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة.

(3): العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد، ص216.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص147.

ليعبر بهم البحر إلى المدينة الجديدة، فلم يكد يتيقن من صدق تلك الأنباء حتى عقد عزمه على أن يعبر البحر إلى المغرب، فيعاين أحوال البناء بجبل طارق أثناء مسيره، ثم يكون أول المستقبلين للخليفة عند ركوبه البحر، فيحصل بذلك على شرف صحبته، إلا أن أحداث قرمونة أخرت مسيره مما دفعه للتوجه مباشرة إلى جبل طارق، في وفد ضخم، من أهل إشبيلية من شيوخها وطلبتها وأعيانها[1].

وكان عبور الخليفة عبد المؤمن إلى جبل طارق في شهر ذي القعدة كما ذكرنا سابقاً، وقد صور لنا ابن عذاري مشهد احتشاد الناس على الشاطئ لرؤية موكب الخليفة لحظة العبور بقوله: " كان جوازه في ذي القعدة من عام خمس وخمسين وخمسمائة ليجتمع بالموحدين بالأندلس.. فبرز إليه يوم جاز البحر من النظارة عالم لا يحصيهم إلا خالقهم وكان يوماً مذكوراً مشهوراً "[2]، وكان في استقبال الخليفة لحظة وصوله جبل طارق، ولديه السيد أبو يعقوب الذي كان أول المستقبلين له للفوز ببركة اللقاء والاجتماع، والسيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، ويصف المراكشي مشهد وصول الخليفة لجبل طارق بقوله: " نزل الجبل المعروف بجبل طارق، وسماه هو جبل الفتح، فأقام به أشهراً.. ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة وإشبيلية، وما والى هذه البلاد وانتظم إليها، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم، اجتمع في مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله "[3].

وكان عبد المؤمن قد أمر باستدعاء الشعراء في ذلك اليوم، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك، وإنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم، فحضر مجلسه منهم عدة من أقطاب الشعر بالمغرب والأندلس، منهم محمد بن حبوس الفاسي، الذي كان أول من أنشد بين يديه قصيدة أجاد فيها ما أراد، بدأها بقوله:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا   وتعلمت أيامه أن تعدلا

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص144-145.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص69.

(3): المراكشي، المعجب، ص156.

وبحسبه أن كان شيئاً قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا[1]

هذا وقد احتفل السيد أبو يعقوب بوالده الخليفة عبد المؤمن، وظل بجواره مدة إقامته في جبل الفتح التي استغرقت شهرين، استشرف خلاله عبد المؤمن من ولده أبي يعقوب أحوال بلاد الأندلس، واعداً إياه بإنجاده بالعساكر منه لحماية الأندلس ومجاهدة أعدائها، كما جدد عبد المؤمن في هذه الأثناء ثقته بابنه أبي يعقوب حيث أعاد تعيينه على مدينة إشبيلية وأعمالها وندب لمعاونته جماعة من أشياخ الموحدين ممن عرف عنهم رجاحة الرأي وسعة التحصيل[2]، وبعد أن انصرف الخليفة عبد المؤمن من مدينة جبل الفتح إلى المغرب في أول عام 556ه/1161م، عاد أبو يعقوب يوسف إلى ولايته بإشبيلية، لينهي ما بدأه قبل مغادرته إلى لقاء والده، وهو إنقاذ قرمونة من غي ابن همشك وأنصاره[3].

4.2.4.1 جهوده في الدفاع عن مدن الأندلس الإسلامية ضد ملوك الأسبان وابن مردنيش:

بدأ السيد أبو يعقوب كفاحه في حماية المدن الأندلسية التي تحت حكم الموحدين منذ فترة مبكرة من ولايته لإشبيلية، ففي الوقت الذي كان فيه يعمل على ضبط أمور بلاد غربي الأندلس وينظم شؤون إدارتها عقب حملة طبيرة عام 552ه/1157م، وصلت إليه الأنباء بتوجه ملك ليون " فرناندو الثاني "[4](Fernando II)(552-584ه/1157-1188م)، على رأس حملة كبيرة للاستيلاء على مدينة إشبيلية

---

(1): المراكشي، المعجب، ص156-157.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص171-172؛ المراكشي، المعجب، ص166؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص155-156؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب،ص 200.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص73؛ علام، الدولة الموحدية، ص193.

(4): تطلق الرواية الإسلامية لقب " الببوج " أو" البيبوج " على الملك فرناندو الثاني، وهو تحريف للكلمة القشتالية (El-Baboso)، ومعناها الأحمق أو كثير اللعاب. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص219-220؛ المراكشي، المعجب، ص235.

وأحوازها، فما أن وصله ذلك النبأ حتى عاد مسرعاً لإشبيلية، ونظر في سبل التصدي لتلك الحملة وردها، فعمل على استدعاء ولاة الموحدين في مدن غرب الأندلس، فحضروا إليه بقواتهم، وخاصة والي شلب ميمون بن حمدون، ولما اكتمل تواصل الجيوش الموحدية خرج بهم أبو يعقوب لمواجهة القدر المحتوم، فلقي ملك ليون قرب حصن زغبولة[1]، فدارت بين الطرفين معركة غير متكافئة كانت الغلبة فيها للنصارى، واستشهد في هذه المعركة والي شلب وجملة من أشياخ الموحدين، وأسر بشر كثير من أهل إشبيلية، ونجا السيد أبو يعقوب، وكان لتلك الهزيمة وقع كبير في نفس الخليفة عبد المؤمن، فعمل على استنهاض همم العرب وجند الموحدين في المغرب لنصرة السيد أبي يعقوب وحماية جزيرة الأندلس[2]، وعلى الرغم من تلك الهزيمة التي تلقاها السيد أبي يعقوب في موقعة زغبولة، في أول اصطدام له مع النصارى في الأندلس سنة 552هـ/1157م، إلا أن مما يحفظ له في هذه المواجهة أنه بخروجه لملاقاة العدو قبل التوغل في غرب الأندلس حال دون تقدمه في تلك الجهات.

ومرت سنة 553هـ/1158م هادئة على السيد أبي يعقوب، صرف عنايته خلالها بطلب العلم على يد من لقي بإشبيلية من أهل علم اللغة والنحو[3]، بالإضافة إلى ترتيب شؤون ولايته، ولم يكدر صفو أيامه، سوى قيام مملكة البرتغال في هذه السنة بالتعاون مع بعض السفن الصليبية من فرنسا، بالإغارة على مدينة قصر ابن أبي دانس[4](Alcacer de Sal) في جمادى الأول منها، وعدم استطاعته تقديم النجدات

---

(1): انفرد ابن عذراي بذكر اسم هذا الحصن وبرواية أحداث هذه الموقعة، إذ لم يرد ذكرها عند ابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين وشاهد العيان، كما أننا لم نعثر لهذا الحصن على ذكر عند ياقوت الحموي والحميري والإدريسي، لكن يظهر من حديث ابن عذاري أنه يقع بظاهر مدينة إشبيلية إلى الشمال منها. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص61.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص61.

(3): المراكشي، المعجب، ص175.

(4): قصر ابن أبي دانس: مدينة بالأندلس، تقع على ساحل المحيط الأطلسي، جنوبي مدينة الأشبونة، تنسب إلى جد بني دانس بن عوسجة من قبيلة مصمودة البربرية. انظر:

للمدينة طوال الحصار الذي استمر لمدة شهرين، لانشغال الجيوش الموحديـــة فـــي الاندلس في كبح جماح ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس من جهـــة، وانشـــغال الموحدين في المغرب بطرد النورمان من مدينة المهدية فـــي إفريقيـــة مـــن جهـــة أخرى[1].

ثم شهدت سنة 554هـ/1159م جهود كبيرة للسيد أبي يعقوب في التصدي لحركة ابن مردنيش وحلفائه النصارى، ففي هذه السنة استغل ابن مردنيش توجه الموحدين لطرد النورمان من مدينة المهدية، فخرج على رأس جيش كبير أكثره من أصـــحابه النصارى من مدينة مرسية، واستطاع الاستيلاء على مدينة جيان[2](Jaen) دون أي مقاومة تذكر، وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة أن والي المدينة من قبل الموحدين وهو محمد بن علي الكومي، عندما لاحظ عدم مقدرته على صد ابن مردنيش ســـلمه المدينة وانضوى تحت لوائه خالعاً بذلك طاعة الموحدين[3]، وظن ابن مـــردنيش أن سائر بلاد الموحدين ستكون لقمة سائغة له كما كانت مدينة جيان، وهذا مـــا شـــجعه للتوجه لضم مزيد من البلاد، فزحف بجيشه وأعوانه النصارى إلى مدينة قرطبـــة، وما أن وصلها حتى ضرب الحصار، إلا أن واليها الموحدي آنذاك أبو زيـــد عبـــد الرحمن ابن تجيت استمات في الدفاع عنها وقاتله أشـــد قتـــال، ودام حصـــار ابـــن مردنيش للمدينة إلى أن اتفق ابن تجيت مع قاضي المدينة أخيل بن ادريس على حيلة من حيل الحرب، فكتب على لسان سيدراي بن وزير من إشبيلية، إلى ابن مـــردنيش كتاباً يقول فيه " عجل بالإقلاع عن قرطبة وسر إلى إشـــبيلية وأنـــا ضـــامن لـــك

المقري، نفح الطيب، مج1، ص414؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص500-501؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص851.

(1): النشار، محمد محمود: تأسيس مملكة البرتغال، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة 1995م، ص171-172. سيشار إليه فيما بعد: النشار، تأسيس مملكة البرتغال.

(2): جيان: مدينة بالأندلس من أعمال قرطبة، تقع في سفح جبل عال، بينها وبين بياسة 20 ميلاً. انظر الحميري، الروض المعطار، ص183.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص116.

دخولها"[1]، ودفع القاضي ابن إدريس بالكتاب إلى رجل من معارفه تنكّر في صفة زيات من أهل الشرف، فحين قرأ ابن مردنيش الكتاب أمر بالإقلاع عن قرطبة والإسراع في السير إلى أن نزل على مسافة ميل من إشبيلية في موقع يعرف بألفونت، وكان الموحدون قد أرسلوا جاسوساً إلى إشبيلية يعلمهم بالخبر، فاعتقد أهل إشبيلية بصحة ما نسب إلى ابن وزير فقبضوا عليه وسجنوه، واشتبكت بعض قوات المدينة بجند ابن مردنيش إلى أن وصل باب قرمونة[2]، وأقام أمامها ثلاثة أيام، لقيت خلالها إشبيلية عظيم الخطب، واضطرب الناس، إلا أن السيد أبو يعقوب استطاع بحنكته وسديد رأيه، وعلو جده، من إفشال مخططات هذا الغادر ورده على أعقابه فاشلاً خاسراً، بمعاونة أشياخ إشبيلية وأعيانها المخلصين وأجنادها المحبين، الذين كانوا يسهرون الليل فوق الأسوار، ويقفون بأبواب المدينة طوال النهار، كما اتخذ أبو يعقوب بعض الإجراءات الصارمة بحق من عرف بتهاونه مع ابن مردنيش، أو صح عليه غش أو فساد، أو مال للاستسلام، فمنهم من اعمل السيف في رقابهم، ومنهم من اعتقل وسجن. وأمام امتناع المدينة عليه أدرك ابن مردنيش أنه خدع وأن حال إشبيلية ليس قريب من جيان بمكان، فارتد على عقبيه عائداً إلى قواعده في شرق الأندلس دون أن يفوز بطائل[3].

ولم تكد تمض سوى بضعة أشهر حتى عاد ابن مردنيش لمهاجمة المدن الموحدية، حيث أرسل في أوائل سنة 555ه/1160م، صهره ومعاونة ابن همشك بجيش ضخم أكثره من النصارى، فقصد قرطبة، ولما دخل أحوازها أخذ يتلف

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص63-64.

(2): باب قرمونة: توجد هذه الباب في الجهة الجنوبية الشرقية من إشبيلية، في اتجاه مدينة قرمونة، وهي الباب التي شهدت صلاة جنازة العلامة علي بن يعيش بن حزم. انظر: الهاشمي، التهامي الراجي: الأبواب في الأندلس، مجلة المناهل، العدد 16، السنة السادسة، محرم 1400ه/ دجنبر 1979م، ص289. سيشار إليه فيما بعد: الهاشمي، الأبواب في الأندلس.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص118-120؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص374.

الزرع والضرع، ويلقي الرعب في قلوب الناس ويعيث في الأرض فساداً[1]، واستمر ابن همشك في منازلة المدينة لفترة من الوقت، ثم لما عجز عن اقتحامها أظهر للموحدين بانسحابه عنها، وكمن بخيله ورجاله على مقربة منها، فلما خرج والي المدينة ابن تجيت ليستطلع الأحوال خرج عليه الكمين فقاتل حتى ارتقى شهيداً[2].

في هذه الأثناء أدرك السيد أبو يعقوب مدى خطورة ابن مردنيش وتنامي قوته، وعزمه الاستيلاء على سائر بلاد الأندلس، فاغتنم فرصة وصول كتاب والده الذي يتضمن بشائر فتح المهدية إليه في شهر صفر من سنة 555هـ/1160م، فرد عليه برسالة جوابيه وصف فيها فتنة ابن مردنيش وخطورتها على بلاد الموحدين، سائلاً إياه أن يمده بأسباب النصر، وكانت رسالة الخليفة عبد المؤمن الواصلة لابنه تصور فتح المهدية وأحداثه بأبيات من الشعر، فطلب السيد أبو يعقوب من الأديب أبو العباس ابن سيد المالقي أن يضمن رسالته بشعر على معنى الشعر الواصل، فكان مما قال فيها:

هو الأمر أمر الله ليس له رد   يؤيده أيدٌ ويسمو به جد
وهذي رياح ُريحه عصفت بهم   فعادوا كعادٍ حين جللها الرمد
إليكم أمير المؤمنين توجهت   بنا الرغبات الجم يحتثها جهد
بكم يعتلي الإسلام شرقاً ومغرباً   فلله فيها دائباً ولك الحمد[3]

ولم يتأخر جواب الخليفة عبد المؤمن على كتاب ابنه، فسرعان ما وصل رده من محل معسكره على مقربة من قسنطينة[4] في ربيع الأول من سنة 555هـ/ آذار

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261؛ علام، الدولة الموحدية، ص192.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص69؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص273.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص127-128.

(4): قسنطينة: مدينة قديمة كبيرة آهلة، وقلعة حصينة عالية، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب، تحيط بها ثلاثة أنهار عظام تجري بها السفن. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص349.

1160م، يخبر فيه بعودته إلى مراكش، وعزمه السير من هناك للجـــواز للأنـــدلس للنظر في أحوالها وحماية جنابها، فما أن استقبل السيد أبو يعقوب وجميع الموحدين بإشبيلية وأحوازها هذا الكتاب، حتى انشرحت صدورهم بهذا الجواب، وأيقنوا أمنهم من التوجس والإرجاف، وتحققوا نصر الله وفتحه القريب[1].

وما هي إلا أيام حتى وصل كتاب آخر من الخليفة مؤرخ في التاسع من ربيـــع الأول من نفس العام، يتضمن أمره إلى ولديه، السيدين أبو يعقوب يوســـف، وأبـــو سعيد عثمان بإنشاء مدينة في جبل طارق[2]، وفي الوقت الذي كان فيه الســـيد أبـــو يعقوب يعد نفسه لمغادرة إشبيلية لتنفيذ أمر والده بمباشرة البناء في جبـــل طـــارق، وصله خبر استيلاء ابن همشك على مدينة قرمونة بمعاونة غادر للأمـــر الموحـــدي يعرف باسم عبدالله بن شراحيل، ويلخص ابن الخطيب حادثة الاستيلاء على المدينة بقوله: أنه بعد أن تغلب ابن همشـــك علـــى مدينـــة قرطبـــة، ســـار إلـــى مدينـــة إستجة[3](Ecija) فتملكها " وحاول له دابر يعرف بابن شـــراحيل غـــدر قرمونـــة، فتملكها، وجهز إليه الموحدون الجيش، ففر من بالحصن لقصـــبتها، فخـــيم بإزائهـــا واستنزل الموحدين من قصبتها على حكمه "[4]، وكان ذلك بتاريخ 15 ربيـــع الأول من سنة 555ه/ 22 آذار 1160م[5]، ويذهب ابن عذاري إلى أن غدر ابن همشـــك وأصحابه بمدينة قرمونة كان في الوقت الذي كان فيه السيد أبو يعقوب يتجهز للسير لملاقاة والده الذي هم بالجواز من المغرب لافتتاح مدينة جبل طارق، أي في شـــهر ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وخمسمائة[6]، وبروايته يأخذ كـــل مـــن عنـــان

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص129-135.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص379؛ علام، الدولة الموحدية، ص212.

(3): إستجة: مدينة قديمة بالأندلس، بين القبلة والمغرب من قرطبة، بينهما مرحلة كاملة. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص53.

(4): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص145.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص67.

والغناي وأبو رميلة[1]، في حين أن مؤرخ الدولة الموحدية، وشاهد العيان ابن صاحب الصلاة يقول: " فلما كان يوم الجمعة من اليوم الذي عزم فيه بعد صلاة الفجر – أبو يعقوب – وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول وبموافقة اليوم الثاني والعشرين من مارس العجمي عام خمس وخمسين وخمسمائة خرج من الصلاة من الجامع فحين انفتل منها، ودخل القطعة المذكورة، وصله الخبر بغدر الفسقة أصحاب ابن همشك مدينة قرمونة بتدليس الشقي عبدالله ابن شراحيل فيها "[2]، أي أن استيلاء ابن همشك على مدينة قرمونة كان عند ابتداء العمل ببناء مدينة جبل طارق وليس عند افتتاحها، ونحن نأخذ بهذا الرأي لأن ابن صاحب الصلاة كاتب معاصر للأحداث وشاهد عيان.

ومهما يكن من أمر، تريث السيد أبو يعقوب في سفره إلى جبل طارق قليلاً عندما بلغه خبر اقتحام ابن همشك لمدينة قرمونة، وأرسل قوة موحدية لإنقاذها، ثم ارتحل إلى جبل طارق، ولما انتهت أعمال بناء المدينة بعد زهاء سبعة أشهر وافتتاحها، وبعد أن انصرف والده الخليفة عبد المؤمن عائداً للمغرب في أوائل سنة 556هـ/ شباط 1161م، رجع السيد أبو يعقوب إلى إشبيلية[3]، وكانت مدينة قرمونة تشغل معه كل حركاته وسكناته، وبمجرد وصوله إلى مقر ولايته أخذ بترتيب فك أسر قرمونة، فأرسل إليها جيشاً قوياً بقيادة الشيخ أبي محمد عبدالله بن أبي حفص، والذي ما برح في محاصرة المدينة وإرهاقها بغاراته المتتالية، حتى يئس أهلها من نصرة ابن مردنيش، فاتصل بعضهم بالموحدين وعرضوا عليهم إعانتهم بتسهيل دخولهم للمدينة ليلاً مقابل منحهم الأمان، فأجابهم الموحدين لذلك، ففتحوا باب المدينة وتملكها الموحدين في الحال وقبضوا على الغادر عبدالله بن شراحيل فسيق للسيد أبي يعقوب فقتله وقتل أتباعه وأشياعه، ويتفق كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذاري على أن استخلاص مدينة قرمونة من ابن همشك كان يوم الجمعة 10 محرم من سنة

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص381؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص127؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص113.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص145-146.

(3): علام، الدولة الموحدية، ص193.

557ه/ 26 كانون ثاني 1162م، وبذلك عادت قرمونة للسيادة الموحديـــة بعـــد أن ظلت تحت سيطرة ابن همشك زهاء سنتين من 15 ربيع الأول سنة 555ه/22 آذار 1160م[1]، وقد اخطأ علام عندما ذهب إلى أن استرداد الموحدين لمدينـــة قرمونـــة كان بعد سنة من سيطرة ابن همشك عليها وذلك فـــي النصـــف الأول مـــن ســـنة 556ه/1160م[2].

أثار استرداد الموحدين لمدينة قرمونة حفيظة ابن همشك، الذي عندما شعر بأن الموحدين عززوا جبهتهم في إشبيلية وقرطبة، عمد إلى مهاجمة مدينة غرناطة أقرب قواعد الموحدين إلى مملكة جيان، وكان قد أعد لذلك خطة حربية، بأن اتفق سراً مع جماعة من يهود المدينة، الذين اسلموا رغم إرادتهم، بأن يسهلوا له دخول المدينة في ليلة معينة، وعندما جاء موعد تلك الليلة وكان والي المدينة السيد أبو سعيد عثمـــان ابن عبد المؤمن، غائباً عنها في زيارة لمراكش بصحبة أخيه السيد أبو يعقوب، سار إليها ابن همشك ببعض قواته، فكسر اليهود في تلك الليلة باب الربض[3] بغرناطـــة، وتنادوا بالصياح يا للأصحاب، فاقتحم ابن همشك بقواته المدينة، بينما فـــر أنصـــار الموحدين إلى القصبة وتحصنوا فيها، ولما عجز ابن همشك من احتلال القصبة لشدة حصانتها كتب إلى صهره ابن مردنيش في مرسية يطلب منه العون[4].

ويبدو أن إرسال ابن همشك بطلب الإنجاد من ابن مردنيش جاء لأمرين، الأول: لما عاينه من حصانة القصبة وإمكانية صمودها لفترة طويلة، وفي ذلك يقـــول ابـــن صاحب الصلاة: " وأمد الله الموحدين بالقصبة، وأعانهم وثبتهم بعونـــه ونصـــرته،

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص73-74؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص181-185.

(2): علام، الدولة الموحدية، ص193.

(3): الربض: لفظ عربي، وبالأسبانية الربل، ويطلق على أحياء الأطراف، وعلى كل حي بعيد عن المركز. انظر: بروفنسال، ليفي: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة: محمد عبد الهادي شقيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة 1951م، ص99. سيشار إليه فيما بعد: بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة.

(4): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص387.

وكانت عندهم الأقوات والآلات فعدوها مع عون الله عدتهم "[1]، والثاني: لرغبة ابن همشك في الاستيلاء على كامل المدينة والتحصن بها قبل قدوم قوات موحدية لنجدتها، خاصة وأنه بلغ لعلمه أن السيد أبا سعيد قد عاد من مراكش، وأنه توجه إلى مالقة لجمع جيوش الموحدين هناك لإنقاذ المدينة[2].

لم يتوان ابن مردنيش في إنجاد قائده وصهره، فسير إليه قوة من جنده تساندها بعض الوحدات المقاتلة من النصارى بقيادة ألبار ردريجس (Alvar Rodriguez)[3] الذي تسميه الرواية الإسلامية بالعلج الأقرع[4]، ووصلت إمدادات ابن مردنيش إلى غرناطة في الوقت الذي سار فيه السيد أبو سعيد عثمان من مالقة، على رأس قوة موحدية تسانده جيوش إشبيلية بقيادة الشيخ أبي محمد عبدالله بن أبي حفص، الذي كان آنذاك والياً على إشبيلية نيابة عن السيد أبي يعقوب الذي ذهب لزيارة مراكش، ونزلت القوات الموحدية بفحص غرناطة في موضع يعرف بمرج الرقاد، فخرج إليهم ابن همشك بالنصارى وأصحابه، وأوقع بهم الهزيمة حتى تناثرت قوات الموحدين بين قتيل وأسير أو غريق في آبار المرج، وقد وصف ابن الخطيب هزيمة مرج الرقاد بقوله " فانهزم الموحدون أقبح هزيمة "[5]، واستشهد في تلك المعركة الشيخ أبو محمد بن أبي حفص، وانسحب السيد أبو سعيد بمن نجا معه من الموحدين عائداً إلى مالقة، وقصبة غرناطة لا تزال ممتنعة على ابن همشك [6].

ارتاع الخليفة عبد المؤمن لتلك الهزيمة التي أصابت الموحدين في الأندلس، فجهز جيشاً عظيماً قوامه عشرون ألفاً، ليفك به أسر غرناطة وينتقم من قتلى جنده في مرج الرقاد، وجعل على قيادته ابنه السيد أبو يعقوب يوسف، يسانده جماعة من

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص189.

(2): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص457.

(3): Huci Miranda: Historia Politica Del Impeerio Almohade, t1, Tetwan 1956, p.202.

(4): البيذق، أخبار المهدي، ص80؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص191.

(5): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص75؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص319؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص117.

أعيان وأشياخ الموحدين على رأسهم الشيخ أبي يعقوب بن سليمان مستشار الخليفة عبد المؤمن المعروف بزعيم وقته وداهية زمانه(1).

تحرك السيد أبو يعقوب بجيشه من رباط الفتح بسلا، فجاز بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء، ثم أسرع الخطى إلى أن نزل مدينة مالقة، فأجتمع هناك بأخيه السيد أبي سعيد، وبعد التزود بالمؤن الكافية من دقيق وعلوفات، خرج الموحدون إلى غرناطة، وكان ابن مردنيش عندما وقف على أخبار هذه الحشود الموحدية، خرج بنفسه لنجدة صهره ابن همشك، ونزل في الجبل المتصل بقصبة غرناطة، بينما تمركز ابن همشك بقواته البالغة نحو ثمانية آلاف فارس بالقصبة الحمراء من غرناطة فوق جبل السبيكة(2)، أما الموحدون فقد ساروا بخطى بطيئة بحسب مشورة الشيخ أبو يعقوب سليمان، رفقاً بالضعفاء وبعداً عن الإجهاد، حتى وصلوا نهر وادي شنيل(3)(Genil) بالقرب من غرناطة، ثم صعدوا ليلاً الجبل المطل على وادي شنيل، ليعسكروا على أعلاه تجاه جبل السبيكة والقصبة الحمراء التي عسكر عليها ابن همشك(4).

وفي صبيحة اليوم التالي 28 رجب من سنة 557هـ/ 12 تموز 1162م، انقض الموحدون على جند ابن همشك على حين غرة وهم في مضاجعهم، فخلطوا أحشاءهم بالسيوف والرماح، وأعجلوهم عن ركوب خيلهم، فولوا الأدبار حفاة عراة، وسيوف الموحدين تمزقهم شر ممزق، وكل ذلك وابن مردنيش على الضفة الأخرى في الجبل المتصل بغرناطة يرقب قتل اخوته وأنصاره، ويتحسر على عدم مقدرته تقديم أي

---

(1): علام، الدولة الموحدية، ص196؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص389.

(2): السبيكة: هي أرض خصبة تقع في الجنوب الشرقي لقصر الحمراء. انظر: علام، الدولة الموحدية، ص196.

(3): وادي شنيل: هو نهر غرناطة، ويعرف كذلك بوادي سنجيل، وينبع من ذوب الثلج على جبل شلير ويصب في نهر الوادي الكبير. انظر: المقري، نفح الطيب، مج1، ص148.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص194-196؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص76؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص130؛ Huci, Historia, t1, pp.202-205.

مساعدة، وما أن لاح الصباح وبرق ضوء النهار حتى أعلن عن انتصار الموحدين، وقتل في تلك المعركة التي سميت بمعركة السبيكة قائد جيـوش النصـارى ألبـار ريدريجس الأقرع، بينما انسحب ابن مردنيش عائداً إلى مملكته منهزماً من موضـع محلته، ودخل الموحدين مدينة غرناطة وسط النهار على أتم النصر والإظهـار[1]، وأعقب هذا النصر قدوم سائر قواد وأهالي البلاد المجاورة لغرناطة على السيد أبـي يعقوب في المدينة تائبين، وبالطاعة والتوحيد راغبين، كما أرسل السيد أبو يعقـوب بعض قواته في أثر ابن همشك حتى وصل قاعدته جيان[2].

ولم يفت على أبي يعقوب أن يكتب بأنباء هذا النصر إلى والده عبد المؤمن الذي كان آنذاك ينتظر أخبار المعركة برباط الفتح بسلا، فابتهج بتلك البشـرى وأصـدر أوامره من حينه لابنه في غرناطة بتحصين المدينة تحصيناً قوياً، بحيث تصبح مقر الدفاع الرئيسي للجيوش الموحدية، وبأن ينتقل مركز الحكم الموحدي بالأندلس مـن إشبيلية إلى مدينة قرطبة، وعلى أثر ذلك سار السيدان أبو يعقوب يوسف وأبو سعيد عثمان إلى قرطبة، فوصلا إليها في شوال سنة 557هـ/1162م، وعملوا علـى نقـل الكتّاب والدواوين والأموال من إشبيلية إلى قرطبة، وبقي السيد أبو يعقوب في قرطبة حتى فاتحة محرم من سنة 558هـ/1163م، ومن ثم سار إلى إشبيلية ومنها جاز إلى العدوة ليقوم بالأمر عقب وفاة أبيه[3].

5.1 **بيعته**:

عند الحديث عن البيعة بولاية العهد إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي تولى الأمر بعد وفاة والده بدلاً من أخيه الأكبر أبو عبدالله محمد الذي كان قد حصل

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص197-199؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص456؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261-262؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص443؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص119-120.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص390.

(3): علام، الدولة الموحدية، ص197؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص390-391.

على البيعة بولاية العهد مسبقاً، لا بد لنا من الوقوف مطولاً عند هذا الأمر للتعـرف على حقيقة تلك البيعة والظروف التي حصلت بها، لكثرة ما أثير حول هذا الموضوع من غلط، وتضارب في الروايات والمواقف.

فالخليفة عبد المؤمن كان في بادئ عهده قد اتفق مع الشيخ أبو حفص عمر ابن يحيى الهنتاتي[(1)] – أحد أصحابه العشرة، وممن كان له دور كبير في عقد البيعة لـه بعد وفاة المهدي – أن يلي الأمر بعده، غير أن عبد المؤمن حينما شـعر بتوطيـد ملكه، وكثر أولاده من حوله[(2)]، إذ ظهر له حين ذلك ثلاثة عشر منهم، كلهم حفـاظ خطاطون، تتوافر فيهم جميع صفات القيادة والخصال الحميدة[(3)]، قـرر أن يجعـل الملك فيهم، ووصولاً لتلك الغاية سلك طريقاً عجيباً، ينم عن ذكائه ودهائه، حيث قام في سنة 549هـ/1154م باستدعاء أمراء العرب من قبائل هـلال وزغبـه وعـدي وغيرهم، ممن دخلوا في طاعة الموحدين سنة 548هـ/1153م، فأحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة، ثم بعث إليهم من يقول لهم " اطلبوا من عبد المؤمن أن يجعل لكم ولي عهد من ولده بعده "[(4)]، ففعلوا ما طلب منهم، فتظـاهر عبـد المـؤمن بعـدم الاستجابة لهم إكراماً لأبي حفص عمر الهنتاتي، لعلو منزلته في الموحـدين، وقـال لهم: إن الأمر لأبي حفص عمر، فلما علم عمر بذلك، خاف على نفسه فحضر عنـد عبد المؤمن وأعلن خلع نفسه، عندئذ بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولايـة العهـد، وكتب بذلك إلى جميع بلاده، وأمر أن يذكر اسمه في الخطبة بعده[(5)].

---

(1): هو أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي المعروف بعمر ينتي، ويسمى أيضاً عمر ومزال، وكان اسمه الأصلي فصكة فسماه المهدي عمر، وهو شيخ قبيلة هنتاتة وجد بني حفص ملوك الموحدين بتونس، وكان من أقرب أعوان المهدي، ومن قادة الموحدين العظماء، توفي في الطاعون الجارف الذي أصاب المغرب سنة 571هـ/1175م. انظر: البيذق، المقتبس، ص32.

(2): النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص307.

(3): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص151.

(4): النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص307.

(5): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ9، ص407-408؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 194؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص260.

ثم حاول عبد المؤمن بعد تمام البيعة لابنه، أن يظهر للموحدين أنه لم يكن عنده قصد مسبق ولا رغبة مبيتة في هذا الأمر، وإنما رغبة الموحدين هي ما دفعته إلى ذلك، وهذا ما عبر عنه في الرسالة التي بعث بها إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمدينة سبتة، والمؤرخة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، بقوله: " وقد تقدم إليكم ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة، وأن ذلك لم يكن له عندنا قصد متقدم، ولا عهد متوهم، لكنه أمر أراده الله فأتمه، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه "(1).

على هذا النحو تمت البيعة بولاية العهد لأبي عبدالله محمد سنة 549ه/1154م، ولم نسمع بعد ذلك خوض في هذا الموضوع حتى كانت سنة 558ه/1163م، وهي السنة التي توفي فيها الخليفة عبد المؤمن واعتلى سدة الحكم السيد أبو يعقوب بدلاً من أخيه محمد، فما الذي حدث حتى أدى إلى تقديم أبي يعقوب وتأخير أبو عبدالله ؟.

يذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذاري أن الخليفة عبد المؤمن عندما اشتد عليه مرضه الذي توفي به، أمر بتنحية ابنه محمد من ولاية العهد وإسقاط اسمه من الخطبة، وكان ذلك يوم الجمعة 2 جمادى الآخرة من سنة 558ه/15 أيار 1163م، أي قبل وفاته بأسبوع واحد فقط، ويضيف ابن صاحب الصلاة " وفهم الناس أن الجرحة (التهمة) الموصوفة قد قضى بها، واسقط من الخطبة بسببها "(2)، وهنا يشير ابن صاحب الصلاة إلى ما ثبت عن ولي العهد السابق أبو عبدالله محمد من شرب الخمر وظهور السكر عليه أثناء رجوع عبد المؤمن من زيارته لقبر المهدي في تينملل، وذلك أنه تقيأها على ثيابه وسرجه وهو راكب على فرسه، أمام حشود تضم شيوخ وعظماء الموحدين، ومن ذلك الحين عقد عبد المؤمن عزمه على خلعه لما تأكد له من فساده وعدم صلاحه للخلافة(3).

---

(1): مجموع رسائل موحدية، ص61-62.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص221؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص79.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص216-217.

ويذكر البيذق وهو من شاهدي العيان، أن أبو حفص عمر شقيق السيد أبو يعقوب يوسف كان هو صاحب المبادرة في تقديم شقيقه يوسف لولاية العهد في فترة مرض والدهما، فيقول: " ثم مرض الخليفة وكان الأمير عمر وزيره، فوجه إلى أخيه يوسف إلى إشبيلية، وأعطاه الولاية وبايعه الناس "[1].

ويذكر ابن الأثير أن عبد المؤمن لما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال لهم " قد جربت ابني محمداً فلم أره يصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف، وهو أولى بها، فقدموه، ووصاهم به وبايعوه "[2]، ويورد النويري رواية بنفس المعنى الذي قدمه ابن الأثير[3].

أما ابن أبي زرع فيذكر أن عبد المؤمن عندما شعر بدنو أجله أمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد، وإسقاط اسمه من الخطبة لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة، وكان ذلك يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكتب بذلك إلى جميع البلاد بطاعته[4]، ويتفق السلاوي مع ابن أبي زرع في كل ما ذهب إليه بهذا الشأن[5].

وينفرد الزركشي برواية تشير إلى أن عبد المؤمن عندما اطمأن على تحرير غرناطة وهزيمة ابن مردنيش سنة 557هـ/1162م، استدعى ابنه أبا يعقوب من الأندلس لمراكش لولاية العهد عوضاً من أخيه محمد فلحق بمراكش وخرج مع أبيه للجهاد، وكان ملازماً له عندما حضرته الوفاة[6].

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص81.

(2): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص461.

(3): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص321.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 202.

(5): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص275.

(6): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص13.

وإلى جانب هذه الروايات الإسلامية يقدم لنا المستشرق الألمـاني أشـباخ، رأي آخر مفاده أن عبد المؤمن قام بعزل ابنه محمد من ولاية العهد، قبل وفاته بقليل لمـا نسب إليه من تدبير مؤامرة لقتله لكي يلي الملك بسرعة[1].

يظهر لنا مما سبق أن الخليفة عبد المؤمن ارتأى إلى خلع ابنه محمد من ولايـة العهد في حياته، وذلك قبل وفاته بأيام، لما تأكد له من أمور لا يصلح معهـا ابنـه للخلافة، وحسب رواية ابن صاحب الصلاة فان السبب المباشر لاستبعاد محمد مـن ولاية العهد هو شربه للخمر، ونحن نعلم ما كان عليه عبد المؤمن من شدة تعصـبه للدين ولتعاليم سيده المهدي، لدرجة لا تستقيم معها أن يرضى على نفسه أن يخلفـه في الأمر ممن عرف عنه الدعة والانحلال.

وعلى الرغم أن هناك من شكك في صحة رواية ابن صاحب الصلاة، بحجة أن الخمر لم يكن منتشراً في عهد الخليفة عبد المؤمن[2]، نقول أن بيع وشرب الخمر لم يكن منتشراً كما كان نهاية عصر المرابطين حيث كان يباع نهـاراً جهـاراً[3]، وإذا كان عبد المؤمن قد رام قطع الخمر من جميع ولاياته، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، لكن ذلك لا يعني انقطاعه نهائياً، فبقي ولو على الأقل سراً بين فئات معينه، بـدليل عودة الخمر للانتشار في نهاية عهد الخليفة أبو يعقوب، وهذا ما دفع ابنه الخليفة أبو يوسف يعقوب أن يقوم في بداية عهده " بإراقة المسكرات وقطعها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفذ المخاطبات بذلك إلى كافة ولاته بالأمصار، فأريق منها في البلاد ما يساوي أموالاً جمة "[4]، ثم أن شراب الرب وهو الطبيخ الخـاثر مـن عصير العنب الذي كان مفعوله لا يختلف كثيراً عن مفعول الخمر، كان من الأشربة المعهودة في عهد الخليفة عبد المؤمن، وكان له آنذاك سـوق خاصـة بـه بمدينـة مراكش، وكان الموحدون يشربونه في احتفالاتهم وسفراتهم وغزواتهم، وكان السـيد

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص62.

(2): انظر مثلاً: الغناي، مراجع عقيلة: سقوط دولة الموحدين، ط2، مطابع الثورة للطباعة والنشر، بنغازي 1981م، ص83. سيشار إليه فيما بعد: الغناي، سقوط دولة الموحدين.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ5، ص50.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص173.

أبو عبدالله محمد نفسه قد شربه أثناء غزوة المهدية سنة 555ه/1160م، وافشي بــه لوالده على أنه يشرب الخمر، فلما تبين أنه شراب الرب عفــى عنــه[1]. غيــر أن الموحدين لم ينتبهوا إلى مفعوله الذي لا يختلف كثيراً عن مفعول الخمر إلا في سنة 580ه/1184م، فمنعوه وصادروا أدواته[2].

ويذهب الغناي إلى أبعد من ذلك، فيقول " أنه لو صح القول بشرب محمــد بــن عبد المؤمن الخمر ووقوف والده على هذا الأمر، فما الذي يفسر لنا عدم إنزال عبد المؤمن بابنه العقاب وإيقافه الحد "[3]، نجيب على تساؤل الغناي هــذا، بــأن عبــد المؤمن قد عزم فعلاً على إقامة الحد على ابنه، فأمر بقتله، إلا أن الشيخ أبو حفــص عمر الهنتاتي تدخل في الأمر واستطاع إقناع الخليفة بالعدول عن أمــره، بعــد أن استوثق منه وصيته بتقديم يوسف لولاية العهد بدلاً من محمد هذا[4].

أما عن رواية أشباخ فيشوبها الكثير من الغموض، إذ لم يدعمها بالنص، ثــم أن جميع المصادر الإسلامية التي أمكن الاطلاع عليها لم تشر أو حتى تلمح لذلك، وهذا ما يجعل التهمة التي ساقها أشباخ بحق السيد أبو عبدالله محمد غير وارده.

وهكذا نلاحظ أن خلع السيد أبو عبدالله محمد من ولاية العهد وإسقاط اسمه مــن الخطبة، قد تم في حياة الخليفة عبد المؤمن وقبل وفاته بأيام، وانه في نفس الوقــت الذي خلع فيه محمد، تمت البيعة لأبي يعقوب يوسف الذي كان غائباً بإشــبيلية، وأن الخليفة عبد المؤمن كان قد أخذ عهداً على الشيخ أبي حفص الهنتاتي وابنه أبو حفص عمر بتقديم يوسف للخلافة من بعده، وهذا ما يفسر لنا سر تقديم عمر لشقيقه يوسف لتولي الأمر عقب وفاة والده، والعمل مع الشيخ أبو حفص الهنتاتي علــى اســتتباب الأمر وأخذ البيعة لأبي يعقوب.

وفي مقابل هذه الروايات التي تشير إلى خلع محمد من ولاية العهد فــي حيــاة والده، نجد أن هناك فريق آخر من المؤرخين يؤكد اعتلاء محمد بن عبــد المــؤمن

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص174-175.

(2): مجموع رسائل موحدية، ص164-167.

(3): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص84.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص79.

لسدة حكم الدولة الموحدية لمدة خمس وأربعين يوماً ثم أنه خلع خلعاً، وفي ذلك يقول المراكشي: " لما مات عبد المؤمن، اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافــاً كثيراً، فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً، واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة، وكان الذي سعى في خلعه أخــواه يوســف وعمــر "[1]، ويضــيف المراكشي " ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن: يوسف وعمر، فأباها عمر منهمــا، وتأخر عنها مختاراً، وبايع لأخيه أبي يعقوب، وسلم له الأمر "[2].

ويورد ابن خلكان رواية بنفس المعنى، فيقول: " لما توفي عبد المؤمن خلع ابنه محمد واستقل ولده يوسف في الملك، وكان ولي العهد قبله أخوه محمد، ونقش اسمه على الدنانير، وكان ذلك باستخلاف أبيه وتحليفه الجند له، فظهر منه إشغال بالراحة، وانهماك في البطالة فخلفه يوسف "[3].

أما السلاوي فيورد لنا رواية أكثر تفصيلاً، فيقول: " فلما مات عبد المؤمن لم يتم له – أي محمد – لأنه كان على أمور لا يصلح معها للمملكة مــن إدمــان شــرب الخمر، واختلال الرأي، وكثرة الطيش وجبن النفس، ويقال مع هذا كلــه كــان بــه ضرب من الجذام، واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع، وكانت مدة ولايتــه خمسة وأربعين يوماً "[4].

ويختصر الذهبي روايته في هذا الشأن فيقول " تملك – أي يوسف – بعد أخيــه المخلوع محمد لطيشه، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف "[5].

يفهم من هذه الروايات أن محمد تولى الخلافة بعد والده، ثم أنه خلع بعد خمــس وأربعين يوماً، لأمور عيبت عليه من قبل أخوته وأشياخ الموحدين، وهــذه الأمــور هي:

---

(1): المراكشي، المعجب، ص173.

(2): المراكشي، المعجب، ص174.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جــ7، ص130.

(4): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص275.

(5): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ21، ص99.

1. إدمانه على شرب الخمر.
2. كثرة طيشه وجبن نفسه.
3. عدم صلاح رأيه.
4. اصابته بمرض الجذام.

وتجعل هذه الروايات اليد الطولى في خلع محمد بن عبد المؤمن من الخلافة، لأخيه السيد أبو حفص عمر، الذي كان يشغل منصب الوزارة في أواخر حياة والده، وكانت له سيطرة على أمور الدولة، فأراد خلع أخيه غير الشقيق، وتقديم أخيه الشقيق يوسف للحكم بدلاً منه.

وهكذا نجد أنفسنا مما سبق ذكره، أمام فريقين مختلفين من المؤرخين، وكلاهما لهما وزنهما ومكانتهما التي لا يمكن تجاوزها في التاريخ الإسلامي العام، وتاريخ الدولة الموحدية الخاص، وهذا ما يقودنا للقول أن السيد أبا عبدالله محمد قد اسقط من ولاية العهد في حياة والده، بيد أنه استمسك بالأمر عقب وفاة أبيه، رافضاً الخضوع لقرار العزل، هذا في الوقت الذي قاد فيه أخوته يوسف وعمر حملة دعائية ضده صورته بعدم لياقته للحكم وأن أمور الموحدين لا تستقيم بوجوده، مستغلين في تلك الحملة حادثة شرب محمد للخمر التي يعلمها عامة الموحدين، وهذا ما يفسر لنا انقسام أفراد بيت عبد المؤمن بين مؤيد ومعارض لأخيهم يوسف في بداية عهده، فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبو محمد عبدالله والي بجاية، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة إلى حين أن تتضح الصورة الحقيقية، وإلى من ترجح كفة الأمر بين أخويهما محمد ويوسف.

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن السيد أبو حفص عمر والشيخ أبو حفص الهنتاتي، قد أخذا بتوضيح الأمر للموحدين، وخاصة للجند المجتمعين في سلا، الذين كانوا قد تجهزوا للجهاد في الأندلس مع الخليفة عبد المؤمن قبل أن تعاجله منيته هناك، بأن البيعة بالخلافة لأبي يعقوب، وذلك لما بلغ لعلمهما تسرب الانقسام إلى صفوفهم وتعاطيهم أحاديث تخص الأمر، فيقول: وأعلم السيد أبو حفص عمر والشيخ المرحوم أبو حفص، الموحدين أعزهم الله، بخلافة أبي يعقوب يوسف وانفراده، وبما كان من تقديمه له بالشهادة، وذكّرهم الشيخ أبو حفص " بما يجب عليهم في دينهم وصلاح

تعيينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومســـنونهم وبحــق البيعـــة.. وشغلهم بأنفسهم من الأحاديث بالخزعبلات، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح بقراءة الحزب.. وكملت البيعة بأكمل خلوص السرائر"[1].

وبعد أن نجح السيد أبو حفص عمر والشيخ أبو حفص الهنتاتي في كسب أشياخ وأعيان الموحدين، قاموا بخلع محمد من الحكم خلعاً رغم إرادته، ولكي يضمن السيد أبو حفص عمر زوال خطر أخيه، قام بسجنه، وهذا مـــا يؤكـــده البيـــذق بقولـــه: " ووجهوا محمداً إلى أغمات فسجنوه فيها"، غير أن الشيخ أبو حفص عمر الهنتـــاتي عاد وأطلق سراحه[2].

وكيفما كان الأمر تمت البيعة لأبي يعقوب يوسف بالخلافة باتفاق مـــن عامـــة الموحدين، فبعد أن حمل جثمان والده الذي توفي في مدينة سلا ليلـــة الجمعـــة 10 جمادى الآخرة من سنة 558ه/1163م[3]، ودفن في تينملل إلى جوار قبر المهـــدي، وبعد أن تم خلع أخيه محمد، ورضي محمد بالخلع سواء أكان طائعاً أو مكرهاً، قدم يوسف إلى مراكش واعتلى العرش، وكتب إلى جميع عمالـــه بـــالمغرب وإفريقيـــة والأندلس في طلب البيعة، فوردت إليه من سائر النواحي، وهناك من يشير إلـــى أن السيد أبو حفص عمر كتم خبر وفاة والده إلى أن كملت البيعة لأبي يعقوب من جميع البلاد[4]، ولم يتأخر عن بيعته سوى ثلاثة من أخوته وبعض أشياخ الموحدين ممـــن كانوا حولهم، وهم: السيد أبو الحسن علي، والسيد أبو عبدالله محمد والـــي بجايـــة،

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص232-233.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص82.

(3): تتفق معظم المصادر التاريخية على أن وفاة عبد المؤمن بن علي كانت في جمادى الآخرة من سنة 558ه/1163م، غير أنها تختلف في تحديد اليوم ما بين الثلاثاء والخميس، وتاريخه مابين 8 و10 و27 من الشهر المذكور. انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص81؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص79؛ المراكشي، المعجب، ص173؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 202؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص205؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص112-113؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص275.

(4): النويري، نهاية الأرب، جـــ24، ص321-322.

والسيد أبو سعيد والي قرطبة، وهذا ما جعل الخليفة أبو يعقوب يكتفي في بداية حكمه بلقب الأمير فقط(1).

أما عن مصير الأخوة الذين عارضوا البيعة، وإلى ما انتهت إليه حالهم، نجد أن الخليفة أبو يعقوب قد سايرهم بالاستعطاف والاستدعاء حتى استقامت له حـــالهم، أو سارعت لهم آجالهم، فالسيد أبو الحسن علي بن عبد المؤمن الذي كان حاضراً وفـــاة أبيه والبيعة لأخيه، قد سار إلى تينملل فشارك في مواراة والده الثـــرى، ثـــم لـــزم العزلة، فمات سريعاً من الحقد والحسد الذي داخلته نفسه تجاه أخيه، وكانت وفاته في أواخر سنة 558ه/1163م(2).

أما عن أبو عبدالله محمد، فيذكر ابن صاحب الصلاة، أنه توجـــه إلـــى ولايتـــه ببجاية، فأقام بها متردداً في البيعة، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وأخيه أبـــو يعقـــوب يكاتبه بالاستلطاف ويستدعيه لحاضرته، إلى أن وافق بعد سنة ونصف على إعطاء البيعة، فخرج من بجاية قاصداً مراكش، غير أن منيته عاجلته في الطريق وذلك في عام 560ه/1165م(3).

أما السيد أبو سعيد عثمان والي قرطبة، فقد حرص الخليفة أبو يعقـــوب علـــى استمالته وأخذ بيعته، نظراً لأهمية المكان الذي يشغله، والبلد الذي يرأسه، وســـابق الصحبة التي به جمعته، فبعث في استدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين من أصحاب المكانة والقدر؛ وهم أبو عبدالله بن أبي إبراهيم وأبو يحيى بن أبي حفص وأبو الربيع سليمان بن داود، فلما وصلوا إليه تمارض في بادئ الأمر ثم قابلهم واعـــداً إيـــاهم

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص11-13.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص84.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص239. ويزعم ابن سعيد أن أبا يعقوب وأبا حفص خافا من خروج أخيهما محمد عليهما لما كان عليه من النجدة والشجاعة، فدسا إليه جاريه جميله سمته في خرقة الجماع. انظر: ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 685ه / 1286م): الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: ابراهيم الإبياري، دار المعارف، القاهرة 1945م، ص131. سيشار إليه فيما بعد: ابن سعيد، الغصون اليانعة.

بالبيعة قريباً، وعندما تأخر قدومه وتكلم الناس في ذلك وكثرت الأقاويل، ذهب إليــه أخيه أبو حفص عمر بنفسه على رأس وفد كبير من أشياخ الموحدين، وكان قد كاتبه لملاقاته في جبل طارق، فاستجاب السيد أبو سعيد لطلب ورجاء أخيه، وقدم إلى جبل طارق على رأس وفد عظيم من أهل الأندلس، من أشياخ إشبيلية وقرطبة وغرناطة، فالتقى بأخيه هناك ثم سارا سوياً لمراكش، فلقيهم الخليفة أبو يعقوب خارج مــراكش على أوفى الاستبشار والسرور، وكان وصولهم لمراكش في أول رجب مــن عــام 560ه/1165م، فتمت البيعة من أبي سعيد لأخيه الخليفة، ليسدل بذلك الستار علــى صفحة من الخلاف بين الأشقاء، انتهى بصفاء النفــوس، وابتهــاج الوجــوه بعــد العبوس[1].

ويذكر يوسف بن عمر مؤرخ دولة الموحدين، أن يوسف بويع بيعة الجماعــة، واتفقت الأمة على بيعته يوم الجمعة ثامن ربيع الأول سنة 560ه/1165م، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين، وبعد أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان، وتسمى منذ ذلك الوقت بأمير المؤمنين[2].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، في ذات صلة بموضوع البيعة، أنه في أوائل ســنة 563ه/1167م، وبعد أن وفق الخليفة أبو يعقوب في القضاء على جميــع الثــورات المناهضة لحكمه في شمالي المغرب، اتفق رأي الموحدين على تجديد البيعة واللقب بأمير المؤمنين له[3]، في إجراء إن دل على شيء إنما يدل على إجماع سائر بــلاد المغرب والأندلس الإسلامية على الطاعة، ويذكر ابن عذاري أن الخليفة أبا يعقــوب تسمى بأمير المؤمنين في هذه السنة 563ه/1167م[4].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص237-260؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص84-87؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص12-13.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 208-209.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210؛ ابن خلدون، العبر، جــ 6، ص320.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص98.

6.1 وفاته:

تشكل وفاته في ساحة المعركة محط اعتزاز، ومنزل إعجاب لكل من اطلع على سيرة هذه الشخصية الفذة، الذي نذر نفسه وروحه للجهاد في سبيل الله والذود عــن حمى الإسلام، إذ أنه من غاية الندرة أن نسمع بسقوط حاكم أو سلطان دولــة فــي ساحة المعركة، بيد أن الخليفة أبو يعقوب سطر بسيرته وحادثة وفاته صفحة ناصعة البياض في تاريخ الدولة الموحدية خاصة، والإسلامية عامة، بسقوطه شهيداً تحــت أسوار مدينة شنترين(Santarem)[(1)] وهو يجاهد في سبيل الله.

وذلك أنه في سنة 580هـ/1184م عبر الخليفة أبو يعقوب بحر الزقاق إلى بــلاد الأندلس، على رأس جيش عظيم قدر عدده بأكثر من مائة ألف فارس، مــن أنجــاد العرب الفرسان والموحدين[(2)]، من أجل الجهاد وغزو بلاد النصارى، فوصل إلــى مدينة إشبيلية حاضرة الأندلس في 13 صفر من السنة المذكورة، ثم تحــرك منهــا غازياً إلى أن وقف بقواته على أبواب مدينة شنترين يوم الأربعاء 16 ربيــع الأول 850هـ/1184م[(3)]، وفور وصوله أدار عليها الجند والعساكر وشد عليهــا بالقتــال، وضيق عليها الحصار، غير أن حصانة المدينة، وتجهز أهلها بالأقوات والســلاح، حال دون امتلاكها[(4)]، ولما طال حصار الموحدين للمدينة دون جــدوى[(5)]، حــدث خطب في صفوف الجند، أدى إلى انتشار أخبار مفادها أن الخليفة قــد قــرر رفــع الحصار عن شنترين، فأحدث ذلك هرجاً في معسكر المسلمين، فتسابق الجيش فــي الانسحاب ليلاً في فزع واضطراب، حتى لم يبق مع الخليفة في صباح اليوم التالي

---

(1): شنترين: مدينة بالأندلس، معدودة في كور باجة، بينها وبين بطليوس أربع مراحل. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص346.

(2): الحميري، الروض المعطار، ص346.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص160.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 214؛ المراكشي، المعجب، ص189.

(5): تراوحت مدة الحصار حسب الروايات الإسلامية ما بين 20-30 يوماً. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ10، ص126؛ الحميري، الروض المعطار، ص346؛ المقري، نفح الطيب، مج4، ص379؛ النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص326.

إلا قلة من الناس[1]، فانتهز الفرنج الفرصة بعد أن تحققوا ذلـك مـن جواسيسـهم، ففتحوا أبواب المدينة وخرج جميع من فيها قاصدين أخبية الخليفة وهـم يصـيحون (الراي ! الراي !)، أي اقصدوا السلطان، لأن كلمة الراي معناها الملك، فـاقتحموا أخبية الخليفة فمزقوها وأقتحموا عليه فيها، فتصدى لهم الخليفة بكل رباطة جـأش، حتى قتل منهم بسيفه ستة رجال، غير أن أحدهم تمكن من طعنه، طعنة نافذة تحـت سرته، وقتل في الحال ثلاث من جواريه كن قد انصببن عليه حتى طعـن وسـقط بالأرض، فتصايح الناس والفرسان والعبيد وقواد الأندلس، فتدارك المسلمون الموقف وعادوا لنصرة الخليفة ومن معه، فقاتلوا النصارى قتالاً شديداً حتى ردوهـم عـن الخباء، وبعد قتال دام قرابة الساعة انهزم النصارى فتراجعوا على أعقابهم إلى داخل المدينة، والمسلمون يعملون بهم السيف، فقتلوا منهم خلق قدر بما يزيد على عشـرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم حمل الخليفة وجراحه تنزف على محفـة وسار به الجند إلى مدينة إشبيلية، إلا أن جراحه لم تمهله فمات بالطريق بعد ليلتين أو ثلاث[2].

كانت هذه رواية المراكشي وابن أبي زرع في سبب وكيفية وفاة الخليفـة أبـي يعقوب، ويؤيدهم في فيما ذهبا إليه من أن الجراحات التي أصيب بها الخليفـة فـي ساحة المعركة هي سبب الوفاة كل من ابن عذاري والذهبي واليافعي وابن الخطيب وابن أبي دينار[3]، إلا أن هناك من كان له رأي آخر في هذا الشأن، إذ جعل ابـن الأثير وأبو الفداء والحميري[4]، سبب الوفاة مرض عرض له أثناء الحصار، أقـام

---

(1): اليافعي، مرآة الجنان، جـ3، ص317؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص39.

(2): المراكشي، المعجب، ص189-190؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 214-215؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2008م، ص715. سيشار إليه فيما بعد: سالم، تاريخ المغرب.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص163-164؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ21، ص102؛ اليافعي، مرآة الجنان، جـ3، ص317؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص269؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص114.

(4): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص126؛ الحميري، الروض المعطار، ص346؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، جـ3، ص67.

يرحل به على دابته مضطجعاً على فراشه وضعفه يتزايد إلى أن مات، هــذا فـــي الوقت الذي ترددت فيه رواية ابن خلكان وابـــن خلـــدون والمقـــري والزركشـــي والنويري[1]، فجعلوا سبب الوفاة ما بين الإصابة بجراح خطيرة على يد العدو سواء أكان ذلك بطعنات أو سهم أصابه، وما بين مرض طرقه أثناء الحصار، ويقدم لنـــا أشباخ رأي آخر في سبب الوفاة، إذ يجعله أحد أمرين، إما غرقه بالنهر حين تـــدافع الجيش الفار من وجه النصارى، وإما متأثراً بجراح أصيب بها مـــن قبـــل الفـــرنج فتوفي حين عودته إلى إشبيلية[2].

ويبدو لنا من خلال الاطلاع على هذه الروايات، أن أغلبها وخاصة الموحديـــة منها قد أجمعت على أن سبب وفاة الخليفة أبو يعقوب، الجراح التي أصـــيب بهـــا بالمعركة مع النصارى تحت أسوار شنترين، ثم أن من ترددت روايتهم من مؤرخين حول سبب الوفاة، جعلوا الإصابة بساحة المعركة أحد خياراتهم، فابن خلدون يقول " وهلك في ذلك اليوم الخليفة، يقال من منهم أصابه في حومة القتال، وقيل من مرض طرقه "[3]، أما الزركشي فيقول: " وهلك الخليفة من ذلك اليوم من سهم أصابه فـــي ساحة القتال.. وقيل من مرض طرقه "[4]، أما ابن خلكان فيورد أولاً روايـــة ابـــن الأثير وهي أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن " حاصر مدينة شنترين شهراً فأصابه مرض فمات منه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة وحمل في تابوت إلـــى إشبيلية "[5]، ثم يقول: ولما فرغت من ترجمة يوسف بن عبد المؤمن صاحب هـــذه

---

(1): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص136،132؛ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص325؛ المقري، نفح الطيب، مج4، ص379؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14؛ النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص326-327.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص75.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص325.

(4): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14.

(5): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص132؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص126.

الترجمة، وجدت ما فيه فوائد من أخبار المغاربه وغيرهم، فنقلت ما يضاف إلى هذه الترجمة، فيورد رواية المراكشي السالفة الذكر[1].

أما الروايات التي جعلت المرض المفاجئ سبب وفاة الخليفة، فإن أصحاب هذا الرأي اعتمدوا على ما أورده ابن الأثير، وعلى الرغم مما يمتاز به ابن الأثير مـــن مصداقية في التاريخ الإسلامي، إلا أن روايته هنا يكتنفها الكثير من الغموض فهو لم يبين سبب المرض ونوعه، ثم أنه يجعل تاريخ الوفاة في شهر ربيع الأول مخالفـــاً بذلك جميع الروايات بهذا الشأن التي تجمع على أن بداية الحصار كان بعد منتصف ربيع الأول واستمر قرابة الشهر، أضف إلى ذلك أن مجريـــات الأحـــداث العامـــة للحصار والظروف والهيئة التي تم بها الانسحاب عن شنترين بحيث تأخر انسحاب الخليفة، كلها تسقط فرضية المرض وترجح رواية استشهاده بجراحه الخطيرة التـــي اصيب بها في ساحة المعركة. أما روايـــة أشـــباخ المتعلقـــة بـــالغرق فـــي نهـــر التاجة[2](Tajo) عند عبور الجيش، فهي غير راجحة إذ لم ترد على ذكرها أي مـــن المصادر الإسلامية، ولو صحت هذه الرواية لكان اطلع جميع المشاركين في الغزوة على ذلك، وانتشر خبر الوفاة بينهم في حينه، خاصة إذا ما علمنا أن هناك من يرجح كتمان خبر الوفاة إلى حين وصول جثمانه إلى مدينة سلا[3].

أما عن تاريخ الوفاة فيكتنفه أيضاً بعض الغموض، مما يصعب اســـتجلاؤه إزاء مختلف الروايات المتناقضة، وعلى الرغم من اتفاق جميع الروايات على أن الوفـــاة كانت يوم سبت من سنة 580ه/1184م، إلا أنها اختلفت في تحديد تـــاريخ اليـــوم والشهر، إذ نجد أنفسنا أمام ثلاثة أراء يمثلها مجموعة من المؤرخين، الأول يقـــول بأنها كانت في السابع من رجب، ويأخذ بها المراكشي بقوله: " كانت وفاتـــه يـــوم

---

(1): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ7، ص133-136.

(2): نهر التاجة: ويعرف أيضاً بنهر أشبونة، ينبع من الجبال المتصلة بقلعة كبريال التي تقع إلى الشمال الغربي من الفنت، فيمر بمدينة طليلطة وطلبيرة ثم مدينة شنترين ويصب في المحيط الأطلسي. انظر: أرسلان، الحلل السندسية، جـــ1، ص104.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 215.

السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة 580ه "[1]، ويتفق معه في ذلك ابن خلكان واليافعي والذهبي والنويري[2]، أما الرأي الثاني فيجعل تــاريخ الوفاة، الثامن عشر من ربيع الآخر، ويأخذ به ابن أبي زرع بقوله " كانت وفاته يوم السبت الثامن عشر من ربيع الآخر من سنة ثمانين وخمسمائة / 29 يوليوز (تموز) 1184م "[3]، ويؤيده ابن عذاري وابن القاضي والزركشي[4]، في حــين أن الــرأي الثالث تمثله روايات مفرده خاصة بأصحابها، فأبن الأثير يقول إنه مات في ربيــع الأول[5]، وابن الخطيب يجعلها في ليلة الثامن والعشــرين مــن ربيــع الآخــر[6]، والسلاوي يقول " كانت وفاته يوم السبت العاشر من ربيــع الآخــر ســنة ثمــانين وخمسمائة "[7].

وبما أن الحملة انطلقت من إشبيلية في نهاية شهر صفر، ووصلت إلى شنترين في منتصف ربيع الأول، ودام الحصار لقرابة الشهر، فإن الــرأي الأقــرب إلــى الصواب هو الرأي الثاني، القائل بأن تاريخ وفاة الخليفة أبو يعقوب يوسف كان يوم السبت 18 ربيع الآخر 580ه/29 تموز 1184م، وكان له من العمر عندما حضرته الوفاة سبع وأربعون سنة، ودامت فترة ولايته أحدى وعشرين سنة وعشــر أشــهر وثمانية أيام[8].

---

(1): المراكشي، المعجب، ص191.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جــ7، ص136؛ اليافعي، مرآة الجنان، جــ3، ص317؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ21، ص102؛ النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص327.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 215.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص164؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص555؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14.

(5): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ10، ص126.

(6): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص269.

(7): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص283.

(8): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14.

وعقب وفاته صلى عليه الجند صلاة الجنازة يوم السبت، بعد صلاة العشاء وهم لا يعرفون على من صلوا، ثم حمل جثمانه إلى تينملل فدفن إلى جانب قبر أبيه[1].

(1): المراكشي، المعجب، ص191؛ سالم، تاريخ المغرب، ص715؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص40.

الفصل الثاني

ثورات المغرب والأندلس في عهد الخليفة أبي يعقوب

1.2 ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس:

1.1.2 التعريف بابن مردنيش:

هو أبو عبدالله محمد بن سعد بن محمد الجذامي بن مردنيش، ولد سـنة 518هـ /1124م بقلعة حصينة من أعمال مدينة طرطوشة[(1)](Tortosa) يقال لهـا بنشـكلة (Peniscola)[(2)]، ونشأ في أحضان والده سعد الذي كان يتولى آنـذاك للمـرابطين مدينة أفراغة[(3)](Fraga) وما والاها من ثغور شرق الأندلس[(4)]، فهو بذلك من أسرة ذات رئاسة أثرت في شخصيته، فمال للقيادة وعمره لم يتجاوز احـدى وعشـرون سنة.

وهناك تضارب في الروايات حول أصل ابن مردنيش، فالبعض يجعله من أصل عربي، ويرجعونه في نسبه إما إلى قبيلة جذام، وإما إلى قبيلة تجيب[(5)]، والـبعض الآخر جعله من أصل أسباني على اعتبار أن مردنيش أو مردانيش أو مرذنيش وهو الاسم الذي عرف به جده ليس اسماً عربياً، مما يقطع بأن نسبته الجذاميـة ليسـت صحيحة، ولإزالة اللبس ما بين النسب العربي والأصل الأسباني، برر مـن تبنـى الرأي القائل بأن ابن مردنيش من أصل أسباني بالقول " أن اصله من أهـل شـبه

---

(1): طرطوشة: مدينة في شرق الأندلس، على ساحل البحر المتوسط، تقع في سفح جبل إلى الشمال الشرقي من بلنسية. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص391؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص285-286.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص131.

(3): أفراغة: مدينة بالأندلس، تقع إلى الغرب من مدينة لاردة، بينهما ثمانية عشر ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص48.

(4): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص121-122.

(5): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص232؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص259؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص121.

الجزيرة، وقد يكون جده مردنيش هذا دخل في ولاء بعض الجذاميين وانتسب إليهم، وهو فرض مقبول، لأن دار بطون جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بالأندلس كان شذونة[1] والجزيرة وتدمير[2] وإشبيلية "[3].

ويرى بعض الباحثين أن أصل اسم مردنيش (Martinez)، وفي هذه الحالة كان ينبغي أن يكتب بالعربية: مرتينش أو مـردينش، أمـا أن تكـون صـحة الاسـم (Martine'z) لتتمشى مع النطق العربي فأمر غير ممكن، لأن هذا الاسم لا يمكـن نطقه مع نبر المقطع الأخير[4]، وهذا يقودنا إلى أن كتابة الاسم هو Mardonius أو Martinus، وهو من اسماء البيزنطيين الذين كانت لهم جالية كبيرة في قرطاجنـة الحلفاء[5](Cartagena)، وقد يكون اسمه الأسباني (Martinez) ثم حـرف إلـى مردينش وخففت إلى مردنيش بتقديم النون على الياء ليسهل نطقها بالعربية[6] وهذا هو الراجح.

وأياً كان الأمر، فإن الثابت أن ابن مردنيش من أصل اسباني، وأن جده اعتنـق الإسلام فتسمى " محمد "، لينال بذلك شرف النسب العربي كسائر الأسـرات التـي

---

(1): شذونة (Sidonia): هي كورة جليلة القدر بالأندلس، متصلة بكورة مورور، من مدنها قادس وشريش. انظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص294؛ الحميري، الروض المعطار، ص339.

(2): تدمير (Tudmir): كورة بالأندلس، تقع شرق مدينة قرطبة، وهي من بنيان الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم، ومسافة ما بينها وبين قرطبة للراكب القاصد سبعة أيام. انظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص284-285.

(3): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص232؛ أبو الفضل، محمد أحمد: شرق الأندلس في العصر الإسلامي (515-686هـ/1121-1287م)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 1996م، ص97. سيشار إليه فيما بعد: أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي.

(4): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص232، حاشية رقم (1).

(5): قرطاجنة الحلفاء: مدينة بالأندلس، تقع بالقرب من ألش من أعمال تدمير، وهي فرضة مدينة مرسية. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص339؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص323.

(6): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص98.

نشأت بجوار دار الإسلام وكانت ترنو إلى هذا النسب لأسباب دينية أو دنيوية، ولنا في صفات ابن مردنيش وسلوكه حسبما تصورها الرواية العربية دليلاً على صحة انتمائه إلى الأصل الأسباني، فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى في زيهم من اللباس الضيق، والسلاح، واللجم، والسروج الضخمة القرابيس، وكان يؤثر التحدث باللغة القشتالية على العربية، كما كان يكثر في جيشه من المرتزقة النصارى القشتاليين والبشكنس[1] والقطلان، وميزهم عن المسلمين بإقامة أحياء خاصة بهم زودها بمختلف أنواع الحوانيت وخاصة حانات الخمور، واتخذ منهم أعوانه وقادة جنده، وأغدق عليهم بالصلات والأعطيات الوفيرة من الأموال التي كان يحصلها من المسلمين من المغارم والرسوم على الأغنام والبقر والملاهي والأعراس والمواريث[2]، وذهب إلى أبعد من ذلك بأن أقطع أحد فرسان البشكنس وهو المسمى بيدرو دي أثاجرا (Pedro Ruiz de azaqra)، مدينة شنتمرية الشرق(Santa Maria de Albarra)[3] مع سائر مرافقها وأراضيها، فأنشأ فيها الفارس بيدرو أسقفية([4]). ولإعجاب النصارى بشخصية ابن مردنيش وشجاعته كانوا يسمونه بالملك لوبو (El Rey Lobo)، أي " صاحب الذكر الحميد "[5].

---

(1): البشكنس (Vascones): هم سكان بلاد نافار (Navarra) التي كانت بنبلونة عاصمة لها، وتقع نافار شرق مملكة ليون، محاذية لجبال البرت التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا. انظر: البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز (ت 487ﻫ/1094م): جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ط1، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1968م، ص79. سيشار إليه فيما بعد: البكري، جغرافية الأندلس.

(2): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص123-124؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص260-261.

(3): شنتمرية الشرق: مدينة بالأندلس، تقع قرب أحد فروع نهر إيره (Ebro) إلى الشرق من مدينة شنتبرية، وشمال شرق مدينة مجريط. البكري، جغرافية الأندلس، ص69.

(4): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص233؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص108.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص115.

ولاستمالة الجند والقادة أخذ ابن مردنيش يغدق عليهم الأموال من ناحية، ويتسامر ويلهو معهم من ناحية أخرى، حتى ملك قلوبهم، ويصف لنا ابن الخطيب ذلك قائلاً: " كان له يومان في كل جمعة – الأثنين والخميس – يشرب مع ندمائه فيهما، ويجود على قواده، وخاصته وأجناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القيان بمزاميرهن وأعوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح"[1].

وإلى جانب فسقه وظلمه وجوره، عرف عن ابن مردنيش تميزه بالشهامة والشجاعة، فقد كان شديد العزم، يجمع بين العفو واللين، فكان يغفر بنبل ويعاقب بقسوة، وكان من أبطال عصره، فارساً نجداً يدفع بنفسه في المعارك معرضاً للأخطار حياته دون أن يبالي[2].

2.1.2 تأسيس ابن مردنيش لمملكته في شرق الأندلس:

ساعدت الظروف التي عاشتها الأندلس في أواخر عصر المرابطين محمد بن سعد ابن مردنيش على إنشاء مملكه مستقلة له في شرق الأندلس، إذ ادى ضعف الدولة المرابطية في أواخر عهد الأمير علي بن يوسف إلى جر الأسبان لاحتلال كثير من الثغور والمدن الأندلسية، وهذا ما دفع بعض الأمراء الأندلسيين عندما لاحظوا عجز الدولة المرابطية وضعفها عن حماية المدن الأندلسية، للقيام بحركات تمرد ضد ولاة المرابطين، فسيطر كل واحد منهم على بلد من البلدان الأندلسية، وكان من بين البلدان التي انتفضت على المرابطين بلنسية[3](Valencia) ومرسية وجميع شرق الأندلس[4]، وكانت بداية الثورة فيها في السابع عشر من رمضان سنة

---

(1): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص122.

(2): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص98.

(3): بلنسية: مدينة مشهورة تقع في شرق الأندلس على ساحل البحر المتوسط. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص97.

(4): الدوري، تاريخ العرب المسلمين، ص262.

539هـ/1144م، وذلك بعد اثنى عشر يوماً من قيام ثورة قرطبة، وبعد أربعة أيام من ثورة مالقة[1].

وتزعم ثورة مرسية في بداية الأمر رجل من أهل لورقة(Lorca)[2] يدعى أبـــا محمد بن الحاج[3]، ثم وبعد أقل من شهر دخل عليه عبدالله بن فتوح الثغري فأخرج ابن الحاج وتزعم هو الثورة في منتصف شوال من نفس العام، إلى أن قـــدم عليـــه زعيم آخر في نهاية شوال وهو ابن أبي جعفر[4]، فاعتقل الثغري وصهريه، وتولى هو تدبير شؤون المدينة بقية العام وبداية عام 540هـ/1145م، وكان يقول في قيامه بالإمارة: " ليست تصلح لي، ولست لها بأهل، ولكني أريد أن امسك الناس بعضـــهم عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهل "[5].

وحدث أن قتل ابن أبي جعفر على يد المرابطين عندما توجه إلى غرناطة مغيثاً لأهلها، فلما وصل خبر وفاته إلى مرسية، أجمع أهلها على تأمير أبي عبد الـــرحمن

(1): الضبي، بغية الملتمس، جـــ1، ص64.

(2): لورقة: مدينة كبيرة بالأندلس، وهي قاعدة كورة تدمير، بينها وبين مرسية أربعون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص512؛ القزويني، آثار البلاد، ص555-556.

(3): هو عبد الرحمن جعفر بن ابراهيم المعافري، يعرف بأبي محمد بن الحاج، وهو من أهل لورقة وسكن مرسية، وقد برع في الآداب، واستدعي للكتابة بحضرة مراكش سنة 528هـ/1134م، فنهض بما حمل، ثم عفي، فعاد إلى مرسية هاجراً خدمة الأمراء، زاهداً في الدنيا، فلزم المسجد إلى أن ولاه المرسيون أمرهم سنة 539هـ/1144م، وكانت وفاته بعد سنة 550هـ/1155م. انظر: ابن الآبار، المعجم، ص238-240؛ الضبي، بغية الملتمس، جـــ2، ص470.

(4): هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن موسى الخشني، من أهل مرسية، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن أبي جعفر، قيل كان مولده مع الخمسمائة، وكانت وفاته سنة 540هـ/1145م. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص258؛ ابن الآبار، التكملة، جـــ1، ص365.

(5): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص228.

ابن طاهر[1]، في أواخر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وبقي ابن طاهر في أمرته أياماً إلى أن خاطب أهل مرسية دون علمه أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن ابن عياض[2] ودعوه لتأميره على مدينتهم، فلما دخل ابن عياض المدينة في العاشر من جمادى الأولى من سنة 540ه/1145م، ترك ابن طاهر القصر الكبير وانتقل إلى داره، وعفا عنه ابن عياض لعلمه بضعفه، وحذا أهل بلنسية حذو أهل مرسية بتأميرهم عليهم ابن عياض، وبذلك استقامت الأمور لابن عياض أميراً على شرق الأندلس جميعها، فعين ابن عياض صهره وهو محمد بن سعد ابن مردنيش والياً على مرسية وأقام هو في بلنسية، وبقي ابن عياض مستقلاً في شرق الأندلس داعياً لنفسه إلى أن قضى نحبه من سهم رمي به في بعض حروبه مع الروم في 22 من شهر ربيع الأول سنة 542ه/21 آب 1147م، فحمله ابن مردنيش وقام بمواراته الثرى في بلنسية، وكان ابن عياض قد عهد بالأمر بعده إلى صهره ونائبه ابن مردنيش، فبايعه أهل بلنسية بالإمارة، وقيل بل نصبه أهلها لذلك دون عهد[3].

وهكذا تولى أبو عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش سنة 542ه/1147م إمارة بلنسية ومرسية، واستقل بشرق الأندلس وسرعان ما استطاع ضم الحصون المجاورة إليه، فامتدت مملكته من بلنسية شمالاً إلى قرطاجنة جنوباً، فعظم شأنه واشتهر ذكره[4].

---

(1): هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي، من أهل مرسية ورئيسها في الفتنة، حيث رأس بعد انقراض الدولة المرابطية يسيراً ثم تخلى عن ذلك رغبة في السلامة، توفي بمراكش سنة 574ه/1178م. انظر: ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص47؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص227-233؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص101.

(2): هو أبو محمد عبد الرحمن بن عياض، كان أحد كبار قادة جند الثغر في بلنسية قبل أن يدعوه أهل مرسية لتولي أمر مدينتهم، توفي سنة 542ه/1147م. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص230-232؛ الدوري، تاريخ العرب المسلمين، ص262.

(3): الضبي، بغية الملتمس، جـ1، ص65؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص230-232.

(4): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص75؛ الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص90.

واستطاع ابن مردنيش بفضل قوة شخصيته وفطنته، وبسبب اعتماده على شخصيات قوية بارزة سواء من أقربائه أو من الزعماء الأندلسيين، إضافة إلى دخوله في أحلاف وعهود ومواثيق مع الممالك والإمارات النصرانية، أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها في وجه مختلف القوى والتحديات التي كانت تهددها داخلياً أو خارجياً، فيذكر ابن الخطيب أنه صاهر إبراهيم بن همشك ذو الأصول النصرانية والمعروف بشهامته وكفايته الحربية وعجمة لسانه، بزواجه من ابنته منذ أول ثورته، وكان ابن همشك قد اتصل بابن عياض اثناء إمارته على بلنسية، ثم استطاع التغلب على مدينة شقورة(Segura)[1] وبقي يتملكها إلى أن خلف ابن مردنيش صهره ابن عياض في الإمارة، وبذلك أصبح ابن همشك سيفاً لصهره المذكور، مسلطاً على كل من عصاه، فقاد الجيوش وافتتح البلاد[2].

وكان ابن همشك خير معين لابن مردنيش، فقد كان جباراً قاسياً، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالخلق، لا تأخذه رحمة في خصومه وأعدائه، فكان يتفنن بتعذيبهم وينزل بهم من الوان العذاب ما تقشعر منه الأبدان، حتى أنه يحرق بعضهم بالنار أحياءً، ويقذف ببعضهم من أعلى الجبال والأبراج، وبلغ من شدته أنه يأتي بالرجل فيربطه بين أغصان الأشجار بعد ضم بعضها لبعض، ثم يترك الأغصان، حتى يذهب كل غصن بجزء من أعضاءه[3].

وتميزت علاقته بالممالك النصرانية بالودية وحسن الجوار، فمنذ أن استقرت له الأمور أرسل إلى ملوكهم صهره ابن همشك، فنجحت وساطته في عقد اتفاقيات سلم وتعاون فيما بينهم، فعقد مع صاحب برشلونة[4](Barcelona) اتفاقاً لمدة أربع

---

(1): شقورة: مدينة بالأندلس، تقع إلى الشمال من مدينة مرسية، بينها وبين اقليش ثلاثة مراحل، وكانت شقورة حسب رواية ياقوت الحموي دار إمارة ابن همشك. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص355؛ أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص116.

(2): الضبي، بغية الملتمس، جـ1، ص66؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص297-298.

(3): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص299.

(4): برشلونة: تقع في الركن الشمالي الشرقي من اسبانيا، على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين طركونة خمسون ميلاً. الحميري، الروض المعطار، ص86.

سنوات يدفع له بمقتضاها ابن مردنيش ضريبة مقدارها مائة ألف مثقال، ثم صالح ملك قشتالة[1](Castilla) مقابل أن يدفع له كذلك 50 ألف مثقال ذهباً سنوياً[2]، وتجاوزت مصانعة ومهادنة ابن مردنيش الممالك النصرانية في اسبانيا، إلى الممالك المسيحية المجاورة في أوروبا، حيث عقد في السنة الثانية لإمارته 543ه/1149م اتفاقاً لمدة عشر سنوات مع جمهورية بيزة، ثم أتبعها معاهدة أخرى مع جمهورية جنوة تعهد بموجبها أن يدفع إتاوة قدرها 10 آلاف دينار لهذه الجمهورية تسدد على مدار عامين، مقابل تعهد الجنويين بأن لا يحدثوا اضراراً لأحد من رعايا ابن مردنيش في طرطوشة والمرية، كما راسل ابن مردنيش كثيراً من ملوك النصارى وبعث لهم بالهدايا القيمة، ومن ذلك هدية قيمة من الذهب والحرير والخيل والجمال بعثها إلى ملك انجلترا[3].

وبذلك نجد أن ابن مردنيش كان حليفاً مخلصاً للنصارى الأسبان، ومناصراً لهم على المسلمين منذ بداية إمارته على شرق الأندلس، هذا في الوقت الذي اجتاز فيه الموحدون الزقاق إلى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها مما جعل مسألة الصدام بين الموحدين وابن مردنيش أمراً حتمياً لا مفر منه، ويبدو أن النصارى ما وقفوا إلى جانب ابن مردنيش وشدوا من أزره، ودخلوا معه في أحلاف وتكتلات، إلا لأنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب، بيد أن الدافع الرئيسي لمساعدة النصارى لابن مردنيش هو سعيهم لإبقاء المسلمين في حالة تفكك وفرقة، وعدم اتاحة الفرصة

---

(1): قشتالة: تشكلت مملكة قشتالة في الأراضي الواقعة بين مملكتي ليون في الغرب، ونبرة في الشرق، وكانت في بداية أمرها تتخذ من مدينة برغش عاصمة لها، ثم بعد أن استولت على مدينة طليطلة عام 478ه/1085م، نقلت العاصمة لها. انظر: حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص842-846.

(2): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص260؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص124.

(3): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص99؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص119.

للموحدين للسيطرة على كل الأندلس الإسلامية[1]، ومن هنا جاءت تسميتهم له بالملك لوبو، صاحب الذكر الحميد، لما كان له مــن دور كبيــر فــي تنفيــذ مشــاريعهم ومخططاتهم نيابة عنهم في الأندلس الإسلامية.

3.1.2 موقف الموحدين من ثورة ابن مردنيش:

1.3.1.2 الصراع بين الموحدين وابن مردنيش ما قبل عهد الخليفة أبو يعقوب:

تعود جذور ثورة ابن مردنيش كما سبق وأشرنا إلى ما قبل عهد الخليفــة أبــو يعقوب يوسف، وربما كان أول احتكاك بــين ابــن مــردنيش والموحــدين عــام 546ه/1152م، ففي هذا العام استولى ابن مردنيش على بســطة[2](Baza) ووادي آش[3](Guadix)، مما جعل أملاكه تمتد إلى مقربة من مدينة جيان، التــي كانــت يومئذ قاعدة موحدية، وصادف أن شهد هذا العام أيضاً ثورة داخليــة فــي بلنســية تزعمها عبد الملك ابن شلبان[4] مستغلاً غياب ابن مردنيش في غزوته إلى نــواحي بسطة ووادي آش، إلا أن ابن مردنيش تمكن من القضاء على الثــورة واســترجاع بلنسية سنة 547ه/1153م بعد حصار شديد، ومن ثم نكل بأهلهــا وأذاقهــم أشــد العذاب[5].

---

(1): الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص355.

(2): بسطة: مدينة بالأندلس، من أعمال كورة جيان، تقع بالقرب من مدينة وادي آش، بينها وبين جيان ثلاثة مراحل. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص86.

(3): وادي آش: مدينة كبيرة بالأندلس، تقع ضمن كورة إلبيرة، بين غرناطة وبجاية، بينها وبين غرناطة ثلاثة وخمسون كيلو متراً. انظر: حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جــ2، ص1119.

(4): هو أبو مروان عبد الملك بن شلبان، تولى ضبط مدينة بلنسية بعد مقتل صاحبه الثائر بها على ابن مردنيش، أبي الحجاج يوسف بن حامد، غير أنه لم يلبث أن قتل هو الاخر سنة 547ه/1152م، على يد ابن همشك. انظر: ابن الآبار، المعجم، ص184؛ ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص12.

(5): ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص12؛ ابن الآبار، المعجم، ص184؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص335؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص120-121.

ويبدو أن ثورة ابن شلبان كانت تعلن التوحيد، إذ لم يرق للخليفة عبد المؤمن ابن علي قضاء ابن مردنيش عليها وتنكيله بالمشتركين فيها، ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها إلى ابن مردنيش والمؤرخة في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، التي يدعو فيها ابن مردنيش إلى الدخول في الدعوة الموحدية، لافتاً نظره إلى مصير كل من خالف دعوته، ثم يلومه على ما كان منه في حق أهل بلنسية، حيث قال: " وتأملوا – سددكم الله – من كان بتلك الجزيرة – حرسها الله – من أعيانها وزعماء شأنها، هل تخلّص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويعده، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى.. وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه، فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنقل منه حادث الانتقام أخسر ما تنقل به. وحق عليكم أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا الادّكار والاعتبار.. فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد ما كان.. وليس لذاك وأمثاله عاقبة تحمد.. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موفق "[1].

كانت تلك الأحداث التي شهدتها الأعوام 546-548ه/1152-1154م، على ما يبدو أول احتكاك يتم بين الموحدين وابن مردنيش، وعلى الرغم مما أبداه عبد المؤمن من سعة صدر في مبادرته لمخاطبة ابن مردنيش، وإتباعه دبلوماسية اللين والوعيد في خطب وده، إلا أن المصادر التاريخية خلت من أي تعبير يشير إلى اكتراث ابن مردنيش بالدعوة الموحدية، أو حتى التكلف بالرد على رسالة عبد المؤمن، ولعل نزعة ابن مردنيش الاستقلالية ورغبته بالانفراد بزعامة شرق الأندلس، فضلاً عن اعتماده على أعوانه النصارى، هو ما دفعه منذ الآن فصاعداً إلى نبذ الدعوة الموحدية، وما هي إلا ثلاث أو أربع سنوات حتى غدا من ألد خصوم الموحدين وأصلبهم عوداً، وأرسخهم قوة.

وبدلاً من أن يأتي الرد على عبد المؤمن من ابن مردنيش، جاء الرد من زعيم أندلسي آخر، كان قد ثار في مرسية وتغلب عليها قبل ظهور ابن مردنيش، وهو أبو

---

(1): مجموع رسائل موحدية، ص35-37.

عبد الرحمن محمد بن طاهر القيسي، الذي خاطب عبد المؤمن برسالة طويلة تحت عنوان " الكافية في براهين الامام المهدي رضي الله عنه تعالى عقلاً ونقلاً "، حاول من خلالها أن يحصل على تأييد ونصرة عبد المؤمن ضد ابن مردنيش عن طريق محاولته اثبات أمر الامام المهدي وصدق امامته وعصمته وانتسابه لآل البيت بالدليل والبرهان[1].

ويذكر ابن الآبار أنه لما قوي سلطان ابن مردنيش وعظم شأنه اشتد خوف ابن طاهر منه، لما كان يسمع ويبصر من شهامته وحزمه، فأخذ في التلون وأقبل على الانهماك والإدمان، وزهد في الإمارة وطلب السلامة من غائلتها، وبقي طيلة فترة سلطة ابن مردنيش خائفاً، إلى أن توفي ابن مردنيش سنة 567ه/1172م، فأفرج روعه، ورسخ بالدخول في الدعوة المهدية أمنه[2].

وحدث في سنة 554ه/1160م أول صدام مباشر بين ابن مردنيش والموحدين، عندما استغل ابن مردنيش انشغال عبد المؤمن بن علي بفتح المهدية وطرد النورماند منها، فسار إلى مدينة جيان واستولى عليها بلا قتال بسبب تواطئ واليها محمد ابن علي الكومي، وقد شجع سقوط جيان السريع ابن مردنيش للتقدم للاستيلاء على مزيد من البلاد، فتوجه إلى مدينة قرطبة ونازلها، إلا أن واليها أبو زيد عبد الرحمن ابن تجيت، أحسن مقاومته ونجح في رده[3].

ليبدأ منذ هذا العام - 1160/554م - النزاع العسكري بين ابن مردنيش والموحدين، وكانت الحرب سجالاً بينهما، فكانت النتيجة تتفاوت بين النصر تارة والهزيمة تارة أخرى، ففي أوائل عام 555ه/1160م أرسل ابن مردنيش صهره ابن همشك للاستيلاء على قرطبة، فاجتاح أراضيها وانتسف زروعها، وقتل واليها عبد الرحمن بن تجيت، إلا أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها لتحصن أهلها بداخلها[4]،

---

(1): انظر رسالة ابن طاهر للخليفة عبد المؤمن في: ابن القطان، نظم الجمان، ص101-122.

(2): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص233.

(3): علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص190-191؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص111-112.

(4): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق1، ص375.

غير ابن همشك لم يشأ أن يعود إلى صهره من غزوته هذه خالي الوفاض، فتوجه من مدينة قرطبة إلى مدينة قرمونة، حصن إشبيلية وبوابتها من الجهة الشمالية الشرقية، فاستولى عليها بمعاونة أحد زعمائها في شهر ربيع الأول سنة 555ه/ آذار 1160م، ليستمر تغلب ابن همشك وسيده ابن مردنيش عليها زهاء السنتين، حتى تمكن الموحدون من استعادتها في شهر محرم من سنة 557ه/ كانون ثاني 1162م[1].

وكان ابن همشك قد استغل ضعف دفاعات غرناطة، وغياب واليها السيد أبو سعيد عثمان عنها بمراكش، فسار إليها في نفس العام الذي استولى فيه على قرمونة، فاقتحم أسوارها بمساعدة يهود المدينة، وفر أنصار الموحدين إلى قصبتها، وأمام هذه الأنباء المزعجة بادر عبد المؤمن بتجهيز جيش متميز من خيار جنده عدته ما يقرب من 20 ألف مقاتل، وأسند قيادة هذا الجيش إلى ابنه أبي يعقوب يوسف، فاتجه هذا الجيش صوب غرناطة وتمكن من استعادة المدينة بعد إلحاق هزيمة منكرة بابن همشك وصهره ابن مردنيش في المعركة المسماة بوقعة السبيكة في 28 رجب سنة 557ه/13 تموز 1163م[2].

ثم تطورت مسألة الأندلس في أواخر عهد الخليفة عبد المؤمن إلى قضية جهاد عام في أراضيها، فقام عبد المؤمن بإعداد جيش ضخم مكون من ثلاثمائة ألف فارس، وحشد أسطولاً ضخماً من أربعمائة سفينة كبيرة جهزت في الثغور المغربية، لكن لم يقدر لعبد المؤمن تنفيذ مشروعه هذا بسبب مرضه الذي لازمه حتى وفاته وهو في طريقه للأندلس في مدينة سلا في جمادى الآخرة سنة 558ه/ أيار

---

(1): السيد، محمود: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2007، ص54. سيشار إليه فيما بعد: السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين؛ خلف الله، ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي 524-936ه/1130-1529م)، دار المعارف (د.م) 1985م، ص114. سيشار إليه فيما بعد: خلف الله، العلاقات.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص73-74؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261.

1163م[1]، تاركاً لابنه أبو يعقوب تنفيذ مشروعه الجهادي في الأندلس ضد ابن مردنيش والممالك والإمارات الاسبانية.

2.3.1.2 **الخليفة أبو يعقوب وثورة ابن مردنش:**

ركز الخليفة أبو يعقوب يوسف سياسته في الأندلس، بعد أن خلصت إليه بيعة أخيه السيد أبو سعيد عثمان سنة 560ه/1165م، على محورين هامين، أولاهما: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس الإسلامية بوضع حد لثورة ابن مردنيش وانتزاع منطقة شرق الأندلس من قبضته، والمحور الآخر الجهاد ضد الإمارات والممالك النصرانية.

وما يهمنا هنا ثورة ابن مردنيش، فقد أولى أبو يعقوب يوسف اهتماماً كبيراً لمحاربة ابن مردنيش، الذي والى النصارى في داخل شبه الجزيرة الأيبيرية وخارجها، وناصب الموحدين العداء واحتل مدناً أندلسية تابعة لهم[2]، وكان أبو يعقوب يوسف وهو الذي خاض حروباً طويلة مع ابن مردنيش أثناء ولايته لإشبيلية، يعي جيداً خطر ابن مردنيش على المدن الأندلسية، التي كانت قواته قد دوخت بعضها، واقتحمت بعضها الآخر، فما ان ارتقى إلى أريكة الخلافة، حتى أخذ بتحفيز قواده في العدوة والأندلس للتصدي لهذا الغادر الذي ما برح في موالاة النصارى على حساب المسلمين، فاشتبك معه الموحدون في معارك ضارية[3].

1.2.3.1.2 **معركة وادي لك:**

كان ابن مردنيش قد انتهز فرصة انشغال الموحدين بأمورهم الداخلية عقب وفاة عبد المؤمن بن علي، فأخذ بمساعدة حلفائه من النصارى بمهاجمة قرطبة وإشبيلية، وألح عليهما بالغزو، فلما بلغ ذلك أبي يعقوب يوسف أمر بتجهيز حملة إلى الأندلس بلغ قوامها زهاء أربعة آلاف فارس معظمهم من العرب، وأسند قيادتها إلى شيخين

---

(1): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص300-301؛ خلف الله، العلاقات، ص113.

(2): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261.

(3): سالم، تاريخ المغرب، ص712.

من زعماء العرب، هما أبو سعيد يخلف بن الحسين وأبو عبدالله بن أبـــي يعقــوب يوسف ابن وانودين، وهما من شيوخ الموحدين الذين اعتمد عليهم البلاط الموحـــدي كثيراً في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس(1).

جازت هذه الحملة البحر إلى الأندلس، وفور وصولهم إشبيلية بعثوا فرقة عدتها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ضد هجمـــات النصـــارى، بينما سارت بقية الحملة بقيادة الشيخين أبي سعيد وأبي عبدالله من إشبيلية إلى مدينة غرناطة، لحماية جهاتها وتعزيز قواتها الدفاعية في وجه غارات قوات ابن مردنيش التي كانت تنشط في فصل الصيف(2).

وصلت الحملة إلى مدينة قرطبة، ثم استأنفت السير إلى غرناطة، ومـــا كـــادت القوات الموحدية تخرج من أحواز قرطبة حتى التقوا على غير ميعاد بجمـــع مـــن عسكر ابن مردنيش في وادي لك بالقرب من حصن لك، الواقع إلى الجنـــوب مـــن غرناطة على مقربه منها(3)، فنشبت بين الطرفين معركة عنيفة ظهر فيها من إقـــدام أبي عبدالله، وأعيان العرب، وصبر أهل عسكر الموحدين، ودفاعهم ما لم يظهر مثله في طيلة الحروب التي خاضها الموحدون مع ابن مردنيش، واســـتمرت المعركـــة طوال اليوم على شرب الماء في الوادي المذكور، غير أن تكافئ قوات الفريقين آلت إلى افتراقهم دون حسم المعركة، وكان ذلك في شعبان سنة 560هـ/1165م، وسميت هذه المواجهة بمعركة وادي لك(4)، وكعادة الموحدين عقـــب كـــل معركـــة، كتـــب الشيخان أبو سعيد وأبو عبدالله إلى الخليفة أبو يعقوب في مراكش يطلعانـــه علـــى

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص251.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص269-270؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص122.

(3): Huci, Historia, t1, p.225

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص88؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص15.

مجريات المعركة، وعلى ما لقيه عسكر الموحدين من هول ومشقة في ساحة القتال، طالبين منه في الوقت نفسه العون والإنجاد[1].

ويرى الغناي أن معركة وادي لك، انتهت إلى انتصار قوات ابن مردنيش، بدليل أن ابن صاحب الصلاة يشير إشارة إلى انتصار الموحدين، ولم يصرح بانتصار قوات ابن مردنيش، وهذه الإشارة أقرب إلى الدعاء بالنصر عنها إلى الإثبات، ويقدم برهانه على صحة رأيه بقوله " هو أن قائدي الجيش بعثا برسالة إلى العاصمة الموحدية يطلبان فيها النجدة، وعند وصولها ذكر ابن صاحب الصلاة أن السيد الأعلى أبا حفص قد أخذته لله غيرة عظيمة وعسكر في يومه وأمر بالتغير اليهم والإسراع بالموحدين الصابرين ونخبة الفرسان الأبطال "[2]. ولعل ما ذهب إليه الغناي أقرب إلى الصواب فميول ابن صاحب الصلاة وولائه الموحدي، لا يسمحان إليه إعلان الهزيمة، غير أن إشاراته فيها إيحاء للهزيمة مثل قوله وصول كتاب الشيخين إلى الأمير بمراكش " مستغيثين ملبين "[3].

2.2.3.1.2 **معركة فحص الجلاب:**

لقي نداء الاستغاثة الذي بعث به الشيخان أبو سعيد وأبو عبدالله إلى مراكش بعد معركة وادي لك، استجابة سريعة من الخليفة أبو يعقوب وأخيه السيد أبو حفص عمر، فقررا محاربة ابن مردنيش في عقر داره والقضاء نهائياً على ثورته، ولهذه الغاية جهيز جيش كبير ضم حشد هائل من الموحدين وقوة من الفرسان والمقاتلين العرب، من قبائل رياح والأثبج وزغبة، يقودهم شيخهم علي بن محرز، بالإضافة إلى نحو 400 فارس من فرسان المرابطين[4]، وعندما اكتمل تجهيز الحملة التي سكتت المصادر عن ذكر قوامها، جاز بها السيد أبو حفص عمر إلى الأندلس وبصحبته أخوه السيد أبو سعيد عثمان والي قرطبة في 10 رمضان سنة

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص88.

(2): الغناي، قيام دولة الموحدين، ص139.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص270.

(4): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص260.

560هـ/1165م، فنزل في إشبيلية، وهناك انضمت إليه قوات الموحدين في الأندلس البالغة زهاء أربعة آلاف فارس، وعقد السيد أبو حفص أثر وصوله إشبيلية مجلساً حربياً ضم زعماء الموحدين، تدارسوا فيه الخطط اللازمة لمواجهة ابن مردنيش، واستقر رأيهم على مبادرة ابن مردنيش بالهجوم، ومحاربته في عقر داره[1].

سار الجيش الموحدي من إشبيلية إلى قرطبة في أول ذي القعدة سنة 560هـ/ أيلول 1165م، وكانت أندوجر (Andojar)[2] أول مدينة ينازلها، وذلك لقربها من قرطبة من جهة، ولأن قوات ابن مردنيش كانت تتخذ منها منطلقاً للإغارة على قرطبة والعيث فيها من جهة أخرى، فاستولوا عليها عنوة، مما بث الرعب في قلوب أهل الحصون المجاورة لها فبادروا " بدخولهم في التوحيد، القريب منها والبعيد "[3]، وأغار الموحدون على أحواز أندوجر واستولوا على الكثير من السبي والغنائم، فازدادوا نعماً إلى نعمهم، وابتهاجاً بهذا الفتح الميسر الذي لم يستغرق من الموحدين إلا يوماً واحداً، أنعم السيد أبو حفص على الموحدين بزاد وبركة زادها فوق ما هو مرسوم لهم[4].

الهب فتح حصن أندوجر الحماس في صفوف جند الموحدين، فتقدموا نحو بلاد ابن مردنيش فاتحين الحصون والقلاع في الطريق، دون أن تصادفهم أي مقاومة حتى وصلوا إلى نواحي مدينة بسطة، فأثخنوا في نواحيها بالغارات وانتزعوا منها الأقوات، واضطر أهل هذه النواحي إلى التحصن بقلاعهم، وهذا ما دفع الموحدون إلى التجمع والتعسكر في وادي القشتالي المشرف على بسطة، لبعض الأيام في

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص88-89؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص123.

(2): أندوجر: حصن بالأندلس، يقع على نهر الوادي الكبير، إلى الشرق من مدينة قرطبة. انظر: أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص119.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص271.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص88؛ Huci, Historia, t1, p.225.

انتظار وصول تعزيزات عسكرية موحدية من جند ورماة من حاميـــة غرناطـــة[1]، وفي خلال مقام تلك الأيام انتهز السيد أبو حفص هذه الفرصة فبعث فرقة خاصة من أجناد الموحدين والعرب أغـــارت علـــى نـــواحي غليـــره (Galera)[2] وقرباقـــة (Caravaca)[3] وجبال شقورة (Sequra)، فغنموا من تلك الجهات نعم لا تحصى من الدواب والبقر والغنم، ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة تابعت الحملـــة مسيرها تجاه لورقة، واستطرد ابن صاحب الصلاة في إعطاء تفاصيل مسير الحملة، فيذكر أن الموحدين بعد أن استأنفوا زحفهم من نواحي بسطة، انتهوا إلـــى حصـــن قلية[4](Cullar)، وكان أن بادر أهل ذلك الحصن إلى اعلان الولاء والطاعـــة مـــن فورهم، ثم حاصر الموحدون مدينة بلش (بلج) [5](Vilches) بما فيها من حصـــون وقلاع، فأذعن قائدها الذي اكتفى ابن صاحب الصلاة بتسميته الشرقي دون اعطـــاء مزيد من التفاصيل عنه، للتسليم والانصياع دون قتال أو صراع[6].

ثم واصلت الحملة تقدمها نحو مدينة لورقة حتى وصلت إلى مشـــارفها، فلمـــا انتهت هذه الأخبار إلى ابن مردنيش خشي سقوطها بيد الموحدين، فحشد جميع أهل شرق الأندلس وكل من له عليه طاعة، وأرسل إلى حلفائه النصـــارى فـــي قشـــتالة

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص16؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص124.

(2): غليره: تقع شمال مدينة بسطة، جنوب قرباقة، وإلى الغرب من بلش. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص271؛ Huci, Historia, t1, p.226.

(3): قرباقة: حصن بالأندلس، يقع إلى الشما من مدينة مرسية، ينسب إليه الشاعر أبو الحسن العباس القرباقي. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ4، ص319.

(4): قلية: حصن صغير بالأندلس، يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بسطة. انظر: المراكشي، المعجب، ص266؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جزءان، ط4، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة (د. ت)، جـــ2، ص87. سيشار إليه فيما بعد: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب.

(5): بلش: أو بلج، بلدة صغيرة في شرقي الأندلس، تقع غربي مرسية، بين لورقة وبسطة. انظر: المراكشي، المعجب، ص266-267؛ Huci, Historia, t1, p.226.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص278-279.

وأرغونة[1] (Aragon) طالباً العون والنجدة[2]، فحضر إليه من نـــواحيهم ثلاثـــة عشر ألفاً[3]، منهم ثمانية آلاف فارس من نصارى أرغونة[4]، وخـــرج بهـــم ابـــن مردنيش من مرسية لاعتراض طريق الموحدين، عند لورقة والحيلولة دون تقـــدمهم إلى مرسية، ويذكر البيذق أن الموحدين ملكوا لورقة ووحدوا أهلها قبل وصول ابن مردنيش[5]، ونزل ابن مردنيش بجمعه المضيق الجبلي المؤدي مـــن لورقـــة إلـــى مرسية، مغلقاً بذلك الطريق على الموحدين، ولما رأى السيد أبو حفـــص صـــعوبة اختراق هذا الطريق الجبلي الوعر، وجه الحملة إلى التحول إلى غرب لورقة، ومن هناك انحدروا إلى السهل المسمى " الفندون " وهـــو الســـهل الواقـــع بـــين لورقـــة وقرطاجنة، ثم اخترقوا السهل نحو مرسية[6]، وابن مردنيش يســـير فـــي عســـكره بمحاذاتهم عن طريق الجبل، فلما كان ظهر يوم الجمعة 7 ذي الحجـــة 560هـ/ 15 تشرين أول 1165م وصل الموحدون إلى فحص مرسية، الكائن على بعـــد عشـــرة أميال من مرسية ونزلوا بموضع منه يعرف ب " فحص الجلاب"، هذا في الوقـــت الذي عسكر فيه ابن مردنيش بقواته قبالتهم[7].

---

(1): أرغونة: قامت مملكة أرغونة أو أرغون في الجهة الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الايبرية، في شريط ضيق من الأرض جنوب جبال البرت (البرانس). انظر: الحميري، الروض المعطار، ص29؛ أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، ترجمة: محمد عبدالله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة 1958م، ص9. سيشار إليه فيما بعد: أشباخ، تاريخ الأندلس.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص89؛ السامرائي، خليل وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل (د. ت)، ص266. سيشار إليه فيما بعد: السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص277.

(4): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص124.

(5): البيذق، أخبار المهدي، ص88.

(6): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص16.

(7): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص260؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص124؛ Huci, Historia, t1, pp.227-228.

وفي الحال أخذ الجانبان التأهب والاستعداد للقتال، فالموحدون على ما جــرت عليه عادتهم عند كل حرب يخوضونها، قاموا بتمييــز جيشــهم حســب أجناســهم وصنوفهم لكي يعرف كل قبيل وصنيعه، وذلك لأنه كان لكل جنس وصــنف فــي الدولة الموحدية رتبة لا يتعداها غيرهم، ولا ينزل كل صنف إلا فــي موضــعه لا يتعداه[1]، فنظمت قبائل الموحدين من أهل هرغة وتينملل وهنتاتة وجدميوة وجنفيسة وغيرهم من قبائل الموحدين في صفوف ومواضع خاصة، كــذلك الأمــر بالنســبة للعرب من قبائل الهلاليين والرياحين والجشمين والزغبين، كما نظم جند المرتزقــة والعبيد من حرس الخليفة في صفوف ومواضع، ثم تعاهد الجميــع علــى الثبــات والصبر في ساحة القتال حتى يكتب لهم أحد أمرين، إما النصر أو الشهادة في سبيل الله[2].

ويظهر أن هذا التنظيم الذي اعتاد عليه الموحدون في حروبهم كان يعطي حافزاً للقبائل حسب أجناسها لبذل أفضل ما عندها في الحرب، والثبات في ساحة القتــال، لما لذلك من أثر في احداث التنافس بين القبائل المشاركة لتحقيق النصر من جهاتها، أو على الأقل أن لا تكون سبباً في الهزيمة.

ويبدو أن ابن مردنيش كان له أسبقية البدء بالقتال، اذ ما أن حط بجيشه قبالــة الموحدين، حتى بادرهم بالهجوم، وكان ذلك مع وقت الزوال متبعاً في البداية اسلوب الكر والفر لمعرفة مدى قوة الموحدين، فأغار أولاً على أجناد العرب، ثم عاد وهاجم أجناد الموحدين في كرتين متتاليتين[3]، ويذكر ابن الخطيب أنه والى الكر المرة بعد المرة[4]، ثم نشبت بعد ذلك معركة عظيمة بين الفريقين، أبلــى فيهــا الموحــدون والعرب أشد البلاء، واستمرت المعركة حتى مغيب الشمس، وانجلت عن انهزام ابن مردنيش، بعد أن أوقع الموحدون بجيشه مقتلة عظيمة، حتى أن ابن أبي زرع يذكر

---

(1): العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد، ص151.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص273.

(3): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص125.

(4): ابن الخطيب، الإحاطة، جــ1، ص484.

أن الموحدين قتلوا في هذه المعركة جميع من مع ابن مردنيش من القوات النصرانية البالغ عددهم ثلاثة عشر الفاً[1].

وفر ابن مردنيش على ضوء الهزيمة فيمن بقي معه من فلول قواته، فارتد إلى مرسية مستغلاً في ذلك جنحة الظلام، وامتنع بداخلها، بينما بات الموحدون ليلتهم في ساحة المعركة، فلما كان صباح اليوم التالي 8 ذي الحجة / 16 تشرين أول، سار الموحدون في أثر ابن مردنيش حتى نزلوا بظاهر مرسية، ومن فورهم بدأوا بالغارات على أحوازها، يتلفون زروعها، ويدمرون بساتينها، واستمروا على ذلك مدى أيام حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات، وكانوا قد عيدوا هناك عيد الأضحى، ووصلت طلائعهم إلى مدينتي أوريولة[2](Orihuela) وألش(Elche)[3]، ومن مضرب محلتهم بظاهر مرسية بعث السيدين أبو حفص وأبو سعيد إلى الخليفة أبي يعقوب بكتاب الفتح والبشرى، يطلعانه فيه على الفتح العظيم الذي حققه الموحدون على ابن مردنيش، فوصل الكتاب إلى حضرة الخليفة بمراكش صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من العام المذكور، فقرئ الكتاب أولاً في قصر الخليفة على مسامع من حضر من الطلبة والأشياخ والناس، ثم قرئ في المسجد الجامع على كافة الناس، واحتفاءً بهذه البشرى ارتفعت أصوات التكبير والتهليل، وضربت الطبول وعم السرور، سائر بلاد العدوة[4].

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210.

(2): أوريولة: مدينة وحصن بالأندلس، وهي قاعدة كورة تدمير، بينها وبين ألش خمسة عشر ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص67.

(3): ألش: مدينة بالأندلس، تقع جنوبي غربي لقنت، على بعد عشرين كيلو متراً منها، وقيل انها تشبه مدينة النبي عليه السلام. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص273؛ عنان، محمد عبدالله: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ط2، مؤسسة الخانجي، القاهرة 1961م، ص151. سيشار إليه فيما بعد: عنان، الآثار الأندلسية.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص273-276. وعن معركة فحص الجلاب انظر ايضاً: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص89-90؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1،

هذا وقد ارتأى السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى رفع الحصار عن مرسية بعد عدة أيام، وذلك بعد أن قاما بوضع حاميات موحدية في الحصون التي استولوا عليها، وعادا أدراجهم دون أن تذكر الروايات تعليلاً لذلك(1)، ولما وصلا إلى قرطبة تخلف بها السيد أبو سعيد بإذن الخليفة ليتولى بها مهام منصبه في الولاية عليها، بينما جاز السيد أبو حفص البحر عائداً إلى مراكش، فوصل إليها في ضحى يوم السبت الحادي عشر من ربيع الآخر من سنة 561هـ/ 15 كانون ثاني 1166م(2)، وكان الخليفة أبو يعقوب قد خرج لاستقباله بنفسه، واستمر احتفال الموحدين بعودة العسكر من الموحدين والعرب لمدة خمسة عشر يوماً، وزعت خلالها الكسوة على الواصلين، وصنعت مختلف أنواع الأطعمة والأشربة الحلال للواصلين والمقيمين، فعم بذلك النعيم والسرور على جميع الموحدين(3).

ومما تجدر ملاحظته هنا أن حملة الموحدين على بلاد ابن مردنيش في شرق الأندلس سنة 560هـ/1165م، قد نجحت في تحقيق أهدافها، وأن معركة فحص الجلاب، قد أتت اكلها، إذ افرزت لنا مجموعة من النتائج، لعل من أهمها ما يلي:

1. انتزاع الموحدين عدداً من الحصون والقلاع من يد ابن مردنيش، كان أهمها حصن أندوجر الذي لم يفتأ في تشكيل خطر دائم على سلامة مدينة قرطبة.
2. تأديب ابن مردنيش من خلال ضربه في عقر داره، ومحاصرته في قاعدة ملكه.
3. تكبيد ابن مردنيش وحلفائه خسائر فادحة وصلت إلى أكثر من ثلاثة عشر ألف قتيل من قوات التحالف النصرانية.

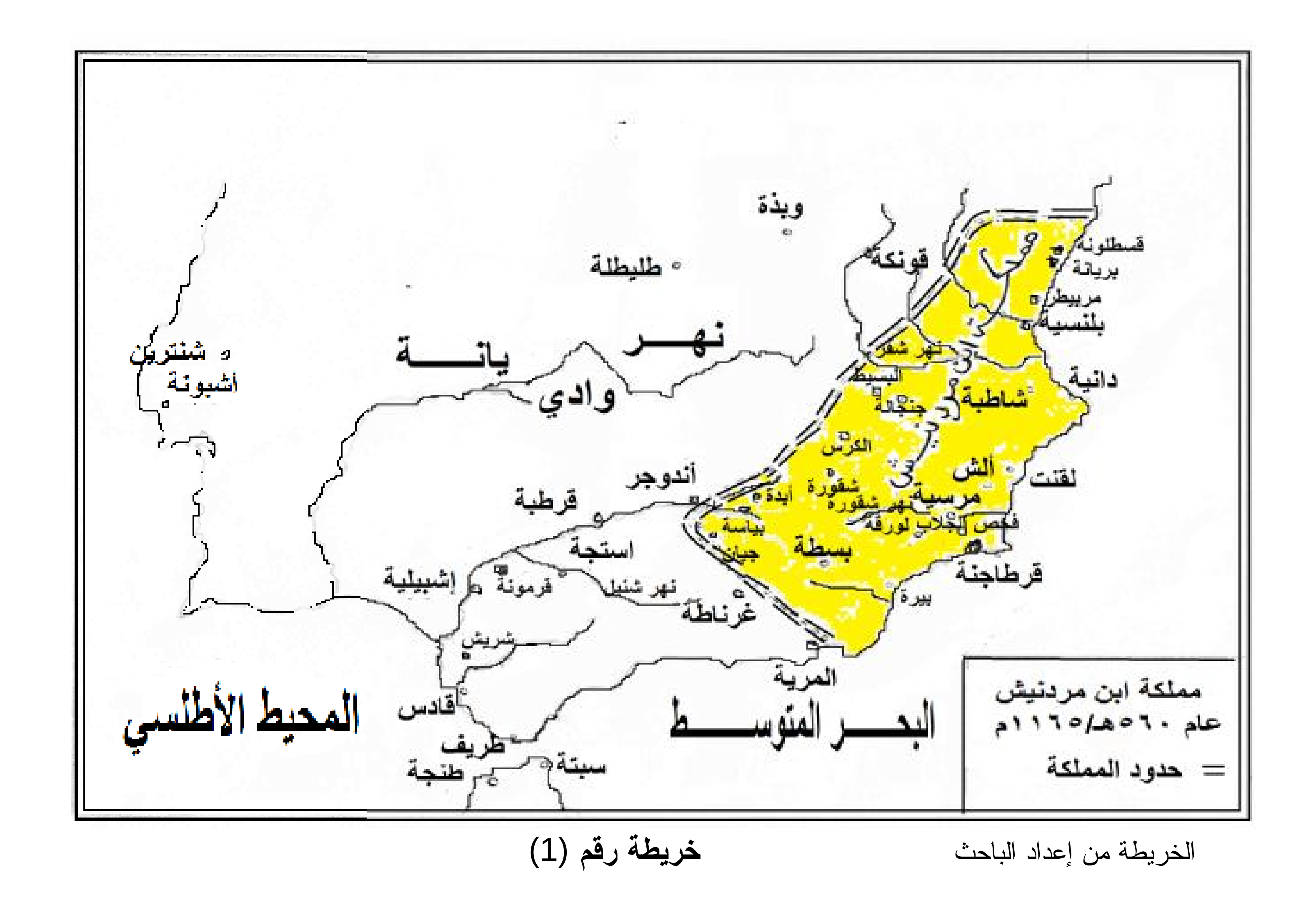
ص277؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص16-17؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص139-140؛ Huci, Historia, t1, pp.227-228.

(1): السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص266؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص140.

(2): جعل ابن صاحب الصلاة تاريخ وصول أبو حفص لمراكش يوم الحادي عشر من ربيع الآخر، بينما ابن عذاري جعله يوم الثاني عشر من نفس الشهر، أما عنان فيرى أن يوم العاشر من ربيع الآخر هو تاريخ وصوله. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص289؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص91؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص19.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص92.

4. أظهرت الحملة ضعف ولاء أهل شرق الأندلس لابن مردنيش، بدليل تسابق أهل الحصون وقادتها لإعلان الطاعة والتوحيد بمجرد وصول الموحدين اليها، مثـــال ذلك حصن قلية، وحصون وقلاع مدينة بلش.
5. كانت موقعة فحص الجلاب بداية النهاية لثورة ابن مردنيش، فقد توالت الهـــزائم عليه بعد ذلك، وتشتت قواه، وانحطت مكانته بين أنصاره ومؤيديه.
6. شكل انتصار فحص الجلاب محفزاً قوياً للموحدين للقضاء نهائياً على ثورة ابن مردنيش.



خريطة رقم (1)

الخريطة من إعداد الباحث

3.2.3.1.2 متابعة الشيخ أبي عبدالله بن أبي إبراهيم لحرب ابن مردنيش(562-564هـ/1167-1169م):

كان أول ما التفت اليه الخليفة أبو يعقوب يوسف بعد انتهاء احتفالات النصر على ابن مردنيش في فحص الجلاب، هو تعيين والي لإشبيلية التي كانت إمارتها شاغرة منذ توليه الخلافة سنة 558هـ/1163م، فقرر بعد مشاورة أخيه السيد أبو حفص أن يعين لولايتها الشيخ أبا عبدالله وهو ابن الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بن يسلالى الهزرجي أحد أصحاب المهدي العشرة[1]، وعين لمعاونته وزيراً هو أبا يحيى زكريا ابن يحيى بن سنان، لعلمه ونجابته، وتكريماً لأبيه الذي كان من أهل خمسين، وتحرك أبو عبدالله من مراكش إلى مقر ولايته في غرة جمادى الآخرة من سنة 561هـ/1166م، ووصل إلى إشبيلية يوم الخميس مطلع شهر رجب من السنة المذكورة، غير أنه لم تكد تمض سوى أشهر قلائل على انفراده بولاية إشبيلية، حتى أرسل الخليفة أبو يعقوب أخوه السيد أبو إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً على إشبيلية فوصلها في أول ذي الحجة من نفس السنة، وتقرر أن يبق معه الشيخ أبو عبدالله بحيث يتولى الأمور العسكرية، ثم أصدر الخليفة أبو يعقوب أمره بتعيين الشيخ أبو عبدالله والياً على غرناطة وذلك في أواخر شعبان من سنة 562هـ/1167م، فخرج إليها أبو عبدالله من إشبيلية في مطلع شهر رمضان وبصحبته حفاظه الواصلين معه من مراكش، ليستقر أمره في ولاية مدينة غرناطة حتى جمادى الأولى من سنة 564هـ/ شباط 1169م[2]، وكان له خلال هذه المدة جهاد ومنازلات مع ابن مردنيش خلدت ذكراه.

فابن صاحب الصلاة يشير إلى أنه ما كاد أن يصل إلى مقر ولايته الجديدة غرناطة، حتى خرج غازياً إلى حصن لبسة (Labas) الواقع بين غرناطة ووادي آش في منتصف المسافة بينهما[3]، وذلك أن ابن مردنيش كان قد أسكن في هذا الحصن قوة من احلافة النصارى، واستخدمهم في الاغارة على أحواز مدينة

---

(1): البيذق، المقتبس، ص31؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص293-297.

(3): حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص939.

غرناطة بين الفينة والأخرى، لإحداث القلاقل والروع بين أهلها، ونشـــر الخـــراب والدمار في أنحائها، وبلغ من أمرهم أن وصلوا إلى أسوار مدينة غرناطة في فاتحة عهده، فهاجم أبو عبدالله الحصن بشدة، وافتتحه عنوة، وأخرج جميع من كان فيه من النصارى، ثم هدمه وخربه، مخلّصاً بذلك أحواز غرناطة من شره، وعاد ظافراً إلى غرناطة في يومه، وكتب للخليفة أبو يعقوب يخبره بفعله وغزوه، فجاوبـــه الخليفـــة برسالة مؤرخة في التاسع من ذي الحجة من سنة 562ه/1166م يعرب فيها عـــن شكره ورضاه، داعياً إياه لمواصلة جهاد أعداء الدين من نصارى وخارجين[1]، وهذا ما شجعه لغزو حصن بسطة من نفس العام، كما ألحق هزائم متكررة بقـــوات ابـــن مردنيش وحلفائه الأسبان[2].

وفي جمادى الآخرة من العام التالي بعث ابن مردنيش بعض قواته من النصارى المرتزقة للإغارة على نواحي مدينة رندة[3](Ronda)، فغزوا وادي شنيل وتقـــدموا جنوباً حتى وصلوا أحواز رندة، محدثين الخراب والفساد في المنطقة، فلما بلغ أنباء ذلك إلى الشيخ أبي عبدالله، بادر بإرسال قوة موحدية من حامية غرناطة قطعت على النصارى طريق عودتهم وهم بالغنائم منصرفون، على مقربة من وادي آش، وعندما عاين النصارى جيش الموحدين لجأوا إلى جبل قريب لعله يأويهم، إلا أن الموحدين صعدوا عليهم الجبل والتحموا معهم في موقعة عنيفة استمرت من صلاة الظهر إلى وقت العصر، انتهت بانتصار الموحدين، وأسرهم ثلاثـــة وخمســـين رجـــلاً مـــن النصارى، استاقوهم إلى غرناطة فضرب الشيخ أبو عبدالله أعناقهم[4].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص323-325.

(2): السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص267.

(3): رندة: مدينة حصينة بأرض الأندلس، من أعمال تاكرنا قديماً، تقع غربي مالقة على نهر ينسب إليها، هو نهر رندة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ3، ص73-74؛ القزويني، آثار البلاد، ص532.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص101-102؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص127؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص125.

4.2.3.1.2 توحيد ابن همشك ومنازلته ابن مردنيش باسم الموحدين:

ساءت أوضاع ابن مردنيش في أعقاب هزيمـــة فحــص الجــلاب ومحاصـــرة الموحدين لقاعدة ملكه ومقر رئاسته، لدرجة أنه فقد الثقة في أقرب الناس لديه، فأخذ بالإكثار من جموع النصارى واتخذ منهم أجناداً وأنصاراً له، في حين عمل الســيف وتفنن في قتل كل من شك في ولائه له من أهل شرق الأندلس، وفـــي ذلـــك يقـــول المراكشي " تنكر أكثر الرعية له، فقتل من اولئك القادة والذين اتهمهم جماعة بانواع القتل، بلغني أن منهم من بنى عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً، إلـــى غير هذا من ضروب القتل، واستدعى النصارى، فجعلهم أجناداً له، واقطعهم ما كان اولئك القادة يملكونه، وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم "(1).

ويؤكد ابن الخطيب ما جاء به المراكشي فيقول: " وابتنى لجيشه من النصــــارى منازل معلومات وحانات للخمور، وأجحف برعيته لأرزاق من استعان بـــه مـــنهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت "(2)، ويقول في موضع آخر " واستعان بهـــم – أي النصارى – على تدبيره، ورتب منهم اعواناً وجنداً، وأفرد لهم بمرسية منازل مـــن الحانات والبيع، واضطر إلى المال، فتحيف الرعية بكل وجه من وجوه الجور "(3).

وكان ابن مردنيش قد بدأ انقلابه على أعوانه وكبار قادته بنكبته لصهره يوسف ابن هلال، حيث كان يوسف هذا أميراً شجاعاً حازمـــاً، فاحظـــاه ابـــن مـــردنيش وصاهره، وأقطعه حصن مطريشة(4)(Moutornes) ومواضع كثيرة، ثم لم تلبث أن ساءت العلاقة بينهما بعد موقعة الجلاب فقبض عليه ابن مردنيش ونكبه وعنف بـــه واستخلص ما كان تحت يده وتركه، فلجأ ابن هلال إلى ميرتلة وثار بها، وتحـــالف

---

(1): المراكشي، المعجب، ص183.

(2): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص124.

(3): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص261.

(4): مطريشة: لعله مطرنيش، وهو حصن في شرق بلاد الأندلس، كان يؤمن بلاد الاسلام من ناحية مملكة أرغون. انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص266؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص224-225.

مع صاحب برشلونة مقابل تصيير كل ما يملكه له، فأعانه بخيل مـــن النصـــارى، استطاع به أن يوقع هزيمة نكراء بابن مردنيش في عقر داره بلنسية[1].

أثار تنامي قوة ابن هلال في مورتلة وما جاورها غضب ابن مردنيش، فلجأ هو الآخر لطلب النجدة من حلفائه النصارى في قشتالة، فسيروا له جريدة خيل مكنـــت ابن مردنيش من غزو مورتلة، فلقي ابن هلال صدفة خارج مورتلة فقـــبض عليـــه وهدده بإخلاء مورتلة وإلا نزعت عينه فأبى ذلك، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه اليمنى بعود، ثم قرب من مورتلة وطلب من زوجته وأصحابه إخـــلاء الحصـــن أو تخرج عينه الأخرى، فلم يجبه أحد، فأخرجت عينه اليسرى[2].

ثم اتبع ابن مردنيش ذلك قتل وزيريه ابني الجذع[3]، وبناهما في الحائط بمرأى منه، وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي وغيره بالجوع[4].

أثرت هذه المشاهد في نفسية ابن همشك، فخاف على نفسه من صهره، فـــانقطع عن مواصلته وزيارته، ويذكر ابن الآبار أن بداية الخلاف بينهما كان في سنة 562ه /1166م، بعد الوقيعة العظمى بفحص الجلاب[5]، ويبدو أن مما زاد الخلاف بينهما ما أقدم عليه ابن مردنيش من إعلانه طلاق ابنة همشك وطردها إلى أبيها مهانة[6]، ويجعل ابن الخطيب حادثة الطلاق تلك سبب الشحناء والعداوة بين ابـــن مـــردنيش

---

(1): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص127.

(2): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص262-263.

(3): يذكر عبد الهادي التازي في تعليقه على أبني الجذع أنه لم يهتد بعد البحث الطويل لاسم هذين الوزيرين اللذين عرضا لهذا المصير الرهيب، في حين يترجم ابن سعيد في كتابه " المغرب في حلى المغرب " إلى أخوين يعودان في نسبهما إلى ابن الجذع وهما: أبو يعقوب بن الجذع، وأبو محمد عبدالله بن الجذع، منوهاً إلى أنهما من كتاب ابن مردنيش، ولعل هذين الأخوين هما المقصودان في حادثة التعذيب تلك. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص288، هامش رقم (2)؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـــ2، ص254-255.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص108.

(5): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص260.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص108.

وابن همشك، وفي ذلك يقول " ولما فسد ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب ابنته التي كانت تحت الأمير أبي محمد بن سعد بن مردنيش إلى أن طلقها، وانصــرفت إلــى ابيها، وأسلمت إليه ابنها منه، مختارة كنف أبيها إبراهيم، نازعة في انصرامه إلــى عروقها "، ويضيف ابن الخطيب أن والدها عندما سألها عن ابنها قالت " جرو كلب، جرو سوء، من كلب سوء، لا حاجة لي به، فأرسلت كلمتها فــي نســاء الأنــدلس مثلاً"[1]، ويذكر ابن صاحب الصلاة شيء بهذا المعنى عن سبب الخلاف، فيقول: " وطلق ابن مردنيش في هذه المدة ابنة إبراهيم بن همشك طلاقاً بتلاً، وبانــت عــن عصمته بياناً، وطردها إلى أبيها مهانة مستهانة باكية بدموعها إصراره وهجرانــه، فغشيه من حديثها الكرب، واتصلت في نفسه له الحرب"[2].

وبالرغم من أن حادثة طلاق ابنة همشك قد تكون مبرراً قوياً لحالة الخلاف التي نشبت بين ابن مردنيش وابن همشك، إلا أن ذلك لا يعني أنها السبب الأوحد لانقطاع الوصل بين الزعيمين، فبوادر الخلاف وملامح الانشقاق كانت قد ظهرت قبل ذلــك بفترة عندما تأخر ابن همشك عن مساعدة صهره ابن مردنيش فــي الــدفاع عــن بياسة[3](Baeza) رغم وجوده في جيان على مقربة منها[4]، هذا ناهيك عما تشــير إليه الروايات من انقطاع العلاقة وانعدام الزيارة زماناً بين ابــن مــردنيش وابــن همشك، قبل حادثة الطلاق، لا بل يشير ابن الآبار أن ابن مردنيش وطئ أعمال ابن همشك ودوخها، ثم التفت إلى زوجته ابنة غريمه فطلقها[5]. ومن هنا يمكننا التوفيق بين الروايات المختلفة، بالقول أن طلاق ابن مردنيش لزوجته ابنة همشــك كانــت

---

(1): ابن الخطيب، الإحاطة، جـــ1، ص302.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص388-389.

(3): بياسة: مدينة تقع على تل مرتفع مطل على نهر الوادي الكبير المنحدر إلى قرطبة، وتبعد إلى الشرق من جيان مسافة عشرون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص121.

(4): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص129.

(5): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2،ص260؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص108.

قاصمة الظهر التي قضت على أي مجال للعودة إلى سابق العلاقة بينهما، هذا إن لم تكن حادثة الطلاق نتيجة من نتائج ذلك الخلاف.

وكيفما كان الأمر، حدث الانشقاق، وفسدت العلاقة بين الحليفين السابقين، ابتداءً من سنة 562ه/1166م، وتطورت الأمور بينهما تباعاً إلى أن نشبت بينهما حروب عنيفة هلك فيها كثيراً من رعايا الطرفين، وأدت إلى محنة وفتنة شديدة، نجم عنهـا استيلاء ابن مردنيش على الكثير من أملاك ابن همشك[1]. وعندما عجز ابن همشك عن الصمود في وجه ابن مردنيش وغزواته المتواصلة التي استمرت لمدة عـامين متتالين، استغل في سنة 564ه/1169م وصول رسالة الخليفة أبو يعقوب إلى ابـن مردنيش والمؤرخة في الأول من رمضان من سنة 564ه/1169م، والتي تتضـمن تجديد الدعوة لابن مردنيش للدخول في طاعة الموحدين، وذلك بعد أن كـان والـده الخليفة عبد المؤمن قد كتب له بهذا الشأن في سـنة 548ه/1153م. مبينـاً لـه أن دخوله في طاعة الموحدين يعني العفو عما سلف والحفاظ علـى مركـزه ومكانتـه كحاكم لشرق الأندلس، هذا ناهيك عن المكاسب الروحية التي تتمثل فـي " سـعادة الأبد، ومنال النعيم السرمد " في حال تعلقه بالدعوة الموحدية، ومنوهاً له في الوقت نفسه أن الشيخ أبو حفص عمر قد جاز للأندلس في هذه المده بنية الجهاد والغـزو، ولكنه مع ذلك أمره أن لا يقترب من أملاكه ولا يبادره بالهجوم، إلى حين يأتي رده، فإن كان الجواب قبول الطاعة والتوحيد سلم وغنم، وإن كان غير ذلك فقـد خـاب مكدحه، فإما صريع حتوف، طعناً بالرماح والسيوف، وإما أخذ حسرة وأسـف، لـم ينل بطائل ولا حظي بنائل[2].

وما أن خلص لعلم ابن همشك خبر تلك الرسالة حتى سارع إلى إعلان الطاعة والتوحيد كسبيل له للخلاص من نير ابن مردنيش والحفاظ على ما تحت يـده مـن أملاك، وفور وصول الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بمن معه من قـوات موحدية إلى قرطبة بادر إلى مكاتبته عارضاً عليه توبته وتمكين الموحدين من جميع ما تحت يده من بلاد، ويذكر ابن صاحب الصلاة أن ابن همشك عرض على الشيخ

---

(1): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص302.

(2): مجموع رسائل موحدية، ص141-149.

أبي حفص كدليل على صدق توبته وطاعته، وخلع طاعة ابن مردنيش، أن يلتقيه بنفسه في قرطبة[1].

رحب الشيخ أبو حفص بتوبة ابن همشك وطاعته، وعلى ضوء ذلك سار ابن همشك إلى قرطبة في رمضان عام 564ه/ حزيران 1169م، فاستقبله واليها السيد أبو إسحاق إبراهيم والشيخ أبو حفص وأكابر الموحدين استقبالاً في غاية الود والترحيب، فبادلهم ابن همشك حسن الاستقبال بأن أعلن أمامهم أنه قد " عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع، والدخول في حكم التوحيد بأكمل الإجماع "[2]، واتبع ابن همشك إعلانه التوحيد في قرطبة، أن كتب للخليفة أبو يعقوب في مراكش يعلن له توبته ويبلغه دخوله في طاعته، سائلاً إياه العفو وحسن المثاب، فجاوبه الخليفة بالقبول، وأمر بتقريبه وإكرامه، وبذلك اتصلت البلاد التي كانت بيد ابن همشك اعتباراً من منتصف عام 564ه/1169م ببلاد الموحدين، وارتفع ما كان بتلك النواحي من مرق ونفاق[3].

أما عن موقف ابن مردنيش من توحيد ابن همشك وردت فعله على ذلك، يذكر ابن عذاري أن خبر توحيد ابن همشك نزل كالصاعقة عليه، إذ ما أن علم بذلك حتى سقط على يده، فكسر ساعده من عضده، وانتقاما من الاثنتين، حملتة الأنفة والعجلة أن وجه قادته وأجناده لمهاجمة بلاد ابن همشك، فألحت قواته عليه مدة أكثر من سنة كاملة، ويبدو أن ابن همشك لم يستطع أن يحتمل هجمات ابن مردنيش، فأرسل يستغيث بالموحدين عليه ويستصرخهم إلى غزوه[4]. فكان أن كتب بذلك أولاً، ثم عندما استبطأ قدوم الموحدين لنجدته، أرسل وزيره أبو جعفر[5] إلى مراكش في سنة

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص389.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص389.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص108؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص21.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص108-109.

(5): هو أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوقشي، من أهل قرية وقش بنواحي طلبيرة، قام بأمر ابن همشك، ضابطاً لأعماله ومصلحاً لأحواله، وعندما دخل ابن همشك في طاعة الموحدين

564هـ/1169م مهنئاً الخليفة بعيد الفطر، ومستصرخاً إياه على ابن مردنيش الـذي تغلب على الكثير من معاقله[1].

ويظهر أن هجمات ابن مردنيش كانت مؤلمة بالنسبة لابن همشك، إلى حد جعل ابن همشك يسير بنفسه إلى مراكش عام 565هـ/1170م، فـالتقى بالخليفـة الـذي اعترف له بمكانته وأقره على ما في يده[2]، ثم قرر الخليفة بعـد مشـاورة أكـابر وأشياخ الموحدين، أن يرسل اخيه السيد أبو حفص بعسكر ضخم لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى، استجابة لنداء استغاثة ابن همشك، خاصة بعد أن أكد الشيخ أبـو حفص الهنتاتي من قرطبة صدق ابن همشك فيما استغاث به من عدوه[3].

5.2.3.1.2 نهاية ثورة ابن مردنيش وسقوط مملكته:

بناءً على ما أجمع عليه رأي الموحدين من تسيير حملة ضـخمة لغـزو ابـن مردنيش وحلفائه النصارى بعد أن ثبت صدق استغاثات ابن همشك، خرج السيد أبو حفص عمر من مراكش في أول شهر ذي القعدة سـنة 565هـ/ آب 1170م، علـى رأس جيش ضخم مؤلف من عشرين الفاً من الموحدين والمتطوعة، فجاز البحر من أقرب النقاط إلى جزيرة طريف[4]، وبصحبته أخوه السيد أبو سعيد عثمان، وجماعة من أشياخ الموحدين؛ مثل أبو عبدالله بن أبي إبراهيم والي غرناطـة، وعـدد مـن زعماء الأندلس مثل محمد سيدراي بن وزير، وأخيه أبا الحسن علي وزيره، هذا إلى جانب مجموعة من القادة النازلين في مراكش في تلك المدة، صحبهم للاستفادة مـن معرفتهم بالأندلس وحروبها. ووصل في عسكره إلى إشبيلية في أوائل عـام 566هـ/ أيلول 1170م، وهناك وافاه من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي وإبراهيم بن

تبعه في ذلك، وعرف عنه براعته في الأدب والشعر، توفي بمدينة مالقة سنة 574هـ/1178م. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص257-266.

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص260-261.

(2): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص302.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص110-111.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص211.

همشك، فتم عقد مجلس حرب شارك فيه بالإضافة إلى السادة اخـوة الخليفـة وولاة الأندلس ممثلين عن أشياخ وقادة وزعماء الأندلس والعدوة من عـرب وموحـدين، وتقرر توجيه قوة عسكرية بقيادة السيد أبو سعيد إلى مدينة بطليوس لتـأمين تلـك الجهات من غارات النصارى التخريبية، في حين تتأهب بقية الحملة لما هـو قـادم حتى ينظر ما يعود به السيد أبو سعيد من خبر[(1)].

وفق السيد أبو سعيد في غزوته تلك إذ أجبر مملكـة البرتغـال علـى توقيـع الصلح[(2)]، ثم عاد بجيشه إلى إشبيلية في ربيع الأول سـنة 566ه/ تشـرين ثـاني 1170م، وما كاد يصل إشبيلية، حتى عقد السيد أبو حفص اجتماعاً حربياً مع صفوة القادة والزعماء الموحدين، استقر فيه الرأي على غزو بلاد ابن مردنيش وتحطـيم سلطانه بلا رجعة[(3)].

وبدأ تحرك الجيش الموحدي لتحقيق هذه الغاية في أول شهر رجب مـن سـنة 566ه/ آذار 1171م، فلما وصلوا قرطبة أقاموا فيها أياماً، عزموا أمورهم خلالهـا على أن لا تأخذهم في عدوهم هواده، وبعد أن نظموا صـفوفهم تنظيمـاً هجوميـاً، زحفوا نحو مرسية، فكانت أول مدينة ينازلونها من بلاد ابن مردنيش مدينة قيجاطة (Quesada)[(4)] فافتتحوها بعد قتال ونزال، وقبض على حاكمها الشرقي وضـرب عنقه بمشورة ابن همشك، ثم استأنفوا زحفهم نحو مرسية، فاستولوا في طريقهم على بسائط واسعة لابن مردنيش، حتى وصلوا إلى فحص مرسية، فاسـتولوا أولاً علـى حصن الفرج (Aznalfarache) المحاذي للمدينة خارج أسوارها، وكان متنزهاً لابن مردنيش، ثم استباحوا الجنان والبساتين وكل ما اتصل بمدينة مرسية مـن بسـائط

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص399-400.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص321.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص45-46؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص109-110.

(4): قيجاطة: وتكتب كذلك قيشاطة، وهي مدينة بالأندلس من عمل جيان، تقع إلى الشمال الشرقي منها، بينها وبين شوذر 12 ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص488؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص923.

وقرى، وابن همشك في هذه الأثناء يدل الموحدين على أسهل الطـــرق وأيســـرها، ومواطن ضعف ابن مردنيش وعوراته، مما أذهب عنهم مفاجآته وروعاته، وما هي إلا أيام حتى كان الموحدون يحاصرون مرسية أشد الحصار(1).

أما عن ابن مردنيش فقد لجأ خلال هذه الأثناء إلى استصراخ حلفائه النصـــارى لإنجاده، لكن على ما يبدو أنهم شعروا بدنو عاقبته، فنكسوا عن مساعدته، إذ آثروا الاحتفاظ بجنودهم لمواجهة ما تشكله القوات الموحدية الكثيفـــة مـــن خطـــر علـــى ممالكهم، ولم ينجدوه إلا بنحو أربعمائة فارس(2)، بعث بهم إلى مدينة لورقة، حصن مرسية الأمامي، للانضواء تحت قيادة أبي عثمان بن عيسى، أنجب قادته وأخلصهم، فضبط أبي عثمان بهم المدينة وحصنها، لكن عندما طالت مدة حصـــار الموحـــدين لمرسية، وشعر الناس أن أمر ابن مردنيش زائل لا محالة، لما اشـــيع بيـــنهم مـــن اضطراب أحواله، واعتلاله بالمرض، ثارت العامة من أهل مدينة لورقة، ودعـــوا للموحدين، وقاموا بمحاصرة قائد المدينة أبي عثمان ومن معه من نصارى وأعوان لابن مردنيش في قصبة المدينة، وبعثوا في الوقت نفسه إلى السيد أبي حفص بمحلته بظاهر مرسية يعلنون دخولهم في دعوة التوحيد، ويسألونه النصرة والإنجاد(3).

لم يصدق السيد أبي حفص خبراً، فاقلع من حينه ببعض قواته إلى لورقة، فملكها واستوطن أرباضها، وأصر أبي عثمان ومن معه من عسكر وأعوان على التحصن في قصبتها، ومن لطيف الله وقدره أن وقع محمد ابن القائد أبي عثمان فـــي قبضـــة سرية من جند الموحدين أثناء تجوالها في أحواز المدينة، فسيق للسيد أبـــي حفـــص الذي أمر أن يحمل إلى جوار القصبة على مرأى من أبيه، عسى أن يدفعه ذلك إلى التسليم، إلا أن أبا عثمان استمر في عناده وامتناعه، فضيق عليه الموحدون الحصار حتى نفذت ما لديه من مؤن وأقوات، وتحت ضغط الجند النصارى الذين الحوا عليه بالقول والكلام، أذعن أبو عثمان لرأيهم في التسليم، بعد أن منحه الموحدون الأمـــان

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص403؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص112.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص110.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص50.

على نفسه وجنده ومن معه من نصارى، وهكذا سلمت القصبة، ودفـع الموحـدون الابن إلى أبيه الذي انصرف مع صحبه إلى مرسية، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم، لتخلص بذلك مدينة لورقة للموحدين، وبعد أن اطمأن السيد أبو حفص على تأمين جهاتها غادرها على الفور ومن معه من موحدين ليمضي في حصاره لمدينـة مرسية[1].

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن السيد أبو حفص ما أن وصـل محلتـه بفحـص مرسية، حتى قدم عليه أهل حصن ألش معلناً دخولهم في دعوة التوحيد، وتبعهم في ذلك أكثر أهل الحصون المجاورة، مما شجع ذلك السيد أبو حفص علـى إخضـاع المزيد من المدن والحصون، فبعث الشيخ أبو عبدالله بن أبي إبـراهيم علـى رأس حملة موحدية جعل وجهتها مدينة بسطة، فافتتحهـا عنـوة وادخلهـا فـي طاعـة الموحدين[2].

ويظهر أن حالة فقدان الثقة بابن مردنيش في تلك الفترة قد أخـذت بالتصـاعد حتى وصلت إلى أبناء العمومة، إذ نجد أن ابن عمه وصهره على ابنته وهـو أبـو عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش، المعروف ب " ابن صـاحب البسيط[3] "، قد خلع طاعته في مدينة المرية، وأعلن دخوله فـي دعـوة التوحيـد، وتعاون مع محمد ابن هلال أحد قادة ابن مردنيش السابقين، وقبضا على ابن مقـدام والي المدينة من قبل ابن مردنيش وقتلاه، ثم بعثا إلى السيد أبي حفص وهـو فـي محلته بفحص مرسية يبلغانه بأمرهما، ويسألانه عونه وإنجاده، فوجه إليهم قوة مـن الموحدين لإعانتهم، ولما خلصت هذه الأنباء لابن مردنيش اختل عقله فـأمر بقتـل

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص112-113؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص133-134.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص405.

(3): البسيط (Albacete): مساحة واسعة من الأرض، تفصل بين كور قرطبة وغرناطة ومرسية وبلنسية، وقد قامت فيها عدة حصون مثل اللج وشلبطرة وجنجالة. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص223-224.

اخته زوجة محمد ابن عمه وأولادها، فحملوا إلى البحر بقرب بلنسية واغرقوا فيــه على أشنع حال وأقبح مقال[1].

توالت مدن شرق الأندلس بالتوحيد وخلع طاعة ابن مردنيش، فعندما بلغ أهــل جزيرة شقر[2](Jucar) توحيد مدينة بسطة والمرية، بادروا هم بدورهم إلى إعــلان الطاعة والتوحيد، فهاجموا النصارى الذين كانوا ببلدتهم وأخرجوهم منها، ثم توجهوا للسيد أبي حفص في محلته بظاهر مرسية، فأحسن إليهم ووجه معهم واليــاً علــيهم قائدهم السابق أبو أيوب بن هلال الشرقي[3].

كانت هذه رواية ابن صاحب الصلاة، أما ابن الآبار فله رأي آخر في توحيــد جزيرة شقر، فيقول أنه لما ضعف أمر ابن مردنيش في شرق الأندلس، وخلع صهره ابن همشك طاعته في جيان، ثم ابن عمه أبو عبدالله محمد بالمرية، واستوحش ابــن مردنيش حتى من نفسه، خاف أبو بكر أحمد بن سفيان والي جزيــرة شــقر لابــن مردنيش على نفسه من سيده، فأعلن الدعوة للموحدين، وعندما علم ابــن مــردنيش بذلك أمر أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بقتاله، فسير إليه أبي الحجاج قــوة مــن الفرسان، حاصرت جزيرة شقر وضيقت عليها بدءاً من منتصف شوال مــن ســنة 566هـ/1170م، وحتى منتصف ذي الحجة من نفس العام، وإمدادات ابن مــردنيش وأخيه أبو الحجاج تتوافد على حصار المدينة، وفي الوقت الذي ظن فيه ابن مردنيش أن المدينة شارفت على التسليم، وقد سار بنفسه لمحاصرتها، اقتحمت قوة موحديــة بقيادة أبو أيوب بن هلال – معاون ابن صاحب البسيط – الجزيرة فتولى ضــبطها والدفاع عنها بعد أن تنازل له ابن سفيان عن ذلك، واستمر ابن هــلال فــي دفــع

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص88-89؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص113-114.

(2): جزيرة شقر: مدينة صغيرة من بلاد الأندلس، سميت بذلك لاحاطة نهر شقر بها من جميع جهاتها، قبل مصبه في البحر المتوسط جنوب بلنسية، وهي على مسافة 18 ميلاً من بلنسية، و12 ميلاً من شاطبة. انظر: المراكشي، المعجب، ص265؛ أرسلان، الحلل السندسية، جـــ2، ص109-110.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص405-406.

الحصار اشهراً حتى اعتل ابن مردنيش ولحق بمرسية قاعدته ومقر رياسـته، ولـم يفك الحصار إلا بوفاته[1].

لم تنقطع المصائب في التكالب على ابن مردنيش، والتي كانت جميعها تنذر بان عاقبته قد دنت، ولكن هذه المرة جاءت من حيث لا يحتسب، وذلك أن الفونسو الثاني (Alfonso II) وريث قطلونية والذي أصبح ملك أراغون منذ عام 560هـ/1164م، وورث بعد ذلك كل المناطق الجنوبية لفرنسا[2]، وجد في ضغط الموحدين على ابن مردنيش فرصة مناسبة لغزو أراضي بلنسية المتاخمة لحدود قطلونية، فاستولى على عدة مواقع وحصون منها، ثم أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية، فتـولى أبـو الحجاج يوسف أخو ابن مردنيش مدافعة القوات البرية، وتولى ابن قاسم قائد اسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق بعض سفنها[3].

وفي الوقت الذي كان فيه ابن مردنيش يكابد الأمرّين؛ استيلاء الموحدين علـى معظم بسائطه، ومحاصرتهم لقاعدة ملكه من جهة، وغارات ملك أرغون من جهـة أخرى، ناهيك عن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرابته، جاءته الضـربة القاضـية بعبور الخليفة أبي يعقوب يوسف نفسه إلى جزيرة الأنـدلس فـي اليـوم السـابع والعشرين من رمضان سنة 566هـ/1170م، في جموع جرارة ناهزت المائة ألـف فارس من العرب والموحدين، فوصل إشبيلية يوم الجمعة 12 شوال من نفس العام، وكان نزول خبر جواز الخليفة يوسف للأندلس كالصاعقة على ابن مردنيش فـأيقن أن نهايته قد حانت لا مناص، وأن الخليفة ما جاء إلا لإتمام تملك الجزيرة والتغلـب على ما في يده من أعمال[4].

ولما بلغ للسيد أبي حفص نبأ عبور الخليفة للأندلس، بادر إلى رفع الحصار عن مرسية وذلك في آخر شهر ذي الحجة من سنة 566هـ/1171م، وسار إلى إشـبيلية

---

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص267-268.

(2):Charles E. Champan: A History of Spain ,2nd , New Yourk 1966 ,p79.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص50-51.

(4): المراكشي، المعجب، ص183؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص118.

للقاء أخيه أبي يعقوب، فوصلها في 15 محرم سنة 567هـ/1172م، فتلقاه الخليفة بتبريز عظيم وسرور جسيم، وكان أن وفد معه جماعه من أعيان وفرسان شرقي الأندلس من مرسية وما جاورها راغبين في البيعة والتوبة، فأنعم عليهم الخليفة بمال كثير وكسوة كاملة(1)، " وأمر لهم بظهائر كتبت لهم بتحرير أموالهم، وتقرير آمالهم، فتسامع أهل الشرق بما فعل معهم فجاءوا عند ذلك أفواجاً، أفراداً وأزواجاً، حتى انفرد صاحبهم ابن سعد وتمادى به فكره إلى القبر واللحد "(2).

حاول ابن مردنيش عبثاً أن يستغل مسير السيد أبي حفص بعسكره إلى إشبيلية، فخرج بقواته متنفساً الصعداء، لاسترداد جزيرة شقر من ابن هلال الذي تغلب عليها باسم الموحدين، لكنه سرعان ما اكتشف عجزه عن استردادها، فأرسل إلى أخيه أبي الحجاج في بلنسية أن يأتيه بنفسه على وجه السرعة لمعاونته ضد ابن هلال، وهنا تضطرب الروايات التاريخية في تحديد موقف أبي الحجاج من أخيه في ظل هذه الظروف الصعبة التي يمر بها، فابن صاحب الصلاة يذكر روايتين متناقضتين، يقول في الأولى أن أبا الحجاج قد حضر لأخيه لكنهما عجزا عن استرداد الجزيرة، فعادا منها خاسرين خائبين، ثم أن أبا الحجاج بعد عودتهما من جزيرة شقر أظهر التوحيد، فلما علم بذلك ابن مردنيش زادت علته بالذهول، وحضرت منيته(3). أما الرواية الثانية فيشير فيها إلى أن أبي الحجاج لم يستجب لنداء أخيه ابن مردنيش في معاونته ضد ابن هلال ومحاصرة جزيرة شقر، وذلك لأنه في هذه الأثناء كان قد أعلن التوحيد، فيقول: " وظهر من يوسف بن مردنيش لأخيه محمد في منازلته جزيرة شقر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه في قتال ابن هلال عدوه، وتحقق من اخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزاد كيده الماً، واتصلت نفسه سقماً، فرجع إلى مرسية لغير طيه، ولازمته العلة المزمنة بأسباب المنية.. وقل عونه من الله ومن الناس هناك، وعاد صبحه كالليل الحالك وفزع من اذايته أهله

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص408-409، 462.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص121.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص470-471.

وقرابته"[1]. ويبدو أن الاضطراب والغموض الذي شهدته فتنة ابن مـــردنيش فـــي أيامها الأخيرة، قد انعكس حتى على الروايات التاريخية وهذا ما نلمسه فـــي تبـــاين روايات المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة.

أما ابن الخطيب فيلمح إلى أن أبا الحجاج قد فر عن أخيه محمد إلى الموحـــدين قبل عبور الخليفة أبو يعقوب إلى الأندلس، أي في ســـنة 566هـ/1170م[2]، وفـــي رواية أخرى أن أبا الحجاج لما رأى تجهم الحوادث مع أخيه، دعا في بلنسية لبنـــي العباس وكاتب الخليفة المستنجد بالله، فكتب له بالعهد والولاية ثم بايع للموحدين سنة 566هـ/1170م[3]، وبالرغم مما عليه هذه الروايات من تباين إلا أنها تتفــق جميعـــاً على أن توحيد أبو الحجاج يوسف بن سعد تم في سنة 566هـ/1170م، وأن توحيده كانت آخر الضربات الموجعة التي نزلت بأخيه من قرابته وأعوانه، فألزمته فـــراش الموت حتى حضرت منيته، وهذا ما يؤكده ابن عذاري بقوله " فلما تحقــق محمـــد طاعة أخيه زاد عليه الذبول وفسد عقله بالذهول فاشتدت علته وحضرت منيته "[4].

ومهما يكن من أمر، ظل ابن مردنيش على عناده فلم يهن ولـــم يتنـــازل عـــن كبريائه فيعلن خضوعه للموحدين، غير أن علته التي لازمته السنة الأخيـــرة مـــن حياته لم تمهله، فمات وهو على كرسي عرشه، في مقر رئاسته في مدينة مرســـية، في العاشر من رجب سنة 567هـ/ 6 آذار 1172م، وهو في الثامنة والأربعين مـــن عمره[5].

هذا وقد تباينت الروايات التاريخية في تعليل السبب المباشر لوفاتـــه، فالبيـــذق المؤرخ المعاصر يذكر أن ابن مردنيش اغتاظ لما حل به من قيام أخيـــه ببلنســـية، وخروج صهره بجزيرة شقر، فحمق من أجل ما حلّ به، حتى كانت وفاته[6]، فـــي

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص406-407.

(2): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص270-271.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص51.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص122.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص471.

(6): البيذق، أخبار المهدي، ص88-89.

حين أن ابن صاحب الصلاة وابن الآبار وابن عذاري يتفقون على أن وفاته كانـــت من العلة التي لحقت به أثناء محاصرته لجزيرة شقر في أواخر سنة 566ه/1171م، جراء علمه بالتحاق أخيه يوسف بالدعوة الموحدية، فغادر جزيرة شقر علــيلاً إلـــى مرسية، وهناك اشتدت عليه علته فم يزل في حالة ذبول، وفسدان عقل وذهول، إلى أن حضرت منيته[1].

ويورد ابن خلكان في خبر وفاة ابن مردنيش روايتين، جاء في الأولى أن الأمير أبو عبدالله محمد بن مردنيش لما علم بدخول الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى جزيـــرة الأندلس في سنة ست وستين وخمسمائة وفي صحبته مائة ألف فارس " حمل علـــى قلبه فمرض مرضاً شديداً ومات "[2]. وجاء في الثانية " أن أمه سقته السم، لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله وخواصه وكبراء دولته، فنصحته وأغلظت عليه في القول، فتهددها وخافت بطشه، فعملت عليه فقتلته بالسم "[3]. ويورد السلاوي رواية بـــنفس المعنى فيقول: " قيل أن أمه سمته لأنه كان قد أساء إلى خواصه وكبـــراء دولتـــه، فنصحته فتهددها وخافت بطشه فسمته "[4].

أما ابن الخطيب فيقول في وفاة ابن مردنيش " فقضي عليه عقب انصرافه مـــن منازلة جزيرة شقر، بادر اليها بعد اقلاع السيد عنها، وعجز عن قتالها، فكـــر إلـــى مرسية، فتوفي عاشر رجب من عام 567ه/1172م "[5].

بينما اكتفى المراكشي بالإشارة إلى أن وفاته كانت خلال الحصـــار، فيقـــول " ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار، فضايقه الموحدون، وما زالـــوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه "[6].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص471؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص268؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص122.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ7، ص131.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ7، ص131.

(4): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص279.

(5): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص262.

(6): المراكشي، المعجب، ص184.

وكيفما كان الأمر، بادر أبناء ابن مردنيش على أثر وفاة والدهم بإعلان الإذعان والطاعة للأمير أبي يعقوب يوسف، وفي هذا الشأن يذكر البيذق أن طاعة أبناء ابن مردنيش ودخولهم في الدعوة الموحدية، جاءت تنفيذاً لكتاب العقد الذي بعث به ابن مردنيش في آخر أيامه للخليفة أبي يعقوب والذي يعلن فيه أنه خليفة على أولاده من بعده[1]. في حين يورد لنا المراكشي في نفس الموضوع روايتين، جاء في الأولى أن أقارب ابن مردنيش وحاشيته عملوا على كتم خبر وفاته، إلى أن حضر أخيه أبو الحجاج يوسف بن سعد من بلنسية، وكان قد دخل في طاعة الموحدين من قبل، فتدارس الأمر مع أكابر أبناء أخيه، واتفق رأي الجميع " على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب، ويسلموا إليه البلاد، ففعلوا ذلك "[2].

وجاء في الثانية أن ابن مردنيش لما حضرته الوفاة، جمع أولاده الثمانية، وهم: هلال – يكنى أبا القمر، وهو أكبر أولاده وإليه أوصى – وغانم والزبير وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر، فكان فيما أوصاهم به أن قال " يا بني إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر، واتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم، وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم، تحظوا بذلك عندهم، قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة، ففعلوا ما أمرهم به "[3].

ويؤكد ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر للأحداث، أن أبا القمر هلال قد خلف أباه في الحكم، ثم بادر بالاتفاق مع قادته وأشياخه بالطاعة إلى الموحدين، فكتب بذلك للخليفة أبي يعقوب معلناً له توحيده وتسليمه مدينة مرسية، فقبل منه الخليفة ذلك أحسن القبول، ووجه إليه أخاه السيد أبو حفص بعسكر من الموحدين ليتسلم المدينة ويتقبل طاعته، وعندما وصل السيد أبو حفص إلى مرسية بادر أهلها

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص89.

(2): المراكشي، المعجب، ص184.

(3): المراكشي، المعجب، ص184.

إلى الخروج إليه للترحيب به، فبادلهم حفاوة الترحيب ووعدهم بـــالخيرات ورفـــع المظالم عنهم، ثم وعظهم وحثهم على تقوى الله تعالى وطاعة الخليفة[1].

وبعد أن استقر السيد أبو حفص في مرسية، سار أبو القمر هلال إلـــى إشـــبيلية وبصحبته جميع اخوته وأصحاب أبيه من قادته وكبراء أجناده، فوصلها في آخر يوم من شهر شعبان مع طلوع هلال رمضان من سنة 567هـ/1172م، وكان قد خـــرج لاستقباله السيد أبو زكريا وأخوه أبو إبراهيم أخوا الخليفة مع جماعة من الموحدين، فلقوه على بعد عدة أميال من إشبيلية، ودخل في صحبتهم إلى مجلـــس الخليفـــة[2]، وبعد السلام على الخليفة قدم هلال بيعته بحضور السادة الأخوة وأشياخ الموحـــدين، ثم أنزله الخليفة وصحبه في قصره والدور المتصلة به، وغمـــرهم بـــوافر عطفـــه وإكرامه، وفي اليوم التالي حضر أصحاب ابن مردنيش القادمين مع ابن هلال إلـــى مجلس الخليفة، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى كبير أجناد الشرق، فقدموا بيعتهم وطاعتهم، ولما أكملوا البيعة أبدوا رغبتهم للخليفة في أن يقوم بغزو ما جاورهم من بلاد النصارى، فوعدهم الخليفة بتحقيق هذه الرغبة[3].

وهكذا تم للموحدين إخضاع شرق الأندلس، فعادت بذلك أجزاء الجزيـــرة تشـــد بعضها بعضاً تحت راية الموحدين، بعد فترة صراع استمرت قرابـــة ربـــع قـــرن، وعلى الرغم مما أبداه ابن مردنيش من عناد وحرب للموحدين وغـــزو لقواعـــدهم، حفظ الخليفة أبو يعقوب لآل مردنيش مكانتهم بعد أن أخضع بلادهـــم، فعـــين أبـــا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والياً على بلنسية وجهاتها، وعين غانم بن محمد بن مردنيش قائداً على أساطيل العدوة في مدينة سبتة، واستبقى أبو القمر هلال أكبر أبناء ابن مردنيش لديه، فعاش في حضرته رفيع الرتبة، عالي المنزلة، ثم أنه اتبـــع

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص471.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص122.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص472-473؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص56.

ذلك كله بزواجه من ابنة ابن مردنيش " زائدة " مانحها التفضيل والتقديم على جميع زوجاته[1].

ويذكر ابن الخطيب أن الخليفة أبو يعقوب ما استبقى لآل مردنيش سلطانهم في شرق الأندلس، وحفظ لأبناء ابن مردنيش منزلتهم، إلا لأنه عندما علم ما أشهد محمد بن مردنيش على نفسه عندما يئس من أمره، وعلم بتصيير ملكه للموحدين، بإيصاءه الخليفة أبي يعقوب على ولده وأهله، ورغب منه قبول ذلك، كان أن رق الخليفة لهذا القصد وأخذ الوصية على محمل الجد[2].

4.1.2 آثار ثورة ابن مردنيش على الدولة الموحدية:

لقد كانت ثورة ابن مردنيش من أكبر الثورات وأخطرها التي شهدتها بلاد الأندلس خاصة ودولة الموحدين عامة في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف. استمر الموحدون في الكفاح ضدها زهاء ربع قرن، لم يجنوا من ورائها بطائل، فبقيت بلاد شرق الأندلس – بلنسية ومرسية وما جاورها – طيلة حياة الثائر محمد ابن مردنيش عصية على الموحدين، إذ عجز الخليفة عبد المؤمن عن استمالته أو إرغامه على الطاعة، واضطر ابنه الخليفة أبو يعقوب من بعده للاستمرار في منازلته لعله ينجح فيما لم ينجح فيه والده، ومع ذلك لم ينتزع ما تحت يد ابن مردنيش بالسيف، بل دانت له تلك البلاد بتسليم الأبناء على أثر وفاة الأب.

وعلى الرغم أن الموحدين استطاعوا في آخر الأمر أن يقضوا على هذه الثورة ويضموا بلاد شرق الأندلس إلى حدود دولتهم بصورة أو أخرى، إلا أن ابن مردنيش استطاع بثورته تلك أن يترك آثار جسيمة على الدولة الموحدية، بانت معالمها على مختلف نواحي الدولة السياسية والعسكرية والمادية والمعنوية، ولعل من أبرزها ما يلي:

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص271.

(2): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص271.

1. انهكت الثورة قوة الموحدين وألهتهم عن الاستعداد لمواجهة عـدوهم الرئيسـي هناك وهو الإمارات والممالك النصرانية، الذين وجدوا في ابن مـردنيش قـوة أندلسية تحارب المسلمين نيابة عنهم.
2. شغلت ثورة ابن مردنيش الموحدين، وجعلتهم يركزون جل قـواهم ضـد ابـن مردنيش، مما اتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهـزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة[1].
3. اضطر الخليفة أبو يعقوب إلى مهادنة النصارى لكـي يتفـرغ لمواجهـة ابـن مردنيش، وهذا ما هز هيبة الموحدين وسلطانهم وقوتهم فـي نفـوس الأمـراء المسلمين، والنصارى الأسبان[2].
4. استطاع ابن مردنيش تكبيد الموحدين خسائر فادحة بالأموال والأرواح، وهذا ما أظهر للأسبان أولاً وللأندلسيين ثانياً وللمغاربة ثالثاً، أن الموحدين ليسوا قـوة لا يمكن قهرها[3].
5. ظلت ثقة أهل شرق الأندلس بالدولة الموحدية مهزوزة طيلة فتـرة ثـورة ابـن مردنيش، نظراً لعجزهم أمام هذا الثائر، بدليل أنهم لم يبايعوا الموحدين إلا بعـد أن انتهى أمر ابن مردنيش أو شارف على ذلك، فنجد مثلاً أن أبو عبـدالله بـن الفرس[4]، وهو أحد علماء الأندلس في الفقة والحديث والقراءات، ظل يتنقل بين بلنسية ومرسية طوال فتنة ابن مردنيش، وتولى في هذه الأثناء الشـورى فـي

---

(1): الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص356.

(2): العروي، عبدالله: مجمل تاريخ المغرب، 3 أجزاء، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2000م، جـ2، ص171. سيشار إليه فيما بعد: العروي، مجمل تاريخ المغرب.

(3): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص91.

(4): هو محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج بن خلف الانصاري الخزرجي، يكنى أبا عبدالله، ويعرف بابن الفرس، وهو من ولد سعد بن عباده، ولد سنة 501هـ/1157م، وكانت وفاته بإشبيلية سنة 567هـ/1172م، وحمل منها ودفن في غرناطة. انظر: ابن الآبار، المعجم، ص184؛ ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص38-39.

مرسية والقضاء في بلنسية ثم تفرغ للتدريس في مرسية إلى أن كان نهاية ثورة ابن مردنيش، ثم ذهب لإشبيلية لإعلان البيعة للموحدين[1].

6. كانت ثورة ابن مردنيش احدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامهــا، لما كان لها من دور في استنزاف الكثير من وقتهم ورجالهم وأموالهم[2].
7. غرست ثورة ابن مردنيش مفهوم التمرد والثورة لدى القبائل الخاضعة لســلطان الموحدين، إذ لم تكد تمر إلا سنوات قليلة على نهاية ثورة ابن مــردنيش حتــى اشتعلت الثورة في أماكن أخرى من بلاد المغرب الأدنى والأقصى، هذا ناهيــك عن ثورة بني غانية في الجزائر الشرقية[3] سنة 580ه/1184م، والتي استنزفت قوى الدولة لقرابة نصف قرن حتى سنة 631ه/1234م[4].

2.2 ثورة مرزدغ الصنهاجي:

لم تكد تمض سوى سنة واحدة على تولي أبي يعقوب يوسف الخلافــة، حتــى نشبت في سنة 559ه/1164م في منطقة غمارة في شمال المغرب حركة من التمرد والعصيان، صورها الموحدون في رسائلهم على انها حركة ردة فنعتوهــا بــالكفر والضلال[5].

---

(1): أبا الخيل، محمد بن إبراهيم: جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى (483ه/1090م– 640ه/1242م)، ط1، دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع، بريده - السعودية 1998م، ص225. سيشار إليه فيما بعد: أبا الخيل، جهود علماء الأندلس.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص92.

(3): الجزائر الشرقية (البليار): تقع هذه الجزر إلى الشرق من الأندلس في البحر المتوسط، وتتكون من ثلاثة جزر كبيرة هي: ميورقة ومنورقة ويابسة. انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص66.

(4): السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص268-275.

(5): زنيبر، محمد: المغرب في العصر الوسيط (الدولة - المدينة – الاقتصاد)، ط1، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999م، ص187. سيشار إليه فيما بعد: زنيبر، المغرب في العصر الوسيط.

وتزعم حركة التمرد تلك ثائر صنهاجي يدعى مرزدغ الغمـــاري الصـــنهاجي، الذي انتهز وفاة الخليفة عبد المؤمن بن علي، وانشغال الخليفة الجديد أبـــو يعقـــوب بامتناع بعض الأخوة عن مبايعته، فأعلن ثورته ببلاد غمارة، وسرعان ما اســـتطاع التغلب على تلك المنطقة بمساعدة جموع غفيرة مـــن بطـــون غمـــارة وصـــنهاجة وأوربة[1]، وقام مرزدغ بمن معه من ثوار، بمهاجمة نواحي مدينة فاس، واســـتولى على مدينة تازة[2] وقتل بها خلقاً كثيراً، وسبى النساء والأطفال وصادر الأموال[3]، وبلغ من تمرد مرزدغ وعدم اعترافه بسلطان الموحدين أن ضرب الســـكة باســـمه، حيث نقش عليها " مرزدغ الغريب نصره الله عن قريب "[4].

هذا ولم تزودنا الروايات التاريخية بأسباب هذه الثورة، فابن صاحب الصـــلاة، مؤرخ دولة الموحدين وراوي أخبارها، اكتفى بالإشارة اليها ضـــمن أحـــداث ســـنة 560ه/1165م، حيث قال " توقف أهل جبل صـــنهاجة ومـــن جـــاورهم عـــن اداء الطاعة، فعسكر إليهم الشيخ المرحوم أبو حفص بعزم وفائه وصحة إخائـــه، ومعـــه عسكر من الموحدين أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم "[5]، ويضيف أنه مـــا أن وصـــلت الاخبار إلى مراكش بهزيمة ابن مردنيش في موقعة الجلاب ســـنة 560ه/1165م، حتى " اتصل خبر البشرى بالفتح في الجبال، ووجهوا في الحين بالتوبـــة راغبـــين

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص277.

(2): تازة: مدينة كبيرة أسسها الأفارقة القدماء، تقع في آخر بلاد المغرب الأوسط وأول بلاد المغرب الأقصى، تبعد عن فاس بنحو 50 ميلاً. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص186؛ الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بــ" ليون الإفريقي " (ت بعد 957ه/1555م): وصف إفريقيا، جزءان، ط2، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م، جــ 1، ص354. سيشار إليه فيما بعد: الوزان، وصف إفريقيا.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص209-210؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص92-93.

(4): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص277.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص285.

ضارعين "[1]. ورواية ابن صاحب الصلاة هذه تشير إلى أن ثورة مرزدغ استمرت لأكثر من سنة، دون أن يقدم لنا أي تفاصيل أخرى عن أسبابها ومجرياتها وكيــف آلت جموع الثورة إلى التوبة والتسليم.

أما البيذق وهو من المؤرخين المعاصرين، فقد سمى هذا الثـــائر ب" مزيـــزدغ الغماري "، وجعل ثورته في الترتيب الحادي والثلاثين ضمن الثورات التي خرجت على الموحدين منذ نشأة دولتهم وحتى تاريخه، ذاكراً أن الثـــورة انتهـــت بتوحيـــد مرزدغ وخروجه للأندلس[2].

ونجد عند ابن الأثير - وعنه يأخذ النويري - رواية يشوبها الكثير من الغموض عن هذه الثورة، فهو على الرغم من اتفاقه مع ابن أبي زرع والســـلاوي، مـــن أن الثورة كانت في سنة 559ه/1164م، إلا أنه يذكر أن الثورة قامت بها قبائل غمارة بزعامة مفتاح بن عمرو[3]، والواقع حسبما تجمع عليه الروايات الأخرى أن الثورة قامت بها صنهاجة مفتاح بزعامة مرزدغ الصنهاجي، ثم أنه يذكر أن غمارة وحدها هي التي قامت بالثورة، في حين وقفت القبائل الأخرى تنتظر إلى ما يؤول اليه أمر غمارة، فلما فشلت ذلت تلك القبائل وتراجعت عن الثـــورة، والواقـــع أن صـــنهاجة وغمارة وأوربة اشتركت جميعها في الثورة في وقت واحد. أما الملاحظة الأخيـــرة على رواية ابن الأثير فهو يذكر أن الخليفة أبو يعقوب خرج بنفسه وبصحبته أخويه أبو حفص وأبو سعيد للقضاء على تلك الثورة، ويجعل ذلك في سنة 561ه/1166م، وهو بذلك يخلط هنا ما بين ثورة مرزدغ الصنهاجي التي قامت سنة 559ه/1164م، وثورة سبع بن منغفاد التي قامت في سنة 561ه/1166م[4].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص286.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص86.

(3): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص474؛ النويري، نهاية الأرب، جـــ24، ص322.

(4): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ9، ص474-475؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص209-210؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص277.

ويبدو أن ثورة مرزدغ لها أسبابها، إذ لا يعقل أن تكون لمجرد الثورة أو اعلان حالة من العصيان فقط، دون أن يكون لها من الأسباب والدوافع ما يبرر قيامها. فما هي اذن الأسباب التي دفعت القبائل الثلاث – صنهاجة وغمارة وأوربة – للثورة ؟.

لعلنا إذا نظرنا لهذه القبائل الثلاث المشتركة بالثورة نجد أولاً أن قبائل صنهاجة الساكنة بجبال غمارة هي ما كانت تعرف بصنهاجة العز، سميت بذلك لأنها لم تلتزم يوماً بأداء الضرائب[1]، وقيل لما اقتضته منعة جبالهم، يقول ابن خلدون " لصنهاجة هؤلاء بين قبائل المغرب أوفر عدداً وشدة وبأس ومنعة، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلة على تادلا[2].. لهم اعتزاز على الدولة، ومنعة عن الهضيمة والانقياد للمغرم"[3].

أما قبائل غمارة، فهي شعوب وقبائل لا تحصى عدداً، وقد كانت تسكن جبال الريف الممتدة بمحاذاة البحر المتوسط من نواحي سبتة وطنجة غرباً، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب مدينة فاس، وغمارة فرعاً من قبائل مصمودة[4]، وقد عرف عنها حتى عهد المرابطين انحرافها عن الإسلام وانتشار الشعوذة والسحرة المهرة وظهور المتنبئين بين ابنائها[5]، يقول ابن خلدون " كان غمارة هؤلاء عريقين في الجاهلية بل الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير.. وما زالوا يفعلون السحر لهذا العهد "[6]، ويقول صاحب مؤلف مجهول معاصر لعهد الخليفة أبي يعقوب " وجبل غمارة من أخصب جبال المغرب، وهو من الجبال المشهورة،

---

(1): نوارة، شرقي: الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين 524-667هـ/ 1126-1268م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2008م، ص35. سيشار إليه فيما بعد: نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي.

(2): تادلا: مدينة قديمة في جبال البربر بالمغرب، بالقرب من مدينة فاس. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص200؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص5-6.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص274.

(4): العبادي، أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت (د.ت)، ص277. سيشار إليه فيما بعد: العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص190-193.

(6): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص288.

ويسكنه قبائل كثيرة من غمارة وهم امم لا تحصى.. وفيه جبال قد لحقت بأعنان السماء علواً، وحصون كثيرة تمتنع فيها غمارة.. ولأهل هذا الجبل مذاهب شتى، وسير مختلفة "[1].

أما قبيلة أوربة فلم تكن تنتمي إلى مصمودة أو صنهاجة، وإنما بقيت تحتفظ بنسبتها كأحد بطون البرانس، واستقرت منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي بالمغرب الأقصى، ومن بطونها بجاية ونفاسة ومزياتة، وصفها ابن خلدون بأنها كثيرة العدد وشديدة البأس[2]، ولعل هذا الوصف جاء نتيجة للمقاومة التي أبدتها ضد الأنظمة الحاكمة في تلك الجهات.

نلاحظ مما سبق أن القبائل الثلاث التي شاركت في ثورة مرزدغ ضد الموحدين سنة 559هـ/1164م، هي قبائل بربرية، لكن مع ذلك لم يكن يجمعها الانتماء القبلي المباشر، فهي تمثل انتماءات شتى: غمارة المصمودية، وصنهاجة مفتاح أو العز الصنهاجية، وأوربة المستقلة المنتمية لفرع البرانس، وبالتالي لم تكن حمية العصبية القبلية، أو وازع الدم هو ما دفع هذه القبائل للانتفاض معاً في وجه الموحدين، تحت زعامة مرزدغ الصنهاجي، وانما هناك أسباب عميقة كشفت عنها وفاة عبد المؤمن ابن علي، فابن الأثير يقول " لما تحقق الناس موت عبد المؤمن، سنة تسع وخمسين، ثارت قبائل غمارة "[3]، وهذا يقودنا إلى أن قبائل غمارة، والمقصود بغمارة هنا جبل غمارة، كانت تسكن للهدوء في عهد عبد المؤمن على مضض، ولعل سياسة عبد المؤمن المتسمة بالصرامة والحزم هو ما دفعها إلى ذلك، ثم عندما توفي عبد المؤمن وتحققت من وفاته، فجرت هذه القبائل ما تكن به من حقد، ورغبة بعدم الانصياع لأمر الموحدين، لما عرف عن هذه القبائل من عزة نفس وشدة بأس، ورفض للخضوع ودفع للضرائب، هذا بالنسبة لقبيلتي صنهاجة وأوربة.

أما بالنسبة إلى قبائل غمارة فكانت تأخذهم العزة بكثرة عددهم، وامتناع حصونهم، وكانت الدعة وانتشار المفاسد والشعوذة والسحر هو منهجهم، وهذا ما

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص190-191.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص192.

(3): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص474.

يؤكده ابن خلدون بقوله " ما زالوا يفعلون السحر لهذا العهد "[1]، وعندما قامت دولة الموحدين اخضعت بلادهم وقضت على دابر فسادهم، إلا أن الغماريين عندما تحققوا من موت عبد المؤمن راموا إلى العودة إلى سابق عهدهم.

ثم أن أن ثورة هذه القبائل معاً مرة واحدة، يقودنا لاستنتاج آخر، هو أن ولاة وقادة الموحدين في بداية عهدهم لم يهتموا الاهتمام الكافي بشعور القبائل وخصوصية بعضها، كما انهم لم يلتفتوا إلى تأهيل القبائل القاطنة في الجبال التأهيل الصحيح لنظام الحياة الجديد الذي يمثلونه، وانما كان الحزم والسيف هو لسان الحكم لديهم، وهنا التقت مصالح القبائل الثلاث ضد الموحدين، ووجدت في شخص مرزدغ الزعيم الذي يمكن يقودها لتحقيق آمانيها في التخلص من التبعية للموحدين.

وظنت قبائل منطقة غمارة أن بموت عبد المؤمن تنجلي سطوة الموحدين على بلادهم، وتضعف قبضتهم على نواحيهم، ومن هنا جاء إعلانهم لثورتهم، إلا أن الخليفة أبو يعقوب كان لتمردهم بالمرصاد، حيث جهز لهذا الثائر ومن معه من أعوان جيشاً كثيفاً من العرب والموحدين، جعل على قيادته أحد أشياخ الموحدين وهو يوسف ابن سليمان، وقد تمكن جيش الموحدين من هزيمتهم، والقضاء على حركتهم، وملك بلادهم عنوة[2].

واختلفت الروايات التاريخية في مصير مرزدغ زعيم الثورة، فالبيذق يقول أنه اضطر إلى التوحيد عندما انفضت من حوله جموعه، فقام الموحدون بإبعاده إلى الأندلس وفرضت عليه الإقامة بقرطبة[3]، لكن ابن أبي زرع والسلاوي، يذكران أن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراكش[4]. وأياً كان الأمر فإن ثورة مرزدغ سحقت، وانقادت كل القبائل المتواطئة معه إلى الطاعة.

---

(1): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص288.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص15؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص12.

(3): البيذق، أخبار المهدي، ص86.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص269.

3.2 ثورة سبع بن منغفاد الغماري:

يبدو أن قضاء الموحدين على ثورة مرزدغ الصنهاجي لم يكن بالصورة التي يجب، إذ ما كاد الموحدين أن يطمأنوا إلى عودة الهدوء لبلاد غمارة، حتى عادت الفتنة من جديد إلى تلك الجهات، وذلك في سنة 561هـ/1166م، حيث عادت غمارة نفسها ومعها صنهاجة إلى شق عصا الطاعة، وهذه المرة تزعم الثورة أحد رؤساء قبيلة غمارة، يدعى سبع بن منغفاد بن حيان الغماري(1)، فكان " رأسهم في ذلك الذي إليه يرجعون، وعميدهم الذي عليه يعولون "(2).

ويذكر ابن أبي زرع أن سبع بن منغفاد بدأ ثورته بجبل تيزران(جبل الكواكب)(3)، الذي يعد أعلى جبل بنواحي بلاد غمارة(4)، ثم عندما استفحل خطره وتمادى في إذائه انضمت إليه قبيلة صنهاجة – حلفاء غمارة السابقين – الذين استهوتهم الثورة ضد الموحدين(5).

استمر سبع بن منغفاد ومن معه من ثوار طوال سنة 561هـ/1166م، معتصمين في جبل تيزران دون أن يحرك الموحدين لهم ساكناً، ويبدو أن ثورته في هذه الأثناء لم تصل لدرجة العصيان المسلح، حيث لم تسجل ضده أي اصطدامات مع الموحدين، إلا أنه مع أوائل سنة 562هـ/ أواخر سنة 1166م، حدث تطور خطير في ثورة سبع ابن منغفاد تمثل في تحول ثورته من مجرد اعتصام ونقض للطاعة، إلى

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص86؛ السملالي، عباس بن محمد: الاعلام بمن حل مركش وأغمات من الاعلام، 10 أجزاء، ط2، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1993م، جــ10، ص308. سيشار إليه فيما بعد: السملالي، الاعلام.

(2): المراكشي، المعجب، ص185.

(3): جبل تيزران (حبل الكواكب): هو جبل مجاور لجبل يني يرزو، يتصل ببلاد غمارة من جهة الجنوب، له قمة شاعقة قيل أنها لحقت بأعنان السماء من علوها، ومن هنا جاءت تسميته بجبل الكواكب لأنه يناطح النجوم، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر زهاء ألفي متر. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص64، 170؛ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص190-191.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210.

(5): ابن خلدون، العبر، جــ6، ص320.

عصيان مسلح، فقام بقطع الطرق، وسبي قوافل الموحدين المتجهة من وإلى مدينة قصر كتامة[1] وما جاورها، والاعتداء على السكان الآمنين في تلك النواحي قتلاً ونهباً، ثم أنه فرض هيمنته على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطئ البحر المتوسط شمالاً حتى مدينة سبتة، قاطعاً بذلك الشريان الرئيسي للمواصلات بين شطري الدولة الموحدية المغرب والأندلس، وهذا ما أثار الموحدين ضده، وأوجب عليهم صده، فتشاور الخليفة أبو يعقوب مع أشياخ وأعيان الموحدين في أمره، فجرى الاتفاق على أن يحسموا شره بالسرعة الممكنة[2].

وفي الحال قام الخليفة أبو يعقوب بتجهيز جيشين، جعل على قيادة الأول الشيخ أبا حفص بن عمر الهنتاتي، وكلفه بالمسير لقتال كل من يرفض الطاعة واعلان الولاء في جبال غمارة، بينما أسند قيادة الجيش الثاني للشيخ أبو سعيد يخلف ابن الحسن، ووجهه إلى بلاد صنهاجة التي تقع إلى الشمال من غمارة بجوراها[3].

سار الشيخ أبو حفص بمن معه من عساكر الموحدين للجهة التي حددها له الخليفة أبو يعقوب، ثم تبعه بعد قليل الشيخ أبو سعيد، فأخذا بمنازلة سبع بن منغفاد والتضييق على من معه من ثوار من جهات مختلفة، إلا أن تعاظم قوة الثورة قبل وصول هذين القائدين، وتحصن سبع بن منغفاد في جبل الكواكب المعروف بوعورته وحصانته، حال دون تمكنهم من القضاء على الثورة أو النيل منها بطائل، عندئذ قرر الخليفة أبو يعقوب أن يسير بنفسه للقضاء على هذا الثائر الذي تفاقم أمره وتعاظم شره[4]، فخرج على رأس جيش موحدي هائل العدد، جامع لخصال النظام

---

(1): قصر كتامة: مدينة بالمغرب، تقع على تل تحته نهر تدخله المراكب، وتعرف كذلك بقصر صنهاجة، وقصر عبد الكريم نسبة إلى أحد أشياخ كتامة القاطنين هناك. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص189.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص307-308؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص13.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص308.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص95؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص22.

والكمال، لا يرضى إلا بالنصر والتمكين، وبصحبته أخواه أبو حفص عمـــر وأبـــو سعيد عثمان، ولما وصلوا أول بلاد غمارة نظر الخليفة أبو يعقوب للقبيلتين الثائرتين فوجد أن غمارة ضالعين في الشر أكثر من صنهاجة، فما كان منه إلا أن اتخذ قراره باقتحام جبل غمارة أولاً، وقد عبر عن ذلك الخليفة أبو يعقوب يوسف في الرســـالة التي بعث بها إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة فـــي سنة 562ه/1167م، يخبرهم ويشرح لهم فيها أحداث غزوته لبلاد غمارة، حيث قال " ولما صدقت لها العزائم وشدت اليها الحيازيم، وقع على قصدها التعويل والتصميم، قايسنا بين جهة المرتدين من صنهاجة وغمارة، فرأينا غمارة أوفى ســـراية، وأبلـــغ نكاية، وأفصح عن استصحاب الجهالة والغواية، وأنهم قد فشا ضرهم، وساء أثرهم، وتعدى أذاهم، وسرت عواهم، وأنهم أولى من تقدم اليهم وأعتزم عليه"(1).

على هذا النحو تقدم أبو يعقوب بعساكر الموحدين نحو جبل غمارة، فلما وصل إلى مشارفه آثر أن يكتب للمتمردين يذكرهم بالهداية ووجوب الطاعة، ويحذرهم من مغبة العصيان، ولكن ذلك كان عبثاً، فلم يستمعوا إلى نصيحه، ولا أذعنوا لـــدعوة، حينئذ واصل الموحدون توغلهم داخل الجبل، فكانت أول جهـــة يقصـــدونها الجبـــل المعروف ب(ودكة)(2)، فاقتحموه بجملة جيشهم في آن واحد، وما هي إل لحظـــات حتى اشرأب المتمردون ارتياعاً، وتفرقوا في الشعاب والأودية انكســـاراً، فاســـتولى الموحدون على الجبل من يومهم، وكان ذلك في الثالث من شـــهر رمضـــان ســـنة 562ه/ تموز 1167م، وكانت هذه الهزيمة التي لحقت بغمارة في جبل ودكة ســـبباً في دخول الكثير منهم في الطاعة(3).

أقام الموحدون مدة يومين بأعلى جبل ودكة، عملوا خلالها على ملاحقة فلـــول غمارة، واستقبال من أتى منهم لإعلان التوحيد والطاعة، كما انهم انشـــغلوا بجمـــع الغنائم الكثيرة، والأرزاق الواسعة، ثم تحركوا تجاه جبل الكواكب حيث يعتصم رأس

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص312.

(2): جبل ودكة: يقع شمالي بني زروال، ويرتفع عن سطح البحر بثمانمائة متر، وتبلغ مساحة غابته ثمانمائة ألف هكتار. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص312.

(3): زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص188؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص96.

الفتنة سبع ابن منغفاد بمؤازرة من يسكن ذلك الجبل من قبائل غمارة وهم بنو أنـال وبنو بال، الذين أصروا على موقفهم في رفض الطاعة والانصياع للموحدين، بـل أنهم تمادوا في عصيانهم معتمدين على حصانة جبلهم وصعوبته، ووجود سبع بـن منغفاد بينهم[1].

وعندما وصل الموحدون إلى جبل الكواكب، أخذوا في محاصرته من كل ناحية، مضيقين الخناق على كل من فيه من متمردين وثوار، وهنا حاول سبع بن منغفـاد إطالة مدة الحصار إلى أكثر أمد ممكن، لعل ذلك يحبط من عزيمة الموحدين، وينشر اليأس بين صفوفهم، فلجأ في سبيل ذلك إلى الحيلة والخديعة حيـث أرسـل وفـداً للموحدين يضم ممثلين عن قبائل جبل الكواكب بنو أنال وبنو بال بصـحبة شـقيقه عمران بن منغفاد، متظاهرين بالرجوع إلى الطاعة، وسائلين الخليفة في الوقت نفسه أن يكف عن محاربتهم، مقابل أن يأتوه هم ومن في الجبل جميعاً بمن فيهم سبع بـن منغفاد معلنين الطاعة والخضوع، فقبل منهم الخليفة ذلك وضرب لهم موعداً لتقـديم البيعة يوم عيد الفطر، إلا أنهم اخلفوا وعدهم، وسرعان ما اتضح أن خضوعهم كان خادعاً ومؤقتاً، ما قصدوا منه إلى كسب الوقت، عندئذ قرر الخليفة أبو يعقـوب أن ينتقم منهم شر انتقام، فوجه إليهم من محلته بظاهر جبل الكواكب أخويه السيدين أبا حفص وأبا سعيد بمن حضر من عساكر الموحدين، فاقتحموا على الثـوار معقلهـم الرئيسي جبل الكواكب، وكان بداية الهجوم يوم الأثنين الخامس مـن شـوال سـنة 562هـ/ آب 1167م، وما هي إلا أيام معدودة حتى انهـارت مقاومـة المتمـردين، واستطاع الموحدون الاستيلاء على الجبل كله بعد أن أمعنوا القتـل والأسـر فـي صفوف المتمردين، مستأصلين بذلك شأفتهم، أما رأس الفتنة وزعيم الثورة، سبع بن منغفاد فقد تمكن من الفرار من قبضة الموحدين لاجئاً إلى جبل قريب يجيره، فنـزل في حماية جماعة من أنصاره من قبيلة غمارة، لكن تلك الجماعة التـي وثـق فـي

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص314-315.

إيوائها له، قبضت عليه وسلمته للموحدين، وفي الحال صدر بحقه حكـم الإعـدام، فصلب ثم قتل وحمل رأسه إلى مراكش ليكون عبرة لغيره[1].

وعلى أثر هزيمة غمارة وقتل زعيم الثورة سبع بن منغفاد، توجه الشـيخ أبـو سعيد يخلف بعساكر من الموحدين لمعاونة الشيخ أو حفص عمر الهنتاتي الذي كان قد توجه ليقاتل قبائل صنهاجة، فما كاد يصل للشيخ أبي حفص حتى بادرت قبائـل صنهاجة إلى الإذعان والطاعة، خاصة بعد أن علمت بخضوع غمارة، فقبل مـنهم الشيخ أبو حفص طاعتهم، وأعلم الخليفة أبو يعقوب بذلك فصفح عنهم[2].

وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على ثورة سبع بن منغفاد في 14 شوال سنة 562هـ/ آب 1167م، بعد أن اشغلهم بفتنته زهاء السنتين، وعاد الخليفة أبو يعقـوب في عساكره المضفرة إلى العاصمة مراكش، محملاً بغنائم هائلة من السبي والغـنم والبقر والدواب، ولكي يحكم سيطرته على بلاد غمارة ويمنع تكرار الثورة، ارتـأى الخليفة أبو يعقوب بتعيين أخيه أبي الحسن علي والياً على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة[3].

4.2 ثورة أهل جبل تاسررت:

شهدت سنة 563هـ/1167م، فتنة جديدة لقبائل البربر، ففي هذه السـنة أعلنـت بعض البطون البربرية في جبل تاسررت بنواحي المغرب الأقصى، خلـع الطاعـة الموحدية[4]، فلما صح عند الخليفة أبو يعقوب خبر ارتدادهم وتسببهم فـي انعـدام الأمن بنواحيهم، جهز لهم جيشاً كبيراً من الموحدين، وجعل على قيادته أخيه السـيد

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص314-323؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص95؛ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص320؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277؛ السملالي، الاعلام، جـ10، ص308؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص97؛ زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص188-189.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص96-97.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص23.

(4): الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص357.

أبو حفص عمر، فسار إليهم السيد أبو حفص وما أن وصل إليهم حتى أحدث فـيهم القتل والسبي والنفي، فشتت جموعهم واستأصل وجودهم من ذلك الجبل، ولم يـدع لهم في حيهم حياً[1]، ثم انصرف عائداً إلى مراكش حاملاً البشرى بالنصر والظفر، وقد نظم الشاعر أبو عمر بن حربون[2]، قصيدة طويلة امتدح فيها السيد أبو حفـص على ما حققه من نصر في غزوته لأهل تاسررت، وواصفاً لنا ما حل بأهـل ذلـك الجبل على يديه، فكان مما قال[3]:

بيمنكم نجح المطلب وأعطى مقدته المصعب

وأشرقت الأرض عن نوركم فلم يبق في أفقٍ غيهب

فلم تدعو غاية تنتجي ولم تتركوا شاغباً يشغب

تركتم ديارهم بلقعاً فتندب من جاءها يندب

ويظهر أن أسباب ثورة أهل جبل تاسررت لا تختلف كثيراً عن سـابقاتها مـن ثورات قامت في جبال المغرب الأقصى، فسكان هذه الجبـال مـن قبائـل صـعبة المراس، لا تقبل الخضوع والطاعة، وإن خضعت كرهاً، فإنها تبقى تترصد الفرصة المناسبة لإعلان غضبها وخلع طاعتها، وهذا على ما يبدو ما حـدث فـي جبـال المغرب الأقصى، من صدام وصراع بين إرادتين متباينتين؛ قبائـل جبليـة تمتـاز بالتعصب والقوة وحب الحرية ورفض الخضوع، ونظام موحدي قـوي وحـازم لا يقبل إلا بفرض سيطرته على الجميع.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص102.

(2): هو أبو عمر أحمد بن عبدالله بن حربون الشلبي، كان أولاً في جملة كتاب ابن قسي زعيم المريدين، ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص، ولم نقف على تاريخ وفاته، غير أنه كان حياً سنة 564ه/1168م. انظر: منصور، عبد الوهاب: أعلام المغرب العربي، الجزء الثالث، المطبعة الملكية، الرباط 1983م، ص310-318. سيشار إليه فيما بعد: منصور، أعلام المغرب العربي.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص360-361.

5.2 ثورة عبدالله بن عبيدالله في طبيرة:

سبق وأشرنا أن مدينة طبيرة كانت من بين القواعد التي ثارت في غرب الأندلس أيام أن اضطربت شئونه في نهاية حكم المرابطين ومستهل حكم الموحدين، وقد تعاقب في السيطرة على المدينة في عهد الخليفة عبد المؤمن ثائران من أهلها، هما: عامل ابن مهيب ثم علي الوهيبي، وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف، أيام أن كان والياً على إشبيلية، في عهد أبيه، قد نازل طبيرة عام 552ه/1157، وكان صاحبها وقتئذ علي الوهيبي، فلم يظفر بفتحها، وإنما اضطر إلى عقد الصلح مع الوهيبي، على أن يبقى محتفظاً بحكم المدينة، مقابل طاعته للموحدين، وذكر الخليفة في الخطبة، والإلتزام بعدم الاعتداء على المناطق المجاورة لطبيرة[1]. ويبدو أن الوهيبي قد إنتزع بهذا الإتفاق اعتراف الموحدين به حاكماً مستقلاً لثغر طبيرة، الأمر الذي شجعه على عدم الإلتزام باتفاقه معهم بمجرد رحيلهم عنه، ليظل شوكه في ظهر الموحدين حتى وفاة الخليفة عبد المؤمن.

وعندما تولى أبو يعقوب السلطة عقب وفاة والده، حرص على توطيد أمور دولته، وإقرار السلام في كافة أرجاء البلاد، فلم يكن لديه أي مجال للتهاون في عقاب أي عابث بأمن واستقرار الدولة، وحدث في هذه الأثناء أن تغلب على مدينة طبيرة ثائر آخر من أهلها، يدعى عبدالله بن عبيدالله، وقد تفاقم شره وعدوانه، وكثر عيثه في تلك المنطقة، يعتدي على السكان الآمنين، وينهب أموال التجار والمسافرين، براً وبحراً، بما اجتمع إليه من قطاع الطرق، وأهل الفسق والعصيان[2].

وكان الخليفة أبو يعقوب على علم كامل بخطورة ثورة هذا الغادر في غرب الأندلس، ولم يؤخره عن قطع شأفته، إلا إنشغاله بإخماد ثورة سبع بن منغفاد في بلاد غمارة، وثورة أهل جبل تاسررت، وما كاد أن ينتهي من أمرهما، حتى قرر إرسال جيوشه لوضع حد لهذا العيث في تلك المنطقة الحساسة من بلاد غرب

---

(1): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص316-317؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص257؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص119.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص367-368.

الأندلس، فتوجهت إليها حملة موحدية قوية في شهر ذي القعدة سنة 563هـ/ أيلــول 1168م، فاستولوا أولاً على حصن قسطيلة[1](Castella) القريب من طبيــرة، ثــم حاصروا ابن عبيدالله في طبيرة براً وبحراً، ولم تطل مدة الحصار، إذ سرعان مــا أذعن ابن عبيدالله إلى التسليم[2].

وهكذا حسم داء طبيرة، بعد أن ظلت شجى على أهل المغرب والأنــدلس، فــي نهب أموالهم، وقطع طرقاتهم براً وبحراً، من أول عام ستة وأربعين وخمسمائة إلى آخر عام ثلاثة وستين وخمسمائة.

وبعد نجاح الموحدين في سنة 563هـ/1167م، في القضاء على جميع حركــات التمرد التي نشبت في المغرب الأقصى، وفي غرب الأندلس، ناهيك عن انتصارهم على ابن مردنيش في موقعة الجــلاب ســنة 560هـ/1165م[3]، اطمأنــت الأمــور للموحدين في سائر بلاد الغرب الإسلامي، مما دفع بالموحدين والعرب وجميع مــن يخضع للحكم الموحدي في تلك الجهات، إلى تجديد البيعة للخليفــة أبــي يعقــوب، واحتفل الموحدون بهذا الحدث احتفالاً كبيراً[4]، وبذلك استقام أمر الموحدين، وسكنت البلاد للهدوء ولو لبعض الوقت.

6.2 ثورة قبيلة صنهاجة القبلة[5]:

عادت قبائل صنهاجة في أواخر سنة 572هـ/ أوائل 1177م، للتمرد من جديــد، وهذه المرة جاءت الفتنة من صنهاجة القبلة، أي صنهاجة الجنوبية المقيمة في منطقة

---

(1): قسطيلة: حصن يقع في غرب الأندلس، على شاطئ المحيط الأطلسي، ويبعد عن مدينة طبيرة 14 ميلاً. انظر: أرسلان، الحلل السندسية، جــ1، ص86.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص368.

(3): ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص260.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص98.

(5): تقسم القبائل الموحدية التي تنتمي إلى أصل صنهاجي إلى قسمين؛ صنهاجة القبلة أي صنهاجة الجنوبية الساكنة خلف جبال أطلس، وصنهاجة الظل وهم الساكنون في الجبل والمحتمون به من وهج الشمس. انظر: البيذق، المقتبس، ص53.

جبل درن (أطلس)[1]، وكغيرها من ثورات صنهاجة السابقة الــذكر، لــم تســعفنا المصادر ببيان أسباب التمرد، إلا أنها تذكر أن هذه القبيلة شــقت عصـــا الطاعـــة، وأخذت في الإغارة على النواحي المجاورة وقطع السبل، مما اســتدعى أن يخــرج لإخمادها الخليفة أبو يعقوب بنفسه، الذي غادر مراكش على رأس حملة موحدية في الرابع من ذي القعدة سنة 572ه/1177م برسم غزو هــذه القبيلــة وقطــع دابــر تمردها[2]، فلما وصل إلى موطن قبائل هسكورة في منطقة جبل درن، جنوبي شرقي مراكش[3]، أمر ببناء معسكر للجيش الموحدي هناك، تقام فيه البيوت والدور لهــم، وجعل على قيادة ذلك المعسكر ابنه أبو يوسف يعقوب، غيــر أن قبائــل صــنهاجة القبلة، عندما رأت تجهيزات الموحدين لغزوها بادرت إلى إعلان طاعتها دون قتال، فقبل الخليفة أبو يعقوب توبتهم وانصرف عائداً بجميع الأجناد إلى مراكش، وكـــان تاريخ وصوله لمراكش عائداً من غزوته تلك في الحادي والعشرين من شــهر ذي القعدة من نفس السنة المذكورة[4].

7.2 ثورة ابن الرند في مدينة قفصة:

كانت مدينة قفصة حتى منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تتبــع لحكم الدولة الفاطيمة المباشر، ثم بعد انتقال الفاطيين إلى مصر سنة 361ه/972م، آل حكم قفصة وسائر مدن المغرب الأدنى إلى دولة بني زيري الصنهاجية (361-449ه /972-1057م) الذين بسطوا سيطرتهم عليها باسم الفاطميين[5]حتـــى ســـنة

---

(1): ابن خلدون، العبر، جــ6، ص271.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(3): ابن خلدون، العبر، جــ 6، ص271.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(5): العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص314.

449هـ/ 1057م، عندما تمكنت قبائل العرب الهلالية من رياح وزغبة والأثبج من اسقاط دولتهم والاستيلاء على القيروان[1][2].

وبتغلب العرب على القيروان اضطربت أمور إفريقية، حيث قام العرب باقتسام البلاد وأسسوا فيها عدة إمارات، وفي هذه الأثناء كان بقفصة عاملاً لدولة بني زيري الصنهاجية يدعى عبدالله بن محمد بن الرند، تصدى لحالة الانحلال التي أحدثها العرب في البلاد بكل اقتدار، فضبط قفصة وأحل بها الأمن والنظام، وصالح العرب على دفع الأتاوة لهم مقابل عدم مهاجمتهم للمدينة، مما ساهم ذلك في انقاذ قفصة من موجة الدمار الهائلة التي تعرضت لها القيروان وغيرها من المدن بإفريقية[3].

ويذكر ابن خلدون أن عبدالله بن الرند ظل في قفصة يخطب لأمراء الدولة الصنهاجية التي انحصرت في قلعة بني حماد حتى سنة 545هـ/1150م، ثم في هذه السنة أعلن استقلاله بقفصة وخلع طاعة الصنهاجيين، وذلك بعد أن قوي أمره وعظم سلطانه وشكر الناس نعمه، وكان قد أظهر مقدرة كبيرة في إدارة المدينة وتسيير أمور الناس، مما دفع أهالي المدن المجاورة لبيعته، فامتد سلطانه ليشمل معظم بلاد الجريد[4] حتى قسنطينة، وعندما كبر سنة وعجز عن القيام بأمور دولته، فأسند الولاية إلى ابنه المعتز، فلما اصيب المعتز بالعمى وكان ابنه تميم قد مات في حياته، ولى الإمارة إلى حفيده يحيى بن تميم بن المعتز[5].

---

(1): القيروان: مدينة عظيمة في إفريقية، تبعد عن مدينة تونس مسير ثلاثة أيام، وعن المهدية 60 ميلاً. انظر: مجهول، كتاب الاستبصار، ص117-120؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص421.

(2): التجاني، رحلة التجاني، ص328-330؛ العروي، مجمل تاريخ المغرب، جـ2، ص94.

(3): حسين، عباس فضل: مدينة قفصة في عصر الموحدين (541-668هـ/1146-1269م)، دراسة في أحوالها الاقتصادية والسياسية، مجلة آداب البصرة، العدد (50)، لسنة 2009م، ص193. سيشار إليه فيما بعد: حسين، مدينة قفصة.

(4): بلاد الجريد: هي آخر بلاد لإفريقية على طرف الصحراء، وهي مدن كثيرة وعمائر متصلة، أولها من جهة الساحل مدينة قابس، وقد سميت ببلاد الجريد لكثرة النخيل بها. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص150.

(5): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص220.

ولما قام عبد المؤمن بن علي في سنة 554هـ/1159م، بغزوته المشهودة إلى إفريقية، والتي أفضت عن استيلائه على المهدية، توجه للقائه هناك وفد من مدينة قفصة يضم عدداً من أعيانها وزعمائها يتقدمهم الأمير يحيى بن تميم وجده المعتز، وقد التقى الوفد بالخليفة عبد المؤمن، وأعلنوا بين يديه خضوع مدينتهم لطاعة الموحدين، فسر الخليفة كثيراً لقدومهم وبيعتهم، إلا أنه قام قبل مغادرته المهدية بنقل بني الرند إلى بجاية، وعين على قفصة والياً موحدياً هو نعمان بن عبد الحق الهنتاتي[1].

وقبيل وفاته بقليل قام الخليفة عبد المؤمن بن علي في سنة 558هـ/1163م بتعيين والي جديد لمدينة قفصة هو عمران بن موسى الصنهاجي، ويبدو أن عمران هذا لم يسير على نهج سابقيه من الولاة وخاصة من بني الرند، حيث يذكر عنه أنه استهان بأهل المدينة وأساء في معاملتهم وبالغ في إيذائهم، حتى ذاقوا به ذرعاً[2]، متجاوزاً بذلك تعليمات الخليفة أبو يعقوب التي عممها على ولاته في بلاد المغرب والأندلس في شهر رمضان من سنة إحدى وستين وخمسمائة[3]، إذ يبدو أن الخليفة أبو يعقوب قد لاحظ تفشي الفساد والرشوة بين بعض حكام الموحدين في بداية عهده مما اضطره إلى إعادة تذكيرهم بما ذكرهم به والده عبد المؤمن من قبل بوجوب العدل وتحري الصدق وتجنب الظلم، مؤكداً لجميع الولاة عدم الحكم في الدماء من تلقائهم، وأنه لا بد من رفع هذه القضايا إلى الخليفة ليفصل بها بنفسه[4].

---

(1): حسين، مدينة قفصة، ص194؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص106.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص281.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص302.

(4): حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية (64-897هـ/683-1492م)، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1986م، ص87. سيشار إليه فيما بعد: حمادة، الوثائق السياسية والإدارية.

وحدث في سنة 568ه/1173م، أن دخلت طائفة من الترك الغز[1] قادمة مــن ديار مصر بقيادة شرف الدين قراقوش[2]، إلى بلاد المغرب فاستولى علـــى مدينـــة زويلة[3]، وخطب فيها إلى السلطان صـــلاح الـــدين الأيـــوبي[4]، ثـــم فـــي ســـنة

---

(1): الترك الغز: هو الاسم العربي لقبائل الأوغوز التركية، التي هاجرت من أقصى بلاد الشرق من على تخوم الصين، إلى شرق العالم الإسلامي، وذلك إبان الدولة العباسية، فاعتنقوا الإسلام مما رفع من شأنهم في الحياة المدنية والعسكرية، ومنهم كانت دولة السلاجقة ومماليكها الاتراك الذين شاركوا في تكوين جيوش الدولة الايوبية في الشام ومصر، ووصل بعضهم إلى إفريقية، وهناك عرفوا باسم الغز أو الأغزاز في النصف الثاني من القرن 6ه/12م. انظر: المراكشي، المعجب، ص210؛ العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد، ص164-165؛ نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي، ص58-59.

(2): قراقوش: هو شرف الدين قراقوش الغزي التقوي، من موالي تقي الدين عمر شاهنشاه بن نجم الدين أيوب الملقب بالمظفر ابن أخي صلاح الدين الايوبي، نشأ في خدمة الدولة الايوبية، ويعود له الفضل في ضم بعض أجزاء المغرب للدولة الأيوبية، توفي سنة 586ه/1190م. وهو غير بهاء الدين قراقوش الذي ناب عن صلاح في الديار المصرية، والذي كانت وفاته سنة 597ه/1201م. انظر: المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845ه/ 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، ط1، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، 8 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م، جـــ1، ص154، 171. سيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك؛ التجاني، رحلة التجاني، ص112؛ الطرابلسي، أحمد بك النائب الانصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب (د. ت)، ص131. سيشار إليه فيما بعد: الطرابلسي، المنهل العذب؛ الزركلي، الأعلام، جـــ5، ص193.

(3): زويلة: مدينة كبيرة وقديمة، تقع في صحراء فزان جنوبي شرقي طرابلس، بينها وبين طرابلس مسير خمسة وعشرين يوماً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ3، ص159-160.

(4): هو السلطان الكبير والملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب، وهو من أصل كردي من بلدة دوين، ولد سنة 532ه/1138م في مدينة تكريت أثناء ولاية ابيه عليها، وكان قد أرسله نور الدين زنكي مع عمه أسد الدين شيركوه في حمله له على مصر سنة 562ه/1167م، وقد استطاع شيركوه تملك مصر بعد

571ه/1175م عاد قراقوش على رأس حملة أيوبية جديدة تجاه بلاد المغرب فانتزع مدينة أوجلة[1] وبلاداً كثيرة من يد الموحدين، وغنم أموالاً جزيلة، ثـم عـاد إلـى مصر[2].

ولم يزل قراقوش على هذه الطريقة يهدد بلاد المغـرب دون أن يحـرك لـه الموحدون ساكناً، مما أطمع ذلك أهل مدينة قفصة على خلع الطاعة، ولكي ينجحوا في مساعيهم، بدأوا يبحثون عن زعيم ليترأس ثورتهم ويتولى أمر مدينتهم، فاسـتقر رأيهم على احياء إمارة بني الرند أمراء قفصة ما قبل الموحدين، فقاموا في شـوال سنة 572ه/1176م بمراسلة علي بن المعز بن المعتز بن الرند، المعروف بالطويل، وهو من أعقاب أمراء قفصة[3]، كان يقيم في بجاية حيث كان يحترف مهنة الخياطة هناك[4].

الانتصار على الافرنج، حيث عينه الخليفه الفاطمي وزيراً له، غير أن شيركوه لم يلبث أن توفي سنة 564ه/1168م، فقلد الخليفة الفاطمي منصب الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي، فشرع صلاح الدين في نصرة أهل السنة والانتقام من الروافض الذين كانوا أكثر أهل مصر يومئذ، وفي سنة 567ه/1172م نجح صلاح الدين في اسقاط الخلافة الفاطمية، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي، وانفرد بسلطنة ديار مصر، ليؤسس فيها الدولة الأيوبية، ثم تحركت همته لغزو الافرنج في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين زنكي سنة 570ه/1174م، فمكنه الله منهم في وقائع عديدة، لعل أهمها كان معركة حطين سنة 583ه/1187م، والتي كان من أهم نتائجها استعادت بيت المقدس من الصليبيين. وكانت وفاته في مدينة دمشق سنة 589ه/1193م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ21، ص278-291؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص148-153، 207-211؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص182-212.

(1): أوجلة: مدينة تقع جنوبي برقة نحو المغرب، تضم قرى كثيرة، وفيها نخل وشجر كثير وفواكه، بينها وبين أجدابية مسير سبعة أيام. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص276.

(2): المقريزي، السلوك، جـ1، ص171؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص271، الطرابلسي، المنهل العذب، ص131.

(3): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص103.

(4): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص281.

لبى علي الطويل رغبتهم فقدم على أهل قفصة لتزعم ثورتهم، وخلـــع طاعـــة الخليفة أبا يعقوب وأظهر ما في نفسه من عداء على الموحدين، وتوجه من فوره إلى قفصة وتزعم الثورة، واستطاع بمساعدة أهل المدينة من قتل كل من كان فيها مـــن الموحدين بمن فيهم والي المدينة عمران بن موسى، مستفيداً في ذلك من عدم وجود حامية عسكرية في المدينة(1). ليستبد ابن الرند بحكم قفصة عن الموحـــدين، وكـــان يشجعه على الاستمرار في الثورة أمرين؛ أولهما: تأييد أهل المدينة قاطبةً له، لمـــا عهدوه عن بني الرند من احترام لأهل المدينة، وحسن معاملته لهم، يقول ابن خلدون " فساس ملكه وحاط رعيته "(2). والأمر الثاني: تأييد ابن عمه علي بـــن المنتصـــر الذي كان نازلاً بمدينة بجاية لثورته، من خلال تحريضه بعض قبائل بنـــي هـــلال العربية لمساندة الثورة ودعمها(3).

وبعد أن استحكم ابن الرند سيطرته على قفصة، لقب نفسه سنة 575هـ/1179م، ب " الناصر لدين النبي "(4)، كما أنه على ما يبدو قد أقدم في هذه السنة على القيـــام بالخطوة الأخطر بالنسبة للموحدين وهي إعلان بيعته للعباسيين في بغـــداد، ورفـــع الخطبة باسم الخليفة العباسي لتفضيل بني الرند العباسيين " على بني عبد المـــؤمن وحبهم في الخطبة العباسية التي ألفوها "(5). ولربما كان هذا هو الســـبب المباشـــر لإثارة نقمة الخليفة أبو يعقوب يوسف على ابن الرند وأهل قفصـــة وعزمـــة علـــى القضاء على ثورتهم.

ويبدو أن والي بجاية قد شعر بالخطر الذي يتهدده من ثورة قفصة الانفصـــالية، إذ خشي من امتداد حمى حركات التمرد والانفصال إلى مدينته، هـــذا إلـــى جانـــب الخطر الذي كان يشكله قراقوش التركي، الذي سبق وأن استولى على الكثيـــر مـــن

---

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص103؛ حسين، مدينة قفصة، ص195.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص220؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص281.

(3): البيذق، أخبار المهدي، ص86؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص99؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص15-16.

(4): المراكشي، المعجب، ص185.

(5): التجاني، رحلة التجاني، ص114.

المدن والحصون في بلاد إفريقية من يد الموحدين، واجتماع الكثير من العرب حوله، فكتب إلى الخليفة أبي يعقوب يطلعة على ثورة ابن الرند، واضطراب أمور إفريقية من جراء تهديد قراقوش المستمر(1).

أخذ الخليفة أبو يعقوب كتاب والي بجاية على محمل الجد، فخرج بجيش ضخم من مراكش يوم الخميس 15 شوال من سنة 575ه/ آذار 1180م، ومما يدل على ضخامة ذلك الجيش الذي سار به الخليفة، لإخضاع تمرد ابن الرند أن البركة التي كان يصرفها إلى عساكره في غزوته هذه، قد بلغت في كل مرة ألف ألف دينار، سوى العلوفات والإكراميات والمرافق التي كانت تصرف في كل منزل طوال مدة الغزوة(2).

وقد استغرق مسير الحملة من مراكش وحتى الوصول إلى قفصة قرابة السنة، احتفل خلالها في الطريق بعيد الأضحى، وبعد الاحتفال بالعيد قدم الخليفة ابنه أبا يوسف يعقوب في طليعة من الجيش فسبقه إلى تلمسان، فوصلها في أواخر سنة 575ه /1181م، بينما وصل الخليفة إلى تلمسان في أوائل سنة ست وسبعين وخمسمائة، وفي تلمسان تم تجميع الجيش الموحدي، وإعادة تعبئته للقتال، ثم تحركت الحملة من تلمسان في الثاني عشر من شهر صفر سنة 576ه/1181م، برسم الغزو إلى قفصة وبلاد القيروان، وفي الطريق عرج الخليفة على مدينة بجاية، وفيها قبض على علي بن المنتصر – قريب علي الطويل – لما نما إليه من تواطئه مع قريبه الثائر في قفصة، وبعد التحقيق وتفتيش منزله الذي عثر فيه على مجموعة من الرسائل التي تؤكد ضلوعة في دعم الثورة، قام الخليفة بقتله بعد أن صادر أمواله وذخائره وكل ما يملك(3)، ثم سار الخليفة من بجاية، فلما اقترب من قفصة لقيه

---

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص103؛ النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص325.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص140-141.

(3): البيذق، أخبار المهدي، ص86؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص141.

جميع أشياخ العرب من قبيلة رياح معلنين طاعتهم وولائهم، وراجين من الخليفة العفو والآمان في دورهم وأنفسهم، فقبل الخليفة طاعتهم ومنحهم ما أسعدهم[1].

أما ابن الرند وأهل المدينة الثائرين فقد بقوا على عنادهم، ضانين أن حصانة أسوار مدينتهم كفيلة لوحدها بحمايتهم من عساكر الموحدين، وهذا ما دفع الخليفة أبو يعقوب إلى فرض حصار شديد وشامل على المدينة، وعزلها عن القبائل العربية المجاورة[2]، وقطع أشجارها[3]، ثم لما استعصت أسوارها لجأ الموحدون إلى ضربها بالمنجنيق، ولم يزل الموحدون في تضييق الخناق على أهل المدينة، ويقاتلونهم بالمنجنيق طيلة ثلاثة أشهر، عانى خلالها السكان من صنوف القتل والحصار والتضييق، حتى افتتحها الموحدون في شهر رمضان من سنة 576هـ/ تشرين ثاني 1181م[4].

وهنا تختلف الروايات في تعليل سقوط مدينة قفصة، وما آل إليه مصير ابن الرند، ففي رواية ابن الأثير وعنه يأخذ النويري أن ابن الرند عندما وجد أن لا فائدة من المقاومة، ولا مناص من التسليم، خرج متخفياً من المدينة لا يعلم به أحد، فدخل على الخليفة أبي يعقوب في خيمته مقدماً بين يديه اعتذاره وتوبته، وسائلاً إياه العفو عنه وعن أهل مدينته، فأعجب الخليفة من جرأته وإقدامه، فأمنه وتسلم المدينة منه، وعندما عاد الخليفة من تونس إلى مراكش اصطحبه معه هو وأهله وماله، فعاش في مراكش مكرماً عزيزاً[5]، ويذكر السلاوي أن الخليفة استعمله في ولاية مدينة سلا إلى أن مات بها، وبموته فنيت دولة بني الرند[6].

---

(1): الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

(2): حسين، مدينة قفصة، ص196.

(3): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص325.

(4): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص104؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص141؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص107.

(5): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص103-104؛ النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص325.

(6): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص281.

واكتفى البيذق بالقول إلى أنه دخل في عقيدة التوحيد[1]، أما ابن أبي زرع فيشير أن الخليفة أبو يعقوب استمر في حصاره لمدينة قفصة حتى فتحها عنوة، ثم قبض على علي الطويل آخر بني الرند وقتله سنة 576هـ/1181م[2]، ويوافق ابن أبي زرع من المؤرخين المعاصرين إبراهيم حركات[3].

أما رواية المراكشي وابن عذاري والزركشي وابن خلدون، فتنتهي إلى أن الموحدين تمكنوا من افتتاح قفصة بعد أن اضطر ابن الرند إلى الإذعان والتسليم، دون تقديم مزيد من الإيضاح عن مصير ابن الرند[4].

وأياً كان الأمر عادت مدينة قفصة إلى قبضة الموحدين، بعد محاولة استقلال فاشلة كان بطلها أهل مدينة قفصة جميعهم بالتعاون مع آخر زعماء بني الرند " علي الطويل "، وقد أظهرت هذه الثورة مدى حب وإخلاص أهل قفصة إلى سادتهم الأوائل من أسرة بني الرند، كما عكست رغبة أهل قفصة في التخلص من نفوذ الموحدين الذين لم يحترم ولاتهم مشاعرهم ومكانتهم، ويبدو أن الخليفة أبا يعقوب قد لمس عن قرب، بعد استعادته لمدينة قفصة هذا الشعور، فقرر إسكان حامية عسكرية كبيرة من القوات الموحدية في المدينة لضمان عدم ثورتها مرة أخرى[5]، كما قام بتعيين أخيه السيد علي أبو الحسن على ولاية إفريقية والزاب والتي من ضمنها قفصة، وعين على ولاية بجاية أخاه السيد أبا موسى[6].

وبعد أن انتهى الخليفة من تثبيت نفوذ الموحدين في قفصة، ارتحل منها إلى تونس، ومن هناك كتب برسالة الفتح إلى مراكش والأندلس، وبعث مع الرسالة

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص86.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

(3): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص272.

(4): المراكشي، المعجب، ص185؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص141؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص323.

(5): حسين، مدينة قفصة، ص196-197.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص143؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص323.

بقصيدة طويلة من نظم الكاتب وفيلسوف عصره أبي بكر بن طفيل، يمتدح فيها الفتح ونجاحات الجيش الموحدي، قال في أولها[1]:

ولما انقض الفتح الذي كان يرتجى وأصبح حزب الله أغلب غالب

أنجزنا وعد من الله صادق كفيل بأبطال الظنون الكواذب

وهبوا كما هب النسيم إذا سرى ولم يتركوا بالشرق علقة آيب

يغضُ بهم عرض الفيافي وطولها وقد زاحموا الآفاق من كل جانب

ثم عاد الخليفة إلى حاضرة ملكه مراكش، فوصل إليها في أوائل سنة 577ه/ 1181م، وفور وصوله تسابقت وفود الأندلس إلى العدوة من إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها من حواضر الأندلس لتقديم التهنئة بالنصر، وأقامت هذه الوفود بمراكش إلى أول شهر ذي القعدة من نفس السنة، ثم عادت إلى بلادها[2].

وفيما بعد اتضح أن الخضوع الذي أعلنته القبائل العربية للموحدين عند محاصرتهم لمدينة قفصة كان خادعاً، وأن حلم الثورة بقي يراودهم، ويبدو أنهم لم ينتظروا طويلاً حتى يعبروا عما يكنوا به من عداوة للموحدين، ففي سنة 579ه/1183م أعلنت القبائل العربية بإفريقية بزعامة قبيلة عرب سليم شق عصا الطاعة، وتمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالجيوش الموحدية بإفريقية بالقرب من قابس[3]، وقع على أثرها السيدان أبو علي وأبو موسى في أسرهم، واشترطوا في سبيل الافراج عنهما فدية كبيرة، لكن بعد التفاوض مع الموحدين قبل العرب بتخفيض الفدية إلى ستة وثلاثين مثقال[4]، فلما اخبر الخليفة أبو يعقوب بذلك استكثر المال، ورأى في إعطائهم إياه تدعيماً لقوة قبائل العرب بإفريقية وتشجيعاً لهم على الفساد والخروج على سلطة الدولة، فدبر أمراً بأن ضرب لهم دنانير من النحاس مموهة بالذهب، فسرت الحيلة على العرب وأطلقوا سراح السيدين ومن كان معهم

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص141-142.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص109-110.

(3): قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس، على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين طرابلس ثمانية منازل. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص389.

(4): أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص97-98.

من خدمهما وحاشيتهما[1]، مما كفى الدولة الموحدية حربهم، وذلك أن الخليفة أبا يعقوب كان قد اتفق مع أشياخ وقادة الموحدين على غزو بني سليم والثأر منهم في حال انكشفت حيلة تزوير المال[2].

8.2 تمرد قبيلة هرغة:

شهدت سنة 578ه/1182م، تمرد من نوع آخر على الدولة الموحدية، قاده أفراد من قبيلة هرغة المصمودية، النازلة في مدينة زجندر الواقعة جنوبي غربي مدينة مراكش بالسوس الأقصى[3]، فبالرغم مما حصلت عليه هذه القبيلة من مكانة مرموقة في مجتمع الموحدين لانتساب إمام الموحدين المهدي بن تومرت إليها، ودخول بعض أفرادها في تشكيل مجلس الخمسين، ذلك المجلس الذي شكله المهدي لبحث شؤون الدولة، والذي يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد مجلس العشرة[4]، إلا أن أفراد هذه القبيلة أخذتهم العزة في أنفسهم لدرجة أنهم اعتقدوا أن من حقهم تملك ما يشاءون من أملاك وثروات الدولة، فقاموا في سنة 578ه/1182م بالاستيلاء على معدن الفضة الذي يستخرج من جبل السوس القريب من مدينتهم، على اعتبار أن هذا المعدن ملك لهم ولا حق للدولة فيه[5]، فلما علم الخليفة أبو يعقوب بذلك لم يتهاون في ردعهم وتأديبهم لأمرين؛ الأول وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتساب المهدي لها، لأن السكوت على تمردها سيشجع غيرها من قبائل الموحدين على التمرد، والأمر الآخر أن معدن الفضة يشكل مورداً هاماً من موارد خزينة الدولة لا يمكن التنازل عنه[6].

---

(1): المراكشي، المعجب، ص198.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص147؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص325؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص98.

(3): المراكشي، المعجب، ص258.

(4): ابن القطان، نظم الجمان، ص82-84.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص147.

(6): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص130.

لهذا خرج الخليفة أبو يعقوب من حضـــرة مـــراكش فـــي أول صـــفر مـــن ســـنة 578ه/1182م، على رأس قوة موحدية قاصداً بلاد السوس الأقصى حيـــث قبيلـــة هرغة لتحقيق غايتين، أولاً: تحصيل معدن الفضة الذي سبق وأن استولت عليه قبيلة هرغة بالاغتصاب، وثانياً: تحصين جبل السوس الذي يحوي معدن الفضـــة. فلمـــا وصل إلى الجبل المذكور، قام بإرغام قبيلة هرغة على الطاعة والتوبة وإعادة مـــا اغتصبت من معدن الفضة، ثم أمر ببناء حصن على جبل المعدن، ووضع فيه حاميه عسكرية لحراسته[1].

وبعد أن تأكد الخليفة من تحقيق الغرض الذي قدم مـــن أجلـــه لـــبلاد الســـوس الأقصى، آثر الذهاب إلى تينملل فزار قبر المهدي ابن تومرت وقبـــر والـــده عبـــد المؤمن، وهنالك التقى بوفود أهل الأندلس الذين قدموا لمراكش لزيارته، وكان قـــد أمرهم بملاقاته في تينملل لزيارة الضريحين، وكان من ضمن ذلك الوفد المؤرخ ابن صاحب الصلاة الذي يذكر أنه زار القبرين بصحبة الطبيب أبي بكـــر بـــن زهـــر، والفيلسوف أبي الوليد ابن رشد، وأن الخليفة أمر بهذه المناسبة الشعراء فـــي نظـــم قصائد لرثاء المهدي ووالده عبد المؤمن وذكر فضائلهما، فأبدع الشعراء في رثائهم وذكر مناقبهم[2]، وكان مما قيل بهذه المناسبة قصيدة طويلة نظمها شاعر من أهـــل الجزائر كان قد وفد على الأمير أبي يعقوب في تينملل، جاء فيها قوله[3]:

سلام على قبر الإمام الممجد سلالة خير العالمين محمد

ومشبهه في خلقه ثم في اسمه وفي اسم أبيه والقضاء المسدد

ومحيي علوم الدين بعد مماتها ومظهر أسرار الكتاب المسدد

أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا بقسط وعدل في الأنام مخلد

وفضلاً عن زيارة القبرين، قام الخليفة بزيارة الرابطتين اللتين بجبـــل إيجليـــز حيث كان يتعبد المهدي، وهما رابطة وانسري ورابطة الغار، وكان الناس يأخـــذون التراب منهما ليتبركون به ويعالجون به مرضاهم، ولما انقضت هذه الزيـــارة قفـــل

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص147.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص147-148.

(3): المراكشي، المعجب، ص141-142.

الخليفة ومن معه من أشياخ وعساكر الموحدين بالعودة إلى مراكش، فاستقبل علـــى أحسن أبهة وعمت الأفراح والاحتفالات ابتهاجاً بوصوله وإخضاع خصومة[1].

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص90؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص110؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص110؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص131.

الفصل الثالث

علاقات الموحدين الخارجية في عهد الخليفة أبي يعقوب

1.3 علاقات الموحدين مع الممالك الاسبانية في الأندلس:

1.1.3 مملكة ليون (Leon):

1.1.1.3 نشأة المملكة وتطورها حتى سنة 580ه/1184م:

مملكة ليون هي احدى الممالك النصرانية التي نشأت في شمالي شبه الجزيرة الايبيرية في أعقاب افتتاح القوات الإسلامية لشبه الجزيرة، فبعد الانتصار الكبير الذي حققه المسلمون على قوات القوط في معركة وادي لكة سنة 92ه/711م، لجأت فلول النصارى إلى اقصى شمال الجزيرة لتتحصن هناك في الجبال الوعرة من وجه القوات الإسلامية المظفرة[1]. وكان التجمع الأبرز لتلك الفلول هو الذي ظهر في المرتفعات الشمالية الغربية من شبه الجزيرة في المكان الذي يسميه المؤرخون والجغرافيون المسلمون باسم الصخرة أو صخرة بلاي[2](Pena de Pelayo).

وقد بدأ تجمع تلك الفلول التي شكلت فيما بعد مملكة ليون في حوالي سنة 98ه/718م[3]، بقيادة زعيم قوطي يسمى بلاي[4] أو بلايو

(1): المقري، نفح الطيب، جـ1، ص258؛ الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897ه/711-1492م)، ط2، دار القلم، دمشق 1981م، ص268. سيشار إليه فيما بعد: الحجي، التاريخ الأندلسي؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص366.

(2): مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، ط2، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة 1989م، ص34. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص974؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص366، 370.

(3): المقري، نفح الطيب، جـ4، ص350.

(4): مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص34.

(Pelayo)[1]، وفي ذلك يقول المقري: " أول من جمع فلّ النصارى بالأنــدلس – بعد غلبة العرب لهم – علج يقال له بلاي، من أهل أشتوريس[2] من جيليقية.. وذلك في السنة السادسة من افتتاحها، وهي سنة ثمان وتسعين من الهجرة، وثار النصارى معه.. وملكوا البلاد"[3].

ولم يزل بلاي في منطقة الصخرة يجمع من حوله حشود النصارى، ويتصــدى لهجمات المسلمين إلى أن كانت وفاته سنة 119ه/737م، فورثه في حكــم إمارتــه الصغيرة الناشئة ابنه فافيله (Favila)، الذي لم يلبث أن توفي بعــد ســنتين عــام 121ه/739م أثناء خروجه للصيد، دون أن يترك عقباً[4].

كادت هذه الإمارة النصرانية أن تنتهي بوفاة فافيلــه، غيــر أن الحــظ حــالف النصارى بأن كان هناك تجمعــاً آخــر لهــم قــد نشــأ فــي بــلاد البشــكنس أو نبرّة(Navarra)[5]، بزعامة شخص من أهل كانتبرية يــدعى الــدوق دون بيــدرو (Doon Bedro)، وحدث أن صاهر هذا الدوق بلاي من خلال زواج ابنه ألفونسو الأول (Alfonso I) من ابنة بلاي أرمسندا (Ermensinda)[6]، وبوفاة الدوق بيدرو سنة 121ه/739م، وهو نفس العام الذي توفي فيه فافيله، توحدت إمــارتي ليــون ونبرّة تحت حكم ألفونسو الأول باسم مملكة اشتوريس وجليقية، وهــذا مــا ســاعد

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 322؛ Juan Lalaguna, A Traveller's History of Spain,New York, p36. ويسميه عنان " بلاجيوس "(Pelagius). انظر: عنان، الآثار الأندلسية، ص367.

(2): أشتوريس (Asturias): اسم يطلق على المنطقة الواقعة في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الأيبيرية. انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص72.

(3): المقري، نفح الطيب، جــ4، ص350.

(4): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 323؛ المقري، نفح الطيب، جــ4، ص351؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، 270.

(5): نبرّة: مملكة تقع شرق مملكة ليون محاذية لجبال البرت، وتسمى أحياناً بلاد البشكنس لأن سكانها هم البشكنس (Basques). انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص79.

(6): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 323؛ المقري، نفح الطيب، جــ4، ص351؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جــ2، ص974.

ألفونسو من الاغارة على البلاد الإسلامية وتمكنه من الاستيلاء على بعض الأماكن الاستراتيجية المهمة في المنطقة التي تفصل حدود مملكته عن البلاد الإسـلامية[1]، حتى قيل انه استرد من المسلمين 32 بلدة[2].

وبعد وفاة ألفونسو الأول سنة 140ه/757م تعاقب على حكم مملكة اشـتوريس عدد من الملوك الأشداء، الذين استمرت المملكة في عهدهم بالتوسع علـى حسـاب المسلمين، نذكر منهم ألفونسو الثاني(Alfonso II) الملقب بـالعفيف، والـذي دام حكمه حوالي خمسين سنة (175-227ه/791-842م)، وشهد عهده عدة مواجهات مع المسلمين في الأندلس أفضت عن توسع حدود مملكته لتمتد من ولاية بسـكونية شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً[3]، وهذا ما جعله ينقل عاصمته إلى مدينة أبـيط (Oviedo)[4]. وهناك ايضاً ألفونسو الثالـث (Alfonso III) (251-297ه/866-910م)، الملقب ب (ماغنه) أي الملك الكبير[5]، والذي استطاع انتزاع مدينة سمورة (Zamora)[6] من يد المسلمين سنة 280ه/893م، ليصل بذلك بحدود مملكته إلـى نهر دويرة جنوباً، غير أنه فرض ضرائب باهضة على شعبه مما أدى إلى ثـورتهم ضده، وخلعه من الحكم لصالح ابنه غرسيه الأول (Garcia I)(297-301ه/910-914م)[7].

---

(1): الحجي، التاريخ الأندلسي، 271؛ العمايرة، محمد نايف: مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان، ط1، (د.د)، عمان 1999م، ص54-55. سيشار إليه فيما بعد: العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية.

(2): حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، جزءان، ط1، دار الفكر الحديث، بيروت 1967م، جــ1، ص425. سيشار إليه فيما بعد: حاطوم، تاريخ العصر الوسيط.

(3): العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص58-59.

Charles, A History of Spain, (4):p55.

(5): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 324؛ Charles, A History of Spain, p57.

(6): سمورة: مدينة بالأندلس تقع على الضفة الشمالية من نهر دويرة، بالقرب من الحدود الشمالية الشرقية للبرتغال. انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص76؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ3، ص255.

(7): ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص369.

وفي عهد غرسيه هذا، نقلت عاصمة المملكة من أبيط إلى مدينة ليون، لتوسـط موقعها بين اشتوريس وجليقية، ومنذ هذا الوقت سميت المملكة الاسـبانية باسـم " مملكة ليون "، بعد أن كانت تسمى مملكة اشتوريس وجليقية[1].

وتعاقب على حكم مملكة ليون بعد وفاة غرسيه الأول أخواه أردونيـو الثـاني (Ordono II)(301-312هـ/914-924م)، وفرويله الثاني (Fruela II) الذي توفي بعد سنة واحدة من توليه الحكم سنة 313هـ/925م[2].

وبعد وفاة فرويله الثاني خلفه ألفونسو الرابع ابن أردونيو الثاني (Alfonso IV) (313-320هـ/925-932م)، ثم خلف ألفونسو أخـوه ردميـر الثـاني (Ramiro II)(320-339هـ/932-950م)[3] وهو الذي استطاع الحاق هزيمة فادحة بالمسلمين في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 327هـ/939م، وهي الموقعة المعروفة في التاريخ الأندلسي بموقعة الخندق (Alhandega)[4].

هذا وقد بلغت مملكة ليون أوج قوتها في القـرن الرابـع الهجـري / العاشـر الميلادي، وكان من أشهر ملوكها خلال هذه الفترة بالاضافة إلى ردميـر الثـاني،

---

(1): الحجي، التاريخ الأندلسي، 271؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص135.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 3 أجزاء، ط3، تحقيق: ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت 1983م، جـ2، ص185، 191. سيشار إليه فيما بعد: ابن عذاري، البيان المغرب. العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص77-78.

(3): حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص976؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص79.

(4): ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي (ت 469هـ/1076م): المقتبس، جـ5، اعتنى بنشره: ب. شالميتا وآخرون، المعهد الاسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد 1979م، ص435. سيشار إليه فيما بعد: ابن حيان، المقتبس؛ البكري، جغرافية الأندلس، ص76-77؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص320،352؛ حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ1، ص427. وقد سميت موقعة الخندق بهذا الاسم نسبة للخندق الذي أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بحفره تحت أسوار مدينة شنت مانقش ليحصر عنده قوات العدو الهاربة في حالة الهزيمة. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ1، ص272.

شانجه الأول (Sancho I)(345-355هـ/956-966م) والذي في عهـده اسـتقلت قشتالة عن مملكة ليون[1]، ونذكر كذلك ألفونسـو الخـامس (Alfonso V)(389-418هـ /999-1027م) الذي بموته ينتهي عهد قوة مملكة ليون واستقلالها، لتتراجع عن مكانتها فاسحة المجال لمملكتي نبرّة وقشتالة لتحتلان مكانها، وكان قـد خلـف ألفونسو الخامس في حكم مملكة ليون ابنه برمودو الثالـث (Vermudo III)، إلا أن هذا الابن لم يسعد بملك أبيه، إذ قام ملك نبرّة شانجة غرسيه الثالث، الملقب بالكبير - الذي سبق وأن ضم قشتالة لمملكته سنة 420هـ/1029م، وعين على عرشها ابنه فرناندو الأول (Fernando I) – باحتلال مملكة ليون سنة 425هـ/1034م، وضمها لمملكة قشتالة، وحين توفي شانجه الكبير سنة 426هـ/1035م، أخضع ابنه فرنانـدو مملكة ليون لأمره[2]، وبذلك توحدت مملكة ليون وقشتالة في مملكة واحدة من جديد، ولكن هذه المرة كانت السيطرة إلى قشتالة، ومنذ هذا التاريخ خضعت مملكة ليـون لحكـام قشـتالة مثـل ألفونسـو السـادس(Alfonso VI)(465-502هـ/1072-1109م)[3]، وابنته أوراكه (Urraca)(502-520هـ/1065- 1126م)، وألفونسـو السابع(Alfonso VII) (520-552هـ/1126-1157م)[4]. إلا أنه بموت ألفونسـو السابع سنة 552هـ/1157م عادت مملكة ليون للإنفصال مـن جديـد عـن مملكـة قشتالة[5].

وذلك أن ألفونسو السابع كان قد قام قبل وفاته بتقسيم مملكته بين ولديه، فمـنح الابن الأكبر شانجه الثالث (Sancho III) عرش قشتالة والأراضي التابعـة لهـا،

---

(1): حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص977؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص81-82.

(2): الحجي، التاريخ الأندلسي، ص274، 327؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص85-87.

(3): Juan, A Traveller's History of Spain, pp41-42 ؛ Charles, A History of Spain, p71.

(4): الحجي، التاريخ الأندلسي، 329؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص281.

(5): Charles, A History of .Spain, p75

ومنح ابنه الأصغر فرناندو الثاني (Fernando II)، عرش مملكة ليــون وجليقيــة وأشتوريس وكذلك حق السيادة على مملكة البرتغال(1)، وقد حكم كل واحد من هؤلاء الأخوة بشكل مستقل عن الآخر، بالرغم من أن ألفونسو السابع عندما قسم مملكتــه بين ولديه لم يكن في نيته أن يشطرها إلى مملكتين، بل كان يرمي إلـــى أن تبقـــى السيطرة إلى قشتالة وتكون مملكة ليون تابعة لها(2). وأياً كان الأمر فان مملكة ليون في عهد الخليفة الموحدي أبو يعقوب، كانت تشكل مملكـــة مســـتقلة فـــي الشـــمال الاسباني، وكان عهد الملك فرناندو الثاني الملقب بـــالببوج (552-584ه/1157-1188م) هو الذي وافق فترة حكم الخليفة أبو يعقوب.

2.1.1.3 **بداية الصراع بين الموحدين ومملكة ليون**:

واصلت مملكة ليون بمجرد انفصالها عن مملكة قشـــتالة ســـنة 552ه/1157م، غزو البلاد الإسلامية في الأندلس، تحت ما عرف باسم حرب الاسترداد المســـيحي (Le Reconquista)(3)، إذ نجد أن فرناندو الثاني قد خرج في نفس العـــام الـــذي استقل فيه بحكم مملكة ليون، على رأس حملة نصرانية غازياً لبلاد الأندلس، واضعاً بين نصب عينيه الاستيلاء على مدينة إشبيلية، فتقدم بقواته مخترقاً بلاد المســـلمين حتى وصل حصن زغبولة من أحواز إشبيلية إلى الشمال منهـــا، وهنـــاك اصـــطدم بالقوات الموحدية التي خرجت لردعه بقيادة السيد أبو يعقوب يوسف والي إشـــبيلية آنذاك، حيث نشبت بين الطرفين موقعة سريعة هزم فيها الموحدون، وقتـــل وأســـر

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 331؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص232.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص255.

(3): مؤنس، حسين: فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711 – 756م)، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2002م، ص360. سيشار إليه فيما بعد: مؤنس، فجر الأندلس؛ نجار، ليلى أحمد: المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية 580-595ه/1184-1198م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1989م، ص171. سيشار إليه فيما بعد: نجار، المغرب والأندلس.

منهم بشر كثير، غير أن السيد أبو يعقوب تمكن من الافلات من قبضة الملك فرناندو وعاد لإشبيلية ليتحصن بها، وهذا ما دفع الملك فرناندو للعدول عن مشروعه الذي خرج من أجله والعودة إلى مملكته[1].

على هذا النحو تم أول اصطدام بين الموحدين ومملكة ليون، ولكي يحصل الملك فرناندو على الشرعية في غزو البلاد الإسلامية، بعيداً عن الخلاف مع أخيه الأكبر شانجه الثالث ملك قشتالة، اتفق الأخوين على عقد اجتماع بينهما يتم من خلاله تحديد مناطق نفوذهما، وفعلاً تم الاجتماع بينهما في مدينة ساهاجون في ربيع الآخر 553ه/أيار 1158م، وتمخض عن ذلك الاجتماع توقيع معاهدة بينهما عرفت ب " معاهدة ساهاجون "[2]، وكان من أهم بنودها:

1. اقامة العلاقات بين المملكتين على أساس من السلم والتعاون.
2. عدم صداقة أي منهما لملك البرتغال أو اصدقائه بدون موافقة الطرف الآخر.
3. تقسيم مملكة البرتغال ومناطق غزو الأندلس، إلى مناطق نفوذ بينهما، بحيث يحصل فرناندو الثاني على المنطقة الممتدة من أشبونة(Lisboa)[3] حتى لبلة، وهي المنطقة التي تضم منتانجش (Montanchez)[4] وماردة (Merida)[5]

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص61.

(2): O'callaghughan. F.J: Ahistory of Medieval al Spain, Cornell University, New York 1975 ,p235.

(3): أشبونة (لشبونة): مدينة قديمة في غربي باجة، تقع بالقرب من المحيط الأطلسي، لعسلها فضل على كل عسل بالأندلس، وبها معدن التبر الخالص. بينها وبين مدينة شنترين ثمانون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص61؛ القزويني، آثار البلاد، ص555؛ أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص98.

(4): منتانجش: حصن من أعمال مدينة بطليوس، يقع إلى الشمال من مدينة بطليوس وإلى الجنوب الشرقي من مدينة ترجالة. انظر: ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص41.

(5): ماردة: مدينة تقع على الضفة الشمالية لنهر وادي يانة، بين الغرب والشمال من مدينة قرطبة، وتبعد عن مدينة بطليوس 20 ميلاً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص38-39؛ الحميري، الروض المعطار، ص518-519.

وبطليوس ويابرة (Evora)[1] وميرتلة وشلب وأشبونة، فضلاً عن نصف مدينة إشبيلية، في حين يكون لأخيه شانجه ما تبقى من بلاد الأندلس وخاصة الأراضي الواقعة ما بين إشبيلية ومدينة غرناطة[2].

4. يتعهد فرناندو الثاني باداء ضريبة سنوية لأخيه شانجه[3].

وتنفيذاً لهذه المعاهدة، قام الملك فرناندو باتخاذ حصن أطرانكش الواقع إلى الشمال من مدينة بطليوس، قاعدة لجنده ينطلقون منها لغزو مناطق نفوذه في غرب الأندلس[4]، غير أن الخليفة عبد المؤمن بن علي قام في أثناء عبورة للأندلس لافتتاح مدينة جبل طارق سنة 555ه/1160م، ونزولاً عند رغبة بعض أشياخ وأمراء الأندلس، بارسال الشيخ عبدالله بن أبي حفص على رأس جيش كثيف من الموحدين، فتمكن من فتح حصن أطرانكش وقتل من كان فيه من النصارى، وساق المسلمون على أثر ذلك السبي إلى قرطبة وإشبيلية[5].

ثم هدأت بعد ذلك حالة الصراع بين الموحدين ومملكة ليون، فلم نسمع عن علاقة سواء كانت ايجابية أم سلبية بين الطرفين حتى بداية عهد الخليفة أبو يعقوب، ولعل ذلك مرجعه لانشغال الدولتين بمشاكلهما الداخلية، فبالنسبة للموحدين كان همهم الأول في الأندلس كبح جماح ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس التي لطالما هددت كيانهم هناك[6]، في حين أن الملك فرناندو الثاني كان قد انشغل بالحرب الأهلية التي قامت في قشتالة عقب وفاة أخيه شانجه، هذا فضلاً عن تمرد بعض

---

(1): يابرة: بلدة تقع في غربي الأندلس، إلى الشمال من من باجة وإلى الجنوب الشرقي من لشبونة على مقربة من بطليوس. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص424؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص1156.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص37؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص100؛ O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p235

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص256.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص54؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص303.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 200.

(6): أبا الخيل، جهود علماء الأندلس، ص48-49.

السلمنقيين[1] عليه بتحريض من ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، الذي استغل هو الآخر الحرب الأهلية في قشتالة، وقام في صفر 558ه/ كانون ثاني 1163م، بالاستيلاء على مدينة سلمنقة والحاقها بمملكة البرتغال[2].

3.1.1.3 تطور العلاقة بين الموحدين ومملكة ليون للفترة (558-580ه/ 1163-1184م):

إن المتتبع للعلاقة بين الدولة الموحدية ومملكة ليون في عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف، يستطيع أن يلاحظ أنها مرت بمرحلتين متميزتين، اتسمت أولاهما بالود والتعاون وحسن الجوار، في الوقت الذي غلب فيه طابع العداء والصراع على المرحلة الأخرى. وسنحاول في الآتي تسليط الضوء على تطور هذه العلاقة بمراحلها وتطوراتها المختلفة.

1.3.1.1.3 مرحلة الصداقة والمهادنة بين الموحدين ومملكة ليون (558-569ه/1163-1174م):

شهدت السنوات الأولى من اعتلاء الخليفة أبو يعقوب يوسف سدة حكم الدولة الموحدية، جمود في العلاقات مع مملكة ليون، وتعليل ذلك كما سبق وذكرنا لانشغال الملك فرناندو الثاني بثورة قشتالة، تلك الثورة التي اندلعت نيرانها على أثر وفاة شانجه الثالث ملك قشتالة سنة 553ه/1158م، وذلك أن شانجه كان قد رشح في حياته للحكم ابنه الصغير ألفونسو الملقب بالنبيل أو الصغير أحياناً، والذي لم يتجاوز عمره حينئذ الثلاث سنوات، وبدلاً من أن يسند شانجه الوصاية ونيابة الحكم لعم الطفل فرناندو الثاني، أو لزوجته الملكة بلانكا أخت ملك نبرّة، اختار في وصيته للولاية على ولده الكونت " جوتيرو فرنانديث " سليل أسرة كاسترو، فحنقت أسرة

---

(1): السلمنقيين: يقصد بهم هنا سكان مدينة سلمنقة (Salamanca)(شلمنقة)، وهي مدينة تقع على الضفة اليمنى لنهر تورمس أحد أفرع نهر دويرة. انظر: عنان، الآثار الأندلسية، ص82.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص278-279؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص103.

دي لارا[1] من هذا الايثار لآل كاسترو، والتجأت إلى عمه فرناندو الثاني ليحمي ابن أخيه، فتحرك فرناندو صوب قشتالة واحتل معظمها وأعلن توليه الوصاية على ابن اخيه سنة 554هـ/1159م، إلا أنه اساء في معاملته لآل لاراء، لأنه في الحقيقة ما قدم إلى قشتالة إلا لينتزع الحكم من ابن أخيه، فطلب منهم تسليم طليطلة عاصمة قشتالة التي كانت تحت حكمهم، وهذا ما فجر حرباً شديدة، هلك فيها زعيم أسرة آل لارا " ألمانريش دي لارا " سنة 560هـ/1164م، وهنا أعلن أخوه نونيه المعروف ب (القمط) نفسه وصياً على قشتالة، ومضى في الحرب ضد أسرة آل كاسترو وقوة الليونيين، واستطاع نونيه في سنة 562هـ/1166م من الاستيلاء عنوة على العاصمة طليطلة، والمناداه بالحكم للملك الطفل ألفونسو النبيل وهو ابن إحدى عشرة سنة، فالتجأ فرناندو الثاني عندئذ إلى طرق باب الموحدين للتحالف معهم لمحاربة نونيه وابن أخيه ألفونسو[2].

كان هذا الدافع الأول في توجه فرناندو لمهادنة الموحدين والتحالف معهم، بيد أنه كان هناك عاملاً آخر دفع بفرناندو للجوء إلى مصالحة الموحدين، يتمثل في الخصومة المضطرمة التي كانت بينه وبين ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، فبالرغم من توقيعهما معاهدة سلام بينهما سنة 560هـ/1165م، وتدعيمهما لأواصر الصداقة بينهما بزواج فرناندو من الأميرة أوراكا ابنة الملك ألفونسو هنريكيز في نفس السنة[3]، إلا أن فرناندو بقي ينظر بعين التوجس للملك ألفونسو الذي حرمه من حق السيادة على البرتغال، ذلك الحق الذي ورثه عن أبيه الملك ألفونسو السابع، هذا

---

(1): كانت أسرتا آل كاسترو وآل لارا من أعظم وأقوى الأسر في قشتالة عند وفاة الملك شانجة الثالث، وكانت كلتاهما تضارع الأخرى من حيث الثروة والقوة وعدد الأنصار، وساهمت كلتاهما في تشييد قوة الملوكية وظفرتا بأعلى المناصب والألقاب، فلما توفي شانجه وآثر في وصيته أسرة = آل كاسترو للوصاية على ابنه، حنق آل لارا، وعملوا على تفجير الحرب في قشتالة. انظر: أشباخ، تاريخ الأندلس، ص271.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص257، 271-277.

(3): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص104.

ناهيك عن خشيته من امتداد ملك البرتغال بغزوه إلى بعض المدن والأراضي الإسلامية التي يرى فرناندو انها من خاصته[1].

دفعت تلك الظروف التي عاشتها مملكة ليون منذ انفصالها عن مملكة قشتالة الملك فرناندو الثاني إلى أن يعرض على الخليفة أبي يعقوب يوسف عقد معاهدة صلح في سنة 563هـ/1168م، حيث يذكر ابن صاحب الصلاة أن الملك فرناندو قدم في هذه السنة " ورغب في المهادنة وأن يكون مع الموحدين – أيدهم الله – وعوناً لهم بعسكره على اعدائهم، وذكر أن بينه وبين القمط نونه ظئر ابن اخيه أذفونش الصغير صاحب طليطلة – خربها الله – فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم، وأكد الرغبة – مع صلحه – في عسكر من عساكر الموحدين – أعزهم الله – يبعث به إليه إلى مدينته بالسبطاط، ليقاتل بهم نونه القمط المنازع له عن ابن أخيه في بلاده "[2].

رحب الخليفة أبو يعقوب بطلب ملك ليون الصلح والمهادنة، كما أنه استجاب لرغبته في إرسال جيش من الموحدين لنصرته ضد أعدائه من أسرة آل لارا المسيطرين على حكم قشتالة[3]، فقد بعث إليه الخليفة جيشاً كبيراً من الموحدين، جعل على قيادته ثلاثة من كبار أشياخ الموحدين وهم الشيخ أبو العلاء بن عزرون، والحافظ أبو علي ابن تمصليت، والحافظ أبو عمران موسى بن حمو، ودخل هؤلاء الموحدون بلاد قشتالة ليقاتلوا جنباً إلى جنب مع الجيش الليوني ضد أعداء الملك فرناندو، فجابوا جميع بلاد قشتالة وليون، وهم يخضعون خصومه، ويسالموا من سالمه، حتى وصلوا أشتوريس في أقصى شمال قشتالة، وأقاموا في هذه الغزوة مدة خمسة أشهر، ثم عادوا سالمين بعد أن اطمأنوا على استتباب الأمر لحليفهم، وقد اغتبط الملك فرناندو بنجدة الموحدين له، وأكد لهم قبل مغادرتهم التزامه بشروط

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص31.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص370-371.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص32؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص306.

الصلح، ووعدهم بأن يقف مدافعاً وحامياً عن بلاد الموحدين أينما سمع بعـــدو مـــن النصارى يطرقه، وقطع على نفس العهد الوثيق بذلك[1].

لم يمض زمن بعيد على وعد ملك ليون هذا، حتى وفى بوعده، ففي شهر رجب سنة 564ه/ نيسان 1169م، استولى ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز علـــى مدينـــة بطليوس وحاصر الموحدين في قصبتها، وعندما عجز والي المدينة الموحدي أبـــو علي عمر بن تيمصلت عن فك الحصار ودفع المهاجمين، بعث يستصرخ الموحدين بإشبيلية، فلما بلغ ذلك الملك فرناندو أقبل مسرعاً بقواته لفك الحصار عن بطليوس، وليحول دون سقوطها بيد البرتغاليين، فلما وصل إلى مقربة من المدينة المحاصـــرة بعث رسول من قبله إلى والي المدينة ابن تيمصلت المحصور بالقصبة مع الموحدين يقول له " اثبتوا فإني واصل إليكم لدفاع عدوكم عنكم وانظروا في معـــاونتي كيـــف ادخل اليكم"[2].

وبعد أن تحقق الوالي ابن تيمصلت من صدق نوايا الملك فرناندو فـــي تقـــديم النجدة، قام بنقب باب في سور قصبة بطليوس من جهة خفية لا يعلمهـــا النصـــارى أصحاب ملك البرتغال، وخرج منه جماعة إلى باب قريـــب مـــن أبـــواب المدينـــة وفتحوه، فدخل منه الملك فرناندو بعسكره، فقاتل ملك البرتغال داخل المدينة حتـــى هزمه وأسره، وذلك أن الملك ألفونسو عندما يأس من القتال، اضطر إلى الهرب، إلا أنه اثناء خروجه من باب المدينة وهو مذعور، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب، فسقط على الأرض مغشياً عليه بعد أن كسرت فخذه، فحمل إليه أسيراً. ثم سلم ملك ليون مدينة بطليوس إلى واليها الموحدي أبي علي عمر بن تيمصلت بعـــد أن تـــم تطهيرها من جند البرتغال، وذلك في الثاني والعشرين من شعبان من عـــام أربعـــة وستين وخمسمائة، ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الوالي ابن تيمصلت قد دعا الملك فرناندو لدخول قصبة المدينة ليرى تحصيناتها، إلا أنه اعتذر قائلاً بكلامه العجمي "

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص370-372.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص106.

إنما هي دار أمير المؤمنين، ولا أدخلها إلا بأمره، وقد فعلت ما أوجب عهدي وربطي وودي "[1].

ويبدو لنا، بالرغم من ايفاء الملك فرناندو بوعده للموحدين والوقوف إلى جانبهم في محاربة ملك البرتغال داخل مدينة بطليوس وتحت أسوارها، أنه ما قام بذلك إلا للحيلولة دون استيلاء ملك البرتغال على مدينة بطليوس، التي لطالما نظر إليها على أنها منطقة نفوذ خاصة به، وفقاً لما جاء في معاهدة ساهاجون السابقة الذكر مع أخيه شانجه الثالث سنة 553ه/1158م.

وحدث في سنة 566ه/1171م، ما كاد أن يودي بمعاهدة الصلح بين الموحدين ومملكة ليون، وذلك أن السيد أبو سعيد عثمان كان قد خرج في هذا العام من إشبيلية ببعض قواته من الموحدين ومن أهل الأندلس والعرب لاصلاح أسوار مدينة بطليوس وتعميرها، بعد أن كثرت غارت البرتغال بقيادة العلج جرانده الجليقي عليها، فلما وصل السيد أبو سعيد للمدينة تفاجأ بوصول الملك الليوني فرناندو الثاني بعسكره إلى سهل الزلاقة[2](Sagrajas) بالقرب من بطليوس، ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الملك فرناندو ما قصد مدينة بطليوس إلا ليسترجع ملكها وأخذها من أيدي المسلمين، لما رأى الحاح البرتغاليين المتكرر عليها، إذ خشي أن ينتهي الأمر

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص382.

(2): الزلاقة: سهل يقع شمالي شرق بطليوس، وفي هذا المكان حدثت الموقعة الشهيرة باسم الزلاقة بين الجيوش الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين والجيوش المسيحية بقيادة ألفونسو السادس في الثاني عشر من رجب 479ه/1086م، وانتهت هذه المعركة بنصر عظيم للمسلمين، حيث ابيد بها معظم جيش ألفونسو، واسترد المسلمون بها مدينة بلنسية. انظر: ابن الكردبوس، أبو مروان عبدالملك التوزري (عاش في أواخر القرن 6ه / 12م): كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 13، مدريد 1965-1966م، ص93. سيشار إليه فيما بعد: ابن الكردبوس، الاكتفاء؛ ابن أمير المؤمنين، اسماعيل بن إبراهيم (ت 1237ه/1821م): تاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط، ط1، تحقيق: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2007م، ص84، 89. سيشار إليه فيما بعد: ابن أمير المؤمنين، تاريخ الأندلس.

بسقوطها في أيدي الملك ألفونسو هنريكيز، وقال في نفسه " إنه أولـــى بهـــا دفاعـــاً لعدوه"[1].

ولما تأكد السيد أبو سعيد من خبر وصول الملك فرناندو بقواته وآلاته، بعث إليه بعض قادته من أشياخ الموحدين لسؤاله عن سبب وصوله المفاجئ دون أن يكـــون هناك ما يستلزم ذلك، وهل هو باقٍ على الصلح المعقود معه أم نقضـــه، فاضـــطر الملك فرناندو لاضطراب الموقف ووصول الموحدين قبله إلى بطليوس، إلى اخفـــاء نيته في الاستيلاء على المدينة، وبرر لهم وصوله المفاجئ بقوله " إنمـــا خرجـــت لحماية بطليوس وإمساكها لأمير المؤمنين "[2]. عندئذ اقترح الرسل عليه مـــرافقتهم إلى محلة السيد أبي سعيد لتجديد الصلح بينهما، فأجابهم إلى ذلك وسار معهم ببعض رجالة، فالتقى بالسيد أبي سعيد، وكل منهم راكب على فرسه، فتم بينهما التأكيد على الالتزام بالصلح، ثم عاد الملك فرناندو بقواته إلى بلاده[3].

استمر الملك فرناندو ملتزماً بمعاهدة الصلح مع الموحدين، إلا أنه اظهر في سنة 568ه/1169م بعض تململه، في أعقاب دخول ملك قشتالة ألفونسو الثـــامن وملـــك البرتغال ألفونسو هنريكيز في معاهدات صلح وصداقة مـــع الموحـــدين فـــي هـــذه السنة[4]، إذ شعر الملك فرناندو أنه فقد انفراده بالعلاقة مع الموحدين، واغلقت فـــي وجهه أي فرصة للاستيلاء على مدينة بطليوس، وأخذ في هذه الاثناء يسأل الخليفـــة أبو يعقوب المال، ويقول له إنه انفق مالاً كثيراً على قواتـــه أثنـــاء انقـــاذه لمدينـــة بطليوس من قبضة البرتغاليين، فبعث إليه الخليفة أبو يعقوب بهدية ثمينة من الجوهر المنظموم حملها له بعض أشياخه، ففرح الملك فرناندو بالهدية وقبلها بأوفى السرور،

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص400-401.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص111.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص401؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص111-112؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص307.

(4): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص90.

وبعث مع أشياخ الموحدين هدية مماثلة للخليفة أبي يعقوب، بعد أن أشـــهدهم علـــى نفسه باستمرار الصلح[1].

2.3.1.1.3 مرحلة الحرب والصراع بـــين الموحـــدين ومملكـــة ليـــون (569-580ه/1174-1184م):

استمر الملك فرناندو الثاني محافظاً على صداقته وولائه للموحدين وللخليفة أبي يعقوب يوسف حتى أواخر سنة 569ه/1174م، ثم وبدون سابق انذار أقـــدم علـــى خرق معاهدة الصلح بمهاجمته بعض الأراضي الإسلامية، محـــدثاً فيهـــا الخـــراب والفساد، وهذا ما أثار نقمة الخليفة عليه، فأمر بغزوه في عقر داره، والانتقام منـــه بين أهله وأصحابه[2].

وفي الحال تم تجهيز حملة كبيرة لهذا الغرض من الأجناد الموحدين والعـــرب وأهل الأندلس، وفي الثالث من صفر سنة 570ه/3 أيلول 1174م، غادرت القوات الموحدية مدينة إشبيلية بقيادة أخي الخليفة السيد أبو حفص عمر، وتوجهت مباشـــرة صوب مقر وقاعدة ملك ليون مدينة ثيوداد ردريجو (Ciudad Redriqo)[3]، تلـــك المدينة التي تسميها الرواية الإسلامية بمدينة (الســـبطاط)[4]، فانتســـفوا مزارعهـــا وبساتينها ودمروا قراها، وبالرغم من عدم تمكنهم من الاستيلاء عليهـــا، إلا انهـــم تمكنوا من تكبيد الملك فرناندو خسائر فادحة في قواته، كما انهم نجحوا في استرداد

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص130-131؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص307-308.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص131.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص92؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، 461.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص370؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص131، 138.

مدينة قنطرة السيف[1](Alcantara)، وحصن ناضوش الواقعتين على الحدود مع مملكة ليون[2]، ثم عادوا إلى إشبيلية، فاحتفل الخليفة بعودتهم مظفرين، وأطنب الشعراء في مدح الخليفة واخيه السيد أبو حفص عمر، لما تحقق على أيديهم من نصر، نذكر من ذلك ما قاله الشاعر أبو العباس الجراوي في قصيدة أولها:

جاهدتم في الله حق جهاده ونهضتم لحماية الإيمان

وتركتم أرض العدى وقلوبهم في غاية الرجفان والخفقان[3]

وكان من نتائج حملة السيد أبو حفص على مملكة ليون، توقف ملك ليون عن تهديد وغزو البلاد الإسلامية لحين من الوقت، إلا أنها من جهة أخرى كانت اعلاناً لعودة علاقة العداء والصراع بين الموحدين ومملكة ليون، بعد فترة من الصداقة والمهادنة استمرت لقرابة سبع سنوات.

ويبدو أن استيلاء الموحدين على مدينة قنطرة السيف سنة 570ه/1174م، قد أثار استياء البابا إسكندر الثالث (554-577ه/1159-1181م)، فتوجه بنداءاته إلى نصارى الاسبان حاثاً إياهم على قتال المسلمين واسترداد المدن، واعداً إياهم في الوقت نفسه بمنح الامتيازات لكل من يستجيب لندائه[4]، فنشطت نتيجة لذلك الممالك النصرانية في غزوها لبلاد الأندلس، وكان ممن استجاب لنداء البابا الملك فرناندو الثاني، فقد خرج بقواته في سنة 572ه/1177م، مخترقاً أعماق الأندلس، غير مبالي بقوات الموحدين، فعبر نهر الوادي الكبير[5](Guadalquivir) حتى وصل إلى

---

(1): قنطرة السيف: هي مدينة قديمة تقع على ضفة نهر تاجة، بها قنطرة عظيمة تعد من عجائب الدنيا، وعلى القنطرة حصن عظيم منيع.انظر: ابن الوردي، خريدة العجائب،ص36.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص279؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص126.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص131.

(4): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239.

(5): نهر الوادي الكبير: ويعرف كذلك بالنهر الأعظم، ونهر قرطبة، وينبع من جبل شقورة، ويمر بعدة مدن أهمها قرطبة وإشبيلية، ويصب في المحيط الأطلسي عند مكان يعرف ببر

مدينتي أركش(Arcos)[1] وشريش جنوب إشبيلية[2].

ويظهر أن حملة فرناندو هذه قد جاءت على غفلة من الموحدين، إذ لم تتحــرك عساكرهم لمواجهته إلا بعد أن قفل عائداً بالغنائم والسبي، وهذا ما يشير إليـــه ابـــن عذاري بقوله " فخرج إليه عسكر المسلمين من إشبيلية فتبعهم فلحق جملة من أهــل طلبيرة النصارى منصرفين إلى بلدهم، فما شعروا حتى أحدق بهم عسكر الموحدين فقتلوا فيها أجمعين، وانقذت الغنائم التي كانت بأيديهم من البقر والغنم وثمانين علجاً من ادلائهم، فرحل العسكر المذكور إلى إشبيلية.. مسرورين فصفت الاعلاج بـــين يدي أبي الحسن بن أمير المؤمنين ثم أمر بضرب رقابهم فقتلوا أجمعين "[3].

وعلى أثر استيلاء ملــك قشــتالة علـــى مدينـــة قونكـــة (Cuenca)[4] ســـنة 573هـ/1177م ازدادت الروح الصليبية توهجاً لدى ملوك النصـــارى الــذين ازداد تربصهم بمسلمي الأندلس والمدن الإسلامية هناك، فمنذ هذه السنة أخذ ملوك الأسبان بعقد المؤتمرات وحشد الانصار للانقضاض علـــى المســـلمين، وكـــان مـــن تلـــك المؤتمرات ذلك المؤتمر الذي عقد في مدينة قونكة عقب الاستيلاء عليهـــا، والـــذي

المائدة. انظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 14 جزءاً، قدم له الشيخ محمد رسول، المكتبة المصرية، القاهرة 1963م، جــ5، ص235-234. سيشار إليه فيما بعد: القلقشندي، صبح الأعشى.

(1): أركش: تتبع في التقسيم الإداري الأندلسي إلى كورة شذونة، وهي من معاقل الأندلس المنيعة والكثيرة الأرزاق. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جــ1، ص315؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص242.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص138؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص133.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص138.

(4): قونكة: وتكتب أيضاً " كونكة "، وهي مدينة من أعمال كورة شنتبرية، تقع على بعد 322 كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة بلنسية، ويمر بها نهر شقر. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ4، ص415؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جــ2، ص904.

حضره بالاضافة إلى ملك قشتاله مندوبون عن مختلف الممالــك الاســبانية ومنهــا مملكة ليون، وقد أعلنوا في ذلك الاجتماع الحرب الدائمة على المسلمين[1].

ونتيجة لذلك ومنذ أواخر سنة 573ﻫ/1177م توحدت جهود النصارى جميعاً في شبه الجزيرة الايبيرية ضد المسلمون، فلم يعد هناك هدنة أو صلح بين الموحــدين والممالك الاسبانية، وكان الملك البرتغالي ألفونسو هنريكيز اخر من نقض الهدنة مع الخليفة أبو يعقوب سنة 573ﻫ/1177م[2]، إذ حذا حذو حلفائه وخاصة الملك فرناندو الثاني الذي نبذ مخالفة الموحدين مبكراً حسبما ذكرنا سابقاً.

هذا وقد واصل الملك فرناندو الثاني غزو البلاد الإسلامية في الأندلس منذ مطلع عام 574ﻫ/1177م، مستهدفاً في معظم غزواته مدينة قاصرش[3](Caceres) التي حاصرها غير من مرة دون أن يتمكن من الظفر بها، واستمر في معاودة حصارها إلى أن عبرت القوات الموحدية بقيادة الخليفة أبي يعقوب يوسف إلى الأندلس فــي حملته الثانية سنة 580ﻫ/1184م، وكان الملك فرناندو قد قاد غزوته الأخيرة علــى المدينة في الوقت نفسه الذي هم فيه الخليفة أبو يعقوب للعبور إلى الأندلس واستمر في حصارها طوال فترة الشتاء، ولم يرفع عنها الحصار إلا في نهاية فصل الربيع، عندما علم بمسير الجيوش الموحدية نحو مدينة بطليوس واقترابه منه، ليعــود إلــى قاعدة ملكة مدينة السبطاط (ردريجو) وأخذ يرقب الحوادث من هناك[4].

ولما حاصر الخليفة أبو يعقوب مدينة شنترين في شهر ربيع الأول مــن ســنة 580ﻫ/ تموز 1184م[5]، آثر الملك فرناندو الخروج بقواته للاشتراك إلــى جانــب

---

(1): حتاملة، محمد عبده: الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس، ط1، (د. د)، عمان 2001م، ص18-19. سيشار إليه فيما بعد: حتاملة، الاعتداءات الإفرنجية.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص97.

(3): قاصرش: وتسمى أيضاً قاصرس أو قصراش، وهي تقع على الضفة اليسرى من وادي نهر تاجة، بينها وبين ترجالة مرحلتان. انظر: أرسلان، الحلل السندسية، جــ1، ص100؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جــ2، ص780.

(4): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص118-119؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص310-311.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 214.

البرتغاليين في قتال الموحدين، وكان لقدومه أثراً كبيراً في ثبات نصـــارى مدينـــة شنترين المحاصرة ايفاءاً بالعهد الذي قطعه على نفسه بقتـــال الموحـــدين، مـــع أن تصرفه هذا كان دفاعاً عن مصالحه الخاصة أكثر مما هو نجدة للبرتغاليين[1].

2.1.3 **مملكة قشتالة** (Castile):

1.2.1.3 **نشأة المملكة وتطورها حتى سنة** 580هـ/1184م:

تشكلت مملكة قشتالة في منطقة تتوسط بلاد اسبانيا النصرانية، فـــي الأراضـــي الواقعة بين مملكتي ليون في الغرب، ونبرة في الشرق[2]، وامتدت حدودها جنوبـــاً حتى نهر دويرة[3]. وكانت المنطقة التي نشأت فيها تسمى قديماً (بردوليا) ثم سميت فيما بعد قشتالة (كاستيلا)، أي منطقة القلاع، لكثرة القلاع الحصينة التي كانت تقوم بها[4]، وارتبطت نشأتها في التاريخ بالحرب الدينية التـــي نشـــبت بـــين المســـلمين والمسيحيين[5].

وكانت قشتالة في بداية أمرها تتبع مملكة ليون كاحدى ولاياتها الشرقية، وكـــان يحكمها زعيم محلي يتخذ من مدينة برغش (Burqos) الواقعة بالقرب مـــن مدينـــة ليون عاصمة له[6]، وظل ذلك هو حالها حتى حصلت على استقلالها في منتصـــف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي علـــى يـــد الكونـــت فرنـــان غنصـــالص

---

(1): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص311.

(2): العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص91.

(3): Juan, A Traveller's History of Spain , p40.

(4): الحميري، الروض المعطار، ص483؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص136.

(5): عاشور، سعيد عبد الفتاح: أوروبا العصور الوسطى، جزءان، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975م، جـــ1، ص541-542. سيشار إليه فيما بعد: عاشور، أوروبا العصور الوسطى.

(6): أبو الفداء: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت (د. ت)، ص184-185. سيشار إليه فيما بعد: أبو الفداء، تقويم البلدان؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، 275؛ الحميري، الروض المعطار، ص88.

(Fernan Gonzalez)، أو كما يسميه ابن الخطيب (فرّان غنصـــالس)[1]، الـــذي استمر في حكم قشتالة حتى وفاته سنة 359هـ/970م[2].

ظل حكم قشتالة بعد وفاة غنصالص متوارثاً في أهل بيته لمدة ستين سنة، حتى تمكن ملك نبرة شانجة غرسية الثالث الملقب بالكبير، من تدبير مؤامرة فـــي ســـنة 420هـ/1029م راح ضحيتها حاكم قشتالة غرسية بن شانجة بن غرسية بن فرنـــان غنصالص، وبذلك الحقت قشتالة بمملكة نبرّة، وعين شانجة الكبيـــر علـــى حكمهـــا فرناندو الأول ولقبه ملكاً، فكان أول ملوك قشتالة[3].

وعلى أثر وفاة شانجة الكبير سنة 426هـ/1035م، انفرد فرنانـــدو الأول بحكـــم قشتالة وليون، غير أنه عمد قبل وفاته سنة 458هـ/1065م، إلى تقسيم ملكتـــه بـــين ابنائه الثلاث: شانجة الثاني (أكبرهم) وألفونســـو الســـادس (أوســـطهم) وغرســـية (أصغرهم)، إلا أن نار الفتنة سرعان ما اندلعت بين الأخوة الثلاث، ولم تتوقـــف إلا بعد سبع سنوات، بتمكن ألفونســـو الســـادس (465-502هـ/1072-1109م) مـــن الانفراد بمقاليد حكم ارث والده (قشتالة وليون وجليقية)[4]، وفي عهد ألفونسو هـــذا استولت قشتالة على مدينة طليلطة سنة 478هـ/1085م، ونقلت العاصـــمة اليهـــا[5]، لتمتد حدود المملكة جنوباً حتى وسط شبه الجزيرة الايبيرية.

هذا وقد ورث ألفونسو السادس فـــي الحكـــم ابنتـــه أراكـــه (Uraca)(502-520هـ/1109-1126م)[6]، ثم ورثها ابنها ألفونسو الســـابع (520-552هـ/1126-1175م)، وبوفاة ألفونسو هذا انفصلت مملكة قشتالة عن ليون، وانفرد بحكمها ابنـــه

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 325.

(2): حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـــ1، ص433؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـــ2، ص845؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص96.

(3): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 329-330؛ ابن الكردبوس، كتاب الاكتفاء، ص76-77؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، 329.

(4): الحجي، التاريخ الأندلسي، 329-330.

(5): ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص84-85؛ المقري، نفح الطيب، مج4، ص352؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص82.

(6): Charles, A History of Spain, p73

شانجه الثالث، الذي ما لبث أن توفي بعد عام واحد من حكمه سنة 553هـ/1158م، تاركاً وراثة العرش لابنه الوحيد ألفونسو الثـــامن (Alfonso VIII) (553-611هـ/1158-1214م) الذي كان عندئذ في الثالثة من العمر[1].

عاصر ألفونسو هذا فترة حكم الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي – التي هـــي فترة دراستنا – وقد سبق وتحدثنا عن الحرب الأهلية التي شهدتها مملكة قشتالة في بادئ عهده نتيجة لأطماع عمه فرناندو الثاني ملك ليون في ضم قشتالة إلى ملكـــه، بالإضافة إلى الصراع بين أسرتي كاسترو وآل لارا على الوصاية ونيابة الحكم[2]، تلك الحرب الدموية التي دامت قرابة عشـــر ســـنوات، ولـــم تهـــدأ إلا فـــي ســـنة 562هـ/1166م، عندما استولت أسرة آل لارا على العاصمة طليطلة ونادت بألفونسو الثامن ملكاً على قشتالة، الذي بلغ حينئذ الحادي عشرة من عمره[3].

وقد بدأ ألفونسو الثامن عهده بعقد عدة اتفاقيات مع الممالك الأسبانية المجاورة، فعقد أولاً هدنة مع ملك نبرة مدتها عشر سنوات، ثم بعد ذلك ببضعة أعوام عقد في سنة 565هـ/1170م، معاهدة حماية وتحالف مع مملكة أرغون[4]. وبـــذلك تفرغـــت مملكة قشتالة لغزو البلاد الإسلامية، فتبادل المسلمون والقشتاليون شـــن الحمـــلات تراوح النصر فيها سجالاً بين الطرفين.

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 331؛ Charles, A History of Spain, p75
O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239.

(2): انظر التفاصيل سابقاً، ص190-191.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص276.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص276.

2.2.1.3 تطور العلاقات بين الموحدين ومملكة قشتالة (558-580هـ/1163 - 1184م):

1.2.2.1.3 لجــوء الــزعيم القشــتالي فرنانــدو ردريجــس للموحــدين ســنة 563هـ/1168م:

أشغلت الحرب الأهليــة التــي شــهدتها الســنوات العشــر الأولــى (554-564هـ/1159-1169م) من حكم الملك ألفونسو الثامن، المملكة القشتالية من التطلع ولو لوهلة خارج حدودها، الأمر الذي انعكس ايجاباً علــى الدولــة الموحديــة، إذ اطمأنوا على سلامة حدودهم معها طوال هذه الفترة، ليتفرغوا هم ايضــاً بــدورهم للتصدي لثورات المغرب المحلية، وثورة ابن مردنيش في شرق الأنــدلس، التــي استحوذت على جل اهتمامهم حتى سنة 567هـ/1172م.

ولم يكن توقف الغزو القشتالي لأراضي الدولة الإسلامية الفائدة الوحيــدة التــي جناها الموحدون من حرب قشتالة الأهلية، بل نجد أن هناك من الزعماء القشــتاليين المحليين من وجد في تلك الحرب تهديداً لاستقلالهم في مقاطعاتهم، مما حدى بهــم إلى اللجوء إلى الموحدين، راغبين في الصلح والمهادنــة كســبيل للحفــاظ علــى ممتلكاتهم. ولعل أبرز هؤلاء الزعيم القشتالي فرنانــدو ردريجــس (Frenando Rodriguez) الذي يسميه ابن صاحب الصلاة " فرنانده رايس النصراني صــاحب ترجالة(Trujillo)[1]، الشهير النسب والشهامة "[2].

وقد حدث أن قدم هذا الزعيم باخوته على الموحدين في إشــبيلية ســنة 563هـ /1168م، معلناً لأشياخ الموحدين عن رغبته في أن يكون صديقاً وخادمــاً لأميــر المؤمنين أبي يعقوب، منابذاً لشيعته من النصارى، فأرسل أشياخ إشبيلية بخبره إلى الخليفة في مراكش، فاذن له في لقائه، فسار إليه برفقة إخوته، واستقبله الخليفة فــي

---

(1): ترجالة: مدينة من أعمال ماردة، بينها وبين قرطبة غرباً ستة أيام. يذكرها ابن سعد باسم " ترجلة " وعند ياقوت الحموي " ترجيلة ". انظر: الحميري، الروض المعطار، ص133؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جــ1، ص377؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ2، ص22.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص368.

حاضرته بترحاب بالغ، وأقام فرنانده " في الحضرة العلية خمسة أشهر تحت احسان من الأمر العالي وامتنان وعطاء جزيل، واسكان كفيل، وألّف قلبه بالانعام الحفيـل، حتى كاد أن يسلم "، ثم قفل عائداً إلى بلاده بعد أن عاهد الخليفة أن يكون حليفاً لـه وللمسلمين، وأن يضمن سلامة ثغور بلاد الموحدين من جهته، وفي المقابل أوصـى الخليفة أشياخ وأمراء الموحدين في الأندلس بالوقوف إلى جانبه والاحسان إليه(1).

2.2.2.1.3 حملة القمط نونيه على بلاد الأندلس سنة 563ه/1166م:

استطاع القمط نونيه زعيم أسرة آل لارا في مطلع سـنة 562ه/1166م مـن انتزاع حكم مدينة طليلطة عاصمة قشتالة من أيدي أسرة آل كاسترو التي نابـذتهم العداء منذ وفاة الملك شانجه سنة 553ه/1158م، ثم لم يلبث القمط نونيه من المناداة بنفس العام بالملك الطفل ألفونسو الثامن ملكاً على قشتالة، وقد لاقت أعمـال نونيـه هذه استحساناً وتأييداً من قشتالة كلها الذين سارعوا فـي اعـلان ولاءهـم للملـك ألفونسو، وهذا ما جعل نونيه يستأثر بجميع السلطة في قشتالة(2).

على هذا النحو تمكن نونيه من اعادة الهدوء إلى مملكة قشتالة، ولكي يحصـل على مزيد من التأييد والاحترام، آثر أن يقوم من حينـه فـي غـزوة للاراضـي الإسلامية، يكون فيها تقوية لسلطانه، وتعزيز لهيبته.

من هنا جاء خروج القمط نونيه من من طليطلة في سنة 565ه/1169م، علـى رأس حملة قشتالية اخترق بها أعماق الأندلس، وهو يثخن اينما حل، ويعيث خرابـاً اينما وصل، فعبر نهر الوادي الكبير حتى وصل بقواته إلى فحص رندة وجبالهـا، وفحص الجزيرة الخضراء وجبالها، ووصل في نهاية الأمر إلى بحر الزقاق قبالـة العدوة، بمعنى آخر أنه اخترق الأندلس الإسلامية من أقصاها شمالاً إلـى أقصـاها جنوباً، وهو يقتل ويأسر المسلمين اينما وجد، ويستولي على كل ما يجد في طريقـه

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص369-370؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص103-104.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص276.

من غنائم، وكل ذلك حسب ما يذكر ابن صاحب الصلاة دون أن يبدي الموحدين أي مقاومة[1].

ولعل انشغال الموحدين في حربهم على جبهة شرق الأندلس مع ابن مــردنيش، وجبهة الغرب حيث ألفونسو هنريكيز – ملك البرتغال – الذي لطالما ســعى إلــى توسيع حدود إمارته الناشئة على حساب البلاد الإسلامية، هو التفسير الوحيد لعــدم اعتراض الموحدين لقوات نونيه، وإن كان هذا هو السبب فإن ذلك يعكس لنا ضعف التنظيم العسكري عند الموحدين وعدم توفير قوات دعم واســناد لحمايــة القواعــد الإسلامية في حال خروج القوات النظامية في الغزو.

وأياً كان الأمر لم يشأ الخليفة أبو يعقوب أن يذهب عمل نونيه هذا دون عقاب، فجهز جيشاً بلغ قوامه عشرون الفاً من المتطوعة والموحدين في مراكش، جعل على قيادته أخيه السيد أبي حفص عمر، وعبر الجيش إلى الأندلس في نفس السنة التــي غزا فيها نونيه بلاد المسلمين، وقام بغزو طليطلة عاصمة قشتالة، دون أن تقدم لنــا الروايات مزيداً من التفاصيل عنها، سوى القول بأنهم دوخوا بلاد العدو[2].

3.2.2.1.3 حملة الخليفة أبو يعقوب على مدينة وبذة سنة 567ه/1172م:

تعرضت بلاد الأندلس منذ بداية سنة 564ه/1168م إلى تهديد خطير جاء مــن ثلاث جهات رئيسية، أولها جهة الغرب وتمثل في مملكة البرتغال بزعامــة الملــك ألفونسو هنريكيز الذي أراد توسيع إمارته الحديثة على حساب بلاد المسلمين، فمــا فتئ في شن الغزوات المتتالية على المدن والقواعد الإسلامية في غرب الأندلس منذ سنة 561ه/1165م[3]. والجهة الثانية كانت ثورة ابن مردنيش في شرق الأنــدلس،

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص397؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص110.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص211؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص278.

(3): قجه، محمد: معركة العقاب بداية انهيار الأندلس، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية 1984م، ص34. سيشار إليه فيما بعد: قجه، معركة العقاب؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص108.

والتي تعاظم خطرها منذ توحيد ابن همشك، إذ جن جنون ابن مردنيش في هذه الفترة وأخذ يسيء ويفتك حتى بأقرب الناس إليه، مما رفع أصوات الاستصراخ التي وصلت إلى مراكش مستنجدة ومستغيثة(1). أما الجهة الثالثة فقد مثلتها مملكة قشتالة التي غدت منذ سنة 564هـ/1168م من أكبر الممالك الأسبانية مساحة وأوفرها قوة، والتي عمدت في هذه الأثناء إلى شن هجوم سريع وخاطف مخترقة المدن والبلدان الإسلامية حتى وصلت إلى بحر الزقاق، في خطوة منها إلى عرض القوى وفرض الهيمنة، سواء على الممالك والإمارت المسيحية أو البلاد الإسلامية(2).

من هنا وجد الخليفة أبي يعقوب أنه لا بد له من عمل كبير في الأندلس، بحيث يقضي على ثورة ابن مردنيش وحلفائه النصارى، ويذكي روح حركة الجهاد ضد الممالك الاسبانية هناك، ولا سيما ضد قشتالة، هذا فضلاً عن تنظيم شؤون الأندلس واتمام فتحها.

ولتحقيق هذه الغاية كتب الخليفة في سنة 564هـ/1168م إلى جميع بلاد المغرب وإفريقية وجميع القبائل في دولته يستنفرهم إلى الجهاد، كما أنه استدعى في الوقت نفسه أخويه السيد أبا إبراهيم إسماعيل والي إشبيلية، والسيد أبا إسحق إبراهيم والي قرطبة، والشيخ الحافظ أبا عبدالله بن أبي إبراهيم والي غرناطة للتشاور في شأن الحملة الكبرى التي ينوي تسييرها لبلاد الأندلس، فوصلوا إليه في أول شهر جمادى الأولى من سنة 564هـ/ كانون ثاني 1169م(3).

استجاب لنداء الخليفة أعداد عظيمة من عرب إفريقية والزاب والقيروان الذين ساروا بأهلهم وخيلهم إلى مراكش، كذلك توافد على الحضرة الموحدون من كل

---

(1): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص250-251؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص302.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص110؛ سمور، قتيبه علي: العلاقات الحربية بين الموحدين والممالك الاسبانية في شمال الأندلس (540-620هـ/1145-1225م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان 1996م، ص89. سيشار إليه فيما بعد: سمور، العلاقات الحربية.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص394-395.

جهة، فأحسن الخليفة استقبالهم وأنعم عليهم وكساهم، إلا أن مرض الخليفة العارض في أول عام 565ه/1169م حال دون مسيره فوراً إلى الأندلس، ومع ذلك لم يــزل مع ضعفه ومرضه في استدعاء العرب والموحدين من كل جهة للاستعداد للغــزوة التي وعد بها جميع الموحدين وأهل الأندلس، ويبدو أن علة الخليفة كانت شــديدة إذ لم ينهض من فراشه ويشفى من مرضه إلا بعد أربعة عشر شهراً وخمســة عشــر يوماً، وكان أول خروجه للناس بعد مرضه يوم الجمعة 16 ربيع الأول مــن عــام 566ه/1171م[1].

وما كاد يشعر الخليفة بعافيته حتى عمل على اتمام الغزوة التي وعد بها، فبــدأ أولاً باستقبال بيعة اشياخ العرب الوافدين عليه، ثم قام بتمييز العــرب والموحــدين فاستعرضهم وسائر عسكره، وفي اليوم الرابع من شهر رجب سنة 566ه/ 13 آذار 1171م غادر الخليفة مراكش في حشود عظيمة زادت على المئة ألف من الموحدين والعرب، ونزل أولاً مدينة قرطبة ثم توجه منها إلى إشبيلية قاعدة الأندلس، فوصلها في 2 محرم سنة 567ه/ 5 أيلول 1171م، وهناك قدم عليه أمراء وأعيــان شــرق الأندلس عقب انكسار ابن مردنيش ووفاته لتقديم فروض الطاعــة، ومــنح الــولاء والبيعة، فتلقاهم الخليفة أحسن لقاء وأنزلهم منزلاً حسناً، وحدث أن اقتــرح أعيــان الشرق على الخليفة أن يقوم بغزو أراضي النصارى من جهة بلادهم وحــددوا لــه بالذات مدينة وبذة(Huete)[2]، وأخذوا يرغبونه في ذلك قائلين " ان مدينة وبذة أيسر البلاد للفتح، إذ هي حديثة البنيان قريبة الاسكان.. سورها غير ممتنع، وانهــا دون باب ولا حجاب "[3].

استجاب الخليفة لرغبة أهل شرق الأندلس، ووعدهم فور انقضاء شهر رمضان السير إلى فتح مدينة وبذة، وذلك أن قدومهم عليه كان في غرة شهر رمضان، وفي

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص114.

(2): وبذة: مدينة من أعمال شنت برية بالأندلس، تقع على نهر وبذة، أحد نهيرات نهر التاجة، بينها وبين مدينة قونكة خمسون كيلو متراً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ5، ص359؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص169.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص473.

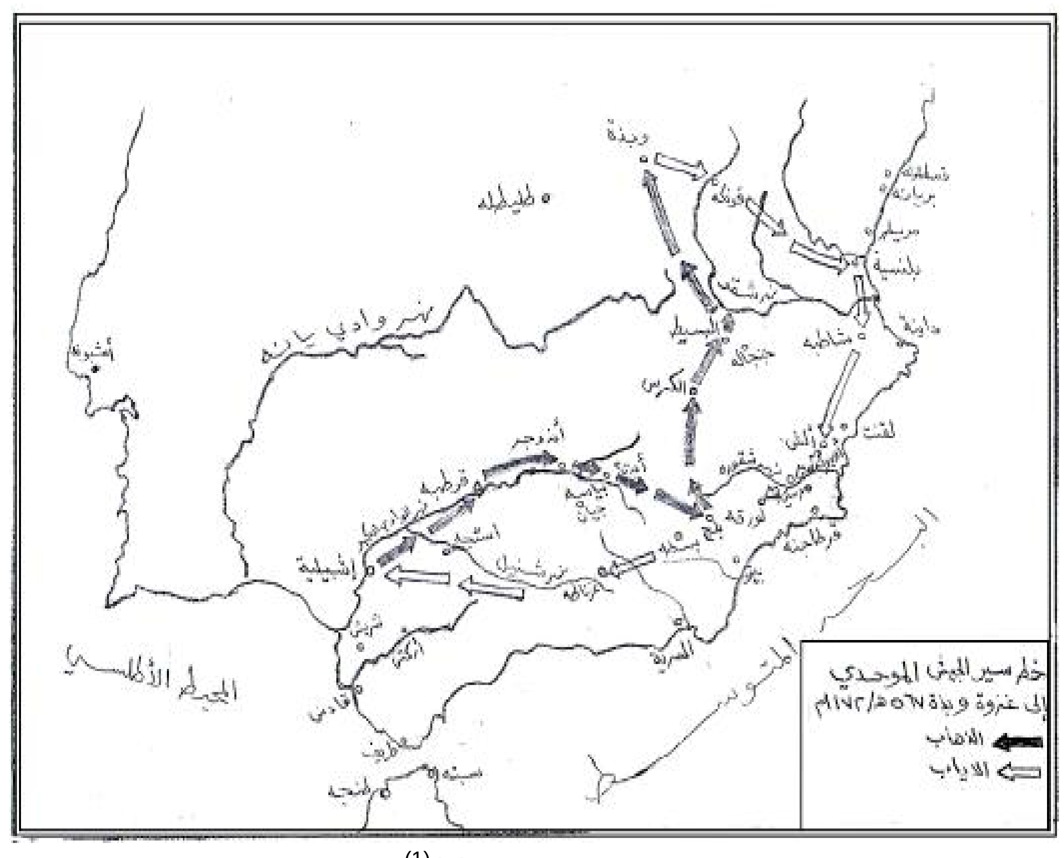
يوم الأثنين الحادي عشر من شوال سنة 567هـ/6 حزيران 1172م غـادر الخليفة مدينة إشبيلية بحملته المشهودة قاصداً مدينة وبذة، مستغلاً نبأ تواجد أعيان ووجوه مملكة قشتالة في تلك المدينة[1]، فوصل أولاً إلى قرطبة بعد ستة أيام وأقـام فيها يرتب شؤون الغزوة حتى الخامس والعشرين من شوال المذكور، ثم تـابع مسيره وعندما وصل إلى مقربة من مدينة بياسة لقيه ابن همشك وحرضه على فتح حصن بلج الذي كان ابن مردنيش قد أعطاه للنصارى، فسار إليه الخليفة واستولى عليه بالأمان، ثم استأنف مسيره قاصداً حصن الكرس[2](Alcaraz)، الـذي كـان ابـن مردنيش قد أعطاه ايضاً للنصارى، فاستولى عليه بالأمـان ايضـاً، ثـم تـابع تقدمه[3](أنظر الخريطة رقم (2)).

---

(1): المراكشي، المعجب، ص184.

(2): الكرس: حصن من عمل جيان، يقع إلى الشمال الشرقي من أبذة على بعد 124 كيلو متر. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص202؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص917.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص472، 487، 490؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلام، ص165-166؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص114-115.



خريطة رقم (2)[1]

وفي يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة وصلت الحملة نهر وادي شقر[2] (Jucar) وكان نزولها فيه لشرب العساكر والدواب والمواشي، ومن هناك أرسل الخليفة أخاه السيد أبا سعيد عثمان في مقدمة من الجيش تتألف من اثني عشر ألف فارس من الأجناد والموحدين والعرب، ليشقوا طريقاً للحملة بالاغارة على أول بلاد النصارى من جهة وبذة، فسار السيد أبو سعيد بهذا الجيش ونازل في اليوم الأول من مسيره حصن للنصارى فافتتحه عنوة، وقتل جميع من كان فيه من الرجال وسبى النساء والأطفال، ثم هدم الحصن حتى جعله " قفراً يباباً "، وفي اليوم التالي وصل إلى مدينة وبذة، ويبدو أن النصارى كانوا على اطلاع بمسير الحملة، فما أن وصل السيد أبو سعيد بعسكره إلى ظاهر المدينة، حتى خرج له القشتاليون، فنشب

(1): الخريطة من إعداد الباحث.

(2): نهر وادي شقر: نهر متوسط الطول، يصب في البحر المتوسط جنوب بلنسية. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص267؛ أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص109.

بين الطرفين معركة سريعة لم تسفر عن نتيجة لأي من الطرفين، ويقدم لنـــا ابـــن صاحب الصلاة وصفاً دقيقاً لأحداث هذه المعركة والحملة عامة، كيف لا وهو أحـــد مرافقي الحملة، مبيناً أن سبب عدم احراز الموحدين للنصر في هذه المعركة يعـــود لتخاذل بعض جند العرب[1].

وكيفما كان الأمر، سار السيد أبو سعيد بعد هذه المعركة ونزل بجيشـــه فـــوق الجبل المطل على مدينة وبذة في انتظار وصول بقية جيش الموحدين، وفـــي يـــوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة وصل الخليفتة بقواته، فبادر مـــن حينـــه إلـــى مهاجمة المدينة تحت قرع الطبول وصـــيحات التكبيـــر، ليشـــتبك مـــع النصـــارى المتحصنين في المدينة في معركة سريعة اسفرت عن استيلاء الموحدين على كل ما يحيط بالمدينة خارج أسوارها من أرباض وبساتين وكروم، كما نجحوا فـــي قطـــع المياه عن المدينة، وفي مساء نفس اليوم جاب السيد أبو حفـــص أطـــراف المدينـــة فارتأى إلى تقسيم جهاتها على الجند بحيث يختص كل عسكر بجهة معينة، وأوكـــل قيادة كل جهة إلى سيد من الأخوة[2].

وفي صبيحة اليوم التالي خرج الخليفة بجحافله الجرارة من الموحدين والعـــرب كأنهم الجبال السيارة، وقد اتخذ كل فريق من العسكر موضعه، وقســـمت الســـهام، واعدت الآلات، فلما وصل إلى الخندق الذي حفره القشتاليين خارج باب المدينة على عجل قبل وصول الموحدين بيومين - حسب رواية ابن صاحب الصلاة – استدعى الخليفة اخوته وأشياخ الموحدين وأخذ منهم البيعة على الثبات على الجهاد، ثم قرعت الطبول إيذاناً بالحرب، فهجم الموحدون على القشتاليين الذين خرجوا لهم ودارت بين الفريقين معركة عنيفة استمرت إلى بعد آذان الظهر، واســـتطاع الموحـــدون دفـــع النصارى حتى الصقوهم بأسوار المدينة، إلا أن حصانة الأسوار ومنعتهـــا وقفـــت حائلاً دون تقدمهم، بل أنها ادخلت اليأس والعجز في صفوف الموحـــدين، فاخـــذوا يقاتلون على ملل وضعف، وقد صور لنا ابن صاحب الصلاة الحال التي أصـــبحت عليها جند الموحدين عندما عجزوا عن اقتحام أسوار المدينة بقوله " ودام القتال على

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص491-492.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص492-494.

انحلال، وضعف وملال.. وما نفع الجيش الكثير عديده ولا نجع، إذ كان نحو مائة ألف بين فارس وراجل، وانصرف أمير المؤمنين وانصرف الناس إلى اخبيتهم، وقد فهم الحال من فهمها "[1].

وفي اليوم الثالث من وصول الحملة قرر الخليفة أن يخرج ربع الجيش لحصد الزرع، وجمع العلوفات والأقوات وتخزينها استعداداً لفرض حصار شديد على المدينة، كما صدر الأمر ببناء آلات الحصار والسلالم وأبراج في جوانب المدينة، فخرج الناس لذلك، وفي هذه الأثناء قدم على معسكر الموحدين رسول من نصارى المدينة يفاوضهم على تسليم المدينة مقابل منح أهلها الأمان، فصرفه الموحدون بدون جواب، ثم عاد الرسول الكرة في عشية نفس اليوم، فصرفه الموحدون كذلك بدون جواب[2].

وإذا امعنا النظر في سياسة الخليفة وتعامله مع حصار مدينة وبذه، وخاصة فيما يتعلق برفضه فكرة تسليم المدينة بالأمان، نجد أنه كانت لديه رؤوية وسياسة محددة تقوم على ضرورة تطهير المدينة من النصارى كلياً، فهو لم يندفع بصورة عشوائية في قبول تسليم المدينة مقابل الأمان لأنه كان يعي جيداً أن قبول الأمان معناه بقاء المدينة تحت رحمة أهلها من النصارى الذين قد يثوروا بأي وقت بمجرد انسحاب الجيوش الموحدية عنها، ثم أن قرب مدينة وبذة من عاصمة القشتاليين طليطلة إلى الشمال الشرقي منها، فرض تحدياً آخر على الموحدين بضرورة الاستيلاء عليها عنوة حتى يتم تطهيرها من كل شيء يربط النصارى بها، لينقطع تفكيرهم كلياً بعد ذلك في استردادها. ومن ثم لعل الخليفة بعد أن رأى موقع هذه المدينة وتحصيناتها أراد اتخاذها خط دفاع أول عن قواعد شرق الأندلس وخاصة مدينة قونكة التي سبق وأن عانت كثيراً من هجمات القشتاليين، وبذلك نجد أن هناك ترو ودراسة في تعامل الخليفة مع حال مدينة وبذة، حداه خلالها أمل عريض في فتحها عنوة، ففي الوقت الذي قبل فيه تسلم حصني بلج والكرس – البعيدين بعض الشيء عن طليطلة – صلحاً، كان هذا غير وارد في حال مدينة وبذة، وإن كان هذا في بادئ الأمر.

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص494-497.

(2): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص245.

لكن يبدو أن الظروف قد عاندت الموحدين، إذ هبت في صبيحة اليـــوم التـــالي وهو يوم الجمعة 20 ذي القعدة من سنة 567ه/1172م، ريح شديدة اقتلعت الكثيـــر من خيام الموحدين وأحدثت الاضطراب في صفوقهم، فانشغل الموحدون بـــالتحوط منها طيلة نهارهم وليلتهم، وفي صباح اليوم التالي استبشر الموحدين بهدوء الـــريح ووصول جيش أهل شرق الأندلس – مرسية وبلنسية – بقيادة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي والحجاج يوسف بن مردنيش، فخرج الخليفة لاســـتقبالهم بنفســـه، وكان وصولهم على مرأى من النصارى الذين كانوا يرقبون ذلك من أعلى مدينتهم مما زاد في تخوفهم وروعهم، فسارعوا إلى إعادة طلـــبهم بتســـليم المدينـــة، إلا أن طلبهم قوبل بالرفض مرة أخرى[(1)].

ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من الشهر المذكور، عادت الريح لتعصف من جديد وكانت أشد من سابقتها، ثم تلاها مطر كثيـــف ورعـــد وبـــرق، فشـــرب النصارى وشربت مواشيهم، وملأوا ما كان عندهم من الصهاريج، فقويت عزيمتهم على تحمل الحصار، ويتعجب ابن صاحب الصلاة وابن عذاري لسقوط المطر فـــي مثل ذلك الوقت الذي كان في أشد ما يكون من الحر، والذي وافق منتصف الصيف – 16 تموز – ثم يعللا ذلك بانه كان للنصارى سقيا وقد ســـقاهم الله[(2)]، وذلـــك أن القشتاليين لما يئسوا من قبول الموحدين الأمان على أنفسهم، أخذوا يجتمعـــون فـــي الليالي الحالكات وقد تقدمهم قسيسوهم ورهبانهم وهم حاملين أناجيلهم، يـــدعون الله المطر وباقي الناس يؤمنوا، فساق الله لهم مطر عظيم فشـــربوا وارتـــووا ومـــلأوا صهاريجهم[(3)].

وفي صبيحة يوم الأثنين 23 ذي القعدة ركب الخليفة وركبت العســـاكر، وقـــد عقدوا عزمهم على قتال النصارى داخل أسوارهم، فما كادوا يبدأون القتـــال حتـــى فوجئوا بمطر غزير كأنه أفواه القرب، ففزعت العساكر وعجزت عن القتال بالرغم

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص498-499.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص123.

(3): المراكشي، المعجب، ص184-185؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص279.

من كثرة العدد والعدة، وبعد توقف المطر بعد الظهر عادوا لمهاجمة المدينة حتى المساء لكنهم لم يفوزوا منها بطائل(1).

ولم يشهد يوم الثلاثاء 24 ذي القعدة قتال لأن الخليفة لم يخرج من خيمته طوال ذلك النهار، لشعوره بالعجز أمام حصانة المدينة وصمود أهلها، فضلاً عن عناد الطبيعة له بسقوط المطر في فصل الصيف على غير العادة وارتواء النصارى بعد أن قطع عنهم الموحدون الماء، ويبدو أن توقف القتال في هذا اليوم قد أصاب الموحدين بالضعف والانحلال إذ خرج النصارى في مساء ذلك اليوم على حين غرة وهاجموا الجهة التي كانت تتولى قبيلة هكسورة حراستها، فاصابوهم بالفزع وفرقوا صفوفهم من محلتهم دون مقاومة، فلما علم الخليفة في الصباح أمر بضربهم بالسياط لغفلتهم وتقاعسهم، وقد كان لهذا المشهد وقعاً سيئاً في نفوس الجند، إذ أصبح هم كل قبيلة الحذر والترقب حتى لا يؤخذ الموحدون من قبلهم فيصنع بهم مثل ما صنع بقبيلة هكسورة. ثم زاد الموقف تعقيداً بانعدام العلوفات والأقوات، فانشغل الجند طوال يوم الخميس وحتى صبيحة يوم الجمعة بالبحث عن المؤن والعلوفات، غير أنهم لم يوفقوا بذلك، فارتفعت الأسعار في معسكر الموحدين، وكادت أن تنعدم الأقوات بينهم(2).

أمام هذه المعضلات ثبطت الهمم، وخارت العزائم، فرأى الخليفة بأن الأمر يتطلب إعادة توحيد الصف، وبث روح الجهاد والثبات من جديد بين الموحدين، فأوكل هذه المهمة إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر الذي وقف خطيباً بالموحدين بعد أن تم جمعهم أمامه، فأخذ يتحدث باللسان العربي تارة، وباللسان البربري تارة أخرى، يحرضهم على القتال ويستنهض هممهم للجهاد(3)، وكان مما قاله " قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا لجاهدنا واجتهدنا، فلما حضرتم قصرتم وجبنتم وخنتم الله عز وجل وما نصرتم "(4).

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص499-500.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص500-501.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص79.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص123.

ويبدو أن خطاب الشيخ ابن عمر لم يأتي اوكله، ولم يظهر له ثمر، الأمر الذي حمل الخليفة في نفس اليوم على ارسال مبعوثاً من قبله إلى حاكم مدينة وبذة القشتالي، الذي يسميه ابن صاحب الصلاة " العلج ولد مريق " للتفاوض معه في محاولة يائسة على التسليم بالأمان، قائلاً له أن الموحدين على استعداد قبول رغبته في الأمان مقابل تسليم المدينة، لكن الأمير الأسباني رد باستهزاء قائلاً بأن ليس لديه ملابس تليق بمقابلة الخليفة، ثم عاد المفاوض الموحدي الكرة مرة اخرى في نفس اليوم، غير أن العلج ولد مريق رد عليه هذه المرة بجفاء، قائلاً " لست أمشي معك فإن النصارى والأمير أذفونش الصغير قد خاطبوني باجتماعهم واحتشادهم ووصولهم إلي ليرفعوكم أو يقابلوكم "(1).

ما كان من الخليفة أبي يعقوب عندما نما إلى علمه أن الملك ألفونسو الثامن على وشك الوصول بحشوده من النصارى لإنجاد مدينة وبذة، حتى عقد اجتماعاً طارئاً استمر من بعد العصر إلى صلاة المغرب بحضور ممثلين عن كل صنف من الموحدين والأندلسيين والعرب، وتقرر في ذلك الاجتماع رفع الحصار والرحيل، وصدرت الأوامر بحرق البرج والآت الحصار، وفي صبيحة اليوم التالي وهو يوم الأحد 29 ذي القعدة من سنة 567هـ/1172م، ضرب الطبل الكبير إشعاراً للناس بالرحيل، فحدث اضطراب شديد وموج وهرج بين صفوف الموحدين، فلما رأى القشتاليون ذلك، وأيقنوا عزم الموحدين على الانسحاب، خرجوا بخيولهم وفرسانهم وباغتوا الموحدين بالقتال، واشعلوا النيران في البيوت والخيام، مما زاد من اضطراب الموحدين فوق اضطرابهم، الأمر الذي حدا بالخليفة أن يصدر أوامره بثبات الجند في أماكنهم لصد هجوم النصارى إلى حين أن ترفع الخيام، فلما رفعت وتقدمت بالمسير، بدأ جيش الموحدين بالانسحاب على قرع الطبول متجهاً نحو مدينة قونكة، يتقدمه الخليفة واخوه السيد أبو حفص وأشياخ الموحدين، في الوقت الذي تأخر فيه أخوة الخليفة السادات بجمع كبير من العساكر لحماية مؤخرة الجيش من هجمات النصارى(2).

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص502.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص123-124.

استمر الجيش المنسحب بالمسير حتى وصل مدينة قونكة في مساء يوم الثلاثاء أول ذي الحجة، أي بعد يومين من المسير، ولما كان صباح يوم الأربعاء الثاني من ذي الحجة أمر الخليفة الناس بحصد زروع النصارى القريبة من قونكة، فلما خرجوا لذلك تفاجأوا بوصول عدد كبير من جند النصارى، وقد طار الخبر إلى الخليفة على انهم طلائع جند ملك قشتالة ألفونسو الثامن وقمطه نونيه، فأمر الخليفة عندئذ الجيش بعبور نهر شقر تجاه مدينة قونكة، والتحصن بالجبل القريب منها استعداداً للقتال، واستمر عبورهم للنهر لمدة يوم وليلة، وقد قدم النصارى بجيوش عظيمة ونزلوا قبالتهم على الضفة الأخرى من النهر، وفي مساء يوم الخميس الثالث من ذي الحجة عقد الموحدون عزمهم على مقاتلة النصارى من فجر غدهم يوم الجمعة، فلما جاء الغد خرج المسلمين لمحلة النصارى وحدث بينهم اشتباكات ومصادمات دون أن يكون هناك قتال كبير، وفي اليوم التالي عندما أصبح الموحدون وجدوا أن النصارى قد رحلوا من محلتهم عائدين إلى بلادهم[1].

لم يكن من الخليفة أبي يعقوب عندما علم برحيل النصارى، إلا أن أصدر أوامره باستئناف الرحيل، فمر بطريق عودته إلى مدينة إشبيلية بعدد من المدن والحصون الإسلامية لتفقدها والأطمئنان على أهلها، مثل مدينة بلنسية وشاطبة (Jativa)[2] وحصن أوريولة ومدينة مرسية وغرناطة، وكان وصول الخليفة إلى إشبيلية يوم الخميس الثامن من ربيع الأول من سنة 568هـ/ تشرين ثاني 1172م، فاستقبله أهلها استقبالاً حافلاً، وكان على رأس مستقبليه الشيخ الحافظ أبو بكر بن الجد[3][1].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص504-508.

(2): شاطبة: مدينة كبيرة قديمة، تقع في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، وبها يعمل الكاغد الذي لا نظير له بمعمور الأرض يعم المشرق والمغرب. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص337؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص309.

(3): هو أبو بكر بن الجد محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري، الفقيه الحافظ من أهل إشبيلية، عني في أول أمره بالعربية فبرع فيها ثم مال إلى دارسة الفقه ومطالعة الحديث بتوجيه من أبي الوليد بن رشد، وقد تمكن من الحظوة عند خلفاء بني عبد المؤمن،

وهكذا انتهت حملة وبذة بالفشل بعد حصار دام قرابة الأسبوعين(2)، على الرغم من ضخامة الجيش الموحدي الذي كان يربو على مائة ألف مقاتل. وهذا ما يضعنا أمام تساؤل قد يتردد في ذهن البعض، كيف يعجز جيش بهذا الحجم عــن اقتحـــام مدينة صغيرة مثل مدينة وبذة، ما قصدت إلا للاعتقاد بانها أسهل بـــلاد النصـــارى للفتح، لضعف حاميتها وقلة سكانها ؟.

في الواقع تظافرت مجموعة من العوامل ساهمت في فشل الحملة، فالخليفة أبـــو يعقوب عندما عبر إلى الأندلس بهذا الحشد الهائل من أصناف الموحدين والعـــرب وما انضم إليه من أندلسيين عند وصوله إلى إشبيلية، لم يكن في مخططه هدف معين يقصده، وانما جاء العبور برسم الجهاد بغض النظر عن الهدف وقيمتـــه، وعنـــدما اقترح أهل شرق الأندلس غزو وبذة وافقهم الخليفة على ذلك فـــي الحـــال، دون أن يكون هناك دراسة فعلية لمدى جدوى هذه الغزوة وإمكانية نجاحها، كما لم يتحقـــق من صدق أهل شرق الأندلس فيما قيل عن ضعف حصانة المدينة وقلـــة حاميتهـــا، والشاهد على ذلك عدم تجهز الموحدين بأدوات الحصار من دبابات وأبراج وسلالم واضطراهم إلى بناء مثل هذه الآلات خلال الحصار.

ثم نلحظ أن الخطط والخدع الحربية قد غابت عن الجيش الموحدي منذ أن ابتدأ مسيره من إشبيلية وحتى آخر يوم من الحصار، فلم يكن هناك سرية أو تموية فـــي وجهة الحملة كما كان يفعل الخليفة عبد المؤمن بن علي في غزواته، ويظهر ذلـــك

وهو من الأعيان الخمسة الذين حضروا موقعة وبذة مع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ونال دنيا عريضة واستفاد ثروة عظيمة، وكان خطيبا مفوها يبلغ بالبديهة ما لا يبلغ بالروية لكنه لم يشتغل بالتأليف على غزارة حفظه، توفي بإشبيلية سنة 586ه/1190م. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص149؛ ابن الآبار، التكملة، جـــ2، ص64-65.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص508-516؛ المراكشي، المعجب، ص185؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ10، ص47؛ ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص322.

(2): انفرد كل من المراكشي وابن خلكان بالاشارة إلى أن مدة الحصار استمرت لعدة أشهر، وهم بذلك يخالفان رواية ابن صاحب الصلاة الذي كان يروي أحداثه يوماً بيوم. انظر: المراكشي، المعجب، ص184؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ7، ص135.

من خلال استعداد القشتاليين للقتال بحفر الخنادق أمام أبواب المدينـــة، ومفـــاجئتهم لطلائع الجيش الموحدي بالهجوم بمجرد وصوله لمدينتهم، ثـــم خـــروج المقـــاتلين والفرسان النصارى لصد أي هجوم يحاول الجيش الموحدي تنفيذه على المدينـــة، لا بل نجد أن النصارى قد ملكوا أحياناً المبادرة في مهاجمة الجيش الموحدي كما فعلوا مع قبيلة هكسورة عندما باغتوها بالهجوم وأنزلوا بها هزيمة نكراء، وهذا كله يصور لنا بطبيعة الحال ضعف القيادة الموحدية وعجزها عن تسخير الامكانـــات المتاحـــة لصالحها.

ثم أن عدم التفات الخليفة لعرض أهل المدينة بتسليمها بالأمان، قد فوت علـــى الموحدين فرصة امتلاك المدينة ونجاح الحملة بايسر السبل، وهذا يشير إلـــى عـــدم وجود مجلس حربي حقيقي في الجيش الموحدي، وأن الخليفة وأخوته السادات هـــم من ملكوا الرأي اولاً وأخيراً.

وهناك أمر آخر جد خطير، ظهرت ملامحه خلال أيام الحصار وهـــو غيـــاب الجدية وظهور التخاذل والانحلال عن مواصلة القتال، سواء بين صفوف الجيش أو حتى القيادة، إذ نجد أن الخليفة يترك ساحات القتال في أمس ما يكون الجند بحاجـــه إليه، ليجلس في خيمته الساعات الطوال مع الطلبة والموحدين ليناقشهم في بعـــض المسائل الفقهية والفكرية، أما عن حال عامة الجند فقد حرص ابن صاحب الصـــلاة على تسجيل بعض الحالات التي تصور لنا مدى التكاسل والتخاذل التي وصل إليها، ومن ذلك قوله" ووصلوا السور ووقفوا عنده وقوف العاجز المقصـــر قـــد توركـــوا للراحة من الفضل والكسل.. وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم محمد بن تيفوت يمنعهم من رمي النصارى بالســـهام فلـــم تقـــع الآلات ولا الرمـــاح ولا الـــدروع السابغات.. ودام القتال على انحلال، وضعف وملال.. وما نفع الجيش الكثير عديده ولا نجع، إذ كان نحو مائة ألف بين فارس وراجل "(1).

تبقى مسألة سوء تنظيم المؤن، وانعدام الأقوات في المعسكر الموحـــدي، فقـــد شكلت تهديداً آخر لازم الحملة أيام الحصار، نتج عنه ثبوط في الهمم وانكسار فـــي

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص497.

العزائم، وتكدر في النفوس، وهذا ما كان له وقعٌ سيءٌ علـــى العســاكر، فانعــدمت الانضباطية وظهر الانحلال.

وإذ ا ما وصلنا إلى الظروف والعوامل الطبيعية المتمثلة فــي هبــوب الريــاح الشديدة والعواصف الماطرة، نجد أنها كانت نعمة وسبيل خلاص بالنسبة للقشتاليين، وذلك أنهم عندما يئسوا من قبول الموحدين تسلم المدينة بالأمان، وكثر بينهم الموت من شدة العطش لقطع الموحدين الماء عن المدينة، اجتمعوا على قلب واحد وتوجهوا إلى الله تعالى بدعوة صادقة أن يرزقهم المطر، علماً أن الوقت هو منتصف الصيف، وليس موسم المطر، ولكن لما كان رجوعهم إلى الله بالاضطرار الصادق رحمهــم سبحانه وهو أرحم الراحمين فانزل عليهم الغيث كأفواه القرب[1]حتى ملأوا ما كــان عندهم من أحواض مياه، في حين كانت هذه الرياح والأمطار عامل احباط للجــيش الموحدي، وذلك أنهم تراخوا عن الجهاد بفعل الرياح والمطر، ومالوا إلــى الدعــة والفساد، فاعرض الله عنهم.

4.2.2.1.3 **حملة القومس[2]الأحدب على نواحي قرطبة سنة 568هـ/1173م**:

شهد النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر المــيلادي، ولادة قوة جديدة في ميدان الصراع بين اسبانيا النصرانية والأندلس الإسلامية، وقد تمثلت هذه القوة في الجماعات الدينية التي نشأت في مختلف الممالك الاســبانية، وأخــذت على عاتقها حرب المسلمين، فشاركت إلى جانب قوات الممالك الاسبانية في الكثير من المعارك التي خاضتها ضد المسلمين، وكان من بين هذه الجماعات الدينية تلــك

---

(1): المراكشي، المعجب، ص184.

(2): القومس (Comes): جمعها قوامس، وهي كلمة لاتينية، كانت تعني في الأصل نديم الملك، ثم تطورت لتطلق على كل حاكم منطقة متمتع باستقلال تام أو محدود، وهي تقابل اليوم لفظة: كونت. انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص99.

التي ظهرت في مدينة آبلة(Avila)[1] بقيادة سانشو خمينو[2]، وهو الذي تسميه الرواية الإسلامية ب " القومس الأحدب "[3]، وبالقومس " شان منوس "[4] واحياناً اخرى تسميه " سانشو أبو برذعة "[5]، وتصفه ب " الأحدب عظيم النصارى بآبلة "[6]، وتذكر الرواية الإسلامية أن سانشو عرف بأبي برذعة لأنه كانت به عاهة فلا يركب إلا بغل تسرج بالحرير المنسوج بالذهب والمحلاة بأصناف الجواهر[7].

وكان القومس الأحدب قد نشط في شن الغارات على البلاد الإسلامية منذ أيام مبكرة من عمره وهو في سن الفتوة، ولا تكاد تكون هناك جهة من ديار المسلمين في الأندلس قد سلمت من غاراته، حتى أنه وصل في بعضها إلى جزيرة طريف والجزيرة الخضراء، ولم يكن يمنعه من شن غاراته لا حر صيف ولا برد شتاء، ولا خوف من المسلمين ولم يسبق له أن هزم في أي غارة من غاراته الكثيرة، وقد لاقى المسلمون من عدوانه إذاية كبيرة وبلاءاً شديداً، واستمر ذلك هو حاله حتى كتب الله هلاكه عل يد الخليفة أبي يعقوب[8].

ففي أول شهر شعبان من سنة 568ه/ آذار 1173م خرج القومس الأحدب هذا كعادته من مدينة آبلة، في قوة قشتالية مستغلاً انشغال القوات الموحدية وتفرقها شرقاً وغرباً في بلاد الأندلس[9]، فاخترق البلاد الإسلامية حتى عبر نهر الوادي الكبير من عند المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الجرف الواقعين على الطريق بين

---

(1): آبلة: مدينة صغيرة تقع في شمال غربي مدريد، على بعد ثمانين كيلو متراً. انظر: عنان، الآثار الأندلسية، ص326.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص320؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص87.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص279.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص518.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص518.

(7): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص320.

(8): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص125.

(9): مجموع رسائل موحدية، ص122-123.

إشبيلية وقرطبة، في المنطقة المقابلة إلى مدينة استجة إلى الشمال منهـــا[1]، وشـــن غاراته على أحواز استجة، ثم توجه منها إلى قرطبة وهو يعيث خراباً، وغنم مـــن تلك الجهات نحو خمسين ألف رأس من الغنم ومائتي رأس من البقر، وأســـر مـــن المسلمين أكثر من مائة وخمسين رجلاً، ثم قفل بغنائمه وأسراه عائداً إلى بلاده ماراً بمخاضة بليارش القريبة من مدينة قرطبة[2].

ويبدو أن أنباء هذه الغارة التي اخترقت بلاد المسلمين قد وصلت متأخرة للخليفة أبي يعقوب، وهذا ما نلمسه بقوله في احدى رسائله " ولما اتصل بنا نبأهم الـــذميم، وتوجه فيهم الصنع الكريم، استخرنا الله تعالى على تمييـــز العســـاكر المنصـــورة وتسريبها إليهم مع إخواننا وأشياخ الموحدين – أعزهم الله – فـــأتبعوهم معـــدين.. وأرهقوهم مشمرين في الركض مجدين "[3]، أي أن الخليفة علم بالغارة بعد أن قفـــل القومس عائداً بغنائمه وأسراه.

وعلى أي حال، جاء الرد الموحدي على هذا الاختراق حاســـماً، حيـــث جهـــز الخليفة جيشاً من الموحدين والعرب، جعل على قيادته أخويه السيدين أبـــو زكريـــا يحيى وأبو إبراهيم اسماعيل، وأمرهم بملاحقة هذا الغادر حتى يـــتم قطـــع شـــأفته، فخرج الجيش من إشبيلية في الثالث عشر من شعبان المذكور، وعبر نهر الـــوادي الكبير مجداً في السير نحو قرطبة، فلما وصلها بعد ثلاثة أيام كان القشـــتاليون قـــد وصلوا عندئذ حصن القصير(Al-Kosair)[4]. وهناك اجتمع الموحدون بالشيخ أبي حفص عمر وبعد التشاور استقر رأيهم على إتباع النصارى إلى أي مكان يخلصـــوا إليه ولو في مدينة آبلة نفسها، وبعد أن استعدوا للسفر بالمؤن والعلوفات خرجوا من

---

(1): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص207-208.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص518-519؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص125.

(3): مجموع رسائل موحدية، ص122-123.

(4): القصير: حصن من أعمال قرطبة، يقع إلى الشمال الشرقي منها على نهر الوادي الكبير، على بعد ثمانية عشر ميلاً. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـــ1، ص225؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص165، هامش رقم (1).

قرطبة مساء يوم الأحد 16 شعبان يتقدهم الشيخ أبو حفص مع طليعة من الأدلاء بقيادة الحافظ أبي عمران موسى بن حمو الصنهاجي، لشهامته ومعرفته بالثغور[1].

جدّ الموحدون في مطاردة القشتاليين، في الوقت الذي أخذ فيه القومس وأتباعه يركنون إلى الدعة، لاطمئنانهم بعدم وجود مقارع لهم على ما اعتادوا عليه في السابق، وبينما كانوا يتجهزون للرحيل من موضع باتوا فيه يعرف بفحص كركوى على مقربة من قلعة رباح (Castillo de Caltarava)[2]، ظهر لهم المسلمون فجأة، فحاولوا الاستعجال في الرحيل، إلا أن اقتراب الموحدين منهم جعلهم يلجأون إلى جبل شاهق للاحتماء به، فلحق بهم المسلمين ونشبت بين الطرفين موقعة عنيفة، هزم فيها النصارى وقتل قائدهم القومس الأحدب[3]، ولم ينج من جيشهم البالغ ستة وثلاثين ألف مقاتل، إلا نحو مائتي فارس[4].

هذا وقد كانت هزيمة القومس وانصاره من القشتاليين بالقرب من كركوى قاصمة الظهر بالنسبة لفرسان آبلة فلم " يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخرجون معه ولا قام لهم علام أبداً "[5].

عاد المسلمون من فحص كركوى إلى مدينة إشبيلية مظفرين، وقد أبادوا معظم أهل آبلة، واستنقذوا اسرى المسلمين الذين غلّ الله أيدي النصارى عن قتلهم، واستردوا الغنائم جميعها من البقر والغنم، والتي أعيدت بأمر من الخليفة إلى أصحابها، كما امتلأت أيديهم من الدروع والخيل والبغال التي غنموها من النصارى. وكان وصولهم إلى مدينة إشبيلية يوم الجمعة الحادي والعشرين من شعبان، وفي

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص519-520.

(2): قلعة رباح: مدينة تتبع في التقسيم الإداري الأندلسي لمدينة طليطلة، وهي مدينة محدثة في أيام بني أمية، تقع على نهر وادي آنة، شمال شرقي قرطبة وجنوبي طليطلة. انظر: ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص177-178؛ الحميري، الروض المعطار، ص469.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص125؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص279؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص33.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص320؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص309.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص522.

اليوم التالي من وصولهم جلس الخليفة وبجانبه أخيه السيد أبي حفص لتلقي التهنئة من الأشياخ والفقهاء والكتاب والأدباء، وقد أجاد الخطباء والشعراء في مدح الخليفة والاحتفاء بالنصر في ذلك اليوم، وحصلوا لقاء ذلك على جوائز وأعطيات عظيمة[1].

5.2.2.1.3 غزوة ابن تيجيت وابن جامع إلى مدينة طلبيرة[2] سنة 568هـ/1173م:

عادت معنويات الموحدين إلى الارتفاع بعد النصر الكبير الذي تحقق على قوات آبلة القشتالية في معركة كركوى، ذلك النصر الذي جاء ليمحو آثار فشل حملة وبذة، وهذا ما شجع الموحدون على توجيه مزيد من الغارات داخل الأراضي النصرانية، ومن هنا جاء تجهيز الخليفة أبي يعقوب لحملة موحدية قوامها أربعة الآف فارس من الموحدين والاجناد الأندلسيين والعرب، بقيادة أبي يعقوب يوسف بن أبي عبدالله ابن تيجيت وعبدالله بن أبي اسحاق بن جامع، وقد غادرت الحملة مدينة إشبيلية وبرفقتها الميرة المخصصة لمدينة بطليوس من القمح والشعير والزيت وغيرها من الأرزاق تحملها ثلاثة آلاف دابة، وبعد أن سلمت أحمال الميرة إلى والي بطليوس، سارت شمالاً مخترقة أراضي مملكة قشتالة حتى وصلت مدينة طلبيرة على نهر التاجة، فعاثت في نواحيها أشد العيث، وقتلت كل من خرج لحربها من النصارى، ثم عادت إلى مدينة إشبيلية سالمة وهي محملة بالغنائم والأسرى والسبي، وقد بلغ ما غنمته هذه الحملة من سائمة البقر والغنم وحدها أكثر من ثلاثين ألفاً[3].

---

(1): مجموع رسائل موحدية، ص124؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص524-525؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص126.

(2): طلبيرة (Talavera): مدينة كبيرة بالأندلس، تقع على نهر التاجة، وهي من قواعد كورة طليطلة، بينهما سبعون ميلاً. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص395؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص257.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص525-526.

ولم تكد هذه الحملة تصل إشبيلية حتى آثر الخليفة بارسال قوة موحدية جديدة من خيار الجند والعسكر للإغارة على نواحي طليطلة، مستغلين في ذلك انشغال قشتالة بالحرب الدموية التي كانت تخوضها أسرتي آل كاسترو وآل لارا على ضفاف نهر دويرة في هذه الأثناء[1]، فعاثت هذه القوة في أراضي قشتالة وهاجمت مدينة طليطلة نفسها، ثم عادت بالغنائم والسبي والأسرى دون أن تجد مقاومة تذكر[2].

6.2.2.1.3 عقد مملكة قشتالة الصلح مع الموحدين ونقضه:

ساءت أحوال مملكة قشتالة مع أواخر سنة 568ه/1173م، من جراء الحرب المضطرمة بين أسرتي آل كاسترو وآل لارا بافتعال من ملك ليون فرناندو الثاني الذي أخذ بدعم وتحريض أسرة آل كاسترو على ابن أخيه ألفونسو الثامن[3]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أخذت قشتالة تضيق ضرعاً من غزوات الموحدين التي بدأت تتوالى على طليطلة ونواحيها، نتيجة لذلك جنحت قشتالة إلى السلم، ورغبة في عقد صلح مع الموحدين يعيد حالة الهدوء بينهما، وكان الكونت نونيه دي لارا حاكم طليطلة هو المبادر في طلب الصلح، فقد بعث رسله باسمه وباسم الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة، إلى الخليفة أبي يعقوب طامعاً بالصلح والمهادنة، ويبدو أن ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز قد سمع بوصول رسل قشتالة لحضرة الخليفة بإشبيلية طلباً للصلح، فبادر هو من حينه أيضاً بارسال رسله إل إشبيلية سائلاً الصلح، حتى أنه عمل على ذلك أكثر من القشتاليين، وبعد مفاوضات طويلة استمرت لقرابة الشهرين، وافق الخليفة في شهر ذي الحجة من سنة 568ه/ تموز 1173م على

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص277، 320.

(2): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص249؛ حسن، يعقوب المنصور الموحدي، ص34.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص276-277.

إبرام معاهدة صلح وهدنة مع ملوك النصارى – قشتالة والبرتغال- [1]، على أن تكون مدتها سبع سنوات[2].

ويبدو أن موافقة الخليفة على عقد الصلح مع ملوك النصارى سنة 568ﻫ/1173م، ما جاء إلا رغبة من الخليفة في التفرغ لأعمال الإنشاء، وتعمير البلاد التي هجرها سكانها جراء غارات العلج جراندة وخاصة في غرب الأندلس[3]، هذا فضلاً عن إدراك الخليفة لصعوبة حصار مدينة طليطلة وما قد تواجهه قوات الموحدين من صعوبات كبرى إذا ما استمرت في شن الغارات عليها[4].

التزم ملك قشتالة ألفونسو الثامن بمعاهدة الصلح مع الموحدين حتى سنة 572ﻫ/1177م، غير أنه يبدو أن التزامه طيلة هذه السنوات الأربع لم يأت عن رغبة أو حباً منه في السلام مع الموحدين، وإنما كانت هناك ظروف أملت عليه ذلك، فبعد توقف الصراع بين أسرتي آل كاسترو وآل لارا بشكل مفاجئ سنة 569ﻫ/1174م[5]، دخلت قشتالة في حالة صراع مع جارتها مملكة نبرّة، وذلك لاحتلالها بعض الأراضي القشتالية على الحدود بينهما خلال فترة انشغال قشتالة بحربها الأهلية، واحتدم النزاع بين المملكتين ولم يتوقف إلا في سنة 571ﻫ/1176م، عندما احتكم الملكين ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو السادس ملك نبرة، إلى الملك الإنجليزي هنري الثامن (Henry II) الذي نجحت وساطته في عقد معاهدة صلح بينهما دامت لفترة من الوقت[6].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص526-527.

(2): المراكشي، المعجب، ص185؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص279.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص90.

(4): وات، مونتغمري: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط2، ترجمة: محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1998م، ص118. سيشار إليه فيما بعد: وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية.

(5): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص277.

(6): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239.

صادف عودة الهدوء على الحدود بين مملكتي قشتالة ونبرّة، مغادرة الخليفة أبو يعقوب الأندلس عائداً إلى مراكش، وما كاد الملك ألفونسو الثامن يتيقن من وصـــول الخليفة إلى حاضرته في المغرب، حتى نقض الهدنة مع المسلمين، وســـار بقواتـــه للاستيلاء على مدينة قونكة في شرق الأندلس، وفي ذلك يقول ابن عذاري " وعندما تحقق العلج الغادر نونيه صاحب طليطلة ظهير أذفونش أخزاه الله رحلة الخليفة أبي يعقوب من الأندلس نقض العهد ورفض السلم والعقد، فخرج بجمعه الذميم ونـــازل مدينة كونكة "[1].

7.2.2.1.3 استيلاء الملك ألفونسو الثامن على قونكة سنة 573ه/1177م:

لم تكن فكرة استيلاء مملكة قشتالة على مدينة قونكة وليدة سنة 572ه/1177م، وانما تعود محاولة استيلائهم عليها إلى سنة 567ه/1172م، ففي هذه السنة ســـارت القوات القشتالية إلى المدينة وحاصرتها عدة أشهر ولم ترفع عنها الحصار إلا حينما سمعت باقتراب القوات الموحدية منها وهي في طريقها إلى مدينة وبذة، ويبـــدو أن حصار النصارى لها في هذه السنة كان شديداً، فقد وصفت حال أهلها عندما دخلهـــا الخليفة في طريق عودته من حصار وبذة " كأنهم قد نشروا من كفن وخـــروا مـــن جدث"[2].

ظل الاستيلاء على قونكة هدفاً يراود الملك ألفونسو الثامن حتى مـــع توقيعـــه معاهدة سلام مع الموحدين سنة 568ه/1173م، وهذا ما نلمحه بجعلها مقصداً لـــه بمجرد أن اتيحت له الفرصة المناسبة لذلك.

هذا وقد ساعدت الظروف التي مرت بها الدولة الموحدية بـــين ســـنتي 571-572ه/1176-1177م الملك ألفونسو الثامن على تنفيذ مشروعه بـــاحتلال مدينـــة قونكة، والمتمثلة في رجوع الخليفة أبي يعقوب من الأندلس إلى المغرب مصـــطحباً معه معظم القوات الموحدية، وظهور تمرد على سلطان الموحدين من قبل صنهاجة

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص505.

القبلة[1]، فضلاً عن فتك وباء الطاعون في سنة 571هـ/1175-1176م في معظم بلاد المغرب، والذي كانت له نتائج كارثية على الدولة نتيجة لكثرة الوفيات والتي وصلت على حد بعض الروايات إلى ألف وسبعمائة نفس في اليوم الواحد[2].

استغل ألفونسو الثامن أوضاع الموحدين وسار على رأس قواته إلى مدينة قونكة، وقام بفرض حصار شديد عليها فور وصوله لها في شهر شعبان من سنة 572هـ/ كانون ثاني 1177م[3].

ومما يذكر عن هذه الحملة أن الملك ألفونسو الثاني ملك أراغون كان شريكاً قوياً للملك ألفونسو الثامن وساعده أيم مساعدة في حصار المدينة[4]، كما اشترك كذلك إلى جانب الملكين في الحملة عدد كبير من قادة ومشاهير فرسان النصارى مثل بيدرو أسقف برغش، وسانشو صاحب آبلة، وريموند صاحب بلازنسيا وغيرهم[5].

وعندما اشتد حصار النصارى إلى قونكة بعث أهلها إلى الخليفة في مراكش يسألونه الغوث والنجدة، إلا أن فتك الطاعون والمرض بأهل مراكش في هذه الأثناء جعل من الاستحالة ارسال جيش من المغرب، لذلك بعث الخليفة إلى أخويه السيدين أبي علي الحسين والي إشبيلية وأبي الحسن والي قرطبة بأن يتحركا إلى غزو جهات طليطلة وطلبيرة لعل ذلك يساهم في دفع الملك ألفونسو برفع الحصار عن قونكة[6].

وفي يوم الأثنين 6 شوال 572هـ/ نيسان 1177م خرج السيد أبو الحسن في عسكر قرطبة وأغار على نواحي طليطلة وجهاتها، ثم عاد سالماً إلى قرطبة وهو محمل بالغنائم، وفي نفس الوقت خرج السيد أبي الحسين في ثمانية الآف مقاتل منهم

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(2): بولقطيب، الحسين: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002م. سيشار إليه فيما بعد: بولقطيب، جوائح وأوبئة.

(3): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص250.

(4): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239.

(5): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص96.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137-138.

أربعة الآف فارس وسار شمالاً نحو طلبيرة، وتمكن من فتح حصناً للنصارى على نهر التاجة من جهة طلبيرة، ثم عبر نهر التاجة في قارب حمل على الأكتاف من إشبيلية لهذه الغاية نكاية بالعدو، وأخذ في الإغارة على ضفة وادي تاجة مدة من الوقت ثم عاد إلى إشبيلية بالغنائم والأسرى سالماً غانماً[1].

ويظهر أن هذه الغارات الخاطفة التي قام بها الموحدون على أراضي قشتالة لم تثمر بشيء، فقد صب القشتاليون جل اهتمامهم على احكام حصار قونكة، غير ابهين لا بغارات الموحدين ولا ببرد الشتاء، وبحسب الرواية النصرانية جاءت المحاولة الأخيرة من قبل الموحدين في انقاذ المدينة بارسال قوات بشكل مباشر للمدينة لانجادها وفك حصارها، وقد خاضت هذه القوات معركة عنيفة مع القوات القشتالية في مكان وعر بالجبال بجوار قونكة، غير أن وصول المدد للقوات القشتالية من قبل ألفونسو الثاني ملك أرغون والأمير بيدرو أسقف برغش أضطر الموحدين للانسحاب تاركين المدينة لتلقى مصيرها المحتوم[2].

زادت معاناة أهل مدينة قونكة جراء الحصار الشديد ونقص المؤن وانتشار الأمراض، وبعد أن تقطعت بهم السبل ولم يعد هناك أمل بوصول عون ومساعدة من الموحدين، قام أهل المدينة بتسليم مدينتهم للملك القشتالي ألفونسو الثامن في شهر ربيع الثاني من سنة 573ه/14 أيلول 1177م بعد حصار استمر قرابة تسعة أشهر، وفور دخول النصارى المدينة حولوا مسجدها إلى كنيسة، ثم اتخذوا منها مركزاً لأسقفية[3].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص138.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص321؛

O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239.

(3): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص250؛ O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239 .

8.2.2.1.3 معاهدة كازولا وتجدد الغزو بين الموحدين ومملكة قشتالة:

دبت الغيرة إلى الملك ألفونسو الثاني ملك أرغون على أثر استيلاء قشتالة على مدينة قونكة، إذ خشي ملك أرغون أن تصبح قشتالة من القوة بحيث تمد نفوذها إلى أراضي بلنسية ومرسية، وهي أراضي يرى ملك أرغون أنها تدخل ضمن منـــاطق النفوذ الخاصة بمملكته، وحدث في هذه الأثناء أن عاد الملك فرناندو الثـــاني ملـــك ليون لتهديد الاراضي القشتالية وانتزع بعض الأماكن منها. نتيجة لذلك رأى الملـــك ألفونسو الثامن أنه لا بد له من عقد اتفاق مع ملك أرغون يقضي على حالة التنافس والخلاف بينهما في غزو أراضي شرق الأندلس، ويضمن لقشتالة حليف قوي مثـــل ملك أرغون يكون عوناً لها في مواجهة تهديد مملكة ليون من جهة، ومملكـــة نبـــرَة بزعامة الملك سانشو السادس الذي كان يتحفز دائماً للزحف على مدينـــة بـــرغش لانتزاع بعض الأراضي منها من جهة أخرى[1].

وفي شهر شوال سنة 574ه/20 آذار 1179م التقى الملكين ألفونســو الثـــامن والفونسو الثاني في مدينة كازولا، وعقدت بينهما معاهدة عرفـــت باســـم معاهـــدة كازولا، نصت على ما يلي:

1. تحالف الملكين ضد ملوك اسبانيا الآخرين وخاصة ضد ملك نبرّة.
2. تقسيم بلاد الأندلس إلى مناطق سيطرة ونفوذ بين الملكين على النحو التالي:

أ- تكون الأراضي الواقعة في شرقي الأندلس ابتداءاً من مدينة بلنســية شـــمالاً وحتى بلدة بيرة الواقعة إلى الشرق من مدينة بسطة جنوباً، مـــروراً بمدينـــة شاطبة ومرسية، مناطق فتح خاصة بمملكة أرغون.

ب- تكون جميع الأراضي الواقعة غرب مناطق نفوذ أرغون ومنها غرناطة في منطقة السيطرة الخاصة بمملكة قشتالة[2].

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص290؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص252.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص291؛

O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p240؛ Charles, A History of Spain, p79.

وبعد هذا الاتفاق بدأت غارات القشتاليين تتوالى على بلاد الأندلس، ففي عــام 577ه/1181م خرجت قوة قشتالية من مدينة طليطلة فعاثت في أراضي الأنــدلس خراباً، وعادت لبلادها محملة بالسبي والغنائم، دون أن تجد مقاومة، ثم عادت فــي نفس السنة قوة أخرى وأغارت على مدينة استجة ونواحي قرطبة وانصــرفت دون قتال أو مقاومة ايضاً[1]، غير أن عام 578ه/1182م شهد أكبر حملة قشتالية علــى الأراضي الإسلامية في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف استهدف بها الملك ألفونســو الثامن الاستيلاء على مدينتي قرطبة وإشبيلية.

9.2.2.1.3 حملة الملك ألفونسو الثامن الكبــرى علــى بــلاد الأنــدلس ســنة 578ه/1182م:

بعد أن أزال الملك ألفونسو الثامن الخلاف بينه وبــين جيرانــه مــن الممالــك الاسبانية وخاصة مع أرغون في عام 574ه/1179م، ثم مع ليون بتوقيــع معاهــدة صداقة معها بوساطة ملك انجلترا هنري الثامن سنة 575ه/1180م[2]، وجه اهتمامه نحو غزو البلاد الإسلامية، وقام في البداية بغزوات سريعة ومتتالية علــى مــدينتي قرطبة وإشبيلية تمهيداً للاستيلاء عليها، ثم جــاءت غزوتــه الكبــرى فــي ســنة 578ه/1182م لتحقيق حلمه الذي لطالما راوده في انتزاع هــاتين المــدينتين مــن المسلمين. ففي هذه السنة سار الملك ألفونسو من طليطلــة بقــوات عظيمــة مــن القشتاليين واتجه أولاً نحو قرطبة فكان وصوله إلى نواحيها في الرابع مــن شــهر صفر، وفي الحال أقام معسكره بالقرب منها، ثم بعث بعض سراياه من هناك لشــن الغارات والعيث في جهات مالقة ورندة وغرناطة، فاضطربت أحــوال المســلمين وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، وحاول قادة الموحدين بذل جهودهم فــي ضــبط البلاد وتحصين مدنهم، ومن ذلك أن قائد إشبيلية أبو عبدالله ابن وانودين قــد اهــتم بتعزيز المدينة بالرجال وأرسل في الوقت نفسه بعض عساكره إلى دفع القشــتاليين

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص101-102.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص291.

عن فحص قرمونة وما جاورها من البلاد، وكل ذلك والجيوش القشتالية تغير جيئة وذهاباً على الأراضي الواقعة بين قرطبة وإشبيلية دون أن يتصدى لهم أحد[1].

سعى ألفونسو الثامن إلى أن يكون هجومه شاملاً ومدمراً لجميع نواحي قرطبة وإشبيلية، ومن هنا جاء توجهه بعد ارهاق قرمونة بالحصار، إلى مدينة استجة فلازمها ونقب سورها حتى كاد أن يستولي عليها لولا ثبات واليها أبا محمد بن طاع الله الكومي، ولما كان يوم الخميس الثالث عشر من صفر رفع ألفونسو الحصار عن مدينة استجة وتوجه غرباً صوب إشبيلية وهو يعيث خراباً أينما حل، ويبدو أنه غير خطته في الطريق فتوجه جنوباً نحو مدينة رندة وتمكن من الاستيلاء على أحد حصونها، وأسر فيه ألف وأربعمائة مسلم بين رجل وامرأة، واستولى كذلك على غنائم جمة، ثم قفل عائداً نحو الشمال بعد أن أحرق زروع مدينة رندة[2].

غير أن أخطر ما قام به الملك ألفونسو الثامن في حملته هذه هو استيلاءه على حصن شنتفيلة[3](Santafila) الذي كان من أهم وأمنع حصون المسلمين في المنطقة الواقعة بين قرطبة وإشبيلية، واستولى عليه القشتاليون في 17 صفر سنة 578ه/22 حزيران 1182م، وأسروا فيه سبعمائة مسلم، ففداهم أهل إشبيلية بألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين ديناراً ذهباً[4]، وقد تطلع ألفونسو إلى أن يكون هذا الحصن هو بوابته لدخول قرطبة وإشبيلية، حيث يروى عنه أنه قال يوم استيلاءه عليه " الآن اخذ قرطبة وإشبيلية"[5]، وحرص ألفونسو بعد اخراج المسلمين من الحصن على تقويته بالآلات والعدة، وأسكنه بالنصارى، ثم وضع فيه حامية قشتالية بلغ قوامها ألف وخمسمائة مقاتل بين فارس وراجل، بعد ذلك أقلع ألفونسو بقواته عائداً إلى

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145-146.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص146.

(3): شنتفيلة: حصن بالأندلس يقع بالقرب من قرطبة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص367.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص146.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص146.

بلاده وذلك في 13 ربيع الأول سنة 578ه/ 17 تموز 1182م، بعـد أن اسـتمرت حملته خمسة وأربعين يوماً، قضاها جميعها في تدويخ بلاد المسلمين[1].

ولما تأكد الموحدون من عودة ألفونسو إلى بلاده اجتمعوا لدى السيد أبي اسحاق ابن الخليفة ووالي مدينة إشبيلية وتباحثوا معه في شأن حصن شنتفيلة، فاجتمع رأيهم على تحرير الحصن واخراج من فيه من النصارى، وفي الحال استدعى السيد أبـي اسحاق الحشود والأجناد من سائر الأندلس لهذا الغرض، وحدث في اليـوم الـذي تحركت فيه قوات الموحدين من إشبيلية لاسترداد الحصن، وهو يـوم غـرة ربيـع الآخر من سنة 578ه/1182م، أن خرجت قوة مختارة مـن الفرسـان والرجالـة القشتاليين من حصن شنتفيلة لتغير على بعض المناطق المجاورة، فتصدت لها بعض القوات الإسلامية من حصن قرمونة وخاضوا معهم معركـة سـريعة هـزم فيهـا النصارى وقتلوا منهم سبعين فارساً، وأسروا آخرين استاقوهم إلى السيد أبي اسحاق فأمر بقتلهم وهوفي طريقه لاسترداد الحصن[2].

شجع هذا النصر الموحدون على المضي قدماً نحو حصن شنتفيلة، وما كـادوا يصلون الحصن حتى أحدقوا به من كل جهة، ضاربين عليه حصاراً شديداً، حتـى مات أكثر جند الحامية النصرانية ودوابهم لنقص الأقوات والعلوفات، وبعد حصـار استمر ستة وأربعين يوماً اضطر السيد أبو اسحاق إلى رفع الحصار يوم السـادس من جمادى الأولى لوصول الأخبار بقدوم الملك ألفونسو الثامن في قواته من طليطلة لإنجاد الحصن المحاصر، ولما وصل الملك ألفونسو إلى الحصن بعد أربعة أيام من اقلاع الموحدين لم يجد فيه إلا خمسين فارساً، من أصل خمسمائة، وستمائة راجـل من أصل ألف الذين هم حامية الحصن، وقد هلك الباقون، عندئذ أمر الملك ألفونسو بإخلاء الحصن وعاد بقواته إلى بلاده في 15 جمادى الأولى سنة 578ه/16 أيلول 1182م[3].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص146.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص140.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص147؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص324؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص281.

10.2.2.1.3 **غزو الموحدين لمدينة طلبيرة سنة 578ه/1182م**:

وجد الموحدون بعد حملة ألفونسو الكبرى التي هزت أركان دولتهم في الأندلس، أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، ومن هنا قام أبي عبدالله بن وانودين بالدعوة إلى الجهاد وحشد الأجناد، فاجتمع إليه في إشبيلية عساكر جمة، ثم تحرك بهم في 8 جمادى الآخرة سنة 578ه/9 أيلول 1182م، قاصداً غزو قشتالة، فسلك طريق قرطبة في بادئ الأمر، ثم ارتأى إلى تغيير الطريق حتى لا يكتشف النصارى أمره، فوصل إلى حصن بتة الواقع إلى الشمال من قرطبة، وهناك ميز عساكره وتشاور مع الأشياخ من الموحدين والأندلسيين، فاتفق رأي الجميع على غزو مدينة طلبيرة الواقعة إلى الغرب من طليطلة، وعلى هذا الاتفاق سار الجمع المذكور من حصن بتة فعبروا نهر وادي يانة[(1)] (Guadiana) بعد مسير ثلاثة أيام دون أن يكتشف النصارى خبرهم وقد ساعدهم على ذلك تلبد السماء بالضباب والغيوم، ولما اقتربوا من نواحي طلبيرة التقوا فجأة بسرية نصرانية تتألف من عشرين فارساً، فأحدقوا بهم وأسروهم جميعاً ما عدا دليلهم فقد تمكن من الفرار وأخبر النصارى بذلك، وهذا ما أحبط خطة الموحدين في مفاجأة النصارى، مما حتم عليهم أن يجدّوا في السير حتى وصلوا ظاهر طلبيرة على بعد ميل منها، وهناك على تلة مرتفعة ضربوا خيامهم وأقاموا محلتهم، فارتاع أهل المدينة ودهشوا لاقدام المسلمين على اقتحام بلادهم بهذا الشكل، وقد كانوا منذ سبعين سنة مضت لم يرو مسلماً في تلك النواحي إلا من كان مأسوراً عندهم[(2)].

وسرعان ما ارتفعت نداءات الاستغاثة من طلبيرة إلى الحصون والقلاع المجاورة، فتوافد النصارى إليها في الحال، وخرجوا إلى قتال الموحدين، لكن ما حدث أن الموحدين بعد أن أدركوا صعوبة حصار المدينة، وبعد ما امتلأت أيديهم بالغنائم، أثروا الانسحاب، إلا أن القشتاليين استمروا في تتبع الموحدين مصممين

---

(1): نهر وادي يانة: ويسمى كذلك وادي آنة، وينبع من المنطقة الواقعة غرب جبل شلير ويصب في المحيط الأطلسي، ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه 320 ميلاً. انظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص308؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـ2، ص1113.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص141؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص255.

على قتالهم، حينئذ رأى القائد ابن وانودين ضرورة الدخول في معركة فاصلة مـــع النصارى، وعلى بعد ثمانية أميال من طلبيرة كمن الموحـــدين وراء أحـــد الجبـــال واستعدوا للقتال، فما أن وصلت إليهم جموع النصارى حتى نشبت بـــين الطـــرفين موقعة عنيفة، انهزم فيها النصارى شر هزيمة وولوا الأدبار تاركين خلفهم قـــتلاهم ودوابهم، ويذكر أنه احصي من قتلاهم ما يزيد عن عشرة الآف بين فارس وراجل، ثم عاد الموحدون إلى إشبيلية وقد ملأت أيديهم بالغنائم(1).

وبعث ابن وانودين بخبر هذا النصر إلى الخليفة أبي يعقوب في مراكش ففـــرح به كثيراً، ولكنه أبدى امتعاضة وعدم رضاه عن ابنه السيد أبي اسحاق لعدم اشتراكه في هذه الغزوة التي نسبت إلى ابن وانودين، وعاقب الخليفة كل من تخلف من أجناد الموحدين في إشبيلية عن المشاركة في الغزوة بأن حرمهم من العطاء حتـــى تـــابوا واستغفروا(2).

هذا وقد وردت أخبار هذه الغزوة التي فصل ابن عذاري أحداثها، مختصرة عند ابن خلدون والسلاوي، وعلى نص واحد فقالا " خرج محمد بن يوسف بن وانـــودين من إشبيلية في جموع الموحدين ونازل طلبيرة وبرز إليه أهلها فأوقع بهم وأنصرف بالغنائم"(3).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن غزوة طلبيرة سنة 578ه/1182م، كانت آخـــر اتصال في العلاقات بين الموحدين ومملكة قشتالة خلال فترة دراستنا، فلم نسمع بعد هذه الحملة حتى وفاة الخليفة أبي يعقوب سنة 580ه/1184م عـــن أي غـــزوات أو حروب أو أي اتصال من أي نوع كان بين الطرفين.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص150؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، 462؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـــ2، ص682.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص151.

(3): ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص324؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص281.

3.1.3 **مملكة أرغون** (Aragon):

1.3.1.3 **نشأة المملكة وتطورها حتى سنة 580ه/1184م**:

قامت مملكة أرغون في الجهة الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الايبرية، في شريط ضيق من الأرض جنوب جبال البرت (البرانس)، وسميت بهذا الإسم نسبة إلى الوادي الذي أخذ اسمه من السيل الذي يجتازه وهو الآرغون(1).

وكانت أرغون حتى عام 426ه/1035م مجرد كونتية تتبع في حكمها إلى مملكة نبرّة(2)، لكن حدث في هذه السنة أن استقل راميرو (ردمير) بن شانجه الكبير بحكم أرغون عن مملكة نبرّة، تنفيذاً لوصية أبيه الذي قام بتقسم المملكة التي ضمت جميع الممالك الاسبانية باستثناء برشلونة، بين أبنائه الأربعة (غرسيه، فرناندو، راميرو، فرنان غنصاليص)، فكان نصيب راميرو وهو الابن غير الشرعي منطقة أرغون، فتولى حكمها باسم " ملك أرغون "(3)، واتخذ من مدينة جاقة(4)(Jaca) في جبال البرنية عاصمة له(5)، ومن نسل راميرو هذا الذي يعتبر هو المؤسس الحقيقي للمملكة جاء ملوك أرغون(6).

وحدث أن قتل الأخ الأصغر فرنان غونصاليص سنة 429ه/1038م على يد أحد أتباعه أثناء عودته من الصيد، فضم راميرو حكم ولاية أخيه وهي " سوبرأبي "

---

(1): الحميري، الروض المعطار، ص29؛ حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ1، ص433؛ لانجر، وليم: موسوعة تاريخ العالم، 3 أجزاء، ترجمة: محمد مصطفى زياده، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1959، جـ2، ص649. سيشار إليه فيما بعد: لانجر، موسوعة تاريخ العالم.

(2): لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ2، ص649.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص9؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص161.

(4): جاقة: من بلاد سرقسطة، بينها وبين طليلطة تسع مراحل، وهي اليوم مركز ناحية سوبراربي، وفيها من السكان نحو 5000 نسمة. انظر: أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص72.

(5): حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ1، ص433.

(6): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 328-329.

الواقعة في أواسط البرنية إلى مملكته بموافقة شعبها، وبذلك توحدت أرغون وسوبرأبي في مملكة واحدة مما زاد من قوتها[1].

ثم دخل راميرو في حالة حرب ونزاعات طويلة مع إخوته، لم تنتهي إلا بوفاته سنة 455ه/1063م، فخلفه ابنه شانجه الثاني (Sancho II)(455-487ه/1063-1094م) وفي عهده توسعت المملكة على حساب مملكة نبرّة، حتى غدت من أقوى الممالك النصرانية، وبعد وفاة شانجه ورثه ابنه بيدرو الأول (Bedro I)(487-498ه/1094-1105م) الذي توفي دون أن يترك عقب[2]، فخلفه أخوه ألفونسو ابن شانجه الملقب بالمحارب Alfonso Sancho))(498-529ه/1105-1134م) وقد أمضى ألفونسو هذا معظم فترة حكمه في محاربة المسلمين، ومن هنا جاءت تسميته بالمحارب، وتمكن من انتزاع العديد من المدن الإسلامية ولعل أهمها مدينة سرقسطة (Zaragoza)[3] التي استولى عليها سنة 512ه/1118م، ونقل العاصمة إليها[4]. ثم حاول الاستيلاء على مدينة افراغة، وخاض تحت أسوارها سنة 529ه/1134م معركة عنيفة مع المرابطين انتهت بهزيمته، ولم يلبث أن توفي بعد ذلك بفترة قصيرة[5].

ولما توفي ألفونسو المحارب دون أن يترك وريثاً، اختار الأرغونيون لعرش مملكتهم أخاه راميرو الثاني (Ramiro II)(529-531ه/1134-1137م)، وكان راميرو هذا في الأصل راهباً إلا أنه خرج عن عزلة الرهبنة من سنوات سابقة

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص11؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص161.

(2): العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص162-163.

(3): سرقسطة:تقع في شمال شرق الأندلس على الضفة اليمنى من نهر ابرة، وهي قاعدة من قواعد الأندلس تتصل أعمالها بأعمال مدين تطيلة، وتبعد عن قرطبة مسير عشرة أيام. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص317؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص212-213.

(4): ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص112؛ لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ2، ص649-651؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص258.

(5): ابن القطان، نظم الجمان، ص245-248؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص287؛ الحميري، الروض المعطار، ص48-49.

قليلة، وهنا لم يطيب للنبرّيين أن يحكمهم راهباً، وقد كانوا في السابق شعباً مســتقلاً فاعلنوا انفصالهم عن مملكة أرغون في عام 529ﻫ/1134م[1].

وفي سنة 531ﻫ/1137م أعلن راميرو عن رغبته في العودة إلى حياة الرهبنة، وتنازل عن حكم المملكة إلى كونت برشلونة ريموند برنجيــر الرابــع (Ramon Brengare IV) (525-557ﻫ/1131-1162م)، زوج ابنته الوحيــدة بتــرونيلا (Betronilla) وبذلك اتحدت أرغون وبرشلونة منذ هذا الوقت في مملكة واحدة[2].

تميز عهد ريموند برنجير بالاستقرار لتوقيعه عدد من الاتفاقيات والمعاهدات مع الممالك الاسبانية المجاورة، واقامة علاقات طيبة مع المدن الايطالية، كما انه تمكن من توسيع حدود مملكته على حساب البلاد الإسلامية، فقد اســتولى علـــى مدينـــة طرطوشة سنة 543ﻫ/1149م، ثم على مدينة لاردة(Lerida)[3] في السنة التالية[4].

وبعد وفاة ريموند برنجير سنة 557ﻫ/1162م خلفــه ابنـــه ألفونســو الثـــاني (Alfonso II)، ولما كان ألفونسو لم يجاوز العاشرة من عمره، فقد عهد إلـــى أمـــه بترونيلا بالوصاية عليه وأن تتولى حكم المملكة حتى يبلغ السن القانونيـــة لتـــولي الحكم[5].

وما هي إلا سنتين حتى تنازلت بترونيلا عن الحكم إلى ابنها ألفونسو الثـــاني، ليصبح ملكاً على مملكة أرغون الكبرى التي ضمت بالاضافة إلى كونتية برشـــلونة

---

(1): لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جــ2، ص651؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص174.

(2): العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص166-167؛ سمور، العلاقات الحربية، ص99.

(3): لاردة: مدينة قديمة بالأندلس، تقع شرقي مدينة وشقة. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص507.

(4): عنان، الآثار الأندلسية، ص114،120؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص232؛ Charles, A History of Spain, p78

(5): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص261؛ Charles, A History of Spain, p79

ومملكة أرغون ولايات فرنسا الجنوبية وهـــي بروفـــانس (Provence) وبيزيـــه (Bezie) وقرقشونة (Carcassonne)[1].

وكانت المحافظة على أملاك أرغون الواقعة جنوب فرنسا، قد استغرقت معظـــم جهود وقوى الملك ألفونسو الثاني حتى سنة 563ه/1168م، ثم وجه أنظـــاره إلـــى جيرانه في اسبانيا، فوجد أن صالحه يقضي التحالف مع قشتالة لكي يستطيع محاربة المسلمين من جهة، ومملكة نبرّة التي كانت تشاطره العداء من جهة أخرى، فتوصل إلى عقد معاهدة تحالف وصداقة معها سنة 566ه/1170م، أســفرت عــن الحملــة المشتركة من قبل الملكين على مدينة قونكة سنة 572ه/1177م[2].

ثم تطورت العلاقات بين أرغون وقشتالة بإزالة جميع أسباب الخــلاف وســوء التفاهم حول أماكن السيطرة والنفوذ في بلاد الأندلس بتوقيع معاهدة كــازولا ســنة 575ه/1177م[3].

2.3.1.3 **تطور العلاقات بين الموحدين ومملكة أرغون:**

1.2.3.1.3 **موقف مملكة أرغون من ثورة ابن مردنيش:**

امتازت سياسة ابن مردنيش منذ أن أعلن استقلاله ببلاد شرق الأنــدلس ســنة 542ه/1147م، باقامة علاقات صداقة وتحالف مع الممالك الاسبانية، وكانت مملكة أرغون أول مملكة يطلب ودها، فسالمه الملك ريموند برنجير الرابــع منــذ الســنة الأولى لإمارته وتعهد بحمايته ومساعدته في مواجهة الموحدين مقابل إتاوة يــدفعها

---

(1): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p236 ؛ Charles, A History of Spain, p79.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص276، 288-289؛ O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p236, 239.

(3): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص324؛ سمور، العلاقات الحربية، ص101.

لمملكة أرغون قدرها مائة ألف مثقال لمدة أربع سنوات[1]، ثم بعد انقضاء الأربعة أعوام جددت المعاهدة مقابل تخفيض الإتاوة إلى خمسين ألف مثقال[2].

ظلت العلاقات الطيبة بين ابن مردنيش والملك ريموند برنجير حتى سنة 552ه/1157م، حيث شابتها بعض الخلالفات في هذه السنة دفعت بهما إلى القطيعة وإلغاء معاهدة الصلح، واستمرت القطيعة بينهما عامين، إلى أن حاول ابن مردنيش في سنة 554ه/1159م استغلال توجه الموحدين للاستلاء على مدينة المهدية من النورمان، فتوجه للسيطرة على مدينتي قرطبة وإشبيلية من الموحدين، ولتنفيذ مشروعه هذا سعى إلى الاستفادة من مساعدة مملكة أرغون، فأعلن للملك ريموند برنجير عن رغبته في إحياء معاهدة الصلح بينهما مقابل التنازل عن أراضي جديدة والتزامه بدفع جزية سنوية ثابتة له[3].

بيد أن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين ابن مردنيش ومملكة أرغون أثر وفاة الملك ريموند سنة 557ه/1162م، فقد توقف ابن مردنيش عن دفع الإتاوة إلى الملك ألفونسو الثاني الذي خلف والده ريموند في حكم أرغون، وهذا ما دفع الملك ألفونسو الثاني إلى عون الموحدين في حربهم ضد ابن مردنيش. وتتضارب الروايات حول مدى التعاون الذي ظهر بين الموحدين والملك ألفونسو الثاني ضد ابن مردنيش، فالرواية النصرانية تشير إلى أن الملك ألفونسو بعث بعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين في معركة فحص الجلاب سنة 560ه/1165م، وأنه مات في هذه المعركة أحد القادة القطلان يدعى (Guillen Despugonlo) إلى جانب عدد من الفرسان[4].

---

(1): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 260.

(2): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص233؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ2، ص124.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص317-319؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص131-132؛ مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مجلدان، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت 1992م، مج2، جـ1، ص100-101. سيشار إليه فيما بعد: مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته.

(4): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص132.

في حين تشير الرواية الإسلامية إلى مشاركة مملكة أرغون إلى جانب ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب، وتجعل عدد القوات القطلونية في صف ابن مردنيش زهاء ثمانية الآف فارس من أصل ثلاثة عشر ألفاً مجموع قوات النصارى معه[1].

وإذا ما اردنا الترجيح بين هذه الروايات، نجد أن الفترة التي حدثت فيها معركة فحص الجلاب كانت تشهد في الحقيقة اضطراب في العلاقات بين مملكة أرغون وابن مردنيش من جهة، وبين أرغون ومملكة قشتالة الحليف الأقوى لابن مردنيش من جهة أخرى، إلا أن الخلاف وخاصة بين قشتالة وأرغون لا يمنع أن تقاتل المملكتان جنباً إلى جنب إذا كانت المعركة ضد المسلمين، وهذا ما يجعلنا أن نميل إلى ترجيح الرواية الإسلامية، مع الأخذ بعين الأعتبار توتر العلاقة بين ابن مردنيش والملك ألفونسو الثاني في هذه الأثناء لرفض ابن مردنيش دفع الجزية التي كان يدفعها لوالد الملك ألفونسو، ويظهر أن إرسال الملك ألفونسو بعض القوات للقتال في صف الموحدين ضد ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب إن صح ذلك، ماهي إلا تهديد من الملك ألفونسو إلى ابن مردنيش للالتزام بدفع الإتاوة، وهذا ما نتج عنه حدوث بعض التقارب بين الموحدين ومملكة أرغون.

ثم قد تكون القوات التي ذهبت من أرغون للاشتراك في صف الموحدين في فحص الجلاب، هي في الأصل خارجة عن سلطة الملك ألفونسو الثاني، حيث يذكر أشباخ أن هناك زعيم محلي ظهر في هذه الأثناء يدعى " بيدرو رويث دي اساجرا " وهو نبرّي الأصل، استقر في الأراضي الأرغونية وكان يقاتل احياناً إلى جانب المسلمين واحياناً أخرى إلى جانب أرغون، حتى أنه استقل في نهاية الأمر بحكم مدينة شنتمرية الشرق على الحدود مع المسلمين[2]، فلربما أن تكون القوات الأرغونية التي قاتلت إلى جانب الموحدين في فحص الجلاب هي من قبله، وهذا ما نلاحظه من حجم القوات التي اشارت إليها الروايات، فالذين قاتلوا إلى جانب

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص280؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص105.
(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص292-293.

المسلمين كانوا عبارة عن بعض الضباط والجند، في حين كان عدد المشاركين إلى جانب ابن مردنيش كبيراً وصل إلى ثمانية الآف.

ويبدو أن مملكة قشتالة قد سعت منذ توقيعها معاهدة الصلح مع مملكة أرغـــون سنة 566هـ/1170م إلى تلطيف الأجواء بين الملك ألفونسو الثاني وابن مـــردنيش، وهنا تشير الرواية النصرانية مرة أخرى إلى أن الملك ألفونسو الثاني شكا إلى الملك القشتالي ألفونسو الثامن امتناع ابن مردنيش عن دفع الأتاوة التي التزم بها منذ سنة 557هـ/1162م[1]، والتي حددت في ذلك الوقت بمقدار 25 ألف دينار مرابطي فـــي السنة، فتعهد الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة أن يلزم ابن مردنيش بالوفاء بما كان قد تعهد به من إتاوة لأرغون، وفي مقابل ذلك تعهد ألفونسو الثاني ملك أرغون بعدم تقديم أي مساعدة للموحدين في حربهم ضد ابن مردنيش[2].

غير أن واقع الأحداث تشير إلى عدم التزام الأثنين ابن مردنيش والملك ألفونسو الثاني بما تعهدا به إلى ملك قشتالة، ويظهر ذلك جلياً في انتهاز الملك ألفونسو الثاني فرصة محاصرة الموحدين لابن مردنيش في مدينـــة مرســـية ســـنة 567هـ/1172م وقيامه بغزو أراضي بلنسية والاستيلاء على عدد من المواقع والحصون المتاخمـــة لحدود مملكته، ثم ارساله حملة برية وبحرية لغزو بلنسية نفسها، وبالرغم مما أبداه واليها أبي الحجاج يوسف بن مردنيش من مقاومة عنيفة، لكن مع ذلك لم يستطيع فك الحصار الذي فرضه الأرغونيون على المدينة إلا بعد أن تعهد بدفع جزية مضاعفة مقدماً لمملكة أرغون[3].

وبذلك نلاحظ أن التقارب والتعاون بين الموحدين ومملكة أرغـــون ضـــد ابـــن مردنيش كان غير مباشراً، وأن كلا الطرفين استغلا الظروف لمـــا فيـــه مصـــلحة بلديهما أولاً واخيراً.

---

(1): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص132.

(2): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص233.

(3): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص136.

2.2.3.1.3 حملة الخليفة أبو يعقـوب علـى أراضـي مملكـة أرغـون سـنة 569هـ/1174م:

بوفاة ابن مردنيش سنة 567هـ/1172م دانت جميع بلاد شرق الأندلس إلى حكم الموحدين، وهذا ما جعلهم واقفين وجهاً لوجه مع مملكة أرغون، لـذا كـان لا بـد للخليفة أبي يعقوب من القيام بعمل عسكري يثبت من خلاله سلطان الموحدين علـى تلك الجهات، خاصة بعد تكثيف مملكة أرغون لغاراتها على جهات بلنسية منذ أواخر عهد ابن مردنيش، ومن هنا جاء خروج الخليفة علـى رأس حملـة مـن الأجنـاد الموحدين والعرب والأندلسيين في سنة 569هـ/1174م، فتوغـل فـي الأراضـي الأرغونية يعيث بها خراباً من قطع للأشجار وحرق وهدم للحصون والآثار، ثم قفل عائداً إلى مدينة إشبيلية وقد امتلأت يديه بالسبي والغنائم دون أن يجد أي مقاومة[1].

3.2.3.1.3 اشتراك مملكة أرغون في حصار مدينة قونكة سنة 572هـ/1177م:

قضت معاهدة الصداقة والتحالف التي وقعت بين مملكة أرغون وقشـتالة سـنة 566هـ/1170م على جميع أسباب الخلاف والتنافس بين المملكتين، وجعلت الملـك ألفونسو الثاني يظهر كأقوى حليف لمملكة قشتالة سواء في حروبها مع مملكتي ليون ونبرة، أو في حربها مع المسلمين، ولتعزيز أواصل العلاقات بين المملكتـين عمـد ألفونسو الثامن ملك قشتالة بعد توقيعه لمعاهدة الصداقة مع أرغون إلى التنازل عـن حق الجزية على مدينة سرقسطة وغيرها من الأراضي الأرغونية التي كانـت قـد منحت إياها في وقت سابق، وقد دفعت قشتالة بهذا التنازل ثمن معاونة أرغون لهـا في حملتها على قونكة[2].

وبهذا يظهر أن مشاركة الملك ألفونسو الثاني إلى جانب مملكة قشتالة في حصار قونكة لم يأت من باب الصدفة، وانما باتفاق مسبق مع ملك قشتاله ألفونسو الثـامن وقد قبض ألفونسو الثاني ثمن تلك المشاركة سلفاً، وتمثلت المشاركة الأرغونية فـي الاستيلاء على مدينة قونكة في ناحيتين، أولاهما خروج الملك ألفونسو الثاني بنفسه

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص290.

على رأس قوات أرغونية ومشاركته في ضرب الحصار على المدينة حتى سقوطها بعد تسعة أشهر[1]، والناحية الأخرى تصدي قوات الملك ألفونسو الثـاني للقـوات الموحدية التي قدمت من إشبيلية لفك الحصار عن المدينة، وخوضها معهـا موقعـة شديدة في الجبال الواقعة جنوب قونكة، أسفرت عـن هزيمـة القـوات الإسـلامية وانسحابها مما كان لذلك عظيم الأثر في سقوط المدينة بيد القشتاليين[2].

4.2.3.1.3 **تبادل الغزو بين الموحدين ومملكة أرغـون** (573-580هـ/1177-1184م):

شجع سقوط مدينة قونكة سنة 573هـ/1177م بيد القشتاليين، مملكة أرغون على توسيع حدودها جنوباً على حساب البلاد الإسلامية، فقد قام الملك ألفونسو الثاني بعد فترة قصيرة من سقوط قونكة بغزو شرق الأندلس، لكن دون تحقيق نتائج حاسمة[3].

ثم اضطر الملك ألفونسو في سنة 574هـ/1178م السير إلى جنوب فرنسا لكـي يوطد حكمه على أملاكه الفرنسية التي آلت إليه هناك بـالميراث، ومنهـا ولايـة روسيون وبيزيه وما يتبعها من أراضي، فهدأت بذلك هذه السنة جبهة شرق الأندلس وانكفى الموحدين بالانشغال في جهاد البرتغاليين على جبهة الغرب[4].

غير أن سنة 575هـ/1179م شهدت تطور جديد على صعيد العلاقات الموحدية الأرغونية، حيث اتحدت في هذه السنة مملكتي أرغون وقشتالة بتوقيعهمـا معاهـدة كازولا التي حددت أماكن السيطرة لكل من المملكتين على بلاد الأندلس، فقد منحت مملكة أرغون حق غزو مدينة بلنسية وسائر الأراضي القريبة منها، في حين منحت قشتالة حق السيطرة على بقية البلاد الاسلامية في جنوب شبه الجزيـرة الأيبريـة،

---

(1): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص132.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص321؛

O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p239.

(3): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص324.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص290-291.

ووفقاً لهذه المعاهدة قام الملك ألفونسو الثامن في نفس العام بتوجيه حملة للاســتيلاء على مدينة بلنسية لكنه فشل لحصانتها ومناعتها[1].

استمرت بعد ذلك الغزوات المتبادلة بين الموحدين ومملكة أرغــون كــل عــام تقريباً، تراوح النصر سجالاً فيها بين الفريقين حتى عــام 579هـ/1183م، دون أن تسفر عن نتائج حاسمة، أو حوادث ذات أهمية[2]. وفي نهاية هذه الفتــرة اتخــذت الحرب بين الطرفين وجهة أخرى، وامتدت إلى مناطق جديــدة للقتــال، وذلــك أن الموحدين جهزوا أساطيل حربية لا بأس بها من القوة، وأخــذوا بغــزو الســواحل الأرغونية، فنشبت جراء ذلك عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلــونيين علــى مقربة من سواحل برشلونة وطرطوشة، أحرز فيها الأسطول الموحدي كثيــراً مــن ضروب التفوق[3].

4.1.3 **مملكة البرتغال** (Portugal):

1.4.1.3 **نشأة المملكة وتطورها حتى سنة 580هـ/1184م**:

مملكة البرتغال أو البرتقال كما تسميها الرواية الإسلامية[4]، هي الأخرى مــن الممالك الاسبانية الرئيسية التي قامت في شبه الجزيرة الايبرية في الجانب الغربــي منها، وكانت تضم خلال فترة دراستنا المنطقة الواقعة ما بين مصب نهــر دويــرة شمالاً، وما وراء مصب نهر التاجة جنوباً[5]، باسطة سيطرتها على العديد من المدن

---

(1): سمور، العلاقات الحربية، ص101؛
O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p240.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص321.

(3): العبادي، أحمد مختار؛ سالم، عبد العزيز: تاريخ البحرية الإسلامية، جزءان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (د. ت)، جــ2، ص263-264. سيشار إليه فيما بعد: العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، جــ2، ص247.

(4): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 331.

(5): القلقشندي، صبح الأعشى، جــ5، ص270؛ الشطشاط، علي حسين: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء لطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2001م، ص61. سيشار إليه فيما بعد: الشطشاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص236.

التي لعل أهمها مدينة قلمرية(Coimbra)[1] التي اتخذت عاصمة للمملكة، ومن ثـــم فقد جرى المسلمون على تسمية ملك البرتغال ب " صاحب قلمرية "[2]، وهناك ايضاً مدينة أشبونة وشنترين وشنترة(Cintra)[3] وغيرها[4].

وتعتبر مملكة البرتغال من أحدث الممالك الاسبانية من حيث النشأة، غير أنها لم تلبث طويلاً حتى غدت من أقواها، وقد كانت قبل استقلالها عبارة عن كونتية تتبـــع مملكة قشتالة، لكن الظروف التي تلت استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة، علـــى طليطلة سنة 478ه/1085م، وهزيمة الجيوش الاسبانية المتحدة أمام المرابطين في معركة الزلاقة سنة 479ه/1086م، هي التي عجلت في انسلاخها عن مملكة قشتالة، فبعد هزيمة الزلاقة عبر إلى اسبانيا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين لإنجاد اخوانهم في الدين استجابة لصريخ ألفونسو السادس، وكان من بين هؤلاء الوافدين الفرنسيين الكونت هنري دي لورين، الذي ينتمي إلى أحد فروع أسرة آل كابية ملوك فرنســـا، ونظراً للخدمات الجليلة التي قدمها إلى الملك ألفونسو في حروبه ضـــد المســـلمين، كافئه الملك ألفونسو بأن زوجه من ابنته غير الشرعية " تريزا " (Teresa)، ومـــن ثم منحه حكم كونتية البرتغال وذلك سنة 487ه/1094م علـــى أن يتـــولى إدارتهـــا باعتبارها تابعة لمملكة قشتالة لا مستقلة عنها، تؤدي الجزية إليها وتشـــاركها فـــي

---

(1): قلمرية: وردت عند البكري وابن الآبار " قلنبرية "، وهي مدينة تقع في البرتغال،أنشئت على جبل مستدير على ضفة نهر منديق، بينها وبين قورية أربة أيام. انظر: البكري، جغرافية الأندلس، ص63؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص200؛ الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص183.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص152؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص200؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جــ1، ص522؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص105؛ الحميري، الروض المعطار، ص342.

(3): شنترة: مدينة صغيرة تقع غربي لشبونة على ساحل المحيط الأطلسي، تتميز بضبابها الدائم وتفاحها العجيب. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص347؛ القزويني، آثار البلاد، ص547.

(4): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص38؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص239.

حروبها ضد المسلمين[1]، وعلى هذا الشكل انفصلت البرتغال عن قشـــتالة، وبـــذلك نستطيع القول بأن هنري دي لورين هو المؤسس الأول لمملكة البرتغال.

لم ينجب الكونت هنري من زوجته تريزا إلا ابناً واحداً عرف باســم ألفونســو هنريكيز، وقد كان في الثالثة من العمــر عنــدما حضــرت والــده الوفــاة ســنة 506هـ/1112م، فتولت أمه تريزا الحكم بصفتها وصية عليه إلى أن كبــر واســتلم السلطة عام 522هـ/1128م، ومن نسله جاء ملوك البرتغال[2].

باشر ألفونسو هنريكز سلطاته بنقض اتفاقية السيطرة القشتالية، فبدأت جراء ذلك الاضطرابات بين البرتغال ومملكة قشتالة، خاضت خلالهــا سلســلة طويلــة مــن الحروب انتهت بعقد معاهدة (زامــورة) بــين الطــريفين بوســاطة البابــا ســنة 538هـ/1143م، وفيها اعترفت قشتالة باستقلال البرتغال، واعترفت البرتغال بسيادة البابا، وهذا ما شجع ألفونسو هنريكيز على أن يتخذ لنفسه لقب ملك البرتغال، فعقــد لهذه الغاية وفي نفس السنة مجلساً قومياً (الكــورتيس)[3] فــي مدينــة لاميجــو[4] (Lamego)، حضره ممثلين عن مختلف أطياف الشعب، ووافق هــذا المجلــس أن يتخذ ألفونسو لقب ملك[5].

وكبقية ملوك اسبانيا استغل ألفونسو هنريكيز ضعف المسلمين في الأندلس مــع نهاية حكم المرابطين ومستهل عصر الموحدين، فأخذ يعمل علــى توســيع رقعــة مملكته على حساب جيرانه المسلمين بضم الأراضي الواقعة جنوبهــا فــي ولايــة

---

(1): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص9-10؛ لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جــ2، ص653؛ بشتاوي، عادل سعيد: الأندلسيون المواركة، ط1، مطابع انترناشيونال برس، القاهرة 1983م، ص51. سيشار إليه فيما بعد: بشتاوي، الأندلسيون المواركة.

(2): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 331؛ لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جــ2، ص653؛ أبا الخيل، جهود علماء الأندلس، ص321-322.

(3): الكورتيس (Cortes): يقصد به هنا البرلمان. انظر: أشباخ، تاريخ الأندلس، ص248.

(4) : لاميجو: هي بلدة صغيرة تقع في شمال البرتغال على نهر دويرة. انظر: ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص75-76؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص248.

(5): العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص242؛ لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جــ2، ص653.

الغرب، فقد استطاع عام 542هـ/1147م التغلب علـــى مدينـــة لشـــبونة (أشـــبونة) واخراجها نهائياً من يد المسلمين بمعاونة طائفة من الصليبيين الإنجليز والهولنـــديين والألمان المتجهين إلى الشرق[1]، واتخذها عاصمة له منذ ذلك التاريخ، ثم اســـتولى على مدينتي شنترة وشنترين في نفس العام، واستولى ســـنة 555هـ/1160م علـــى قصر أبي دانس (قصر الفتح)[2].

ويعد ألفونسو هنريكيز المؤسس الحقيقي لمملكة البرتغال، فقد ارتقى بالبرتغـــال من إمارة إلى مملكة مستقلة منهياً تسلط مملكتي قشتالة وليون عليها، ونظراً للجهود الكبيرة التي بذلها ألفونسو في الحرب ضد المسلمين وبخاصة في استرداد العديد من المدن والقلاع، أصدر البابا اسكندر الثاني في عـــام 574هـ/1179م قـــراراً بابويـــاً يعترف باستقلال مملكة البرتغال ويغدق بلقب ملك على ألفونسو هنريكيز[3].

وبعد حياة حافلة بالإنجازات توفي ألفونسو هنريكيز سنة 580هـ/6 كـــانون أول 1185م، تاركاً لابنه سانشـــو الأول (Sancho I)(580-608هـ/ 1185-1211م)، مملكة تمتد حدودها من نهر مينو[4](Mino) شمالاً إلى ماء وراء نهر التاجة جنوباً، بعد أن كانت عند قيامها في بداية عهده سوى الرقعة الممتدة ما بين نهـــري مينـــو ومنديجو في شمال غرب شبه الجزيرة الايبرية[5].

---

(1): مؤنس، حسين: رحلة الأندلس حديث الفردوس الموعود، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة 1985م، 321. سيشار إليه فيما بعد: مؤنس، رحلة الأندلس؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص283.

(2): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص272-273؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص424-425؛ بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص63-64؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، 461.

(3): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p241.

(4): نهر مينو: يلفظ أيضاً مينهو، وهو آخر نهر في الطرف الشمالي الغربي من الأندلس، ينبع من بحيرة فونمينيا ويصب في المحيط الأطلسي. انظر: حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، جـــ2، ص1104.

(5): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص461؛

O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p241.

وهنا نستطيع القول إذا كانت شرق الأندلس هي ميدان النشاط الكبير للجهاد زمن المرابطين، فإن غرب الأندلس وخاصة في عهد الخليفة أبي يعقـوب يوسـف قـد استحوذت على جل نشاط الموحدين في الأندلس حتى أن الخليفة نفسه سقط شـهيداً على هذه الأرض أثناء محاولته استعادة مدينة شنترين سنة 580ه/1184م.

2.4.1.3 تطور العلاقة بين الموحدين ومملكة البرتغـال (558-580ه/1163-1184م):

1.2.4.1.3 حملة العلج جراندة الجليقي علـى قواعـد غـرب الأنـدلس 560-561ه/1165-1166م):

جراندة الجليقي كما يعرف بالرواية الإسلامية[(1)]، والباسل خيرالـدو سـيمبافور (Geraldo Sempavor) كما يعرف بالرواية النصرانية[(2)]، هو مغـامر برتغـالي اختلف في أصله ما إذا كان من أصل برتغالي أم من الفرسـان الصـليبيين الـذين استقروا في البرتغال، غير أن ابن صاحب الصلاة وعنه يأخذ ابن عذاري ينسـبانه إلى جليقية[(3)]، لأن البرتغال حتى تاريخ رواية ابن صاحب الصلاة وهي سنة 560ه /1165م كانت تابعة إلى جليقية ولم تظهر صورتها للمسلمين كمملكة مستقلة بعد.

وأياً كان أصله، عرف عن جرانده في بداية أمره أنه كان قاطع طريق يـرأس عصابة من المسيحيين الذين دأبوا على نهب المدن والقرى الإسلامية، يغيـر علـى

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص372؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص104. يكتفي البيذق عند الحديث عنه بذكر اسمه " جرنده " بدون ألف بعد الراء، وبدون نسبته إلى جليقية. انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص89.

(2): الحجي، التاريخ الأندلسي، ص461؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص175؛ مؤنس، حسين: السيد الكمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية المصرية، المجلد (3)، العدد (1)، مايو 1950م، ص37. سيشار إليه فيما بعد: مؤنس، السيد الكمبيطور.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص372؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص104.

المسلمين ويفاجئهم في مدنهم ومحلاتهم ثم يبيع ما يستولي عليه من أراضيهم إلـى ملوك النصارى كونه كان يعمل لحسابه الخاص. وقد انحصر نشاطه ومجال غارته على بلاد غرب الأندلس وخاصة على الأراضي الواقعة ما بين نهري التاجة ووادي يانة، غير أن الملك ألفونسو هنريكيز تنبه إلى قدراته وشدة نكايته بالمسلمين، فرغب الاستفادة منه فالحقه بخدمته وأخذ يمده بالمال والرجـال، ويحرضـه علـى قتـال المسلمين[1]، وفي ذلك يقول ابن عذاري: "كان هذا الكلب جرانده صـاحب جـرأة، فلما عاين ابن الرنك نجدته وتيقظه لغدر البلاد والحصون أعانه على ذلك برجالـه، وسلطه على المسلمين "[2].

ويلخص لنا ابن صاحب الصلاة أساليب العلج جراندة وعصابته في غزو المدن والقلاع الإسلامية والاستيلاء عليها، فيقول أن هذا المغامر كان يتخير أشـد الأيـام برودة وظلاماً لينفذ فيها خططه العسكرية القائمة على الغدر والخيانة والتسلل فـي الخفاء، فكان يعد آلات من السلالم المتخذة من العيدان الطويلة لتساعدة على تسـلق وإرتقاء أعلى الأسوار، فإذا نام السامر[3] المسلم في برج المدينة، ألقى تلك السـلالم إلى جانب البرج، ورقي عليها بنفسه أولاً وقبض على السامر، أما رجاله فـإذا مـا تمكنوا من إرتقاء السور إلى ذروته، نزلوا إلى باب المدينـة وهـاجموا حاميتهـا، وفتحوا الباب لجند البرتغاليين الذين كانوا بمجرد أن يفتح لهم الباب يصيحون بلغتهم البرتغالية صيحات قوية مخيفة، فيدخلوا المدينة ويعيثوا فيها فساداً ونهباً وقتلاً[4].

وأول ما توجه جرانده بغاراته بعد أن التحق في خدمة الملك ألفونسو هنريكيز، إلى مدينة ترجالة الواقعة شمال مدينة ماردة، جنوب نهر التاجة، واستولى عليها في

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص89؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص102.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص104.

(3): السامر: الحارس.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص373؛ سالم، سحر السيد عبد العزيز: تاريخ بطليوس الإسلامية، أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، جزءان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (د. ت)، جـ2، ص199. سيشار إليه فيما بعد: سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية.

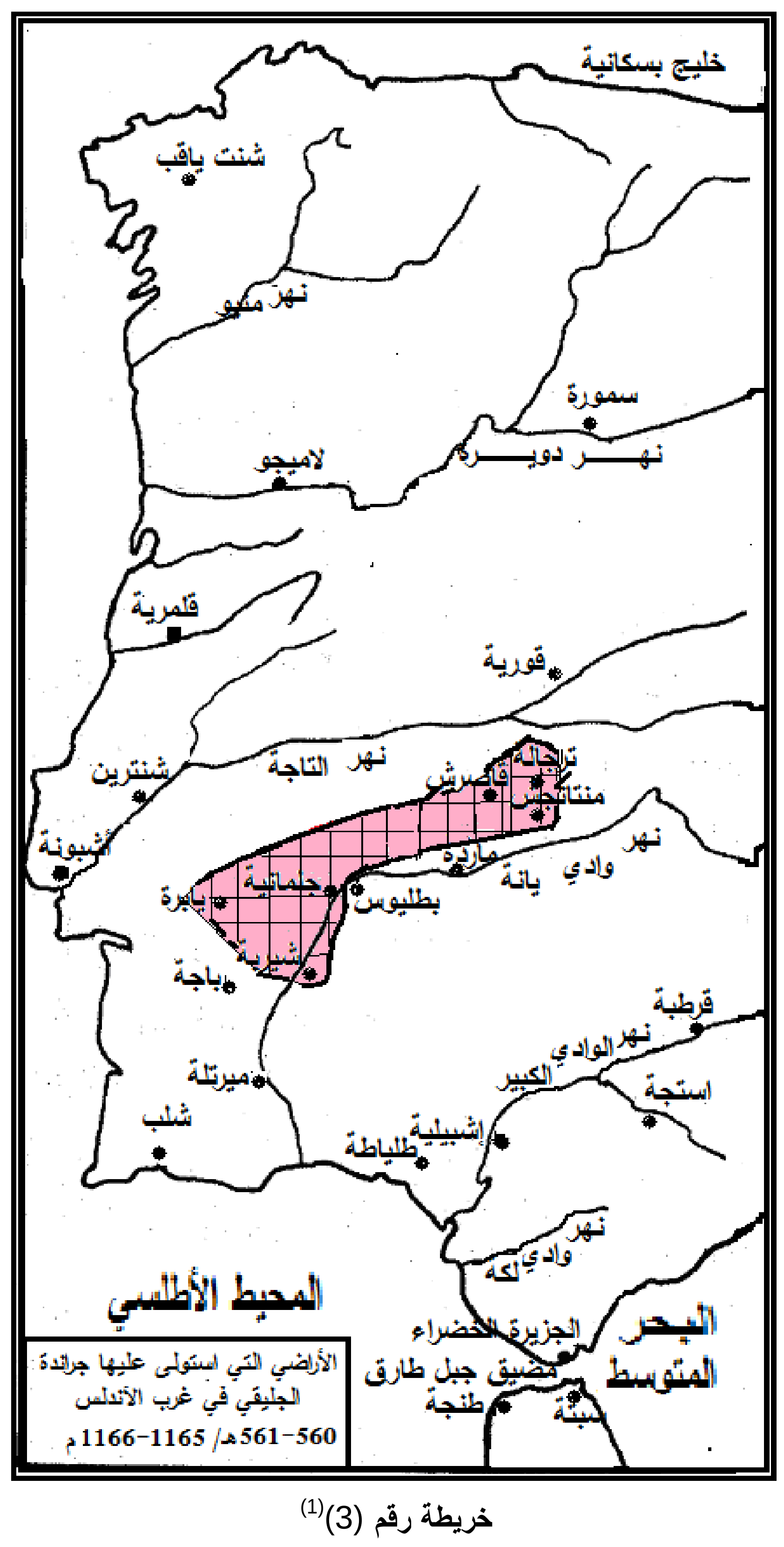
شهر جمادى الآخرة سنة 560ه/ أيار 1165م[1]، ثم توجه إلى مدينة يابرة الواقعة غرب بطليوس، وباغت أهلها باقتحامها في جماعة كبيرة من المتطوعين النصارى والمستعمرين والمغامرين في شهر ذي القعدة / أيلول من نفس السنة[2]، ثم عاد بقواته شمالاً يعيث قتلاً وخراباً فاستولى على مدينة قاصرش في صفر سنة 561ه/ كانون أول 1165م، ويبدو أن هذه الفتوحات قد الهبت حماس جرانده، فتمادى في غاراته مستغلاً انشغال الموحدين في قتال ابن مردنيش في شرق الأندلس، فتوجه من حينه إلى حصن منتانجش الواقع جنوب مدينة قاصرش واستولى عليه في جمادى الأولى من عام 561ه/1166م، ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على حصني شيربة وجلمانية الواقعين على نهر وادي يانة جنوبي بطليوس (انظر الخريطة رقم 3)، وهنا ركن إلى الراحة، متخذاً من حصن جلمانية قاعدة لجنده، ومنه أخذ يشن الغارات على مدينة بطليوس ويضيق عليها الخناق تمهيداً للاستيلاء عليها[3].

---

(1): ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص22؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص27؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص269.

(2): ابن سعيد: رايات المبرزين وغايات المميزين، ط1، تحقيق: محمد رضوان الداية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1987م، ص58. سيشار إليه فيما بعد: ابن سعيد، رايات المبرزين؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص104.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص373-374.



خريطة رقم (3)[1]

(1): الخريطة من إعداد الباحث.

وفي الوقت الذي أخذ فيه العلج جرانده يضيق الخناق على مدينة بطليوس، انتهز الملك ألفونسو هنريكيز هذه الفرصة وأرسل قوة برتغالية من مدينة شنترين هاجمت حصن طلياطة الواقع إلى الغرب من إشبيلية، ثم قفلت عائدة بالغنائم والسبي، غير أن والي إشبيلية آنذاك أبو عبدالله بن أبي إبراهيم أرسل في أثرهم قوة موحدية انتصرت عليهم واستردوا الغنائم وأسروا منهم مائة فارس[1].

2.2.4.1.3 محاولات الملك ألفونسو هنريكيز في الاستيلاء على مدينة بطليوس (564-567ه/1169-1171م):

شغل الموحدون في السنوات 561-563ه/1165-1167م بقمع ثورات المغرب مما جعل بلاد الأندلس مسرحاً لغارات الملك ألفونسو هنريكيز وقائده جرانده، وبعد أن هدأت أحوال بلاد المغرب وغابت عنها الفتنة، وجددت البيعة للخليفة أبي يعقوب سنة 563ه/1167م[2]، وجه الموحدون أنظارهم نحو الأندلس.

وكان العلج جرانده طيلة هذه السنوات لم ينفك في مواصلة الغارات على مدينة بطليوس والتضييق على أهلها متخذاً من حصن جلمانية منطلقاً لعملياته، وحدث في رجب سنة 564ه/ نيسان 1169م، أن توجه جرانده صوب مدينة بطليوس بجموعه الغادرة عاقداً العزم في الاستيلاء عليها، فهاجمها ودوخ جهاتها ثم فرض عليها حصاراً شديداً، وعندما أدرك والي المدينة الموحدي أبو علي عمر بن تيمصلت أن امكاناته الحربية لا تمكنه من صد الهجوم، امتنع وسكان المدينة في قصبة المدينة، وأرسل يستنجد بالموحدين في إشبيلية ومراكش، وما كاد الملك ألفونسو يسمع

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص93؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص187.

(2): ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي القسنطيني (ت810ه/1407م): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968م، ص103. سيشار إليه فيما بعد: ابن قنفذ، الفارسية.

بحصار جرانده للمدينة حتى قدم بقواته ودخل بطليوس وحاصـر الموحـدين فـي القصبة وحدد لهم مهلة للتسليم[1].

وما أن علم الخليفة أبا يعقوب باستيلاء الملك ألفونسو علـى مدينـة بطليـوس وتضييقه الخناق على الموحدين المحصورين بقصبتها، حتى أمر في الحـال بقـرع طبول الحرب والخروج لنصرة أهل بطليوس، وخرج الخليفـة بنفسـه علـى رأس جموع عظيمة من المسلمين عازماً العبور إلى الأندلس، ونزل على نهر تانسيفت[2] بالقرب من مراكش، وأقام بذلك المكان ثلاثة أيام ينظم أمور الجند ويتهيـأ للقتـال ويتشاور مع الموحدين في أمور الغزوة، وهنا استقر رأي الموحدين على أن يتقـدم جموعهم جيش بقيادة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، يسير إلى فك أسـر أهل بطليوس إلى حين أن يلحق بقية الجيش الموحدي في حملة كبيرة يقودها الخليفة بنفسه، وبعث الخليفة في الوقت نفسه إلى أهل الأندلس برسالة من إنشاء الكاتب أبي الحسن ابن عياش[3] يبين فيها موقفه من بلاد الأنـدلس وحرصـه علـى عونهـا ونصرتها، داعياً إياهم إلى مساعدة الشيخ أبي حفص في جهاده ضد مملكة البرتغال، ومبيناً لهم أن عبور الشيخ أبي حفص بمن معه من قوات ما هو إلا مقدمـه لحملـة عظمى ينوي قيادتها بنفسه[4].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص375-376؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص36. وعن منعة القصبة وسعتها انظر: مؤنس، رحلة الأندلس، ص322-323.

(2): نهر تانسيفت: ينبع من جبل درن، وهو نهر ليس بالكبير لكنه دائم الجريان، يرتفع منسوبه في فصل الشتاء فيشكل سيل كبير لا يبقي ولا يذر، يقع على بعد ثلاث أميال من مراكش. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص69.

(3): هو عبد الملك بن عياش بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي، أصله من مدينة يابرة من غرب الأندلس، وقد سكن أبوه قرطبة ونشأ بها، وقد صحب بني حمدين وكتب لهم أيام قضائهم في قرطبة، ثم استخدمه الخليفة عبد المؤمن بعد ذلك في الكتابة فنال عنده دنيا عريضة، وعندما خلف أبو يعقوب والده في الحكم ثبته على ولاية خطة الكتابة، وحصل عنده على منزلة جليلة، ولم يزل يتولى الكتابة لأبي يعقوب حتى وفاته سنة 568هـ/1173م. انظر: ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص82-83.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص105-106.

سار الشيخ أبو حفص من تانسيفت في شهر ربيــع الآخــر مــن ســنة 564ه /1169م، وما كاد أن يصل إشبيلية حتى وردت البشائر بمساعدة فرناندو الثاني ملك ليون، للموحدين المحصورين بقصــبة بطليــوس، وتمكنــه بمســاعدة الموحــدين الموجودين في القصبة من إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين واضطرارهم إلى الانســحاب من المدينة(1).

هذا وقد جاءت مساعدة ملك ليون للموحدين في بطليوس إلى عاملين، أولهما أن الملك فرناندو الثاني كان يتطلع إلى ضم الأراضي البرتغالية باعتبار أنه صــاحب السيادة عليها، ورثها عن أبيه الملك ألفونسو السابع(2)، ومــن جهــة أخــرى فــإن الأراضي الواقعة ما بين أشبونة ولبلة ومن ضمنها بطليوس هي من ضمن منــاطق السيطرة والنفوذ لمملكة ليون حسب ما جاء ذلــك فــي معاهــدة ســاهاجون ســنة 553ه/1158م، التي وقعها الملك فرناندو الثاني مع أخيه الملــك سانشــو الثالــث، واقتسم خلالها الملكان مملكة البرتغال ومناطق غزو الأندلس(3). أما العامل الثــاني فمرجعه إلى معاهدة الصلح والتحالف التي عقدها الملك فرناندو الثاني مع الموحدين سنة 563ه/1168م، وتعهد بموجبها أن يكون عوناً للموحدين ضد أعدائهم، وتنفيذاً لهذه المعاهدة أرسل الخليفة أبو يعقوب فرقة من الجيش الموحدي وقفت إلى جانــب الملك فرناندو في حروبه ضد خصومه من القشتاليين حتــى وصــلوا معــه إلــى اشتوريس في أقصى شمال قشتالة، وقبل أن تغادر هذه الفرقة الموحدية بلاد قشتالة عائدين وعدهم الملك فرناندو أن يقف مدافعاً وحامياً لبلاد الموحدين أينما سمع بعدو من النصارى يهددها، وقطع على نفسه أغلظ الأيمان بذلك(4)، وما وصوله بعساكره لإنجاد بطليوس إلا ايفاءً بوعده للموحدين ولو على الأقل حتى ذلك التاريخ.

وعلى أي حال سار الملك فرناندو الثاني إلى إنجاد مدينة بطليوس فــي جــيش ضخم، فلما وصلت الأنباء إلى الملك ألفونسو هنريكيز بــذلك، أخــذ يتعجــل فــي

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص376-380.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص255.

(3): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p241.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص370-372.

التضييق على المدينة لتسريع فتحها قبل وصول الملك فرناندو معتقــداً أن الكلمـــة ستكون للأقوى، وبالفعل استطاع أن ينتزع معظم أنحاء المدينة حتى لم يبق في يـــد المسلمين سوى قصبتها[1].

ولما وصل الملك فرناندو إلى نواحي مدينة بطليوس أرسل رسولاً خفيـــاً إلـــى واليها ابن تيمصلت المحاصر في القصبة، يطلعه على قدومه لنجدته، ســـائلاً إيـــاه ارشاده على الطريق التي يمكن أن يسلكها لدخول المدينة، فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله ونقبوا سور القصبة من جهة خفية على البرتغاليين، ثم ساروا إلـــى أقـــرب أبواب المدينة وفتحوه وأدخلوا منه جند القوات الليونية، واجتمع الموحدون وقـــوات مملكة ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة، ولما رأى الملك البرتغالي بعد انهزام بعض قواته وانسحابها من ساحة المعركة، أنه غدا أضعف من أن يســـتطيع الاستمرار في القتال والصمود في مدينة لم يستول على قصبتها بعد، اعتزم المبادرة بالفرار مع بقية جيشه، ولكن حدث عندما هم بالخروج مسرعاً من باب المدينـــة أن علقت ساقة برتاج الباب وسقط عن فرسه، فكسرت ساقه ووقع أسيراً في يد الملـــك فرناندو الثاني[2]. غير أن الملك فرناندو اطلق سراحه بعد أن تعهـــد إليـــه الملـــك ألفونسو برد جميع المناطق التي استولى عليها في جنوب جليقية والتنازل عن كـــل دعوى بشأنها[3]، أما العلج جرانده فقد فر على أثر المعركة إلى حصن جلمانية[4].

وعلى أثر هزيمة الملك ألفونسو قام الملك فرناندو بالوفاء بوعـــده للموحـــدين، وسلم مدينة بطليوس إلى واليها ابن تيمصلت في شهر شعبان ســـنة 564هـ/1169م، واستولى الموحدين على جميع ما تركه البرتغاليون وراءهم من السلاح والمؤن، ثم غادر الملك فرناندو المدينة في نفس الشهر عائداً إلى حاضرته السبطاط وقد اطمأن

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص279-280.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص380-381.

(3): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص181.

(4): ابن خلدون، العبر، جـــ6، ص321.

على عدم سقوط المدينة بيد الملك البرتغالي. وكتب الموحدون في الحال إلى الخليفة أبي يعقوب بذلك النصر، فسر به كثيراً وشكر الله على لطفه وصنعه[1].

ويبدو أن الخليفة أراد أن يعيد الحيوية والنشاط لمدينة بطليوس وأهلها بعد تلك المحنة التي مرت بها، فقام بتغيير واليها ابن تيمصلت وعين لولايتها الحافظ أبي يحيى وهو ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، وكان وقتئذ من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلماً، فتوجه إليها بصحبة عدد كبير من الموحدين والجند الأندلسيين، وقام فور وصوله إليها بتأمين وتحصين أطرافها، ثم تنفيذاً لأوامر الخليفة قام بحفر بئر كبيرة داخل قصبة المدينة تحوطاً واستعداداً لأي منازلات أو حصار في قادم الزمان[2].

غير أن العلج جرانده لم يتأخر طويلاً في معاودة شن الغارات على مدينة بطليوس ومهاجمة نواحيها من قاعدته حصن جلمانية، وصولاً لما كان يتوق إليه من الاستيلاء عليها، ويبدو أنه انتهز فرصة انشغال الوالي الجديد بأعمال الحفر والتحصينات، وأخذ يرهق المدينة بغارات متتالية بدت وكأنها لا نهاية لها، والوالي أبو يحيى يبذل قصارى جهده في دفعه ورد نكايته.

واستمر الأمر على هذا النحو شهوراً حتى أواخر سنة 564ه/1168م، وفي نهاية هذه السنة قاد العلج جرانده حملة قوية على مدينة بطليوس تطلع منها إلى ايقاع أكبر عدد ممكن من القتلى والأسرى في صفوف الموحدين وأهل المدينة، وذلك أنه استعان بقوة كبيرة من نصارى أهل شنترين، فسار بهم حتى وصل ظاهر المدينة، وهناك قسم قواته إلى قسمين، حيث جعل قسم يكمن هناك في موضع خفي، بينما سار هو على رأس القسم الآخر وأخذ بمهاجمة المدينة، فخرج إليه الوالي أبو يحيى ببعض القوات والأجناد من الموحدين، وما كادوا يشتبكون معه حتى تظاهر بالهزيمة وطلب النجاة، وفر مسرعاً فتبعه الموحدين حتى وصل موضع الكمين، وعندئذ خرج النصارى من حيث لا يحتسب الموحدين ودارت بين الفريقين موقعة غير متكافئة انهزم فيها الموحدون وأسر النصارى منهم جملة كبيرة بينهم عدد من الأكابر

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص106-107.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص392.

وأصحاب الحافظ أبو يحيى مثل أبو عبدالله بن أبي حفص بن تيفرجين وعلـــي بـــن محمد بن صاحب الصلاة الباجي، وقد افتدى أبو يحيى معظم الأســـرى مـــن مالـــه الخاص، ثم انصرف العلج جرانده إلى محلته في حصن جلمانية وقد امتلأت أيديـــه بالغنائم والأموال[1].

تواصلت غارات العلج جرانده بعد ذلك على مدينة بطليوس وأحوازها، وأخـــذ يضيق عليها بنهب زروعها وثمارها وقطع طرق المواصلات المؤدية إليها، حتى لم يأت شهر رجب من سنة 565ه/1170م إلا وقد انعدمت الأقوات في المدينة، وممـــا زاد الأمر سوءاً تأخر هطول المطر ببلاد الأندلس في هذه الســـنة فانعـــدم النشـــاط الزراعي وتوقفت التجارة[2]، وأصبح الناس في خوف وظنـــك، وهـــذا مـــا دفـــع الموحدون في إشبيلية إلى تجهيز قافلة كبيرة بلغ قوامها نحو خمسة آلاف دابة محملة بالطعام والعلوفات والآلات على اختلافها، وسارت القافلة بقيادة الحافظ أبي يحيـــى زكريا بن علي، يرافقها قوة كبيرة من الجند الموحدين في إشبيلية، ولمـــا وصـــلت القافلة على مشارف مدينة بطليوس تلقاها العلج جرانده بقواته من قطـــاع الطـــرق الغاصبين وأهل شنترين الحاقدين، ونشبت بين الطرفين في يوم 26 شـــعبان ســـنة 565ه/14 أيار 1170م معركة دامية استمرت معظم ساعات النهار، انهـــزم فيهـــا الموحدون وقتل منهم عدد كبير على رأسهم قائد القافلة الحافظ أبو يحيـــى زكريـــا، واستولى جرانده وجمعه الذميم على جميع حمولة القافلة، وكان لخبر هذه النكبة أشد الوقع على الموحدين في قرطبة وإشبيلية، ولم يكن أمام الشيخ أبو حفص عمر بـــن يحيى الهنتاتي المشغول أصلاً بجبهة شرق الأندلس إلا أن يبعث بخبرها للخليفة في مراكش لينظر فيما يأمر[3].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص392-393؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص109.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص106.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص397-398.

وصلت أنباء تلك النكبة للخليفة أبي يعقوب وهو على سرير الشفاء يعاني من علة لازمته أكثر من سنة، وكان قبل أن تصله تلك الأنباء قد أمر بتجهيز حملة برسم الجهاد في الأندلس إلا أن مرضه عاقه عن الاستمرار في تنفيذ ذلك.

وقد تزامنت أحداث بطليوس مع وصول ابن همشك إلى مراكش، الذي كان قد دخل في طاعة الموحدين، مستصرخاً الخليفة ضد سيده السابق ابن مردنيش، أمام هذه الحوادث التي تفاقمت على الجبهتين الشرقية والغربية في الأندلس، قرر الخليفة أن يسير أخوه السيد أبو حفص عمر على رأس جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى، ووضع حد لاعتداءات العلج جرانده وأعوانه على مدينة بطليوس[1].

وصل السيد أبو حفص في قواته إلى مدينة إشبيلية في أوائل سنة 566ه/1170م وهناك اجتمع بالشيخ أبي حفص الهنتاتي وابن همشك، وتم عقد مجلس حربي شارك فيه معظم الأشياخ الموحدين والزعماء الأندلسيين وتقرر فيه قبل كل شيء الأطمئنان على سلامة مدينة بطليوس من خلال إرسال السيد أبو سعيد عثمان على رأس فرقة من الجنود إليها لتقوية جبهتها الدفاعية ودعم ثبات أهلها[2]، وهذا ما كان، حيث سار إليها السيد أبو سعيد في جيش كبير من الموحدين والعرب وأهل الأندلس، ومعهم من زعماء الأندلس أبو محمد سيدراي بن وزير، ووصلت الحملة إلى بطليوس في سنة 566ه/1170م في أشد لحظات الضيق عليها، وذلك لانقطاع المؤن والامدادات عنها من جراء إلحاح العلج جرانده في ارهاقها، ومن قدوم الملك الليوني فرناندو الثاني للاستيلاء عليها ما إذا عجز الموحدون عن حمايتها من القوات البرتغالية، ولما علم السيد أبو سعيد بوصول الملك فرناندو إلى القرب من المدينة أرسل إليه وفد من أشياخ الموحدين فيهم سيدراي بن وزير لسؤاله عن نياته من القدوم على هذا الشكل نحو مدينة بطليوس، وهل هو باق على صلحه مع الموحدين أم قد نقضه، غير أن الملك فرناندو أقنع الوفد الموحدي أن سبب وجود قواته بالقرب من المدينة هو حمايتها ومنع سقوطها في يد البرتغاليين، وتأكيداً لقوله سار الملك فرناندو مع الوفد

(1): انظر الفصل الثاني، ص140.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص400.

والتقى بالسيد أبي سعيد خارج مدينة بطليوس وجدد له روابط الصداقة والتحالف، ثم قفل عائداً إلى بلاده[1].

ولم يشأ السيد أبو سعيد أن يعود إلى إشبيلية إلا وقد أمن مدينة بطليوس من جميع جهاتها، ونحن نعلم أن الخطر الذي لطالما هددها مدة السنتين الماضيتين، كان يأتي عن طريق حصن جلمانية حيث يتحصن العلج جرانده، من هنا توجه السيد أبو سعيد بقواته من بطليوس صوب هذا الحصن، وفرض عليه حصاراً شديداً في شهر ربيع الأول من سنة 566ه/ تشرين ثاني 1170م، ولما يأس جرانده من الصمود وعجز عن المقاومة لاذ بالفرار مما سهل على الموحدين الاستيلاء على الحصن، وفي الحال أمر السيد أبو سعيد بهدمه، فانجلت بذلك غمته، ثم عاد السيد أبو سعيد بجيشه المظفر إلى إشبيلية فعمت البشائر بوصوله[2].

بقيت مدينة بطليوس القضية المركزية للدولة الموحدية في غرب الأندلس، وظلت معاناتها المستمرة جراء هجمات البرتغاليين تشغل تفكير الخليفة والسادات والأشياخ الموحدين.

وفي مستهل رمضان من سنة 566ه/ أيار 1171م كان عبور الخليفة أبو يعقوب من العدوة إلى الأندلس بهدف اغاثة أهلها وتنظيم شؤونها، وجهاد النصارى، وبعد أن اطمأن الخليفة على سير العمليات القتالية ضد ابن مردنيش في شرق الأندلس، توجه من قرطبة إلى إشبيلية فدخلها يوم 2 محرم سنة 567ه/ 5 أيلول 1171م، وهناك اجتمع بكبار رجال الدولة وأخيه السيد أبو حفص الذي كان قد حضر من مرسية، وبعد التباحث فيما يجب القيام به لحماية الأندلس، كان أول ما تقرر في ذلك الاجتماع اغاثة مدينة بطليوس وتعزيز حاميتها، من خلال تعجيل ارسال الميرة والأقوات إليها[3].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص111-112؛ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص321؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص278.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص401-402؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص183-184؛ Huci, Historia, t1, pp241

(3): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص278؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص267.

وفي الحال تم تجهيز قافلة كبيرة بلغ قوامها أربعة آلاف بغل محملة بالمؤن من القمح والشعير، والآلات المعينات والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس، وغادرت القافلة إشبيلية في اليوم الثامن من شهر صفر سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان جوازها لنهر الوادي الكبير إلى طريانة[1](Triana) تم من خلال القنطرة الجديدة التي بنيت على الوادي بأمر من الخليفة، فكانت هذه القافلة أول من يسير عليها وذلك في اليوم الثالث من اكتمال بنائها، وسارت القافلة إلى بطليوس وبرفقتها قوة من الجند الموحدين والعرب الهلاليين، وتمكنت من الوصول إلى المدينة بسلام في شهر صفر سنة 567ه/ تشرين ثاني 1171م، وبعد تسليم الميرة توجهت القوات الموحدية المرافقة للقافلة بمشورة ونصح أبي العلاء بن عزرون للإغارة على حصن لبيون (Lobon) الواقع على مقربة من بطليوس إلى الشرق منها على ضفة وادي يانة، وكان في الحصن حامية صغيرة للعلج جرانده، فاقتحموه على حين غفلة من النصارى واستولوا علية بالقوة من حينهم، وطردوا الحامية النصرانية أصحاب جرانده، ثم عادوا سالمين ظافرين إلى إشبيلية[2].

3.2.4.1.3 استيلاء الملك ألفونسو هنريكيز على مدينة باجة سنة 568ه/1172م:

" بيعت باجة بقيراط "[3] بهذه العبارة لخص سيدراي بن وزير للخليفة أبي يعقوب سبب سقوط مدينة باجة بيد الملك البرتغالي ألفونسو هنريكيز.

لكن السؤال، كيف تباع مدينة بحجم مدينة باجة التي كانت وقتذاك من أهم قواعد غرب الأندلس بقيراط، أليس الثمن زهيداً ؟!.

---

(1): طريانة: مدينة من كور إشبيلية، ممتدة على شاطئ نهر الوادي الكبير في مقابلة النصف من حضرة إشبيلية، وهي مسورة من جهة الصحراء. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص293؛ الحميري، الروض المعطار، ص392-393.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص113-114؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص184.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص129.

في الواقع لم يكن الزعيم سيدراي يقصد بجوابه للخليفة عن سبب سقوط مدينة باجة، عملية بيع وشراء، وانما كان يصف له حال المدينة، وأي حال ذلك الذي وصلت إليه باجة في ظل السيادة الموحدية.

فبعد أن بسط الموحدون سلطانهم عليها وأقالوا عنها سيدراي بن وزير، اسندوا أمرها كما جرت عليه العادة عندهم إلى أحد الحفاظ الموحدين، فتولاها بدايةً عمر ابن تيمصلت التينملي إلا أن حالة الفساد التي طبع عليها أهلها منذ القدم كانت أقوى وأعظم من أن يتغلب عليها ابن تيمصلت فلما عجز عن تهدئة الفتن المشتعلة بين أعيانها وسفلتها عزل عنها وولي عليها طالب بربري من الحفاظ ايضاً يسمى عمر ابن سحنون، فسلك طريقاً مغايراً لنهج ابن تيمصلت في ضبط أمور المدينة، إذ قرب إليه دهماء المدينة وسفلتها وأجلسهم مجلسه على حساب أعيانها وفقهائها، ثم استوزر لنفسه رجلاً بدوياً من أشد ما يكون من سفلة باجة، فاضطهد الناس وأخذ أموالهم بالباطل، وضربهم بالسياط على أتفه الاسباب، ثم تجرأ وأخذ بسفك الدماء فقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلماً وعدواناً، وكان من ضحاياه الفقيه أبا جعفر بن الانصاري، وتمادى ابن سحنون في غيه حتى وصل به الأمر إلى اقالة السمار عن أبراج المدينة والقصبة لكي يأخذ لنفسه أجرتهم البالغة قيراطاً في الليلة لنفسه وترك الأبراج دون حراسة، واشتدت الفتنة في المدينة وارتفعت الشكوى ضد الوالي حتى وصلت مسامع الخليفة في إشبيلية، لكن تجهز الخليفة لغزوة وبذة جعله يرجئ أمرها إلى حين[1].

كانت هذه حال مدينة باجة في أواخر سنة 567ه/ صيف 1172م، ولم تكن هذه الحال خافية على ألفونسو هنريكيز وقائده جرانده الذين كانت قواتهم وجواسيسهم تصول وتجول بمحاذاة باجة من مدينة بطليوس شرقاً إلى قصر أبي دانس غرباً.

ثم جاءت الفرصة المناسبة للملك البرتغالي لتنفيذ مخططه بالانقضاض على باجة باصطحاب الخليفة أبي يعقوب معظم القوات الموحدية التي وصل عددها إلى مائة ألف في حملته نحو الشرق على مدينة وبذة، ليس ذلك وحسب بل أن فشل الموحدين في الاستيلاء على مدينة وبذة وانسحابهم وهم يجرون أذيال الهزيمة

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص127-129.

والفشل أطمع الملك ألفونسو في الموحدين وجرأه على غزو قواعد الأندلس القريبه من بلاده.

وبينما كان الخليفة في مدينة مرسية في طريق عودته من غزوة وبذة، خرج الملك ألفونسو هنريكيز وبصحبته العلج جرانده في قواتهم، وتوجهوا إلى مدينة باجة فوصلوا إليها في ليلة مستهل محرم سنة 568ه/ 23 آب 1172م، وكانت ليلة مظلمة على النحو الذي يريد جرانده وجنده، فتقدموا وهم يتسللون على أيديهم وأرجلهم حتى وصلوا أسوار المدينة دون أن يشعر بهم أحداً، وكان هجومهم من جهة البرج المقابل باب قصبة المدينة والذي يعرف ببرج الحمام، وكان بدون حارس لاهمال ابن سحنون على النحو الذي ذكرناه سابقاً، ووضعوا السلالم على برج القصبة وبعد أن تصعدوا السور صاحوا بأعلى أصواتهم معلنين الهجوم، وما كاد الوالي عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من نومهم حتى كان الملك ألفونسو قد تملك بقواته برج الحمام واحتل قصبة المدينة، فانتشر الذعر في المدينة واضطرب حال الناس، وانتهز الوالي ظلمة الليل وفر هارباً من سور المدينة إلى ميرتلة جنوباً دون أن يعبأ بمصير باجه وأهلها، وهام الناس على وجوههم وحاولوا الفرار خلف واليهم من الأبواب غير أن البرتغاليين أعملوا بهم أسلحتهم قتلاً وأسراً، وملأ صياح الأطفال والنساء أنحاء المدينة ضجيجاً، ولم ينج منهم إلا من استعجل الخروج في بداية الهجوم، وما أن أشرقت الشمس حتى كان البرتغاليون قد احتلوا سائر المدينة، ومن ثم استولوا على كل ما وجدوه فيها من مال ومتاع[1].

وبعد أن أمضى الملك ألفونسو عدة أشهر في المدينة، أثر الانسحاب منها لما عاينه من صعوبة الدفاع عنها لاتساع مساحتها، وبعدها عن حدود مملكته من جهة، وقربها من المدن والقلاع الإسلامية من جهة أخرى، فضلاً عن خشيته من توجه الخليفة أبي يعقوب الذي قد وصل إشبيلية في أواخر ربيع الأول سنة 568ه/ تشرين ثاني 1172م بقواته لإنقاذ المدينة لتعويض الفشل في شرق الأندلس، فغادرها في

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص86؛ النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص184-185.

جمادى الأولى سنة 568هـ/ كانون ثاني 1173م، بعد أن هــدم أســوارها وأحــرق دورها وشرد بقية أهلها الذين تفرقوا في مختلف بلاد المغرب والأندلس(1).

وهكذا ذهبت مدينة باجة ضحية قيراط واحد، ولما اطلع الخليفة على ما آلت إليه حال المدينة، ومدى المعاناة التي لقيها أهلها، أمر بقتل واليها عمر بن سحنون الذي حمّل مسؤولية كل ما حل بها، لكن ابن سحنون استطاع الإفلات، وظل البحث عنــه مستمراً حتى عثر عليه بعد أمد قصير ميتاً بالجذام(2).

وقد حرص الخليفة على إعادة اعمار مدينة باجة، فاستقبل في شهر ربيع الآخر سنة 570هـ/1175م وفداً من أعيان المدينة النازحين ووعدهم بتعمير مدينتهم وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير، وما هي إلا أشهر حتى كملت أعمال البناء وعاد أهلها إليها، وكانوا يومئذ زهاء مائتي شخص من مختلف الأعمار(3).

ولكي لا تلقى مدينة بطليوس نفس المصير الذي تعرضت إليه مدينة باجة، وهي التي كانت محط أنظار واهتمام الملك ألفونسو وقائده جرانده منذ أكثــر مــن ســت سنوات ماضية، حرص الخليفة على توطيد استحكامات المدينة ودعم صمود أهلها، فجهز حملة كبيرة قوامها أربعة آلاف فارس من الموحــدين والأجنــاد الأندلســيين والعرب، بقيادة أبي يعقوب يوسف بن عبدالله بن تيجيت وعبدالله بن اســحاق بــن جامع، وأمدها بكم هائل من المؤن والأقوات والآت الدفاع والمرافق اللازمة، تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة، وسارت هذه الحملة من إشبيلية إلــى مدينــة بطليــوس وسلمت الأحمال إلى واليها لتخزينها والاستفادة منها على النحو المطلوب، مما كان لذلك عظيم الأثر في توطيد وتقوية بطليوس وتوقف البرتغاليين عن تهديدها(4).

---

(1): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص124؛ Huci, Historia, t1, pp261

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص129.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص132.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص525.

4.2.4.1.3 **دخول العلج جرانده في طاعة الموحدين**:

كانت مملكة ليون قد دخلت في معاهدة صلح وتحالف مع الموحدين منـذ سـنة 563هـ/1168م، أتت أكلها بنجدة الملك فرناندو الثاني لمدينة بطليوس وانقاضها من السقوط بيد الملك ألفونسو هنريكيز سنة 564هـ/1169م. وفي شهر ذي الحجة مـن سنة 568هـ/1173م، رغبت مملكة قشتالة هي الأخرى في عقد هدنة ومعاهدة صلح مع الموحدين، وما أن علم الملك ألفونسو هنريكيز بمسعى الملك ألفونسو الثامن هذا حتى وجد نفسه هو الآخر مرغماً على التوجه إلى الموحدين طالبـاً الصـلح، لأن تأخره عن ذلك سيجعله يقف لوحده في ساحة القتال مع الموحدين. من هنـا بـادر الملك ألفونسو في استغلال وجود سفراء مملكة قشتالة في حضرة الخليفة وأرسل هو بدوره سفراء من قبله انضموا إلى وفد قشتالة ليخوض الوفدين معاً محادثـات مـع الجانب الموحدي في إشبيلية، انتهت بعد شهرين من المفاوضات بعقد معاهدة سـلام وهدنة مدتها سبع سنوات[1].

على أثر عقد الصلح والسلام بين الموحدين والملك البرتغالي، وجد العلج جرانده نفسه بمفرده من بين جميع الممالك الاسبانية في ساحة القتال ضد الموحـدين، وقـد تخلى عنه أقوى أنصاره الملك ألفونسو هنريكيز، وبعد التفكير في حاله وما وصـل إليه أمره من فقدان المكانة التي كان يتمتع بها عند الملوك النصارى الـذين كـانوا يمدوه بالرجال ويشتروا منه الأراضي والأحمال، لم يجد أمامه من سبيل إلا الدخول في طاعة الموحدين، فتوجه في صحبه البالغ عددهم ثلاثمائة وخمسون شـاباً إلـى الخليفة في إشبيلية سنة 569هـ/1174م وأظهر بين يديه ندمه واسترجاعه، وأعلن له طاعته وانصياعه، فأحسن الخليفة اسـتقباله وقبـل طاعتـه ووصـله بالاحسـان والكرامات[2].

ولكن يبدو أن طاعة جرانده للخليفة أبي يعقوب لم تستمر طويلاً، إذ اسـتهوته نفسه في العودة والارتداد، فأخذ يبحث لنفسه عن مناص ولم يجد أمامه خيـراً مـن

---

(1): عن توقيع معاهدة السلام بين الموحدين ومملكتي قشتالة والبرتغال، انظر سابقاً، ص222.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص130.

الاتصال بسيده السابق الملك ألفونسو هنريكيز، وهنا تضطرب الروايات في تحديــد المدة التي قضاها جراندة في خدمة الخليفة، وكيف آل به الأمر إلى هلاكه.

فالبيذق يشير إلى أن جرانده ظل مخلصاً للخليفة طيلة اقامته فــي إشــبيلية ثــم عندما عاد الخليفة إلى مراكش سنة 571هـ/1176م سار في صحبه حتى وصل معه مراكش، ثم عهد إليه الخليفة ببعض الأعمال في السوس، غير أن جرانــده اســتغل وجوده في السوس بالقرب من ساحل البحر فأخذ يراسل مليكه ألفونسو هنريكيز في لشبونة (أشبونة) يعلمه بمكانه ويطلب منه تجهيز أسطول يأتي به إليه ليعملا ســوياً على فتح الناحية الموجود فيها، غير أن بعض رسائله وقعت فــي يــد الموحــدين فانكشف أمره للخليفة فجيء به من السوس إلى مراكش وهو لا يعلم بافتضاح أمره، وأخبره الخليفة بانه قرر إرساله هو وصحبه إلى درعة[1] بحجة أنها أفضل له مــن السوس، فسار جرانده ومعه أصحابه البالغ عددهم ثلاثمائة وخمســين فــرداً نحــو درعة، وكان الخليفة قد كتب في الوقت نفسه إلى والي درعة الموحدي موسى بــن عبد الصمد يأمره بقتل جرانده وتوزيع أتباعه على القبائل بمجرد وصــولهم إليــه، وفعلاً نفذ والي درعة ما طلب منه وبذلك لقي جرانده مصيره المشؤوم[2].

أما ابن عذاري فيورد لنا رواية مغايرة، مفادها أن طاعة جرانده واخلاصه في خدمة الموحدين لم تستمر إلا بضعة أشهر، وذلك أن مليكه ألفونسو هنريكيز اســتاء من بقاء جرانده في حضرة الموحدين، فلم يزل يراسله سراً ويتحيل عليه في الغــدر والارتداد، حتى ضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جرانده المتعاون مع مليكه السابق، فقبض عليه وأصحابه وارسلوا إلى سجلماسة[3]، واعتقلوا هنــاك

---

(1): درعة: مدينة صغيرة بالمغرب، تقع إلى الغرب من سجلماسة وتبعد عنها مسافة أربعة فراسخ. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ2، ص451.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص89.

(3): سجلماسة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين مدينة فاس مسير عشرة أيام جهة الجنوب. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ3، ص192.

تحت رقابة شديدة، ثم لم يلبث جرانده أن حاول الفرار والعودة ثانية إلـــى الأنـــدلس فقبض عليه في أحد المراسي وقتل من حينه وذلك عام 571هـ/1176م[1].

يظهر من هاتين الروايتين أن هناك اتفاق بينهما من حيث وصول جرانده طائعاً للموحدين من تلقاء نفسه، وأنه أرسل من إشبيلية إلى المغرب ليلقى بهـــا مصـــيره التعس، غير أن هناك اختلاف بينهما من حيث المدة التي بقاها جرانده فـــي خدمـــة الموحدين طائعاً مخلصاً، فهي عند ابن عذاري بضعة أشهر بينما عند البيذق ثـــلاث سنوات، بقي التاريخ الذي نفذ به حكم الاعدام على جرانده وهو الذي يشكل التناقض الأكبر بين الروايتين، فالبيذق يجعله في سنة 565هـ/1169م، بينما عند ابن عذاري في سنة 571هـ/1175م، وهنا نميل إلى ترجيح رواية ابن عذاري للدور الكبير الذي قام به جراندة في تهديد قواعد غرب الأندلس بعد عام 565هـ/1170م وحتـــى عـــام 568هـ/1173م.

5.2.4.1.3 عودة البرتغـــاليين للعيـــث فـــي منـــاطق غـــرب الأنـــدلس 573-578هـ/1177-1182م:

لم يستطع الملك ألفونسو هنريكيز أن يبقى على عهده وميثاقه مع الموحدين وهو يرى ملك قشتالة ألفونسو الثامن الذي شاركه في الهدنة معهم يـــنقض تلـــك الهدنـــة ويسير نحو مدينة قونكة فارضاً سيطرته عليها، فقد راودته نفسه هو الآخـــر علـــى نقض العهد وخرق الهدنة.

ففي نفس العام الذي استولى فيه القشتاليون على مدينة قونكـــة، شـــن ألفونســـو هنريكيز هجوماً عاتياً على مدينة باجة للمرة الثانية في سنة 573هـ/1177م بعـــد أن كانت قد استعادت ازدهارها[2]، إذ لم يرقه أن يراها وقد عمرت مرة أخرى واستردت رونقها، فنازلها أياماً يعيث فيها خراباً وينتسف زروعها، ولما تبين له أن لا جدوى من الاستيلاء على باجة ما دامت القوات الإسلامية في إشبيلية قادرة علـــى إعـــادة تحريرها وإعمارها، حول أنظاره إلى إشبيلية قاعدة الموحدين في الأندلس، فوصـــل

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص130.

(2): سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، جـــ2، ص230.

ضاحيتها الغربية قرية طريانة (Triana)، وتغلب عليها وعاث فيها، ثم حاول اقتحام مدينة إشبيلية، لكنه عندما عجز عن اختراق دفاعاتها أقدم على أحـــراق المراكـــب الراسية في واديها ثم قفل عائداً إلى باجة مرة أخرى لتعويض فشله في إشبيلية[1].

وما أن وصلت القوات البرتغالية المنسحبة من نواحي إشبيلية بقيـــادة ألفونســـو هنريكيز إلى ظاهر مدينة باجة وقد تهيأت للهجوم عليها من جديد حتى تبين لها أن المدينة قد أقفرت من أهلها وغدت خراباً.

وتتباين الروايات الإسلامية والنصرانية في تفسير ما حل بمدينة باجة في هـــذه الأثناء، فالرواية الإسلامية تشير إلى أنه بعد أن رفـــع الملـــك ألفونســـو هنريكيـــز الحصار عنها والذي كان على أغلب الظن في أواخر سنة 573هـ/1177م، اطمـــأن والي المدينة عمر بن تيمصلت على سلامتها فخرج بقواته وانضم إليه في الطريـــق علي ابن وزير من حصن شيربه وأغاروا على فحص مدينة قصر أبـــي دانـــس[2]، ونشبت بينهم وبين البرتغاليين معركة حامية، غير أنه أثناء القتال وصـــلت نجـــدة برتغالية لأبناء جلدتهم من مدينة شنترين، فرجحت كفتهم وهزم الموحدين، ووقع كل من ابن تيمصلت وابن وزير وبعض الفرسان الموحدين فـــي الأســـر، بينمـــا قتـــل الباقون[3]، أي أن الحملة أبيدت عن اخرها.

وعندما وصلت أخبار هذه النكبة إلى أهل باجة بـــادروا مـــن حيـــنهم بـــالفرار بأولادهم وعيالهم وما خف من متاعهم، ولجأوا إلى مدينة ميرتلة تـــاركين مـــدينتهم وبيوتهم، وذلك في شهر محرم من سنة 574هـ/ تموز 1178م. أما عن ابن تيمصلت وابن وزير فقد حملا إلى قلمرية وهناك عذب ابن تيمصلت حتى مات، فـــي حـــين افتدى الخليفة ابن وزير بأربعة الآف دينار ذهبية[4].

أما الرواية النصرانية فلها رأيين، الأول يشير إلى أن الأمير سانشو ابن الملـــك ألفونسو هنريكيز هو الذي قام بغزو وادي إشبيلية، وذلك في ســـنة 574هـ/1178م،

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص134.

(2): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص135.

(3): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص187.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص134.

وأنه بعد أن هزم الموحدين بالقرب من طريانة توجه لغزو مدينة لبلة، وفي طريقه إليها وصلته الأنباء بتوجه جيش موحدي لمحاصرة باجة، فبعث فرقة مختارة من جيشه ردت الموحدين، ثم لحق سانشو بباقي قواته وهزم الموحدين مرة أخرى، وبذلك بقيت باجه بيد البرتغاليين[1]، ويستنتج من هذا الرأي إلى أن مدينة باجة كانت في هذا التاريخ تحت سيطرة البرتغاليين وأن الموحدين قد فشلوا في استردادها منهم.

والرأي الثاني يشير إلى أن الملك ألفونسو هنريكيز عندما شعر بعجزه عن مواصلة قتال المسلمين فوض ابنه سانشو بقيادة الجيش البرتغالي بدلاً منه، فسار الابن لغزو إشبيلية، وعندما عبر جبل الشرف[2](Aljarfe) تنبه له المسلمين فخرجوا من إشبيلية للقائه لكنهم هزموا، واستولى البرتغاليون على طريانة ثم ساروا للاستيلاء على مدينة لبلة وأثناء حصارهم لها وصلت الأخبار بقيام ابن تيمصلت وابن وزير بحصار مدينة باجة التي كانت وقتذاك تحت سيطرة البرتغاليين، فارسل الأمير سانشو نجدة سريعة لمدينة باجة ثم لحق بها ببقية الجيش البرتغالي وتمكنوا جميعاً من هزيمة الموحدين وأسر ابن تيمصلت وابن وزير[3].

نلحظ من هذه الروايات الثلاث – الإسلامية والنصرانية – أن هناك اتفاق بينها من حيث تاريخ الحملة والجهات التي قامت بغزوها، غير أن الرواية النصرانية تشير إلى أن مدينة باجة كانت في سنة 574هـ/1178م، في قبضة البرتغاليين وهذا ما تفنده الرواية الإسلامية. ونستطيع التوفيق بين هذه الروايات التي هي في الحقيقة مكملة لبعضها البعض بالقول أنه عندما ترك الملك ألفونسو هنريكيز مدينة باجة في

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص98.

(2): جبل الشرف: يقع إلى الشمال الغربي من إشبيلية على بعد ثلاثة أميال منها، وسمي بذلك لأنه يشرف على ناحية إشبيلية، ويسمى اليوم جبل أنديفالو (Sierra de Andevalo) وهو جزء من جبال سيرا مورينا (Sierra Morena) التي كان العرب يسمونها جبال المعدن، ويشتهر بزراعة الزيتون وطيب زيته. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص339؛ الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص178؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص204-205.

(3): Stephens.H.Morse: Portuqal, London 1891, p57

أواخر سنة 573ه/ 1177م، وسار لغزو نواحي إشبيلية، خرج ابن تيمصلت وابن وزير للاغارة على قصر أبي دانس، وفي هذه الأثناء كان الملك ألفونسو في طريقه من إشبيلية لغزو مدينة لبلة، فلما علم بحصار ابن تيمصلت إلى قصر أبي دانس ارتد مسرعاً نحو باجة وبعث قوة مختارة تسبقه لحصار المدينة، ولما علم ابن تيمصلت وابن وزير بشأن القوات البرتغالية عادوا إلى باجة وخاضوا مع تلك القوات معركة مصيرية انتهت بهزيمة الموحدين، وعندما وصل الملك ألفونسو ببقية جيشه إلى نواحي باجة اشتبك مرة أخرى مع الجيش الموحدي وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم للمرة الثانية، ووقع ابن تيمصلت وابن وزير بقبضة البرتغاليين، فما كان من أهل باجة عندما علموا بوقوع واليهم بالأسر، إلا أن غادروا المدينة خوفاً على أرواحهم قبل أن تدخلها القوات البرتغالية، ويبدو أن الأمير سانشو ابن الملك ألفونسو كان يسير إلى جانب والده في هذه الغزوة مما دفع البعض للقول أن الحملة كانت بقيادة سانشو.

هذا وقد استمرت القوات البرتغالية طوال سنة 574ه/1178م بشن الغارات المتتالية براً وبحراً على نواحي إشبيلية، مما جعل لزاماً على الخليفة أبي يعقوب أن يتحرك لوضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة، فكانت الخطوة الأولى أن أرسل جيشاً ضخماً من مراكش إلى إشبيلة لتعزيز دفاعاتها سار على رأسه ابنه أبي اسحاق والي المدينة[1]. وكانت الخطوة الثانية أن قرر الخليفة رد العدوان بالمثل عن طريق توجيه الأساطيل الموحدية لغزو السواحل البرتغالية، وبناء على ذلك عهد الخليفة إلى غانم ابن مردنيش قيادة الأسطول الموحدي في المغرب، الذي كان يضم عدد كبير من القطائع والسفن التي تم بنائها في عهد والده عبد المؤمن سنة 557ه/1162م[2].

وقد عبر غانم البحر غازياً وسار صوب مدينة لشبونة وهاجم ثغرها وتغلب على سفينتين من سفن البرتغاليين الراسية هناك وعاد بهما إلى مدينة سبتة[3].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص140.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص323؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص274.

(3): العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، جـ2، ص266.

أثار غانم بغزوته هذه غضب الملك ألفونسو فرد على ذلك بارسال حملة بحرية أغارت على جزيرة شلطيش(Saltes)[1] فاستولت عليها وأسرت أهلهـــا واحتلـــت ممتلكاتهم وأموالهم [2].

تواصلت بعد ذلك الغارات والمعارك الحربية بين الأساطيل الموحدية والأساطيل البرتغالية كان النصر فيها سجالاً، ففي السنة التالية 576ه/1180م أصدر الخليفـــة أوامره من إفريقية – حينما كان هناك يتصدى لثورة ابن الرند – إلى قائد أســـطوله غانم ابن مردنيش أن يواصل غاراته على سواحل البرتغال، فخرج غانم وأخوه أبو العلاء في حملة بحرية من مدينة سبتة، وقاموا بمهاجمة ميناء سان مارتن دي بورتو (San Martin de Porto) الواقع شمال لشبونة، وبعد أن نجحوا في ايجاد موطئ قدم لهم هناك، حاولوا التوغل داخل الأراضي البرتغالية، فساروا نحو بلدة بورتو دي موس (Porto de Mos) القريبة من الشاطئ، لكن حاكمها فواس روبينو (Fuas Roupinho) تمكن بمساعدة أهالي شنترين الذين انتفضوا لنجدته، أن يعـــد كمينـــاً للمجاهدين المسلمين في جبال منديجا (Mandiga) بالقرب من منابع نهر بورتو دي موس، وهناك انقضوا عليهم في منتصف شهر محرم سنة 576ه/ حزيران 1180م، فاستشهد منهم عدد كبير وأسر الباقي، وكان من بين الأسرى قائد الأسطول غانم ابن مردنيش وأخوه أبو العلاء، واستولى النصارى بعد هذه الموقعة على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها وساقوها إلى لشبونة[3].

ويورد ابن عذاري روايتين مختلفتين عن فك أسر قائد الأسطول الموحدي غانم ابن مردنيش وأخيه، جاء في الأولى أن البرتغاليين رغبوا في المال مقابل اطـــلاق سراحه فسهلوا له أن يكتب للخليفة من موضع اعتقاله يوصف أسره وسوء حالـــه، فوصل كتابه للخليفه وهو بتلمسان في طريق عودته من إفريقية، فأمر الخليفـــة أبـــا

---

(1): شلطيش: جزيرة بالأندلس تقع على مقربة من مدينة شلب، وهي من كورة لبلة، يبلغ طولها نحو أربعة أميال في عرض يسير . انظر: الحميري، الروض المعطار، ص343-344؛ المقري، نفح الطيب، مج، ص167-168.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص140.

(3): العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، جـــ2، ص266-267.

القمر هلال أن يسير إلى مراكش لجمع المال اللازم لفداء أخويه، وفعلاً وصل إلى مراكش وجمع المال وبعثه إلى إشبيلية فحمل إلى النصارى فتم الفكاك وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه[1]. بينما يذكر في الثانية أن الموحدين بعد أن تمكنوا من هزيمة الأسطول البرتغالي على رأس سنة من اعتقال غانم بن مردنيش وذلك في منتصف محرم 577ه/ أيار 1181م، وساروا بالأسرى للخليفة فافتدى ببعضهم غانم وأصحابه وضرب أعناق الباقين[2].

ولكن على ما يبدو أن فك أسر قائد الأسطول الموحدي غانم بن مردنيش كان في سنة 577ه/1181م، أي بعد مرور سنة على أسره، وأن الفدية المطلوبة لاطلاق سراحه جمعت فعلاً وأرسلت للنصارى بيد أنهم أخذوا يماطلون في ايفاء الشرط حتى يروا ما تسفر عنه حملتهم على سواحل المغرب التي كانوا يعدون لها في ذلك الوقت، وهذا ما نلمسه في غياب غانم بن مردنيش طيلة سنة كاملة عن أي نشاط بحري، ولو أنه أفرج عنه حسب رواية ابن عذاري الأولى لوجدناه يتولى قيادة حملة سنة 577ه/1181م أو حتى يشارك فيها.

ويبدو أن هذا النصر الكبير الذي تحقق للبرتغاليين في موقعة بورتو دي موس قد شجعهم للمضي قدماً في غزو سواحل الأندلس الغربية، لا بل والتطلع لما هو أبعد من ذلك بغزو مدينة سبتة نفسها[3]، القاعدة البحرية للموحدين، ففي سنة 577ه/1181م خرج القائد البرتغالي روبينو على رأس أسطول ضخم للهجوم على مدينة سبتة حاضنة الأسطول الإسلامي[4]، لكن حدث في نفس الوقت أن خرج الموحدون باساطيلهم من المغرب والأندلس ليثأروا لهزيمة أسطولهم وتحرير قائدهم، فمن سبتة خرج عبدالله ابن جامع الذي تولى قيادة أسطولها منذ أسر غانم بن مردنيش، ومن إشبيلية خرج القائد أبو العباس الصقلي باسطولها ايضاً، واجتمعوا

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص143.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145.

(3): Huci, Historia, t1, p279

(4): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص190.

جميعاً في جزيرة قادس(Cadiz)[1] وقد استكملوا أربعين سفينة، ثم نهضوا بجمعهم سائرين من قبالة شلب إلى الشواطئ الجنوبية للبرتغال، وعلى غير اتفـاق التقـى الأسطولان الموحدي والبرتغالي في نفس المكان الذي رسا فيه الأسطول الموحـدي بقيادة غانم بن مردنيش في العام الفائت، وكان التقاؤهما يوم 15 محرم مـن سـنة 577هـ/ أواخر أيار 1181م أي بعد عام تماماً من تاريخ معركة بورتو دي مـوس التي انهزم فيها الموحدين، وهذا من أغرب الأشياء على حد تعبير ابن عذاري[2].

ونشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة أظهر فيها الموحدين مقدرة فائقة في القتال البحري، وتمكنوا من هزيمة البرتغاليين شر هزيمة، وقتل قائدهم روبينو وعدد كبير من جنده، واستولى الموحدون على نحو عشرين سفينة من سفنهم إلى جانـب غنائم جمة، مع أسر حوالي ألف وثمانمائة أسير، وسار القائدان ابن جامع والصقلي إلى مراكش بالأسرى والغنائم، فأمر الخليفة بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم ابن مردنيش وأصحابه، أما الباقين فقد أمر بقتلهم[3].

ويذكر ابن عذاري أنه في الوقت الذي كان فيه الصراع البحري على أشده بين الموحدين والبرتغاليين، استغل أهل طليطلة وشنترين طول غياب الخليفة فأكثروا من شن الغارات على المدن والقواعد الأندلسية[4]، ولا نعلم ما يقصده ابن عذاري فـي طول غياب الخليفة، هل يقصد طول غيابه عن الأندلس، أم طول غيابه في غـزوة قفصة لقمع ثورة ابن الرند. وعلى أي حال اضطر الموحدون إلى الرد على غزوات البرتغال فخرجت من إشبيلية في مستهل محرم سنة 577هـ/1181م حملة موحديـة بقيادة أبي عبدالله محمد بن وانودين الهنتاتي، وسارت نحو الشمال الغربـي تجـاه

(1): قادس: جزيرة بالأندلس من أعمال إشبيلية، تقع في المحيط الأطلسي، يبلغ طولها من الجنوب إلى الشمال اثني عشر ميلاً، وعرضها في أوسع المواضع ميل واحد. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص448؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص167.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145.

(3): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص280؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص101.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145.

مدينة يابرة التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة جماعة دينية تعرف ب " فرسان يابرة "[1].

فعاثوا في نواحيها وغنموا كل ما وجدوه خارج أسوارها، ثم انتسفوا زروعهـــا واشجارها وثمارها، وأمتنع البرتغاليون خلف أسوارها، والمسلمون يغيـــرون جيئـــةً وذهاباً في كل جهاتها دون أن يتجرأ على ايقافهم أحد، وبينما كان المسلمون هذا هو حالهم خرج فرسان يابرة في ذات يوم على حين غفلة من المسلمين واشتبكوا معهـــم في معركة شديدة، غير أن ابن وانودين وجنده تمكنوا من هزيمتهم شر هزيمة حتى تساقطوا في الخنادق بجانب سور المدينة وقتل منهم في ذلك اليوم عدداً كبيراً، ولجأ الباقون إلى المدينة تاركين دوابهم وأسلحتهم فغنمها المسلمون، ثم أقام ابن وانـــودين محاصراً للمدينة يومين فلم يخرج منها أحد، عندئذ قرر الانصـــراف عنهـــا، وفـــي طريق عودته هاجم حصناً آخر للنصارى حيث فاجئ أهله وهم نيام منـــذ ســـاعات الصباح الأولى فاستولى عليه وسبى نساءه وقتل رجاله، ثم عاد إلى إشبيلية ظـــافراً في أواخر شهر محرم / حزيران من نفس العام، فامتدت النعم في المدينة وكثر عند أهلها الخدم[2].

لكن حملة الموحدين هذه لم تثن البرتغاليون عن مواصلة غاراتهم، فقد خرجـــت حملة برتغالية من مدينة شنترين في نفس العام وصلت حتى فحص الشـــرف مـــن أحواز إشبيلية، لكن القوات الموحدية تصدت لها واوقعت ما يقرب من مائة وسبعين قتيلاً بين صفوفها، غير أن البرتغاليين كانوا قد أعدوا كميناً للمسلمين فلمـــا اشـــتد القتال بين الفريقين خرج كمينهم وأوقع بالمسلمين وقتل منهم جماعة[3].

---

(1): فرسان يابرة: هم جماعة دينية محاربة أنشأها الملك ألفونسو هنريكيز سنة 556هـ/1161م وسميت عند تأسيسها بالجماعة المحاربة الجديدة، وكان أول من تولى رئاستها أخو الملك ألفونسو غير الشرعي " بيدرو "، ولما نجحت هذه الجماعة سنة 561هـ/1166م في الاستيلاء على يابرة من يد المسلمين، سموا بـــ " فرسان يابرة ". انظر: أشباخ، تاريخ الأندلس، ص269-270.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص101.

(3): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص191.

ثم عادت القوات البرتغالية في العام التالي سنة 578ه/1182م للاغـــارة ثانيـــة على إشبيلية حيث جهزت مدينتي شنترين وأشبونة حملة مشتركة عبرت وادي يانة حتى وصلت قرية شلوقة[1] في منطقة الشرف، فاقتحموها وقتلوا من وجدوا فيها من المسلمين وغنموا أموالها ومتاعها، ثم أغاروا على حصـــن القصـــر(Caceres)[2] وغيره من حصون المنطقة، وبعد أن اثقلوا بالغنائم والأسرى قفلـــوا عائـــدين عـــن طريق لبلة دون أن يخرج في أثرهم من المسلمين طالب[3].

6.2.4.1.3 حملة الخليفة أبو يعقوب على مدينة شنترين سنة 580ه/1184م:

ساءت أوضاع الأندلس بعد أن غادرها الخليفة أبي يعقوب إلى مـــراكش ســـنة 571ه/1175م فقد نقض القشتاليون والبرتغاليون الهدنة التي قد وقعها معهـــم ســـنة 568ه/1173م، واتحد الملوك الأسبان ضد الموحدين، حيث قام ألفونسو الثامن ملك قشتالة بالتعاون مع ألفونسو الثاني ملك أرغون بالاستيلاء على مدينة قونكة في ربيع الثاني 573ه/ أيلول 1177م[4]. ثم تلا ذلك اقدام الملك القشتالي على قيـــادة حملـــة كبرى ضد المدن الأندلسية سنة 578ه/1182م استهدفت المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة تمخض عنها الاستيلاء على حصن شنتفيلة أهم الحصون الإسلامية في تلك الناحية[5].

(1): شلوقة: تعرف بالاسبانية سان لوكار (Sanlucar)، وهي قرية صغيرة تقع بالقرب من مصب نهر الوادي الكبير. وهناك حصن بالأندلس يحمل نفس الاسم يقع بالقرب من سرقسطة ينسب إليه علي بن اسماعيل بن حزم الخزرجي المشهور بعلم النحو. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ3، ص359.

(2): حصن القصر: من الحصون المشهورة بالأندلس يقع في الشرف على ضفة نهر الوادي الكبير، بينه وبين شلب أربع مراحل، وبينه وبين البحر عشرون ميلاً. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـــ1، ص296؛ الحميري، الروض المعطار، ص276-277.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145.

(4): O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, pp239-241.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص146.

أما عن فرناندو الثاني ملك ليون فقد واصل غزو البلاد الإسلامية منذ مطلع عام 573ه/1177م، مستهدفاً في معظم غزواته مدينة قاصرش فهاجمها غير مــرة دون أن يتمكن من الظفر بها، ولم يكف عن تهديدها إلا عندما علم بقدوم الخليفة للأندلس واقترابه منه وهو في طريقه إلى الاستيلاء على شنترين سنة 580ه/1184م[1].

غير أن التهديد الأكبر للقواعد والمدن الإسلامية في هذه الفترة جاء مــن قبــل مملكة البرتغال، فمنذ أن أصدر البابا اسكندر الثالث سنة 574ه/1179م المرســوم البابوي الذي يعترف باستقلال البرتغال عن قشتالة وليون، ويمنح ألفونسو هنريكيــز لقب ملك[2]، نشطت مملكة البرتغال براً وبحراً في شن الغــارات المتتاليــة علــى الأراضي الأندلسية، حتى لا تكاد أن تمر سنة دون أن يكون هناك غارة أو غارتين للقوات البرتغالية على القواعد الإسلامية هذا خلا الحملات البحرية، وكانــت أكثــر المناطق عرضة للهجمات البرتغالية مدينة باجة ولبلة وبطليوس ونــواحي إشــبيلية الجنوبية والغربية[3].

وبالرغم من محاولات القوات الموحدية في الأندلس رد هذه الغزوات ضد مملكة البرتغال إلا أنها لم تكن جادة ولم تعد بطائل، بل أنها كشفت عن ضــعف القــدرات الدفاعية الموحدية بالأندلس، وما وصول القوات القشتالية والبرتغالية إلــى نــواحي غرناطة واستجة ومالقة ومصب نهر الوادي الكبير[4]، التي تمثل مناطق عمق فــي الوسط الأندلسي، إلا دليلاً على ذلك الضعف.

وكان الخليفة أبو يعقوب على اطلاع مباشر باحداث الأندلس، لكن انشغالة بازالة آثار وباء الطاعون الذي عصف ببلاد المغرب سنة 571-572ه/1175-1176م، والذي هلك فيه جموع كثيرة من بينها عدد من إخوة الخليفة وأقاربه، ثم اضــطرار الخليفة أن يسير بنفسه للقضاء على ثورة ابن الرند في قفصة، جعله يرجئ قضــية

---

(1): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص96؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص310.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، جــ 2، ص31.

(3): العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، جــ2، ص265-268؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص134-138.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145-146.

الأندلس إلى حين. فلما استتبت أمور المغرب للخليفة ونهضت القبائل من جراء ما نزل بها من وباء[1]، رأى الخليفة أن حال الأندلس لا يمكن السكوت عليه، وأنه لا بد له من تنظيم عمل جهادي جديد هناك يقوده بنفسه.

ويذكر ابن عذاري أن الخليفة بدأ بالاعداد لهذا العمل يوم السبت الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة 579ه/1183م، وذلك بقيامه بأمرين؛ أولهما تمييز طوائف الموحدين والعرب والقبائل على أصنافها استعداداً للغزو، والأمر الآخر إصداره الأوامر بصنع عشرة مجانيق جربت بعد صنعها بالرمي أمامه في منطقة البحيرة خارج مراكش، واستمر تواجد الخليفة في منطقة البحيرة طوال شهر جمادى الآخرة يميز الجند ويشرف على الاعداد للغزو، ثم ارتحل في شهر رجب إلى قصره بمراكش فاستقبل أخيه والي مرسية السيد أبو يوسف الذي قدم من الأندلس بصحبة جملة من أعيانها[2].

وفي شهر شعبان من نفس العام قام الخليفة بالخطوة الثانية للاعداد للغزو بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية، وهم السيد أبو اسحاق لولاية إشبيلية كما كان أولاً، والسيد أبو يحيى زكريا لولاية قرطبة، والسيد أبو زيد لولاية غرناطة، والسيد أبو عبدالله لولاية مرسية، وأمرهم بالحركة فوراً إلى مقر أعمالهم، معتبراً سفرهم هو مقدمة لحركة الغزو. وأصدر أوامره في الوقت نفسه بتعيين قضاة جدد إلى جانب أبنائه السادة، وسار الجميع إلى الأندلس في السابع والعشرين من نفس الشهر[3].

أما الخطوة الثالثة التي أتم بها الخليفة الاستعداد للغزو فكانت قسمة السلاح والخيل والبركة على الجند الموحدين والعرب والمطوعة، واستمر تقسيمها منذ منتصف شهر رمضان إلى ما بعد منتصف شهر شوال، وفي يوم السبت الخامس والعشرين من شوال 579ه/ 11 شباط 1184م صدرت الأوامر بالحركة، فخرج الخليفة من مراكش سالكاً باب دكالة وهو أحد أبواب مراكش كان يسلكه الخليفة في

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص322.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص324.

غزواته إلى إفريقية، ووصل في جمعه العظيم إلى مدينة سلا في منتصف ذي القعدة، وهناك قدم عليه محمد بن اسحاق بن جامع من بلاد إفريقية ومعه جملة من الفرسان العرب، فأخبره بهدوئها وسكونها، وأن العرب لما سمعوا بحركة الغزو وخروج الخليفة من باب دكالة فروا بأهليهم وتفرقوا في البلاد[1].

على ضوء هذه الاخبار دعا الخليفة شيوخ الموحدين والعرب وكبار قادة الجند إلى اجتماع عاجل، فلما تم الجمع بعث إليهم ابنه السيد يوسف المنصور وقال لهم " إن سيدنا أمير المؤمنين يقول لكم أنتم قد وصلتم وأجتمعتم وهو يستشيركم في هذه الحركة إما لافريقية وإما للأندلس، فليتكلم كل واحد منكم بمراده. فقالوا بلسان واحد ليس أملنا إلا في غزو الكفار بجزيرة الأندلس، وأعلم أمير المؤمنين بما وقع من كلام فقال الحمد لله على نعمه الكاملة وآلائه الشاملة "[2].

تدفعنا هذه الرواية إلى الشك في وجهة الحملة الحقيقية عند انطلاقها، فهي تشير إلى عدم وجود رأي حاسم في شأن جهة الغزوة هل هي الأندلس أم إفريقية، وفي الحقيقة هناك اشارات نستدل من خلالها على أن فرضية توجه الحملة إلى إفريقية كانت قائمة واستمرت كذلك إلى تاريخ وصول ابن جامع مدينة سلا يوم عشرين من ذي القعدة سنة 579ه/ 5 آذار 1184م.

فعند استذكار ما حصل في إفريقية سنة 579ه/1183م، نلاحظ أن هناك ما كان يدعو لأن يخرج الخليفة لغزوها، ففي أوائل جمادى الأولى منها تمكنت القبائل العربية بقيادة عرب سليم التي كانت قد خلعت طاعة الموحدين، من إلحاق هزيمة فادحة بالجيوش الموحدية بالقرب من قابس وقع على أثرها أخوة الخليفة السيدين أبو علي وأبو موسى في أسرهم[3]، واشترطوا في سبيل الأفراج عنهما فدية كبيرة، فلما بلغ لعلم الخليفة ذلك جمع الموحدين " وأعلمهم بالخبر واتفق الجميع على غزو بني سليم وجهادهم وأخذ الثأر منهم، وكان ورود الخبر بذلك في العاشر من جمادى

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص213؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص282.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص157.

(3): المراكشي، المعجب، ص198؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص97.

الأولى من سنة تسع وسبعين وخمسمائة المذكور "[1]. وتفيد المعلومات بأن الخليفة قرر أن يسبق غزوهم بأن يرسل إليهم الفدية دنانير من النحاس مموهة بالذهب فإن سرت عليهم الحيله كفي حربهم، وإن كان غير ذلك غزاهم[2].

فكان شروع الخليفة بالاعداد للغزوة في مطلع جمادى الثانية، أي بعد مرور أقل من شهر على تمرد قبيلة سليم وهزيمتهم للموحدين، وما خروج الخليفة من باب دكالة وهو باب غزو إفريقية[3]، إلا إشارة اخرى على أن وجهة الحملة قد تكون بلاد إفريقية، مع ترك خيار الأندلس قائماً.

وعندما وصلت الأخبار للخليفة وهو في مدينة سلا بعودة بلاد إفريقية للهدوء، وفرار العرب الذين يخشى شغبهم، علاوة على اطلاقهم سراح أخويه السيدين أبو علي وأبو موسى، كل ذلك كان مدعاة للخليفة أن يجمع شيوخ دولته وكبار قادته ويعاود مشورتهم في جهة الحملة، فلما كان منهم الاجماع على غزو الأندلس وجهاد أعداء الله والدين، فرح بذلك كثيراً وكأنه ما استشارهم إلا ليعلم مدى حبهم للجهاد وتهيئهم للقتال، سيما وأن الخليفة نفسه قد تاق للجهاد منذ أن أنهى تأليفه لكتاب الجهاد في أواخر شعبان من سنة تسع وسبعين وخمسمائة[4].

وهكذا تأكدت وجهة حركة الغزو إلى الأندلس منذ عشرين ذي القعدة سنة 579ه/1183م، وفي هذه الأثناء وردت الأنباء بمنازلة ملك البرتغال لبعض الحصون الإسلامية، فزادت الرغبة في الجهاد وعلت الهمم وارتفعت العزائم، فتقدمت العساكر في الجواز على قنطرة سلا يوم الثامن والعشرين من ذي القعدة، وفي اليوم الثلاثين تحرك موكب الخليفة إلى مكناسة فوصلها في السادس لذي الحجة

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص154.

(2): الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص325؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص98.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص213.

(4): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص437.

وعيد بها عيد الأضحى، ثم ارتحل إلى مدينة فاس فأقام بها بقية الشهر، ومنها كتب إلى ولاة الأندلس أن يستعدوا للجهاد ويتحضروا لاستقبال الحشد العظيم[1].

وفي يوم الثلاثاء الرابع من محرم سنة 580ه/ 17 نيسان 1184م تحرك الخليفة أبو يعقوب من مدينة فاس في موكبه على ما اعتاد عليه الموحدون من ترتيب، إلى أن وصل مدينة سبتة فأقام بها بقية شهر محرم، وأمر في أثناء ذلك الناس بالجواز، فجازت قبائل العرب اولاً، ثم قبائل البربر على الترتيب التالي: زناتة ثم المصامدة ثم مغراوة فصنهاجة وأوربة، ثم جازت جيوش الموحدين والغز[2].

ولما كمل عبور الجيش والمطوعة جاز الخليفة بمن بقي من العبيد والخدم والحرس، وكان جوازه في يوم الخميس 5 صفر / 17 أيار من العام المذكور، فنزل بجبل طارق ثم سار إلى الجزيرة الخضراء ومنها توجه إلى إشبيلية ماراً باركش وشريش فوصلها يوم الجمعة الثالث عشر من شهر صفر / الخامس والعشرين من أيار، وخرج جميع أهل إشبيلية إلى لقائه يتقدمهم قاضي المدينة ابن الجد فسلموا عليه عن آخرهم[3]. وفي اليوم التالي لوصوله أجرى استعرضاً للجيش ووزع عليهم المزيد من السلاح والعتاد، وأخص أشياخ الموحدين والعرب وكبار الجند بألف فرس من عتاق الخيل[4].

أقام الخليفة بإشبيلية نحو أسبوعين ريثما أصلح الناس شؤونهم وأخذوا اهبتهم، كما تلاحقت خلال هذه المدة عساكر أهل الأندلس من قواعدها وجهاتها المختلفة إلى

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص213؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص157-159.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص282.

(3): يتفق ابن أبي زرع وابن عذاري في سرد أحداث حركة ومسار موكب الخليفة والجيش من فاس إلى حين الوصول إلى مدينة إشبيلية، غير انهما يختفلا في تحديد تاريخ وصول الخليفة الخليفة إلى إشبيلية، فإبن أبي زرع يجعله يوم 23 صفر، بينما ابن عذاري يقول 13 صفر. انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص213-214؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص159.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص159.

إشبيلية، وأتى قائد الأسطول أبو العباس الصقلي يخبر الخليفة بجاهزيـــة الأســـطول للغزو وبكل ما يلزم من آلات ومعدات ومؤن[1].

وبعد تشاور الخليفة مع الأشياخ العرب والموحدين وكبار القـــادة فـــي هـــدف الغزوة، استقر الرأي أن تتجه إلى مملكة البرتغال وذلك لأنها كانت أشـــد الممالـــك الأسبانية وطأة في غزو القواعد الأندلسية، ووقع الاختيار على غزو مدينة شـــنترين بالذات التي كان البرتغاليون قد استولوا سنة 542هـ/1147م، لأنها كانت أهم القواعد البرتغالية، والمركز الرئيسي للعدوان على قواعد غرب الأندلس، ومنها انبعثت أكثر الغارات البرتغالية وأعتاها على مهاجمة المدن الإسلامية وخاصة مدينـــة بطليـــوس ونواحي إشبيلية[2]. ثم أن الخليفة أبو يعقوب رأى أنه لا يستطيع محاصرة عاصـــمة البرتغال لشبونة إلا إذا استولى على قلعة شنترين الواقعة إلى الشمال الشرقي منهـــا على ضفة نهر التاجة اليسرى[3].

وكانت خطة الخليفة تقضي بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر والاستيلاء على جميع مدنها حتى نهر الدويرة، وقد حشد لهذه الغاية قوات عظيمة، فالمراكشي يقول أنه استنفر لهذه الغاية أهل السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم[4]، ويقول الذهبي أنه " استنفر أهل السهل والجبل والعرب فعبر بهم الأنـــدلس ونـــزل إشبيلية"[5]، أما ابن الأثير فيقول " سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بـــلاد الأندلس وجاز البحر إليها في جمع عظيم من عساكر المغرب، فإنه جمـــع وحشـــد الفارس والراجل "[6]. وتختلف الروايات في تحديد عدد وقوام الحملة، فابن عذاري

(1): المراكشي، المعجب، ص188؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص159.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص322؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ص232.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص323؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص423.

(4): المراكشي، المعجب، ص188.

(5): الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 53 جزءاً، ط1، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1996م، جـــ40، ص322. سيشار إليه فيما بعد: الذهبي، تاريخ الإسلام.

(6): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ10، ص126.

يذكر أن شيوخ العرب قد ألزموا انفسهم أن يحضروا لهذه الغزوة في مائة وثلاثين الفاً بين فارس وراجل[1]، وهذا رقم مبالغ فيه إذا اقتصرناه على العرب لوحدهم. أما الحميري فيذكر أن عدد جيش الخليفة بلغ في غزوة شنترين حوالي مائة وأربعين الف جندي، ويميزهم بأربعين الف فارس من أنجاد العرب، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس وأجنادها ما ينيف على مائة فارس[2]. بينما يجعل ابن العماد تعداد الجيش مائتان وثمانون الف فارس[3].

بينما تشير روايات المدونات القوطية المتأخرة أن عدد الجيش كان أربعمائة الف فارس وخمسمائة الف من المشاة[4]، وهذا بطبيعة الحال عدد مبالغ به جداً، ومن المشكوك فيه أن يكون في مثل هذه الضخامة، على أن من المسلم به أن حملة شنترين أكثر عدداً من الحملة التي رافقت الخليفة في جوازه الأول إلى الأندلس سنة 566ه/1171م وبلغ تعدادها وقتئذ مائة الف مقاتل[5]. ويقدم لنا أشباخ رأياً أكثر واقعية من هذه المونات، إذ يرى أن الجيش الموحدي الذي قاده الخليفة أبو يعقوب في غزوة شنترين كان يفوق في الكثرة أي جيش آخر قاده ملوك افريقية إلى اسبانيا، وأنه يزيد بمقدار ثمانية وسبعين الف مقاتل عن أعظم جيش قاده المسلمون من افريقيا إلى الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها[6].

ويبدو أن الرواية الأقرب للقبول لدينا من كل ما سبق ذكره هي رواية الحميري، أي أن المجموع الكلي للجيش الموحدي في غزوة شنترين كان حوالي مائة وأربعين الفاً.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص158.

(2): الحميري، الروض المعطار، ص346.

(3): ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي (ت1089ه/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 10 أجزاء، ط1، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت 1986م، جـ6، ص433. سيشار إليه فيما بعد: ابن العماد، شذرات الذهب.

(4): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص193.

(5): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص131.

(6): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص323.

ولكي لا يترك الخليفة مجالاً للملك البرتغالي ألفونسو هنريكيز للتسلح واصلاح القلاع وتزويدها بالحاميات والمؤن، أسرع بالخروج من إشبيلية، فغادرها بجيشه الجرار صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من صفر سنة 580هـ/ 7 حزيران 1184م، فوصل بعد مسير أكثر من عشرة أيام إلى مدينة بطليوس، حيث كان السير بطيئاً هيناً لضخامة العدد والعدة، وفي بطليوس أكمل الخليفة استعداداته، وتجمعت الحشود للمشاركة في الجهاد، وبعد تمييز الجند وتجديد التزود بالمؤن، ارتدت جميع العساكر لباس الحرب[1]، ثم بدأ السير من بطليوس يوم الخميس العاشر لربيع الأول من نفس العام واتخذت الحملة طريقها نحو الشمال الغربي مخترقة الناحية اليسرى من نهر وادي التاجة، وهناك أمر الخليفة الجند الموحدين ومعهم ابنه السيد أبو اسحاق والي إشبيلية أن يتقدموا صوب شنترين لاستطلاع حالها، فعبروا نهر التاجة حتى وقفوا على باب شنترين يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة 580هـ/ 27 حزيران 1184م، ثم تلاهم بقية الجيش يتقدمه الخليفة، فنزلت جميع الجيوش الموحدية بالتل المرتفع المشرف على شنترين من ناحيتها الشرقية[2]. وكان الأسطول الموحدي آنذاك عند مصب نهر وادي يانة متخذاً طريقه نحو سواحل مدينة لشبونة[3](أنظر الخريطة رقم (4)).

---

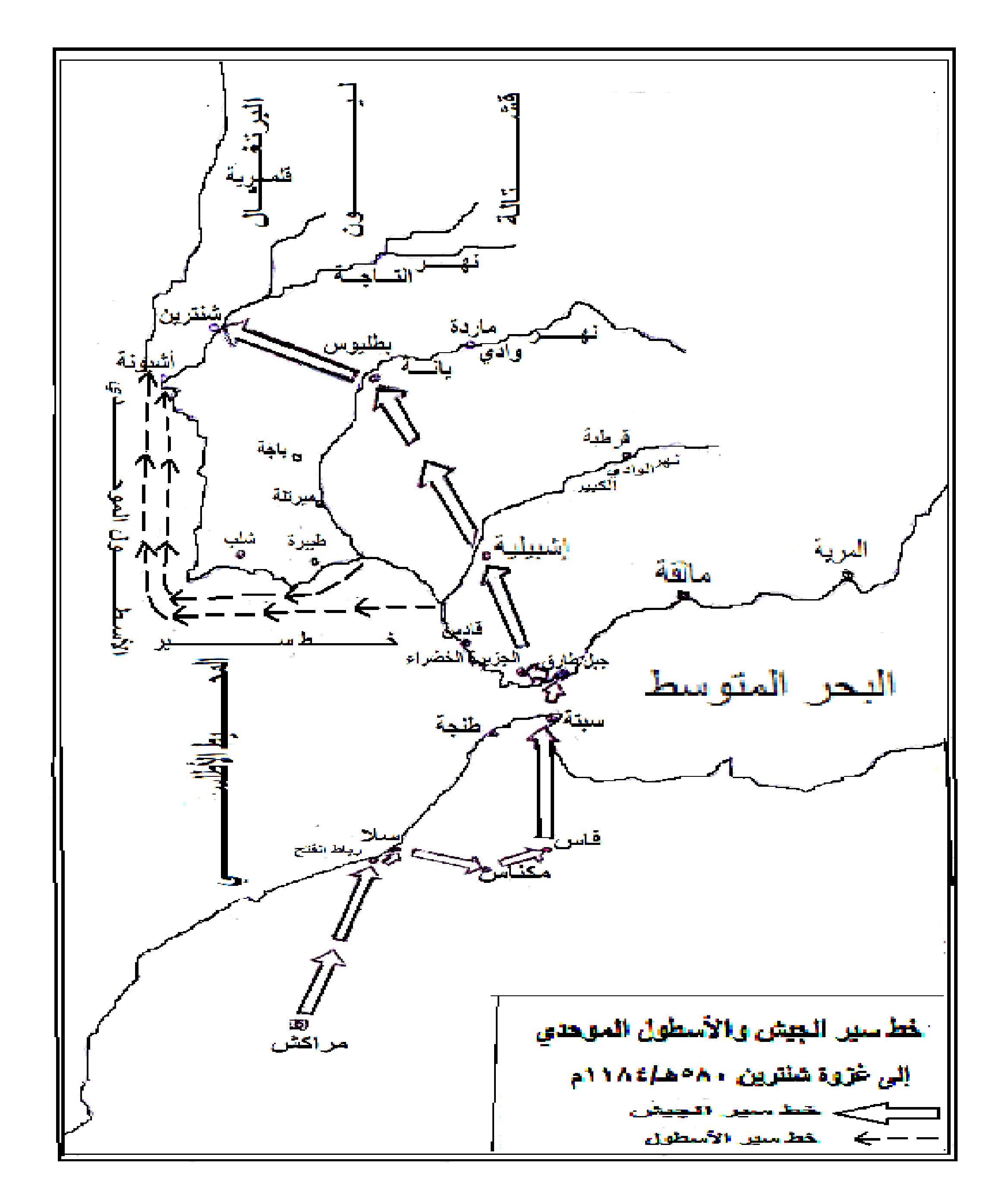
(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص160؛ باشا، ضياء: الأندلس الذاهبة، 3 أجزاء، ط1، تعريب: عبد الرحمن ارشيدات، منشورات وزارة الثقافة، عمان 1989م، جـ3، ص18. سيشار إليه فيما بعد: باشا، الأندلس الذاهبة.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص119.

(3): النشار، تأسيس مملكة البرتغال، ص193.

خريطة رقم (4)(1)

وما كادت القوات الموحدية تنزل بظاهر شنترين التي كانت حينئذ مـــن أمنـــع



القواعد البرتغالية وأكبرها في غربي الأندلس، حتى أمر الخليفة بان يتقدم الجند نحو أبواب المدينة، وأن يضربوا حولها الحصار، فنزل الجند يوم الخميس السابع عشـــر

---

(1): الخريطة من إعداد الباحث.

من ربيع الأول في الربض الواقع في جنوبها الشرقي، ونصبوا فيه خيمة الخليفة، وقد ملأت في ذلك اليوم أيديهم بالخيرات والأقوات حتى بيعت خمسة عشر مداً من القمح بدرهم(1).

أما عن البرتغاليين فقد احتشدوا بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز داخل أسوار شنترين وقصبتها، واتخذوا أعظم اهبة للدفاع عنها، ويبين لنا المراكشي استعدادات الملك ألفونسو للدفاع عن مدينة شنترين فيقول " وكان ابن الريق – لعنه الله – حين سمع بحركة أبي يعقوب إليه وصح عنده أنه يقصده، نظر في أمره، فلم ير له طاقة بدفاعه، ولا نهضة لمقاومته، فلم يكن له هم إلا أن جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوي الغناء من قواده وسائر أتباعه، ودخل بهم مدينة شنترين، واثقاً بحصانتها وشدة منعتها، هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسلاحاً وجمع ما يحتاج إليه، وجلل أسوارها مقاتلة معهم الدرق والقسي(2) والحراب إلى غير ذلك مما يحتاج إليه "(3).

وقضى الموحدون ليلة الجمعة الثامن عشر لربيع الأول على أحسن حال وقد أملوا في دخول المدينة وأعدوا السلالم لذلك، وفي صبيحة يوم الجمعة 19 ربيع الأول بدأ الموحدون الهجوم على المدينة وتمكنوا من هزيمة قوة نصرانية خرجت لقتالهم، واستولوا في هذا اليوم على جميع المدينة خلا قلعتها، وهدموا الكنيستان اللتان بها وخربوا دورها ودمروا مزارعها، فما زاد ذلك أهلها إلا صرامة وشدة وجلداً، وفي اليوم التالي وهو يوم السبت استؤنف القتال من جديد واستمر المسلمون

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص160.

(2): الدرق هي نوع من التراس تتخذ من الجلود بدون خشب ولا عقب، وتستخدم لحماية الجسم من ضربات السيوف والسهام، أما القسي فهي نوع من الأسلحة التي تصنع من قرون الأيل والتيوس البرية. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711ه/1311م): لسان العرب، 20 جزءاً، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (د. ت)، جـ11، ص384. سيشار إليه فيما بعد: ابن منظور، لسان العرب؛ الزغول، جهاد غالب: الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897ه/ 711-1492م)، ط1، مركز الأفق، عمان 2001م، ص208. سيشار إليه فيما بعد: الزغول، الحرف والصناعات.

(3): المراكشي، المعجب، ص188-189.

والنصارى في قتال حتى يوم الأثنين 21 ربيع الأول 580ه/ 2 تمــوز 1184م[1]، غير أنه في هذا اليوم حدثت خطوب في الجيش الموحدي أثرت سلباً فــي مصــير المعركة وأنذرت بفشل الحملة، وذلك أنه في الوقت الذي أحكــم فيــه الموحــدون الحصار على المدينة وجدّوا في ارهاق أهلها حتى أصبحت المدينــة علــى وشــك التسليم، أمر الخليفة بشكل مفاجئ وقف القتال ونقل موضع الجيش من شرقي المدينة إلى غربها، وعلى الرغم مما أبداه بعض القادة الموحدين من انكارهم لذلك خشية أن يتعرض الجيش إلى خطر التضييق من جانب البرتغاليين، إلا أن الخليفة أصر على رأيه ونفذت في النهاية إرادته[2]. كما حدث في هذا اليوم أن الفقيه الذي كان يصلي بالخليفة الجمعة اختل عقله عند رؤيته شدة الحرب وأصيب بالجنون فركب فرســه وهرب إلى النصارى مستجيراً بهم، فقتلوه[3].

كان لهذه الأحداث وقع سيء في نفوس الجند والقادة، نتج عنها اضطراب فــي موقفهم واختلال صفوفهم، وفي مساء ذلك اليوم تطورت الأحداث تطــوراً ســريعاً أفضت إلى رفع الحصار عن المدينة وترويح الجيوش.

وتخلتف الروايات في تعليل وقف الموحدين للقتال ورفعهم للحصار على هــذا النحو السريع والمفاجئ، إلى حد يصعب معها اســتجلاء مــا حــدث، فالمراكشــي المعاصر نوعاً ما للأحداث إذ كان يستقي معلوماته من أبناء الخليفة أبــي يعقــوب، يذكر أنه لما بالغ الخليفة في التضييق على المدينة وانتسف زروعها ومعايشها لــم يزد ذلك أهلها إلا قوة وصبر على مشاق الحصار، فخشي الموحدون مــن هجــوم البرد وكان الوقت آخر فصل الخريف، وخافوا من ارتفاع منسوب النهر الأمر الذي قد يعيق عبورهم، فاشاروا على الخليفة رفع الحصار والرحيل عن المدينة، على أمل العودة لها ثانية، وصورا له أنها في يده، لا يمنعه منها مانع، فاستمع الخليفــة إلــى نصحهم وقال: نحن راحلون غداً إن شاء الله، ولم يطلع على هذا الحــديث ســوى

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص161؛ سالم، تاريخ المغرب، ص714-715؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص150.

(2): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص282؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص323-324.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص162.

الخاصة، وكان أول من قوض خيمته وجهز نفسه للرحيل أبو الحسن علي بن عبدالله المالقي[1]، وكان صاحب مكانة واعتبار عند الموحدين، فلما رأى الناس صنعه حذو حذوه فقوضوا خيامهم ثقة به، وبدأوا بالرحيل منذ وقت العشاء واستمروا يعبـــرون الليل كله يريدون التقدم خشية الزحام، حتى لم يبق إلا من كان بقرب الخليفة، فلمـــا رأى النصارى ما عزم عليه الموحدين من الرحيل، هاجموا معسكر الخليفة وقتلـــوا عدد من الجند حتى أنهم أصابوا الخليفة نفسه بجراح خطيرة توفي على أثرهـــا[2]. ويأخذ برواية المراكشي ابن خلكان[3] والذهبي[4] في ترجمتهم للخليفة أبي يعقوب.

ومما تجدر ملاحظته على هذه الرواية أنه يشوبها الكثير من الغموض، فـــنحن نعلم أن حصار الموحدين للمدينة كان في نهاية حزيران – بداية تموز، أي في أوائل الصيف وليس في نهاية الخريف كما يدعي المراكشي، ثم أن الحصار لـــم يســـتمر سوى ستة أيام، من الأربعاء 16 ربيع الأول إلى الأثنين 21 ربيع الأول، فكيف يمل القوم والحصار لم يدم سوى أيام قلائل. وعلى ذلك نرى أن روايـــة المراكشـــي لا تحمل التفسير المنطقي لما حصل حقاً.

أما ابن أبي زرع فيجعل الانسحاب المفاجئ للموحدين سببه اللبس الذي حـــدث في فهم أوامر الخليفة، فيذكر أن الخليفة بعث بعد أن فرغ من صلاة العشاء وجـــن الليل رسول إلى ابنه أبي اسحاق والي إشبيلية، يأمره بالرحيل إلـــى غـــزو مدينـــة

---

(1): هو أبو الحسن علي بن عبدالله بن عبد الرحمن المالقي، كان يتولى الخطبة للخليفة أبي يعقوب فعرف بـــ " خطيب الخلافة "، وكان على معرفة واسعة بالفقة والحديث والشعر وصناعة الكتابة، وقد عمل والده قاضياً عند الخليفة عبد المؤمن بن علي وصدراً من خلافة أبي يعقوب، ويذكر ابن عذاري انه استشهد تحت أسوار شنترين سنة 580ه/1184م.انظر: المراكشي، المعجب، ص150،189؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص164.

(2): المراكشي، المعجب، ص189.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ7، ص135-136.

(4): الذهبي: العبر في خبر من غبر، الجزء الثالث، ط1، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت 1985م، ص80. سيشار إليه فيما بعد: الذهبي، العبر؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـــ40، ص322-323.

أشبونة (لشبونة) وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة، على أن يكون رحيله نهاراً. غير أن الرسول أساء الفهم وأبلغ أبا اسحاق بالتوجه إلى إشبيلية بدلاً من أشـــبونة، فشاع الخبر بين الجند وتأهبوا للرحيل، ورحل منهم طائفة في الليل، ثم أخذ الجيش بالتسلل والانسحاب حتى لما أصبح الخليفة وأضاء النهار لم يجد حوله إلا اليسير من خاصته، يقول ابن أبي زرع " فلما جن الليل وصلى العشاء الأخيرة بعث إلى ولـــده السيد أبي اسحاق.. فأمره بالرحيل إلى غزو مدينة أشبونة.. وأن يسير إليها بجيوش الأندلس خاصة ويكون رحيله نهاراً.. فأساء الفهم .. وصرخ الشيطان في محـــلات المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل هذه الليلة فتحـــدث النـــاس بـــذلك وتأهبوا، فرحل من الناس طائفة بالليل، فلما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو اســـحاق وأقلع من كان يليه وتتابع الناس بالرحيل، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم بمكانـــه لا علم عنده.. فلما أصبح لم يجد حوله احداً من أهل محلته إلا اليسير مـــن خاصـــته وحشمه الذين يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله.. فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون من سور المدينة على المحلة.. ولم يبق حـــول المدينـــة غيـــر أميـــر المؤمنين.. ففتحوا أبواب المدينة وخرج جميع من فيها.. إلى أن وصلوا أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموا عليه فيها "[1].

وتبدو رواية ابن أبي زرع أكثر قبولاً من رواية المراكشي مع ما يمكن أن يثار حولها من شكوك، فكيف لهذا العدد الضخم الذي يفوق المائة الف رجل، أن يرحـــل في غضون ساعات بسيطة ويعبر النهر وخلال الليل بحيث ما أن تشـــرق الشـــمس حتى يكون جميعه قد أقلع وليس للخليفة علم بذلك ؟!.

أما ابن الأثير فيجعل سبب الانسحاب وحالة الاضطراب هو مرض الخليفة مما اضطر الجيش للانسحاب بعد حصار المدينة شهراً[2]، ويؤيد الحميري ما ذهب إليه ابن الأثير غير أنه يحدد مدة الحصار بعشرين يوماً[3]. وفي الواقع حسب ما تجمـــع

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص215.

(2): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـــ10، ص126.

(3): الحميري، الروض المعطار، ص346.

عليه الروايات فان الحصار لم يدم سوى ستة أيام ثم أن مرض الخليفة ووفاته كانت من الجراح التي اصيب بها في ساحة القتال.

ويقدم لنا ابن العماد رواية مضطربة تفيد أن سبب انسحاب الجـيش الموحـدي وفشله في اقتحام أسوار شنترين يعود إلى خيانة وزير الخليفة ابن المالقي، إذ يقول أن الوزير ابن المالقي طلب من العساكر أن يعودوا إلى مراكش، موهماً إيـاهم أن الخليفة هو الذي أمر بذلك، فلما ارتحل الجند ليلاً أرسل إلى الملك القشتالي ألفونسو الثامن يخبره برحيل الجيش الموحدي وأنه لم يبق مع الخليفة سوى نفر قليـل مـن الجند، فقام الملك ألفونسو بمهاجمة معسكر الخليفة وطعنه في جنبـه، فمـات بعـد يومين[1].

ومما يمكن ملاحظته على هذه الرواية هو أنها تجعل الحملة على مملكة قشتالة وليس البرتغال فهي تقول " أغار ملك طليطلة على بلاد الأندلس، فعدا إليه يوسـف في مائتي ألف فارس وثمانين الفاً فنزل على بلاد الفنش، فخامر عليه وزيـره ابـن المالقي، وقال للعساكر إن أمير المؤمنين يأمركم أن تعدوا إلى مراكش.. وأرسل إلى الفنش يقول له ادهمه.. فجاء الفنش، فالتقاه يوسف فطعنه في جنبه "[2]، ثم أنهـا لا تحدد وجهة الحملة تحديداً دقيقاً بل تكتفي بالاشارة إلى أنها كانت على بلاد الملـك ألفونسو.

أما عن خيانة الوزير ابن المالقي، فلعل الأمر لم يصل إلى درجة الخيانة، فقـد كان ابن المالقي أول من قوض خيمته للرحيل وعندما شاهده الناس يفعل ذلك حـذو حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة، ويذكر عن الخليفه أنـه لمـا رأى الناس قد رحلوا في اليوم التالي سأل عن سبب ذلك، فقيل له ما فعله ابن المـالقي، فقال الخليفة يتوعده " سيجني ثمرتها إن شاء الله "، فلما بلغ ذلك لابن المالقي هرب حتى دخل مدينة شنترين فاراً بنفسه فاحسن الملك ألفونسو هنريكيز استقباله ثم قتلـه

---

(1): ابن العماد، شذرات الذهب، جـ6، ص433.

(2): ابن العماد، شذرات الذهب، جـ6، ص433.

فيما بعد عندما علم أنه يراسل المسلمين ويـــدعوهم مـــرة اخـــرى لمعـــاودة فـــتح شنترين[1].

أما ابن عذاري فيشير إلى أن سبب الانسحاب ورفح الحصار هو طـــول المـــدة التي قضاها الجيش الموحدي في حصار المدينة دون أن يظفر منها بطائل، فيقول " فلما استراثت من جهاتها الأنباء، وطال لغير طائل الثواء، عزم أمير المؤمنين على الارتحال، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة، فأمر بالرحيل ليلاً فاضطرب اقلاع الناس اضطراباً شديداً.. وتوهم الناس أن الأمير قد أقلع واحتاط لاجازة النهر مبكراً وبادر للتقدم"[2].

وجاءت رواية ابن خلدون والزركشي مختصرة عن غزوة شنترين، فهي علـــى نص واحد كالتالي " ورحل غازياً – الخليفة أبو يعقوب – إلى شنترين فحاصـــرها أياماً، ثم أقلع عنها وأسحر الناس يوم اقلاعه، وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير اهبة ولا استعداد، فأبلى في الجهاد هو ومن حضره، وانصرفوا بعد جولة شديدة، وهلك في ذلك اليوم الخليفة "[3].

هذه مجمل الروايات الإسلامية التي عرضت لتفاصيل أحداث الدور الأخير من غزوة شنترين، أما إذا انتقلنا إلى الرواية النصرانية، فنجدها تعطينا تعلـــيلاً أكثـــر وضوحاً عن اسباب انسحاب الجيش الموحدي، فهي ترجح الانســـحاب إلـــى حالـــة الاضطراب التي حدثت في الجيش الموحدي من جراء تغيير مواقع المعسكر الـــذي أمر به الخليفة أبو يعقوب وحده خلافاً لنصح قادته، ثم أن زحف الأمير سانشو ابـــن الملك ألفونسو هنريكيز على شنترين في الليلة الاخيرة للحصار الموحدي في جيش بلغ قوامه خمسة عشر الف مقاتل ساهم في انتشار الاضطراب والروع في جميـــع المعسكر الإسلامي، غير أن الحدث الأبرز الذي عجل في انسحاب الموحدين حسب الرواية النصرانية هو ذيوع خبر مالبث أن تأكد سريعاً وهو مقدم الملـــك فرنانـــدو

---

(1): المراكشي، المعجب، ص190.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص163.

(3): ابن خلدون، العبر، جـــ 6، ص325؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14.

الثاني ملك ليون في قواته لانجاد المدينة المحصورة[1]. ولعل قدوم الملك فرنانــدو بهذا الشكل هو ما دفع الخليفة لتغيير خطته في حصار شنترين وجعله يتخذ قــرار الانسحاب خشية أن يعمل الجيش الليوني على اعاقة عبور الموحدين لنهر التاجة، أو أن تتعاون القوتان الليونية والبرتغالية في تحطيم قواته.

وإذا كان هناك اضطراب في تعليل سبب الانسحاب، فإن من المحقق أن معظم الجيش الموحدي قد انسحب خلال الليل دون علم الخليفة، فلما اقبل الصــباح وجــد الخليفة نفسه وحيداً في ساحة المعركة مع اليسير من قادة الأندلس وبعض حراســه وخدمه الذين يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله، فلما علم البرتغاليون عــن طريــق عيونهم بما جرى في معسكر الموحدين وتحققوا من رحيل معظم جــيش الخليفــة، شنوا هجوماً خاطفاً على المعسكر الموحدي إلى أن وصلوا إلى خيمه الخليفة، فقاتلهم بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال غير أن أحدهم طعنه تحت سرته، فتصايح الفرسان والعبيد وقادة الأندلس، وتدارك الجند حين سمعوا الصرخات فتجمعوا ثانية، وعادوا يحمون الخليفة وقد اضطرمت نفوسهم غيظاً وحنقاً، فهــاجموا القــوات البرتغاليــة وفتكوا بها إلى أن ردوها إلى داخل المدينة وهم يعملون السيف بهم وقتلــوا مــنهم زهاء عشرة آلاف، ثم ارتحل الناس نحو إشبيلية يحملون الخليفة على محفة، غيــر أنه لم يلبث أن مات بعد يومان أو ثلاثة متأثراً بجراحه، فحملت جثته إلى إشــبيلية ومنها أرسلت إلى تينملل حيث دفن بجوار والده عبد المؤمن [2].

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص324-325؛

O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p241.

(2): المراكشي، المعجب، ص189-191؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص214-215؛ الذهبي، العبر، جــ3، ص80؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جــ1، ص271؛ سالم، تاريخ المغرب، ص715؛ باشا، الأندلس الذاهبة، جــ3، ص19؛ مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، 2004م، ص222. سيشار إليه فيما بعد: مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس؛ السرجاني، راغب: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، جزءان، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة 2011م، جــ2، ص573-574. سيشار إليه فيما بعد: السرجاني، قصة الأندلس.

أما عن الأسطول الموحدي الذي توجه لحصار أشبونة بحراً فقد ظل ينازلها دون أن يحصل على كسب يذكر، ولما علم بهزيمة القوات البرية وانسحابها عاد هو الآخر أدراجه منسحباً[1].

وفيما يتعلق بخسائر الجيش الموحدي في هذه الغزوة فقد سكتت عن ذكرها الروايات الإسلامية، في حين قدرت الرواية النصرانية قتلى المسلمين بنحو ثلاثين الفاً[2].

وهكذا انتهت غزوة شنترين بالفشل، وأقل ما يمكن أن يقال عنها أنها كانت تفتقر إلى القيادة المنظمة والتخطيط السليم، فالخليفة أبو يعقوب جمع كل أسباب القيادة بيده ولم يكن يحفل بنصح القادة البارزين ولا مشورة الشيوخ الناضجين. ثم أن الجيش الموحدي على الرغم من ضخامته كان هشاً مفككاً من الداخل يضم أمماً وطوائف شتى لا تجمعهم قيادة حازمة ولا أهداف مشتركة، الأمر الذي جعل من السهل اختراقه ففعلت به الإشاعات فعلتها وانجرف خلفها غير آبه بالنتائج.

ومع ذلك نستطيع القول أن غزو شنترين كانت محاولة جادة من قبل الخليفة أبي يعقوب لاستعادة مدينة شنترين التي انقضى على سقوطها بيد النصارى قرابة أربعين سنة، سعى من خلالها الخليفة لوقف خطر توسع مملكة البرتغال على حساب المسلمين في غرب الأندلس، وأن المحاولة كاد أن يكتب لها النجاح لولا أخطاء بسيطة كان يمكن تداركها.

2.3 علاقات الموحدين مع بني غانية في الجزائر الشرقية:

1.2.3 الجزائر الشرقية... الموقع والأهمية:

يطلق اسم الجزائر الشرقية على مجموعة من الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسط، وجاءت تسمية العرب لها ب " الجزائر الشرقية " أو " جزر شرق الأندلس " لوقوعها شرق الأندلس قبالة برشلونة وبلنسية[3]. أما تسميتها ب " جزر البليار "

---

(1): السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص60.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص325.

(3): البكري، جغرافية الأندلس، ص66؛ مؤنس، رحلة الأندلس، ص234.

فقد جاءت من " بليارس (Baliares) وهو الاسم الذي اطلقه اليونانيون ثم الرومان من بعدهم عليها[(1)].

وتتكون الجزائر الشرقية من ثلاثة جزر رئيسية هي ميورقة ومنورقة ويابسة، وميورقة هي أكبرها وهي تتوسط الجزر الثلاث، ويابسة أقربها لبلاد الأندلس ومنورقة أبعدها، يقول الادريسي " أما جزيرة يابسة فانها جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب وبها مدينة صغيرة متحضرة وأقرب الأندلس إليها مدينة دانية[(2)] وبينهما مجرى[(3)]، وفي شرقي جزيرة يابسة جزيرة ميورقة وبينهما مجرى وبها مدينة كبيرة لها مالك وحارس.. وبالشرق منها ايضاً جزيرة منورقة تقابل مدينة برشلونة وبينهما مجرى "[(4)]. وقد أثار جمال وروعة هذه الجزر حسين مؤنس عند زيارته لها فوصفها بقوله " مجموعة من الجزر ساجية بين أمواج البحر كأنها جنة صغيرة تظفر فيها بما شئت من رياض وجبال وشطآن رائعة الجمال ونسائم تبعث في النفس الحياة "[(5)].

وتقوم جزيرة ميورقة بمقام الأم لجزيرتي منورقة ويابسة، وهي عاصمة الجزائر كلها، وبها دار ملك بني غانية، يقول الحميري " ميورقة أم هاتين الجزيريتين وهما بنتاها وإليها مع الأيام خراجهما "[(6)]. هذا وقد أجاد الجغرافيون المسلمون وصف جمال هذه الجزيرة ومعالمها، فيقول عنها ابن سعد " طول هذه الجزيرة أربعون ميلاً، من اخصب بلاد الله، وفيها بحيرة دورها تسعة أميال، وفيها

---

(1): سيسالم، عصام سالم: جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار 89-685ه/708-1287م)، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1984م، ص16. سيشار إليه فيما بعد: سيسالم، جزر الأندلس المنسية.

(2): دانية (Denia): مدينة بشرق الأندلس تقع على شاطئ البحر المتوسط قبالة جزيرة يابسة، وفي منتصف المسافة بين لقنت وبلنسية. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص231-232؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص145.

(3): المجرى يعادل مائة ميل. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص616.

(4): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص214.

(5): مؤنس، رحلة الأندلس، ص234.

(6): الحميري، الروض المعطار، ص567.

حصون، وقاعدتها مدينة ميورقة بالجهة القبلية من الجزيرة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وواد شتوي يشق المدينة "[1]. أما الشقندي فقد تغنى بخصوبة أرضها وثرواتها قائلاً: " أما جزيرة ميورقة فمن اخصب بلاد الله تعالى أرجاء، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية. وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها، يصل فاضل خيرها إلى غيرها "[2].

وكان الفتح الإسلامي الأول للجزائر الشرقية عام 89هـ/708م، على يد عبدالله ابن موسى بن نصير[3]، أي قبل فتح الأندلس بثلاث سنوات، لكن سرعان ما تناساها المسلمين، وظل ذلك زمناً طويلاً حتى تنبه الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/822-852م) إلى أهميتها لحماية شواطئ الأندلس الشرقية، فأرسل إليها أسطولاً من ثلاثمائة سفينة سنة 234هـ/848م وأعاد فتحها من جديد وضمها إلى دولته، وبعد ذلك بست وخمسين سنة، أي سنة 291هـ/903م، مر بجزيرة ميورقة رجل من أهل الأندلس يسمى عصام الخولاني، كان في طريقه إلى الحج، فقضى فيها وقتاً أنفقه في التجول في نواحيها، فتبينت له أهميتها وثروتها، وبعد أن أدى الفريضة، وعاد إلى الأندلس، مضى إلى الأمير عبدالله بن محمد (272-300هـ/888-912م) سابع أمراء الدولة الأموية، وبسط له أمر فتحها، ثم جمع نفراً من المجاهدين المتطوعين وعبر البحر إلى الجزائر الشرقية وأتم فتحها النهائي وذلك سنة 290هـ/903م، وأنشأ فيها الخولاني نظاماً إسلامياً، وأقره الأمير عبد الرحمن الناصر(300-350هـ/912-962م) على حكمها، وتوافد المسلمون على تلك الجزر

(1): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص466.

(2): الشقندي، اسماعيل بن محمد (ت629هـ/1232م): فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم وابن سعيد والشقندي، ط1، نشرها وقدم لها: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، 1968م، ص59. سيشار إليه فيما بعد: الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها.

(3): هو عبدالله بن موسى بن نصير اللخمي، من رجال الفتوح في المغرب، استخلفه أبوه على القيروان سنة 93هـ/712م، واستمر إلى أن عزله الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سنة 97هـ/716م، ومات مقتولاً سنة 103هـ/722م. انظر: الزركلي، الأعلام، جـ4، ص140-141.

فعمهروها، ولم تزل أهميتها تزداد حتـــى قيـــام دولـــة الموحـــدين فـــي المغـــرب والأندلس[1].

2.2.3 **التعريف ببني غانية:**

يعود بنو غانية في نسبهم إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية، ثانية أعظم القبائل التـــي قام عليها ملك المرابطين بعد قبيلة لمتونة، وكان أبو علي يحيى المسوفي أول مـــن لمع نجمه من هذه الأسرة، فهو من أوائل من دخل في الدعوة المرابطية من قبيلـــة مسوفة، ونظراً لما كان يتمتع به من شخصية قوية وخصال حميدة ومكانة عالية في قومه جعله الأمير يوسف بن تاشفين مقرباً عنده، وحدث أن اختلف يوماً ابنه علـــي مع أحد رجال قبيلة لمتونه وقتله، فهرب علي بن يحيي المسوفي خشية القتـــل إلـــى الصحراء، ثم تدخل الأمير يوسف بن تاشفين ودفع دية القتيل مـــن مالـــه الخـــاص واسترجع علي من مقره بالصحراء بعد مرور عدة سنين، وزوجه امرأة مـــن أهـــل بيته تسمى " غانية "، فانجبت منه ولدين هما يحيى ومحمد اللذين كفل الأمير يوسف رعايتهما[2].

ولما كانت النسبة إلى الأمهات شائعة في عهد المرابطين فقد نسب محمد ويحيى وأحفادهما إلى أمهما " غانية "[3]، ومن هنا جاءت تسمية بني غانية. وهناك شواهد

---

(1): ابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ/ 889م): الإمامة والسياسة، جزءان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م، جـ 2، 235-236. سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة؛ مؤنس، رحلة الأندلس، ص235؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص86-87.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص252-253.

(3): أحمد، علي: الموحدون وبني غانية، مجلة دراسات تاريخية، السنة العاشرة، العددان 31 و32، آذار – حزيران 1989م، ص187. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، الموحدون وبني غانية.

كثيرة في الدولة لقادة بارزين انتسبوا إلى امهاتهم مثل أبو عبدالله ابن عائشه[1] وأبو محمد عبدالله بن فاطمه[2] وغيرهم كثير.

ولما تولي الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم خلفاً لوالــده أحــاط يحيــى ومحمد أبناء علي المسوفي جل عنايته ورعايته، ثم ولاهم أعمالاً إدارية في الأندلس منذ سن مبكرة، فقد ولّى يحيى وهو الأكبر سناً عاملاً على مدينة استجة وهــو مــا يزال شاباً صغيراً " فكان حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افتــرق في كثير من الناس"[3]، ثم رغب والي بلنسية يدر بن ورقاء من الأمير علــي بــن يوسف أن يوجه إليه يحيى بن علي بن غانية ليستعين به على قتال النصــارى لمــا اشتهر به يحيى من بسالة وشجاعة فأجيب إلى ذلك، وأسند إليه ابن ورقــاء عمــل مرسية، فلما توفي يدر بن ورقاء سنة 524ه/1129م، ضم الأمير علي بن يوســف عمل بلنسية إلى عمل مرسية وعين عليهما يحيى بن غانية الذي اصبح نظره يشمل

(1): هو الأمير أبو عبدالله محمد بن يوسف بن تاشفين ويعرف بابن عائشه، وكان من كبار القادة المرابطين، عينه أبوه الأمير يوسف بن تاشفين قائداً على شرق الأندلس بعد أن عاث السيد القنبيطور فيه فساداً، ولم يكن في قواده رجلاً مثله بأساً وجداً في نصرة الدين، وله على االنصارى وقائع جمة، وهو الذي فتح حصن البط الشهير المنعة، وشارك في غزوة برشلونة مع ابن الحاج سنة 508ه/1115م، ثم لم يلبث أن عمي. انظر: ابن الآبار، المعجم، ص62؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص101-102.

(2): هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن فاطمه، وهو أحد مشاهير القواد المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي، ولاه الأمير يوسف بن تاشفين على بلنسية سنة 497ه/1104م، ولما تولى الأمير علي بن تاشفين الحكم بعدوفاة والده أقره في منصبه، وفي سنة 501ه/1108م اشترك مع ابن عائشة في فتح أقليش، وفي سنة 503ه/1110م عين والياً على غرناطة، ثم انتقل لولاية فاس سنة 504ه/1111م، وبعد عدة سنوات عاد للأندلس والياً على إشبيلية فحكمها حتى وفاته سنة 511ه/1118م. انظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص65؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص112.

(3): المراكشي، المعجب، ص196.

شرقي الأندلس كله[1]. ثم في سنة 538ه/1143م نقله الأمير تاشفين بن علي من ولاية بلنسية إلى قرطبة وملحقاتها فلم يزل بها والياً إلى أن وجه إليه الخليفة عبد المؤمن بن علي من يخضعه فتخلى عن قرطبة ولجأ إلى غرناطة ليلقى بها حتفه سنة 543ه/1148م[2].

أما الأخ الأصغر محمد وهو ما يهمنا هنا فقد أرسله الأمير علي بن يوسف ابن تاشفين سنة 520ه/1126م إلى الجزائر الشرقية لاخماد ثورة قامت هناك ضد واليها المرابطي وانور بن أبي بكر اللمتوني[3]، ويذكر ابن خلدون سبب هذه الثورة هو أن الوالي وانور حاول أن يرغم أهل الجزر على بناء مدينة جديدة له بعيدة عن البحر بدلاً من مدينة ميورقة " فامتنعوا، وقتل مقدمهم فثاروا به وحبسوه ومضوا إلى علي ابن تاشفين فأعفاهم منه وولى عليهم محمد بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانيه"[4].

أما المراكشي فله رأي آخر في سبب بعث محمد بن غانية إلى الجزائر الشرقية فيقول " إن أمير المسلمين علي بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها "[5]. لكن هذه الرواية تبدو ضعيفة، فأسرة بني غانية كانت شديدة الولاء للمرابطين وبقيت على ولاءها لهم حتى بعد زوال دولتهم، ثم كيف ينقم الأمير على محمد بن غانية في حين يعين أخيه يحيى عاملاً على مرسية في شرق الأندلس القريبة من الجزائر الشرقية، ثم لو صحة رواية المراكشي أن محمد كان منفياً لتلك الجزائر لوجدناه

---

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص245؛ إلياس، علي قنبر: أسرة بني غانية ودورهم السياسي والعسكري في التصدي لدولة الموحدين في المغرب والأندلس، مجلة التربية والعلم، المجلد (17)، العدد (1)، لسنة 2010م، ص90. سيشار إليه فيما بعد: إلياس، أسرة بني غانية.

(2): الضبي، بغية الملتمس، جـ1، ص64؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص205-206؛ مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج2، جـ1، ص133.

(3): الحجي، التاريخ الأندلسي، 448؛ السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم، ص268؛ إلياس، أسرة بني غانية، ص90.

(4): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص325-326.

(5): المراكشي، المعجب، ص196.

يخلع طاعة المرابطين ويعلن ولاءه للموحدين، غير أنه ظل موالياً للمرابطين حتى وفاته.

هذا وقد نجح محمد بن غانية بعد توليته عاملاً على الجزائر الشرقية من اصلاح ما فسد من أمورها على يد واليها وانور اللمتوني ليؤسس إمارة مستقله له ولنسله من بعده فيها، وازدات مكانته رسوخاً بعد تولية أخيه يحيى عاملاً على شرق الأندلس كله. وبقي محمد بن غانية يقوم بأمر الجزائر الشرقية حتى سنة 537ه/1142م حيث توجه في هذه السنة بصحبة ابنه عبدالله من ميورقة على رأس بعض قطعاته البحرية إلى الأندلس ليقف إلى جانب أخيه يحيى في ظل الأحداث الخطيرة التي اجتاحت الأندلس مع تعاظم أمر الموحدين[1]. غير أنه عندما اشتدت الفتنة الأندلسية على المرابطين سنة 539ه/1145م طلب يحيى بن غانيه من أخيه محمد أن يسير في سفنه وجنده للجزائر الشرقية ويظفر بها لتكون ملجأ أمين لبني غانية عند الحاجة، فاسرع محمد ابن غانيه وجمع من التف حوله من رجال المرابطين في شرقي الأندلس لتنفيذ رغبة أخيه، وقصدوا مدينة دانية ومنها ساروا إلى الجزائر الشرقية فاستولى عليها وانفرد بأمرها[2]، يقول ابن الآبار في معرض حديثه عن مرسية خلال ثورة الأندلس على المرابطين وكان واليها عندئذ عبدالله بن محمد بن غانيه، أنه في آخر شوال من سنة 539ه/1145م " اضطربت مرسية.. فلم يجد عبدالله بن محمد بداً من الفرار، ولحق بالمرية.. ومنها ركب البحر إلى ابيه محمد بن علي، وهو بميورقة قد ملكها واستقر فيها برأي أخيه أبي زكريا يحيى بن علي، عند ثورة العامة بإشبيلية "[3].

أقام محمد بن علي في الجزائر الشرقية يضبطها باسم المرابطين بحنكة وسياسة بارعة إلى أن قضى الموحدون على سلطان المرابطين في المغرب فاعتصم فيها ورفض البيعة للموحدين، وأخذ يستقبل جموع المرابطين الوافدين عليه من الأندلس بالحفاوة والتكريم، وأغدق عليهم بالعطايا فقوي بهم جانبه، كما أن أبناء أخيه يحيى

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص246؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص306.

(2): مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج2، جـ1، ص133.

(3): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص218-220.

قد لجأوا إليه عقب وفاة والدهم، واشتركوا معه ومع أبنائه في تدعيم سلطانه، واستمر محمد بن غانية يدعو في الخطبة للمرابطين وبني العباس حتى وفاته سنة 550هـ/1155م[1]. يقول المراكشي " استقل محمد بمملكة هذه الجزر، وضبطها لنفسه وأقام فيها جارياً على أمر لمتونة الأولى، يدعو لبني العباس "[2].

وكان لمحمد بن غانيه من الولد أربعة هم: عبدالله أكبرهم، واسحاق والزبير وطلحة، وقد اختار لولاية عهده في حياته ابنه الأكبر عبدالله " فنفس ذلك عليه أخوه اسحاق ودخل عليه في جماعة من الجند وعبيد له فقتله – قيل في حياة ابيه، وقيل بعد وفاته "[3]، وهكذا تولى اسحاق بن محمد بن غانيه حكم الجزائر الشرقية خلفاً لوالده.

3.2.3 علاقة الموحدين ببني غانيه حتى سنة 580هـ/1184م:

في عام 550هـ/1155م تولى اسحاق بن محمد بن غانيه حكم الجزائر الشرقية، وكان والده محمد يناصب الموحدين العداء ولم يعترف لهم بطاعة حتى وفاته، إذ بقي على عهده في الدعاء لبني العباس على أمل إحياء دولة المرابطين بالمغرب. وعندما جاء اسحاق سار على سنن والده فاخذ بالترحيب بمن كان يفد عليه من عناصر المرابطين في المغرب والأندلس ويصلهم ويهتم بهم اهتماماً كبيراً، فحسن حاله وكثر الداخلون في طاعته[4].

ويذكر ابن خلدون أن اسحاق هذا قد انشغل في السنوات الأولى من حكمه بأعمال البناء والزراعة، وأهمل الجهاد البحري، مما أغضب عليه قائد الأسطول

---

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص206؛ إلياس، أسرة بني غانية، ص90.

(2): المراكشي، المعجب، ص196.

(3): المراكشي، المعجب، ص196. ويذكر ابن خلدون أن اسحاق أخذته الغيرة من أخيه عبدالله لمكان أبيه منه، فقتلهما معاً، واستبد بالأمر من سنة خمسن وخمسمائة إلى أن مات سنة ثمانين وخمسمائة. انظر: ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص253.

(4): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص144؛ إلياس، أسرة بني غانية، ص95.

البحري " لب ابن ميمون " الذي تخلى عنه ولجأ إلى الموحدين، فشعر بخطورة تخلي الناس عنه فحاول استرضاءهم وكسب ولائهم بالعودة إلى الجهاد، فبنى الأساطيل وحشد الحشود[1]، ثم أقبل على الغزو فكان له في كل عام غزوتان إلى بلاد النصارى، حيث أخذ يغزو سواحل برشلونة وجنوب فرنسا وغرب ايطاليا، يغنم ويسبي إلى أن امتلأت يديه بأموال طائلة، فقوي بذلك أمره وتشبه بالملوك[2].

وحتى عام 567ه/1172م ظل اسحاق بن غانية ينعم بالأمان والطمأنينة في الجزائر الشرقية بعيداً عن خطر وأنظار الموحدين، وذلك أن انشغال الموحدين باخماد ثورة محمد بن مردنيش شكلت سداً منيعاً في وجه تقدمهم نحو الجزر، كما أن الموحدين كانوا خلال فترة صراعهم مع ابن مردنيش يستصغرون شأن هذه الجزر. لكن بعد وفاة ابن مردنيش وسيطرة الموحدين على شرق الأندلس، شعر اسحاق بن غانيه بالخطر فاسرع إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم بارسال الهدايا النفيسة إليهم[3]، ولكن دون أن يدخل في طاعتهم، وفي ذلك يقول المراكشي " وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبي ويغنم نفيسه وجيده؛ يشغلهم بذلك عنه "[4].

وبذلك استطاع اسحاق بن غانيه أن يكسب ود الموحدين ويصرفهم عن الاهتمام بجزائره بما يهاديهم ويختصهم من كل ما يسبي ويغنم، وبما كان يبعث للخليفة أبي يعقوب من أسرى وعلوج النصارى[5]، وبقي ذلك هو حال العلاقة بين الموحدين وبني غانيه حتى كان أحد شهور سنة 578ه/1183م عندما بعث الموحدون كتاباً إلى اسحاق بن غانيه يدعونه فيه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر، ويتوعدونه على ترك ذلك، فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه في

---

(1): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص326؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص325.

(2): المراكشي، المعجب، ص197.

(3): سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص325؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص74.

(4): المراكشي، المعجب، ص197.

(5): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص326.

الرأي؛ فمنهم من اشار عليه بالامتناع عن طاعتهم والاستعداد للدفاع عن أنفسهم، ومنهم من رأى مهادنتهم واظهار الولاء لهم مكافاة لشرهم. فلما رأى اختلافهم ارجأ الأمر إلى أن يبت فيه فيما بعد، سيما وأنه كان يتحضر في هذه الأثناء لغزو السواحل القطلونية[1].

كانت هذه رواية المراكشي عن طلب الموحدين لابن غانية طاعتهم والدعاء لهم، لكن الغبريني يورد لنا رواية مغايرة، تشير إلى صلابة اسحاق بن غانيه على موقفه الرافض لطاعة الموحدين، يقول فيها " وكان اسحاق بن غانيه بجزيرة ميورقة هو وبقية اللمتونيين، فوجه له من مراكش من قبل خليفتها من يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة، فامتنع من ذلك، وكان بين يديه ولداه علي ويحيى فقال للرسول أنا لا أراهم ولا يرونني، ولكن قل للموحدين يهيئون ما ينفقون على رأس هذين، وأشار إلى رأس ولديه، فانفصل الرسول عنه"[2].

ولعل هذا التطور المفاجئ في طلب الموحدين من بني غانية الطاعة والدعاء لهم على المنابر صراحة، عائد لأمرين: أولهما تنبه الموحدين لأهمية موقع الجزائر الشرقية في البحر المتوسط لا سيما بعد المعارك البحرية التي نشبت في مياه الجزائر الشرقية وبالقرب من برشلونة بين الأساطيل الموحدية والقطلونية سنة 578ه/1182م، والتي لم تسفر عن نتائج[3]. والأمر الآخر لعل له صلة بما حدث في المغرب الأدنى من ثورة ابن الرند في قفصة وتحالفه مع الأعراب ضد الموحدين، واستيلاء قراقوش التقوي مملوك تقي الدين عمر على أجزاء من بلاد المغرب سنة 568ه/1172م[4]، إذ بقيت إفريقية تشغل اهتمام الخليفة حتى مع قضائه على ثورتها سنة 576ه/1180م، وكان قراقوش يقوم بفتوحاته في إفريقية

---

(1): المراكشي، المعجب، ص197.

(2): الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله (ت714ه/1314م): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ط2، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1979م، ص46. سيشار إليه فيما بعد: الغبريني، عنوان الدراية.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص322؛ العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، جـ2، ص264.

(4): ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص223؛ الطرابلسي، المنهل العذب، ص131.

باسم الأيوبيين والدولة العباسية من خلفهم، وبني غانية كانوا يدعون لبني العبـــاس، وهنا ربما خشي الخليفة الموحدي من احتمال قيام تحالف بين بني غانية وقراقــوش ضد الموحدين، فجاء إرساله للرسل لبني غانية سنة 578هـ/1182م ليتعرف علـــى حقيقة موقف بني غانية من الدعوة الموحدية.

ويبدو من سير الحوادث أن اسحاق بن غانيه لم يتصـــلب فـــي موقفـــه تجـــاه الموحدين، وإنما أرجأ الرد على كتاب الخليفة الموحدي إلى حين عودته من غزوته إلى قطلونية، لكن الأيام لم تمهله ليبين لنا موقفه الحقيقي من الدولة الموحدية ومـــن كتاب الخليفة أبي يعقوب، فقد استشهد في غزوته على السواحل النصـــرانية ســـنة 579هـ/1183م، وقيل أنه طعن في حلقه ولم يمت من حينه وإنما حمل حيـــاً حتـــى ادخل قصره في ميورقة فمات فيه[1].

وخلف اسحاق بن غانيه من الأولاد ثلاث عشرة وقيل أربعة، أكبرهم أبو عبدالله محمد ثم يليه أبو الحسن علي، وكان قد عهد بولاية العهد من بعده لابنه الأكبر أبـــو عبدالله محمد[2].

وكانت أول قضية ينظر فيها أبو عبدالله محمد بعد توليه سلطاته هي حسم أمـــر العلاقة مع الموحدين، فارتأى وبدون مشورة أحد من اخوته أو أعيان دولتـــه إلـــى الكتابة للخليفة أبي يعقوب بطاعته[3]، فقبل منه الخليفة ذلك وأقره على مـــا تحـــت يده[4]. ولكي يتأكد الخليفة من صدق موقفه أرسل إليه رسول من عنده وهو قائد من قادته يدعى أبو الحسن علي بن الربرتير[5]، وذلك قبيل جوازه للأندلس وهـــو فـــي

(1): المراكشي، المعجب، ص197؛ ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص275.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص18؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص146.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص326.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص175.

(5): هو ابن القائد القطلوني المشهور الربرتير (Reverter) الذي كان في الأصل نصرانياً من قادة أمير برشلونة وأرغون، ثم وقع في أسر المرابطين وسيق إلى مراكش، وهناك أعلن إسلامه وأخلص الخدمة للأمير علي بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين، حيث رأس لهما فرقة الجند النصرانية المرتزقة التي كانت تعمل في صفوف المرابطين وأبلا البلاء الحسن

مسيره لغزوة شنترين، لاختبار طاعته وقبول استجابته ومن ثم لكي يعقد له البيعـــة. فسار أبو الحسن ببعض السفن الموحدية من ميناء سبتة، ولما وصل إلـــى جزيـــرة ميورقة استقبله واليها أبو عبدالله محمد بن غانية استقبالاً ودياً حافلاً[1].

لكن لما علم أخوة أبو عبدالله محمد الأمر الذي قدم لأجله الربرتير، وقد كـــانوا يكتمون في نفوسهم حقداً كبيراً على الموحدين، أنكروا على أخيهم ذلك، لأنه أولاً لم يعلمهم بمكاتبته للخليفة أبي يعقوب يوسف، وثانياً لأنه بدخوله في طاعة الموحـــدين يعرض حريتهم للانتقاص وكرامتهم للهدر، فما كان منهم إلا أن نقموا على أخـــيهم أبو عبدالله محمد وقبضوا عليه واعتقلوه في أحد سجون ميورقة، وقدموا أخاهم أبـــو الحسن علي على رياستهم، وكان ذلك على أغلب الظن في أواخر شهر صفر ســـنة 580ه/ حزيران 1184م[2]، أي في الوقت الذي كان فيه الخليفة أبو يعقـــوب فـــي طريقه لاستعادة شنترين من البرتغاليين.

أما عن موقفهم من الربرتير مبعوث الخليفة أبو يعقـــوب، فقـــد تعـــاملوا معـــه بدبلوماسية عالية تقوم على المراوغة والمداهنة، فقد عزلوه في دار الضيافة حيـــث أنزله أخاهم أبو عبدالله محمد، ثم أخذوا في مماطلته وتسويفه في الأمر الذي قدم من أجله، وفي الوقت نفسه بعث أبو الحسن علي الذي تولى أمر الجزائر بعـــد اعتقـــال أخيه من عمل على سحب السفن الموحدية وإلحاقها بدار صناعة ميورقة، وتحفضوا على من فيها من ركاب وطاقم بحري موحدي[3].

في محاربة الموحدين إلى أن قتل في معركة جرت ضدهم سنة 539ه/1144م. وترك ولدين كان أحدهما أبو الحسن علي هذا الذي اعتنق الإسلام وتحول إلى خدمة الموحدين بعد زوال دولة المرابطين وخلص في خدمتهم، وإليه يرجع الفضل في انتزاع جزيرة ميورقة من أيدي بني غانية في عهد أبي يوسف يعقوب. وقد قتل في الحروب التي وقعت في إفريقية بين بني غانيه والموحدين وذلك سنة 583ه/1187م. انظر: البيذق، أخبار المهدي، ص47؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص140-141؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـــ2، ص193.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص175.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص286؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص349.

(3): سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص351-352.

ثم أخذ ابو الحسن علي بن غانية واخوته يرقبون عن قلق ما تسفر عنه حملة الخليفة أبو يعقوب على مدينة شنترين وغرب الأندلس، وعندما وصلتهم الأخبار إلى ميورقة باستشهاد الخليفة تحت اسوار شنترين، وهزيمة قواته ورجوعها مكسورة خالية الوفاض إلى المغرب، قاموا باعتقال أبو الحسن الربرتير وسجنوه في أحد سجونهم، وأعلن أبو الحسن علي بن غانيه رفضه للدعوة الموحدية[1]. يقول ابن عذاري: " وتمادى امساكهم للقائد المذكور – أبو الحسن الربرتير – ومطاولتهم له ومواعدته حتى اتصل بهم وفاة أمير المؤمنين أبي يعقوب فتحركت احلامهم الضعيفة إلى التدبير الذميم.. فاعتقلوا أبا الحسن في دار انزاله ووكلوا به من الحرس والرقباء ما أمنوا به من مكره واحتياله "[2].

وهكذا نلاحظ أن بني غانية حكام الجزائر الشرقية بقوا على ولائهم للمرابطين فاحتضنوا فلولهم وأحسنوا إليهم، واستمروا في الدعوة للعباسيين، وقد اتسمت علاقتهم مع الموحدين خلال السنوات العشر الأولى من خلافة أبي يعقوب يوسف بالفتور لاهمال الموحدين شأن الجزر من جهة، وانشغالهم في القضاء على ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس من جهة اخرى. ثم بوفاة ابن مردنيش سنة 567ه/1172م وتملك الموحدين لاقليم شرق الأندلس اصبحت الجزائر الشرقية تحت تهديد القوات الموحدية، عند ذلك لجأ بني غانيه إلى مهادنة الموحدين ومصانعتهم بالهدايا والأموال دون أن يدخلوا في طاعتهم حتى وفاة اسحاق بن غانية سنة 579ه/1183م. وفي الوقت الذي رغب فيه ابنه وولي عهده محمد بن اسحاق الدخول في طاعة الموحدين أنكر عليه أخوه علي ذلك فقام باعتقاله وتولى الأمر مكانه وأعلن رفضه للدعوة الموحدية.

---

(1): المراكشي، المعجب، ص197؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص175؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص326؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص352؛ الجيلالي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص13.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص175.

3.3 علاقات الموحدين مع مملكة صقلية:

صقلية (Sicily) هي جزيرة في البحر المتوسط تقع قبالة إفريقية، بين ساحل ايطاليا الجنوبي والساحل الفرنسي القريب منها جنوباً، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام، وتبعد عن أقرب موضع من بر إفريقية مائة وأربعون ميلاً[1]، وأهم مدنها عاصمتها بالرمو (Paiermo)[2]. وعلى الرغم من محاولات المسلمين المستمرة للاستيلاء عليها نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام ولخطورتها على البلاد الإسلامية العربية، فإن فتحها تأخر لما بعد فتح الأندلس بقرن وربع من الزمان، وذلك عندما سار إليها قاضي القيروان أسد بن الفرات[3] عام 212ه/827م على رأس حملة بحرية مؤلفة من الأفارقة والأندلسيين المقيمين في تونس واستطاع تملكها من حاكمها البيزنطي، حيث كانت في ذلك الوقت تتبع إلى أملاك الدولة البيزنطية، غير أن الفتح النهائي للجزيرة لم يتم إلا في العام 295ه/902م[4].

ظلت صقلية تحت حكم المسلمين حتى تمكن النورمان من انتزاعها منهم سنة 484ه/1091م على يد القائد النورماني روجر الأول(Roger I)(485-494ه/1092-1101م) الذي عمل استمالة المسلمين في الجزيرة والاحسان إليهم[5].

ولما توفي روجر الاول خلفه في الحكم ابنه روجر الثاني(Roger II)(494-549ه/1101-1154م) والذي سار على سنن والده في معاملة مسلمي الجزيرة،

---

(1): ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص416.

(2): حلاق، حسان: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (الأندلس – صقلية – الشام)، الدار الجامعية، بيروت 1986م، ص113. سيشار إليه فيما بعد: حلاق، العلاقات الحضارية.

(3): هو أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أصله من خراسان وولد بحران سنة 142ه/759م، وولي قضاء القيروان سنة 204ه/820م، وتوفي سنة 213ه/828م. انظر: الزركلي، الأعلام، جـ1، ص298.

(4): مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص101-102.

(5): حلاق، العلاقات الحضارية، ص121.

وفي سنة 524ه/ 1130م اتخذ لنفسه لقب ملك صقلية، وسعى لتأسيس امبراطورية تجارية في البحر المتوسط، فمد نفوذه إلى شمال افريقيا، حيث استولى على مدينة طرابلس سنة 541ه/[1]، ثم استولى على مدينة المهدية وغيرها من بلدان سواحل إفريقية سنة 543ه/1148م[2].

وبعد وفاة للملك روجر الثاني سنة 1154/549م خلفه ابنه وليم الأول (William I)(549-561ه/1154-1166م) أو غليام كما يسميه البعض[3]، وفي عهده تم أول اتصال فعلي بين الموحدين ومملكة صقلية، وذلك أنه عندما علم أهل إفريقية بوفاة الملك روجر الثاني واضطراب الأحوال في صقلية على ابنه الملك وليم، ثارت الثغور الافريقية، وشملت الثورة كافة المناطق الواقعة تحت سيطرة النورمان، وأول ما انطلقت الثورة من جزيرة جربة[4] سنة 551ه/1156م ثم تلتها مدينة صفاقس[5] بنفس العام، وفي سنة 553ه/1158م ثار أهل مدينة طرابلس وأسروا جميع أفراد الحامية النصرانية وكذلك فعلت مدينة قابس، ولم يبق بأيدي النورمان سوى مدينة المهدية التي قطع عنها العرب المياه والمؤن، ولما علم ملك

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص116-117؛ لانجر، موسوعة تاريخ العالم، جـ2، ص614-615.

(2): ابن غلبون، أبو عبدالله محمد بن خليل الطرابلسي (ت بعد 1133ه/1721م): تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة 1349ه، ص44-45. سيشار إليه فيما بعد: ابن غلبون، التذكار.

(3): حلاق، العلاقات الحضارية، ص127؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص207.

(4): جربة: هي جزيرة في البحر المتوسط من ناحية إفريقية قرب قابس، سكانها من البربر، ويبلغ طولها من المشرق إلى المغرب 60 ميلاً. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص127.

(5): صفاقس: مدينة من نواحي إفريقية جل غلاتها الزيتون، بينها وبين المهدية مسير ثلاثة أيام. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص223.

صقلية وليم الأول بأمر هذه الثورات بعث اسطولاً لنجدة مدينة المهدية، فترك العرب حصارها[1].

ويذكر السلاوي أن النورمان عندما وصلوا إفريقية ساروا نحو مدينـــة زويلـــة فاوقعوا باهلها مذبحة شنيعة حتى أنهم قتلوا النساء والأطفال، ففر جماعة منهم إلـــى الخليفة الموحدي عبد المؤمن بمراكش يستنجدون به لحمايتهم، فقال لهـــم " أبشـــروا لأنصرنكم ولو بعد حين "[2].

واستجابة لطلب أهل زويلة جهز الخليفة عبد المؤمن جيشاً جراراً، وصل تعداده إلى حوالي مائة ألف فارس، وزحف به سنة 554ه/1159م علـــى مدينـــة تـــونس فاستولى عليها عنوة، ومنها توجه إلى المهدية وكان قـــد تحصـــن بهـــا النورمـــان فحاصرها براً وبحراً ستة أشهر حتى رضخت للتسليم فدخلها يوم عاشـــوراء مـــن المحرم سنة 555ه/ 21 كانون ثاني 1160م، ثم افتتح بعد ذلك طـــرابلس وبـــلاد الجريد وقفصة وما والى هذه البلاد[3]. وهكذا تمكن الموحدون من طرد النورمـــان من إفريقية بعد أن دام حكمهم لها قرابة أربعة عشر عاماً.

وحرصاً من الخليفة عبد المؤمن بن علي على حمايـــة أرواح المســـلمين فـــي جزيرة صقلية، فإنه لم يقدم على قتل الفرنج المتواجدين في إفريقية وانما سمح لهـــم بمغادرتها آمنين، بل إنه جهز لهم السفن المغربية ليعبروا بها إلى جزيرة صـــقلية، وكان هذا قراراً حكيماً من عبد المؤمن، وذلك أن ملك صقلية كان قـــد هـــدد بقتـــل المسلمين ببلاده إذا أقدم عبد المؤمن على الفتك بنصارى المهديـــة[4]. ثـــم أن هـــذا التصرف دفع الملك الصقلي وليم لأن يكون متسامحاً مع المسلمين، حتى أنـــه أخـــذ بالاهتمام بالحضارة الإسلامية والاعتماد عليها، وشجع الدراسات الإسلامية كما أنه

---

(1): التجاني، رحلة التجاني، ص75-76؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص11-12؛ ابن غلبون، التذكار، ص51؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص207-208؛ خلف الله، العلاقات، ص125.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص269.

(3): المراكشي، المعجب، ص168-169؛ عمار، موجز في تاريخ الجزائر، ص71.

(4): علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص210.

استعان بالشريف الإدريسي (ت560ه /1165م) الذي وضع له مصنفاً في الجغرافية على غرار ما فعل لوالده روجر الثاني الذي ألف له فيما سبق كتاباً في الجغرافية عرف بالكتاب الروجري أو " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "، ورسم له كذلك خريطة العالم على دائرة فضية تحوي كافة التفصيلات والتوضيحات لمختلف بلدان العالم[1].

ومثلما اهتم الملك وليم الأول بالحضارة الإسلامية والعلماء المسلمين فإنه كذلك حاول الاتصال بالخارجين على سلطان الموحدين والاستفاده من خدماتهم، ومثال ذلك استقباله شيخ قبيلة بني رياح جباره بن أبي العينين الذي فر سنة 555ه/1160م من وجه عبد المؤمن إلى المشرق فتوجه إلى مصر والحجاز واليمن من أجل الحصول على عون الحكام هناك ضد الموحدين، وعندما لم يجد منهم عوناً سار إلى ملك صقلية وليم الأول وظل يعمل لصالحه ثم لصالح ابنه وليم الثاني (562-585ه/1166-1189م)، حتى سنة 566ه/1170م، إذ في هذه السنة عاد إلى إفريقية فوجد أكثر أبناء قبيلته قد تجهزوا للمشاركة في حركة الجهاد مع الخليفة أبي يعقوب في الأندلس، فاسرع للخروج إلى المغرب الأقصى بنفسه وأخوته راغباً في الصلح مع الموحدين، فأحسن الخليفة استقباله واحاطه بالصفح والعفو[2].

هذا وقد كانت السمة البارزة للعلاقات الموحدية الصقلية في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف والملك وليم الثاني الود والصداقة، وذلك أن هذا الملك حاول التقرب من المسلمين في جزيرته وشمال افريقيا والتشبه بخلفاء المسلمين، كما اتقن اللغة العربية وحمل لقب " المستعز بالله " وكان شعاره " الحمد لله حق حمده "[3].

ويبدو أن الملك وليم الثاني هو من رغب في مصالحة الموحدين وطلب ودهم وخاصة بعد احكام الموحدين قبضتهم على سائر بلاد الأندلس وشمال افريقيا. فقد

---

(1): حلاق، العلاقات الحضارية، ص126-127.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص417-418؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، 10 مجلدات، مطابع فضالة، المحمدية 1987م، مج6، ص233. سيشار إليه فيما بعد: التازي، التاريخ الدبلوماسي.

(3): حلاق، العلاقات الحضارية، ص128.

أخذ يظهر موقف المسالم تجاه الموحدين حتى جاء الحدث الذي استغله ايما استغلال في توثيق علاقته مع الموحدين واللحاق بركب الممالك الإيطالية التي سبقته في توقيع اتفاقيات الهدنة والصلح معهم. وذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الخليفه أبي يعقوب يحاصر مدينة قفصة سنة 576ه/1180م لتأديب ابن الرند الثائر فيها، حدث أن استولى الأسطول الصقلي في البحر المتوسط على سفينة موحدية كانت توجد على متنها بنت من بنات الخليفة أبي يعقوب يوسف، كانت في طريقها إلى تونس لتزف إلى أحد الأمراء الموحدين هناك، وقد أخذت الأميرة إلى صقلية ووهبت إلى الملك وليم الثاني، ولكنه عندما اكتشف أنها أميرة أحسن معاملتها وأكرم نزلها ثم أصدر أمره باعادتها إلى قصر والدها في المغرب. وما كاد الخليفة أبا يعقوب يعلم بعظيم صنع الملك الصقلي حتى بادر من فوره بارسال وفد موحدي كبير إلى صقلية من أجل تقديم التشكرات والاعتراف بالجميل[1].

استقبل الملك وليم الثاني الوفد الموحدي بالحفاوة، ثم رد على ذلك بارسال مبعوث من قبله إلى الخليفة أبي يعقوب يلتمس الصلح والهدنة[2].

هذا ولم تطل المفاوضات بين الطرفين، إذ نجد أن السنة 576ه/1180 قد شهدت ميلاد أول اتفاقية للسلام والتجارة بين الموحدين وصقلية، جرى توقيعها في عاصمة صقلية بالرمو، واتفق على أن تكون مدتها عشر سنوات[3]. وفي ذلك يقول المراكشي " وفي هذه السنة – 576ه/1180م – صالحه ملك صقلية وأرسل إليه بالأتاوة، بعد أن خاف خوفاً شديداً، فقبل منه – الخليفة – ما وجه به إليه، وهادنه على أن يحمل إليه في كل سنة مالاً اتفقا عليه. بلغني أنه اتصلت إليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها؛ مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر – لاستدارته بمثل حافر الفرس – جعلوه في ما كللوا به المصحف العثماني "[1].

---

(1): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص236-237.

(2): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص326؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص237.

(3): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص326؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص237.

(1): المراكشي، المعجب، ص185-186.

وبمقتضى هذه المعاهدة تم تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين، ونشطت السفارات السياسية والمبادلات التجارية بينهما، وأصبح من حق رعايا الملك الصقلي إنشاء المراكز والمستودعات في كل من زويلة والمهدية[1].

4.3 علاقات الموحدين مع العالم الإسلامي في الشرق:

1.4.3 العلاقة مع الخلافة العباسية:

قامت الدولة الموحدية على أساس دعوة دينية، طابعها الاصلاح والتجديد، وهدفها تحقيق وحدة تشمل كافة أرجاء العالم الإسلامي[2]، لذلك لم يعترف الموحدون بسواهم ممن يستحق لقب الخلافة، ورأوا أن دار الخلافة الشرعية هي مراكش وليس بغداد.

وترجع تلك القناعة التي تولدت لدى الموحدين باحقيتهم بالخلافة وعدم صلاح العباسيين لرئاسة العالم الإسلامي، لتلك الرحلة الطويلة التي قام بها مؤسس الدولة الموحدية محمد بن تومرت سنة 501ه/1108م، وجاب خلالها كافة حواضر العالم الإسلامي من الأندلس إلى إفريقية فمصر والحجاز والشام والعراق[3]، فاطلع خلالها بأم عينه على حالة الضعف واستشراء الفساد في المجتمع الإسلامي من شرقه إلى غربه. وبالرغم من أن هذه الرحلة جاءت بدافع أداء فريضة الحج وطلب العلم، على اعتبار أن المشرق كان بالنسبة لأهل المغرب محط آمال الراغبين في العلم والتواقين إلى التبحر به[1]، إلا أن فترة اقامت ابن تومرت بالعراق والشام فتحت عينية على حقيقة ما تمر به الخلافة العباسية من ضعف ووهن، فوجد أن سكان المنطقة العربية موزعين في ولائهم بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية

---

(1): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص237-238.

(2): العبادي، أحمد مختار: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (د. ت)، ص118. سيشار إليه فيما بعد: العبادي، دراسات.

(3): ابن قنفذ، الفارسية، ص100؛ ابن أبي دينار، المؤنس ص107؛ عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص13-14.

(1): النجار، تجربة الإصلاح، ص58.

في مصر، بالاضافة إلى التخاصم والنزاع المستمر بين الخلافتين[1]، هذا مع نجاح الصليبيين في فرض سيطرتهم على معظم ساحل البحر المتوسط وتأسيسهم أربع إمارات في قلب العالم الإسلامي كانت اخرها إمارة طرابلس التي توافق استيلائهم عليها سنة 502هـ/1109م مع وصول ابن تومرت للمشرق[2].

ولا شك أن ابن تومرت كان يلحظ تدهور الأحوال السياسية الداخلية في دولة الخلافة العباسية، كما يبدو أنه التمس خلال مروره بمصر في الذهاب والاياب التدهور السياسي الداخلي ايضاً الذي كانت تعانية الخلافة الفاطمية، فأيقن أن الحالة المزرية التي يعيشها العالم الإسلامي تقتضي انشاء خلافة إسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الإسلامي كله، وتتولى علاجه واصلاحه، ولم ينتظر ابن تومرت حتى يصل للمغرب ليبدأ مشروعه الإصلاحي، بل أخذ على عاتقه الدعوة والاصلاح الديني منذ أن نزل الاسكندرية في طريق عودته للمغرب[3].

وما أن وصل ابن تومرت مراكش سنة 514هـ/1120م حتى كانت قد نضجت أفكاره، واتضحت معالم برنامجه الديني الاصلاحي الذي هدف من الناحية الدينية إلى القضاء على الجهالة الدينية والزندقات المنتشرة في البلاد، ومن الناحية السياسية والعسكرية كان يرمي إلى تكوين دولة تعيد إلى الإسلام مجده، تنضوي تحت لوائها سائر دول العالم الإسلامي[1]، وبدأ مشروعة بالاصطدام متعمداً بالسلطان المرابطي ورجال دولته الذين كانوا يدينون بالولاء والطاعة للخلافة العباسية[2].

هذا وقد لقيت دعوة ابن تومرت اقبالاً كبيراً بين سكان المغرب الأقصى الذين آمنوا بأنهم على الحق، وأن سواهم على الباطل، وتأكيداً لذلك أطلق ابن تومرت

---

(1): وهبه، مصطفى: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، المنصورة 1997م، ص18. سيشار إليه فيما بعد: وهبه، موجز تاريخ الحروب الصليبية.

(2): وهبه، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص31.

(3): العبادي، دراسات، ص109؛ عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص15.

(1): عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص20.

(2): تورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص30.

على من دخل في طاعته لقب " الموحدين "[1]، وسماهم تمييزاً لهم عن غيرهم ب " المؤمنين " وقال لهم " ما على وجه الأرض من يؤمن ايمانكم.. وانتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم "[2].

ونزولاً عند الاعتقاد الذين ساد بينهم أنهم " الموحدون المؤمنـــون " ارتـــأوا أن يقيموا لانفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقيدة الموحدية الجديدة، فلقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين، وفي ذلك يقول المراكشي " أمّر – المهدي – على الجـــيش عبد المؤمن بن علي، وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم. فاستحق عبد المؤمن مـــن يومئذ اسم إمرة المؤمنين "[3]. هذا في الوقت الذي لم يتجرأ فيه الحكام المـــرابطين على اتخاذ لقب أمير المؤمنين، بل اكتفوا بلقب " أمير " ومن ثم " أمير المسلمين"[4].

ولكي تستند خلافتهم إلى الأسس الشرعية اللازمة، قال الموحدون بانتماء كـــل من المهدي وعبد المؤمن بن علي إلى النسب النبوي عـــن طريـــق الادارســـة[5]. وباستيلائهم على مدينة مراكش سنة 541ه/1146م ارتفعت مكانتهم في نفوس الناس فأقدموا مباشرة على قطع الخطبة العباسية في بلاد المغـــرب، معلنـــين اســـتقلالهم الروحي والإداري، فلم يعترفوا بالخلافة العباسية، بل اعتبروا أنفسهم خلفـــاء، وأن مركز الخلافة مراكش لا بغداد[1].

ويبدو أن الموحدين قد قاموا منذ فترة مبكرة من دعوتهم بحملة دعائية مناوئـــة للعباسيين في بلاد المشرق الإسلامي شملت مصر والشام وغيرها من بلاد المشرق،

---

(1): ابن أبي دينار، المؤنس، ص109.

(2): المراكشي، المعجب، ص141.

(3): المراكشي، المعجب، ص144.

(2): السامرائي، عبد الحميد حسين: تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، ط1، دار شموع الثقافة، ليبيا 2002م، ص135. سيشار إليه فيما بعد: السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس.

(5): البيذق، المقتبس، ص12-13.

(1): حسن، حسن علي: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين "، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة 1980م، ص55. سيشار إليه فيما بعد: حسن، الحضارة الإسلامية.

تمهيداً لنشر دعوتهم في العالم الإسلامي كله، فقد أحصى البيذق جملة من أنصار ابن تومرت الذين أمنوا بدعوته ووهبوا له أنفسهم وحملوا لواء الدعاية للخلافة الموحدية في مصر والشام وصل عددهم إلى أربعة وخمسين شخصاً معظمهــم مــن أعيــان بلادهم(1).

ويظهر أنهم نجحوا في بث دعاية سيطرتهم على جميع أنحاء العالم الإســلامي بشطريه الشرقي والغربي، ونلمس ذلك من خلال ترجمة ابن فرحون لأبــي الوليــد القرطبي(2)، والتي جاء فيها أنه " قدم مصر هارباً من بني عبد المؤمن ودولته لمــا ظهر على المغرب، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز، فخاف أن يحــج فدخل اليمن، ثم خاف أن يظهر على اليمن فأراد أن يتوجه إلى الهند فمات بالطريق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة "(3).

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب نعثر على دلائل أكثر وضوحاً تشير إلــى ايمــان الناس بحتمية حلول الخلافة الموحدية محل الخلافــة العباســية، وبالتــالي فــرض سيطرتها على جميع العالم الإسلامي، وأن ذلك عندهم ليس إلا مسألة وقت.

نذكر من ذلك ما قاله الشاعر الموحدي أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في مدح الخليفة أبي يعقوب يوسف سنة 573ه/1177م، إذ قال:

ستملك أرض مصر والعراقا ... وتجري نحوك الأمم استباقا

إذا لم يتفق رأي ورأي ... أفادا في محبتك اتفاقا

---

(1): البيذق، المقتبس، ص28-29.

(2): هو أبو الوليد محمد بن عبدالله بن خيرة الأندلسي القرطبي، ولد سنة 479ه/1086م، وأخذ الفقة عن القاضي أبي الوليد بن رشد، وكان من كبار فقهاء المالكية وقد اشتهر في علوم شتى، وتوفي ببلدة زبيد باليمن سنة 551ه/1156م. انظر: ابن فرحون، إبراهيم بن علي اليعمري (ت799ه/1396م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، جزءان، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة (د. ت)، جــ2، ص315-316. سيشار إليه فيما بعد: ابن فرحون، الديباج المذهب؛ الضبي، بغية الملتمس، جــ1، ص125؛ المقري، نفح الطيب، مج2، ص240-241.

(3): ابن فرحون، الديباج المذهب، جــ2، ص316.

أمير المؤمنين ومن عليه   سنا الإسلام يأتلق ائتلاقا[1]

أما الرحالة الشهير ابن جبير فيقدم لنا وصفاً دقيقاً للنظرة السائدة في المشرق الإسلامي تجاه الدولة الموحدية، عبر عنها بوضوح خلال رحلته للمشرق في أواخر عهد الخليفة أبي يعقوب، وذلك سنة 578ه/1182م، والتي جاء فيها أن المصريين يترقبون مجيء الموحدين ارتقاب الساعة، وأنهم يؤولون ظواهر طبيعية على أنها تعبير عن قرب قدومهم، منها أنه كان عندهم بالقاهرة برجان قديمان كان على أحدهما تمثال ناظر للشرق وكان على الآخر تمثال ناظر للغرب، وكانوا يرون أن سقوط أحدهما ينذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظر إليها على ديار مصر، وقد وافق سقوط التمثال الناظر للشرق استيلاء الغز بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية وتملكهم مصر، وانهم الآن ينتظرون سقوط التمثال الناظر للغرب، ويرتقبون سقوطه صبحاً مساء، وهم واثقون من سقوطه واستيلاء الموحدين على ديار مصر لدرجة أن بعض فقهائهم قد أعد خطباً لإلقائها بين يدي الخليفة الموحدي عند قدومه ويتمنون أن يأتي ذلك اليوم سريعاً[2].

أما عن موقف الخلافة العباسية من استقلال الموحدين بالمغرب وتلقبهم بالخلفاء، فقد كان وضعها الضعيف المتفكك من جهة، وانشغالها بجبهة بلاد الشام والتصدي للخطر الصليبي من جهة أخرى، لا يسمح لها بتحريك ساكن ضدهم. ومع ذلك نجد أن الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566-575ه/1170-1179م) يكتب للسلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 570ه/1174م عهداً بولاية مصر والشام واليمن والمغرب وكل ما يفتحه بسيفه[1]، وما حالات الاصطدام التي حدثت في إفريقية بين قوات صلاح الدين الأيوبي وأنصار الموحدين بعد هذا التاريخ إلا حلقة من حلقات الصراع السياسي والعسكري بين الدولتين العباسية والموحدية.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص152.

(2): ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني (ت 614ه / 1217م): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت (د. ت)، 56-57. سيشار إليه فيما بعد: ابن جبير، رحلة ابن جبير.

(1): المقريزي، السلوك، جـ1، ص169.

ثم لما اعتلى الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) سدة الخلافة العباسية خلفاً لوالده المستضيء[1]، بعث للسلطان صلاح الدين الأيوبي رسولاً يطلب منه أن يسلم إليه المخطوطات التي عثر عليها في خزائن الخلفاء الفاطميين في مصر، والتي كانت تتضمن كتاب " الاستقصا في نسب من أقصى "، وهو كتاب في الأنساب من تأليف القاضي محمد بن سلامه المصري. وكان القصد دون شك من مصادرة الكتاب خوف العباسيين من اشتهار انتساب الموحدين إلى قريش فيزدادون تقرباً من استحقاق الخلافة[2].

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه أبو يعقوب يوسف من بعده، قد قطعوا الصلة التي تقر بتبعية بلاد المغرب لدولة الخلافة العباسية، خلافاً لما كان عليه الأمر في دولة المرابطين، ومن ثم فانهم لم يترددوا برهة في اتخاذ لقب أمير المؤمنين وانتحال صفة الخلافة نفسها، وهذا ما جعل التوتر سمة العلاقة بين الموحدين والعباسيين في فترة دراستنا وسائر عصر الدولة الموحدية.

غير أن الصراع السياسي والعسكري بين الدولتين لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء، كما لم يؤثر في معاملتهم للعامة من الناس، فقد استمر التبادل الثقافي بينهما كما كان في أيام المرابطين أو أشد[3]، وقد زخرت كتب التراجم باسماء غير قليلة لاشخاص أتوا من المغرب إلى المشرق أو العكس، لاسباب مختلفة قد تكون دينية أو علمية أو تجارية أو غيرها.

وهناك امثلة كثيرة لمن شدوا الرحلة من الأندلس والمغرب في عهد الخليفة أبي يعقوب إلى المشرق، نذكر منهم: أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر الانصاري (ت 580هـ/1184م)، وهو من أهل إشبيلية، رحل إلى المشرق حاجاً ومدرساً وتاجراً، فدرّس في طريقه بمدينة فاس مدة، ثم ارتحل يريد الحج فقعد للتدريس بمصر وحلب

---

(1): السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت)، ص358. سيشار إليه فيما بعد: السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(2): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص291.

(3): العبادي، دراسات، ص118؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص300.

واقسم أن يقرئ بالبصرة حيث وضع سيبويه كتابه، فدرّس بها ثم كر راجعاً بعد أداء فريضة الحج واستقر بمدينة بجاية حتى وفاته(1).

ومن بلاد المغرب عتيق بن علي بن حسن الصنهاجي الحميدي (ت 595ه /1199م) أصله من مكناسة، رحل حاجاً وطالباً للعلم سنة 579ه/1183م، ودخل العراق وسمع وتفقه في الخلافيات بها، وسمع بمصر والإسكندرية، ثم عاد إلى المغرب(2).

ومثلما فتحت بلاد المغرب المجال لأبنائها للرحلة إلى المشرق، فانها كذلك استقبلت مشارقة وإن لم يبلغوا في ذلك عدد المغاربة، وكان منهم أبو المكارم هبة الله ابن الحسين المصري (ت 586ه/1190م) كان من أهل العلم، عارفاً بالأصول وحافظاً للحديث، قدم على الخليفة أبي يعقوب في مراكش فولاه قضاء إشبيلية سنة 579ه/1183م، وشارك مع الخليفة في غزوة شنترين سنة 580ه/1184م(3). كذلك يذكر ابن خلكان أن شيخ الشيوخ بدمشق تاج الدين عبدالله حموية (ت642ه/ 1245م)، والذي كان عارفاً بالأصول والفروع والتواريخ والهندسة، قد رحل إلى المغرب، وأقام في مراكش مدة طويلة ثم عاد إلى الشام سنة 600ه/1204م(4).

وإلى جانب الرحلات الدينية والعلمية التي قدمت من المغرب إلى المشرق، شكلت بلاد الشام مركز جذب للمغاربة الراغبين في الجهاد، وهنا يشير الرحالة المعاصر ابن جبير للدور البطولي الذي قام به المغاربة إلى جانب اخوانهم المشارقة في الحروب الصليبية في بلاد الشام، حتى أن بطولاتهم وأعدادهم المشاركة في الحروب قد استهوت أهل الشام وأثارت غضب الملوك الصليبيين، فقام الافرنج بفرض ضريبة على كل مغربي يدخل أو يمر ببلاد الشام لا تفرض على سواهم من جميع بلاد المسلمين، وكان سبب هذه الضريبة المباشر مشاركة طائفة من أنجاد

---

(1): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص56.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـ4، ص27.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـ4، ص150؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص532.

(4): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص5.

المغاربة مع السلطان نور الدين زنكي في تحرير أحد الحصون من يد الافرنج[1]. وقد بذل أهل المشرق من قادة وتجار وأغنياء أموال طائلة في سبيل فداء اسر المغاربة، يقول ابن جبير " أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلّص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل"[2].

وهذا يشير بطبيعة الحال إلى حجم عدد المغاربة الذين قدموا للمشاركة إلى جانب اخوانهم المشارقة في حماية المقدسات الإسلامية في فلسطين والذود عن أرض الإسلام في المشرق، وأن الجفاء السياسي بين دار الخلافتين المشرقية والمغربية لم يؤثر على وحدة شعوبهما والتقاء مصالحهم وآمالهم.

2.4.3 العلاقة مع الأيوبيين في مصر:

كانت الدولة الفاطمية في مصر منذ مطلع القرن 6ه/12م تعيش في خريف عمرها، وظهر ذلك واضحاً عليها في انحلال الخلافة وفقدان هيبتها، وعجزها عن حماية نفسها من الخطر الصليبي، فضلاً عن تحكم الوزراء العظام في شؤون الدولة والخلافة، وعندما دخل صلاح الدين الأيوبي مصر سنة 562ه/1166م لمس ذلك الضعف والاختلال في أحوالها الداخلية، فوجد أنه اصبح لزاماً على الفاطميين أن يتنحوا عن حكم مصر، ويفسحوا المجال لقوة اخرى تحل محلهم، تستطيع أن تعيد لمصر أمجادها وتنهض بامانة الجهاد الذي عهد عنها[1].

ولم يتأخر صلاح الدين كثيراً في اتخاذ الخطوة التي لطالما انتظرها الخلفاء العباسيين طويلاً، حيث أمر الخطباء بالقاهرة وأنحاء مصر على أن يقطعوا الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ويخطبوا للخليفة العباسي المستضيء بالله (566-575ه / 1170-1179م)، وتم ذلك في أول جمعة من شهر محرم سنة 567ه/أيلول1171م،

---

(1): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص274.

(2): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص280.

(1): عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت (د. ت)، ص9-13. سيشار إليه فيما بعد: عاشور، مصر والشام.

ويقال أن الخليفة العاضد توفي بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام فقط دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته لأنه كان في هذه الأثناء مريضاً، وقال أهله وأصحابه " إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع الخطبة "[1].

وهكذا انقرضت الدولة الفاطمية وانفرد صلاح الدين الأيوبي بسلطنة ديار مصر، وكتب بذلك للخليفة العباسي المستضيء بالله الذي أسرع بدوره في إرسال الخلع إلى صلاح الدين ومعها الأعلام السود، شعار العباسيين[2].

ولما وصل خبر قيام دولة صلاح الدين الأيوبي في مصر على انقاض الدولة الفاطمية إلى مراكش، أظهر الخليفة أبو يعقوب استيائه من هذه الأنباء، لما يترتب على ذلك من ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك البلاد[3]، لا سيما وأن الموحدين كان لديهم طموح عريض في غزو بلاد المشرق وأن خطوتهم الأولى لذلك كانت الاستيلاء على الديار المصرية.

ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي كان يعي جيداً طموح الموحدين ذلك، لذا نجده يسرع في تملك زمام المبادرة من أيديهم، ويقوم بارسال أحد قادته البارزين وهو شرف قراقوش نحو المغرب لايجاد مركز نفوذ له هناك يكون خط الدفاع الأول في وجه أطماع الموحدين من جهة، ومن جهة اخرى توفير موطن آمن يسير إليه بأهله إن اخرجهم نور الدين زنكي من مصر[1].

وتختلف الروايات التاريخية في تحديد السنة التي سار فيها قراقوش إلى المغرب، فهي عند ابن الأثير وأبو شامة وابن واصل والتجاني واليافعي والنويري

---

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص34.

(2): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص35؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص151.

(3): العبادي، دراسات، ص115.

(1): أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (ت 665هـ/ 1266م): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 5 أجزاء، ط1، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997م، جـ2، ص267. سيشار إليه فيما بعد: أبو شامة، الروضتين؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص45-47.

سنة 568ه/ 1172م[1]، وعند المقريزي 571ه/1175م[2]، أما صاحب مضمار الحقائق فيجعلها سنة 575ه/1179م[3]. ويبدو أن سبب الاضطراب في الروايات أن قراقوش لم يكن يقيم بالمغرب بصورة دائمة، وإنما كان يعود للقاهرة بعد كل نصر يحققه، ثم يعاود الخروج للغزو مرة اخرى. وعليه فنحن نأخذ بالرواية التي أجمعت عليها معظم المصادر وهي أن بداية أمر قراقوش ودخوله للمغرب كان في سنة 568ه/1172م، أي في السنة التالية لتملك صلاح الدين الأيوبي أمر مصر وقبل وفاة سيده نور الدين زنكي كون التوجه للمغرب جاء بدافع البحث عن مكان يلجأ إليه صلاح الدين في حال توجه نور الدين إلى مصر.

ولما علم صلاح الدين أن نور الدين زنكي عزم الدخول إلى مصر، استقر رأيه وقومه أن يتملكون بلاداً تكون عدة لهم إن اخرجوا من مصر، لذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه في سنة 568ه/1172م لفتح بلاد النوبة حتى تكون المأوى. ثم اكتشف صلاح الدين أن بلاد النوبة فقيرة[1]، فانقسم أمره بين الاستيلاء على بلاد اليمن وبلاد المغرب، فتعهد له أخوه توران شاه بفتح اليمن، في حين تعهد له ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر بالتوجه إلى المغرب وفتحها[2].

---

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص47؛ أبو شامة، الروضتين، جـ2، ص267؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697ه/1298م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، 5 أجزاء، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، الطبعة الأميرية، القاهرة 1957م، جـ1، ص236. سيشار إليه فيما بعد: ابن واصل، مفرج الكروب؛ التجاني، رحلة التجاني، ص111-112؛ اليافعي، مرآة الجنان، جـ3، ص289، النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص325.

(2): المقريزي، السلوك، جـ1، ص175.

(3): الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت 617ه/1220م): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة 1401ه، ص34. سيشار إليه فيما بعد: الأيوبي، مضمار الحقائق.

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ10، ص45-46.

(2): التجاني، رحلة التجاني، ص111-112.

أرسل المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه مملوكه قراقوش إلى المغرب سنة 568هـ/1172م على رأس عدد من المماليك المصريين، فاتجه نحو برقة[1] ثم طرابلس أول مدن إفريقية على الساحل[2] وكان واليها أبا يحيى بن مطروح قد استأذن الخليفة أبا يعقوب بالخروج لاداء فريضة الحج في هذه السنة، وكان قد هرم وعجز فسرحه الخليفة وارتحل في البحر واستقر بالإسكندرية، الأمر الذي سهل على قراقوش الاستيلاء عليها، ثم زحف قراقوش بجمعه صوب مدينة زويلة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من طرابلس وكانت تحت حكم بني الخطاب الهواريين، فاستولى عليها واقام بها الخطبة لصلاح الدين ثم كر راجعاً إلى مصر[3].

كانت هذه أول غزوة يقوم بها قراقوش تجاه بلاد المغرب، غير أنه عندما عاد باخبار هذه الغزوة السعيدة إلى سيده تقي الدين عمر وجده قد غض النظر عن بلاد المغرب وتراجع عن فتحها لا سيما وأن الخطر الذي كان يدفعه لذلك قد زال بوفاة نور الدين زنكي سنة 569هـ/1173م، ثم أنه وجد أن فتح إفريقية ليس بالأمر الهين لكثرة القبائل العربية التي تجول عبر ربوعها وتعدد ولاءاتها، وقفار المغرب الوعرة التي تقطع طرقه وتهدد أمنه، فضلاً عن بسط الموحدين سلطانهم على معظم جهاتها[1].

لم يرق الغاء فتح المغرب للقائد قراقوش وخواصه الذين بنوا امانيهم على غنائم هذا الفتح، ففر قراقوش سنة 571هـ/1175م وبصحبته القائد المملوكي إبراهيم بن قراتكين بمن معهما من المماليك إلى المغرب، وفي الطريق انقسما إلى مجموعتين

---

(1): برقة: مدينة كبيرة وقديمة تقع بين الإسكندرية وإفريقية، تبعد عن الفسطاط مائتان وعشرون فرسخاً. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص143؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص388-389.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص110.

(3): أبو شامة، الروضتين، جـ2، ص267؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص223؛ الطرابلسي، المنهل العذب، ص131.

(1): التجاني، رحلة التجاني، ص112؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص77.

كل مجموعة سارت برئاسة أحدهما ليملك كل منهما ما يفتحه. فسار قراقوش إلى سنترية[(1)] فافتتحها وخطب فيها للسلطان صلاح الدين وسيده تقي الدين من بعده، ومنها كتب اليهما بالفتح. ثم سار نحو مدينة زويلة قاعدة بلاد فزان وكان حكامها بنو خطاب الهواريين قد خلعوا الطاعة بعد عودته إلى مصر، فقبض على محمد بن خطاب آخر أمراء هذه الأسرة وعذبه حتى وفاته وأعلن تبعية حكم بلاد فزان من جديد لصلاح الدين الأيوبي[(2)].

ومن زويلة سار قراقوش إلى مدينة أوجلة يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام، فلما أشرف عليها لقيه صاحبها معلناً الطاعة فصالحه مقابل عشرين الف دينار فرقها في أصحابه، وعشرة آلاف دينار لنفسه، وتزوج ابنته مقابل أن يحفظ بلاده من غارات العربان، وكان إلى جانب مدينة أوجلة مدينة يقال لها الأزراقية، وقد بلغ اهلها صنيع قراقوش في أوجلة وحفظه لارزاقها، فدعوه لبلدهم داخلين في طاعته، فأجابهم إلى ذلك واستخلف على أوجلة عدداً من أصحابه، وحدث أن توفي صاحب أوجلة فثار أهل المدينة وقتلوا أصحاب قراقوش، فعاد إليهم قراقوش وحاصر المدينة حتى افتتحها عنوة، وقتل من أهلها لغدرهم وخيانتهم سبعمائة رجل وغنم منها غنائم كثيرة. ثم رغب أصحابه العودة إلى مصر فخشي قراقوش أن يبقى وحده في المغرب فاستناب على أوجلة على أمل العودة إليها ورجع إلى مصر[(1)].

أما عن إبراهيم بن قراتكين فيذكر التجاني أنه سار بجمعه نحو الغرب راغباً الدخول في طاعة الموحدين، لكن شيوخ عرب إفريقية الخارجين عن طاعة الموحدين لم يروق لهم ذلك فرغبوه بالرئاسة والسيادة وساروا به إلى مدينة قفصة فمكنوه رؤسائها من بني الرند من السيطرة عليها واقامة الخطبة فيها للخليفة العباسي ولصلاح الدين الأيوبي، وكان ذلك سنة 572هـ/1176م[(2)]. ولعل ذلك هو الذي دفع

---

(1): سنترية: هي بلدة تقع في آخر أعمال مصر، تبعد عن أوجلة مسافة عشر مراحل في صحراء ورمال قليلة الماء. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص261.

(2): التجاني، رحلة التجاني، ص112-113؛ ابن غلبون، التذكار، ص58.

(1): أبو شامة، الروضتين، جـ2، ص418-419؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص171.

(2): التجاني، رحلة التجاني، ص114.

البعض للقول أن بداية ثورة ابن الرند في قفصـــة كانـــت ســـنة اثنتـــين وســـبعين وخمسمائة[1].

وفي سنة 572هـ/1176[2]، وقيل 573هـ/1177م[3]، استأذن قراقوش سيده تقـــي الدين عمر وخرج قاصداً بلاد المغرب وتوجه إلى مدينة أوجلة وجمع من نواحيهـــا أموالاً كثيرة ثم قفل عائداً إلى مصر في نفس العام.

ثم يغيب قراقوش بعد ذلك عن مسرح الأحداث، وينقطع ذكر علاقة الأيـــوبيين السياسية والعسكرية ببلاد المغرب حتى سنة 575هـ/1179م. ففي هذه السنة خـــرج قراقوش غازياً إلى بلاد المغرب مستغلاً ثـــورة قفصـــة والقبائـــل العربيـــة علـــى الموحدين، حتى وصل حد نفوسة[4]، وهناك وفد إليه مسعود بن زمام من أمراء بني هلال، كان قد رفض البيعة للموحدين عندما تملكوا إفريقية سنة 555هـ/1160م، وفر منها لأعراب طرابلس فكان تارة يكون مع ذباب وتارة مع زغبة[5]، كـــذلك تلاقـــى هناك مع أشياخ وأعيان قبائل ذباب وسليم، واجتمع عليه منهم حوالي خمســـة آلاف فارس، وحاول قراقوش افساد العرب ضد بعضهم البعض، فمال إلى جانب قبائـــل ذباب وزعيمهم حميد ابن جارية ضد قبائل زغبة وزعيمهم ناصر الـــدين إبـــراهيم، وأخذ يحرضهم على بعضهم حتى التقى الطرفين في مواجهة عنيفة هزم فيها قبائـــل ذباب وقوات قراقوش، ولما رأى أفراد قبيلة ذباب انهزام قراقوس تضامنوا مع قبيلة زغبة وقاموا بنهب اثقال وأموال قراقوش وجنده حتى لم يبق لهم ملبس ولا مأكـــل، غير أن الزعيم حميد بن جارية وفر لهم ما يحتاجون. وبعد هـــذه الموقعـــة قـــرر قراقوش التوجه إلى طرابلس، فسار هو وأصحابه حتى وصلوا مدينة تاجرة بالقرب

---

(1): النويري، نهاية الأرب، جـــ24، ص325.

(2): أبو شامة، الروضتين، جـــ2، ص451-452.

(3): المقريزي، السلوك، جـــ1، ص175.

(4): نفوسة: جبال في المغرب، تقع إلى الغرب من إفريقية، فيها مدينتان إحداهما سروس والأخرى جادو، وتبعد عن طرابلس مسير ثلاثة أيام، وعن القيروان ستة أيام. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـــ5، ص296-297.

(5): ابن غلبون، التذكار، ص59.

من طرابلس، فاستولوا عليها عنوة ونهبوا منها أموالاً طائلة[1]. فلما رأت زغبة ذلك خافت وسعت للصلح مع قراقوش، وفعلاً تم الصلح على أن يكون شــرقي نفوســة لقراقوش وما كان غربيها لقبيلة زغبة وزعيمهم ناصر الدين إبراهيم، وقد شجع هذا الصلح قراقوش على أن يمضي بقية عام 575ﻫ/1179م في طرابلس حيث أســكن أهله في قلعتها[2].

وبعد أن أمن قراقوش جانب زغبة وزعيهما إبراهيم، قرر ســنة 576ﻫ/1180م التقدم غرباً نحو قابس من أرض إفريقية التي كانت في هذه الأثناء غارقة بالفوضى، وقبل أن يرحل استدعى زعيم قبيلة زغبة ناصر الدين إبراهيم وقال له " تركت هذه البلاد وأهلي بقلعة أم العز[3] في وديعتك وأنا متوجه، فإن فــتح الله تعــالى علــي واستغنيت عنها أعطيتك الجميع"[4]، غير أنه لما نما لعلمه قدوم الخليفة الموحدي أبو يعقوب للقضاء على ثورة تلك البلاد والقبض على ابن الرند الثائر بمدينة قفصــة، أخذ يبطش بأهل المناطق المحيطة بجبل نفوسة من قبائل البربر فاستولى على جملة من الحصون والقلاع في تلك الجهات وغنم منها الكثير[5].

لم تصمد مدينة قفصة أمام الجيوش الموحدية، إذ دفعت شدة الحصــار الــزعيم الثائر ابن الرند إلى الإستسلام رأفةً بأهل المدينة، فدخل الموحدون قفصة في شــهر رمضان سنة 576ﻫ/ شباط 1181م، ثم غادر الخليفة إفريقية ســريعاً عائــداً إلــى مراكش لكثرة نداءات الاستغاثة والاستصراخ التي وصلت للخليفة في إفريقية بسبب اشتداد هجمات البرتغاليين والقشتاليين براً وبحراً على المدن والقواعد الأندلسية[1].

---

(1): الأيوبي، مضمار الحقائق، ص34-37؛ الطرابلسي، المنهل العذب، ص132.

(2): خلف الله، العلاقات، ص149.

(3): تقع هذه القلعة شرق جبل نفوسة. انظر: خلف الله، العلاقات، ص150.

(4): الأيوبي، مضمار الحقائق، ص53.

(5): الأيوبي، مضمار الحقائق، ص53-57؛ أبو شامة، الروضتين، جــ3، ص72.

(1): ابن خلدون، العبر، جــ6، ص323؛ العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، جــ2، ص266-267.

هذا وقد استغل قراقوش عودة الخليفة الموحدي بقواته إلى حاضرته مـــراكش، فتوجه إلى إفريقية سنة 577ه/1181م وأوغل في بلادها يعيث ويغنم، ثم سار نحو مدينة قفصة وذلك أن بعض شيوخها كتبوا إليه وواعدوه على ليلة معينـــه لـــدخول المدينة انتقاماً من الموحدين الذين كانوا قد انتزعوها بالقوة من أصحابها بني الرنـــد سنة 576ه / 1181م، ولكن عندما تقدم قراقوش ومن معه مـــن أعـــراب لاقتحـــام أسوار المدينة، شعر بهم الموحودن فنازلوهم والحقوا بهم الهزيمة(1).

وفي هذه السنة 577ه/1181-1182م عظمت الخلافات بين القبائل العربية في إفريقية فقد نجح قراقوش في زيادة شقة الفرقة والفساد بينها، ويظهر ذلك في توجه أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح إلى مراكش في تلك السنة برسم الخدمة(2). في حين نجد أن قبيلة سليم تقف في أواخر هذه السنة 577ه/1182م إلى جانب قراقوش وتخوض معه معركة ضـــد القـــوات الموحديـــة بالقرب من القيروان، انكسر فيها الجيش الموحدي وغنم قراقوش وأسر عدداً كبيـــراً من قادة الموحدين، منهم ابن صاحب ديوان إفريقية الذي افتدى نفسه بخمسة وستين الف دينار عيناً وبأربعين الف دينار متاعاً(3).

وبينما كان قراقوش يتقاسم الغنائم التي حازها من الموحدين مع جنده وعـــرب سليم، وصلته الأنباء باستيلاء زعيم زغبه ناصر الدين إبراهيم على قلعـــة أم العـــز وانزال أهله ونساءه منها، فقرر العودة للنيل من هذا الغادر الذي نكث عهده. وفـــي طريقه إلى طرابلس تلقى مجدداً طاعة ذباب وزغبة، ولما سمع به إبراهيم وتحقـــق رجوعه سار إلى قلعته في جبل نفوسة وتحصن بها، إلا أنه لـــم يســـتطع الصـــمود طويلاً أمام حصار وغارات قراقوش فارسل يطلب الأمان، فشرط عليـــه قراقـــوش ترك البلاد والتوجه إلى الديار المصرية ليقيم بها، وفي طرابلس تحايل واليها عبـــد المجيد بن مطروح الذي كان على ولائه للموحدين لمنع سفر ناصر الدين إبـــراهيم

---

(1): أبو شامة، الروضتين، جـــ3، ص99؛ خلف الله، العلاقات، ص150-151.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 212.

(3): الأيوبي، مضمار الحقائق، ص69-70.

إلى مصر، حيث سفّره في مركب إلى تونس وهناك تلقاه واليها الموحـــدي فاحســـن إليه وأعطاه اموالاً كثيرة وسيّره إلى مراكش[1].

وفي سنة 578هـ/1182م اظهر والي طرابلس الشيخ عبد المجيد بـــن مطـــروح العداوة لقراقوش ومنعه من دخول المدينة، فما كـــان مـــن قراقـــوش إلا أن قصـــد طرابلس وحاصرها وضيق عليها، وعندما عجز أهل المدينة عن تحمـــل الحصـــار اشاروا على الشيخ عبد المجيد تسليم المدينة، فراسل بدوره قراقوش وسأله أن يرسل إليه قوماً يقرر معهم أمر التسليم، فارسل إليهم وزيره وثلاثة من أصحابه، فـــانزلهم الشيخ عبد المجيد في دار اخلاها لهم، فلما جن عليهم الليل تصافعوا بالمخاد حتـــى قطعوها وأحدثوا في صهريج الماء المعد للشرب، ولما علم عبد المجيد في الصباح بما كان منهم، جمع وجوه البلد وقص عليهم ما كان منهم وقال " إذا كـــان هـــؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم "[2] وتراجع عبد المجيد ووجوه البلد عن تسليم مـــدينتهم لقراقوش، وكتبوا إليه يخبروه بما كان من أصحابه الأمر الذي نفّـــر أهـــل المدينـــة منهم، وعرضوا عليه أن يجعل عليهم مالاً معيناً يحمل له في كل ســـنة مقابـــل أن يرحل عنهم، فأجابهم قراقوش إلى ذلك وبقيت المدينة في امرة أميرها الموحدي[3].

ثم سار قراقوش تجاه إفريقية وحاول الاستيلاء على قابس، مستغلاً ثورة القبائل العربية هناك بقيادة عرب سليم ضد الموحدين، وبفضل ما قدمه من دعـــم واســـناد لعرب سليم تمكنوا من هزيمـــة الجيـــوش الموحديـــة بـــالقرب مـــن قـــابس ســـنة 579هـ/1183م، حتى وقع في أسرهم اثنين من اخوة الخليفة أبي يعقوب وهما أبـــو علي وأبو موسى، وقد تم اطلاق سراحهما مقابل فدية كبيرة[1].

نلحظ مما سبق أن الأيوبيين في مصر استطاعوا أن يمدوا نفوذهم خلال فتـــرة مبكرة من تاريخ دولتهم إلى كثيراً من بلاد إفريقية بفضل فتوحات القائد قراقـــوش، حتى لم يبق خارج سلطانهم سوى المهدية وصفاقس وقفصة وتونس وما والاها من

(1): خلف الله، العلاقات، ص151-152.

(2): أبو شامة، الروضتين، جـــ3، ص143-144.

(3): أبو شامة، الروضتين، جـــ3، ص144-145.

(1): الأيوبي، مضمار الحقائق، ص204؛ المراكشي، المعجب، ص198.

القرى والمواضع، وتمكن قراقوش بمساعدة العرب من حكم تلــك الــبلاد واقامــة الخطبة فيها للخليفة العباسي ولصلاح الدين. ويقول ابن الأثير أن قراقوش بفعل مــا جمعه من أموال عظيمة من نواحي إفريقية " قويت نفسه، وحدثته بالاستيلاء علــى جميع إفريقية لبعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها "[1].

لكن بالرغم مما ساد من توتر في العلاقات السياسية بين الموحدين والأيــوبيين على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، فإن ذلك لم يؤثر في معاملة الدولتين للعامة من الناس، فقد ظلت مصر مركزاً رئيسياً لنزول جميع الرحالة المغاربــة المتــوجهين للمشرق لاداء فريضة الحج أو طلب العلم أو حتى الاقامة. وقد لقي المغاربة حســن معاملة وطيب لقاء في مصر في العصر الأيوبي قد لا يكون حازوه في عهد غيرهم، وفي ذلك يقدم لنا الرحالة الأندلسي المعاصر الذي طاف أنحاء المشرق الإســلامي خلال فترة دراستنا سجلاً ناصعاً للسلطان صلاح الدين الأيوبي يعدد فيه مآثره تجاه أبناء المغرب، ومن ذلك:

1. توفير المدارس والمستشفيات والحمامات والمساكن للمسافرين المغاربة الزهــاد والفقراء[2].
2. " عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان في كل يوم بالغاً ما بلغــوا "[3].
3. تخصيص مسجد ابن طولون في القاهرة، ليكون مأوى للغرباء مــن المغاربــة يسكنونه ويعقدون فيه حلقات الدرس، مع التكفل بارزاقهم[1].
4. الغاء الضريبة التي كانت مفروضة على الحجاج المغاربة المارين بمصر زمــن الدولة الفاطمية، وذلك سنة 572هـ/1176م[2].

---

(1): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ10، ص47.

(2): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص15.

(3): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص16.

(1): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص26.

(2): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص30؛ أبو شامة، الروضتين، جــ2، ص453.

ثم يختم ابن جبير حديثه عن مناقب صلاح الدين الأيوبي فيما يتعلق بمعاملتـــه الطيبة للغرباء وبخاصة المغاربة بقوله " أنه لا عدل ولا حق ودين على وجهـــه إلا عند الموحدين.. والسلطان العادل صلاح الدين "[1].

ويبدو أن حسن معاملة الأيوبيين للمغاربة من علماء وطلاب علم وحجـــاج قـــد دفعت ببعضهم على الاستقرار في مصر، فهذا أبي يحيى اليسع بن عيسى بن حـــزم الغافقي (ت575ه/1179م)، وهو من جيان، رحل إلى مصر ســـنة 560ه/1164م فاستوطن الاسكندرية، ثم انتقل إلى مصر ودخل في خدمة السلطان صـــلاح الـــدين الأيوبي، الذي قربه منه ورسم له راتباً وكان يكرمه ويشفعه في حوائج الناس لانـــه أول من خطب على منابر القاهرة لبني العباس عند نقل الدعوة لهم في مصر فـــي أول جمعة من محرم سنة 567ه/ أيلول 1172م، تجاسر على ذلك في الوقت الـــذي تهيبه سواه، وتوفي بمصر[2].

ومن العلماء الذين كانت لهم اقامة في مصر ثم عادوا إلى المغرب ففادوا بعلمهم أبناء الدولتين الأيوبية والموحدية، أبا علي الحسن بن محمد بن الحسن الانصـــاري (ت585ه/1189م) رحل من المغرب حاجاً فاقام بالإسكندرية للتدريس مدة خمـــس سنوات (572-577ه/1176-1181م)، ويذكر ابن الابار أن طلبـــة الإســـكندرية كانوا يتزاحموا عليه للسماع منه، فصارت له عندهم بـــذلك وجاهـــة، وفـــي ســـنة 577ه/1181م قفل عائداً إلى المغرب فلزم الناس الاقبال عليه والسماع منه حتـــى وفاته[1].

وفي المقابل استقبلت بلاد المغرب من وفد عليها من مصر، وإن أخـــذ شـــكل الوافدين عليها طابعاً سياسياً من نوع خاص، فقد استقبل الخليفة أبـــو يعقـــوب لأول مرة في تاريخ المغرب المماليك الغز الواردين مـــن مصـــر، وكـــان ذلـــك ســـنة 574ه/1178م، وفي ذلك يقول المراكشي " وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب

---

(1): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص56.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـــ4، ص237-238.

(1): ابن الآبار، التكملة، جـــ1، ص212.

أول من وردها من الغز، وذلك في سنة 574ه، وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخـــر أيام أبي يوسف "[1].

أما الشكل الآخر للوافدين على المغرب من مصر، فقد تمثل باللاجئين السياسيين الهاربين من السلطان صلاح الدين الأيوبي وخاصة من الشيعة العبيدية الذين فضلوا الالتحاق بدولة الموحدين على البقاء في مصر بعد زوال دولتهم، ويذكر ابن الآبـــار أن الخليفة أبو يعقوب استقبل منهم جماعة فيهم أبـــو الوفـــاء المصـــري وهبـــة الله المصري وغيرهم، فأسكنهم مراكش واستعان بهم في بعض أعمال الدولة[2].

---

(1): المراكشي، المعجب، ص188.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـــ4، ص150؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـــ2، ص532.

الفصل الرابع

نظم الحكم والإدارة في عهد الخليفة أبي يعقوب

1.4 النظام السياسي:

1.1.4 نظام الحكم:

اتسم نظام الحكم عند الموحدين بالتطور والإبداع عبر أطوار الدولة، وبالتكيف مع أهداف ومتطلبات كل مرحلة، وشهد تغيرات واضحة ما بين عهد المؤسس ابن تومرت والباني عبد المؤمن بن علي، ومثبت أركان الدولة أبو يعقوب يوسف[1]، ففي الوقت الذي رشح فيه ابن تومرت صاحبه عبد المؤمن بن علي لتولي الأمر من بعده من خلال تأميره للصلاة بأصحابه خلال مرضه[2]، ثم أنه أوصى أصحابه صراحة قبل موته بتقديم عبد المؤمن وتسليم الأمر إليه والانقياد له ولقّبه أمير المؤمنين[3]، نجد أن خليفته عبد المؤمن ينتهج طريقاً مغايراً لسنن سيده، فقد جعل الخلافة ميراثاً في عقبه، فعهد بولاية العهد في بادئ الأمر إلى ابنه البكر محمد سنة 549هـ/1154م[4]، ثم لما ثبت له أن ابنه هذا سيء السيرة أقدم قبل وفاته بأيام على خلعه من ولاية العهد وولى مكانه ابنه يوسف فبايعه الحاضرون عندئذ من أهل الجماعة والخمسين الذين لا بد من مصادقتهم الاجتماعية حتى يخلص الأمر إليه[5]، وبعد وفاة عبد المؤمن بايع من حضر في حضرة الخلافة بمراكش من أمراء بني عبد المؤمن والوزراء وطبقات الموحدين والزعماء أبو يعقوب يوسف على الطاعة، فكانت البيعة الخاصة وأذيع نبأ جلوسه في جميع أنحاء المملكة[6].

---

(1): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ5، ص55.

(2): ابن أبي دينار، المؤنس، ص109.

(3): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ9، ص201.

(4): حسن، الحضارة الإسلامية، ص87-88.

(5): المراكشي، المعجب، ص173؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص319؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص315.

(6): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ2، ص241.

ويبدو أن هذه البيعة كانت ناقصة نتيجة امتناع أخويه عن المبايعة، وقد عبّر عن ذلك ابن أبي زرع بقوله " لما بويع - يوسف – بعد وفاة والده توقف عن بيعته قوم من أشياخ الموحدين، وامتنع من بيعته أخواه عبدالله صاحب بجاية، والسيد محمد صاحب قرطبة "[1]، لكن أبو يعقوب عالج الموقف بحكمة عالية فلم يتخذ تجاه اخوته اجراءاً حاسماً، واكتفى لنفسه بلقب أمير ولم يتسم بأمير المؤمنين، ثم عمل على كسب محبة الناس وطاعتهم بتفريق الصدقات والأموال عليهم، وتسريح من في السجون، فأتته البيعة من جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس[2]، ولم يكن أمام الأخوين – عبدالله ومحمد – أمام هذا الاجماع إلا الرضوخ للأمر الواقع، والإقبال على الخليفة ومبايعته، وكانت لمبايعة الممتنعين مع نجاح أبي يعقوب في القضاء على ثورات قبائل غمارة سنة 562ه/1166م، أثر في دعم مكانته، الأمر الذي استوجب مبايعته البيعة العامة، وهذا ما كان في سنة 563ه /1167م، حيث جاءت البيعة من جميع فئات وعناصر الدولة، بشطريها المغربي والأندلسي[3]، يقول ابن صاحب الصلاة: " في أول هذه السنة – 563ه – جمع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والفتوح والبشائر، من الأراء الموفقة، والنفوس المصفقة، بتجديد البيعة والتسريح بالاسمية المستحقة لسيدنا، فكمل بذلك إجماع الموحدين "[4].

وبذلك تلقّب أبو يعقوب يوسف منذ سنة 563ه/1167م بلقب أمير المؤمنين[5]، وتسمى بالخليفة؛ أي خليفة لوالده عبد المؤمن الذي انتخب هو أيضاً خليفة للمهدي لا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذه حقيقة هونت الخلافة الموحدية وخففت من طمع الناس فيها، فسارت الأمور في الدولة بسلام[6]. ولم يكن تجديد البيعة للخليفة قاصراً على العاصمة مراكش وإنما شمل أنحاء الدولة، فاستقبل الخليفة

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص208-209.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص209؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص276.

(3): ابن قنفذ، الفارسية، ص102-103؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص72.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص338-339.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص210؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320.

(6): المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص214.

الوفود التي أتت من مختلف أطراف الدولة[1]، كما صدرت الرسائل إلى ولاة الأقاليم البعيدة لأخذ البيعة للخليفة، فصدر كتاب من العاصمة مراكش إلى والي إشبيلية السيد أبي إبراهيم اسماعيل يخبره فيه بتجديد البيعة ويأمره بأخذ البيعة للخليفة من أهل إشبيلية ومن جميع بلاد الأندلس التي تحت طاعة التوحيد كقرطبة وغرناطة ومالقة، فوجه السيد أبو إبراهيم اسماعيل نسخة من الكتاب إلى جميع ولاة الأندلس، فقام كل والي منهم بجمع الناس وقراءة الكتاب على مسامعهم، فاتصل خبره عند الغائب والحاضر، فبادروا إلى البيعة من حينهم، ومن ثم صدرت الكتب من الولايات إلى العاصمة للأخبار بإتمام البيعة كما فعل أهل غرناطة الذين جاء في كتابهم اشهادهم على أنفسهم بخطوط ايديهم بالبيعة للخليفة، ومما ورد في بيعتهم " أما بعد فإنه لما اختص الله تبارك وتعالى طائفة التوحيد، بما هم عليه من العمل السديد.. اجتمعت نفوسهم بعد توفيق من الله تعالى لهم.. أن يجددوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب.. بالاسم المبارك العظيم الذي أول من نطق له فيه عمر بن الخطاب.. بيعة ايمان وأمانة، وعدل وعبادة"[2].

لم يجد الخليفة أبو يعقوب صعوبة في إدارة الدولة وتنظيم أمورها، على الرغم من اتساع مساحتها وامتدادها في بلاد المغرب من برقة شرقاً إلى أقصى أرض السوس غرباً، وفي بلاد الأندلس من تطيلة شرقاً إلى مدينة شنترين غرباً[3]. فقد سيطر على شؤون الدوله بنفسه، ولم يعتمد على أحد من رجال دولته، ولم يسمح لولاته بالتصرف بدون الرجوع إليه أولاً، ثم أنه لم يترك أحداً من رجال دولته في منصبه مدة طويلة، وإنما يجعلهم يتنقلون بين المناصب والولايات، فلا يكون لهم سلطات بحكم طول المدة في البقاء بالمنصب القيادي[4].

---

(1): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـــ1، ص315.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص343.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206.

(4): السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص56.

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب لم يعد لهيئات العشرة والخمسين والسبعين التي ألفها المهدي[1] أي مفعول يذكر في إدارة الدولة، واقتصر دورها فقط على الجانب الاستشاري الذي لم يلزم نفسه به أيضاً، فقد كان يعتمد على رأي أخيه أبو حفص عمر ويقدمه في المشورة[2]، ومنح نفسه صلاحيات واسعة في مختلف الجوانب السياسية والإدارية والحربية وحتى الاقتصادية منها، فنجده يقود الغزو والمعارك بنفسه، ويعين الولاة والقضاة ويعزلهم، ويبرم الهدن ومعاهدات الصلح، ويأمر بالبركات والأعطيات.

أما بالنسبة لولاية العهد فقد توفي الخليفة أبو يعقوب دون أن يعهد أو يوصي لأحد بالخلافة من بعده، حيث كانت وفاته في الأندلس على أثر نكبة شنترين، فكتم الموحدون خبر وفاته؛ نظراً لظروفهم الحربية حتى يحكموا أمرهم، فاجتمع رأي أشياخ الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تقديم ابن الخليفة أبي يوسف يعقوب، فبايعوه وعقدوا له الولاية وقدموه للأمر ودعوه بأمير المؤمنين[3].

2.1.4 نائب الخليفة في الحضرة مراكش:

وجد هذا المنصب في بلاد المغرب الإسلامي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، وهي وظيفة مؤقتة يشغلها النائب أثناء تغيب الخليفة عن العاصمة لسبب من الأسباب[4]، فكان الخليفة الموحدي كلما ترك مراكش عهد بأمور الدولة إلى من ينوب عنه في تصريفها طيلة مدة غيابه، وأنحصر اختيار الخليفة لنائبه في أقرب المقربين إليه، فقد استخلف الخليفة أبو يعقوب على مراكش حين توجه للأندلس في غزوته الأولى لها سنة 566ه/1170م أخاه السيد أبا عمران موسى الذي كان يشغل

---

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص82-86.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص462؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص92.

(3): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص328؛ نجار، المغرب والأندلس، ص349.

(4): حسن، الحضارة الإسلامية، ص82.

آنذاك منصب والي تلمسان[1]. وأيضاً عندما خرج للقضاء على ثورة صنهاجة القبلة سنة 572ه/1176م، استخلف أخاه أبا حفص عمر والياً على مراكش وأميراً على الناس[2]. وكان نائب الخليفة يتولى مقاليد الأمور في العاصمة ويشرف على الدولة مستخدماً في ذلك حقه كممثل للخليفة في سلطانه[3].

3.1.4 **الوزارة ومهام وصلاحيات الوزير**:

الوزارة هي أسمى الخطط السلطانية والرتب الملوكية[4]، واسم الوزير عند أبو يعلى وابن خلدون مشتق من ثلاثة أوجه: أحدها بإنه مأخوذ من " الوِزر " (بكسر الواو) وهو الثقل لأنه يحمل عن الحاكم أثقاله، والثاني أنه مأخوذ من الوَزر (بفتح الواو) وهو الملجأ والمعتصم، سمي بذلك؛ لأن الحاكم يلجأ إلى رأيه ومعرفته، والثالث أنه مأخوذ من الإزِر (بكسر الزاي) وهو الظهر؛ لأن الحاكم يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر[5].

ويرى ابن خلدون أن الموحدين سموا الوزير حاجباً مقلدين في ذلك الدولة الأموية بالأندلس، فيقول " ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولاً للبداوة.. ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه "[6]. غير أن المصادر المعاصرة لدولة الموحدين تنفي ما جاء به ابن خلدون من تسمية الموحدين للوزير حاجباً، فالبيذق وابن صاحب

---

(1): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(3): حسن، الحضارة الإسلامية، ص83.

(4): ابن خلدون، المقدمة، ص236.

(5): أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت458ه/1066م): الأحكام السلطانية، شركة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة 1961م، ص13. سيشار إليه فيما بعد: أبو يعلى، الأحكام السلطانية؛ ابن خلدون، المقدمة، ص236؛ الدوري، عبد العزيز: النظم الإسلامية، بيت الحكمة، جامعة بغداد 1988م، ص159. سيشار إليه فيما بعد: الدوري، النظم الإسلامية.

(6): ابن خلدون، المقدمة، ص240.

الصلاة وابن القطان والمراكشي وصاحب الحلل الموشية أوردوا اسم الوزير في فترة الموحدين في مدلوله ومعناه[1]. وكان أول وزير في دولة الموحدين أبو جعفر بن عطية الذي استكتبه الخليفة عبد المؤمن سنة 542هـ/1147م[2]، ثم جمع بين الكتابة والوزارة منذ سنة 545هـ/1149م، ثم انفرد بالوزارة من بعد ذلك[3].

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، اتخذ في بادئ الأمر أخاه أبي حفص عمر وزيراً له حتى استقرت الأحوال في مملكته سنة 560هـ/1164م، ثم لما ارتفع قدر أخيه عن الوزارة إذ رآها دونه[4]، اختص أبو يعقوب بوزارته أبي العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع الذي سبق وأن شغل منصب الوزارة للخليفة عبد المؤمن للفترة من 555-558هـ/1160-1163م، تحت إشراف وبين يدي السيد أبو حفص، ثم لما آلت الخلافة لأبي يعقوب استمر في منصبه يعمل بين يدي السيد أبي حفص الذي استعان به للقيام بمهام الوزارة؛ لتمييز أفراد الأسرة أنفسهم عن سائر الوزراء[5]، وبذلك انفرد أبو العلاء بمنصب الوزارة في الدولة الموحدية منذ سنة 560هـ/1164م، وظل في وزارته وقد ظهرت منه دلائل الصلاح واتصال العدل والفضل، حتى سخط عليه وعلى اخوته وبنيه الخليفة أبو يعقوب سنة 573هـ/1177م، بعد أن استكمل في وزارته خمس عشرة سنة وشهراً وعشرين يوماً، فقبض عليهم واستصفى أموالهم ثم ابعدهم مغربين بجهة إشبيلية ستة أعوام وبضعة أشهر إلى أن صفح عنهم الخليفة أثناء مسيره لغزوة شنترين، إذ قدموا عليه

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص80؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص224؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص179؛ المراكشي، المعجب، ص180؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص142.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص31.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص192؛ العبادي، دراسات، ص159.

(4): المراكشي، المعجب، ص180.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص91؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص100.

في بطليوس ورغبوا منه أن يأذن لهم في حضور تلك الغزوة، فأذن لهم ومشوا في جملة المجاهدين[1].

ثم وزر للخليفة أبي يعقوب ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور إلى أن كانت وفاة الخليفة سنة 580هـ/1184م، ولكن لما كان أبو يوسف يعقوب يرى في نفسه أسمى من منصب الوزارة، كونها لم تكن أعلى المناصب في دولة الموحدين[2]، فقد اتخذ وزيراً بين يديه يعمل تحت إدارته وإشرافه هو أبو بكر بن يوسف الكومي[3].

ولعل هذا الاجراء الذي اعتاد عليه الموحدين باتخاذ وزير مساعد للعمل بين يدي الوزير إذا كان الوزير من أسرة الخلافة كما هو في حالة وزارة أبو حفص الذي اتخذ الوزير أبو العلاء مساعداً له، ثم في حالة وزارة أبو يوسف يعقوب الذي اتخذ أبا بكر الكومي وزيراً بين يديه، يهدف إلى الارتقاء بقدر أفراد أسرة الخلافة عن المساواة ببقية الوزراء، وفي نفس الوقت الاحتفاظ بلقب الوزارة بين أفراد تصلهم بالخليفة قرابة ماسة، مع منح صاحب الرتبة عوناً فنياً[4].

أما عن مهام وصلاحيات الوزير، فقد تنوعت واتسعت تبعاً للظروف والأحوال التي تمر بها البلاد، فكان الوزير مسؤولاً عن جميع الأوضاع في الدولة، السياسية منها والإدارية، بل قد تمتد مسؤوليته إلى النواحي الدينية والاقتصادية والأمنية وإلى غير ذلك[5]. فلما قامت الدولة الموحدية على أساس ديني، كان الجهاد يشغل جزءاً كبيراً من جهد الحكام ومن يشغل منصب الوزارة، وبذلك كانت من مهمة الوزراء أيضاً تنظيم الجيش وقيادته، ويظهر ذلك جلياً في عهد الخليفة أبي يعقوب عندما قاد

---

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص240-241.

(2): هوبكنز، ج.ف.ب: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، نقله عن الانجليزية: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1980م، ص45-47. سيشار إليه فيما بعد: هوبكنز، النظم الإسلامية.

(3): العبادي، دراسات، ص166-167؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص100.

(4): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص46.

(5): السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص173؛ نجار، المغرب والأندلس، ص352.

أبو حفص عمر وهو يشغل منصب الوزير سنة 560هـ/1164م الجيش الموحدي في معركة فحص الجلاب ضد ابن مردنيش، وقد اجلت تلك المعركة عن انهزام ابن مردنيش وتشتت قواه[1]. وقد يقوم الوزير بافتداء الأسرى ومساعدة الجند الثكالى، كما فعل الوزير أبو العلاء ادريس، حيث يذكر ابن عذاري أنه " أحسن لمن وفد إليه واستغاث به من أجناد الأندلس.. ففداهم بماله وأعطاهم الخيول وآلات الحرب والكسوة الرفيعة "[2].

ونلاحظ أيضاً أنه من مهام الوزير القيام بأعمال تدخل في اختصاصات الحجابة، فحينما مرض الخليفة سنة 565هـ/1169م " كان يدخل إليه وزيره أبو العلاء إدريس ابن أبي إسحاق بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة، والأخبار المسلية السارة المتجاملة، ويحضر معه الأطباء الأولياء أبو مروان بن قاسم، وأبو بكر بن طفيل وغيرهما "[3]. ويذكر ابن صاحب الصلاة أنه لما شفي الخليفة من مرضه سنة 566هـ/1170م، جلس الخليفة في قصره للسلام على الناس فدخل " عليه أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر والوزير أبو العلاء ادريس بن أبي اسحاق وأخوه أبو محمد عبدالله قائمان بترتيب الدخول بالناس، وسلموا عليه ودعوا له وهنوه على عافيته وشفايته "[4]. ولما وصل الخليفة أبو يعقوب سنة 567هـ/1172م إلى قرطبة في جوازه الأول للجهاد في لأندلس " انصرف إلى دار الإمارة وجلس.. للسلام عليه والتهنئة إليه وادخل الوزير أبو العلاء بن جامع من تقدمت عادته بالإدخال من أشياخ الموحدين الكبراء وطلبة الحضر والقضاء والفقهاء والكتاب والأولياء"[5].

كما اسند للوزراء احياناً مهام الإشراف على أعمال البناء والتعمير، ومثال ذلك تكليف الخليفة أبو يعقوب الوزير أبو العلاء ادريس بالإشراف على المشاريع العمرانية في إشبيلية وجلب الثمار والأشجار من غرناطة ووادي آش؛ لاغتراسها

---

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص260.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص91.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص410.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص420.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص118.

في بساتينها " فكانت تصل بذلك القطار إثر القطار، بجميع الثمار المختارة للاغتراس للإثمار، وأبو العلاء ادريس الوزير وابنه يحيى ملتزمان للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء، حتى كمل البناء والعمل وانتهى غاية الانتهاء "[1].

وفي الشأن الاقتصادي كان للوزير النظر في الحساب والأشغال المالية[2]، فكانت الدواوين المالية تقع ضمن مسؤوليته واستمرت كذلك طيلة عهد الخليفة ابو يعقوب حتى فصلت تحت إشراف رجل مختص في خلافة ابنه المنصور[3]. وكان الوزراء يجودون بما أنعم الله عليهم من خير في مساعدة الفقراء وأصحاب الحاجة، كما فعل الوزير أبو العلاء إدريس عندما اشترى هو وابنه يحيى لأهل مدينة قونكة سنة 567هـ/1172م زرعاً بمائة دينار لكل منهما[4].

إلى جانب هذه المهام كان الوزير مسؤولاً عن الإعداد والتجهيز للاحتفالات الرسمية، ويشرف على إجراءات البيعة للخليفة الجديد بالاشتراك مع كبير السادة ويحضر مجالس العلم التي يعقدها الخليفة ويراقب الحضور وحسن استماعهم[5].

وكانت الوزارة في دولة أبي يعقوب يوسف وزارة تنفيذ[1]، إذ ليس لهم الاستبداد برأي أو اتخاذ قرار دون علم الخليفة، ومن شعر الخليفة باستبداده أو فساده نكبه في

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص468.

(2): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص318؛ السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص177.

(3): موسى، عز الدين عمر: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991م، ص158. سيشار إليه فيما بعد: موسى، الموحدون في الغرب.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص468.

(5): موسى، الموحدون في الغرب، ص158.

(1): وزارة التنفيذ: هي التي يكون الوزير فيها واسطة بين الخليفة والرعية، وليس له فيها تدبير الأمور باجتهاده، وإنما يقتصر عمله على تنفيذ أوامر الخليفة، فهو معين بتنفيذ الأمور وليس بوال عليها أو متقلداً لها. انظر: الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (ت 450هـ/1058م): كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: سمير

حينه كما فعل مع الوزير أبو العلاء ادريس بن جامع سنة 573هـ/1177م عندما نكبه وغربه[1]. لكن يلاحظ أن الوزراء من أفراد أسرة الخلافة انفردوا بتنفيذ الأحكام دون الرجوع إلى الخليفة تبعاً لما تقتضيه المصلحة العامة، مثلما فعل السيد أبو حفص عمر، يقول ابن عذاري: " توالى استبداد السيد أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ الأوامر السلطانية على أمره.. على رضى من الأمير أبي يعقوب أخيه واتفاق وإجماع من شيوخ الموحدين.. وكان ابن جامع بين أيديهما يتصرف في رفع الرفوعات والمسائل وتوصيل رغبة الوافد ومسألة السائل"[2].

4.1.4 **الحجابة**:

الحجابة من الحجب؛ أي المنع من الدخول حتى لا يطلع الناس على ولاة الأمر إلا وفق تعليمات[3]. وكان الحاجب واسطة بين الناس والخليفة وهو الذي يدرس حوائجهم ويأذن لهم بالدخول على الخليفة إذا كانت الأسباب للمقابلة غير قوية[4]. ويذكر القلقشندي أن وظيفة الحاجب قديمة ظهرت منذ ابتداء الخلافة في الإسلام، وأن الحاجب " عبارة عمن يقف بين يدي السلطان ونحوه في المواكب؛ ليبلغ ضرورات الرعية إليه، ويركب أمامه بعصا في يده، ويتصدى لفصل المظالم بين المتداعين خصوصاً فيما لا تسوغ الدعوى فيه من الأمور الديوانية ونحوها "[5]. من هنا نلاحظ أن مهمة الحاجب هي منع الناس من الدخول على الخليفة إلا بإذن وبحسب أهمية الحاجة.

مصطفى رباب، وزارة الثقافة، عمان 2014م، ص36. سيشار إليه فيما بعد: الماوردي، الأحكام السلطانية.

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص240.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص84.

(3): السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص199.

(4): حسن، الحضارة الإسلامية، ص122.

(5): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص449-4450.

وفي عصر الدولة الموحدية نجد أن وظيفة الحاجب قد ظهرت منذ فترة مبكرة من تاريخ الدولة، حيث يذكر ابن قنفذ أن الخليفة عبد المؤمن بن علي " أقام رسوم المملكة بإقامة الكتاب، واتخذ الوزراء والحجاب "[1].

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف تولى حجابته في بداية الأمر أخوه أبو حفص عمر، يقول ابن أبي زرع: " حاجبه الضابط لأمره والقائم بملكه أخوه السيد عمر "[2]، ثم لما استقرت الأحوال في الدولة سنة 560هـ/1164م ارتقى السيد أبو حفص عن منصبي الوزارة والحجابة معاً، فاتخذ الخليفة له حاجباً من مواليه وهو كافور الخصي " كان يدعى كافور بغرة "[3] ويكنى بأبي المسك[4]. ولا نعلم هل كان هذا الحاجب أبيضاً أم أسوداً، فالمراكشي اكتفى بالإشارة إليه كمولى أو خصي دون مزيد من الإيضاح، ويظهر من خلال المهام التي وكل بها كافور في عهد الخليفة أبي يعقوب أن مهامه لم تقتصر على تنظيم الصلة بين الخليفة والرعية وإنما تعدت ذلك إلى اعتماد الخليفة عليه في قضاء بعض حوائجه، فيذكر أن الخليفة أرسله مع جماعة من العبيد الخاصة لجلب بعض الكتب إليه[5]، كما أن كافور هذا هو الذي أشرف على عملية نقل جثمان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته وحمله إلى تينملل حيث دفن، يقول المراكشي: " وبعثوا به في تابوت مع كافور الحاجب مولاه.. إلى تينملل، فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت "[6].

5.1.4 **الكتابة**:

منذ أن قامت دولة الموحدين على أرض المغرب الأقصى في القرن السادس من الهجرة، اتخذ حكامها الكتاب لمعاونتهم ومساعدتهم في تسجيل المكاتبات الخاصة

---

(1): ابن قنفذ، الفارسية، ص102.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206.

(3): المراكشي، المعجب، ص180.

(4): المراكشي، المعجب، ص176؛ هوبكنز، النظم الإسلامية، ص57.

(5): المراكشي، المعجب، ص176.

(6): المراكشي، المعجب، ص191.

بشؤون الدولة[1]. ووظيفة الكتابة من الوظائف الضرورية التي لا غنى للدولة عنها، وقد حفل العهد الموحدي بعدد من الكتاب البارزين ولعل أشهرهم على الإطلاق أحمد بن أبي جعفر بن عطية الذي استكتبه الخليفة عبد المؤمن بن علي ثم استوزره بعد حين، والذي وصفه ابن الخطيب بقوله " كان كاتباً بليغاً، سهل الأخذ، منقاد القريحة، سيال الطبع "[2].

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب، نلاحظ وجود نوعين من الكتاب وفقاً لأماكن عملهم، ودرجة المسؤولية المنوطة بهم، وهما: كتاب الخليفة وكتاب ولاة الأقاليم.

كتاب الخليفة:

استعان الخليفة أبو يعقوب يوسف بعدد من كتاب الإنشاء لتحرير رسائله إلى عمال دولته وقادته وكبار موظفيه والقبائل سواء بالمغرب أو الأندلس، وتولى هذه الوظيفة في عهده ثلاثة من أشهر كتاب الدولة الموحدية، وهم:

1. **أبو الحسن بن عياش:**

هو عبد الملك بن عياش بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي، أصله من مدينة يابرة من غرب الأندلس، وقد سكن أبوه قرطبة ونشأ بها، ويذكر ابن الآبار أنه صحب بني حمدين وكتب لهم أيام قضائهم في قرطبة، ثم استخدمه الخليفة عبد المؤمن بعد ذلك في الكتابة فنال عنده دنيا عريضة، وعندما خلف أبو يعقوب والده في الحكم ثبته على ولاية خطة الكتابة، وحصل عنده على منزلة جليلة، ولم يزل يتولى الكتابة لأبي يعقوب حتى وفاته سنة 568هـ/1173م، وكان عبد الملك مع تقدمه في الآداب وتصرفه في النثر، مشاركاً في النظم من أبرع الناس خطاً وأحسنهم وراقة[3]. وقد حفل كتاب المن بالإمامة ومجموع رسائل موحدية بعدد من رسائله ولعل أهمها الرسالة التي سطرها من جبل الكواكب يخاطب فيها جميع الموحدين والطلبة والأشياخ ببلاد المغرب والأندلس، يطلعهم فيها على أخبار الغزوة التي قادها الخليفة ضد سبع بن منغفاد، والمؤرخة في الرابع عشر من شوال سنة

---

(1): حسن، الحضارة الإسلامية، ص113.

(2): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص263.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص82-83.

562هـ/1166م، التي تعد من أطول الرسائل الموحدية وأرقها وصفاً وأكثرها كمالاً[1].

2. **أبو القاسم القالمي**:

هو أبو القاسم عبد الرحمن القالمي، من أهل مدينة بجاية، من ضيعة من أعمالها تعرف ب " قالم " ولم نعثر له على تاريخ وفاة، وقد عده المراكشي من نبهاء الكتاب[2].

3. **ابن محشرة**:

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن ظاهر بن تميم القيسي، من أهل بجاية، كان متمكن المعرفة، حسن الشارة والصفة، استدعاه الخليفة أبو يعقوب عقب وفاة كاتبه أبو القالم ليتولى خطة الكتابة لديه، فارتحل من بجايه وهو كاره ارتحاله مع علمه أنه استدعاه لمنصب يسمو به على أمثاله، فظهر في هذا المنصب بمقدرته وروعة اسلوبه وبيانه، ولما توفي الخليفة أبو يعقوب كتب من بعده لولده الخليفة يعقوب المنصور، وفي كتاب مجموع رسائل موحدية عدد من الرسائل بقلمه، تشهد بتفوقه وفنه في أساليب البلاغة، وكانت وفاته سنة 598هـ/1202م[3].

وبجانب كتاب الإنشاء هؤلاء، هناك كتاب الجيش الذين يختصون بالشؤون العسكرية، ومن كتاب الجيش في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف: أبو الحسن الهوزني الأشبيلي، وأبو عبد الرحمن الطوسي، وأبو عبدالله بن محسن[4].

ومعنى ذلك أنه وجد في دولة الخليفة أبي يعقوب ديوانان لخطة الكتابة كانا تحت مراقبته المباشرة، وهما ديوان الإنشاء ويختص بالشؤون المدنية ويرأسه كاتب السر[1]، وديوان الجيش يختص بالشؤون العسكرية ويرأسه كاتب التمييز أو كاتب

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص309-321.

(2): المراكشي، المعجب، ص149-150، 180.

(3): الغبريني، عنوان الدراية، ص53-55؛ مجموع رسائل موحدية، ص149-157.

(4): المراكشي، المعجب، ص180؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص453.

(1): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص464؛ الغبريني، عنوان الدراية، ص53.

العسكرية[1]. ويكون تحت إشراف رؤساء الكتاب مجموعة من صغار الكتاب الذين كانوا نساخاً أو قائمين بمراسلات ثانوية[2].

وتنوعت اختصاصات كتاب الإنشاء والجيش في عصر الدولة الموحدية، فهم يلازمون الخليفة في حله وسفره ويتابعون سيرته في حروبه وجهاده، فيصفون تلك الانتصارات ويبلغون أوامره من حيث كان إلى ولاته وعماله[3].

وحين يتسلم الخليفة الجديد سلطاته يتولى كاتب السر القاء صيغة البيعة التي كان يبايع بها الناس الخليفة، بمحضر أهل الجماعة والخمسين، وصيغة البيعة هي " تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين، هذا ما له عليكم. ولكم عليه، ألا يجمر بعوثكم، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته وأن يعجل لكم عطاءكم، وألا يحتجب دونكم، أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قلد من أموركم "[4].

وقد يقوم بعض الكتاب أحياناً بمهمة التحقيق مع العمال الذين يبلغ الخليفة عنهم سوء تصرفهم واستبدادهم في أعمالهم وإسرافهم في أموال الدولة، ومثال ذلك ما حدث مع الخليفة أبو يعقوب يوسف عندما وصل إلى إشبيلية في جوازه الأول للأندلس سنة 566هـ/1170م وحاسب أحد عماله، وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة:" وعندما احتل بها – أي إشبيلية – أخر محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم عن أعمال المخزن بإشبيلية والأندلس وعزله عنها، وأمره بالمشي إلى قرطبة لمحاسبته والوقوف على عمله.. وعندما وصل إلى قرطبة جعل لمحاسبته أبو القاسم بن عساكر وأبو عبدالله بن محسن كاتب العسكرية، وأمر بالحضور على تسطير عمله الفقيه أبو محمد المالقي والكاتب أبو الحكم بن عبدالله بن عبد العزيز يشهدان

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص436؛ 453.

(2): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـــ1، ص319.

(3): السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص194.

(4): حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، ص404-405؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـــ1، ص315.

على كل ما يسطره، دام ذلك إلى آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة عند انفصال أمير المؤمنين من قرطبة إلى إشبيلية "[1].

كتاب ولاة الأقاليم:

مثلما اتخذ الخلفاء الموحدين الكتاب لمعاونتهم في العاصمة مراكش، كذلك فعل ولاة الأقاليم في اتخاذهم الكتاب لمعاونتهم في تحرير الرسائل وما يتعلق بالأعمال الإدارية[2]، فقد اتخذ السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير الكناني (ت614ه/1217م)، صاحب الرحلة المشهورة كاتباً له، فنال ابن جبير بصنعته دنيا عريضة حتى زهد فيها سنة 578ه/1182م فاستأذن السيد أبو سعيد؛ لأداء فريضة الحج فأذن له[3]. وكذلك الكاتب أبو العباس أحمد بن السعود الذي اشتغل كاتباً لابن همشك والي جيان بعد دخوله في الدعوة الموحدية[4]. ومن كتاب الولاة أيضاً نذكر عبد الرحمن بن محمد السلمي الكاتب (ت571ه/1175م) وهو من أهل مرسية، عني بالآداب فرأس في الكتابة، وكتب لعدد من ولاة شرق الأندلس[5].

ومما يجدر ذكره هنا أنه في عهد الخليفة أبي يعقوب اتخذت الدولة الموحدية العلامة الرسمية لها في المكاتبات وهي " الحمد لله وحده " وذلك بدءً من سنة 561ه/1165م[6]، وبها أخذ يوشح جميع الكتاب رسائلهم الرسمية الصادرة عن البلاط الموحدي، تكتب في مطلع الرسالة إلى جانب بسم الله الرحمن الرحيم[1]، وفي

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص453؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص119-120.

(2): حسن، الحضارة الإسلامية، ص120.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص109-110؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص384.

(4): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص52.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص29.

(6): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277.

(1): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص183، 242.

ذلك يقول ابن خلدون والسلاوي: " وفي سنة احدى وستين وخمسمائة.. نظر الموحدون في وضع العلامة في الكتوبات بخط الخليفة فاختاروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم"[1].

2.4 النظام الإداري:

1.2.4 ولاة الأقاليم:

بسط الموحدون نفوذهم على مساحة واسعة من البلاد، امتدت من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبل الشارات بالأندلس شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوبا[2]. ولكي يسهل على الحكام الموحدين إدارة هذه المساحة العظيمة عمدوا إلى تقسيمها إلى وحدات إدارية كبيرة دعيت ولايات أو أقاليم يتبع كل منها السلطة المركزية مباشرة.

فقد قسمت المغرب الأقصى في دولة الخليفة أبي يعقوب يوسف إلى ست ولايات عدا العاصمة مراكش وما تبعها من مدن وقرى، والولايات الست هي: فاس، وسجلماسة، والسوس، والصحراء، وسبتة، وطنجة إقليماً واحداً، وإقليم الريف[3]. وشمل المغرب الأوسط على ولايتين هما: بجاية وتلمسان[4]، بينما شكلت إفريقية ولاية واحدة عظيمة المساحة امتدت من برقة في ليبيا إلى قسنطينة في المغرب الأوسط وكانت قاعدة الولاية ومركز إدارتها مدينة تونس[1]. أما عن الأندلس فيذكر القلقشندي أنها كانت تقسم إلى خمس ولايات هي: إشبيلية، وغرناطة، وقرطبة،

---

(1): ابن خلدون، العبر، جــ6، ص320؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص277.

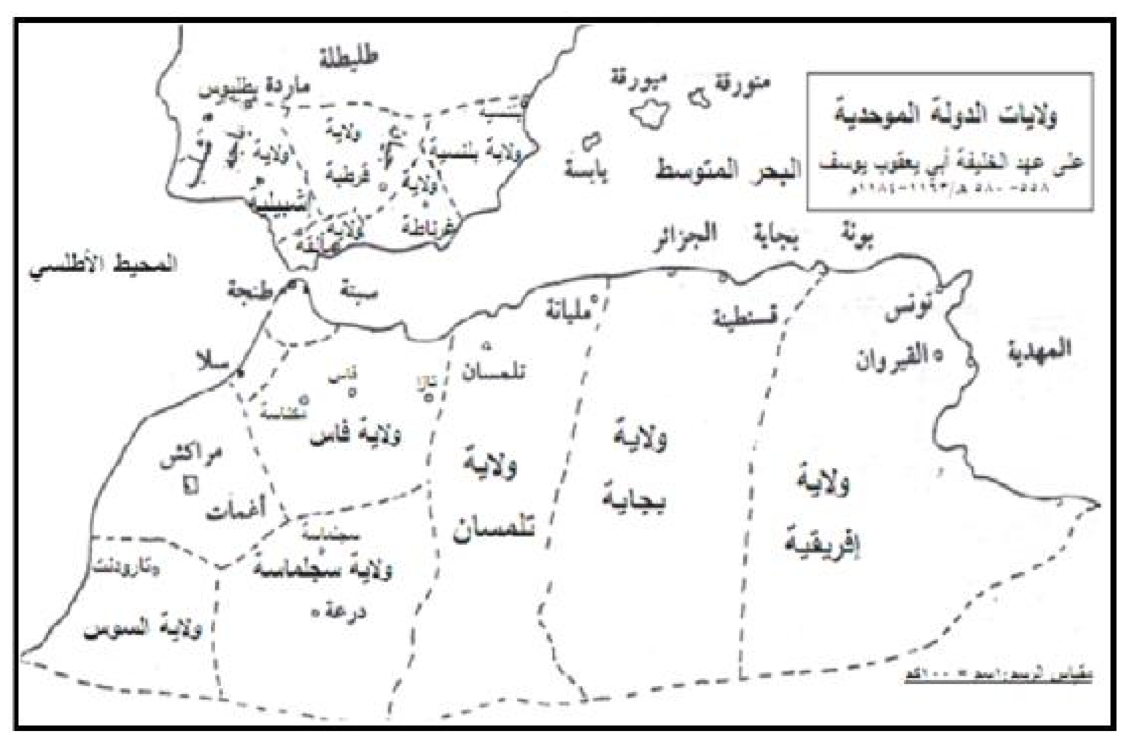
(2): ابن أبي دينار، المؤنس، ص113؛ السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص272؛ الجيلالي، تاريخ الجزائر، جــ2، ص304.

(3): حسن، الحضارة الإسلامية، ص125؛ نجار، المغرب والأندلس، ص355.

(4): الجيلالي، تاريخ الجزائر، جــ2، ص314.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين،ص143؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جــ1، ص322.

وبلنسية، ومالقة[1](أنظر الخريطة رقم (6)). وكان يتبع كل واحدة من هذه الولايات مجموعة من المدن والقرى، فمثلاً كانت ولاية قرطبة تشمل دوائر بياسة وجيان وأبدة وأندوجر وغيرها، وولاية إشبيلية تشمل دوائر الغرب وشريش وشذونة واستجة وقرمونة وغيرها[2].



خريطة رقم (5)[3]

وسار الخليفة أبو يعقوب على نهج والده عبد المؤمن في اختيار ولاة وعمال أقاليم الدولة، فحصر حق التعيين في الأقاليم الرئيسية بيده، وكان يختار ولاتها من ذوي التجربة والخبرة في العمل، وممن تم إعدادهم ثقافياً وعلمياً قبل أن يعهد إليهم بتدبير شؤون الإدارة. ومن خلال الرجوع إلى مصادر الدولة الموحدية وإحصاء

---

(1): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص259. ويتماشى أشباخ مع تقسيم القلقشندي لولايات الأندلس لكنه لا يذكر مالقة كولاية مستقلة وإنما يجعلها ضمن دوائر إشبيلية. انظر: أشباخ، تاريخ الأندلس، ص492. أما ابن عذاري فيجعل مرسية هي مركز ولاية شرق الأندلس وليس بلنسية. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص492.

(3): موسى، الموحدون في الغرب، ص176.

ولاة الاقاليم في عهد الخليفة أبي يعقوب، يظهر لنا أن الغالبية العظمى من ولاة هذا العهد كانوا من السادة أبناء عبد المؤمن أو أبناء الخليفة أبو يعقوب نفسه، والذين تخرج معظمهم من مدرسة الخليفة عبد المؤمن التي أنشأها في مراكش وتلقوا فيها دروساً من الموطأ وسائر مؤلفات المهدي إلى جانب تدريبهم على فنون الحرب والقتال والعلوم[1].

ففي سنة 561ه/1165م ولى الخليفة أبو يعقوب أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن على ولاية بجاية، وولى السيد أبو إبراهيم اسماعيل بن عبد المؤمن على إشبيلية[2]، وولى أخاه السيد أبي اسحاق على قرطبة، وأقر أخيه السيد أبو سعيد عثمان على غرناطة[3].

وفي سنة 565ه/1169م ولى الخليفة أبو يعقوب أخاه السيد أبا علي الحسن على مدينة سبتة[4]، وأجرى قبل مغادرته الأندلس في غزوته الأولى سنة 571ه/1175م تغييرات في سلك الدولة، فعيّن أخاه السيد أبا الحسن علي على ولاية إشبيلية، وولى أخاه أبو علي الحسن على قرطبة[5].

ولم يكن الخليفة يستثني اقليم دون اجراء تغييرات على إدارته، فقد شهدت ولايتي إفريقية وبجاية عقب الانتهاء من القضاء على ثورة ابن الرند سنة 576ه/1181م حركة تعيين جديدة للولاة تمثلت في تعيين أخيه السيد علي أبو الحسن على ولاية إفريقية والزاب والتي من ضمنها قفصة، أما بجاية فعين على ولايتها أخاه السيد أبو موسى[1].

---

(1): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص150-151.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص92-93.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص395.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص143؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص323.

وعندما أخذ الخليفة أبو يعقوب يتجهز لغزوته الثانية للأندلس " غزوة شنترين " أصدر مراسيمه بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الرئيسية، فأقر السيد أبي اسحاق على ولاية إشبيلية، وعهد إلى السيد أبي زكريا يحيى بولاية قرطبة، وللسيد أبي عبدالله بولاية مرسية، وللسيد أبي زيد بولاية غرناطة[1].

وبالإضافة إلى الأخوة والأبناء من السادة، استعان الخليفة أبو يعقوب بالطلبة الحفاظ وهم أيضاً من خريجي مدرسة عبد المؤمن، ففي سنة 561ه/1165م عين على ولاية إشبيلية الشيخ الحافظ أبي عبدالله بن أبي إبراهيم اسماعيل، الذي كان والده أحد اصحاب المهدي العشرة، وبعد مضي عدة أشهر على ولايته لها، وصل أمر الخليفة بانتداب الشيخ أبي عبدالله للقيام بولاية غرناطة فاستمر في رئاستها للفترة من 562-566ه/1166-1170م[2].

وإذا ما انتقلنا إلى طريقة تعيين الولاة، وجدنا أنها كانت تتم وفق مراسيم معينة، فقبل أن يقع الإختيار على والٍ من الولاة، كان الخليفة يقوم باستشارة من حوله في ذلك الإختيار، وقد تجلى ذلك في استشارة الخليفة أبي يعقوب لأخيه أبي حفص عمر في اختيار والٍ لبجاية سنة 561ه/1165م، وفي ذلك يقول ابن عذاري: " نظر الأمير أولاً مشورة أخيه أبي حفص في ولاية بجاية وأقطارها وجميع جهاتها وأقطارها، إذ كانت دون والٍ وعلى حالة اغفال فاختاروا لها من الأخوة السيد أبا زكريا يحيى "[3]. وفي نفس السنة استشار الخليفة أبو يعقوب في اختيار والٍ لإشبيلية، يقول ابن صاحب الصلاة " ثم نظروا – أي الخليفة والسيد أبو حفص – أيضاً في حديث إشبيلية، إذ كانت أيضاً دون والٍ ينظر عسكرها، وأجنادها وثغرها، فاختاروا لها.. من أهل الأديان الشيخ الحافظ أبي عبدالله"[1].

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص114.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص293-298؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص92.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص293.

وحرص الخليفة أبو يعقوب عند توليته لأي والٍ أن يعين إلى جانبه موظفين مساعدين من وزير إقليمي وكاتب خاص وغيرهم[1]، كما يرسل معه جماعة من أشياخ الموحدين يكونوا له بمثابة هيئة استشارية[2]، فعندما عين الخليفة أبي عبدالله بن أبي إبراهيم والياً على إشبيلية سنة 561ه/1165م، عين له وزيراً يدبر أحواله ومسائله وهو الشيخ الحافظ أبا يحيى زكريا بن يحيى بن سنان الذي كان والده من أهل خمسين، كما أرسل معه من الحفاظ عبدالله بن يعقوب، وعمر بن تيمصلت، ويعيش الجدميوي، هذا إلى جانب فرقة من العسكر العرب لحماية إشبيلية وأحوازها[3]. بمعنى آخر أن نظام حكم الولايات أو الأقاليم كان نسخة طبق الأصل عن النظام المركزي في العاصمة مراكش ولكن على درجة أقل من القوة والنفوذ.

أما عن سلطات الولاة وصلاحياتهم فقد كانت واسعة ولكنها غير مطلقة، وقد حاز الجانب الأمني على المقام الأول في مهامهم، فهم المسؤولون عن حماية الولاية من التهديدات الخارجية وعن الأمن الداخلي بالقضاء على التمردات، كما أنهم مدعوون إلى مساعدة غيرهم من الولاة المجاورين عسكرياً[4]، ويجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد للمشاركة مع الخليفة في غزواته الكبرى بأنفسهم وجندهم، ففي سنة 567ه/1172م خرج إلى جانب الخليفة أبي يعقوب في غزوته إلى مدينة وبذة من الولاة السيد أبو زكريا يحيى والي بجاية، والسيد أبو سعيد والي غرناطة، والسيد أبو إبراهيم والي إشبيلية وغيرهم[5].

وقد يقوم الوالي بأعمال عمرانية مثل حفر الآبار وبناء الأسوار، ففي سنة 564ه/1168م ندب الخليفة لولاية مدينة بطليوس الحافظ أبو يحيى ابن الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي، فقام أبو يحيى بمجرد وصوله إلى بطليوس بحفر بئر كبيرة داخل قصبة المدينة؛ استعداداً لما قد تتعرض له المدينة من حصار أو غيرة، يقول

---

(1): موسى، الموحدون في الغرب، ص184.

(2): حسن، الحضارة الإسلامية، ص135.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص293-294.

(4): موسى، الموحدون في الغرب، ص184.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص494.

ابن عذاري: " توجه أبو يحيى والياً على بطليوس واشتغل بحفر بير في داخل القصبة يسير إليها ماء الوادي استعداداً لما يخاف من المنازلات "[1]، وفي سنة 570ه/1174م عين الخليفة على ولاية مدينة باجة الحافظ أبو بكر بن وزير وكلفه بإعادة اعمار مدينة باجة التي هدمها وخربها الملك البرتغالي ألفونسو هنريكيز سنة 568ه/1172م، فحشد الوالي ابن وزير بمساعدة والي مدينة شلب الحافظ أبو علي عمر بن تيمصلت البنائين والفعلة وجميع ما يحتاج إليه من آلة البناء، وأخذوا ببناء أسوار المدينة فكملت في نحو شهر[2].

ومن مهام الولاة كذلك تدبير أمور الجيش وتعيين القضاة والحكام المحليين ونقلهم وعزلهم، وإقامة الحدود والحفاظ على شعائر الدين[3].

ولم يكن من صلاحيات الولاة إبرام المعاهدات أو عقد الصلح مع ما يجاورهم من الملوك والدول وخاصة النصرانية منها، وإنما حصر هذا الحق بالخليفة نفسه، ويظهر ذلك جلياً بعدم تجرأ والي إشبيلية السيد أبو إبراهيم على عقد حلف مع فرناندو ردريجس صاحب ترجالة وصهر الملك فرناندو الثاني ملك ليون، عندما لجأ إليه سنة 563ه /1168م؛ راغباً في أن يكون صديقاً وحليفاً للخليفة أبي يعقوب، فما كان من الوالي إلا أن بعث إلى الخليفة؛ لإحاطته علماً برغبة المذكور، فطلب الخليفة من الوالي أن يأذن لردريجس بالقدوم إلى مراكش، فعبر إليها واستقبله الخليفة بترحاب بالغ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر، وقد عاهد الخليفة على أن يكون حليف المسلمين المخلص لا يشهر عليهم عدواناً قط[1].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص109.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص91.

(3): السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص218؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص162.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص368-369؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص39-40.

وكان الولاة يخضعون للمراقبة والمحاسبة الدقيقة من قبل الخليفة الذي كان يتفقد أحوال دولته لا يتكل على أحد من وزرائه[1]، فقد كان الخليفة أبو يعقوب من اليقظة وحسن التصرف بحيث إنه كان يراقب سير الأمور في أقاليم دولته المختلفة؛ خشية أن يستبد والي من الولاة بأمر ولايته، أو يسيء معاملة الناس، فكان إذا ولى أحداً من الولاة أرسل إليه رسالة يرسم له فيها السياسة التي يجب أن يسير عليها هو وغيره من الولاة في معاملة الرعية حيث كانت الرسائل تعمم، ومثال ذلك الرسالة المؤرخة في الثالث من شهر رمضان سنة 561هـ/1165م وهي من إنشاء الكاتب أبيس الحسن بن عياش، بعث بها الخليفة إلى أخيه أبي سعيد عثمان والي قرطبة، يوصيه فيها بأن تجري الأحكام وفقاً للعدل وتحري الدقة، وألا يقضي في أمر الدماء إلا بعد رفعه إلى الخليفة، ومما جاء فيها " والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه.. ولما كان الأمر كذلك، تعين ووجب وترتب، أن نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله.. خطاباً يتساوى فيه جميعهم ويتوازى في العمل فيه كافتهم، بألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم، ولا يرقوها بباد أو رأي من أرائهم، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم.. إلا بعد أن ترفع إلينا النازلة على وجهها.. وتشرح حسب ما وقعت عليه.. معطى كل ذي حق حقه – وأن يدقق في الجرائم التي دون القتل – من قتل الخطأ.. ووجه القصاص والقطع في السرقات، إلى غير ذلك من القضايا المشكلة في الأموال واطلاقها واستحقاقها وفي الرقاب وإعتاقها واسترقاقها، وملتبسات المناكحات والمعاملات "[1].

وقد يستدعي الخليفة بعض ولاته إلى العاصمة لمحاسبتهم على أعمالهم أو سؤالهم عن أحوالهم، كما فعل الخليفة أبو يعقوب سنة 564هـ/1168م حينما استدعى ولاة الأندلس؛ للإطلاع على أعمالهم، وفي ذلك يقول ابن عذاري: " وفي هذه السنة – أي سنة 564هـ – استدعى أمير المؤمنين أبو يعقوب أخويه السيدين أبا إبراهيم

---

(1): ابن أبي دينار، المؤنس، ص113.

(1): المنوني، محمد وآخرون: التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، ط1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء 1991م، ص170-174. سيشار إليه فيما بعد: المنوني، التاريخ الأندلسي؛ حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، ص368-372.

الوالي بإشبيلية وأبا إسحاق الوالي بقرطبة واستدعى معهما الشيخ أبا عبدالله بن أبي إبراهيم الوالي بغرناطة مع حفاظهم وعمال البلاد ليصلوا إلى حضرة مراكش فأسرعوا إلى استدعائه "[1].

وفي بعض الأحيان كان الوالي هو الذي يتوجه إلى العاصمة من تلقاء نفسه لاطلاع الخليفة على بعض المشاكل التي تواجهه خاصة الجسيمة منها، وذلك ما فعله السيد أبو علي الحسن حين توجه في سنة 575ه/1179م من ولاية قرطبة واجتمع بالخليفة في مراكش يعرض عليه غدر ملك قشتالة ألفونسو الثامن ببلاد المسلمين ونقضه للصلح، مما دفع الخليفة للاستعداد للقيام بحملة عسكرية بالأندلس[2].

وهناك حالات كان الخليفة أبي يعقوب يتفقد فيها أحوال الولايات بنفسه والإطلاع على سير عماله وولاته وتصرفاتهم، فحين جاز جوازه الثاني للجهاد في الأندلس سنة 579ه/1183م أقام بمدينة فاس شهر ذي الحجة من السنة المذكورة حتى أول عام 580ه/1184م، وفي خلال ذلك تابع الخليفة بنفسه مهمة القضاء على المفسدين من العمال والولاة الذين تبين له أنهم يستغلون مناصبهم فأمر بالقبض عليهم وكان أولهم مشرف فاس، وقام بمصادرة دورهم وأموالهم لحساب خزينة الدولة وألزمهم أن يردوا للخزانة أربعمائة ألف وستين ألف دينار، وتعهدوا بادائها أقساط، ورتب عليهم الرقباء حتى يقوموا بدفعها[1].

2.2.4 **الدواوين**:

الديوان كلمة فارسية، كانت تعني في بداية الأمر السجل الذي يكتب فيه ما

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص109.

(2): حسن، الحضارة الإسلامية، ص139.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص158؛ طه، جمال أحمد: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين 448ه/1056م إلى 668ه/1269م، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية (د.ت)، ص106. سيشار إليه فيما بعد: طه، مدينة فاس.

يختص بشؤون الإدارة، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكتاب[1]. وقد اهتم الخلفاء الموحدين منذ فترة مبكرة من تأسيس دولتهم بأمر الدواوين؛ لما لها من دور كبير في معاونتهم في تصريف شؤون الدولة وحفظ ما يتعلق بحقوقها من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال[2]. ومن الدواوين التي اهتم بها الموحدون:

1.2.2.4 ديوان الإنشاء:

اختص ديوان الإنشاء في العصر الموحدي بالمراسيم السلطانية والرسائل الموجهة من الخليفة إلى الولاة والقضاة وغيرهم[3]. وقد أشار المراكشي إلى نخبة من أدباء الأندلس والمغرب الذين عملوا في ديوان الإنشاء وقاموا بكتابة رسائل الخليفة أبو يعقوب وتوجيهاته إلى عماله وولاته، منهم ابن عياش والقالمي وابن محشرة[1].

ونظراً لعلو شأن هذا الديوان فلم يكن يستخدم فيه إلا الكتاب الحاذقون الذين هم صفوة المثقفين وفريدي عصرهم في الخبرة الإدارية وفن كتابة الرسائل، ومن هم موضوع ثقة وأمانة وإخلاص[2]، ولم يكن بالأمر السهل العثور على مثل هؤلاء الكتاب، فقد ذكر الغبريني أنه لما توفي الكاتب أبي القاسم المالقي والذي يسميه " كاتب سر الخليفة " حزن الخليفة أبو يعقوب عليه حزناً شديداً، وظهر عليه الاغتمام والتغير في وجهه؛ لما يحتاج أن تتوفر في كاتب سره من صفات ونعوت محددة يصعب ايجادها، فلما ارشد إلى ابن محشرة بادر من فوره باستدعائه، يقول

---

(1): ماجد، عبد المنعم: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط4، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1978م، ص34. سيشار إليه فيما بعد: ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية.

(2): الماوردي، الأحكام السلطانية، ص220.

(3): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص319.

(1): المراكشي، المعجب، ص180.

(2): الدوري، النظم الإسلامية، ص152؛ السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص282.

الغبريني: " إن سبب استدعائه – أي ابن محشرة – أن كاتب سر الخليفة في ذلك الزمان توفي، واهتم أمير المؤمنين لذلك غاية الاهتمام، وكان مسعود بن سلطان الرياحي.. وفد على أمير المؤمنين من هذه البلاد – أي بجاية – وكانت له عنده مزية.. قال: فدخلت عليه يوماً فوجدته مغتماً وقد ظهر في وجهه، فقلت له يا سيدنا يا أمير المؤمنين ما الذي اهمكم لا اهمكم الله ؟ فقال لي إن كاتب سرنا فلاناً قد مات، وقد احتجنا إلى من نقيمه مقامه وما وجدناه؛ لأنه يحتاج في كاتب السر أن يكون على صفة كذا وعلى نعت كذا. فقلت بشراك يا سيدنا يا أمير المؤمنين، هذا الرجل ببجاية أبو الفضل بن محشرة.. فكتب إليه أمير المؤمنين من حينه"[1].

ووجد في ديوان الإنشاء كتاب رئيسيون يقومون بالكتابة والإنشاء وآخرون مساعدون يقومون بالتلخيص والتبييض، وكانت هناك شروط لا بد من توفرها في العالمين فيه منها أن يتقنوا اللغة العربية وأن يعرفوا لغات ما جاورهم من الممالك[2].

وكانت جميع الرسائل الصادرة عن هذا الديوان تمهر بالعلامة الخلافية وهي " الحمد لله وحده "[1]، وتختم بعبارة " كتب " بتاريخ كذا، مثال ذلك ختم الكاتب ابن عياش رسالة الخليفة أبو يعقوب إلى أمير شرق الأندلس الثائر عليه ابن مردنيش، والمؤرخة في غرة رمضان سنة 564ه/1168م بعبارة " كتب بعد صلاة الجمعة من أول يوم من رمضان المعظم سنة أربع وستين وخمسمائة "[2].

2.2.2.4 **ديوان الجيش:**

اختص هذا الديوان بالشؤون العسكرية من حالات الحرب وإحصاء الجند النظاميين وشؤون العبيد، وكل ما يتعلق بشؤون الجيش من تنظيم وتعبئة وإعداد

---

(1): الغبريني، عنوان الدراية، ص53-54.

(2): ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص35-36.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص302؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص183.

(2): مجموع رسائل موحدية، ص149.

للاشتراك في المعارك[1]. فقد جرت العادة عند الموحدين قبل الدخول في أي معركة من المعارك العمل على تمييز الجند، التي يقصد بها علاوة على تنظيم وتنسيق فرق الجيش، مراجعة أعداد الجند الذين سيشتركون في المعركة المقبلة على ما هو مسجل في الديوان لتقدير مقدار البركة (المرتبات) التي توزع عليهم قبل رحيلهم[2]، وكان الذي يتولى عملية التمييز هو من يرأس ديوان الجيش والذي عرف تارة باسم " كاتب ديوان التمييز " وتارة أخرى ب " كاتب العسكرية "[3]، يقول ابن صاحب الصلاة: " حدثني الكاتب أبو عبدالله بن محسن كاتب ديوان التمييز لجميع العساكر المنفذ – بتجميله – البركات للموحدين ولساير الناس من الأجناد المرتزقين، قال: دخلت على سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وفي يدي تلخيص زمام تمييز العساكر. فقلت له: يا سيدنا ومولانا وقفت على هذا التمييز ووجدت فيه زيادة كثيرة على ما تقدم. فقال لي رضي الله عنه: نفذ لهم البركة على ذلك"[1].

3.2.2.4 ديوان البريد:

قيل في أصل هذا الديوان أنه فارسي وأن اسمه مشتق من بريدة دم أو بريدة ذنب أي مقصوص الذنب؛ لأن الفرس كانوا يقصون أذناب البغال المستخدمة في البريد؛ ليكون علامة لها[2]، والبريد اصطلاحاً أن تجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً، ومسافة البريد تقاس بالأميال أو الفراسخ[3]، وهي عند الموحدين

---

(1): السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص285.

(2): العبادي، صور من حياة الحرب، ص183.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص436، 453.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص436.

(2): محاسنة، محمد: النظم الإسلامية، ط1، دار الكتاني، اربد 1991م، ص84. سيشار إليه فيما بعد: محاسنة، النظم الإسلامية.

(3): الفراسخ: مفردها فرسخ، والفرسخ يتألف من 3 أميال، كل ميل 1000 باع، كل باع يساوي 4 أذرع شرعية، أي أن طول الفرسخ كان حوالي 6 كم. انظر: هنتس، فالتر:

أربعة فراسخ. وقد اعتمد الموحدون على البريد كوسيلة سريعة ومهمة لنقل الاخبار والرسائل بين الخليفة في العاصمة وعمال دولته في الولايات أو بين الولايات[1].

وقد شدد الخليفة عبد المؤمن وسار خليفته أبو يعقوب على اثره في رسم أيام معروفة العدد، معلومة الأمد لحاملي البريد حتى يصلوا إلى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على مسافات مراحلهم، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة، حيث خصصوا لهم زاداً يقوم بهم في الذهاب والإياب[2].

وعرف حامل البريد ب "الرقاص"[1]، الذي كان يكلف بحمل الرسائل بجميع أنواعها مدنية أو عسكرية[2]، ووسيلة تنقله إما الدواب بين المدن أو السفن في حالة نقل الأخبار من وإلى الأندلس[3]، وكانت وظيفة الرقاص تسند لرجال أقوياء مدربين على الركض والعدو، وكان بينهم الرقاص العادي، ورقاص الشرط (المستعجل) وهذا الذي أعتمد عليه في نقل أخبار الفتح ونتائج المعارك سواء برسائل مكتوبة أو شفوية، ومن الأمثلة على الرسائل المكتوبة المستعجلة، الرسالة التي بعث بها السيدان أبو حفص وأبو سعيد من مرسية إلى مراكش يطلعان فيها الخليفة على النصر الكبير الذي تحقق على ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب سنة 560ه/1164م والتي وصلت في ظرف ستة عشر يوماً، يقول ابن صاحب الصلاة " وخاطبوا من مضرب محلتهم بظاهر مرسية للخليفة الرضى أبي يعقوب رضي الله عنه بوصف الفتح العظيم، ونيل النجح الجسيم، وشرح الحال، فوردت البشرى

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ط2، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1970م، ص94. سيشار إليه فيما بعد: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية.

(1) : ابن الخطيب، الإحاطة، جــ1، ص96،91؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص149؛ الدوري، النظم الإسلامية، ص147.

(2): ابن القطان، نظم الجمان، ص199.

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص198؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص129؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص39.

(2): موسى، الموحدون في الغرب، ص166.

(3): نجار، المغرب والأندلس، ص357.

بحضرة مراكش أدام الله حراستها صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من عام ستين المؤرخ، على تاريخ ستة عشر يوماً من ظاهر مرسية إلى مراكش، وهذا غاية السير"[1].

كذلك كان للرسائل الشفوية حضورها، فقد كلف الشيخ أبو حفص الهنتاتي، يحيى ابن الوزير أبو العلاء بن جامع بنقل أخبار الانتصار على القوات القشتالية في معركة كركوى سنة 568هـ/1173م إلى الخليفة أبي يعقوب في إشبيلية، حيث أمره بحمل رأس قائد القوات القشتالية " القومس الأحدب " إلى حضرة الخليفة ووصف حال الفتح له، فقطع المسافة من كركوى قرب قلعة رباح إلى إشبيلية في ظرف ثلاثين ساعةً، وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة: " فخرج – أي يحيى – من المحلة المؤيدة من ساعته – أي بعد منتصف النهار – في اليوم المذكور، وأسرى بقية يومه وليله وأصبح في قرطبة.. وخرج من قرطبه من فوره، وأسرى يومه كله، ووصل إشبيلية عشية يومه، وهذا غريب في السير ولقد رأيته حين وصوله وهو من التعب حيران، يتمايل من عدم النوم كالنشوان.. وانفرد يحيى ابن أبي العلاء بوصف الفتح على حاله، وشرح نصر الله على أوفى كماله "[1].

ولعل أنه كانت هناك خدمات بريدية لعامة الناس، لكن من المؤسف أن المصادر قد أغفلتها فلم نعثر لها على ذكر.

3.2.4 **الشرطة**:

هم جماعة من الجند كان يعتمد عليهم الخليفة وولاة الأقاليم في إقامة الحدود وحفظ النظام، وحماية أرواح الناس، وصيانة حقوقهم، وعرف من يرأس خطتها ب

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص274؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص90.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص518-523.

" صاحب الشرطة"[1]. ولفظة شرطة جاءت لغوياً من كلمة شُرَطي والجمع شُرُطْ، وسموا بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة تميزهم[2].

وقد أولى الخليفة أبو يعقوب وظيفة صاحب الشرطة عناية هامة؛ لأنها من الوظائف الدينية الشرعية، فلم يكن يسند منصبها إلا لكبار رجال الموحدين[3]، وبلغ من اهتمام أبي يعقوب بالشرطة أن حرص على تزويد سائر مدن المغرب والأندلس بأحسن رجال الشرطة، وبذلك لم يعد هناك ذكر لقطاع الطرق في عهده " فكثرت الأموال وأمنت الطرقات"[4].

ويبدو لنا من الرسالة التي وجهها الخليفة أبي يعقوب سنة 561هـ/1165م إلى أخيه السيد أبي سعيد في قرطبة، بعض اختصاصات صاحب الشرطة، التي جاء فيها: وجوب التزام الدقة في تطبيق الأحكام الشرعية، ووجوب أن يتوثقوا في المطلوبين بالدماء بسجنهم وتثقيفهم، ويجب أن يدققوا في سائر الجرائم من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ، ويحرصوا على عدم استباحة الأموال واستحلال المحرمات[1].

وأعطى الخليفة أبو يعقوب الشرطة صلاحيات واسعة في تنفيذ الواجبات الملقاة على عاتقهم، حتى ولو تعلق الأمر بكبار رجال الدولة، فعندما ثبت للخليفة أبي يعقوب فساد عمال مدينة فاس سنة 579هـ/1183م، أوكل للشرطة مهمة القبض عليهم ومصادرة أموالهم وسجنهم[2].

ولم يقتصر دور الشرطة على تنفيذ أوامر الخليفة وضبط نظام الدولة، وإنما كان لهم أدوار أخرى منها ضبط الأمن، حيث نلاحظ قيامهم بحراسة الطرقات والأسواق وخاصة أثناء الليل، فبفضل حراستهم للطرقات أصبح " يسير الراكب حيث شاء من

---

(1): المراكشي، المعجب، ص208.

(2): ابن منظور، لسان العرب، جـ9، ص202؛ محاسنة، النظم الإسلامية، ص94.

(3): ابن خلدون، المقدمة، ص252.

(4): ابن أبي دينار، المؤنس، ص113؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص154.

(1): حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، ص368-372.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص158.

بلاد العدوة وفي طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله تعالى"[1]، أما عن دورهم في حراسة الأسواق فيشير إليه ابن الزيات في ترجمته لأبي عبدالله محمد بن حسان التاونتي المعروف بالميلي (ت590هـ/1194م) وأصله من تاونت من عمل تلمسان، كان ابتداء أمره كاتباً لبعض أمراء الأندلس، ثم عبر البحر لبلده تاونت بساحل تلمسان فاقام بها مدة ثم توجه إلى المشرق، فسكن جوار مكة، ثم رحل إلى لبنان وبها توفي. وقد تعرض أبو عبدالله للضرب من حرس السوق في تلمسان بطريق الخطأ وفي ذلك يقول ابن الزيات: " إن أبا عبدالله خرج بالليل فقبض عليه حرس السوق وظنوا أنه سارق، فأوجعوه ضرباً إلى أن قيل: هذا ولي من أولياء الله تعالى فخلوا عنه "[2].

ويبدو أن الشرطة المكلفين بحراسة الأسواق كانوا يتعمدون ضرب السارقين بالسياط على ظهورهم ليتركوا بذلك علامات عليهم، فإذا حدث أن كان هناك سرقة ولم يقبض على فاعلها يجري المناداة على من سبق وضرب بالسياط للتحقيق معهم، يقول ابن الزيات: سمعنا " مناد ينادي على قوم مضروبي الظهور بالسياط، فاطلعنا عليهم، فإذا هم حرس السوق "[1].

ومن المؤسف أن المصادر أغفلت كثيراً من المعلومات عن أعداد الشرطة وزيهم ورواتبهم وأسلحتهم.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص91.

(2): ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 627هـ/1230م): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، ط2، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط 1997م، 368-371. سيشار إليه فيما بعد: ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف.

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص370.

3.4 **النظام القضائي**:

1.3.4 **القضاء**:

القضاء في اللغة معناه انقطاع الشيء وتمامه. يقال: " قضى الحاكم " إذا فصل في الحكم، و" قضى دينه " أي قطع ما لغريمه بالإداء، و" قضيت الشيء " أي أحكمت عمله[1]، واصطلاحاً هو الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، وفقاً للأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة[2].

وقد أولى الخلفاء الموحدين النظام القضائي عنايتهم واهتمامهم، فعدت خطة القضاء عندهم من أعظم الخطط؛ لتعلقها بأمور الدين، حيث نجد أن الخليفة يقوم بنفسه بمهمة اختيار القضاة وتعيينهم[1].

وكانت للقضاة في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف صلاحيات واسعة ومهام عديدة يلخصها ابن خلدون في قوله " واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح؛ ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته "[2].

وإذا ما رجعنا إلى مصادر الأحكام التي اعتمد عليها القضاة في تنفيذ أحكامهم في فترة الدراسة، وجدنا أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الرئيسان

---

(1): النباهي، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن المالقي (ت 792ه/1389م): تاريخ قضاة الأندلس، المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ط5، تحقيق: لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983م، ص2. سيشار إليه فيما بعد: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس.

(2): ابن خلدون، المقدمة، ص220.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

(2): ابن خلدون، المقدمة، ص221-222.

في ذلك، ومن ثم الخليفة هو المفسر للمصدرين والمرجوع إليه فيما سواهما، ويظهر ذلك جلياً في الرسالة التي بعث بها الخليفة أبو يعقوب إلى أخيه أبي سعيد واليه في قرطبة سنة 561ه/1165م، التي تتضمن طائفة من النصائح للولاة والقائمين بالأمر في الولايات، منها التأكيد على الالتزام بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - في إصدار الأحكام، محذراً إياهم من الاستبداد في رأي دون الرجوع إليه فيقول: " بألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم، ولا يهريقوها ببادٍ أو برأي من آرائهم.. إلا بعد أن ترفع إلينا النازلة "[1]، أي أن أبو يعقوب جعل نفسه المصدر الثالث بعد القرآن والسنة من مصادر الأحكام وحصر حق الاجتهاد في الأحكام في دولته له وحده.

وبالنظر إلى اختصاصات القضاة وأماكن تواجدهم في دولة الخليفة أبي يعقوب يوسف، نستطيع التمييز بين ثلاثة أنواع من القضاة:

1.1.3.4 قاضي الجماعة:

هو أرفع مناصب القضاء في الدولة وأعلاها رتبة، يختار من بين أفاضل الناس وأحسنهم سيرة وأوسعهم علماً وأرجحهم عقلاً وذكاءً، ويأتي تعيينه من قبل الخليفة مباشرة، ولا يقضي إلا في العاصمة مراكش حيث مكان اقامته، بينما ينيب عنه في الأقاليم قضاة آخرين، فهو بذلك يحتل منزلة رفيعة؛ لأن الخليفة يستشيره مباشرة في كل ما يعرض عليه من مسائل قضائية[1].

ويفسر النباهي لفظة " جماعة " بقوله " وإضافة لفظ القضاء إلى الجماعة، جرى التزامه بالأندلس منذ سنين إلى هذا العهد..والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة"[2]. وبالرغم من أن القلقشندي يذكر أن قاضي الجماعة يوازي قاضي القضاة

---

(1): حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، ص368-372.

(1): القاسمي، خالد محمد: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط1، دار الثقافة العربية، الشارقة 1998م، 171. سيشار إليه فيما بعد: القاسمي، تاريخ الحضارة العربية؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص320.

(2): النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص21.

في المشرق[1]، إلا أننا نجد في فترة الدراسة يطلق أيضاً على قاضي الجماعة في المغرب اسم " قاضي القضاة". فها هو ابن الزيات يطلق صراحة اسم قاضي القضاة على أبي يوسف حجاج التجيبي الذي شغل منصب قاضي الجماعة للخليفة أبي يعقوب في صدر ولايته فيقول: " بعث قاضي القضاة أبو يوسف حجاج بن يوسف التجيبي إلى عبد العزيز الباغاني؛ ليجبره على قضاء أغمات. فقدم مراكش واستعفاه "[2].

وشغل منصب قاضي الجماعة في عهد الخليفة أبي يعقوب أربعة قضاة، هم:

1. **أبو محمد المالقي**:

هو عبدالله بن محمد بن عيسى الأنصاري المالقي، كان أديباً ماهراً، وفقيهاً وخطيباً مفوهاً، وقد نال مركزاً مهماً لدى الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه أبو يعقوب، فولاه عبد المؤمن وظيفة قاضي الجماعة، ولما تولى الخليفة أبو يعقوب الحكم أقره في منصبه حتى سنة 560هـ/1164م، ثم ولاه بعد ذلك رئاسة طلبة الحضر، فكان أمين سره ورئيس مجلسه وخطيب الجماعة لديه حتى وفاته سنة 574هـ/1178م[1].

2. **أبو يوسف حجاج التجيبي**:

هو أبو يوسف حجاج بن يوسف الهواري التجيبي، من ناحية بجاية، كان من أهل العلم والأدب فصيحاً مفوهاً بليغاً مدركاً، دخل الأندلس مراراً وروى عن علمائها، وقد نال دنيا عريضة في عهد الخليفة أبي يعقوب، حيث ولاه قضاء الجماعة سنة 560هـ/1164م؛ لما عرف عنه من نزاهة نفس وطهارة عِرض وتصميم في الحق، وظل في منصبه حتى وفاته بالطاعون بمراكش أول سنة 572هـ/1176م[2]، يقول المراكشي " بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته أنه دخل يوماً

---

(1): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص141.

(2): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص205.

(1): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص272؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص121-122؛ المراكشي، المعجب، ص150، 181.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص230؛ هوبكنز، النظم الإسلامية، ص229.

على أمير المؤمنين أبي يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه؛ فلما مثل بين يديه زاد في البكاء، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، سألتك بالله، ألا أعفيتني ؟.. فوعده بذلك، فقال: عسى أن يكون في مقامي هذا ! فقال له: لا أفعل حتى أجد عوضاً منك! فخرج من عنده، فما لبث إلا أياماً يسيره حتى مات "[1]، وصلى عليه الخليفة بنفسه وحضر دفنه[2].

3. أبو موسى عيسى بن عمران:

هو أبو موسى عيسى بن عمران التازي، من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس، من قبيلة بربرية زناتية يقال لها تسول، عدّ من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم، وكان خطيباً بليغاً متفنناً في مذاهب القول، وشاعراً عجيباً مشاركاً في كثير من العلوم، وقد نال في أيام أبي يعقوب حظوة ومكانة؛ وكان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة، فكان فريد عصره. ولما مات القاضي أبو يوسف حجاج كان خير خلف له فولاه قضاء الجماعة سنة 572ه/1176م، ولم يزل يقوم بها حتى وفاته سنة 578ه/1182م[1].

4. أبو العباس بن مضاء:

هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن حريث بن عاصم بن مضاء اللخمي، من أهل قرطبة وأصله من قرى شذونة، نشأ منقطعاً إلى طلب العلم وعني أشد العناية بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، فكان أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء وأكابرهم، وكان جميل السيرة، كريم الاخلاق، ظاهر العدل والفضل، أديباً له حظ من الكتابة والشعر، ومتقدماً في علم الكلام والطب والحساب والهندسة. وقد تدرج في وظائف الدولة حتى انتهى به المقام إلى قاضي الجماعة، فقد عهد إليه الخليفة عبد المؤمن في بادئ الأمر تأديب أبنائه، ثم لما خلص الأمر للخليفة أبي يعقوب استدعاه واستدناه واتخذه مستشاراً له، ثم أرسله مع أخيه أبي الحسن إلى فاس

---

(1): المراكشي، المعجب، ص182.

(2): ابن الآبار، التكملة، جــ1، ص230.

(1): الضبي، بغية الملتمس، جــ2، 527-528؛ المراكشي، المعجب، ص181؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص153.

كاتباً له، وفي سنة 563هـ/1167م بعثه مع أخيه أبي اسحاق إلى قرطبة كالشيخ له، ثم ولاه قضاء بجاية إلى أن توفي واليها السيد أبو زكريا سنة 571هـ/1175م، فاستقدمه الخليفة أبو يعقوب إلى حضرته وبقي من كبار حضار مجلسه إلى أن توفي قاضي الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران سنة 578هـ/1182م بمراكش[1]، فقلده عندئذ قضاء الجماعة، يقول ابن عذاري: " وفي اليوم الذي توفي فيه أبو موسى بن عمران ولي مكانه القضاء أبو العباس بن مضا "[1]، ولم يزل قاضياً للجماعة إلى أن توفي الخليفة أبو يعقوب سنة 580هـ/1184م، وكانت وفاته بإشبيلية سنة 592هـ/1196م[2].

نلاحظ مما سبق أن قضاة الجماعة في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف كانوا يعينون مباشرة من قبل الخليفة، وأنهم كانوا جميعاً من اهل العلم والبلاغة والتبحر في كثير من العلوم، وقد جاء اختيارهم لمنصب قاضي الجماعة بعد أن تدرجوا في كثير من الخطط والوظائف الإدارية والدينية سواء في العاصمة مراكش أو في الولايات، ثم أن هذا المنصب لم يكن حكراً على أهل المغرب فنلاحظ أن اثنان من أربعة ممن شغلوا هذا المنصب في فترة الدراسة هم من أهل الأندلس، كما نجد أن الخليفة أبو يعقوب يخرج عن الاطار الذي رسمه له والده من حيث اتباع سياسة مشددة ضد فقهاء المالكية وإبعادهم عن هذا المنصب، فها هو يعهد لابن مضا بتولي قضاء الجماعة وهو من فقهاء المالكية المشهورين[3].

---

(1): المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري (ت 703هـ/1303م): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر من 1-6، ط1، تحقيق: محمد بن شريفة وآخرون، دار الثقافة، بيروت (د.ت)، س1، ق1، ص212-220. سيشار إليه فيما بعد: المراكشي، الذيل والتكملة؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـــ1، ص142؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـــ1، ص323.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص153.

(2): المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، 221-222.

(3): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـــ1، ص208-209؛ هوبكنز، النظم الإسلامية، ص223.

وكان مكان جلوس قاضي الجماعة هو قصر الخليفة، وكان يتخذ له حجاب ينظمون دخول المتخاصمين عليه، وكتاب لتدوين ما يحدث في الجلسة[(1)].

ولم تكن مهمة الإشراف على شؤون القضاء في ولاية مراكش وتعيين قضاة نواحيها، هي فقط ما يقوم به قاضي الجماعة، فقد تسند إليه مهام وواجبات عديدة، حيث نجده يشارك في توجيه سياسة الدولة؛ لأنه عضو في المجلس الاستشاري[(2)]، ويتولى الإشراف على خطة الحسبة وتعيين المحتسبين، ويظهر ذلك من استدعاء قاضي الجماعة أبو يوسف حجاج لأبي عبد الملك مروان بن عبدالله اللمتوني، من أهل فاس والمتوفى سنة 572ه/1176م؛ ليقدمه على خطة الحسبة بمراكش[(1)].

كذلك يقوم قاضي الجماعة بالحث على الجهاد والمشاركة مع الخليفة في غزواته، يقول ابن عذاري: إن القاضي أبو يوسف حجاج وقف بين يدي الخليفة أمام جموع العرب الذين قدموا من إفريقية للمشاركة مع الخليفة في غزوته الأولى للأندلس سنة 566ه/1170م " وخطب خطبة بليغة في معنى الشكر لله والدعاء بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين "[(2)].

2.1.3.4 قضاة الأقاليم:

جعل الخلفاء الموحدون لأقاليمهم قضاة يمارسون الفصل في الخصوم، ويعقدون العقود والمواريث، ويثبتون الحقوق بشهادة الناس العدول، ويشرفون على شؤون المحتسب[(3)]. وكان الخليفة هو من يتولى تعيين قضاة عواصم الأقاليم بعد استشارة الفقهاء، ففي عام 579ه/1183م عين الخليفة أبو يعقوب على قضاء مدينة فاس

---

(1): موسى، الموحدون في الغرب، ص201؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص164.

(2): حركات، المغرب عبر التاريخ، جــ1، ص320.

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ1، ص334؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص238.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص116.

(3): ابن فرحون، الديباج المذهب، جــ1، ص222؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص128-129؛ موسى، الموحدون في الغرب، ص201.

عبدالله ابن محمد بن عيسى التادلي (ت597ه/1200م) وهو من أهل مدينة فاس[1]. وفي نفس العام عين الخليفة ثلاثة قضاة في آن واحد لقواعد بلاد الأندلس الرئيسية، حيث ولى قضاء إشبيلية لأبي المكارم هبة الله بن الحسين المصري (ت 586ه/1190م)، وولى قضاء قرطبة لأبي الوليد بن رشد (ت595ه/1198م)، وولى قضاء غرناطة لأبي عبدالله بن الصقر (ت569ه /1173م)[1]. أما قضاة المدن الأخرى فقد ترك للأمراء المحليين أمر تعيينهم، فقد اختار والي باجة عمر بن سحنون لقضاء مدينة باجة فترة ولايته القاضي عمر بن زرقاج[2].

ومن السمات التي غلبت على السلك القضائي في عهد الخليفة أبي يعقوب، حركة نقل القضاة المستمرة من مكان إلى آخر تبعاً لاحتياجات البلاد ورغبة الخليفة، ومثال ذلك القاضي أبو حفص عمر بن عبد الرحمن الانصاري (ت 576ه/1180م) وهو من أهل الجزيرة الخضراء، ولي القضاء في بلده ثم نقل إلى قضاء سبتة[3]. ولا ننسى القاضي أبو العباس بن مضاء الذي ولاه الخليفة قضاء فاس ثم بجاية ثم استدعاه لحضرته وولاه منصب قاضي الجماعة سنة 578ه/1182م[4].

ومع أن الصفة الغالبة في تعيين القضاة هي اختيار قضاة من أهل المدينة التي استقضوا بها، لكن نجد في أحيان كثيرة قاضي من أهل الأندلس في المغرب[5]، مقابل حالات نادرة يرد ذكر لمغربي يشغل القضاء بالأندلس، كذلك نجد أن الخليفة أبو يعقوب لم يتردد في استخدام قضاة من خارج المغرب والأندلس وخاصة من مصر، فقد ولى قضاء إشبيلية للقاضي أبي القاسم أحمد بن محمد الحوفي، وهو من

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص421.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص532؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص14.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص128.

(3): المراكشي، الذيل والتكملة، س5، ق1، 448.

(4): الغبريني، عنوان الدراية، ص323؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص220.

(5): ابن الآبار، التكملة، جــ3، ص205؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، جــ1، ص208-214؛ السيوطي، بغية الوعاة، جــ1، ص319.

حوف مصر (ت588ه /1192م) وقد استقضي بإشبيلية مرتين حتى عزله الخليفة سنة 579ه /1183م[1]، وعين بدلاً منه على قضاء إشبيلية مصرياً آخر وهو أبو المكارم هبة الله ابن الحسين المصري الذي اشتهر بعلمه ومعرفته بالأصول وحفظه للحديث[1].

ولقضاة الأقاليم الحق في تعيين مساعدين لهم في الشورى والأنكحة والأحكام والمواريث والإفتاء، وتعيين من ينوب عنهم في حالة المرض[2]، كما كانوا يتخذون كتاباً لتدوين ما يحدث في جلسات القضاء، فقد تولى أبو الحسن علي بن عبدالله بن إبراهيم الانصاري، وهو من أهل الجزيرة الخضراء، توفي سنة 570ه/1174م الكتابة في سبتة للقاضي أبي موسى عمران بن عمران[3].

وإذا ما طالعنا أعمال قضاة الأقاليم واختصاصاتهم، وجدنا أنه قد أضيف لهم بجانب المهمة الأساسية للقضاة وهي إحقاق الحق وفصل الخصوم، مهام تتعلق بشؤون الدولة مثل الإشراف على شؤون البناء والتعمير، فقد عهد الخليفة لقاضي إشبيلية أبي القاسم الحوفي الإشراف على بناء القصور التي أمر ببنائها في إشبيلية سنة 567ه/1171م؛ لمعرفته بالمساحة والتكسير والفلاحة[4]. وفي بعض الأحيان يشارك القاضي في الغزو والمعارك، كما فعل قاضي إشبيلية أبو المكارم هبة الله المصري الذي اصطحبه الخليفة معه في غزوة شنترين سنة 580ه/1184م[5].

---

(1): ابن فرحون، الديباج المذهب، جــ1، ص221-222؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص532.

(2): ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص37، 52، 272؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2 ص480-481؛ التنبكتي، أحمد بابا (ت 1036ه/1627م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط1، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1989م، ص311-312. سيشار إليه فيما بعد: التنبكتي، نيل الابتهاج؛ موسى، الموحدون في الغرب، ص202.

(3): التنبكتي، نيل الابتهاج، ص314.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص463-465.

(5): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص532.

هذا ولم يكن تولي منصب القضاء مرغوباً به لجميع الفقهاء، فهناك أمثلة عديدة لإحجام البعض عن قبول هذا المنصب في فترة دراستنا، ولعل أحد الأسباب الهامة لذلك ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ "[1]، وهذا ما عبر عنه موقف القاضي أبو يوسف حجاج عندما دخل على الخليفة أبي يعقوب وهو يبكي " فقال: يا أمير المؤمنين، سألتك بالله، ألا أعفيتني ؟ قال: عزمت عليك لتخبرني أولاً بسبب بكائك ! قال: بينما أنا قاعد في مجلس الحكم إذ أتيت بشيخ سكران كنت قد حددته مراراً، فكان من كلامي أن قلت له: يا شيخ كيف تحشر ؟ ففتح يديه وقال: هكذا. فوالله ما ملكت دمعتي حين عرفت ما عنى بقوله؛ إنما عرض لي بقول النبي صلى الله عليه وسلم: إن القاضي يحشر مطوقة يداه إلى عنقه؛ فإما أن يحله عدله أو يهوي به جوره"[2].

ومن خير الأمثلة على حالات الإحجام تلك، أبو الحسن خليل بن اسماعيل السكوني (ت581ه/1185م) وهو من أهل لبلة، كان صادعاً بالحق في مصالح المسلمين والأمور الدينية عند الأمراء والسلاطين مقبوض اليد عن قبول صلاتهم، طلب للقضاء في عهد أبي يعقوب، إلا أنه رفض وظل على اصراره حتى استعفي[3]. وهناك أبو محمد عبد العزيز بن محمد الباغاني الذي بعث إليه قاضي الجماعة أبو يوسف حجاج سنة 565ه/1169م؛ " ليجبره على قضاء أغمات، فقدم مراكش واستعفاه، فلم يعفه، وقال له: لا بد لك من ولاية القضاء. فقال له عبد العزيز: والله لو نشرت بالمنشار من قرني إلى قدمي ما قبلت هذه الولاية ! فلما رآه قد صمم على ذلك، قال له: قد أعفيتك"[4].

---

(1): سورة المائدة، آية 44.

(2): المراكشي، المعجب، ص182.

(3): السيوطي، بغية الوعاة، جــ1، ص560-561؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص111-114.

(4): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص205؛ هوبكنز، النظم الإسلامية، ص200-201.

غير أن أفضل نموذج يمكن أن نقدمه هنا أبو عبدالله بن مجاهد بن أحمد الإشبيلي[1]، الذي لم يرفض منصب القضاء فحسب بل أعلن موقفه المعادي للسلطة الموحدية المتمثلة في الخليفة أبي يعقوب يوسف، فبالرغم من رغبة الخليفة في كسب وده، وعرض ولاية القضاء في شريش عليه، إلا أنه نفر من ذلك وامتنع حتى أعفي[1]، بل ووصل به الأمر إلى إزدراء مجلس الخليفة وتشبيه الدخول إليه بالدخول إلى الخلاء من خلال تقديم الرجل اليسرى عند الدخول واليمنى عند الخروج، وهذا ما نلاحظه في موقف بدر منه في ذات يوم عندما استدعاه الخليفة مع بعض العلماء إلى مجلسه ليشاركهم في أمور المسلمين، يقول التنبكتي " فلما انصرفوا عن الأمير قال لأصحابه: هذا ابن مجاهد لا مطمع لأحد فيه أما رأيتموه حين دخل علينا قدم رجله اليسرى فلما خرج قدم رجله اليمنى "[2].

وكان القضاة يحصلون على رواتب شهرية ثابته من بيت المال (المخزن)، وهذا ما ساعد على استقلال القضاء والحفاظ على هيبتهم[3]، وهناك من القضاة من رفض الراتب للحفاظ على سمعته ونزاهته وتحقيق العدالة بعيداً عن تدخل السلطات في أحكامه، ومثال ذلك قاضي إشبيلية أبو القاسم الحوفي الذي " لم يأخذ على القضاء أجراً، وإنه كان يعيش أيام قضائه من صيد السمك مرة في الأسبوع يبيعه ويقتات بثمنه "[4].

---

(1): هو محمد بن أحمد بن عبيدالله بن عبد الرحمن الأنصاري الإشبيلي، ولد سنة 483هـ/1090م، وله رحلة إلى المشرق بصحبة والده، وقد درس الفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير، وكان واحد وقته، زاهداً في الدنيا. توفي سنة 574هـ/1178م. انظر: النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص106؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س5، ق2، ص666-670.

(1): المراكشي، الذيل والتكملة، س5، ق2، ص666-667.

(2): التنبكتي، نيل الابتهاج، ص376-377.

(3): النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص104؛ موسى، الموحدون في الغرب، ص203.

(4): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص221-222.

3.1.3.4 **قاضي المظالم**:

أولى الخلفاء الموحدون ولاية المظالم اهتمامهم، فكانوا يخصصون أياماً معلومة من الأسبوع للجلوس فيها إلى الرعية لبحث تظلماتهم، ولما كان الهدف من وجود قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القضاة، ورد الحقوق إلى أصحابها فقد تولاها الخليفة بنفسه؛ لأنه كما يقول الماوردي " من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع؛ لأنه يحتاج إلى سطوة الحماة، وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين "[1]. فالخليفة عبد المؤمن حين توجه إلى جبل طارق سنة 555ه/1160م، لبحث شؤون الأندلس، أمضى أيام عديدة من مدة إقامته هناك والتي استمرت شهرين ينظر في المظالم ويقضي فيها[2]، أما الخليفة أبو يعقوب يوسف فقد كان يجلس للاستماع إلى تظلمات الناس بعد الفراغ من صلاة الفريضة في كل يوم جمعة[3].

ولم يكن الخليفة أبو يعقوب أثناء نظره في تظلمات الناس يتوانى عن توقيع أقصى العقوبات وأشدها على كل من تثبت ادانته، ففي سنة 568ه/1172م مثل بين يديه بعض أهل مدينة باجة من قرابة الفقيه أبو جعفر بن الأنصاري أحد أعيان مدينة باجة، مظهرين الشكاية من والي المدينة عمر بن سحنون الذي قتل الفقيه الأنصاري ثم اتهمه لتبرير جريمته بأنه أراد خلع الخليفة، وكان أن كتب للخليفة بعد أن زور العقود والشهود بذلك، وبعد أن استمع الخليفة لظلامات أقرباء الفقيه الانصاري استدعى أحد أعيان باجه وهو أبو بكر بن الجد فسمع لشهادته ولما ثبت لديه جور وظلم والي باجة ابن سحنون، ما كان من الخليفة إلا أن أصدر أمره بقتل ابن سحنون من حينه[4].

---

(1): الماوردي، الأحكام السلطانية، ص94.

(2): حسن، الحضارة الإسلامية، ص173.

(3): القادري، إبراهيم: الاسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، (د. م) 1993م، ص196. سيشار إليه فيما بعد: القادري، الاسلام السري.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص128.

ومما يذكر عن الخليفة أبي يعقوب أنه إذا استقبل وفداً استفسره عن سيرة الوالي والقاضي قبل كل شيء[1].

2.3.4 **الحسبة**:

هي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين[1]، وهي وسط بين خطة القضاء وخطة الشرطة[2]، فالقاضي نظراً لكثرة ما يوكل له من مهام يستعين بموظفين دينيين ذوي مركز اجتماعي مهم منهم المكلفون بالعدالة، ومنهم المكلف بالحسبة[3]، وبذلك فهي معاونة للقضاء إذ هي تتولى تنفيذ القوانين المتعلقة بالمصالح والآداب العامة، وتساعد في حماية الناس من الغش والاستغلال.

ويحدد السقطي الشروط الواجب توفرها فيمن يقوم بوظيفة الحسبة فيقول: " يجب أن يكون من ولي النظر في الحسبة فقيهاً في الدين قائماً مع الحق نزيه النفس عالي الهمة معلوم الدالة ذا أناة وحلم، وتيقظ وفهم، عارفاً بجزيئات الأمور وسياسات الجمهور، لا يستنفره طمع ولا تلحقه هوادة ولا تأخذه في الله لومة لائم مع مهابة تمنع من الادلال عليه وترهب الجانب لديه"[4].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص140؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص325.

(1): ابن خلدون، المقدمة، ص225.

(2): المجيلدي، أحمد بن سعيد (ت 1094هـ/1682م): كتاب التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1970م، ص42. سيشار إليه فيما بعد: المجيلدي، التيسير في أحكام التسعير.

(3): السائح، الحسن: الحضارة الإسلامية في المغرب، ط2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1986م، ص433. سيشار إليه فيما بعد: السائح، الحضارة الإسلامية.

(4): السقطي، أبو عبدالله محمد بن أبي محمد المالقي (ت نهاية القرن 5هـ/11م): في آداب الحسبة، تحقيق: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت 1987م، ص20. سيشار إليه فيما بعد: السقطي، في آداب الحسبة.

وبما أن الدولة الموحدية قامت على أسس دينية فإنه ليس من المستغرب أن يولي الخلفاء الموحدين خطة الحسبة عنايتهم، ولو على الأقل في فترة ازدهار الدولة التي نحن بصددها، فقد كان ابن تومرت مؤسس الدعوة الموحدية يمارس الاحتساب حيث " كان يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل، متشبهاً في ذلك بالصحابة "[1].

ولما خلص الأمر لخليفته عبد المؤمن بن علي استطاع منذ فترة مبكرة من ولايته من إرساء قواعد خطة الحسبة فعين لها نظاراً في مختلف البلاد حتى أنه أكره أحد الصوفيه وهو أبو يعقوب يوسف علي المؤذن (ت557ه/1161م) على ولايتها في مدينة داي[2] فبقي كاره لولايتها حتى أعفي منها[3].

وإذا ما انتهينا إلى عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف وجدنا أن قاضي الجماعة في مراكش هو من يعين والي الحسبة في العاصمة، في حين يعين قضاة المدن ولاة الحسبة في مدنهم، وهذا ما نلحظه من إشارة ابن المؤقت إلى أن قاضي الجماعة بمراكش أبو يوسف حجاج بعث إلى أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك اللمتوني العابد (ت572ه/1176م) " أن يصل إليه من فاس ليقدمه على خطة الحسبة بمراكش "[4].

وعرفت خطة الحسبة بالأندلس بولاية السوق وكان متوليها يدعى ب " صاحب السوق " وهذا ما يؤكده المؤرخ المعاصر لفترة الدراسة ابن بشكوال (ت578ه/

---

(1): المغراوي، محمد: ملاحظات حول مسألة الحسبة في الدولة الموحدية، مجلة دراسات، تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع 2، أغادير 1988م، ص49. سيشار إليه فيما بعد: المغراوي، ملاحظات حول مسألة الحسبة.

(2): داي: مدينة في أسفل جبل خارج من جبل درن، وهي لا تعد من بلاد السوس، بينها وبين أغمات أربعة مراحل. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص74.

(3): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص167-168.

(4): ابن الموقت، محمد بن محمد بن عبدالله المراكشي (ت 1369ه/ 1949م): السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، ط3، مراجعة وتعليق: أحمد متفكر، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش 2011م، ص124-125. سيشار إليه فيما بعد: ابن الموقت، السعادة الأبدية.

1182م) عند ترجمته للفقيه أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الرعيني (ت 397هـ/1007م) حيث يذكر أن الحاجب بن أبي عامر[1] كان قد ولاه أحكام الشرطة وخطة الوثائق السلطانية " ثم صرف عنه ولاية أحكام الحسبة المدعوة عندنا بولاية السوق "[2]. ومن الأمور التي جرت عليها العادة في الأندلس أنه لا يلي خطة الحسبة إلا من كان أندلسياً، وذلك لأنهم؛ " أعرف بأمور الناس وطبقاتهم، وهي أعدل في الحكم، وأحسن سيرة من غيرهم، وهم أنفه للسلطان وأوثق"[3].

ونعرف من محتسبي الأندلس في هذه المرحلة: طارق بن موسى بن طارق المعافري (ت 566هـ/1171م) الذي تولى خطة الحسبة والمواريث معاً[4]، وهناك أحمد بن محمد ابن موسى بن أبي العافية (ت580هـ/1184م) وهو من أهل بلنسية " تقلد حسبة السوق فحمدت فيها طريقته "[5]، كذلك نذكر عبد العزيز بن محمد اليحصبي اللبلي (ت580هـ/1184م) " ولي الأحكام والحسبة بمرسية "[6].

---

(1): هو أبو عامر محمد بن عبدالله بن عامر بن محمد المعافري، يرجع في أصله إلى قبيلة معافر اليمنية، ولد في الجزيرة الخضراء سنة 326هـ/938م، تولى الحجابة للخليفة الأموي هشام المؤيد ثم لم يلبث أن أصبح هو الحاكم الحقيقي للدولة الإسلامية في الأندلس، وعرف بحسن سياسته وعظم هيبته وكثر غزواته ضد الممالك الاسبانية، وتوفي في آخر غزواته ببلاد النصارى سنة 592هـ/1002م. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 2، 257-301؛ ابن أمير المؤمنين، تاريخ الأندلس، ص57-62؛ الزركلي، الأعلام، جـ6، ص226.

(2): ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ/1182م): كتاب الصلة، 3 أجزاء، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة 1989م، جـ2، ص464. سيشار إليه فيما بعد: ابن بشكوال، كتاب الصلة.

(3): الفاسي، عبد الرحمن: خطة الحسبة، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، ع 20، السنة الثامنة، مارس 1981م، ص53. سيشار إليه فيما بعد: الفاسي، خطة الحسبة.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص275-276.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص74.

(6): السيوطي، بغية الوعاة، جـ2، ص102.

وكان المحتسب يتخذ له أعواناً لمساعدته في تنفيذ مهامه عرفوا باسم امناء الأسواق بالمدن والقرى، وقد يعين المحتسب لكل سوق وحومة أميناً منها ينظر في أمر الخصوم ونوازل الأحكام وحفظ السوق والشوارع من وقوع المنكر، وذلك بحسب اجتهاده وحاجة الناس(1)، وهؤلاء الأمناء قد لا يكونوا محتسبين وإنما نقباء حرفيون(2). ومما يذكر عن الخليفة أبي يعقوب أنه كان يخصص أياماً معينة يستقبل فيها هؤلاء الأمناء بنفسه، فيسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وأحكامهم(3).

أما عن اختصاصات المحتسب فنلاحظ أنها كانت متشعبة وكثيرة، وتكاد تشمل جميع مجالات الحياة، فمنها ما يتعلق بالنواحي الدينية كأن يأمر العامة بالصلوات الخمس وإقامة صلاة الجمعة والجماعات(4)، ومنها ما يتصل بالآداب العامة مثل مراقبة الحفلات والأعراس ومنع النساء من إظهار ما يخفى من محاسنهن في الحمامات والمآتم والجبانات والمواضع التي تتخذنها مجالس للتنزه، ومنع اختلاط النساء بالرجال في الأسواق كسوق الغزل ونحوه، ومنع الخمر وتكسير الآت الملاهي مثل الزمر والطنبور والعود وما أشبه ذلك حتى تصير خشباً يصلح لغير الملاهي(5)، ومنها ما يتعلق بالحياة الاقتصادية التي يمكن حصرها في الإشراف على التجار والأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل والتأكد من سلامتها ومراقبة العملة

---

(1): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص325؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص178؛ المنوني، التاريخ الأندلسي، ص194.

(2): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص229؛ المغراوي، ملاحظات حول مسألة الحسبة، ص52.

(3): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص229.

(4): حسن، الحضارة الإسلامية، ص179؛ المغراوي، ملاحظات حول مسألة الحسبة، ص57.

(5): ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي (ت729ه/1328م): معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه: روبن ليوي، مطبعة دار الفنون، كيمبرج 1937م، ص35. سيشار إليه فيما بعد: ابن الأخوة، معالم القربة؛ المنوني، التاريخ الأندلسي، ص202؛ المغراوي، ملاحظات حول مسألة الحسبة، ص56؛ السائح، الحضارة الإسلامية، ص432.

المتداولة في البلدة[1]. هذا بالإضافة إلى سهره على رعاية الأطفال في الكتاتيب وأماكن العلم ومراقبة الوعاظ والخطباء؛ لئلا يحرفوا الكلام عن مواضعه مما يفسد العقول[2].

4.4 النظام المالي:

1.4.4 مؤسسات الدولة المالية:

1.1.4.4 بيت المال (المخزن):

شاع في دولة الخليفة أبي يعقوب يوسف كما هو الشأن في عصر الدولة الموحدية عامة، استخدام لفظ المخزن للدلالة على المكان الذي يوضع فيه المال في مراكز الولايات والأقاليم[3]، في حين عرفت خزانة المال في العاصمة مراكش باسم " بيت المال "[4] أو " الخزانة العالية "[5]، وعرف من يتولى الإشراف على بيت المال باسم " مدير الخزانة العالية"[6]. ونظراً لعلو شأن هذا المنصب فإنه لم يكن يعهد به إلا لعلية القوم من أهل العلم والأمانة، مثل أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري (ت569ه/1173م) وهو من أهل سرقسطة أقام بمدينة فاس ثم استوطن مراكش، وكان محدثاً مكثراً ثقة، حافظاً للفقه عارفاً باصوله، عاقداً للشروط، حاذقاً بالأحكام، شاعراً محسناً. وقد استقضي بغرناطة وبلنسية فحمدت سيرته، يقول ابن فرحون: " ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب ابن عبد المؤمن ألزمه خدمة الخزانة

---

(1): السقطي، في آداب الحسبة، ص29-34؛ أبو مصطفى، كمال السيد: تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية (د.ت)، ص310. سيشار إليه فيما بعد: أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي.

(2): السائح، الحضارة الإسلامية، ص432.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص204، 207، 453، ص466-467.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص190؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص321.

(5): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص213.

(6): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص106.

العالية، وكانت عندهم من الخطط الجليلة، التي لا يعين لها إلا أهل العلم.. وكانت أعطيات الخليفة أبي يعقوب له جليلة وربما وصله في المرة الواحدة بخمسمائة دينار"[1].

وكان يعاون مدير الخزانة العالية عدداً من الكتاب لتقييد أموال بيت المال[2]، ولم يكن بيت المال مقصوراً على خزينة تودع فيها الأموال النقدية فقط، وإنما نجد أنه يشمل كل ما يمكن للدولة أن تملكه، من الممتلكات من البشر في شكل عبيد وهم الذين عرفوا ب " عبيد المخزن "[3]، والممتلكات من الأموال المنقولة العينية والنقدية، وأخيراً الممتلكات العقارية الفلاحية بالبادية والعقارات بالمدن[4].

2.1.4.4 دار الإشراف:

يتضح من خلال التسمية أنها كانت تتولى الرقابة العامة على جميع الأمور والشؤون المالية في العاصمة مراكش وأقاليم الدولة المختلفة، ونظراً لحساسية دورها وعلو قدرها فقد الحقت مهمة رئاسة دار الإشراف في عهد الخليفة أبي يعقوب بالوزير، وهذا ما يؤكده ابن الزيات في معرض حديثه عن المتصوف أبي العباس السبتي المتوفي بمراكش سنة 601ه/1205م، إذ يذكر أنه نزل بالناس قحط بمراكش، وتوجه إلى دار الإشراف وكان النظر فيها للوزير أبي يحيى أبي بكر بن يوسف الكومي الذي كان يعمل بين يدي أبي يوسف يعقوب منذ سنة 573ه/1177م، وطلب منه صدقه، غير أن أبو يحيى رفض اخراج مما عنده[5].

---

(1): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـــ1، ص211-214.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص204.

(3): أسكان، الحسين: المالية الموحدية، منشور ضمن كتاب وقفات في تاريخ المغرب دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بو طالب، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط 2001م، ص82. سيشار إليه فيما بعد: أسكان، المالية الموحدية؛ العبادي، صور من حياة الحرب، ص158.

(4): أسكان، المالية الموحدية، ص81-83.

(5): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص469.

وتولت دار الاشراف في مراكز الأقاليم الإشراف على سير الأمور المالية في مركز الإقليم والمدن التابعة له من جمع العشور والأجور والإشراف على المرافق الاقتصادية والسكة، ويشير إلى ذلك ابن عذاري في حديثه عن اعمار مدينة باجة سنة 570ه /1174م فيقول " وتبايع الناس أرضها بينهم في خارجها وداخلها وحرثوا الأرض وعمروها وبنوا الحوانيت والرباع ورفعت إلى دار الإشراف بإشبيلية بأعشارها وكراء رباعها"[(1)].

ووجدت وظيفة المشرف في مختلف المدن المغربية مثل تلمسان ومكناسة وفاس وتازة وبجاية[(2)]، ويشير ابن عذاري إلى وفاة ابن مثنى المشرف بإفريقية سنة 579ه /1183م[(3)]، دون أن يعطينا مزيداً من الإيضاح عن ابن مثنى هذا أو طبيعة عمله.

ويبدو أن المشرف كان أيضاً يستعين ببعض العمال لتنفيذ مهامه ولعل أبرزهم خازن المال وخازن الطعام، وهذا ما نلحظه من إشارة ابن عذاري إلى معاقبة الخليفة أبي يعقوب لمشرف مدينة فاس عبد الرحمن بن يحيى ومعاونيه من عمالها سنة 579ه/1183م أثناء نزوله بها في طريقه إلى الأندلس، فيقول " قبض – الخليفة أبو يعقوب – على سائر العمال وكان عددهم ثمانية عشر عاملاً أولهم مشرف فاس المذكور، وخازنه على المال الذهبي وخازنه على الطعام"[(4)].

3.1.4.4 ديوان الأعمال والجبايات:

اختص هذا الديوان بالشؤون المالية في الدولة من القيام باستخراج الأموال وجمعها وضبطها وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وتقدير أرزاق عمال الدولة وصرف اعطياتهم في أوقاتها بالرجوع في ذلك إلى القوانين الحاكمة والمنظمة التي يرتبها القائمين على أعمال الديوان بالاستناد إلى توجيهات الخليفة[(1)].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص134.

(2): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص107-108.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص155.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص158؛ طه، مدينة فاس، ص106.

(1): ابن خلدون، المقدمة، ص243.

وعرف من يرأس ديوان الأعمال والجبايات ب " صاحب الأشغال "[1]، وقد انيطت هذه المهمة في العاصمة مراكش بالوزير حتى نهاية عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، إذ لا يعلم أن أحداً استقل بإدارة هذا الديوان في الحضرة مراكش غير الوزير حتى عام 593ه/1197م عندما قلد الخليفة أبو يوسف يعقوب هذه الوظيفة إلى شخص غير الوزير[2]. ومنذ ذلك التاريخ ظهرت خطة صاحب الأشغال مستقلة عن عمل الوزير.

أما في الولايات فنجد أن هناك إشارة عند السلاوي تفيد باستعمال الخليفة أبي يعقوب لعلي بن الرند الثائر في قفصة بعد استسلامه سنة 576ه/1180م على أشغال مدينة سلا، فيقول " وأخذه واشخصه إلى مراكش بأهله وماله واستعمله على الأشغال بمدينة سلا"[3].

وكان يتبع إلى صاحب الأشغال ويعاونه في إدارة شؤون الدولة المالية عدداً من الموظفين، منهم:

1. صاحب الأعمال المخزنية:

مقر أصحاب الأعمال المخزنية هو مركز الولايات ومهمتهم هي الإشراف على تحصيل الأموال وإنفاقها والرقابة على المشرفين في المدن ومحاسبتهم[4]، وممن تولى هذا المنصب في فترة دراستنا محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم الذي شغل منصب صاحب أعمال المخزن بإشبيلية واستمر في عمله حتى عزله الخليفة بنفسه سنة 566ه/1170م وأحل بدلاً منه على أعمال المخزن في إشبيلية أبي داود يلول ابن جلداسن الذي بقي يشغل هذا الوظيفة حتى وفاته سنة 580ه/1184م[5].

---

(1): ابن خلدون، المقدمة، ص245؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص217.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص225.

(3): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص281.

(4): السامرائي، تاريخ حضارة المغرب والأندلس، ص309.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص207، 453.

2. **متولي المجابي**:

هو المسؤول عن تحصيل الضرائب والجزية، وله أعوان في مختلف المدن[1].

3. **المستخلص**:

هو المشرف على تحصيل الأموال الخاصة بالخليفة من كل باب من أبواب الدخل[2].

2.4.4 إيرادات ونفقات الدولة:

1.2.4.4 الإيرادات:

تميزت موارد بيت المال الموحدي بتعددها وتعايشها بحسب الفترة الزمنية من عمر الدولة، وبعدم وجود موارد ثابتة لها طوال تاريخها، فنلاحظ أن هناك موارد سادت في فترة زمنية معينة من تاريخ الدولة ثم اختفت في مرحلة اخرى ليحل محلها مورد آخر. وبشكل عام تكونت ايرادات الدولة الموحدية من الزكاة والعشور والخراج والجزية والضرائب وأخماس المعادن والغنائم والمصادرات[3]. ولكن في عهد الخليفة أبي يعقوب شكلت الزكاة والخراج والغنائم والمصادرات أهم موارد الدولة، حيث نجد أنه قد أسقط الضرائب والمكوس[4] والقبالات[1]عن الناس توسعة

---

(1): حسن، الحضارة الإسلامية، ص189.

(2): علام، الدولة الموحدية، ص264.

(3): الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: موسوعة تاريخ المغرب العربي، 3 مجلدات، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994م، مج2، جـــ3، ص263. سيشار إليه فيما بعد: الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب؛ موسى، عز الدين عمر: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط1، دار الشروق، بيروت – القاهرة 1983م، ص173. سيشار إليه فيما بعد: موسى، النشاط الاقتصادي.

(4): المكوس: مفردها مكس، وهي ضريبة في معناها الضيق تفرض على الصادر والوارد، وفي معناها العام تفرض على كل السلع المباعة في الأسواق وعلى أنواع الصناعات. انظر: ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص41.

(1): القبالات: مفردها قبالة، وهي ضريبة تدفع لبيت المال، وقد أطلق هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضي به الشرع، وقد عرفت هذه الضريبة في عصر المرابطين، فكانت

منه عليهم، يقول ابن أبي دينار: " كان ملكه من قاصية إفريقية إلى السوس الأقصى إلى بلاد القبلة وبلاد الأندلس يجبى إليه خراجها دون مكس ولا جور "(1). ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أبو يعقوب أقام في عام 566هـ/1170م جسراً على وادي إشبيلية يربطها بقرية طريانة " سبلها على المسلمين للعبور عليها في مصالحهم دون قبالة ولا إجازة عمالة"(2).

1. الزكاة:

سار الخليفة أبو يعقوب على نهج والده في تحصيل الزكاة وتوزيعها في وجوهها الشرعية، وقد أكد ذلك ابن صاحب الصلاة الذي يذكر أن الخليفة أخذ في سنة 560هـ /1164م " الزكاة من الماشية والحرث على حكم الكتاب والسنة، وقد وضعها في مواضع حقها "(3). ويحدد الماوردي أصناف الأموال التي تجب فيها الزكاة ب " النقود من الذهب والفضة، والمواشي، والزروع والمعادن "(4). أما وجوهها الحقة التي توزع فيها، فقد حددها القرآن الكريم بقوله تعالى " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"(5).

من أكبر المآخذ التي استخدمها الموحدون ضد المرابطين. انظر: أحمد، علي: من الاصطلاحات التاريخية والحضارية الأندلسية والمغربية في العصور الوسطى، مجلة دراسات تاريخية، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، ع 63-64، السنة التاسعة عشرة، آذار – حزيران 1998م، ص162-163. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، من الاصطلاحات التاريخية.

(1): ابن أبي دينار، المؤنس، ص113.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص234-235.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص286.

(4): الماوردي، الأحكام السلطانية، ص133-140.

(5): سورة التوبة، آية 60.

2. الخراج:

الخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها[1]، وكان الخليفة عبد المؤمن أول من أرسى نظام الخراج في الدولة الموحدية عندما قام بمسح بلاد إفريقية والمغرب سنة 555هـ/1160م وكسرها بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً فاسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات، وما بقي قسط عليه الخراج والزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق[2]. وعندما خلف أبي يعقوب والده في الحكم سار على سننه، فكان يرتفع له من خراج بلاده أموال طائلة، يقول المراكشي: " فلم يرتفع لملك من الملوك – أعني ملوك المغرب – قبل أبي يعقوب هذا وبعده، ما ارتفع إليه من الأموال"[3]، ويقول ابن خلكان أن الخليفة أبو يعقوب " كان جمّاعاً ضابطاً لخراج مملكته عارفاً بسياسة رعيته "[4]، وبالتالي يمثل عهد الخليفة أبو يعقوب قمة ارتفاع مداخيل الخراج الموحدي، الذين نتج عنه فائض في ميزانية الدولة بشهادة المؤرخ المعاصر المراكشي الذي يذكر أن صديقاً له كان يتولى بيت المال الموحدي، أخبره في مطلع سنة 611هـ/1214م، أنه وجد سجلات كثيرة لما كان يرتفع للخليفة من خراج دولته[5].

هذا ولا تمدنا المصادر إلا بالنزر اليسير عن قيمة ما كان يرتفع للخزينة الموحدية من خراج في فترة الدراسة، كما أن المعلومات التي حصلنا عليها عن ذلك لا تغطي جميع أقاليم الدولة، وما تم التوصل إليه أن خراج إفريقية وحدها في كل سنة بلغ حوالي 150 حمل من المال النقدي[1]، وخراج تلمسان 50 حملاً[2]، وخراج

---

(1): الماوردي، الأحكام السلطانية، ص167.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص198-199؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص272.

(3): المراكشي، المعجب، ص188.

(4): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص131.

(5): المراكشي، المعجب، ص188.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص419؛ المراكشي، المعجب، ص187.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص419.

مكناسة انتهى إلى 200.000 دينار ذهباً[1]، وبلغ مبيع زيتون مدينة مكناسة عام الحمل 35.000 دينار، ومبيع زيتون فاس 50.000 دينار، ومبيع زيتون تازة 25.000 دينار ونحوها[2]. أما عن بلاد الأندلس فلا تردنا إشارات إلا لخراج إشبيلية والذي بلغ 150 حملاً. يقول ابن خلكان: " كان يرتفع إليه – أي للخليفة أبي يعقوب – في كل سنة من خراج إشبيلية وقر(حمل) مائة وخمسين بغلاً، خارجاً عما يرتفع إليه من خراج بقية البلاد في بر العدوة وفي بر الأندلس "[3].

3. **الغنائم:**

شكلت الغنائم مصدراً هاماً من مصادر دخل الدولة الموحدية نظراً للمعارك المستمرة التي خاضها الخليفة أبي يعقوب ضد ابن مردنيش في شرق الأندلس والممالك النصرانية في اسبانيا وثورات الخارجين في الشمال الإفريقي. وهناك شواهد كثيرة على ذلك نذكر بعضها ونشير إلى غيرها، ففي عام 560هـ/1164م حقق السيد أبو حفص عمر نصراً مؤزراً على ابن مردنيش وحلفائه النصارى، واستاق من الغنائم على أثر هذا النصر " عدداً جماً وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الآلاف من الغنم "[4]، وبعد أن قضى الخليفة أبو يعقوب على ثورة سبع بن منغفاد سنة 562هـ/1166م حصل الموحدون على غنائم جمة، عبر عنها ابن صاحب الصلاة بقوله: " والذي نفل الله الموحدين أعزهم الله من ضروب المغانم والانفال، وذلك من البقر اثنا عشر ألفاً، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة، ومن السبي ثلاثة آلاف وستة مائة وسبعة وأربعون، ومن الدواب ستمائة وسبعة عشر "[1]. وفي عام 577هـ/11841م خرج أبو عبدالله محمد بن وانودين من إشبيلية

---

(1): ابن غازي، أبو عبدالله محمد بن أحمد العثماني (ت 919هـ/ 1513م): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط 1964م، ص28. سيشار إليه فيما بعد: ابن غازي، الروض الهتون؛ أسكان، المالية الموحدية، ص99.

(2): ابن غازي، الروض الهتون، ص7؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص157.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص135.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص278.

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص321.

على رأس حملة موحدية فاستولى على جميع ما وجده " خارج يابرة من الغنم والبقر"، ثم هاجم في طريق عودته حصناً للنصارى يسمى حصن قليج " وفتحه ومنحه الله من المغنم ما منحه فسبى من النساء أربع ماية بين كبيرة وصغيرة ومن الرجال ماية وعشرين.. ودخل إشبيلية .. وباع السبي وكثر عند الناس الخدم وامتدت النعم"(1).

وامتدت أيدي الموحدين إلى غنائم البحر أيضاً، ففي عام 577ه/1181م تمكنت الأساطيل الموحدية من إلحاق هزيمة نكراء بالأسطول البرتغالي وأسر منهم نحو الألف وثمانمائة، وأخذت لهم من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم(2).

4. المصادرات:

وقف الخليفة أبو يعقوب يوسف موقفاً حازماً تجاه عماله الذين ثبت لديه استغلالهم لمناصبهم في إنماء أموالهم، وإذا حدث أن سخط على أحد منهم ونكبه فإنه يستخلص أمواله ويضيفها إلى خزينة الدولة، وقد شكلت الأموال المصادرة من العمال مورداً هاماً للخزينة الموحدية لا يمكن تجاهله. ففي عام 566ه/1171م عزل الخليفة أبو يعقوب محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم عن أعمال المخزن بإشبيلية لما " انتقد عليه من أخبار شنيعة وأحوال فظيعة فأمر بسجنه وأخذ ما بيده فلم يبق له سند ولا لبد "(3).

وعندما أساء محمد بن عيسى المشرف على خزائن إشبيلية التصرف بأموال الدولة سنة 571ه/1175م " أمر الخليفة أبو يعقوب بنكبه.. واستصفى ما كان عنده

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص144-145.

(2): العبادي، دراسات، ص352-353. وللاطلاع على المزيد من الشواهد لأثر الحروب والمعارك في رفد بيت المال من خلال الغنائم، انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص269، 357، ص525-526؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص138، 140، 150؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص453.

من المال والعقار بأنواع العذاب وأسوأ العقاب حتى ضرب نفسه بسكين كان في يده فلم يمت من ذلك ثم عذب وضرب حتى مات"[1].

وفي عام 573ه/1177م قام الخليفة أبو يعقوب بمحاسبة وزيره أبو العلاء بن إدريس ابن جامع وبنيه، فقبض عليهم واستصفى أموالهم ونفاهم إلى الأندلس[2]. كذلك قام الخليفة أبو يعقوب سنة 579ه/1183م بمحاسبة عمال مدينة فاس ومكناسة وتازة، وقد ترامت إليه الانباء عن خيانتهم واستغلالهم لمناصبهم، فأمر بالقبض عليهم والبالغ عددهم ثماني عشر بين عامل ومشرف مخزن، وكانت خطة الخلافة في القضاء على مثل هؤلاء المفسدين تصادر أموالهم ودورهم وتدخل إلى خزانة الدولة، وقد بلغ جملة ما الزموا برده للخزينة أربعمائة وستين ألف دينار[3].

2.2.4.4 **النفقات**:

تنوعت أوجه الإنفاق في ظل الدولة الموحدية حتى طالت أبواباً عديدة لا يمكن حصرها، ولعل أهمها في دولة الخليفة أبي يعقوب يوسف تمثل في:

1. **نفقات الجيش**:

حظي الجهاد بمكانة هامة في عصر ازدهار الدولة الموحدية عامة، وعهد الخليفة أبو يعقوب خاصة، وهذا ما جعل الإنفاق على الجيش ومعداته يحصل على النصيب الأوفر من دخل الدولة، فإذا علمنا أن عدد الجيش الموحدي في غزوة الخليفة الأولى للأندلس سنة 566ه/1171م نحو 100 ألف مقاتل[4]، وفي غزوته الثانية سنة 850ه/1184م تراوحت الأعداد ما بين 140-280 ألف مقاتل[5]، فإن هذه الأعداد تعطينا بطبيعة الحال تصوراً لمدى ضخامة الجيش الموحدي وضخامة ما يحتاج إليه من معدات ومرتبات وطعام وسلاح وتجهيزات.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص135.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص98.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص158؛ طه، مدينة فاس، ص106.

(4): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص131؛ المقري، نفح الطيب، مج4، ص379.

(5): الحميري، الروض المعطار، ص346؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ6، ص433.

وقد تكون الجيش الموحدي من عناصر عديدة منها قبائل الموحدين والجند أو الأجناد وهم الجند النظاميون المحترفون أو المرتزقة[1]، والغز والعرب وغيرهم من العناصر التي سنتحدث عنها بالتفصيل في موضوع النظام الحربي، وقد خصص لهذه العناصر مرتبات عدا ما تأخذه من منح وأعطيات أثناء القيام بحملة من الحملات، إضافة إلى ما يوزع عليها أثناء الاحتفالات العامة.

أما عن الرواتب فقد كانت تمنح للجند النظاميين والمرتزقة والغز ويطلق عليها اسم البركة[2]، وتوزع ثلاث مرات سنوياً، أي كل أربعة أشهر مرة[3]، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تحديد موازنة رواتب الجيش السنوية إلا أنه يمكننا أن نستتشف ضخامة مقدار ذلك مما دفعه الخليفة من مرتبات للجند في حملة قفصة سنة 575ه/1179م التي وصلت إلى زهاء المليون من الدنانير الذهبية، يقول ابن صاحب الصلاة: " حدثني الحسن الهوزني أنه كان يعطي في البركة لعساكره في غزوته إلى قفصة ألف ألف دينار تمادى ذلك مدة غزوته إلى أن انصرف سوى العلوفات والمواسات والمرافق في كل منزل "[4].

وإذا ما أردنا معرفة مرتب كل جندي، فإن المنح والهبات التي كانت تعطى للجيش عند الخروج إلى كل معركة تساعدنا في إعطاء صورة تقريبية لذلك، فها هو ابن صاحب الصلاة يصف لنا عملية تمييز الجند التي سبقت الخروج إلى غزوة الأندلس سنة 566ه/1171م وما صاحبها من ابتذال للأموال ومنح للبركات فيقول " وجلس أمير المؤمنين في مجلسه العالي وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب، وأمر لوزيره أبي العلاء ادريس المذكور أن يأمر الخزانين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه أكداساً وجنسها من الذهب والفضة أجناساً، وقدم الموحدين في تنفيذ البركة لهم، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير ولغير الكامل ثمانية دنانير وللراجل الكامل خمسة دنانير ولغير الكامل ثلاثة دنانير. وأمر

(1): العبادي، صور من حياة الحرب، ص161.

(2): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص140.

(3): حسن، الحضارة الإسلامية، ص212؛ نجار، المغرب والأندلس، ص360.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص141.

للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً والراجل سبعة دنانير، وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مايتا دينار"[1]. ومما نلحظه على هذه المرتبات أن هناك تفضيل للجند العرب على الموحدين؛ ولعل ذلك عائد لكون العرب غرباء على المغرب الأقصى ليس لهم إلا ما يحصلون عليه من مرتبات ومنح وأعطيات.

وإلى جانب الرواتب حرص الخليفة أبو يعقوب على توزيع الخيل والأسلحة والأكسية على المقاتلة قبل توجهها للمعارك، ففي سنة 566ه/1170 وقبل توجهه بجيوشه للغزو كسى جميع الجند " بالقباطي[2] والقمص والغفافير[3] والعمائم وأعطاهم السيوف المحلاة والدروع السابغات[4]"[5]، وكذلك فعل قبل غزوته عام 579ه/1183م إذ قسم السلاح والخيل على الموحدين والعرب والمتجندين " وأمر لطلبة الحضر بأربعة وعشرين فرساً وأعطى خباء لكل عشرة من الفرسان "[1].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص437.

(2): القباطي: هو الثوب الأبيض الرقيق المصنوع من الكتان، وينسب إلى القبط بمصر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جــ9، ص248.

(3): الغفافير: مفردها غفارة، وهي ثوب واسع معمول من الجوخ، مزرور بأزرار من ناحية الكتفين، وقيل هي غطاء ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جــ6، ص329-330؛ دوزي، رينهارت: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، دار الحرية للطباعة، بغداد 1971م، ص258-259. سيشار إليه فيما بعد: دوزي، المعجم المفصل.

(4): الدروع السابغات: هي الدروع التي تغطي كامل البدن حتى الأنامل، ومعها المغفر الذي يغطي الوجه، والخوذة التي تغطي الرأس، ولابس هذا الدرع لا يبدو منه إلا محاجر العينين. انظر: زغروت، فتحي: الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة 2005م، ص177. سيشار إليه فيما بعد: زغروت، الجيوش الإسلامية.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص437.

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

كذلك كان يفرق عليهم المواساة والإحسان، أما المواساة فهي غلة توزع عليهم عند تحصيل الغلات في المخازن، أما الإحسان فهو مبالغ مادية تفرق عليهم أيضاً من السنة إلى السنة دون أن يكون لها مقدار معلوم، وإنما بحسب أقدار الناس[1]، وقد وصف ابن عذاري الخليفة أبو يعقوب يوسف بأنه " كان صادقاً رأيه للموحدين في المواساة في كل شهر وبالبركات مدى الدهر "[2].

وإذا نجح الجيش في تحقيق نصر أو فتح، عمت الأفراح والاحتفالات في العاصمة، ووزعت المنح والأموال على الجند احتفاءً بذلك النصر، وقد تصل الأموال الممنوحة في مثل تلك المناسبات إلى مبالغ طائلة، ففي عام 561هـ/1165م أمر الخليفة أبو يعقوب بإقامة احتفال كبير لاستقبال أخيه السيد أبو حفص عند عودته لمراكش بعد الانتصار الكبير الذي حققه على الثائر ابن مردنيش بالأندلس، فصنعت وجبات الطعام للموحدين والعرب الواصلين والمقيمين لمدة خمسة عشر يوماً، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة، وأعطى " لكل فارس عشرين ديناراً ولأعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار، ولأشياخ العرب لكل واحد مائة دينار، ولساير عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فارس، فاجتمع لجميع الناس السرور "[3].

2. **المرتبات**:

خصصت الدولة الموحدية جزء كبير من موازنتها السنوية لمرتبات الموظفين على أنواعهم، فقد كان الوزراء ورجال البلاط والحشم والقضاة والفقهاء يتقاضون مرتبات منتظمة من الخزينة[4]، كذلك كان مدير الخزانة العالية وقاضي الجماعة يحصلان على رواتب شهرية معلومة، هذا غير صلات الخليفة لهما والتي بلغت

---

(1): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص141.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص164.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص291-292.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص492.

لمدير الخزانة العالية في المرة الواحدة خمسمائة دينار[1]، في حين بلغ مقدار ما يتقاضاه قاضي الجماعة من مرتب شهري ما مقداره خمسة عشر ديناراً[2].

وحظي كذلك الطلبة بفئاتهم المختلفة ممن هم على مقاعد الدراسة والمشتغلون منهم بالعلم والدعاة باهتمام الخليفة أبي يعقوب وأمر لهم بالمرتبات والأرزاق، وهذا ما نلمحه من رسالة الخليفة إلى والي غرناطة أبي عبدالله بن أبي إبراهيم المؤرخة في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام 563هـ/1167م والتي جاء فيها أن يدفع للطلبة بغرناطة مرتبات تعادل ما يأخذه طلبة أهل قرطبة[3].

وشملت المرتبات والأرزاق الأطباء والمهندسين والكتاب وحتى الشعراء الذين جادوا بشعرهم في خدمة الدولة، وهذا ما أشار إليه المراكشي من أن ابن طفيل طبيب الخليفة أبي يعقوب يوسف كان يحصل على مرتب مع غيره من الموظفين، فيقول: " بلغني أنه – أي ابن طفيل – كان يأخذ الجامكية (المرتب) مع عدة أصناف من الخدمة، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد، إلى غير هؤلاء من الطوائف "[4].

3. نفقات الإنشاء والتعمير:

شهدت بلاد المغرب والأندلس في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف نهضة عمرانية واسعة؛ نظراً لولع الخليفة بالعمارة وحبه لها، وتميزت تلك المنشآت التي شيدت في عهده بتنوعها من قلاع وحصون وأسوار ومساجد وقناطر وجسور وغيرها. ونكتفي هنا بإشارة موجزة لبعض المنشآت في عهده والتي سنتحدث عنها بما تستحق في الفصل الخامس، فإليه يرجع الفضل في إعادة بناء قنطرة تانسيفت بالقرب من مراكش سنة 566هـ/1170م[5]، وإنشاء الجسر الواصل بين إشبيلية وربضها القبلي طريانة، وقصور البحيرة في إشبيلية، وقنوات المياه المحمولة على

---

(1): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص213.

(2): حسن، الحضارة الإسلامية، ص217.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص354-356.

(4): المراكشي، المعجب، ص177.

(5): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص278.

القناطر والحنايا من قلعة جابر إلى باب قرمونة من أبواب إشبيلية، ولعل أهم ما قام به من أعمال الإنشاء والتعمير بناء قصبة إشبيلية وجامعها الأكبر الذي شرع في بنائهما سنة 567ه/1171م وأنفق في سبيل انجازها أموالاً جمة[1]، وفي سنة 579ه /1183م اختتم أعماله الإنشائية بتوسعة مدينة مراكش حيث تم هدم سورها القديم وبناء سور جديد لها[2].

وقد استلزمت أعمال البناء هذه أموالاً طائلة، وكان مصدر ذلك خزانة الدولة، يقول ابن صاحب الصلاة عن بناء قصور البحيرة في إشبيلية سنة 567ه/1171م: " وأمر أمير المؤمنين.. أبا القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي وأبا بكر محمد بن يحيى ابن الحذا.. أن يختطا له ما يتصل بهذه القصور والمباني من الأرض البيضا حواليها من مال المخزن ما يحسن مسكنها لغرس الزيتون والأشجار والأعناب.. ونفذ الأمر العالي إلى أهالي الأنظار بالشرف بقلع أصول الزيتون المختارة من الألوان بمال المخزن أنماه الله واستجلابها إلى البحيرة المذكورة للاغتراس "[3].

4. نفقات الغوث والإعانة:

وقف الخليفة أبو يعقوب إلى جانب أبناء شعبه في كل ما يتعرضون له من محن وصعاب سواء أكان ذلك لأسباب طبيعية كالزلازل وانتشار الأمراض والجفاف والسيول، أو لأسباب بشرية كالحروب وأعمال الحصار، وذلك من خلال مد يد العون والإغاثة مادياً ومعنوياً، ففي عام 565ه/1169م تم تجهيز قافلة معونة كبيرة في إشبيلية بلغ قوامها خمسة آلاف دابة وأرسلت على سبيل السرعة إلى أهل مدينة بطليوس لإنقاذهم من المجاعة التي هددتهم نتيجة انحباس المطر وهجمات البرتغاليين المتتالية على المدينة وأحوازها[4]، كذلك يذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أبو يعقوب منح أحد فقراء مدينة بطليوس مائتي دينار فضلاً عن ثلاثمائة مثقال عن جهاز لبناته، وذلك عندما لجأ إليه طالباً العون والمساعدة سنة 566ه/

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص446-449؛ سالم، تاريخ المغرب، ص750.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص153.

(3): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص465-467.

(4): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص106.

1170م لدفع فديته التي استدانها لفك أسره، حيث كان قد أسر يوم دخول النصارى مدينة بطليوس سنة 564ه/1168م[1].

وحينما اطلع الخليفة أبو يعقوب على ما وصلت إليه حال أهل مدينة قونكة أثناء عودته من غزوة وبذة سنة 567ه/1172م من فقر وبئس وتردي في الأحوال والأموال نتيجة الحصار الذي كان قد فرضه القشتاليون عليها في منتصف العام المذكور، أمر الخليفة في الحين أحد حفاظه أن يحصي له سكان المدينة " فأحصاهم وكان عددهم سبع مائة نسمة بين رجل مقاتل وامرأة وصبي وطفل، فأمر للفارس منهم باثني عشر مثقالاً، وللراجل بثمانية مثاقيل، وللمرأة بأربعة مثاقيل، وللطفل بأربعة مثاقيل، وأعطاهم سبعين بقرة لم يكن عنده في المحلة سواها "[2].

5. الهبات والمنح:

شكلت الهبات والمنح وجه آخر من أوجه الإنفاق في عصر الدولة الموحدية، وتنوعت هذه الهبات والمنح ما بين عامة توزع على الشعب ككل؛ وخاصة تمنح لفئة أو أشخاص معينين، ومن تلك العامة ما قام به الخليفة أبو يعقوب بعد تجديد البيعة له سنة 563ه /1167م، حيث أمر بصرف بركة عامة لجميع الموحدين والعرب والأجناد ببلاد العرب والأندلس القاصية منها والدانية " فعم الناس فضله ورفده، وثبت في القلوب حبه وعهده"[3].

أما الهبات الخاصة فنعم بها الأشياخ والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من صلحاء الدولة، فعندما تمكنت القوات الموحدية من إلحاق الهزيمة بقوات القومس الأحدب عظيم النصارى بآبلة سنة 568ه/1173م، توافد إلى مجلس الخليفة الأدباء والفقهاء والشعراء وأطنبوا في مدح الخليفة نثراً وشعراً، فما كان من الخليفة إلا أن أمر لهم بالجوائز والأعطيات الجزيلة حسب مراتبهم " فخرج للطبقة الأولى خمسون ديناراً إلى أربعين إلى ثلاثين "[4].

---

(1): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص451.

(2): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص506.

(3): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص353.

(4): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص525.

5.4 النظام الحربي:

1.5.4 الجيش:

قامت الدولة الموحدية على أساس دعوة دينية إصلاحية تعتمد على روح الجهاد، وقد تجلت هذه الروح واضحة في معارك الجهاد بالأندلس التي قدم الخليفة أبو يعقوب يوسف فيها روحه رخيصة في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله عندما ارتقى شهيداً في واحدة من تلك المعارك سنة 580ه/1184م.

ولم يكن للدولة الموحدية أن تنهض وتأخذ بمقارعة غيرها من القوى وخاصة في اسبانيا إلا بامتلاكها جيشاً قوياً، من هنا أنشأ الموحدون جيشاً محكم التنظيم والترتيب، فائق الحماسة والاحتراف[1]، وحتى نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وصف الجيش الموحدي بأنه كاملٌ في الاستعداد والتعبئة، وممتازٌ في الضبط والربط، ورائعٌ في الترتيب سواء في مسيره أو في قتاله، وبارعٌ في الخطط الحربية وضعاً وتنفيذاً[2]. وسنعرض في الآتي لأبرز هذه السمات التي تميز بها الجيش الموحدي وما كان عليه من تنظيم والتي ظهرت جلياً في دولة الخليفة أبي يعقوب يوسف.

---

(1): جوليان، شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، جزءان، ط2، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1983م، جــ2، ص162. سيشار إليه فيما بعد: جوليان، تاريخ افريقيا.

(2): موسى، عز الدين عمر: دراسات في تاريخ المغرب الإســلامي، ط1، دار الشروق، بيروت 1983م، ص93. سيشار إليه فيما بعد: موسى، دراسات في تاريخ المغرب؛ كلاس، فايزه: الجيش عند الموحدين، مجلة دراسات تاريخية، ع 31-32، السنة العاشرة، آذار – حزيران 1989م، ص197. سيشار إليه فيما بعد: كلاس، الجيش عند الموحدين.

1.1.5.4 **عناصر الجيش**:

تكون الجيش الموحدي من عناصر عديدة، أهمها:

1. **قبائل الموحدين**:

هم قبائل الموحدين الأصليين التي انضمت إلى المهدي بمقتضى عملية التمييز التي قام بها أحد أصحاب المهدي وهو أبو عبدالله محمد بن محسن بن بشير سنة 519ه /1125م[1]، وتتألف هذه القبائل التي يجمعها هذا الاسم من سبعة قبائل هي: هرغة قبيلة ابن تومرت، وكومية قبيلة عبد المؤمن بن علي، وأهل تينملل، وهنتاتة، وجنفيسة وجدميوة وهسكورة[2]. وتنقسم هذه القبائل إلى طبقتين إحداهما طبقة المرتزقة وهم الذين يتقاضون راتباً شهرياً لقاء التحاقهم بالجيش ويقيمون عادة بمراكش، وطبقة العموم وهم الذين يدعون للقتال عند النفير العام[3].

2. **العرب**:

كان الخليفة عبد المؤمن بن علي أول من جلب العرب من إفريقية إلى المغرب الأقصى واستعان بهم في حروب الأندلس، وبعد وفاة عبد المؤمن حرص الخليفة أبو يعقوب بالمضي على سياسة والده التي ترمي إلى اصطناع العرب عند كل حركة جهاد[4]، فعندما توجه السيد أبو حفص سنة 560ه/1165م لقتال ابن مردنيش في شرق الأندلس خرجت معه من مراكش جموع غفيرة من العرب الرياحيين والزغبيين والاثبجيين، وخاضوا إلى جانبه ضد ابن مردنيش معركة فحص الجلاب، وكان لثباتهم في ساحة المعركة عظيم الأثر في تحقيق النصر، ويكفي للدلالة على دور العرب في هذه المعركة استشهاد سبعة من شيوخ العرب فيها[5].

---

(1): ابن القطان، نظم الجمان، ص146؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ9، ص199.

(2): المراكشي، المعجب، ص245؛ العبادي، صور من حياة الحرب، ص159.

(3): حركات، المغرب عبر التاريخ، جــ1، ص326.

(4): كلاس، الجيش عند الموحدين، ص203.

(5): البيذق، أخبار المهدي، ص88؛ ابن خلدون، العبر، جــ6، ص320؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص86-87.

ولما عزم الخليفة أبو يعقوب سنة 566هـ/1171م على الغزو في الأندلس، استدعى العرب من إفريقية وخاطبهم بقصيدة من قول ابن طفيل يحرضهم فيها إلى الجهاد ويستدعيهم إلى العروة الوثقى، ومما جاء فيها:

أقيموا صدور الخليل نحو المغارب   لغزو الأعادي واقتناء الرغائب

ألا فابعثوها همة عربية   تحف باطراف القنى والقواضب

فقوموا بما قامت اوائلكم به   ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب

ومن ذا الذي يسمو ليبلغ شاؤكم   إذا كنتم فوق النجوم الثواقب[1]

فاستجابت له القبائل العربية في إفريقية والزاب والقيروان، وتقاطروا في الوفود عليه، فكان عدد الواصلين من إفريقية أربعة آلاف فارس، ومن تلمسان ونظرها ألف فارس[2]، ويصف ابن خلدون قدومهم على الخليفة في مراكش بقوله: " كان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً "[3]، ونهض بهم الخليفة إلى الأندلس ووقفوا إلى جانبه في غزوته.

ويذكر ابن أبي زرع أنه في سنة 577هـ/1181م وفد على الخليفة أبي يعقوب بمراكش أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة[4]، ثم لما اعتزم الخليفة أبو يعقوب معاودة الجهاد في الأندلس سنة 579هـ/1183م، ونهض إلى مدينة سلا، وفد عليه بها محمد بن أبي اسحاق بن جامع قادماً من إفريقية بحشود العرب[5]، ويذكر ابن عذاري أن العرب " اشترطوا على أنفسهم أن يحضروا لهذه الغزوة في مائة وثلاثين ألفاً بين فارس وراجل "[6].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص115.

(2): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص419.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص213.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص158.

3. **الأندلسيون:**

اعتمد الموحدون على قوات الأندلس اعتماداً كبيراً في معارك الجهاد بالأندلس، فشاركوا بجميع الغزوات والحروب التي قامت بها الجيوش الموحدية ضد ابن مردنيش والممالك الاسبانية (ليون وقشتالة وأرغون والبرتغال)، وقد تميزت هذه القوات بقوتها وشجاعتها القتالية وخبرتها الكبيرة في قتال الممالك الاسبانية(1)، وحرص الموحدون على ترك قيادة الفرق الأندلسية أثناء المعارك إلى قائد أندلسي مقرب منهم، ففي غزوة وبذة سنة 567هـ/1172م تولى قيادة صفوفه أبو العلاء بن عزرون(2).

وشكل الموحدون من الجند الأندلسيين فرقاً عسكرية متنقلة على شكل حملات عسكرية سواء لحماية المدن الأندلسية أو غزو الممالك الاسبانية، ففي عام 568هـ/1172م خرجت قوة من إشبيلية مؤلفة من أربعة آلاف فارس من الموحدين والأجناد الأندلسيين والعرب وأغاروا على مدينة طلبيرة وأحوازها وغنموا من سائمة البقر والغنم أكثر من ثلاثين ألفاً، وعادوا سالمين غانمين(3).

ويؤكد ما كان عليه أهل الأندلس من اهبة دائمة للالتحاق بالجيوش الموحدية القادمة للأندلس ما ظهر منهم من تسابق في الالتحاق بجيش الخليفة أبو يعقوب أثناء مسيرة لغزوة شنترين سنة 580هـ/1184م، إذ يذكر ابن عذاري أنه لما كان اليوم الثاني من نزول الخليفة بإشبيلية تلاحقت عساكر أهل الأندلس من أقطارهم وأمصارهم للانضمام لعسكر الخليفة واستمر تلاحقهم بالجيش من كل أفق حتى وصوله مدينة بطليوس وقد تزينوا جميعهم بأحسن الزي(4).

وإلى جانب التحاق الأندلسيين بالجيوش الموحدية في الأندلس، تطوع عدد كبير منهم كجنود مرتزقة في الجيش الموحدي بالمغرب، وكان مقرهم العاصمة

---

(1): كلاس، الجيش عند الموحدين، ص205.

(2): زغروت، الجيوش الإسلامية، ص119.

(3): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص525-526.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص159-160.

مراكش[1]، ويؤكد ذلك ابن صاحب الصلاة إذ يذكر أنه في سنة 565هـ/1169م خرج السيد أبو حفص على رأس جيش موحدي من مراكش لغزو ابن مردنيش في عقر داره واختص للسير معه " أشياخاً فرساناً أبطالاً من الأجناد الأندلسيين بحضرة مراكش من أهل الأندلس، انتخبهم واستصحبهم مع نفسه لمعرفتهم بالأندلس وحروبها"[2].

4. الغز أو الأغزاز:

هم جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين، وقد عرفهم العرب منذ حركة الفتوح الإسلامية الأولى حيث دخلوا بلاد المسلمين اسارى ومماليك ثم لم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكرية[3]. وكان أول دخولهم إلى بلاد المغرب سنة 568هـ/1172م عندما خرجت طائفة منهم من مصر بقيادة قراقوش التقوي مملوك تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الأيوبي، واستولوا على طرابلس[4]، ثم أن قراقوش لم يلبث أن تحالف مع عرب بني هلال ضد الموحدين[5]، ولم يأت أواخر عام 574هـ/1179م إلا وكان قراقوش وجمعه من الغز على أعتاب مدينة قفصة في إفريقية، وقد نجح الموحدون في مصانعة بعضهم وأدخلوهم إلى الخدمة في جيشهم، ويشير المراكشي إلى دخول الغز في طاعة الموحدين بقوله " وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب أول من

(1): العبادي، صور من حياة الحرب، ص163.

(2): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص399-400.

(3): إلياس، أسرة بني غانية، ص97؛ حسن، علي حسن: دراسات في تاريخ المغرب العربي، مكتبة الشباب، القاهرة (د.ت)، ص264. سيشار إليه فيما بعد: حسن، دراسات في تاريخ المغرب؛ العبادي، صور من حياة الحرب، ص164-165.

(4): التجاني، رحلة التجاني، ص111-112؛ النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص325؛ ابن غلبون، التذكار، ص59.

(5): خلف الله، العلاقات، ص148.

وردها من الغز، وذلك في آخر سنة 574ه وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبي يوسف"[1].

ونظراً لما عرف به الغز من شدة بأسهم في القتال، استعان بهم الموحدين في حروبهم[2]، إذ يلاحظ أنه كان لهم حضورهم في غزوة شنترين سنة 580ه/1184م، وهذا ما أشار إليه السلاوي عند حديثه عن جواز الجيوش الموحدية من سبتة إلى الأندلس، حيث قال " فجازت قبائل العرب أولاً ثم قبائل زناتة ثم المصامدة وأصناف البربر ثم عبرت جيوش الموحدين والأغزاز "[3].

5. العبيد:

تكون العبيد في دولة الخليفة أبي يعقوب من ثلاثة عناصر، هي عبيد السودان والأسرى من المرابطين والروم، أما عبيد السودان فهم الذين كان يؤتى بهم من السودان عن طريق زويلة والبلاد الغربية ويوزعون بعد ذلك في كل بلاد المغرب[4]. أما الأسرى من المرابطين فهم الذين أطلق عليهم البيذق اسم " عبيد المخزن " وضموا قبائل لمطة وجزولة وغيرها من قوات المرابطين التي استسلمت للموحدين، وقد ألحقهم الخلفاء الموحدون في الجيش وخدمة حراسة الخليفة[5]. أما الروم فقد كان وجودهم في الجيوش الإسلامية منذ زمن المرابطين، إلا أن أعدادهم زادت زمن الموحدين؛ لكثرة حروبهم مع الممالك الاسبانية حيث إنهم كانوا يهجرون بلادهم؛ ليعملوا جنداً بالأجر في خدمة المسلمين[6]، ولعبوا دوراً فاعلاً في الجيش والسياسة حتى ظهر منهم القادة العظام مثال ذلك أبو الحسن علي ابن الربرتير الذي

---

(1): المراكشي، المعجب، ص188.

(2): حسن، دراسات في تاريخ المغرب، ص264.

(3): السلاوي، الاستقصا، جــ1، ص282.

(4): موسى، النشاط الاقتصادي، ص117؛ نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي، ص60-61.

(5): البيذق، المقتبس، ص57؛ كلاس، الجيش عند الموحدين، ص209.

(6): زغروت، الجيوش الإسلامية، ص115؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص118-120؛ مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج2، جــ1، ص202.

أوكل إليه الخليفة أبي يعقوب مهمة اختبار طاعة بني غانية في الجزائر الشرقية سنة 579هـ/1183م[1].

ومن هؤلاء العبيد اختار الخلفاء الموحدون حراسهم الشخصيين، فكانوا في الحروب والمعارك ينزلون لنزول الخليفة ويرحلوا لرحيله، ويذكر المستشرق الفرنسي جوليان أنه " كان لحرس الخليفة منهم شأن كبير إذ وجب على الأوفياء منهم الذين اختيروا لحراسة سرادق الخليفة أن يموتوا دونه حتى لا يدخله أحد "[2]، ويشير ابن أبي زرع لدور العبيد في غزوة شنترين، فيذكر أنهم ظلوا ملازمين للخليفة " حتى طعن ووقع بالأرض، فتصايح الناس والعبيد وتراجع المسلمون، فقاتلوهم عليه حتى أقلعوهم عن الخباء بالسيف "[3].

6. المطوعة (العموم):

هم الذين يدعون إلى التطوع للجهاد في سبيل الله دون تكليف عندما تنشب حرب مع العدو وخاصة مع الممالك الاسبانية في الأندلس[4]، ولم تكن تفرض لهم أرزاق ثابتة وإنما يعتمدون على الغنائم والهبات والإكراميات[5]، وهذا ما جعل المصادر تغفل الاشارة إلى أعدادهم، يقول ابن عذاري واصفاً موكب الخليفة عند اقلاعه من مراكش في غزوته الأولى للأندلس سنة 566هـ/1171م " فسار على أحسن هيئة وتعبئة والعساكر وراءه قد ملأوا الأرض بالطول والعرض حتى وصل رباط الفتح فميز بها العساكر والجيوش فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس دون المطوعة والناس "[6].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص175.

(2): جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص162.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص215.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ2، ص244؛ كلاس، الجيش عند الموحدين، ص209.

(5): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص155؛ نجار، المغرب والأندلس، ص368.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص118.

2.1.5.4 **طبقات ورتب الجيش**:

بالرغم من ضخامة الجيش الموحدي في دولة الخليفة أبي يعقوب إلا أنه كان حسن النظام والترتيب، فكان لكل فئة منه رتبة ومهام ومنزل لا يتعداها غيرهم، وتشكلت طبقات ورتب الجيش من سبع درجات حددها القلقشندي في الآتي:

1. الأشياخ الكبار من الموحدين: وهم بقايا أتباع المهدي بن تومرت.
2. الأشياخ الصغار: وهم يأتون بعد الأشياخ الكبار في الرتبة.
3. الوقافون: وهم الحرس من خاصة الخليفة يسكنون معه في قصره، ويقفون بين يديه في أوقات جلوسة إذا جلس في الناس.
4. عامة الجند من قبائل المغرب.
5. الجند من قبائل العرب.
6. الصبيان: هم جماعة من الشباب الذين يعملون في خدمة الخليفة.
7. الجند من الإفرنج: ويعبر عنهم أحياناً بالعلوج أو الروم، وهم من خاصة الخليفة الذين لا يطمئن إلا إليهم(1).

3.1.5.4 **قيادة الجيش**:

حرص الخليفة أبو يعقوب على قيادة جيشه بنفسه في غالبية المعارك والحملات الكبرى التي خاضتها أو وجهتها الدولة ضد أعدائها سواء في المغرب أو الأندلس، ففي المغرب نجده يخرج بنفسه على رأس الجيش الذي توجه للقضاء على ثورات المتمردين فيها والمتمثلة في ثورة سبع بن منغفاد سنة 562ه/1167م(2)، وثورة صنهاجة القبلة سنة 572ه/1176م(3)، وثورة ابن الرند في قفصة سنة 575ه/1180م(4)، وتمرد قبيلة هرغة سنة 578ه/1182م(5).

---

(1): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص138.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277.

(3): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص130.

(4): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص325-326.

(5): الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص363.

أما في الأندلس خرج الخليفة في عام 566هـ/1171م على رأس حملة ضخمة من المغرب برسم الجهاد ضد الممالك الاسبانية في الأندلس، أسفرت عن الإطاحة بنظام ابن مردنيش في شرق الأندلس وتحقيق وحدة البلاد الإسلامية في الأندلس، كما تخللها غزوة قادها الخليفة ضد مملكة قشتالة سنة 567هـ/1172م، هدف منها الاستيلاء على مدينة وبذة، إلا أنه لم ينجح في تحقيق مراده لحصانة المدينة واستبسال أهلها في الدفاع عنها[1]. وفي عام 580هـ/1184م عاد الخليفة مرة أخرى ليقود حملة جديدة للجهاد في الأندلس وتوجهت الحملة هذه المرة صوب مملكة البرتغال التي كانت قد أرهقت البلاد الإسلامية في غرب الأندلس بكثرة هجماتها، وسعى الخليفة منها إلى فتح مدينة شنترين التي كانت منطلق غارات البرتغاليين على المدن الإسلامية، غير أن الخليفة لم يوفق في مسعاه حيث سقط شهيداً تحت أسوار مدينة شنترين[2].

ويلاحظ أن حرص الخليفة أبو يعقوب على قيادة جيوشه بنفسه كان عاملاً في رفع الروح المعنوية لدى جنده ودفعهم إلى التفاني في البذل والعطاء، وقد أحسن أبو يعقوب استغلال هذا الأمر في كسبه لكثير من المعارك التي خاضها وخاصة ضد الثائرين على دولته في المغرب والأندلس.

وإلى جانب الخليفة نجد أن هناك مساهمة من الأخوة السادة في قيادة بعض الجيوش الموحدية، فقد تولى السيد أبو حفص عمر قيادة الجيش الموحدي في معركة فحص الجلاب ضد ابن مردنيش سنة 560هـ/1165م والتي انتهت بنصر مؤزر للموحدين[3]، كما قاد السيد أبو حفص بتكليف من أخيه الخليفة أبو يعقوب حملة السبطاط ضد مملكة ليون سنة 570هـ/1174م وقد نجح في التوغل بأراضي مملكة ليون والاستيلاء على عدد من الحصون الحدودية[4]. ولم يكن السيد أبو حفص

---

(1): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص165-166.

(2): مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص221-222؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص117.

(3): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص260.

(4): سمور، العلاقات الحربية، ص124-125.

الوحيد الذي استعان به الخليفة أبو يعقوب في قيادة الجيش، ففي عام 568ﻫ/1173م جهز الخليفة جيشاً لمطاردة القومس الأحدب الذي اعتدى على بلاد المسلمين في الأندلس وجعل على قيادته أخويه السيدين أبو زكريا يحيى وأبو إبراهيم اسماعيل، وقد نجحا في الحاق هزيمة نكراء بالقومس قرب كركوى قتل فيه القومس الأحدب نفسه[1].

كذلك ناب بعض الأشياخ والحفاظ من الموحدين عن الخليفة في قيادة الجيش أحياناً، وبرز من هؤلاء الشيخ أبو عبدالله بن أبي إبراهيم وهو ابن الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل يسلالي الهزرجي أحد أصحاب المهدي العشرة، الذي تمكن من الحاق أكثر من هزيمة بابن مردنيش وحلفائة الاسبان أثناء ولايته على غرناطة[2]، ومن القادة الأشياخ أيضاً أبو عبدالله محمد بن وانودين الذي حشد الحشود والأجناد سنة 578ﻫ/1182م وخرج غازياً من إشبيلية فحاصر مدينة طلبيرة ثم اصطدم مع القشتاليين في معركة عنيفة أسفرت عن انهزام القشتاليين بعد أن قتل منهم أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل[3].

4.1.5.4 **الراية:**

اتخذ الموحدون منذ عهد المهدي بن تومرت الراية البيضاء شعاراً لهم، وقد كتب على أحد وجهيها " الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله "، وفي الوجه الثاني " وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله "[4]. وظلت هذه الراية التي عرفت بالراية المنصورية بعباراتها التأليهية والمهدوية هي راية وشعار الموحدين، وإلى جانب هذه الراية اتخذ الخلفاء الموحدون أعلاماً أخرى ملونة، فقد اتخذ الخليفة أبو يعقوب أربع رايات تنسج على هيئة واحدة من الحرير ذات ألوان مميزة هي: الأحمر والأصفر والأبيض، وكانت أصغر حجماً من الراية

---

(1): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص518-520.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص20-23.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص149-150.

(4): ابن القطان، نظم الجمان، ص168.

البيضاء المنصورية، فإذا تحرك الخليفة للغزو تتقدم موكبه الراية البيضاء ثم يأتي بعدها الرايات الأربع الصغار مع المصحف العثماني وقد جعلت كل راية في ركن من أركان تابوت المصحف العثماني[1].

5.1.5.4 تمييز الجيش ومسيره:

حرص الخليفة أبو يعقوب يوسف على تخصيص أيام معلومة قبل أن يشرع في المسير للغزو، يقوم فيها بتمييز جنده، وتشمل عملية التمييز على العديد من الفعاليات، فهي تبدأ أولاً باستعراض للقبائل المتقدمة للغزو باسلحتها سواء من الموحدين أو العرب، حيث يتم تحديد يوم معين للاستعراض وعندما يأتي هذا اليوم يتم تجميع الطلبة والحفاظ وسائر الجند عند باب السدة أحد أبواب مراكش، وتنظم صفوفهم قبيلاً قبيلاً وتوزع الأسلحة عليهم والقبول تتقدمهم، وعندما تكتمل صفوف الجند يخرج الخليفة ممتطياً صهوة فرسه الأشقر وإلى جانبه وزيره سائر على قدميه، ويسير خلفه أخوته ومن ورائهم أكابر الدولة يحمل كل منهم عملاً، ثم يتبعهم سائر الجند، فإذا وصلوا إلى البسيط الشاسع المخصص للاستعراض والمسمى " البحيرة " خارج مراكش، ضربت قبة الخليفة، ونزل بها مع أخوته وبنيه، ثم يتم تقسيم الجند إلى فريقين ويأمر الخليفة أن يحمل كل منهما على الآخر حملة مبارزة ورياضة، والطبول تقرع وكأنه أجواء الحرب حتى يأمر الخليفة بانتهاء العرض[2].

وإذا انتهت المرحلة الأولى من التمييز وقد اطمأن الخليفة على حسن التنظيم والانسجام للجند تأتي المرحلة الثانية من التمييز وهي تدوين وتدقيق أسماء الجند في سجلات ديوان الجيش (التمييز) وذلك من أجل ضبط عملية دفع الأعطيات والبركة وقد تستمر هذه العملية أياماً عديدة، فقد استمر تمييز – تدقيق وتسجيل - الجند قبيل حملة الأندلس سنة 566هـ/1171م خمسة عشر يوماً للعرب، وخمسة عشر يوماً أخرى للموحدين، وبعد الانتهاء من تدوين أسماء الجند التي ستشارك في الغزو

---

(1): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص438، 445.

(2): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص430-432؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص141-142؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص62-63.

توزع عليهم الخيل والأسلحة من " الرماح والدروع والبيض[1] والسيوف " ثم تصرف إليهم البركة من الدنانير والدراهم كلاً حسب منزله[2].

أما المرحلة الثالثة من التمييز فتكون أثناء المسير للغزو، وبعد أن يكون الجيش قد قطع مسافة مبتعداً عن مراكش، ويكون الهدف منها فقط التأكد من مطابقة الأعداد الموجودة فعلاً لما هي في سجلات ديوان التمييز، فقد جرى التمييز الثالث للجيش المشارك في حملة الخليفة للأندلس سنة 566هـ/1171م في مدينة رباط الفتح (المهدية) التي تبعد عن مراكش مسير سبعة عشر يوماً، يقول ابن صاحب الصلاة " بعد الوصول إلى المهدية أمر - الخليفة – بتمييز العساكر المؤيدة مرة ثانية من التمييز الأول بحضرة مراكش وحضر على تمييز العرب السيد أبو زكريا، وأبو محمد عبدالله المالقي، لمعرفته بهم وبأنسابهم وأمانته وسياسته وزكاته، فكمل تمييزهم على أصح عمل وكذلك تمييز الموحدين، فصح عددهم"[3].

أما الفعالية الرابعة والأخيرة من فعاليات التمييز فتكون قبيل بدء المعركة، وتتمثل بتقسيم الجند حسب أصنافهم وأجناسهم، فتصطف قبائل العرب على حده، وقبائل الموحدين على حده وكذلك العبيد وسائر الجند[4]، ويكون الهدف من عملية التمييز الأخيرة هذه أن يعرف كل قبيل وصنيعه في ساحة المعركة، وهذا ما يدفع بدوره كل صنف من الجند إلى التفاني في القتال لإثبات مقدرته وتفوقه على غيره.

وإذا ما انتقلنا إلى هيئة مسير الجيش إلى دار الحرب، وجدنا أن المصادر قد أطنبت في وصف موكب الخليفة أبي يعقوب عند خروجه للجهاد في الأندلس في

---

(1): البيض: مفردها بيضة، وهي الخوذة التي تستخدم لحماية الرأس وتصنع من الحديد، وتكون مدببه من الأعلى حتى لا تؤثر فيها ضربات السيوف، وقد سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام. ابن منظور، لسان العرب، جـــــ8، 394-396؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص179.

(2): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص434-437.

(3): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص449؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص118.

(4): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص273.

غزوتيه الأولى والثانية، والتي جاء فيها أن المسير يكون بعد صلاة الصبح وبعد أن يقرع الطبل الكبير، ونذكر هنا على سبيل المثال وصف ابن عذاري لموكب الخليفة أبي يعقوب لحظة خروجه من مراكش سنة 579ه/1183م، فيقول: " فصلى أمير المؤمنين صلاة الصبح وقرئ الحزب على العادة واجتمع الناس على ما أمروا ووعدوا وركب أمير المؤمنين على عادة ركوبه من السكينة والوقار، والهيئة له في الإعلان والإسرار ودعا الناس له بالتأييد والنصر على جميع الكفار، وقد تقدم أمامه علمه الأبيض مع الرجالة على العادة من الترتيب ومعه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل أبيض مرتفع وعليه كله قبة حمراء وهو مرصع بنفيس الجوهر والياقوت ويليه مصحف المهدي على بغل وبنوه وأخوته السادات خلفه وعليه رايات مختلفة الألوان وكان خروجه من باب دكالة أحد أبواب مراكش "(1).

وكانت الطبول من الأمور الهامة التي اعتاد الموحدون على اتخاذها أثناء مسير الجيش وأثناء المعركة، فكان موكب الخليفة عند الخروج للغزو لا يتحرك إلا بعد أن يضرب طبل كبير - تبلغ استدارته خمسة عشر ذراعاً - ثلاث ضربات، وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه، فإذا ضربت فيه ثلاث ضربات علم أنه طبل الرحيل، فيرحل الناس(2). ويصور لنا ابن صاحب الصلاة الحال التي يكون عليها الناس عند ضرب الطبل الكبير فيقول " وضرب الطبل الكبير اشعاراً للناس فكأن القيامة قد قامت"(3). وكان ضرب الطبل الكبير يعني دوماً الرحيل أينما كان الجند ولو في ساحة المعركة.

وإلى جانب الطبل الكبير اتخذ الموحدون طبول أخرى أصغر حجماً بلغ عددها في عهد الخليفة أبي يعقوب مائة طبل، وكانت تستخدم لتنظيم مسير الجند سواء أثناء المسير إلى المعركة أو الانسحاب منها، كما أنها تستخدم في إعلان بدء المعركة، حيث قبيل المعركة يصطف الجنود ولا يبدأون الهجوم إلا بعد أن تضرب الطبول المائة ضربة واحدة، ومثال ذلك يذكر ابن صاحب الصلاة أنه في معركة وبذة " أمر

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156-157.

(2): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص152.

(3): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص502-503.

أمير المؤمنين أن لا يدفعوا على النصارى إلا عند ضرب الطبول وحققها وقد صفف منها مائة طبل، فعندما ضربت الطبول، دفعت العساكر فصار النهار ليلاً، وحل بالكافرين ويلاً"[1].

وتمثل خط مسير الجيش الموحدي إلى الأندلس في عهد الخليفة أبو يعقوب بالخروج من باب دكالة أحد أبواب مراكش والسير إلى مدينة رباط الفتح (المهدية) ثم إلى مدينة سلا فمدينة مكناسة ثم يكون المنزل بمدينة فاس، ومنها يتوج إلى مدينة سبتة حيث يجاز منها إما للجزيرة الخضراء وإما لجزيرة طريف إلى أن يصل إلى مدينة إشبيلية قاعدة الموحدين الكبرى في الأندلس[2]. وشكلت هذه المدن التي يمر بها الجيش جميعها مراكز عسكرية مجهزة بكل ما يلزم المقاتلة من تموين وسلاح؛ لإمداد الجيوش الذاهبة والعائدة[3].

6.1.5.4 **التخطيط للقتال**:

مما امتازت به القيادة الموحدية في عهد الخليفة أبي يعقوب تنظيم شؤون الحرب والقتال تنظيماً دقيقاً قبل الدخول في أي معركة من المعارك، فكان الخليفة أو من يتولى قيادة الجيش نيابة عنه سواء من الأخوة السادات أو الأشياخ الموحدين، يقوم بعقد مجلسٍ حربي مع قادة وحدات الجيش المختلفة؛ لبحث وجهة الغزو وخطة المعركة، يتم خلاله الاستماع إلى آراء القادة ونصحهم[4]، فعندما وصل السيد أبو حفص إلى مدينة إشبيلية سنة 565ه /1170م على رأس حملة موحدية برسم الجهاد في الأندلس، عقد مجلساً حربياً حضره عددٌ من أشياخ وزعماء العرب والأندلس، إلى جماعة من كبار الموحدين، وتشاوروا في الرأي إلى أين يكون الغزو ؟!. فتقرر أن يتجه السيد أبو سعيد إلى مدينة بطليوس؛ لتقوية جبهتها الدفاعية قبل كل شيء[5].

---

(1): صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص495.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص64-67، ص114-118.

(3): سمور، العلاقات الحربية، ص74.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص487-488.

(5): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص109.

ولما عاد السيد أبو سعيد إلى إشبيلية وقد وفق في مسعاه، عقد السيد أبو حفص مجلساً حربياً جديداً حضره السيد أبو سعيد والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، واستقر فيه الرأي على غزو ابن مردنيش في عقر داره وتحطيم سلطانه[1].

وعندما توجه الخليفة أبو يعقوب بجموعه الغفيرة للجهاد في الأندلس سنة 579ه /1183م ووصل إلى مدينة سلا، آثر أن يستشير شيوخ الموحدين والعرب وكبار قادته في وجهة الغزوة، فدعاهم للاجتماع وطرح عليهم السؤال التالي: هل تكون الغزوة إلى إفريقية أم إلى الأندلس؟ فجاءت إجابتهم جميعاً " بلسان واحد ليس أملنا إلا غزو الكفار بجزيرة الأندلس"[2] فمشى الخليفة وفق رغبتهم ومشورتهم.

وقد يعقد المجلس الحربي أثناء المعركة لبحث ما يستجد، كما فعل الخليفة أبو يعقوب أثناء حصار مدينة وبذة سنة 567ه/1172م، فعندما خلص لعلمه قدوم مدد عسكري من طليطلة لإنجاد المدينة المحاصرة، عقد مجلساً حربياً في خيمته استدعى إليه سائر الأشياخ من الموحدين والعرب وتقرر فيه رفع الحصار، وحرق البرح وسائر الآلات التي صنعت معه لقتال النصارى[3].

لكن مما يلاحظ على الحملات العسكرية التي قادها الخليفة بنفسه وخاصة في الأندلس والمتمثلة في غزوة وبذة سنة 567ه/1172م وغزوة شنترين سنة 580ه/1184م أن الخليفة استأثر برأيه فيما يتعلق بتسيير المعركة، وضرب بآراء القادة والأشياخ من العرب والموحدين والأندلسيين عرض الحائط، فنجده في غزوة وبذة يرفض تسلم المدينة بالأمان مما ضيع على المسلمين فرصة امتلاك المدينة دون قتال[4]، وفي غزوة شنترين نجده يصر على رأيه في تحريك الجيش الموحدي من شرق الأندلس إلى شماليها وغربها، بالرغم من اعتراض أعضاء المجلس الحربي من كبار القادة ذوي الخبرة على ذلك الإجراء؛ لأنه يعرض الجيش لخطر

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص46.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص157.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص502.

(4): الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص120.

التطويق من جانب القوات البرتغالية[1]. وقد أدى عدم استماع الخليفة لآراء أعضاء المجلس الحربي في كلا الغزوتين إلى هزيمة القوات الموحدية وحلول الكارثة في شنترين التي أودت بحياة الخليفة.

أما عن الخطط العسكرية عند المواجهة المباشرة للعدو في ساحة المعركة، فقد كانت على أساس نظام التربيع وهو ذاته الأسلوب الذي اتبعه الخليفة عبد المؤمن في حربه مع المرابطين، ويقوم على صناعة دائرة مربعة في البسيط، يحيط بها من جهاتها الأربع صفوف من الجند بأيديهم الرماح الطوال، ومن ورائهم صفٌ ثانٍ من الجند يحملون الدرق والحراب، ووراءهم صفٌ ثالثٌ وهم رماة السهام والحجارة، وفي وسط المربعة الفرسان، فإذا هجمت عليهم خيل العدو وجدت نفسها قد دخلت غابة من الرماح الطويلة، وهذا ما يدفعها للانسحاب السريع، فإذا ما انسحبت لحق بها فرسان الموحدين من طرق تركوها في جميع جوانب المربع تفتح وتغلق بشكل سريع دون أن تخل بنظام المربع[2].

وظهر هذا الأسلوب من القتال واضحاً في معركة فحص الجلاب حيث قسم السيد أبو حفص الجيش إلى صفوف على شكل مربع بحسب قبائل وأجناس الجند، فكلما هاجم ابن مردنيش تنظيم الموحدين وجد نفسه بين غابة من الرماح وهذا ما كان يجعله ينسحب سريعاً وبعد ثلاث غارات متتالية له على معسكر الموحدين أدرك صعوبة اختراقه فأعلن انسحابه وانكساره[3].

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص323-324.

(2): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص132؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ2، ص245؛ سمور، العلاقات الحربية، ص70.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص273-274.

7.1.5.4 السلاح والتموين:

تسلح المشاة في الجيش الموحدي بنوعين من الأسلحة هما: الخفيفة والثقيلة، أما الأسلحة الخفيفة فتمثلت بالسيوف والرماح الطوال والسهام والقسي والحراب[1]، أما الأسلحة الثقلية فلعل أهمها المنجنيق وأبراج وسلالم الحصار، فقد استخدم الخليفة أبو يعقوب المنجنيق في حصار مدينة قفصة سنة 576ه/1180م[2]، يقول ابن عذاري: " ولم يزل – الخليفة أبو يعقوب – يقاتلهم بالمنجنيق وغيره إلى أن رغبوا في العفو فاعفوا "[3]، وعندما أخذ الخليفة أبو يعقوب يتجهز لغزوة شنترين سنة 579ه/1183م، أمر بصنع عشرة مجانيق فصنعت وجربت أمامه[4].

أما السلالم وأبراج الحصار فقد عني الموحدون باستخدامها في حصار مدينتي وبذة وشنترين، فعندما لاحظ الخليفة أبو يعقوب خلال حصاره لمدينة وبذة حصانة أسوارها أمر بصناعة " آلات من الخشب عن سلالم وأبراج لقتال الكفرة في جوانب مدينتهم "[5].

وكانت الأسلحة الدفاعية تتألف من التروس والدروع والبيضات والدرق، وعلى عاتق الدولة يقع تأمين الأسلحة للجيش بنوعيها الخفيفة والثقيلة، فعندما شرع الخليفة أبو يعقوب في تمييز الجند استعداداً للجهاد في الأندلس سنة 566ه/1170م " أعطى للجميع الرماح والدروع والبيض والسيوف والقنا (الرماح الطوال) "[6]، وعندما

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص160؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص437؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص162.

(2): حسين، مدينة قفصة، ص196.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص141.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص155.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص498.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص437.

وصلت حملة شنترين سنة 580هـ/1184م بالقرب من مدينة بطليوس قام الخليفة بتوزيع " السيوف الهندية والدرق اللمطية[1] والقسي الخطية " على جميع الجند[2].

واستخدم الموحدون الخيول في القتال وخاصة لطبقة الفرسان، واعتمدوا على الإبل في حمل الأمتعة والأثقال[3].

وفيما يتعلق بالتموين، نجد أن الدولة قد اهتمت بتوفير الأقوات للجند والعلوفات للدواب، وكانت توزع عليهم على دفعات منذ الخروج من العاصمة وخلال أيام القتال وفي طريق العودة، فقد وزّع الخليفة أبو يعقوب المؤن على الجيش مرتين خلال مسيره فيما بين مراكش ورباط الفتح التي استغرق الوصول إليها سبعة عشر يوماً، وهو في طريقه للجهاد في الأندلس سنة 566هـ/1170م، وتمثل التموين غالباً ب " الشعير للعلف والدقيق واللحم للزاد لجميع العساكر "[4].

ولم يقتصر اهتمام الخليفة أبي يعقوب على توفير المؤن والأقوات لجنده الغازين فقط، بل كان يصدر أوامره للعمال والولاة التي سيمر الجيش بمدنهم بالاستعداد لاستقبال الجيش وتهيئة السبل لذلك من مسكن وطعام، فعندما نزل الخليفة في مدينة فاس وقد عزم الجواز للأندلس سنة 580هـ/1184م " كتب إلى من بالأندلس من الولاة أن يكونوا على هيئة للجهاد وأن يستعدوا لهذا الجمع الحفيل غاية الاستعداد"[5].

---

(1): الدرق اللمطية: تصنع من جلود الخيل التي تعيش في صحراء اللمط الواقعة بين جبل لمتونة وبلاد السودان. انظر: ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان قرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان 1958م، ص46. سيشار إليه فيما بعد: ابن سعيد، بسط الأرض.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص160.

(3): العبادي، صور من حياة الحرب، ص200.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص444.

(5): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص159.

ولما وصل الخليفة إلى إشبيلية في غزوته الأولى اشترى مائة دار من ماله الخاص لمن وفد معه، رفقاً بأهل إشبيلية، كما قسم الموحدين على البلاد والأنظار بالسكن طيلة مدة إقامته بالأندلس إلى أن انصرف عنها سنة 571هـ/1175م[1].

كذلك اصطحبت الحملات الموحدية مجموعة من الأسواق التي كانت تعرض بضائعها بالقرب من معسكرات الجند، حيث كان الجندي يقوم بالشراء والتزود منها بكل ما يحتاج إليه[2]، ونلاحظ أن الأسعار في مثل هذه الأسواق كانت تتأثر بحال سير المعركة سلباً وايجاباً، ففي غزوة وبذة نجد أن الأسعار قد وصلت إلى مستويات متدنية في بداية الحصار وهي اللحظات التي أعقبت استيلاء الموحدين على الربض الخارجي للمدينة حتى بيع الشعير مدان ونصف بدرهم، والقمح خمسة أمداد بدرهم، غير أنه لما طالت مدة الحصار وأخذت كفة المعركة تميل لصالح النصارى، انعدمت العلوفات والأقوات من معسكر الموحدين وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، فوصل سعر المد الواحد من الشعير ثلاثة دراهم، وكذلك بالنسبة للقمح[3].

2.5.4 **الأسطول**:

اهتمت الدولة الموحدية منذ بداية تأسيسها بالأساطيل البحرية، حيث فرض عليها موقعها المطل على شواطئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي إيلاء عنايتها الكبيرة بالبحرية للمحافظة على أمنها وسيادتها.

وقد ورث الموحدون سائر الأسطول المرابطي بعدته ورجاله الأكفاء، كما انهم استفادوا من دور الإنشاء الأندلسية التي ورثوها عن المرابطين[4]. ومما يذكر عن الخليفة عبد المؤمن بن علي أنه أمر في سنة 577هـ/1161م بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاده، حيث كان قد عزم على غزو بلاد النصارى في البر والبحر،

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص452.

(2): سمور، العلاقات الحربية، ص72؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص150.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص498، 510.

(4): موسى، النشاط الاقتصادي، ص233؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص291؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص202.

فانشأ منها أربعمائة قطعة، منها في حلق المعمورة[1] ومرساها مئة وعشرون قطعة، وفي طنجة وسبتة ومراسي الريف مئة قطعة، وببلاد إفريقية ووهران مئة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة[2].

لكن الخليفة عبد المؤمن لم يلبث أن توفي سنة 558هـ/1162م، فورث ابنه أبو يعقوب يوسف ثمرة جهده، فأصبح يملك أسطولاً عدّ من حيث القوة والكثرة الأول في تاريخ المسلمين على الإطلاق وذلك بشهادة ابن خلدون الذي يقول: " ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلي أصله من صدغيان[3] الموطنين بجزيرة جربة.. أسره النصارى من سواحلها وربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه، ثم هلك وولى ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه، ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن، وأجاز مراكش، فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة، وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله، فجلّى في جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين، وانتهت أساطيل المسلمين في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه "[4].

ونستطيع حصر دور ومهام الأسطول في دولة الخليفة أبي يعقوب في ثلاثة أوجه، أولها نقل وتأمين عبور القوات الموحدية من العدوة إلى بلاد الأندلس، ففي عام 566هـ/1171م ساهم الأسطول في نقل حوالي مائة ألف مقاتل في غضون

---

(1): حلق المعمورة: يقصد بها مدينة المهدية، وهي تقع عند مصب نهر سبو. انظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص202.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص201.

(3): صدغيان: هي ناحية من أشهر نواحي الأباضية بجزيرة جربة، وهذا ما يدل دلالة واضحة على أن أحمد الصقلي كان أباضياً. انظر: يوسف، سليمان داود: حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر 1993م، ص44. سيشار إليه فيما بعد: يوسف، حلقات من تاريخ المغرب.

(4): ابن خلدون، المقدمة، ص255؛ العبادي، دراسات، ص246.

أسبوعين[1]، وثانياً الدفاع عن سواحل شمال افريقيا وجنوب غرب الأندلس وشرقيها وحمايتها من تهديد الأساطيل البرتغالية والأرغونية والنورمانية. وثالثاً شن الغارات على سواحل البرتغال ومملكة أرغون، ويظهر هذا الدور جلياً في الهجمات التي قادها أمير البحر غانم ابن مردنيش والقائد عبدالله بن جامع.

ففي عام 575هـ/1179م ولّى الخليفة أبو يعقوب غانم بن مردنيش قيادة أسطول سبتة فتوجه غانم غازياً إلى مدينة لشبونة وتغلب على سفينتين للبرتغال وعاد بهما إلى سبتة، وفي العام التالي عاد غانم وبصحبته أخوه أبو العلاء للإغارة مرة أخرى على سواحل البرتغال بتوجيه من الخليفة، فنزل في ميناء سان مارتن دي بورتو ثم توغل داخل الأراضي البرتغالية، غير أن أمير البحر البرتغالي فواس روبينو (Fuas Roupinho) أعد كميناً للغزاة المسلمين في جبال منديجا بمساعدة أهالي شنترين، وألحقوا الهزيمة بالقوات الإسلامية ووقع القائد غانم بن مردنيش وأخيه في الأسر، وقد أغضبت هذه الهزيمة الخليفة أبو يعقوب فعين لقيادة الأسطول عبدالله بن جامع وكلفه بالسير لمجاهدة البرتغاليين، فخرج ابن جامع من سبتة سنة 577هـ/1181م، كما خرج من إشبيلية قائد الأسطول الأندلسي أبو العباس أحمد الصقلي بأسطولها أيضاً، واجتمعوا عند ثغر جزيرة قادس وقد استكملوا أربعين سفينة، ثم نهضوا تجاه سواحل البحر؛ ليلتقوا بالأسطول البرتغالي على غير ميعاد في نفس المكان الذي أسر فيه غانم بن مردنيش، وقد نصر الله المسلمين في هذا اليوم نصراً مبرراً، وقتل من النصارى وأسر نحو الألف والثمانمائة، وأعقب هذه المعركة فك أسر غانم بن مردنيش وأخيه أبو العلاء من خلال تبادل للأسرى[2].

وفي عام 578هـ/1182م نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلانيين

(1): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص278؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص67.

(2): العبادي، دراسات، ص350-352؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص99-101؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص136-138.

على مقربة من برشلونة، أحرز فيها الأسطول الموحدي كثيراً من ضروب التفوق[1].

ولما عزم الخليفة أبو يعقوب على غزوة شنترين، أعد أسطولاً ضخماً من سفن القتال ومراكب النقل؛ لشحن آلات الحصار وندب لقيادة الأسطول أبو العباس الصقلي، فسار الأسطول بحراً نحو لشبونة تزامناً مع سير الحملة البرية نحو شنترين، ونجح في ضرب حصار بحري عليها لكن فشل الحملة البرية وانسحابها دفع بالأسطول هو الآخر للانسحاب دون تحقيق أي نتائج ذات شأن[2].

ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى أبرز أنواع السفن الحربية التي تألف منها الأسطول الموحدي في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، التي هي في الواقع نفس أنواع السفن التي عرفت في العصر المرابطي وطوال العصر الموحدي، وهي:

1. **الشيني**: جمعها الشواني، وهي السفينة الحربية الكبيرة المزودة بأبراج وقلاع، وتستعمل للدفاع والهجوم، وتتكون في العادة من عدة طبقات مربعة كالقلعة، ويتراوح ما تستطيع أن تحمله من الجنود ما بين 150-200 جندي[3].
2. **الطرادة**: وجمعها الطرادات، وهي سفينة صغيرة سريعة أطلق عليها الأسبان اسم(Tarida)[4].
3. **الغراب**: وجمعها الأغربة، وهذا النوع من السفن كان هو المفضل للخليفة أبي يعقوب وأخيه السيد أبو حفص عمر عند الجواز من وإلى الأندلس[5]، وسميت

---

(1): أشباخ، تاريخ الأندلس، جــ2، ص247؛ العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص263-264.

(2): العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص269؛ السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص60.

(3): النخيلي، درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ط2، دار المعارف، 1979م، ص83-84. سيشار إليه فيما بعد: النخيلي، السفن الإسلامية؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص204.

(4): العبادي، دراسات، ص347.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص252؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص135.

بهذا الاسم؛ لأن مقدمتها تشبه رأس الغراب، وهي من السفن الحربية الشديدة البأس كانت تستعمل في الغارة والغزو[1].

4. **الحراقة**: وجمعها الحراقات، وهي مراكب حربية كبيرة، مزودة بالمجانيق وكانت تستعمل لقذف النفط المشتعل على الأعداء[2].
5. **القرقورة**: وجمعها القراقير، وهي سفينة عظيمة الحجم، اختصت بحمل المؤن والامدادات العسكرية، واسمها مأخوذ من الأصل الأسباني (كاراكا)[3].
6. **الشلندي**: وجمعها الشلنديات، وهي نوع من المراكب الحربية المسطحة تستخدم لحمل المقاتلين والسلاح، والبضائع أحياناً[4].
7. **الشيطي**: وهي سفينة بثمانية مجاديف، تستعمل في العمليات الاستطلاعية وكشف الموانئ[5].
8. **القوارب**: وهي سفن صغيرة الحجم، تتحرك بالمجاديف، وتستعمل لربط الصلة بين الشاطئ والسفن الكبيرة[6]، أو لاجتياز الأنهار، فقد حمل السيد أبو الحسن في في غزوته لمدينة طلبيرة سنة 572ه/1177م قارب على الأكتاف من إشبيلية لاجتياز نهر التاجة[7].

---

(1): النخيلي، السفن الإسلامية، ص104-107؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص299-300.

(2): زغروت، الجيوش الإسلامية، ص300؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص204.

(3): زغروت، الجيوش الإسلامية، ص300؛ العدوي، إبراهيم: الأساطيل العربية في البحر المتوسط، مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1957م، ص154. سيشار إليه فيما بعد: العدوي، الأساطيل العربية.

(4): النخيلي، السفن الإسلامية، ص78-81؛ العدوي، الأساطيل العربية، ص155؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص204-205.

(5): العدوي، الأساطيل العربية، ص153.

(6): الزغول، الحرف والصناعات، ص206.

(7): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص138.

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عهد الخليفة أبي يعقوب

1.5 الحياة الاجتماعية:

1.1.5 السكان وعناصر المجتمع:

ضمت الدولة الموحدية بين جنباتها عناصر متعددة من السكان، فكان هناك قبائل البربر السكان الأصليين لبلاد المغرب والذين مثلوا السواد الأعظم من السكان، وهناك قبائل العرب الذين انضافوا إلى المجتمع الموحدي على فترات متباينة، فتركوا لهم بصمات واضحة على مسرح الأحداث، وإلى جانب البربر والعرب هناك عناصر أخرى من الأندلسيين والعبيد والأغزاز وأهل الذمة من اليهود والنصارى. ومن المفيد أن نستعرض هنا كل عنصر من هذه العناصر، ونبين الدور الذي قامت به في المجتمع الموحدي.

1.1.1.5 البربر:

يعد البربر من أمم العالم القديمة التي عاصرت العرب والفرس واليونان والروم، وهم عند النسابة سواء من العرب أو البربر ينقسموا إلى نوعين: البربر البتر وعرفوا ببداوتهم، والبربر البرانس الذين استقروا في المناطق الساحلية فعرفوا بالحضر[1]، ويرجع هذان الجذمان حسب رأي ابن حزم إلى أب واحد، هو كنعان بن حام[2]، ويندرج تحت هذين الجذمين مجموعة كبيرة من القبائل والبطون، فيتفرع من البتر مثلاً زناتة وزواغة ونفوسة وغيرهم[3]، ويتفرع من البرانس قبائل صنهاجة والمصامدة وأوربة وغيرهم[4]، وقد ضمت صنهاجة التي قامت على أكتافها دولة المرابطين العديد من القبائل، جعلها ابن أبي زرع سبعين قبيلة، منهم لمتونة ومسوفة

---

(1): الميلي، تاريخ الجزائر، جـ1، ص98؛ نوارة، الحياة الاجتماعية، ص29.

(2): ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص495.

(3): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص15.

(4): حقي، البربر في الأندلس، ص23.

ولمطة وغيرها، ويذكر أن " في كل قبيلة بطون وأفخاذ وقبائل أكثر من أن تحصا"[1].

أما قبائل المصامدة التي على اكتافها قامت دولة الموحدين، فقد كانت من الكثرة بحيث لا يحصيهم إلا خالقهم[2]، وقد انضوى تحت لوائها قبائل كثيرة، منها قبيلة هرغة التي ينحدر منها المهدي بن تومرت، وهنتاتة وتينملل وكنفيسة وهزرجة وكدميوة ووريكة، وهذه القبائل السبعة هي أهل السابقة التي بايعت المهدي على الإجارة والحماية مبكراً، وثمانية قبائل الموحدين، هي كومية قبيلة عبد المؤمن بن علي كبير صحابة المهدي وخليفته على الموحدين من بعده[3]، وكومية هي في الأصل ليست من القبائل المصمودية وإنما تنسب إلى البتر، ومواطنهم كانت بالمغرب الأوسط بين تلمسان والبحر المتوسط " وهي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب، لم يكن لها في قديم الدهر ولا حديثة ذكر في رياسة ولا حظ في نباهة، وإنما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق، يبيعون فيها اللبن (الطوب) والحطب وغير ذلك من سقط المتاع"[4]، وقد تبدل حالهم منذ عام 557هـ/1161م، عندما قام عبد المؤمن بإحضارهم من الجزائر إلى المغرب الأقصى بعد أن رأى القبائل الموحدية تنظر نحوه بعيون غادرة، خاصة بعدما تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة، وبوصولهم لديه رتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية، وجعلهم من قبيلة تينملل في ثاني درجة، وقربهم من نفسه وجعلهم بطانته وحرسه[5].

هذا وقد تمتعت قبائل المصامدة بمركز الصدارة في احتلال المناصب والمراكز القيادية بالبلاد طوال العهد الموحدي، ففي دولة الخليفة أبي يعقوب، لمع إلى جانب الأخوة والأبناء من السادات نجم الشيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي زعيم قبيلة

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 120.

(2): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص298.

(3): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص359.

(4): المراكشي، المعجب، ص245.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص201-202؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص227-228.

هنتاتة وأحد أصحاب المهدي العشرة، الذي لعب دوراً بارزاً في أخذ بيعة الموحدين للخليفة أبي يعقوب، فبعد إعلان وفاة عبد المؤمن أخذ يوعظ الناس " على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم، وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح تعيينهم، وعرفهم بما أوجب عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة "(1)، وظل الشيخ أبو حفص مخلصاً للخليفة وللدعوة الموحدية حتى وفاته بطاعون مراكش سنة 571هـ/1175م، حيث نجده يشارك في قيادة الجيوش التي توجهت للقضاء على ثورة سبع بن منغفاد سنة 562هـ/1164م، كما اسندت إليه قيادة الجيش الذي كلف بالدفاع عن مدينة بطليوس في وجه الخطر البرتغالي سنة 564هـ/1168م، وشارك في عام 566هـ/1170م بقيادة الجيوش التي وجهت للقضاء على ثورة ابن مردنيش(2)، وتكريماً لمكانته وجهوده في خدمة الدولة، عين الخليفة أبو يعقوب ابنه الحافظ أبا يحيى ابن أبي حفص على ولاية مدينة بطليوس سنة 564هـ /1168م(3).

وإلى جانب الشيخ أبي حفص تمتع الشيخ أبو عبدالله بن أبي إبراهيم الهزرجي بمكانة رفيعة عند الخليفة أبي يعقوب، كيف لا وهو ابن أبي إبراهيم إسماعيل أحد أصحاب المهدي العشرة، فمنحه ولاية إشبيلية ثم ولاية غرناطة(4). ومن قبيلة تينملل برز الحافظ أبو علي عمر بن تيمصلت، الذي ظل متنقلاً بين الأندلس والمغرب في خدمة الدولة، ثم عين والياً على مدينة باجة سنة 570هـ/1174م، ولم يزل في ولايتها حتى وقع في الأسر وهو يدافع عنها سنة 574هـ/1178م، وقد نفذ فيه النصارى حكم الإعدام(5).

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص232.

(2): البيذق، المقتبس، ص32؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص48؛ الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص95.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص109.

(4): البيذق، المقتبس، ص31؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص20.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص371؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، الموحدين، ص134-135.

ولم يقتصر وجود القبائل البربرية على بلاد المغرب، فقد حرص الخليفة أبو يعقوب على توطين البربر في بلاد الأندلس، ودمجهم مع المجتمع الأندلسي بكل شرائحه، فبعد القضاء على ثورة ابن مردنيش سنة 567ه/1172م ترك في شرق الأندلس جماعة من كل قبيلة من قبائل البربر، فاسكن زناتة ببلنسية، واسكن صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، واسكن في لورقة أهل تينملل، وفي المرية أنزل كومية[1]، وعندما أعاد الموحدين بناء مدينة باجة سنة 570ه/1174م عقب الخراب الذي لحق بها جراء الهجوم البرتغالي سنة 568ه/1173م، بعث الخليفة مع أهل المدينة جماعة من الموحدين بأولادهم وعيالهم ليسكنوا معهم في باجة[2].

وإذا كانت قبائل الموحدين قد حظيت بالمراكز القيادية والرفيعة بالدولة، فإنّ سائر قبائل البربر قد انصاعت لحكمهم راغبة كانت أو كارهة، فكان منهم الأجناد الذين التزموا بالخدمة العسكرية، والفلاحين الذين اشتغلوا بزراعة المحاصيل الحقلية والأشجار المثمرة، ومنهم من تعلق بالحرف والصنائع واستخراج المعادن[3]، ومنهم من احترف مهنة التجارة[4].

2.1.1.5 **العرب**:

جاء العرب في المرتبة الثانية بعد البربر من حيث العدد، وكان وجودهم في المغرب يعود إلى حركة الفتح الإسلامي، وتحديداً إلى عام 86ه/706م، عندما اصطحب القائد موسى بن نصير معه سبعة عشر ألفاً من العرب لفتح السوس الأقصى[5]، لكن مع ذلك بقيت أعداد العرب قليلة في المغرب حتى قدوم قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب في منتصف القرن 5ه/11م، قادمين من مصر فيما

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص89.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص132.

(3): المراكشي، المعجب، ص246، 260؛ ابن غازي، الروض الهتون، ص7، 23.

(4): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص517.

(5): مؤنس، فجر الأندلس، ص61.

عرف بالهجرة الهلالية، أو الغزوة الهلالية[1]، أو " تغريبة بني هلال "[2]. وعلى أثر الهزيمة الكبيرة التي ألحقها الهلاليون بجيش صاحب إفريقية، الأمير المعز بن باديس في وقعة جبل حيدران بالقرب من القيروان سنة 443هـ/1051م، سرعان ما اجتاحت قبائلهم بعد هذا النصر سائر إفريقية، فاستولوا على قابس والقيروان وباجة وتونس، وأسسوا فيها إمارات مستقلة لهم[3].

وفي مطلع القرن السادس الهجري تنبه المرابطون إلى قوة شكيمة العرب وشجاعتهم في القتال، فاستعانوا بهم في الجهاد بالأندلس[4].

وفي عهد الموحدين نجد الخليفة عبد المؤمن بن علي يقوم بعد دخوله لمدينة المهدية سنة 555هـ/1160م باصطحاب ألفاً من كل قبيلة من قبائل العرب بعيالهم إلى المغرب، هادفاً من ذلك إبعادهم عن إفريقية وإنزالهم بقرب عاصمته للاستفادة منهم في الجهاد بالأندلس، وعبر ابن صاحب الصلاة عن كثرة العرب الذين أدخلهم عبد المؤمن إلى المغرب بقوله: " وقد استاق في أتباعه من العرب بني رياح وبني جشم وبني عدي وقبائلهم ما يضيق بهم الفضا، على عدد الذباب وعدد الحصى "[5].

"[5].

وعندما خلص الأمر للخليفة أبي يعقوب، سار على سياسة والده في اصطناع العرب والاستعانة بهم في حروبه بالأندلس، وظل كذلك إلى أن وافته منيته سنة 580هـ/1184م، فكان يعمد إلى تقريب مشايخهم والإغداق عليهم بالمنح والهبات،

---

(1): أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص57؛ نوارة، الحياة الاجتماعية، ص43.

(2): مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص168.

(3): التجاني، رحلة التجاني، ص20-22؛ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص19-22؛ مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص171.

(4): ابن الكردبوس، كتاب الاكتفاء، ص107؛ الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب، مج2، جـ4، ص199.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص144.

ومثال ذلك أمير بني رياح أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام الذي " كانت له عنده مزية، وكان يحضر معه أكثر الأوقات في الخلوات "[1].

وشاركت جموع العرب من بني رياح والأثبج وزغبة في سائر المعارك التي خاضها الموحدين بالأندلس في عهد الخليفة أبي يعقوب، بدءاً بموقعة الجلاب سنة 560ه/1165م، وانتهاءً بغزوة شنترين سنة 580ه/1184م، ويكفي للإشارة إلى دور العرب في حركة الجهاد بالأندلس ما يذكره النويري من أن الخليفة أبا يعقوب ظل طوال مدة إقامته بالأندلس في غزوته الأولى بين سنة 567-571ه/1171-1175م "، يجهز العساكر في كل وقت، ويرسلها إلى بلاد الفرنج، وكان في هذه المدة عدة وقائع وغزوات، ظهر فيها من شجاعة العرب مالا يوصف، حتى كان الفارس من العرب يسير بين الصفين، ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد "[2].

وجاء في إحدى رسائل الخليفة أبي يعقوب إلى الطلبة والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة والمؤرخة في منتصف شوال سنة 576ه/1181م، وهي من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن ظاهر بن محشرة، ما يعبر عن إقدام العرب للالتحاق بجموع المجاهدين في الأندلس بمالهم وأهلهم وعيالهم، وعن رضا الخليفة عن انصياع العرب للموحدين بعد أن كانوا لا ينقادون لأحد، معتبراً ذلك من علامات النصر والتأييد من الله، نجتزئ منها قوله " أن العرب عرفوا أن الغرض فيهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس.. وندبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضهم وقضيضهم، نفرة من انبت عن الوطن، ونبذ علق المسكن والسكن.. ونفروا إليه بجملتهم من غير استثناء، واستصحبوا معهم من تعلق به الخواطر من أهل وأبناء.. ولو لم يكن في هذه الحركة السعيدة المباركة إلا ما كان الآن من أمر العرب.. لكبر بذلك دليلاً على أن هذا الأمر العزيز لا ترتقي فهمه العقول.. وإنه مؤيد من الله"[3].

---

(1): الغبريني، عنوان الدراية، ص54.

(2): النويري، نهاية الأرب، جـ24، ص323.

(3): مجموع رسائل موحدية، ص149-157.

أما عن أماكن استقرار العرب فقد شملت كافة أرجاء المغرب الإسلامي من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، نذكر منها على سبيل المثال: طرابلس، وقابس، وقسنطينة وبجاية، وتلمسان، وبلاد تامسنا ما بين سلا، ومراكش، وتادلا، وسجلماسة، والسوس الأقصى[(1)].

وعن منازلهم في الأندلس، يذكر المراكشي أن الخليفة عبد المؤمن عندما عزم العودة لمراكش بعد افتتاحه لمدينة جبل طارق سنة 555هـ/1159م، ترك جماعات غير قليلة من العرب في الأندلس " فجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها، فهم باقون بها إلى وقتنا هذا وهو سنة 621هـ/1225م، وقد انتشر نسلهم بتلك المواضع خلق كثير، وزاد فيهم أبو يعقوب حتى كثروا هناك "[(2)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هجرة بني هلال وسائر القبائل العربية للمغرب، قد عملت على تعريب عدة أماكن وقبائل من المغرب، حيث غير بنو هلال التكوين البشري لإفريقية والمغرب الأوسط، ثم المغرب الأقصى فيما بعد[(3)]، وساهم استيطانهم في السهول الأطلسية على ممارسة مهنة الرعي التي نشأوا عليها، والتي تتفق مع طبيعتهم البدوية فعملوا على تربية المواشي والإبل، ومنهم من امتهن التجارة؛ لتغلبهم على طرق القوافل فقاموا بها أحسن قيام ووسعوا نطاق التجارة بين الجبال والصحراء[(4)]، كما أفضى اختلاطهم بالأجناس المقيمة بالمغرب الأقصى؛ إلى

---

(1): ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص31، 34، 37؛ طه، جمال: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2004م، ص59-67. سيشار إليه فيما بعد: طه، الحياة الاجتماعية؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص324.

(2): المراكشي، المعجب، ص167.

(3): مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص177؛ حركات، المغرب عبر التاريخ،جـ1، ص334.

(4): الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص188؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص319.

إدخال عادات وتقاليد اجتماعية جديدة مختلفة، سواء في اللغة أو اللباس أو منهاج العيش.

3.1.1.5 **المجتمع الأندلسي**:

يقصد بالأندلسيين هنا، المسلمين من أهل الأندلس بصرف النظر عن الأصول الأولى لهذه الجماعة عربية أم بربرية، أم من السكان الأصليين الذين أسلموا، أم ما نتج عن زواج المسلمين بنساء أندلسيات الأصل[1].

وشكل الأندلسيون الغالبية العظمى من سكان الأندلس في العصر الموحدي، وقد تمتعوا بالعديد من الخصال والصفات التي سمحت لهم من إثبات جدارتهم أينما حلوا، فظهر منهم الزعماء والقادة العظام والعلماء والأطباء والمهندسين، ومن هؤلاء برز في عهد الخليفة أبي يعقوب، أبو محمد سيداري بن وزير القيسي، وهو أحد أمراء الأندلس الذين ثاروا في الفتنة في أعقاب دولة المرابطين، ثم انتظم في سلك الدولة الموحدية، فكان من أكثر رجالات الأندلس رجاحة وشهامة وكان يجيد الاسبانية، فاستعمله الخليفة وإخوته من السادات في سفاراتهم لدى ملوك النصارى، وسكن في نهاية أمره مراكش حتى وفاته سنة 565هـ/1169م[2].

وبرز من القادة العسكريين أبي العلاء بن عزرون، الذي قاد جند الأندلس في غزوة وبذة ويسميه ابن صاحب الصلاة ب " ناصح الدولة المهدية "[3]، ومن العلماء نخص بالذكر ابن طفيل وأبو الوليد بن رشد، وهم من عظماء الفلاسفة والمفكرين الأندلسيين على الإطلاق، ومن الأطباء نذكر ابن زهر، وقد نال هؤلاء الحظوة عند الخليفة أبي يعقوب فلازموا مجلسه وساروا معه في معظم غزواته[4].

---

(1): طه، الحياة الاجتماعية، ص68؛ نوارة، الحياة الاجتماعية، ص55.

(2): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص271؛ البيذق، أخبار المهدي، ص87؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص44.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص492.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص207؛ أمين، أحمد: ظهر الإسلام، 4 أجزاء، ط5، بيروت 1969م، جـ3، ص241-247. سيشار إليه فيما بعد: أمين، ظهر الإسلام.

وفي مجال الهندسة برع العريف أحمد بن باسة والحاج يعيش المـالقي، الـذين اعتمد عليهم الخليفة أبو يعقوب في تنفيذ مشاريعه العمرانية الكبرى في مدينة إشبيلية سنة 567هـ/1172م[1].

ولم يقتصر تواجد الأندلسيين على الأندلس، فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم إلـى المغرب في فترة دراستنا لأسباب مختلفة، ومن هؤلاء بعض الأمـراء والزعمـاء الأندلسيين مثال ذلك الزعيم ابن همشك ووزيره أبو جعفـر الوقشـي، ففـي سـنة 571هـ/1175م صرف الخليفة أبو يعقوب ابن همشك إلى بلاد المغرب بماله وولده، وأسكنه مدينة مكناسه، وأقطع بها إقطاعات يعيش منها[2]. أما وزيره الوقشـي فقـد استوطن مدينة مراكش حتى سنة 574هـ/1178م وفي هذه السنة غادرها عائداً إلـى بلنسية فتوفي بالطريق[3]. وهناك الأمير أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر القيسـي، كان أمير مرسية قبل أن يتغلب عليها ابن مردنيش، وقد انتقل إلى مـراكش سـنة 567هـ/1172م وأقام بها حتى وفاته سنة 574هـ/1178م[4].

ويشير ابن صاحب الصلاة إلى إقامة عدد من أعيان الأندلس وأشياخها بمراكش في معرض حديثه عن جواز السيد أبو حفص إلى بلاد الأندلس سنة 565هـ/1169م؛ بغرض غزو مملكة البرتغال، حيث نوه إلى حرص السيد أبي حفص إلى اصطحاب بعض أشياخ الأندلس معه في غزوته؛ لمعرفتهم ببلاد الأندلس وحروبها، فيقـول: " واختص من الصنف الأندلسي العاقل أبا محمد بن وزير، وأخاه أبا الحسن علي ابن وزير وأشياخاً فرساناً أبطالاً من الأجناد الساكنين بحضرة مراكش "[5].

وشكلت عمليات الغزو النصرانية للحواضر والمدن الأندلسية عاملاً آخـر مـن عوامل هجرة الأندلسيين إلى المغرب، وذلك خوفاً من الأسر والظلم والبطش الـذي

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص139-140؛ سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص244-246.

(2): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص302-303.

(3): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص258-266.

(4): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص233.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص400.

يتعرضون له على أيديهم، ففي عام 568ه/1173م استولى ألفونسو هنريكز على مدينة باجة وهدم أسوارها وحرق بيوتها، مما دفع بالكثير من أهلها إلى الهجرة للمغرب وخاصة إلى مراكش، يقول ابن عذاري: " ولما أخذ ابن الرنك اللعين باجة.. حرقها وهدم سورها وأسر أهلها، إلى أن أنقذها الله من الأسر بالفداء، ومشى كثير منهم إلى مراكش وغيرها.. فوجدوا عندهم الحنان بالعطاء والإيناس "[1].

إلى جانب ذلك حفلت كتب التراجم بأسماء العديد من العلماء وأصحاب الفكر، الذين هاجروا إلى المغرب واستقروا فيها[2].

ويظهر أن تواجد الأندلسيين بالمغرب كان كثيفاً على عهد الخليفة أبي يعقوب، حتى أنهم زاحموا المغاربة في كل المجالات العلمية والحرفية، وكانت لهم دائماً الغلبة؛ لما تمتعوا به من خبرة وإتقان مكنتهم من الفوز بالعديد من المناصب الهامة وتحقيق مكانة مرموقة[3].

4.1.1.5 **العبيد**:

شكل العبيد عدداً غير قليل في المجتمع الموحدي سواء بالمغرب أو الأندلس، وتمثلت عناصرهم بثلاثة أنواع: سبي المسلمين، وعبيد السودان، وأسرى الروم.

فقد جرت عادة الموحدين في دولة الخليفة أبي يعقوب على سبي أفراد القبائل الثائرة في وجه الدولة، واتخاذهم كعبيد يستعينون بهم في جيوشهم وفي أعمال الخدمة لديهم، ففي عام 562ه/1166م سار الخليفة أبو يعقوب إلى جبل غمارة

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص130.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص82؛ ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص29-30؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص92-93، ص239-241؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ق1، ص85، ص87-91؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص211-216؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص228.

(3): المراكشي، المعجب، ص176-180؛ نوارة، الحياة الاجتماعية، ص57.

وقضى على ثورة سبع بن منغفاد وسبى من القبائل الثائرة هناك " ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون فرداً "[1].

أما عبيد السودان فقد كانوا يشترون من بلاد السودان والحبشة، وشكلت مدينتا سجلماسة وأدغشت في الجنوب من بلاد المغرب محطات للقوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان، وخاصة إلى مدينة غانة[2]؛ لما فيها من أسواق رائجة للعبيد السود المجلوبون من بلاد السودان[3]، يقول الإدريسي أن أهل غانة كانوا " يغيرون على بلاد السودان، ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم، فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار "[4].

واستعان الموحدون بالعبيد السود في تنظيماتهم العسكرية، وخدمة قصورهم وفي أعمال البناء، فعندما أراد الخليفة أبو يعقوب الزيادة في بنيان مراكش سنة 579هـ/1183م، كلف العبيد السود بهدم السور القديم اللازم لإحداث تلك الزيادة[5]، ويبدو أن أعدادهم كانت كبيرة في هذا المجال وهذا ما نلحظه من قول ابن عذاري أنه كان يموت في كل يوم في دور الموحدين وقصورهم من الخدم والعبيد جراء الطاعون الذي نزل بمدينة مراكش سنة 571هـ/1175م ثلاثون شخصاً، ودام ذلك مدة سنة كاملة[6].

وإلى جانب العبيد السود من الرجال، استكثر سكان المغرب الأقصى من شراء النساء السودانيات، فاستخدموا الجميلات منهن كجوار، في حين استفادوا من الأخريات في أعمال الخدمة المنزلية، وخاصة في طبخ الطعام، يذكر صاحب كتاب

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص321.

(2): غانة: مدينة كبيرة ببلاد السودان، واليها يقصد التجار المياسير من سائر البلاد المحيطة ومن بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص6.

(3): ابن خلدون، المقدمة، ص84-85؛ طه، الحياة الاجتماعية، ص85.

(4): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص4.

(5): القادري، الإسلام السري، ص186.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

الاستبصار أنه كان يجلب من مدينة أودغشت[1] نساء سودانيات طباخات محسنات، يحسن عمل الأطعمة ولا سيما أصناف الحلاوات والكنافات والقطائف، وإنه لا يوجد أحذق بصنعتها منهن[2].

وشكل أسرى الروم الذين استحوذ الموحدين عليهم، نتيجة الحروب والغـزوات الكثيرة التي وجهوها إلى بلادهم، فئة لا يمكن تجاوزها في المجتمع الموحدي، وقـد استفاد منهم المغاربة والأندلسيون كخدم بالإضافة إلى العمل بـالجيش، ففـي عـام 577ه/1181م خرج أبو عبدالله محمد بن وانـودين الهنتـاتي علـى رأس حملـة موحدية، فغزى مدينة يابرة ونواحيها " فسبى من النساء أربـع مايـة بـين كبيـرة وصغيرة، ومن الرجال ماية وعشرين.. ودخل إشبيلية وباع السبي بها، وكثر عنـد الناس الخدم وامتدت النعم "[3].

واهتم الخليفة أبو يعقوب بنقل بعض أسرى النصارى إلى المغرب؛ للإسـتفادة منهم في الخدمة والحراسة والعمل، ونذكر من ذلك قيامه بنقل أصحاب العلج جراندة الجليقي البالغ عددهم ثلاثمائة وخمسون فرداً، بعد استسلامهم لـه وثبـوت خيانـة جراندة سنة 568ه /1173م، من الأندلس إلى المغرب وأمر بتقسيمهم على القبائـل للإستفادة منهم[4].

وبرز من هؤلاء الروم من ارتقى إلى مناصب هامة في الدولة، مثال ذلك أبـو المسك كافور الخصي الذي اتخذه الخليفة أبو يعقوب حاجباً له[5]، والقائد أبو الحسن

(1): أودغشت: مدينة تقع جنوبي سجلماسة بين صحراء لمتونة والسودان، وهي بين جبلين شبه مكة في الصفة، بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، ومنها إلى غانة 12 مرحلة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص277-278؛ الحميري، الروض المعطار، ص63.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص216.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص145.

(4): البيذق، أخبار المهدي، ص89.

(5): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص56-57.

علي بن الربرتير الذي استعان به الخليفة أبو يعقوب في قيادة بعض أساطيله، التي وجهها إلى إخضاع بني غانية حكام الجزائر الشرقية في أواخر حكمه[1].

5.1.1.5 **الغز أو الأغزاز**:

شهد عام 568ه/1173م دخول أول طلائع الغز الأتراك إلـــى بـــلاد المغـــرب قادمين من مصر، وكانت مدينتي برقة وطرابلس أول بـــلاد تطأهـــا أقـــدامهم فـــي المغرب[2]، ثم لم يزالوا يكثرون ويتقدمون غرباً حتى إذا مـــا جـــاء أواخـــر عـــام 574ه/1178م دخلوا مدينة مراكش[3]، وكانت الغاية من قدومهم لهذه البلاد إحراز الأموال والغنائم وتشييد الملك والسلطان[4]، وقد نجح الخليفـــة أبـــو يعقـــوب فـــي اصطناعهم وإدخالهم للخدمة في جنده مقابل الأجر، حتى أصبحوا يشكلون فرقة ثابتة من قوات الموحدين أينما توجهت للغزو[5].

ويظهر أن دورهم ظل طوال عهد الخليفة أبي يعقوب قاصـــراً علـــى الخدمـــة العسكرية، إذ لم نسمع عن أي دور لهم سوى ذلك، وتميزوا عن سائر سكان بـــلاد المغرب بأنهم كانوا يضفرون شعورهم كالنساء[6].

6.1.1.5 **أهل الذمة**:

تشير الروايات التاريخية إلى أن أهل الذمة من يهود ونصـــارى ســـكنوا بـــلاد

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص286؛ سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص349.

(2): أبو شامة، الروضتين، جـــ2، ص267؛ ابن غلبون، التذكار، ص59.

(3): المراكشي، المعجب، ص188.

(4): نجار، المغرب والأندلس، ص396.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص213؛ السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص282؛ العبادي، صور من حياة الحرب، ص164-168.

(6): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص347.

المغرب منذ أزمنة طويلة يصعب تحديدها على وجه الدقة[1]، وأنهم اختلطوا بالعرب والبربر فتأثروا بهم وأثروا فيهم، وظلوا يتمتعون طوال العهود الإســلامية بحريــة واسعة في عقائدهم وشرائعهم وتقاليدهم مقابل جزية يدفعونها، حتى ظهــرت دولــة الموحدين، فلم يعد بعد ذلك الحال هو حالهم.

فقد تشدد عبد المؤمن بن علي مع اليهود والنصارى، ولم يعقد لهم ذمة، فكـان كلما دخل بلداً أو مدينة خير أهلها من المسيحيين واليهود بين أن يسلموا أو يرحلــوا أو يقتلوا، ويحدد لذلك أجلاً معلوماً، فمن أسلم سلم ومن امتنع حل دمه وماله، فيروي ابن الأثير أن عبد المؤمن عندما استولى على تونس سنة 544هـ/1158م " عــرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سلم، ومن امتنــع قتــل "[2]. ويذكر النويري رواية بنفس المعنى فيقول أنه ما أن حضرت الوفاة للخليفــة عبــد المؤمن ابن علي سنة 558هـ/1163م حتى لم يبق " مشرك في بلاده ولا كنيسة فــي بقعة منها؛ لأنه إذا ملك بلداً إسلامياً لم يترك ذمياً إلا عرض عليه الإسلام، فمن أسلم سلم، ومن طلب المضي إلى بلاد النصارى أذن له في ذلك، ومن أبى قتل، فجميــع أهل مملكته مسلمون لا يخالطهم سواهم "[3].

وطبقاً لهذه السياسة المتشددة فر الكثير من أهل الذمة من بلاد المغــرب إلــى الممالك النصرانية في إسبانيا وإلى صقلية وفرنسا أو حتى إلى المشرق حفاظاً على حياتهم[4]، ومن بقي منهم اعتنق الإسلام في الظاهر وظل يتحين الفرصة المناســبة للسفر[5]، ويبدو أن عبد المؤمن ما اتبع هذه السياسة المتشددة تجاه أهل الذمــة، إلا

---

(1): شحلان، أحمد: التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2006م، ص16. سيشار إليه فيما بعد: شحلان، التراث العبري؛ عبد العزيز، هشام فوزي: يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي 92-897هـ/ 711-1492م، مجلة دراسات أندلسية، ع15، تونس1996م، ص95. سيشار إليه فيما بعد: عبد العزيز، يهود الأندلس.

(2): ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جــ9، ص429.

(3): النويري، نهاية الأرب، جــ24، ص321.

(4): عبد العزيز، يهود الأندلس، ص101.

(5): خلف الله، العلاقات، ص259.

لتشدده العقدي، واتهامه كل من يخالف مذهبه بالكفر، علاوة على تخوفه من معونتهم لأبناء جلدتهم ضد المسلمين[(1)].

وعلى نهج عبد المؤمن سار ابنه أبو يعقوب، فلم يمنح ذمة ليهودي أو نصراني في بلاده، مع الأخذ بعين الاعتبار استثناء المرتزقة من العبيد النصارى الذين استمر وجودهم في الدولة لغرض الخدمة، وتشدد أبو يعقوب ضد اليهود خاصةً، خوفاً من دسائسهم وخيانتهم لما عايشه بنفسه ذلك عنهم أثناء ولايته لإشبيلية في عهد أبيه، عندما تأمروا مع ابن همشك وسهلوا له الاستيلاء على مدينة غرناطة، والتي على أثرها جرت معركة مرج الرقاد بالقرب من غرناطة سنة 557ه/1162م، وانهزم فيها الموحدون، وتكبدوا خسائر كبيرة في الأموال والأرواح[(2)].

ويذكر ابن الخطيب أن أبا يعقوب ثأر لموقعة مرج الرقاد من اليهود المقيمين بغرناطة؛ بالإيقاع بهم سنة 559ه/1163م حتى لم يبق بهم بالمدينة إلا قلة قليلة، فيقول " وتقاعدت بها – أي غرناطة – منهم طائفة، هبت لها بممالأة بعض الدول ريحٌ، فأمروا واكثروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة، ووقعت فيهم وقيعة احتشتهم، إلا صابة (أي أقلية محدودة) لهذا العهد قليلة "[(3)].

وتعرض يهود مدينة فاس إلى نفس المصير، فقد بقيت بها جالية منهم إلى حدود سنة 561ه/1165م، وفي هذا العام خير حاخام المدينة بين الإسلام أو الموت، فلما رفض إعلان إسلامه تم إعدامه على مرأى من العامة، وعلى أثر ذلك اعتنق غالبية اليهود في فاس الإسلام ظاهرياً، إذ فضلوا إعلان الإسلام على الموت، ومنهم من آثر الرحيل، مثال ذلك الأديب والمفكر موسى ين ميمون (530-601ه/ 1135-1204م)، ألمع رجالات اليهود في فترة دراستنا، ولد في قرطبة لأسرة من القضاة

---

(1): حسن، الحضارة الإسلامية، ص370؛ نوارة، الحياة الاجتماعية، ص398.

(2): أحمد، علي: اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، مجلة دراسات تاريخية، ع57- 58، السنة السابعة عشر، أيلول- كانون أول 1996م، ص182. سيشار إليه فيما بعد: أحمد، اليهود في الأندلس والمغرب. ولمزيد من المعلومات عن معركة مرج الرقاد انظر الفصل الأول، ص92-93.

(3): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص114.

والعلماء اليهود، وقد انتقل مع عائلته إلى مدينة فاس سنة 555هـ/1160م، واضطر إلى إظهار الإسلام حتى اتته الفرصة فسافر مع عائلته سنة 561هـ/1165م إلى فلسطين وأظهر اليهودية هناك، ثم انتقل إلى مصر، وانشأ فيها بمساعدة يهود الأندلس الذين ازداد عددهم في مصر زمن الموحدين مدرسة لتعليم علوم الديانة اليهودية[1].

أثارت هذه السياسة تجاه اليهود حقدهم على المسلمين والدولة الموحدية، فأخذوا بالوقوف إلى جانب الحركات الانفصالية والمعارضة، مثل وقوفهم إلى جانب ابن مردنيش في ثورته في وجه الموحدين[2]، كما انهم لم يترددوا بالالتحاق في صفوف جيوش النصارى، كلما سنحت لهم الفرصة في ذلك للانتقام، وقد اتيحت لهم فرصة في عام 578هـ/1182م، عندما استجابت أعداد كبيرة منهم لنداء الاستغاثة الذي بعث به أهل طلبيرة للحصون المسيحية المجاورة؛ لمواجهة الجيوش الموحدية المحاصرة لمدينتهم بقيادة ابن وانودين، وجرى على أثر ذلك معركة عنيفة قتل فيها من اليهود وحدهم نحو الألف[3].

ومما يلاحظ أن غالبية اليهود الذين بقوا في المغرب على زمن الخليفة أبي يعقوب، أخذوا بإظهار الإسلام مع التزام قليل بشعائره وجزيئاته من صلاة وقراءة[4]، وفي الوقت نفسه استمروا بممارسة الفروض اليهودية بالخفاء، وهذا ما أجج موجات الشك في إسلامهم، ودفع بالخليفة أبي يوسف المنصور الذي خلف والده في الحكم سنة 580هـ/1184م؛ للقول: " لو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين "[5]، كما قام المنصور في أواخر

---

(1): الخالدي، خالد يونس: اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس 92-897هـ/ 711-1492م، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، غزة 2011م، ص434-437. سيشار إليه فيما بعد: الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية؛ السائح، الحضارة الإسلامية، ص241.

(2): عبد العزيز، يهود الأندلس، ص101.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص150.

(4): الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص330.

(5): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص334.

أيامه بتمييز اليهود باللباس، حيث ألزمهم بارتداء ثياب زرقاء ذات أكمـــام مفرطـــة السعة، بدلاً من تلك الصفراء التي اعتادوا عليها في عهد والده، كما ألبسهم بدلاً من العمائم كلوتات (طواقي) على أشنع صورة كأنها سروج البغال[1].

ويطلق ابن صاحب الصلاة على اليهود الذين عاشوا في كنف الدولة الموحديـــة زمن الخليفة أبي يعقوب اسم " اليهود الإسلاميين "[2]، وتشير بعض الروايات إلـــى أماكن تواجدهم في المغرب والأندلس منها على سبيل المثال: فاس، وسجلماســـة[3]، وأغمات[4]، ومكناسة، وسلا، وطنجة[5]، وبجاية، وتلمسان، وتـــاهرت[6] والســـاحل التونسي[7]. أما في الأندلس فقد شكلت مدينة غرناطة وبلدة اليسانة قرب قرطبة أكثر أكثر أماكن تجمعهم[8].

وعملت هذه الطائفة في التجارة والصناعة، واستطاعوا أن يحـــرزوا ثـــروات عظيمة، كما اشتغل بعضهم في أعمال الصرافة ووسطاء تجاريين وسماسرة، وتولى كثير منهم إدارة الخراج وأعمال المحاسبة لكبار التجار وأرباب الثروة[9].

وبالنسبة للنصارى تكاد تكون خلت منهم البلاد، ما عدا ما وجد مـــن جاليـــات أجنبية، وممثلين دبلوماسيين في بعض المدن الساحلية للدول والممالك التـــي دخـــل

---

(1): الزجالي، أبو يحيى عبيدالله بن أحمد القرطبي (ت 694هـ/1294م): أمثال العوام في الأندلس، قسمان، دراسة: محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس 1975م، ق1، ص218. سيشار إليه فيما بعد: الزجالي، أمثال العوام؛ المراكشي، المعجب، ص223.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص187.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص201-202؛ طه، مدينة فاس، ص170.

(4): أحمد، اليهود في الأندلس والمغرب، ص181.

(5): طه، الحياة الاجتماعية، ص76.

(6) : نجار، المغرب والأندلس، ص400.

(7): موسى، النشاط الاقتصادي، ص106.

(8) : ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص187؛ الزجالي، أمثال العوام، ق1، ص217؛ ابن ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـــ2، ص343؛ الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية، ص257.

(9): باشا، الأندلس الذاهبة، جـــ3، ص408.

الموحدون معها في معاهدات صلح واتفاقيات تجارية مثل: بيزة، وجنوة، وصقلية[1].
وصقلية[1].

2.1.5 طبقات المجتمع:

1.2.1.5 الطبقة الحاكمة:

استأثر الخليفة أبو يعقوب بمقاليد السلطة العليا في دولته، فكان " يتفقد أحوال مملكته لا يتكل على أحد"[2]، واستعان في تسيير أمور الدولة العامة وشؤون الرعية بإخوته السادة من أبناء عبد المؤمن وبأبنائه وببعض أشياخ الموحدين. فنجده يعهد بمنصب نائب الخليفة تارة لأخيه السيد أبي عمران، وتارة أخرى لأخيه السيد أبي حفص[3]. أما منصب الوزارة فقد شغلها في بادئ الأمر أخوه أبو حفص[4]، ثم عهد عهد بها في النهاية لابنه أبي يوسف المنصور[5]، وعين على ولاية الأقاليم في بدايه بدايه عهده إخوته، وبعض الحفاظ البارزين من الأشياخ الموحدين مثل أبو عبدالله بن أبي إبراهيم الذي اختاره لولاية إشبيلية ثم غرناطة[6]. ولما كبر أبناؤه وكملت فيهم صفات القيادة، عمل على تقديمهم لشغل مناصب الدولة الرفيعة بدلاً من إخوته، فولى في عام 579ه/1183م أبناءه الأربعة قواعد بلاد الأندلس الرئيسية[7].

وبذلك نستطيع القول بأن الطبقة الحاكمة في دولة الخليفة أبي يعقوب تمثلت في أسرة الخلافة التي انحصرت بيدها السلطة، والمتمثلة بالخليفة واخوته وأبنائه من

---

(1): مارسيه، جورج: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمه ترجمه من الفرنسية: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية 1999م، ص308-309. سيشار إليه فيما بعد: مارسيه، بلاد المغرب.

(2): ابن أبي دينار، المؤنس، ص113.

(3): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص278؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

(4): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص157.

(5): المراكشي، المعجب، ص180.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص293-297.

(7): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

السادات، الذين شكلوا علية القوم في المجتمع الموحدي، وإليهم كان يعود رسم سياسة الدولة وإعلان الحرب وقيادة الجيوش واتخاذ القرارات، وهم الذين ملكوا القصور والثروات.

2.2.1.5 **طبقة الطلبة**:

اطلق لفظ الطلبة في بداية الدعوة الموحدية على أصحاب المهدي، يقول السلاوي:

" ولما كملت بيعته لقبوه المهدي.. وكان يسمي أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين"[1]. وما أن انتشر خبر المهدي وذاع صيته في الأرجاء حتى ارتأى إلى إعادة تقسيم أصحابه إلى طبقات جديدة، فجعل طبقة الطلبة في المرتبة الرابعة بعد طبقات: العشرة (أي أهل الجماعة)، وأهل الخمسين وأهل سبعين[2]، وتكونت طبقة الطلبة بحسب التشكيل الجديد من علماء الموحدين، أو من كبار العلماء عموماً، وعهد إليهم أن يكونوا هيئة الدعاة بالنسبة للدعوة الموحدية[3].

وما أن تولى عبد المؤمن الخلافة الموحدية، حتى عمل على تغيير النظام الطبقي الذي وضعه المهدي، فقدم طبقة الطلبة على سائر الطبقات وقسمها إلى طائفتين: طلبة الموحدين؛ وهم ممن اعتنوا بطلب العلم من المصامدة، وحددت مهمتهم بنشر الدعوة الموحدية، وطلبة الحضر؛ وهم المشتغلون بطلب العلم من أهل كل فن وخاصة من أهل علم النظر، والذين يحضرون للعاصمة بدعوة من الخليفة[4].

وكعادته بالسير على خطى والده احتفظ الخليفة أبو يعقوب بالتقسيم الطبقي الذي ورثه عن أبيه، فنالت طبقة الطلبة بشقيها الموحدي والحضر الحظوة في عهده،

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص234.

(2): ابن القطان، نظم الجمان، ص82.

(3): الغناي، قيام دولة الموحدين، ص233؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص332.

(4): المراكشي، المعجب، ص150، 246؛ بوّز، فارس: مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين، مجلة دراسات تاريخية، العددان 29-30، السنة التاسعة، آذار - حزيران 1988م، ص182. سيشار إليه فيما بعد: بوّز، مؤسسة الطلبة.

وارتفعت مكانتهم بين سائر رجال الدولة، حتى أنه كان يقـدمهم فـي المخاطبـات الرسمية على غيرهم من الولاة والشيوخ، فنجد أن جميع الرسائل الصادرة في عهده للولايات تبدأ ب " من أمير المؤمنين إلى الطلبة والموحـدين والشـيوخ والأعيـان والكافة "[1]، وإذا ما وصل كتاب للحضرة ببشرى نصر أو فتح، دعا الخليفة الطلبة دون سواهم إلى القصر لسماع الكتاب، وكان يخص شيخ طلبة الحضر بقراءته[2].

ولم يكن يتأخر الطلبة عن حضور مجالس الخليفة العامة والخاصـة، كمـا أن الخليفة حرص على الاجتماع بهم ومناقشتهم بالمسائل الفقهية والفكرية حتـى أثنـاء المعارك، كما حدث في غزوة وبذة، إذ فضل الخليفة الجلوس إليهم ومناقشتهم عـن مواصلة القتال، ويشير إلى ذلك ابن صاحب الصلاة بقوله أن قائد جند الأندلس أبـا العلاء بن عزرون عندما تمكن من تحقيق تقدم في ساحة المعركة وأشـرف علـى النصر، ذهب للخليفة يسأله العون، فوجده جالس مع طلبة الحضر يتكلم معهم فـي بعض المسائل الفقهية، وبالرغم من إلحاح ابن عزرون على الخليفـة فـي طلـب المساعدة وتحريضه له على الالتفات إلى ساحة المعركة، إلا أن الخليفة لم يلتفت إليه وظل يشتغل مع الطلبة بما كان فيه[3].

وبلغ من اهتمام الخليفة بطبقة الطلبة، وذلك لما لهم من دور في نشـر الـدعوة الموحدية، والاشتغال بالعلم المتصل بها، أن عمد إلى تسجيل أسمائهم فـي لـوائح الجند؛ من أجل الحصول على المرتبات والمنح التي تقدم لأفراد الجيش، هذا فضلاً عما كان يمنحهم من اعطيات وكسوات في كل عام[4].

وعرف من يرأس طبقة الطلبة بشيخ الطلبة، وكان منصبه في مستوى الوزراء لعلو منزلته، ولم يكن يعهد بهذا المنصب إلا لكبار العلماء الأجلاء أمثال الفقيه أبـو الحسن علي بن محمد الاشبيلي، الذي كان ذا حظ وافر من الأدب، فندبه الخليفة أبو

---

(1): مجموع رسائل موحدية، ص149.

(2): بوّز، مؤسسة الطلبة، ص174.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص497.

(4): هوبكنز، النظم الإسلامية، ص186؛ بوّز، مؤسسة الطلبة، ص181.

يعقوب لمنصب شيخ طلبة الحضر، فنال عنده دنيا عريضة، ولعلو شـــأنه حضـــر الخليفة جنازته سنة 564هـ/1168م[1].

3.2.1.5 طبقة العلماء والفقهاء والقضاة:

قامت الدولة الموحدية على أساس دعوة دينية إصلاحية، ولم يكن لها أن تلقـــى ذلك النجاح الذي حظيت به لولا توفر عدد من العلماء والفقهاء المتمكنـــين، الـــذين قامت الدعوة على أكتافهم، ومن هنا فقد نال العلماء والفقهاء والقضاة مكانة كبيـــرة ومنزلة رفيعة في المجتمع الموحدي، ولدى الخلفاء الموحدين.

فكان الخليفة أبو يعقوب تربطه علاقات جداً حميمة بالعلماء والفقهاء، ولم يفتـــأ على تقريبهم منه بإصراره الدائم على مكوثهم معه في قصره وحضورهم مجالســـه، ولم يكتف بعلماء وفقهاء مراكش، بل بعث في طلبهم مـــن كـــل الأرجـــاء، يقـــول السلاوي: " ولم يزل – أي أبو يعقوب – يجمع إليه العلماء من كل فن مـــن جميـــع الأقطار "[2]، ويضيف المراكشي أنه أخذ " يبحث عن العلماء وخاصة أهـــل علـــم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب"[3]. وممـــن صحبه من العلماء الطبيب الكبير وفيلسوف عصره أبو بكر بن طفيل، الذي أحبه حباً شديداً، وتعلق به لدرجة أنه كان " يقيم في القصـــر عنـــده أيامـــاً لـــيلاً ونهـــاراً لا يظهر "[4]. ولم يكن ابن طفيل فيلسوفاً فقط، بل كان مفكراً حراً يبحث عن الحكمـــة الخالصة الصحيحة، وصاحب رأي كثيراً ما انتصح الخليفة بنصائحه[5]، ويعود لـــه الفضل في إغراء القبائل العربية بافريقية؛ للالتحاق بالجيش الموحدي للجهـــاد فـــي

---

(1): التنبكتي، نيل الابتهاج، ص312؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص228-230.

(2): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص284.

(3): المراكشي، المعجب، ص176.

(4): المراكشي، المعجب، ص177.

(5): المليجي، محمد أحمد: ابن طفيل وفلسفته، مجلة العربي، ع45، كانون أول 1970م، ص127. سيشار إليه فيما بعد: المليجي، ابن طفيل؛ جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص163.

الأندلس، من خلال النداء الذي وجهه لهم في قصيدة طويلة حرضـــهم فيهـــا علـــى الجهاد، واصفاً إياهم بأنهم أهل الشهامة والزعامة، وأنهم السيف الماضي الذي ينصر الدين الحق ويحميه[1].

وعمل ابن طفيل على تقديم العلماء للخليفة من جميع الأقطار وتعريفهم به، ومن هؤلاء الفيلسوف أبو الوليد بن رشد القرطبي، الذي درس الطب والفلسفة على ابـــن باجة[2]، إلا أنه لم يشأ أن يظهر الفلسفة خوفاً من أن يتهم في العقيدة، فقربه الخليفة أبو يعقوب منه وحماه وطلب منه أن يشرح له فلسفة أرسطو؛ لأنـــه كـــان يراهـــا غامضة، وقد ولاه الخليفة أبو يعقوب قضاء إشبيلية عام 565ه/1169م[3]، ثـــم ولاه قضاء قرطبة عام 579ه/1183م[4].

ولم تكن مكانة الفقهاء والقضاة أقل شأناً عند الخليفة أبي يعقوب، فقـــد تمتعـــوا بمنزلة مرموقة فكان يشركهم مجالسه الخاصة والعامة، ويكـــرم نـــزلهم ويحضـــر جنائزهم، فنجده عندما نزل في إشبيلية في غزوتـــه الأولـــى ســـنة 566ه/1170م، يستدعي الفقيه العالم وشيخ مشيخة الصوفية في وقته أبا عبدالله محمد بن عبيدالله بن مجاهد الإشبيلي إلى مجلسه ليشاركه في بحـــث أمـــور المســـلمين[5]، وفـــي عـــام 571ه/1175م استقدم الفقيه القاضي أبا جعفر بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي من

---

(1): الآوسي، حكمة علي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة 1976م، ص119-120. سيشار إليه فيما بعد: الآوسي، الأدب الأندلسي.

(2): هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المشهور بابن باجة، ولد في مدينة سرقسطة في آخر القرن 5ه/11م، وعاش بها سقوطها بيد الاسبان، ثم تركها ورحل إلى المرية ومنها إلى غرناطة، ثم استقر به المقام في مدينة فاس، حيث تفرغ للتأليف والتدريس، ويظهر أنه كان عالماً بالطب والرياضة والفلسفة، كما أن له تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة تدل على نبوغة في هذا الفن، ومن أهم تآليفة التي وصلت إلينا " رسالة الوداع " وكتاب " تدبير التوحيد "، وتوفي ابن باجة سنة 533ه/1139م. انظر: أمين، ظهر الإسلام، جـــ3، ص235-240؛ ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص218.

(3): أمين، ظهر الإسلام، جـــ3، ص246-247.

(4): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص114.

(5): التنبكتي، نيل الابتهاج، ص376.

بجاية إلى حضرته " وبقي من كبار مجلسه إلى أن توفي قاضي الجماعة أبو موسى بن عمران سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، فقلد أبا جعفر قضاء الجماعة ذلك اليوم"[1].

ونال الفقيه أبو محمد عبدالله بن محمد المالقي منزلة رفيعة ودنيا عريضة عند الخليفة أبي يعقوب، فلما حضرته الوفاة سنة 573ه/1177م أسرع الخليفة أبو يعقوب في حضور جنازته[2].

وبلغ من احترام وتقدير الخليفة أبو يعقوب للعلماء والفقهاء وتواضعه لهم، أنه حينما قصد الأندلس في غزوته الثانية سنة 580ه/1184م، وأشرف على الوصول لمدينة إشبيلية، خرج الناس لاستقباله ورؤيته فما أن رأى الخليفة الفقيه العالم أبا بكر ابن الجد حتى ترجل عن فرسه، وأقبل عليه وتعانقا وقال له: " الحمد لله الذي جمعني بك يا حبيبي وحبيب الناس "[3]. وكان ابن الجد فقيه الأندلس في وقته، وحافظ المغرب لمذهب مالك لا يدانيه أحد في ذلك ولا يجاريه[4].

ومما ساهم في توطيد تلك المكانة بين العلماء والفقهاء والقضاة مع الخليفة أبي يعقوب، تلك الأموال والهبات التي كان يقدمها الخليفة لهم، فتحول حال الكثير منهم من الفقر والضنك إلى سعة الحال، فقد كان الفقيه أبو العباس أحمد بن الصقر الأنصاري، يحصل على صلات كثيرة ودائمة من الخليفة أبي يعقوب ربما وصل ما يمنحه له في المرة الواحدة خمسمائة دينار[5]، ومنح العالم أبا الوليد بن رشد عندما قدمه ابن طفيل إليه مالاً وخلعة سنية ودابة للركوب[6]، ويذكر المراكشي أن الخليفة

---

(1): المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص220-221.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص272؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص267-268.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص159.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص64-65.

(5): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص213.

(6): أمين، ظهر الإسلام، جـ3، ص246.

الخليفة أبا يعقوب جعل المرتبات للأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم[1].

وهكذا نال العلماء والفقهاء منزلة رفيعة ودنيا عريضة في دولة الخليفة أبي يعقوب يوسف، وشكلوا طبقة لها مكانتها واحترامها في المجتمع.

4.2.1.5 **طبقة العامة**:

شكلت طبقة العامة أو " الكافة " كما جاءت تسميتها في مخاطبات الخليفة أبي يعقوب الرسمية لولاته[2]، السواد الأعظم في مجتمع الموحدين، وضمت هذه الطبقة مختلف شرائح المجتمع من تجار وفلاحين، وأصحاب حرف وصناعات وغيرهم.

1.4.2.1.5 **التجار**:

تبوأ التجار قمة هرم شرائح العامة، حيث كانت التجارة أهم المهن التي مارستها طبقة العامة في حواضر المغرب والأندلس[3]، وانقسم التجار إلى صنفين: تجار القوافل، وهم الذين عرفوا بتجار الصحراء وكانوا يقومون بنقل السلع والبضائع ما بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، عبر الطريق الصحراوي الذي يصل ما بين سجلماسة وغانة[4]. ويمثل هذه الفئة في فترة دراستنا محمد بن الحسن اليصلاتي (ت595هـ/1199م)، وهو من أهل سجلماسة، يقول عنه ابن القاضي: " كان في ابتداء أمره من تجار الصحراء "[5].

أما الصنف الثاني من التجار فهم تجار الجملة، الذين يقومون بشراء ما تنتجه البلاد من سلع ويصدرونها للخارج، واستيراد ما تحتاجه البلاد من بضائع وبيعها

---

(1): المراكشي، المعجب، ص177.

(2): مجموع رسائل موحدية، ص149.

(3): طه، الحياة الاجتماعية، ص107.

(4): بلعربي، خالد: تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع15، للعام 2011م، ص37. سيشار إليه فيما بعد: بلعربي، تجارة القوافل.

(5): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص274.

لتجار التجزئة، الذين يبيعون بضائعهم في متاجرهم أو عن طريق التجـوال لسـد حاجة السكان[1]. ويشير جوليان إلى إقامة جاليات تجارية مـن جنـوة والبندقيـة ومرسيليا في تونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان وسـبتة منـذ عهـد عبـد المؤمن، وانهم كانوا يقومون في هذه المراكز بتبادل السلع التجارية مع تجار بـلاد المغرب فيشترون منهم ويبيعون عليهم[2].

وشكل هؤلاء التجار شريحة اجتماعية لا غنى عنها في المجتمع، إذ كانوا همزة الوصل بين الإنتاج والاستهلاك، فعن طريقهم يتم البيع والشراء، وكانت أسـواقهم عامرة وتجاراتهم نافقة، يقول ابن عذاري أنه لما كملت البيعة للخليفة أبي يعقوب " زاد الانبساط والنشاط عند الناس، فنمت الأرزاق وعمرت الأسواق وزادت المخازن وفوراً "[3].

هذا ولم يقتصر العمل بالتجارة على فئة معينة من المجتمع، فقد عمل بها حتـى العلماء والفقهاء كونهم وجدوا فيها أحد أسباب الرزق الكريم، فالعالم النحوي محمـد ابن الحدب الأنصاري (ت580هـ/1184م) عرف أنه " كان يحترف بالتجـارة "[4]، وأبو إسحاق إبراهيم بن إبراهيم الأنصاري (ت 583هـ/1177م) أصله من الأنـدلس وسكن مدينة فاس " كان يعلم القرآن ويبيع العشب ويقرئ النحـو "[5]. كمـا كـان القاضي أبو القاسم أحمد بن محمد الحوفي، الذي تولى قضاء إشـبيلية حتـى سـنة 579هـ/1183م، " يعيش أيام قضائه من صيد السمك مرة في الأسبوع يبيعه ويقتات بثمنه "[6].

ويبدو أن التجارة قد درت على أصحابها أموالاً وفيرة، ومنحتهم مستوى معيشي راق، فمما يذكر عن أبي الربيع سليمان بن المعز الصنهاجي (ت 579هـ/1183م)،

---

(1): حسن، الحضارة الإسلامية، ص344؛ طه، الحياة الاجتماعية، ص107.

(2): جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص160-161.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص99.

(4): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص271.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص136.

(6): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص222.

أنه كان يشارك تاجر جملة يعمل في تجارة الصادر والوارد مع بلاد السودان فعندما توفي ذلك التاجر وجد في تركته صرة من تبر مكتوب عليها لأبي الربيع الصنهاجي[1]. وكان أبو إبراهيم الهزرجي (ت 581ه/1185م) يملك دكان يبيع فيها الإسفنج[2] والهريسة، فيتصدق من بيعه على المساكين ويتفقد الأيتام وأولاد الفقراء ويكسوهم بالثياب[3]. ومما يذكر عن أبي عبدالله المهدوي (ت 595ه/1199م)، أنه كان يتجر بالقمح فجمع ثروة بلغت 40 ألف دينار وقد أنفقها جميعها في سبيل الله[4].
الله[4].

وهكذا عاشت شريحة التجار حياة كريمة في المجتمع، واستطاعت أن تفرض لنفسها وضعاً اجتماعياً مرموقاً بين كافة السكان.

2.4.2.1.5 **الفلاحين**:

شغلت شريحة الفلاحين مكانة هامة في مجتمع الموحدين، فهم الذين اعتمد عليهم في توفير ما يحتاج إليه المجتمع من مواد غذائية، وقد عاشوا بالمدن والقرى والبوادي يشتغلون بزراعة الأرض بمختلف أنواع المزروعات والثمار وتربية المواشي. ووجد منهم أعداد كبيرة في العاصمة مراكش، التي يصفها صاحب كتاب الاستبصار بأنها " أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات"[5].

---

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص280-282.

(2): الإسفنج: هي نوع من الحلوى تصنع من السميد وتحشى باللوز والجوز والصنوبر والفستق ثم تقلى بالزيت. انظر: مؤلف مجهول، (كان حياً في النصف الأول من القرن 7ه/ 13م): كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 9-10، مدريد 1961-1962م، ص88-89. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ؛ طه، الحياة الاجتماعية، ص206.

(3): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص241-242.

(4): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص332-334.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص210.

وكان الخليفة أبو يعقوب شديد العناية بالزراعة والفلاحين، إذ عمل على إنشاء بساتين عظيمة السعة في مدينة مراكش، وغرسها بمختلف أنواع الأشجار والثمار، وابتنى فيها صهاريج عظيمة الحجم لتجميع المياه[1]، وحظيت مدينة إشبيلية في الأندلس كذلك باعتنائه، فانشأ فيها البساتين التي يقصر عنها الوصف، فجلب لها من جبل الشرف عشرات الآلاف من أغراس الزيتون، ومن وادي آش جلب مختلف أنواع الاجاص والتفاح، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنه عمل في نقل الثمار والأشجار وغرسها في بساتين البحيرة من الفلاحين " الآلاف منهم مع الآلاف، فغرست على نسق عاماً بعد عام، على خير وإنعام "[2].

وتقسم شريحة الفلاحين إلى عدة أصناف، نذكر منهم ملاكي الأراضي سواء أكانت ملكية فردية أم جماعية بين سكان القرية الواحدة، ويأتي تملك الأرض إما وراثة أو هبة من الدولة أو شراء، فقد كان أبو الحسن علي بن أحمد الجراوي (ت 572ه/1176م)، وهو من أهل تادلا، يملك فداناً من الأرض موروثة له عن الآباء والأجداد[3]. ويأتي منح الخلفاء للأراضي الزراعية هبة منهم لمن دخل في طاعتهم أو تكريماً للبعض لخدمتهم الدولة، ففي سنة 571ه/1175م أقطع الخليفة أبو يعقوب ابن همشك عدة اقطاعات بمدينة مكناسة ليعيش منها هو وأهله وولده[4].

ومن أصناف الفلاحين الخماسون الذين يقومون بالأعمال الزراعية وخدمة الحيوانات مقابل مشاركة الأرض بنسبة الخمس في الإنتاج، وكانت الأحباس منتشرة في أرجاء المغرب سواء بين الملكيات الخاصة أو العامة، فمثلاً كانت الأراضي المحبسة لمسجد القرويين في مدينة فاس تدر عليه أموالاً طائلة لكثرتها[5].

وهناك صنف ثالث من الفلاحين وهم الموسميون الذين كانوا يستغلون أراضيهم في مواسم الحرث والحصاد ويتركونها باقي العام، مثال ذلك عثمان بن عبدالله

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص210.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص467.

(3): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص239.

(4): ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص302.

(5): موسى، النشاط الاقتصادي، ص156؛ طه، مدينة فاس، ص204.

السلالجي (ت 594هـ/1198م) كان يقيم في مدينة فاس ويتردد على أرضــه بجبــل سليلجو القريب من فاس لخدمتها وزراعتها(1).

ومن الملاحظ أن شريحة الفلاحين كانت أكثر فئات المجتمع تعرضاً للأخطـــار؛ نتيجة الحروب وسنوات الجفاف، لذلك تراوحت حياتهم بين الراحة والسعة والضنك والشقاء(2).

3.4.2.1.5 أصحاب الحرف والصناعات:

كان أصحاب الحرف والصناعات في المغرب والأندلس يتجمعون فـــي أحيـــاء وأسواق خاصة بهم بحسب حرفتهم، وحملت تلك الأماكن أسماء الصفة الغالبة على صناعاتهم كباب الدباغين، وفرن الجيارين، وسوق الغزالين في مـــراكش(3)، ودور الصباغين والصبانين وحوانيت الخياطين في مدينـــة فـــاس(4)، وســـوق الخيـــاطين والبزازين ومسجد الفخارين في إشبيلية(5).

وضمت هذه الشريحة العديد من أصناف المهن، منها فئة صانعي الثياب وهـــم الذين يقومون بصناعة الملابس من المواد الخام كالقطن والصوف، ومن الحاكة في عهد الخليفة أبي يعقـــوب محمـــد بـــن يعـــلا التـــاودي المعـــروف بالخيـــاط (ت 580هـ/1184م) من أهل فاس كان يعمل هو وزوجته فـــي إعـــداد الغـــزل وخـــيط الملابس وبيعها(6).

---

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص458.

(2): موسى، النشاط الاقتصادي، ص161-162.

(3): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص316، 472، 475.

(4): الجزنائي، علي (عاش في القرن 8هـ/16م): زهرة الآس في بناء مدينة فاس، ط2، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1991م، ص44. سيشار إليه فيما بعد: الجزنائي، زهرة الآس.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص485؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص277.

(6): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ1، ص219.

وهناك فئة البنائين إذ نلاحظ أن الحركة العمرانية الكبيرة التي شهدها عهد الخليفة أبي يعقوب من بناء المساجد والقصور والأسوار، وخاصة في مراكش وإشبيلية استلزمت وجود أعداد كبيرة منهم للقيام بهذه المنشآت، وعلى اختلاف أصنافهم من جيارين ونجارين وفخارين وصانعو الزليج المستخدم في تبليط الأرضيات، ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أبا يعقوب عندما عزم على بناء جامع إشبيلية الكبير سنة 567ه/1172م جلب له " جميع عرفاء الأندلس من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة، فاجتمع بإشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف صناع مهرة "[1].

وبرز في عهد الخليفة أبي يعقوب أعظم عرفاء البناء والمهندسين الموحدين على الإطلاق، ونقصد بذلك الحاج يعيش المالقي والعريف أحمد بن باسة اللذين يعود لهم الفضل في تشييد المسجد الجامع والقصور الملكية في إشبيلية[2].

وشكل صانعو الأدوات المنزلية أحد فئات الصناع المهمة، حيث اختص هؤلاء في سد احتياجات الناس مما يلزمهم من أدوات تستخدم في حياتهم اليومية، والتي يعد توفرها من ضروريات العمران[3]، ومن هؤلاء الصناع صانعوا الخزائن والصناديق الخشبية وأدوات الطبخ[4] والأسرّة[5]والأطباق والأرحاء[6]، فقد كان أبو سعيد عثمان عثمان اليرصجي (ت 590ه/1194م) يعمل في صناعة أحجار الأرحاء ويقتات من ثمنها[7].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص474-475.

(2): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص244-246.

(3): ابن خلدون، المقدمة، ص410.

(4): الزغول، الحرف والصناعات، ص129.

(5): البادسي، عبد الحق اسماعيل (ت 722ه/1322م): المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، ط2، تحقيق: سعيد اعراب، المطبعة الملكية، الرباط 1993م، ص59. سيشار إليه فيما بعد: البادسي، المقصد الشريف.

(6): حسن، الحضارة الإسلامية، ص348.

(7): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص319.

كما ينتمي لطبقة أصحاب الحرف والصناعات صانعو الأسلحة، وقد تميزت هذه الفئة بأهمية خاصة في مجتمع الموحدين كونهم يقومون بصناعة السلاح وإعداده للجيوش، ومن الملاحظ أن الموحدين برعوا في صناعة أنواع عديدة من الأسلحة الخفيفة والثقيلة، إذ نجد أن الخليفة أبا يعقوب أثناء حصار مدينة وبذة سنة 567هـ/1172م أمر النجارين بصناعة السلالم والأبراج[1]، كما قام صانعو الأسلحة في مراكش عام 579هـ/1183م بصناعة عشرة مجانيق حملها الخليفة أبو يعقوب على ظهر السفن في غزوته لمدينة شنترين سنة 580هـ/1184م[2].

وإلى جانب ما سبق كان هناك من المهن الخبازين[3] والبيارين، وهم حفارو الآبار[4] وصيادو السمك[5] وصانعو الزيوت والصابون[6] والحمالون[7] والرعاة، فقد كان أبو يعزى يلنور بن ميمون (ت 572هـ/1176م) من أهل تادلا يعمل في رعاية الغنم لبعض أهل المدينة مقابل رغيفين من الخبز عن كل يوم[8]. كذلك شكل رجال السفن والمراكب شريحة أخرى من شرائح المجتمع الموحدي، وقد ارتبط نشاطهم بأعمال البحار سواء في السفن المعدة للنقل أو التجارة أو حتى الحربية منها[9].

4.4.2.1.5 **طبقة الصوفية**[10]:

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص498.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص155.

(3): طه، الحياة الاجتماعية، ص124.

(4): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص562.

(5): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص244.

(6): الزغول، الحرف والصناعات، ص157-167.

(7): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص274.

(8): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص216.

(9): البادسي، المقصد الشريف، ص74-75.

(10): الصوفية: أو المتصوفة اسم اختص به المقبلون على العبادة، ويراد بالتصوف عزوف النفس عن الدنيا والعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف

حتى أواخر عصر المرابطين لم يكن لأتباع التيار الصوفي وجود كبيـر فـي المغرب والأندلس، وذلك للموقف العدائي الذي وقفه فقهاء المالكية مـن التصـوف والفلسفة على السواء[1]، ولكن بقيام دولة الموحدين عرفت هذه الطبقة ازدهاراً كبيراً لما أظهره الخلفاء الموحدين، لا سيما عبد المؤمن وابنه يوسف مـن عنايـة بنشـر المعارف ونصرتهم للفلسفة، فظهر من الصوفية رجال ذوو علم طار صـيتهم فـي الآفاق[2].

وعلى المستوى الاجتماعي استطاع المتصوفة كسب الطبقات الدنيا مـن عامـة الناس إلى جانبهم، فالتف حولهم الكثير من أبناء المجتمع يعظمونهم وينزلونهم منزلة التقديس والتكريم، ويلوذون بهم لرفع ما قد يقع عليهم من ظلـم أو شـدة أو حتـى مرض، فقد كان منهم من يتفقد أولاد اليتامى وأولاد الفقراء فيحسن إليهم[3]، ومـنهم من يعلم الصبيان ويخيط ثيابهم بلا أجر[4]، وآخرون قدموا الأضـاحي للفقـراء[5]، وتصرفوا في حوائج الضعفاء وسقي الماء وحمل الخبز للأرامل[6].

ومما زاد من التفاف الناس حول المتصوفة في هذا العهد تمتع بعضهم بالعديـد من الكرامات الخارقة للعادة أحياناً، مثل سرعة استجابة الدعاء والحديث مع الموتى، وإشفاء الضرير، وتسخير الحيوان والجماد، والمشي علـى المـاء، والطيـر فـي الهواء[7].

الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص467.

(1): دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص356-357.

(2): الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص347.

(3): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص93.

(4): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص272.

(5): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص219.

(6): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص272.

(7): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص216، 253، 271-286؛ القادري، الإسلام السري، ص132.

ولعل من أهم رجال التصوف على عهد الخليفة أبي يعقوب الشيخ أبـــو يعـــزى يلنور ابن ميمون الهزميري (ت572ه/1176م)، يقول عنه ابن الزيات " كان قطب عصره وأعجوبة دهره "[(1)]، وكان أبو يعزى مستغاثاً به في الأزمات، باراً باليتامى والمساكين، وله قدرة عجيبة في مداواة شتى الأمراض المستعصية، فحين أجـــدبت الأرض بفاس وامتنع سقوط المطر سنة 571ه/1175م لجأ الناس إليـــه بالشـــكوى، فأخذ بالبكاء والتضرع إلى أن غيمت السماء وسقط المطر، وقد أنكر عليـــه فقهـــاء فاس اشتغاله بمداواة المرضى من النساء ولمس صدورهن، وعدو ذلك خروجاً على أحكام الدين، فقال لهم: " أليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع لعلـــة ؟ فهلا عدوني واحداً من أطبائهم وأن ألمس ذوات العاهات للتداوي بذلك "[(2)].

ومن مشايخ الصوفية أبو داود مزاحم (ت 578ه/1182م)، كان كثير الكرامات، شديد الشفقة على المحتاجين، يبرئ الأدواء والعاهات، حتى أن كثيراً مـــن النـــاس بعدما يئسوا من الإستفادة عند الأطباء، اتجهت همتهم إليه فزالت عنهم أوجاعهم بما من الله عليه من كرامات، وكان الخليفة أبو يعقوب نفسه قد لجأ إليه عنـــدما عجـــز الأطباء عن مداواته من مرض البرص، فلما حضر بين يديه فرح به الخليفة كثيـــراً وقال له: " إن بجسدي داء قد أعيا الأطباء، وأنا أرجو بركتك في برئه فأخذ الشـــيخ من ريقه بسبابته اليمنى وقال للأمير امسك يدي ومر سبابتي على المواضع التي في جسدك، ففعل الأمير ما أمره به الشيخ فبرئ من حينه، فأمر له بمال جسيم، فـــامتنع عن قبوله"[(3)].

ومنهم أيضاً الولي الصالح أبو مدين شعيب بن الحســـين الأندلســـي (ت 594ه /1198م)، أصله من إشبيلية وسكن بجاية وتوفي بتلمسان، وهو مـــن المؤسســـين الأوائل للفكر الصوفي بالمغرب الأوسط، وقد أخذ التصوف عن أبي يعزى السالف الذكر، ثم انكب على التصوف علماً وعملاً حتى أصبح علماً يقصد من كـــل حـــدب وصوب، وللشيخ أبي مدين حكم غالية تدل على علو مقامة، وبديع قصده ومرامـــه،

---

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص214.

(2): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـــ1، ص553-554.

(3): البادسي، المقصد الشريف، ص50-55.

منها: " إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك لذة مناجاته " و" من عرف الله استفاد منه في اليقظة والنوم " و" من لم يجد في قلبه زاجراً فهو خراب " و" من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه"[(1)].

وكثر التأليف في التصوف والصوفية لهذا العهد، ومن ذلك تأليف ابن بشـــكوال (ت 578ه/1182م)، لكتاب في التصوف بعنوان " المستغيثين بالله عز وجل عنـــد المسلمات والحاجات والمتضرعين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات ومـــا يســـر الله الكريم لهم من الإجابات والكرامات "[(2)].

وهكذا لقيت شريحة المتصوفة احتراماً كبيراً في مجتمع الموحدين على عهد أبي يعقوب، وكان للكرامات التي اختصوا به عن سائر الناس سبباً في التفـــاف ســـائر شرائح المجتمع حولهم بما فيهم الطبقة الحاكمة.

3.1.5 مكانة المرأة في المجتمع:

حظيت المرأة في دولة الخليفة أبي يعقوب بمكانة طيبة ونالت التقدير والاحترام حتى أصبح يضرب ببعضهن المثل. وبالرغم اننا لم نسمع عن أي نشاط سياسي لها في فترة دراستنا، إلا أننا نجد أنه كان لبعضهن تأثير في سياسة الدولة ولو بشـــكل غير مباشر، فقد كان زواج الخليفة أبي يعقوب من زائدة ابنة محمد بن مردنيش سبباً في إغداق الخليفة عطفه على آل مردنيش ومنحهم عفوه وتكريمه، واستبقاء ملكهـــم في شرق الأندلس، فعين عمها أبا الحجاج يوسف والياً لبلنسية وجهاتها، وعين أخاها غانم قائداً لأساطيل المغرب الحربية بسبتة، ومنح أخاها أبو القمر هـــلال تكريمـــه واحترامه واستبقاه لديه، فعاش في كنفه رفيع الرتبة عالي المنزلة[(3)]. وتمتعت زائده

---

(1): الغبريني، عنوان الدراية، ص22-32؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جـــ2، ص247.

(2): ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578ه/1182م): الآثار المروية في الأطعمة السرية والآلات العطرية، ط1، تحقيق: أبي عماد محمد ياسر الشعيري، مكتبة أضواء السلف، الرياض 2004م، ص52. سيشار إليه فيما بعد: ابن بشكوال، الآثار المروية.

(3): ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص271.

نفسها بحب الخليفة حتى غدت أحب نسائه إليه، وكانت شقراء زرقاء العينين، وبلغ من شدة ولع الخليفة بها أن أصبح الناس يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء المردنيشية(1).

وكان لإحدى بنات الخليفة أبي يعقوب الدور الأكبر في توقيع اتفاقية الصلح والسلام بين الدولة الموحدية ومملكة صقلية، وذلك أنه في سنة 576هـ/1180م وقعت تلك الابنة في أسر الأسطول الصقلي وهي في طريقها على متن سفينة مغربية إلى تونس لتزف على أحد الأمراء هناك، فلما علم الملك الصقلي بأمر ابنة الخليفة أمر على الفور بإعادتها إلى قصر والدها، وقد تأثر الخليفة أبو يعقوب من هذه المبادرة ووافق من حينه على توقيع الهدنة والصلح مع مملكة صقلية(2).

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب الثقافي والعلمي وجدنا اشتغال الكثير من النساء بالعلوم والآداب المختلفة، حيث ساعدت تعاليم عبد المؤمن بجعل التعليم إجباري على الرجال والنساء(3)، بفتح المجال للمرأة لتنهل من ميادين العلم المختلفة، فظهر منهن العالمة والشاعرة والأديبة والطبيبة، فمن العالمات اللاتي ظهرن في عهد أبي يعقوب ابنته زينب التي برعت في علم الكلام وأصول الدين وقد تثقفت على يد كبار مشايخ العلم في المغرب والأندلس مثل أبو عبدالله بن إبراهيم، وكانت زوجة لابن عمها السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن(4). ومن نساء الشعب السيدة خيرونه التي ألف الإمام السلالجي(5) عقيدته البرهانية من أجلها، وظهر نبوغها في

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص56.

(2): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص236-237.

(3): علام، الدولة الموحدية، ص244؛ نوارة، الحياة الاجتماعية، ص113.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ4، ص262.

(5): هو أبو عمرو عثمان بن عبدالله بن عيسى، عرف بالسلالجي نسبة إلى جبل سليلجو الواقع بالقرب من مدينة فاس، كان راسخ القدم في علم الاعتقاد على مذهب الامام الأشعري، وقد جاهد جهاد الأبطال في سبيل نشره وتعميمه بين الناس، وتوفي بفاس سنة 574هـ/1178م. انظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص458؛ كنون، النبوغ المغربي، جـ1، ص149-150.

علم الاعتقاد على مذهب الأشعري، وكانت لها اليد الطولى في نشر التوحيد علـــى مذهب الأشعري بين نساء أهل فاس[1].

ومن الأديبات الشهيرات اللاتي ذاع صيتهن في عهد أبي يعقوب الأديبة الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية (ت 586ه/1190م)، عاشت فـــي غرناطـــة وملأت آفاق الدولة الموحدية أدباً وسمعة فاختارها أمير غرناطة السيد أبـــو ســـعيد عثمان لتكون معلمة ومؤدبة لنساء بني عبد المؤمن[2]. ويصفها المقري مادحاً بقوله: " حفصة من أشراف غرناطة، رخيصة الشعر، رفيعة النظم والنثر "[3].

ومن النساء اللائي اشتهر أمرهن بالطب " أم عمرو " أخت الطبيب أبو بكر ابن زهر وابنتها " أم أبي العلاء"، وكانت أم عمرو وابنتها " عالمتين بصـــناعة الطـــب والمداواة "[4]. ومما يذكر عن أبي بكر بن زهر أنه انتقل بجملة أهله من الأنـــدلس سنة 578ه/1182م وأقام في مراكش يعمل طبيباً في قصر الخلافـــة حتـــى وفـــاة الخليفة أبو يعقوب سنة 580ه/1184م[5].

وهناك ما يشير إلى أن المرأة الموحدية قد حصلت على حقهـــا الشـــرعي فـــي الميراث[6]، وأنها خرجت إلى الحياة العامة وشاركت فيها إلى جانب الرجل، فحـــين دخل الخليفة أبو يعقوب مدينة مرسية وهو في طريق عودته من غزوة وبـــذة عـــام 567ه/1172م خرجت النسوة برفقة الرجال لاستقباله فأخذن " يبـــدين أصـــواتهن بالفرح، وينطقن بألسنتهن بكل لفظ منشرح "[7].

---

(1): كنون، النبوغ المغربي، جـــ1، ص144.

(2): قجه، محمد حسن: محطات أندلسية، ط1، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة 1985م، ص200-204. سيشار إليه فيما بعد: قجه، محطات أندلسية.

(3): المقري، نفح الطيب، مج4، ص176.

(4): ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس (ت 668ه/ 1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965م، ص524. سيشار إليه فيما بعد: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء.

(5): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص207.

(6): علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص246.

(7): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص514.

وإلى جانب قيامها بدورها الأساسي في المجتمع من تدبير شؤون البيت ورعاية الأسرة وتربية الأبناء، اشتغلت المرأة المغربية في فترة دراستنا ببعض المهن رغبة في الكسب، فقد كانت زوجة أبي محمد يعلا التاودي (ت 580هـ/1184م) من أهــل مدينة فاس تعد الغزل وتمنحه لزوجها ليبيعه ويشتري بثمنه حوائجهما[1]، وعــرف عن نساء سجلماسة أنهن بارعات في غزل الصوف " يعملن منه كل حسن عجيــب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الأزار خمسة وثلاثــين دينــاراً وأكثر "[2].

4.1.5 اللباس والأثاث:

بالرغم من الإشارات القليلة التي عثرنا عليها عن الملابس والأثاث فــي دولــة الخليفة أبي يعقوب إلا أننا نستطيع القول أن الدولة الموحدية بلغت في عهده درجــة متقدمة من الرقي والحضارة، كون الملابس والأثاث تعطينا صورة صادقة عن حالة المجتمع.

فبينما اقتصر الخليفة عبد المؤمن في لباسه على قميص وسراويل وجبــة مــن الصوف، حرص الخليفة أبو يعقوب الذي تشبع بالثقافة الأندلسية على أن يظهر في أرتب هيبة وأبهة[3]، فلبس الغفافير الزبيبية والبرانس المسكية، وظل هذا النوع من اللباس قاصراً على الخليفة لا يرتديه غيره طوال عهده، وهناك من حاول من أبناء العمومة والقرابة عقب وفاة أبي يعقوب أن يتزينوا بهذا النوع من اللبــاس، فــأنكر عليهم المنصور ذلك لكونه من زي الخليفة " فلم يعد أحد منهم بعد ذلك للباس تلــك الألوان المختصة بالسلطان "[4]. والغفافير جمع غفارة وهي عند دوزي ثوب واسع، مصنوع من الجوخ الملون، الذي يزر بأزرار من ناحية الكتفــين[5]، بينمــا لابــن

---

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ1، ص219.

(2): ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ3، ص192.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص420، 457.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص187.

(5): دوزي، المعجم المفصل، ص258-259.

منظور رأي في تعريفها فيقول:" بأنها كساء يلبس فوق آخر"(1)، أما البرنس المسكي فهو كل ثوب متصل به غطاء للرأس في لون المسك(2).

وتميزت طبقة الخاصة من عمال وولاة بزي خاص، فكان كل من يراهم يعرفهم من أنهم عمال موحدين، يقول البادسي في وصف أحد الصالحين إنه كـان يلـبس " جبة صوف خضراء رائقة اللون، وحزام صوف تلمساني وعمامة بيضاء ونعـلان لطيفان.. يظنه كل من يراه أنه من عمال الموحدين "(3).

ولبس الفقهاء والعلماء البرنس الأبيض والعمائم البيضاء، ولبس بعضهم الثياب المطرزة، وتزينوا بأجود أنواع المنسوجات(4)، أما طبقـة الطلبـة والأشـياخ مـن الموحدين والعرب فنستدل على لباسهم من خلال ما كان ينعم به عليهم الخليفة، حيث يذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أبا يعقوب أعطى فـي سـنة 566ه/1170م " الكسوات للموحدين والأشياخ من كل ولطلبة الحضر والعرب، بأن أعطى كل واحد ستة أثواب عامة وغفارة وقبطية مبطنة ومقطعين مهدويين وكساء "(5).

ويظهر أن عامة الناس كان لهم لباس يميزهم في فترة الدراسة، وهذا ما نلاحظه من قول البادسي في وصف أحد الصالحين "كان يتستر بلباس العامة مـن البرابـر كساء صوف مطرقة الأجوان، ويعمل على رأسه جلموساً غليظ ويتقلد بسراف (أي سكين كبيرة)"(6)، وجاء في وصف ابن الزيات لأحد عامة فاس بأن " عليـه جبـة صوف وشاشية (طاقية) صوف وبوسطه مئزر صوف "(7).

---

(1): ابن منظور، لسان العرب، جـ7، ص229.

(2): ابن سيدة، أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي (ت 458ه/1065م): المخصص، السفر الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)،ص81. سيشار إليه فيما بعد: ابن سيدة، المخصص.

(3): البادسي، المقصد الشريف، ص72.

(4): طه، الحياة الاجتماعية، ص241.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص450.

(6): البادسي، المقصد الشريف، ص59.

(7): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص367.

أما لباس المتصوفة الذين شاع وجودهم في مجتمع الموحدين، فقد انعكس زهدهم في متع الدنيا بشكل واضح على لباسهم، فلم يرتدوا من اللباس إلا ما يستر عورتهم ويقيهم من برد الشتاء وحر الصيف، وغلب عليهم لبس الخشن والبالي من الثيـــاب، فيذكر ابن الزيات أن سالم بن سلامه السوســـي (ت 589ه/1193م) كـــان يرتـــدي عمامة بالية[1]، وأبا عمران موسى بن إسحاق الوريكي (ت592ه/1196م) من أهل مراكش، زهد في الدنيا ومتاعها فكان لا يرى إلا " محلوق الرأس حافي القــدمين، على جسده صوف بال "[2].

وميز الخليفة أبو يعقوب العبيد بأن كساهم الملابس الملونة، يقول ابن صـــاحب الصلاة: " وكسا العبيد الثياب المصنعة الألوان"[3]، وفي الواقع نجهل تماماً تفصيلات تفصيلات هذه الألوان.

وظل اليهود طوال عهد الخليفة أبي يعقوب يلبسون الثيـــاب الصـــفر والعمـــائم الصفراء، حتى إذا ما خلص الأمر لابنه المنصور نجده قد ألزمهم بلباس يختصـــون به دون غيرهم، وذلك بأن ألبسهم الثياب الزرقاء، وبدلاً من العمائم ألزمهم طـــواقي على أشنع صورة كأنها سروج البغال تصل إلى تحت أذانهم[4].

أما الجند فقد تعهدت الدولة بكسوتهم الكاملة حيث يذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أبا يعقوب وزع عليهم في سنة 561ه/1165م كسوة تامة من عمائم وغفاير وبرانس وأكسية، وذلك بان حصل كل جندي على غفارة وكسا وقبطيـــة وشـــقة[5]، وفي عام 566ه/1170م أعاد الخليفة أبو يعقوب كسوة الجنـــد، فكســـاهم جميعـــاً " بالقباطي والقمص والغفاير والعمائم "[6].

---

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص284.

(2): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص297-298.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص289.

(4): المراكشي، المعجب، ص223-224؛ الزجالي، أمثال العوام، ق1، ص218.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص291.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص437.

وهكذا نلاحظ أن كل شريحة من شرائح المجتمع الموحدي تميزت بلباس خاص يعرفون به بحسب مراكزهم وانتماءاتهم ووضعهم المعيشي.

وإذا ما انتقلنا إلى الأثاث وجدنا أيضاً أن هناك تمايز في الأثاث بين البيوت الموحدية بحسب الانتماء الاجتماعي والوضع المعيشي للأسرة، فالأرضيات في منازل الأغنياء كانت تفترش بالحصر الفتانة[1]، والبسط الفاخرة من نوع الطنافس (البسط المنمرقة) التي اختصت المغرب بصناعتها[2]، والتنتالية التي تصنع في تنتالة بالقرب من مرسية والتي كان يغالى في ثمنها[3]. أما بيوت العامة فكانت تفترش ببسط من صوف وحصر من حلفاء[4].

وكان الأغنياء في المغرب والأندلس ينامون على الأسرة المرصعة[5]، والمطارح المغلفة بأجواخ مطرزة، ويتوسدون مخدات من القطن أو نسج صقيل[6]، أما البسطاء من العامة فكانوا يكتفون بالمطارح الكتانية والصوفية وملك بعضهم أسرة خشبية[7]. وكانت الأغطية في فصل الشتاء لحف من صوف أو قطن، فقد استعار أبو عبدالله التاودي (ت 580ه/1184م) لحافاً من بعض أصهاره عندما نزل عليه ضيوفاً للمبيت عنده وكان في زمن البرد الشديد[8].

أما مكان حفظ الملابس فهو الخزائن والصناديق الخشبية[9]، واحتوت غرف الاستقبال (الجلوس) بالنسبة للطبقة الخاصة على مقاعد تسند على الحائط وتصف عليها مخدات للاتكاء، وهنا يصف لنا ابن صاحب الصلاة مجلس الخليفة أبي

---

(1): المقري، نفح الطيب، مج1، ص201.

(2): موسى، النشاط الاقتصادي، ص221؛ شحلان، التراث العبري، ص40.

(3): المقري، نفح الطيب، مج1، ص201.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص44؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص274.

(5): المقري، نفح الطيب، مج1، ص201.

(6): شحلان، التراث العبري، ص40.

(7): البادسي، المقصد الشريف، ص59؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص237.

(8): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص274.

(9): الزغول، الحرف والصناعات، ص129؛ شحلان، التراث العبري، ص40.

يعقوب، فيذكر أنه استدعي في سنة 566هـ/1171م من قبل الوزير أبي العلاء بن إدريس، والفقيه أبي محمد المالقي فادخلاه على الخليفة " وهو متكي على مخاد كثيرة وثيرة، وقد فرشت تحته وحواليه في مجلسه العالي"[1]. في حين لم يملك بعض الناس البسطاء سوى المطارح أو بعض الكراسي الخشبية[2] أو حتى الحصير أحياناً أحياناً للجلوس[3].

5.1.5 الطعام والشراب:

حفلت موائد سكان المغرب والأندلس في عصر الموحدين بالكثير من أنواع الأطعمة والأشربة، ويمدنا صاحب كتاب الطبيخ، وابن صاحب الصلاة، وابن الزيات وجميعهم من المعاصرين بالكثير من ألوان الطعام والشراب التي وجدت حقاً في فترة الدراسة، وطرق تحضيرها وتقديمها.

1.5.1.5 طعام الطبقة الخاصة:

من الملاحظ أن طعام الخاصة قد اختلف عن طعام عامة أفراد المجتمع، فكان متنوعاً ومكلفاً، ومن ألوان طعام هذه الشريحة نذكر على سبيل المثال:

- **الصنهاجي الملوكي**: يؤخذ من لحم البقر الأحمر دون شحم من فخذه ووركه ويقطع في طاجين (قدر) كبير ويطبخ نصف طبخة في الزيت وبعض العقاقير، ثم يضاف إليه من لحم الغنم الأحمر ويطبخ، ثم يضاف إليه من الدجاج المنظف المفصل والحجل وفرخ الحمام والعصافير والمركاس وينثر عليه لوز مقسوم، ويعدل بالملح، ويغمر بالزيت الكثير، ويدخل الفرن ويترك فيه حتى ينضج ويخرج "فهذا الصنهاجي السادج الذي يستعمله الخواص"[4].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص428.

(2): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص284.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص44.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص24.

- **السنبوسك**: كان يصنع بمراكش بدار الخليفة أبي يوسف المنصور ولعله صنع كذلك زمن والده أبي يعقوب، وطريقة تحضيره تتمثل في أخذ سكر أبيض فيحلب بماء الورد ثم يجعل مع اللوز المدقوق كالعجين، ويحرك برفق حتى يلتف، ثم ينزل عن النار، فاذا فترت حرارته جعل فيه سنبل وقرنفل ويسير من زنجبيل بعدما تحل هذه العقاقير بماء الورد مع شيء من كافور ومسك ولوز مقسوم، ويعرك الجميع حتى يتداخل بعضه ببعض ويصنع منه قرص على قدر الكعك وفر ثلاث وكورت على شكل النارنج وشبه التفاح والاجاص، وتقدم للأكل[1].

- **عجل مشوي**: كان يصنع عادة للسيد أبي العلاء أخو الخليفة أبي يعقوب أثناء ولايته على مدينة فاس، حيث يؤخذ كبش سمين منظف بين فخذية فتحاً ضيقاً ويخرج جميع ما في جوفه من أحشاء، ثم يدخل يدخل في جوفه أوزة مشوية، وفي جوف الأوزة دجاجة مشوية، وفي جوف الدجاجة فرخ حمام مشوي، وفي جوف الفرخ زرزور مشوي، وفي جوفه عصفور مشوي، ويخاط ذلك الفتح ويدخل الكبش في التنور، ويترك حتى ينضج ويحمر، ويطلى بتلك المرقة، ثم يدخل في جوف عجل قد أعد منظف ويخاط عليه ويجعل في تنور ويترك فيه حتى ينضج ويحمر ثم يخرج ويقدم[2].

- **البلاجة**: تصنع في بلاد المغرب والأندلس، وذلك بأن يؤخذ من لحم الغنم الفتي السمين ويقطع قطعاً صغاراً جداً، ويطبخ بالزيت مع قطعة بصلة وبعض العقاقير في قدر على نار معتدلة حتى ينضج، ثم ينزل عن النار ويصفى ويقلى بعد ذلك في مقلاة بزيت حتى يحمر، ثم يجعل في طاجن ويصب عليه من مرقته التي طبخ فيها ويفقص عليه بيض ويضاف إليه بعض العقاقير وينثر عليه لوز مقسوم، ثم يخلط بالزعفران، ويصب عليه زيت كثير ويدخل في الفرن ويترك فيه حتى يجف ويحمر أعلاه ويخرج[3].

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص213.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، 32-33.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص49.

واهتمت الطبقة الخاصة بتناول عدة أشكال من الحلوى منها قاهرية الصـــابونية التي كانت تصنع بمراكش من اللوز والسكر وبعض أنواع العقاقير، ووصفت بأنهـــا طيبة المذاق[1]، وهناك أيضاً الرفيس الملوكي المصنوع من السميد والحليب والبيض والخمير واللوز المقشور[2].

وإن المتحقق بأصناف هذه الأطعمة ومكوناتها يلمس بلا شك مـــدى الرفاهيـــة والرخاء الاقتصادي التي كانت تعيشها فئة الخاصة في هذه الفترة.

2.5.1.5 **طعام الطبقة العامة:**

تنوع طعام العامة بحسب المستوى المعيشي لكل أسرة ومناطق وبيئات العيش، إلا أن الخبز المصنوع من القمح أو الشعير لم تكن تخلو منه دار في تلك الفترة[3]، واختلفت طريقة طهي الخبز فغالبية العامة من سكان المدن يطهـــون خبـــزهم فـــي الأفران المنتشرة في الأحياء[4]، بينما سكان البادية والرعاة والمسافرين يطهون على الملة[5]. ومن القمح والشعير كان يتخذ أغلب طعام العامة، فمنه تصـــنع العصـــائد والثريد، فأما العصائد فيذكر ابن الزيات أن أبا يحيى الصنهاجي (ت590هـ/1194م) كان يعتني بإطعام أحد الصلحاء فيصنع له كل يوم " عصيدة شـــعير دون أدام "[6]، ويقدم لنا البادسي طريقة تحضير عصيدة الشعير عند ترجمته لأحد أصـــدقاء جـــده فيقول: " فأوقد الشيخ النار وسخن الشعير وطحنه، وصنع منه عصـــيدة "[7]، وفـــي الغالب كان يضاف للعصيدة شيء من السمن.

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص212-213.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص205.

(3): نوارة، الحياة الاجتماعية، ص179.

(4): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ2، ص458؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص201.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص78.

(6): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص308.

(7): البادسي، المقصد الشريف، ص71.

وعن الثريد يقدم لنا صاحب كتاب الطبيخ صفة صنعها فيذكر أنه يؤخذ حليب غنم ويسخن حتى يغثر وتعلوه رغوة ثم يضاف لخبز القمح المفتت وتترك حتى تتشرب ثم تصب في قصعة ويضاف إليه شيء من الزبدة والسكر(1).

وهناك أصناف أخرى انتشرت بين العامة في تلك الفترة مثل العدس باللحم المقلي(2)، والهريسة بأصنافها المختلفة من لحم العجل أو لحم الضأن أو صدور الأوز والدجاج(3)، كما انتشرت بين العامة في المغرب والأندلس المجبنة التي تصنع تصنع من جبن البقر والغنم معاً(4).

وهناك أطعمة اختصت بها جهات دون غيرها، فقد انفردت مراكش بنوع من الطعام عرف باسم تاحصصت يصنع من اللحم السمين المقلي بالزيت(5)، واختص أهل السوس من المصامدة بأكلهم للجراد أكلاً كثيراً مقلواً ومملحاً(6)، وعرف عن أهل بلاد لمتونة وهم من صنهاجة بأنهم يجففون اللحم ويطحنونه ويصبون عليه الشحم المذاب ويأكلونه ويشربون عليه اللبن، فيبقى الرجل منهم لمدة شهر لا يشرب ولا يأكل خبزاً(7)، وقبائل كدالة كانوا يشربون لبن النوق ويأكلون قديد الجمال، وسكان بلاد نول لمطة يفضلون أكل الحيات على الدجاج(8)، أما أهل سجلماسة فعرف عنهم أنهم يسمنون الكلاب ويأكلونها(9)، واشتهرت بلاد غرب الأندلس بصناعة طعام الحوت المروج، وتمر طريقة صنعه بثلاثة مراحل أولاً صلق الحوت بالماء والملح ثم قليه بالزيت حتى يحمر، ثم قلي الحوت مرة أخرى بأنواع مختلفة

(1): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص185.

(2): نوارة، الحياة الاجتماعية، ص181.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص191.

(4): طه، الحياة الاجتماعية، ص199.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص87.

(6): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص62.

(7): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص213.

(8): ابن سعيد، بسط الأرض، ص46.

(9): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص201.

من العقاقير[1]، وعموماً كانت أطباق السمك هي الطعام الأساسي لسكان المناطق الساحلية، حتى أن بعضهم كان " لا يأكل إلا صيد البحر خاصة "[2].

وكانت الطبقة العامة مولعة بتناول أصناف عدة من الحلوى، منها ما يجهز في المنازل كالقطائف والكنافة، وبعضها الآخر يباع في الأسواق كالإسفنج والهريسة، فمثلاً يذكر عن أبي إبراهيم إسحاق الهزرجي (ت581هـ/1185م) وهو من سكان الجانب الشرقي من مراكش، إذا " صلى الصبح خرج إلى دكانه ليبيع الإسفنج والهريسة"[3].

أما طعام المتصوفة فقد غلب عليه طابع التقشف حتى لم يتعد في بعض الأحيان خبز لوحده في اليوم، أو خبز الشعير بالماء، أو خبز مع لبن[4]، فقد بلغ من زهد محمد بن عبيدالله الإشبيلي (ت 574هـ/1178م) وهو شيخ مشيخة الصوفية بالأندلس، أن " كان قوته من الخبز قرصة في يومين وكثيراً ما كان يتصدق بها ويبقى طاوياً يوماً أو يومين "[5]، وبالرغم من محاولات الخليفة أبي يعقوب التقرب منه والإغداق عليه إلا أنه لم يقبل منه كثيراً ولا قليلاً[6].

ومنهم من لم يأكل لحماً ولا شيئاً مما يأكله الناس، وإنما اعتمدوا على نبات الأرض مثال ذلك أبو يعزى بن ميمون (ت572هـ/1176م) " كان لا يأكل شيئاً مما يأكله الناس، وإنما يأكل الحشيش الذي لا يعتاد أكله "[7].

وبالرغم من حياة التقشف والزهد التي ألزم المتصوفة أنفسهم بها، إلا أنهم تميزوا بالكرم، فأبو يعزى يلنور السابق الذكر اعتمد طعامه على نبات الأرض لكنه كان " يطعم الواصلين إليه العسل ولحم الضأن والدجاج "[1].

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص176.

(2): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص233.

(3): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص93-96.

(4): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص171، 181، 197، 206.

(5): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص296.

(6): التنبكتي، نيل الابتهاج، ص376-377.

(7): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص564.

أما عن الأطعمة التي كانت تقدم في المناسبات العامة وخاصة عند تولي الخليفة الحكم أو عند تمييز الجيوش استعداداً للجهاد، فيأتي على رأسها طعــام آســماس، فعندما تولى الخليفة أبو يعقوب الحكم سنة 558هـ/1163م وبايعه الناس، صنع لهــم طعام آسماس فأكلوا وأعطاهم البركة[2]. وعندما أعلن الخليفة أبو يعقوب النفير العام للجهاد في الأندلس سنة 566هـ/1170م قدم إليه العرب من إفريقية وأعد لهم مــآدب عظيمة من طعام آسماس، بحيث أن كل ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لهم الطعام مرة واحدة، فإذا انتهوا من الأكل ساروا إلى موضع الخليفة وسلموا عليه وأتــت طائفــة غيرهم، واستمر حفل الإطعام أياماً[3]، وفي الحقيقة إننا نجهل تماماً صــفة صــنعة طعام آسماس إذ لم يرد ذكره عند صاحب كتاب الطبيخ.

وإذا ما انتقلنا إلى الأشربة وجدنا أن شراب الرب كــان يتربــع علــى قائمــة المشروبات في عهد الخليفة أبي يعقوب، والرب هو الطبيخ الخــاثر مــن عصــير العنب، وقيل هو دبس كل ثمرة، غير أن أفضله المصنوع مــن العنــب[4]. وهــذا المشروب إذا لم يغلي كثيراً لم يكن مسكراً ويسمى عندئذ بالرب الحــلال[5]، وقــد وجدت له سوق خاصة لصنعه وبيعه في عهد الخليفة أبي يعقوب بمدينــة مــراكش وذلك بالقرب من أحد أبواب المدينة حتى عرف ذلك الباب بباب الرب[6].

وكان شراب الرب الأكثر انتشاراً بين العامة والخاصة حتى بين طبقة الصوفية، حيث يذكر عن يحيى بن محمد بن رزق (ت 560هـ/1165م) أنه كان لا يأكــل إلا مما تنبته الأرض من المباح، لكن " إذا وجد عصير الرب يفرح به كثيراً "[7]. ولــم

---

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص215.

(2): البيذق، أخبار المهدي، ص81.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص63.

(4): ابن بشكوال، الآثار المروية، ص231.

(5): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص174.

(6): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص179؛ أحمد، من الاصطلاحات التاريخية، ص154.

(7): الضبي، بغية الملتمس، جـ2، ص669؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص296-297.

يكن أهل جبل درن من المصامدة يستغنون عن شربه لأنه يبعث الحرارة في أجسادهم مما يساعدهم على تحمل برد الجبل وثلجه[1]، وهو شراب الاحتفالات والمناسبات الرسمية ففي عام 566ه/1170م احتفل الخليفة أبو يعقوب بقدوم عرب إفريقية لمراكش تلبية لنداء الجهاد، فصنع لهم " نهر من رب ممزوج بالماء "[2].

واستمر الموحدون يتناولون شراب الرب الحلال الممزوج بالماء، حتى إذا ما تولى أبو يوسف المنصور الحكم سنة 580ه/1184م أصدر أمراً بتحريمه نهائياً ومصادرته من جميع أطراف المملكة وذلك لأنه لاحظ أن الناس قد أسرفوا في تخميره حتى أصبح مفعوله كمفعول الخمر[3].

وإلى جانب شراب الرب، عرفت أنواع أخرى من الأشربة لكنها كانت أقل انتشاراً مثل شراب النعنع وشراب الجلاب المصنوع من ماء الورد المعطر والسكر[4]، وكان أكثر شراب أهل بلاد السوس ماء قصب السكر[5]، وأكثر شراب قبائل صنهاجة لبن الإبل وصفوة نقيع الزبيب المدقوق[6].

6.1.5 الاحتفالات والأعياد:

احتفل سكان المغرب والأندلس في عهد الخليفة أبي يعقوب بالعديد من المناسبات والأعياد، كالاحتفال بالبيعة للخليفة والاحتفال بالانتصار، والاحتفال بالأعياد الدينية. فعندما تم تجديد البيعة للخليفة أبي يعقوب سنة 563ه/1167م قدمت الوفود للعاصمة من سائر أنحاء البلاد لتقديم التهنئة والاحتفال بتجديد البيعة، وعمت الفرحة والسرور كافة الناس وصدر عن الخليفة بهذه المناسبة عفو عن المسجونين والعمال الخائنين، فزاد الانبساط واغتبط الناس به وببيعته. ويذكر ابن صاحب

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص211.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص433.

(3): مجموع رسائل موحدية، ص164-167.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص239-240.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص212.

(6): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص58-59.

الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة " ببركة تعم الناس بحضرة مراكش إيصالا للعفو الذي تقدم.. ونفذ أمره العزيز بمخاطباته إلى السادات إخوته بالبلاد العدوية والأندلسية القاصية والدانية بالإنعام بالبركة فعم الناس فضله ورفده وثبت في القلوب حبه وعهده.. واتصلت الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان، وقيل للزمان: أنت خير زمان "[1].

واغتنم الموحدون الانتصارات الحربية لإقامة الاحتفالات، فكان الخليفة أو من ينوب عنه في قيادة الجيش يكتب بالانتصار إلى العاصمة والولايات، ويطلب استظهار ما جاء في الكتاب من بشرى النصر والفتح وإعلان ذلك للملأ، وكانت الاحتفالات بمثل هذه المناسبات تستمر أياماً، عديدة حيث تدق الطبول وتقام موائد الطعام وتوزع الأموال والأكسية، مثال ذلك الاحتفال الذي جرى في العاصمة مراكش بالنصر الذي تحقق على ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب سنة 560هـ/1165م، والذي يصفه لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان من شهود هذا الحفل، فيقول: " كنت صبيحة يوم الأحد الذي وصلت فيه البشرى الفاتحة قد بكرت على العادة إلى دار الخليفة.. ودخل الفرسان الواصلون بالبشرى في الحين بخيلهم وبأيديهم علامات ابن مردنيش مستورة، على غير علم ولا مقدمة من وصولهم، ففزع الناس أولاً لدخولهم بغير مقدمة ولا إذن، ثم علموا من صحيح صياحهم انها بشرى الفتح، فقام التكبير والتهليل، وضربت الطبول واتصل السرور". ويضيف ابن صاحب الصلاة أنه بمقدم السيد أبي حفص قائد الجيوش الموحدية في فحص الجلاب، أعلنت الاحتفالات العامة بحضرة مراكش فخرج الخليفة بنفسه في موكب عظيم لاستقبال أخيه، حيث " كسا العبيد بالثياب المصنعة الملونة، وصفف الفرسان.. بالدرق والرماح صفوفاً وجعل الرايات خلف ركابه، والطبالين مع خاصة أصحابه، وهو راكب على جواده العتيق، ووزيره أبو العلاء إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً يحدث.. والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور في البراج.. بباب الشريعة.. وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجري والدفاع وبالحملات والكرات والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى آذان الظهر.. ثم نزل الأمير عن فرسه،

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص335، 347.

ونزل السيد الواصل أيضاً والتقيا وتصافحا ثم سلم الناس.. وركبوا وعـادوا إلـى العساكر ودخلوا القصر العتيق.. وكان البروز الحافل ما أبهـت النـاظرين لغايـة الإجماع. وفي اليوم الثاني من هذا الوصول السعيد، صـنع للموحـدين الواصـلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأطعمة الدارة، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة.. والبركة الحافلة من الذهب والدراهم..فاجتمع لجميع الناس السرور، والمال الحاضر الموفور"[(1)].

أما الاحتفال بالأعياد الدينية فقد أخذت مظهراً آخر، حيث كان الخليفـة يخـرج لتأدية صلاة العيد في موكب من كبار رجال دولته، وبعد الانتهاء من تأدية الصـلاة يقف الخليفة في المسجد ويدعو للناس ثم يتقدم كبار أشياخ الموحدين للسـلام عليـه والتهنئة، وإذا كان عيد الأضحى يذبح كبش بين يديه في ساحة عامة بحضور الناس والعساكر، ثم ينصرف الخليفة إلى القصر والناس إلى منـازلهم لترتيـب عيـدهم كالمعتاد، وفي اليوم التالي يجلس الخليفة في قصره وتأتيه الوفود للتهنئة بالعيد حسب منازلهم فيتقدمهم أولاً أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ثم طلبة الحضـر والفقهـاء والقضاة والكتاب والأولياء ووجوه الولايات، وقد يقوم الخليفة في مثل هذه المناسبة بتوزيع الأضاحي على من حوله كما فعل في سـنة 567هـ/1171م، عنـدما وزع كباشاً على أخوته وأشياخ الموحدين ووجوه دولته[(2)].

ومن مظاهر الاحتفال بعيد الأضحى تنافس الناس في شراء الأضاحي وخاصـة الكباش منها، وهذا ما دفع الكثير منهم على التحوط بالمال خلال أيام السنة لشرائها؛ كي يضحوا بها إذا حضر العيد، وكانت النساء تنافس الرجال في ذلك[(3)]. وكمظهـر من مظاهر العيد كان الناس يلبسون في أيام العيد الملابس الجديدة، ويقومون بزيارة بعضهم البعض ويتبادلوا تقديم وتناول الحلويات اللذيذة والأطباق الشهية[(4)].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص289-292.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص457، 511.

(3): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص219.

(4): طه، الحياة الاجتماعية، ص344-345؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص420.

وكان يوم عاشوراء من المناسبات الدينية التي احتفل بها الناس في فترة الدراسة، فكانوا يصومون هذا اليوم ويقوم الميسورين منهم بإعداد الطعام الكثير ويجمعون عليه الفقراء والمساكين[1]. ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن أهل قفصة كانوا " يعظمون يوم عاشوراء تعظيماً كثيراً وهو عندهم مثل الأعياد، ولهم فيه صدقات كثيرة وكساء للمساكين"[2].

كما احتفل أهل العدوتين بجنائز الفقهاء والأولياء والصالحين، مثلما حدث في جنازة أبي يعقوب يوسف بن عبدالله التادلي، توفي بمراكش سنة 572ه/1176م، حيث يذكر ابن الموقت أنه لما مات غسله جيرانه ولم يعلم بموته غيرهم، فلما خرجوا بجنازته من باب الدباغين أتى الناس إليها من كل جهة، واحتفل الناس بجنازته، وحضرها خلق كثير[3]. وحينما توفي الفقيه أبو الحسن علي بن حسين النجار في مدينة بلنسية سنة 578ه/1182م، احتفل الناس بجنازته وشهدها خلق لا يحصون عدداً، حتى قيل أن بلنسية لم تشهد جمعاً للناس أعظم مما شهدته جنازة أبي الحسن[4].

7.1.5 وسائل التسلية:

نَعِمَ الموحدون في عهد الخليفة أبي يعقوب بسعة الرزق ورغد العيش، وشيئاً فشيئاً بدأ عليهم ترك حياة التقشف التي اعتادوها في حياة المهدي بن تومرت وعبد المؤمن وأخذوا ينعمون بلذات الحياة وطيبات النعيم، وشكل الخروج للبساتين والحدائق العامة في فصل الربيع والصيف أحد وسائل التسلية والترويح عن النفس، ويأتي في مقدمة هذه البساتين في مدينة مراكش بستان المسرة وبستان الصالحة

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص271.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص154.

(3): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص99.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص214؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س5، ص205.

وهما من إنشاء عبد المؤمن بن علي، والبساتين التي أنشأها الخليفة أبو يعقــوب[1]. وكانت هذه البساتين التي غدت متنزهات للناس تحوي صهاريج ضخمة للمياه أخذها الناس بركاً للسباحة، يقول صاحب كتاب الاستبصار " كنا في تلك المدة نعوم فيهــا فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة، وكنا نتفاخر بذلك "[2].

كما كان الناس يتوجهون في فصل الصيف إلى السواحل ويمضون على شاطئ البحر أياماً طلباً للراحة والاستجمام ويبيتون هناك في خيام يصطحبونها معهــم[3]، ويبدو أن شواطئ مدينة سلا كانت الأكثر ازدحاماً بالمتنزهين في فترة دراستنا بفعل ما أنشأه فيها الخليفة أبو يعقوب من أسواق عظيمة وحمامات وفنادق تســهل علــى الزوار والسياح توفير احتياجاتهم، ويصور لنا صاحب كتاب الاستبصار تلك الحركة النشطة، التي كانت تشهدها شواطئ مدينة سلا في فصل الصــيف فيقــول: " أمــر الخليفة أبو يعقوب ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة التــي أحــدثها الإمــام أميــر المؤمنين.. وفي هذه المدينة المحدثة قيصارية عظيمة وحمامات وفنادق وديار كثيرة ومنافع أعدت لورود المحلات عليها.. وما هي وقت مرور المحلات عليها إلا مــن عجائب منتزهات الدنيا لا سيما في الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة. وناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر"[4]. أما في الأندلس فقــد شكل نهر الوادي الكبير مكاناً للتنزه لأهل إشبيلية وقرطبة، يقول صاحب كتاب ذكر بلاد الأندلس: " وعلى ضفتي هذا النهر بساتين كثيرة وجنــات عاليــة ورياضــات زاهرة فتسير القوارب في الوادي للنزهة والصيد طالعات ومنحدرة تحــت ظــلال الثمار وتغريد الأطيار "[5].

---

(1): المنوني، محمد: حضارة الموحدين، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1989م، ص162. سيشار إليه فيما بعد: المنوني، حضارة الموحدين.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص210.

(3): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص234.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص140-141.

(5): مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد 1983م، ص62. سيشار إليه فيما بعد: مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس.

وبجانب ذلك احتوت بعض المدن مثل مراكش وتونس على ملاعب تقدم فيها عروض لصيد الحيوانات المفترسة مثل الأسود، وكان يسمح لبعض الحضور من المقاتلين الشجعان الاشتراك في تلك العروض، وقد أورد لنا ابن الآبار وصفاً لحفلة صيد أربعة أسود ونمرين اشترك فيها أبو جعفر الوقشي أثناء زيارته لمراكش سنة 564ه/1168م، فأبدى فيها براعة خاصة، وكانت تلك الملاعب تحتوي أبواب صغار فإذا فتح احداها وخرج الأسد دحرج إليه كرة كبيرة من الخشب محكمة الصنعة، فإذا وثب الأسد على الكرة ألقم المقاتل فمه بأسنة الحراب الطويلة المعدة لذلك(1)، وكان الناس يستمتعون كثيراً بهذا النوع من العروض.

وهكذا نجد أن الموحدين قد عنوا بالترفيه عن النفس، وقد وجدوا لذلك أسباب ووسائل عديدة بما يتلاءم مع رغبات الناس وميولهم.

8.1.5 الأوبئة والأمراض وأثرها في الحياة الاجتماعية:

تعرضت بلاد المغرب في عهد الخليفة أبي يعقوب لبعض الأوبئة والأمراض التي شكلت خطراً كبيراً على حياة السكان ونشاطهم، وراح ضحيتها الكثير من الناس، ففي سنة 564ه/1168م، عانت مدينة مراكش من تلوث الهواء جراء انتشار ميكروب غريب تسبب في مرض الكثير من الناس والسادات ورجال الدولة(2). وفي سنة 571ه/1175م عاد المرض من جديد ليعصف بسكان المغرب الأقصى ولكن هذه المرة كان من النوع الخطير وهو المسمى بالطاعون، والذي كان من أخطر الأوبئة التي اجتاحت بلاد المغرب على عصر الموحدين، فقد وصف بأنه " لم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنه قبله "(3)، وكانت نتائجه كانت كارثية على البنية السكانية، وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان، ويشير ابن عذاري إلى أن كثرة الوفيات حالت دون حملهم إلى المسجد الجامع للصلاة عليهم، الأمر الذي

---

(1): ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ2، ص262-263؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص317.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص395.

(3): القادري، الإسلام السري، ص189.

دفع بالخليفة أبي يعقوب إلى إصدار أمر بأن يصلى على الوفيات في سائر المساجد رفقاً بالناس في ذلك[1].

وتضطرب الروايات في إعطائنا إحصاءً دقيقاً لعدد الوفيات، فــابن أبــي زرع يذكر أن عدد الوفيات بمراكش لوحدها انتهى إلى ألف وسبعمائة رجل[2]، في حــين يجعل ابن عذاري عدد الضحايا في كل يوم مائة وتسعين شخصاً وأن ذلك اســتمر مدة سنة كاملة[3]، ووفق رواية ابن عذاري هذه يكون ضحايا هذا الطاعون حــوالي 69.160 شخصاً، هذا فضلاً عن عدد الوفيات من الخدم والعبيد الذين كانوا يعملون في قصور الخليفة والأمراء، إذ كان يسقط منهم يومياً ثلاثين شخصاً حتى كادوا أن يفنوا جميعاً[4].

ورغم ما كانت تتمتع به أسرة الخليفة أبي يعقوب وكبار رجــال الدولــة مــن إمكانات طبية ووقائية، فإنهم لم يكونوا بمنأى عن الإصابة بهذا الوباء، بل أن الخليفة نفسه كاد أن يكون من ضمن الضحايا، ومات فيه من أخوة الخليفة السيد أبو عمران والي تلمسان، والسيد أبو زكريا والي بجاية، والسيد أبو سعيد، ومن أعيان الدولــة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي الذي كان من أبرز أعمدة الدولة ورجالاتها، وقاضي الجماعة أبو يوسف حجاج بن يوسف[5].

ويبدو أن هذا الطاعون لم يقتصر على العاصمة مراكش كما يشير إلــى ذلــك البعض[6]، وإنما تعداها ليشمل المغرب الأقصى، إن لم يشمل بلدان الغرب الإسلامي بأكملها، فالشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي مات متأثراً بالمرض وهــو عائــداً فــي الطريق من الأندلس ودفن بمدينة رباط الفتح[7]، ثم أن الرعب الــذي تســببه هــذا

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص136.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص267.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص136.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص136.

(5): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص158.

(6): حسن، الحضارة الإسلامية، ص410.

(7): بولقطيب، جوائح وأوبئة، ص52-53.

المرض بين سكان مراكش دفع بالكثير منهم إلى مغادرتها في محاولة للنجاة بأنفسهم، وبالتالي نشر هذا الوباء خارج العاصمة، وهذا ما أشار إليه ابن عذاري إذ يقول: " واتصل روع الناس بالحضرة المذكورة.. وكل من خرج منها فاراً بنفسه مات في الطريق "[(1)].

ونظراً لانتشار الوباء وما نجم عنه من تأثيرات نفسية على الناس بلغت حداً أنهم كانوا يموتون من غير مرض، لجأت الدولة إلى إجبار الناس على حمل بطاقات فيها بيانات عنهم حتى إذا فاجأ الموت أحدهم سهل التعرف إلى أسرته، يقول ابن أبي زرع: " كان الناس يموتون فيه من غير مرض، فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه، فإن مات حمل إلى موضعه وأهله"[(2)].

وإلى جانب ما سببه طاعون عام 571هـ/1175م من نتائج اجتماعية وخيمة من حيث عدد الوفيات التي وصلت في مدينة مراكش وحدها إلى حوالي 11.5% من مجموع سكان المدينة البالغ آنذاك زهاء 600 ألف نسمة[(3)]، فإن هذا الوباء أحدث شللاً في الحياة الاقتصادية وخاصة في النشاط الزراعي والتجاري، مما نتج عنه ندرة المواد الغذائية في الأسواق، ولا سيما القمح، وهذا ما نلمسه في إشارة ابن القاضي إلى قيام أحد الصالحين في مدينة فاس، وهو أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن التادلي (ت 576هـ/1180م) بالتصدق بمخزون غرفتين من القمح على المساكين خلال هذا الوباء سنة 571هـ/ 1175م، حتى أنه لم يترك لابنه الضرير شيئاً[(4)].

2.5 الحياة الاقتصادية:

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص136.

(2): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص267.

(3): بولقطيب، جوائح وأوبئة، ص54.

(4): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص542-543.

لم تعرف الدولة الموحدية طوال عهدها أيام أمن وعدل ورخـــاء كتلـــك التـــي عاشتها أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، وقد تمخض عن ذلك نهضة اقتصادية عظيمة في مختلف الميادين الزراعية والصناعية والتجارية. وإذا كان عبد المؤمن صاحب الأيدي البيضاء في وضع اللبنة الأولى لأسس النظـــام الاقتصـــادي الناجح في الدولة الموحدية، فإن لابنه يوسف يعود الفضل في تثبيت أركـــان هـــذا النظام وتطويره بما يتلائم ومستجدات الدولة، إذ لم تكد تمر مدة قليلة على إعتلائـــه سدة الحكم حتى كانت منجزاته في هذا الشأن تبهر وتدل على سعة درايته، فغمرت الشعب في عهده موجة من الرخاء لم يعهدها من قبل، وقد أشار إلى ذلك الســـلاوي بقوله: " قد استغنى الناس في أيامه "[1]، أما ابن صاحب الصلاة فيقـــول: " ونـــال الناس معه في إمارته.. بصلاح أحوالهم ونماء أموالهم ما لم يعقد مثلها في زمـــان "[2].

1.2.5 الزراعة:

1.1.2.5 عوامل ازدهار الزراعة:

اهتمت الدولة الموحدية على عهد الخليفة أبـــي يعقـــوب يوســـف بالزراعـــة، وتضافرت عدة عوامل على ازدهارها، منها اتساع رقعة الدولة والتي امتدت مـــن برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وفي الأندلس من شمال بلنسية شـــرقاً إلـــى شنترين غرباً[3]، وكان لهذا الاتساع عظيم الأثر في تنوع مناخها واختلاف طبيعـــة سطحها ما بين سهول ووديان وهضاب وجبال، مما ساعد ذلك على وفرة الإنتـــاج الزراعي وتنوعه واستمراره طوال العام، ويشير المراكشي إلـــى خصـــوبة بـــلاد المغرب خلال فترة الدراسة بقوله: " وهي – أي بلاد المغرب – أخصب رقعة على الأرض فيما علمت، وأكثرها أنهاراً مطردة، واشجاراً ملتفة وزروعاً وأعنابـــاً "[4]،

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص284.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص236.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206.

(4): المراكشي، المعجب، ص187.

ولم تكن الأندلس أقل شأناً فقد وصفها صاحب كتاب ذكر بـــلاد الأنـــدلس بأنهـــا " جزيرة.. تفجرت خلالها العيون والأنهار.. لا تكاد تمشي إلا في العمارة ما بين قرى وحصون ومياه ومزارع وبساتين والصحاري بها معدومة "[1].

فضلاً عن ذلك ساعد وفرة القوى البشرية (الفلاحون) الذين اتخـــذوا الزراعـــة مهنة لهم دوراً مؤثراً في دفع عجلة الزراعة وزيادة الانتاج، وهؤلاء الفلاحون إمـــا ورثوا مهنتهم عن الأباء والأجداد كقبائل تامسنا ودكالـــة[2] والكثيـــر مـــن قبائـــل المصامدة الذين اهتموا منذ القديم بالزراعة وغرس الأشجار[3]، أو اولئـــك الـــذين عملوا بالسخرة كالذين استعان بهم الخليفة أبو يعقوب عندما غرس بحاير (بســـاتين) إشبيلية[4].

كما كان للخليفة أبي يعقوب اليد الطولى في تشجيع الزراعة واستغلال الأرض، سواء من خلال اهتمامه بتوفير المياه لري المحاصيل الزراعية في مراكش وإشبيلية وفاس وسبتة والرباط[5]، أو من خلال منح بعض الأراضـــي للجنـــود أو غيـــرهم لزراعتها، كما هو في حالة ابن همشك عندما منحه بعض الاقطاعات ليستثمرها في مدينة مكناس عام 571هـ/1175م[6]، أو من خلال تـــأجير الأرض البوريـــة علـــى الفلاحين لزراعتها، إذ حتم ذلك على الزراع أن ينهضوا بزراعاتهم ليفوا بما تستحقه الدولة وتتطلبه معايشهم، كما حدث في مكناس حيث كـــان فيهـــا " أرض بيضـــاء (بورية) للخضر والكتان تكترى بمال جسيم "[7]، غير أن اهتمامه بإنشاء البســـاتين وغرسها بجميع أنواع الأشجار والمشمومات قد فاق كل ما سبق حتى أنه تفوق على والده في هذا الشأن، يقول صاحب كتاب الاستبصار عن اهتمام أبي يعقوب بغراسة

---

(1): مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص12.

(2): حسن، الحضارة الإسلامية، ص235.

(3): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـــ1، ص338.

(4): أسكان، المالية الموحدية، ص92.

(5): نجار، المغرب والأندلس، ص429؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص182.

(6): ابن الخطيب، الإحاطة، جـــ1، ص302-303.

(7): ابن غازي، الروض الهتون، ص7.

بساتين مراكش: " وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب بحاير مثلها في الغرس بـــل أجمل، وجلب لها المياه وأخذها في ثلاثة صهاريج أعظم من المتقدمـــة "[1]. وكـــان عبد المؤمن قد غرس خارج مراكش بستاناً طوله ثلاثة أميال في عرض قريب منه وغرس فيه من أنواع الفواكه كل ما تشتهيه الأنفس[2].

ويبدو أن هذه الجهود التي بذلها الخليفة أبو يعقوب قد شـــجعت النـــاس علـــى استغلال الأرض والعمل بالزراعة، فاخذوا يستثمرون حتى في الأراضي المهجورة.

2.1.2.5 المحاصيل الزراعية ومناطقها:

لم تكن الزراعة في بلاد المغرب والأندلس تقتصر على منطقة دون أخرى، بل تكاد تكون جميع مدن العدوتين جنات وبساتين، فمدينة طرابلس " محدقـــة ببســـاتين ذات بهجة واجنة نضرة كثيرة الفواكه والنخل والزيتون "[3]، ومدينة قابس " أخصب أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعناباً "[4]، وتلمســـان " غلاتهـــا ومزارعهـــا كثيرة، وفواكهها جمة وخيراتها شاملة"[5]، ومدينة مراكش " أكثـــر بـــلاد الغـــرب بساتين.. وبساتينها تسقى بالبئار.. وهي كثيرة الزرع والضرع "[6]، وفاس اختصت " بجميع الفواكه وأصنافها، وأنواع الخضر والبقالي على اختلافهـــا وســـائر نـــوار الأرض وأزهارها، حتى لا يشق شيء من ذلك على مـــن طلبـــه "[7]، والجزيـــرة الخضراء " أرضها أرض زرع وضرع، وخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص210.

(2): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص145؛ السائح، الحضارة الإسلامية، ص244.

(3): الطرابلسي، المنهل العذب، ص10.

(4): المراكشي، المعجب، ص251.

(5): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص80.

(6): القلقشندي، صبح الأعشى، جـــ5، ص162.

(7): الجزنائي، زهرة الآس، ص36.

"[1]، وإشبيلية امتازت ب " صحة التربة والزرع والضرع وكثرة الثمرات من كــل نوع"[2]، أما بلنسية فهي " كثيرة الفواكه والثمار"[3].

ومن أهم المحاصيل والمزروعات التي اختصت بها بلاد المغرب والأندلس في عهد الخليفة أبي يعقوب: سائر أنواع الحبوب وخاصة القمح والشعير، باعتبارهمــا من العناصر الغذائية الرئيسية التي يعتمد عليها السكان، وقد عمت زراعتهما مختلف أنحاء البلاد وخاصة في مدينة فاس وسجلماسة وبادس[4] وشرشال[5]وأغلب المــدن الأندلسية. وانتشرت زراعة الأرز على نطاق واسع في بلنسية والمناطق الجنوبيــة من الأندلس[6]، في حين كانت زراعته قليلة في المغرب، يقول القلقشــندي: " أمــا الأرز فإنه عندهم قليل وبعضه يزرع في بعض الأماكن من بــر العــدوة، واكثــره مجلوب من بلاد الفرنج "[7]. واتسعت زراعة السكر في سلا ومــراكش[8] وقريــة تارودانت من بلاد السوس الأقصى التي وصفت بأنها " أكثر بلاد الله قصب سكر.. ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقية "[9]، وفــي الأنــدلس جادت زراعته في البيرة وإشبيلية[10]. وظهرت زراعة القطن في مدينتي داي وتادلة

---

(1): القلقشندي، صبح الأعشى، جــ5، ص220.

(2): القزويني، آثار البلاد، ص497.

(3): الحميري، الروض المعطار، ص97.

(4): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص89؛ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص175، 201؛ طه، مدينة فاس، ص205.

(5): شرشال: مدينة صغيرة، تبعد عن مدينة الجزائر 70 ميلاً. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص89.

(6): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص259-260؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص34.

(7): القلقشندي، صبح الأعشى، جــ5، ص175.

(8): موسى، النشاط الاقتصادي، ص195.

(9): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص211-212.

(10) : مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص63.

ومنهما كان يسافر به إلى سائر أنحاء بلاد المغرب[1]، وبمدينة إشبيلية كان يــزرع القطن الذي يحسن ويعلو على سواه ومنها يحمل إلى بلاد إفريقية[2].

وضاعف الموحدون من غرس أشجار الزيتون وذلك لأهميته الغذائيــة ولزيتــه الذي استخدموه في سائر أطعمتهم، وقد أكثروا من زراعته في عهد الخليفــة عبــد المؤمن وابنه يوسف في مراكش وفاس ومكناس وتازا[3] وإشبيلية، حتى قيل أن عدد عدد غراس الزيتون التي جلبها الخليفة أبو يعقوب من جبل الشرف لزراعتها فــي بساتين إشبيلية بلغت عشرات الآلاف، غرست على نسق عاماً بعد عام تحت إشراف الخليفة نفسه[4].

واختصت جيان بزراعة التوت لتربية دود الحرير، فكان يقــال لهــا " جيــان الحرير لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير"[5]. وانتشرت زراعة النخيــل في مراكش وتلمسان وطرابلس وإفريقية[6]، ومدينة بسكرة قاعدة بلاد الزاب ومنهــا كان يحمل التمر إلى تونس وبجاية[7].

وحظيت زراعة أشجار الفواكه باهتمام الموحدين، فقد جلب الخليفة أبو يعقــوب مختلف أنواع الاجاص والتفاح لغراستها في بساتين إشبيلية[8]، وعرفت مدينة مالقة بإنتاجها الوافر من التين الريي المنسوب إليها والذي كان يحمل منها إلى كثير مــن بلاد المسلمين والنصارى[9]، واشتهرت مكناسة بأنها كثيــرة الفواكــه والمــزارع،

---

(1): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص75.

(2): مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص62.

(3): ابن غازي، الروض الهتون، ص6-7؛ المنوني، حضارة الموحدين، ص162.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص467.

(5): الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص55.

(6): الطرابلسي، المنهل العذب، ص10؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص196.

(7): ابن سعيد، بسط الأرض، ص60.

(8): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص467.

(9): الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص57.

فيصفها ابن غازي قائلاً إن فيها جميع أنواع الفواكه من برقوق ومشـــمش وتفـــاح واجاص وسفرجل كبير حلو وحامض وأنواع كثيرة من الرمان والعنب والتين[1].

وإلى جانب ذلك زخرت بلاد المغرب بمختلف أنواع الخضر، من خيار وقثـــاء ولفت وباذنجان وقرع وجزر ولوبيا وزعتر وسائر البقول[2]. وفيما يتعلق بالأعشاب بالأعشاب الطبية وأصناف الرياحين والمشمومات عرف منهـــا بالعـــدوتين الـــورد والبنفسج والياسمين والآس والنرجس والسوس وسنبل الطيب[3] والجنطيانـــا وهـــو عقار طبي رفيع لا يوجد إلا بجبال غرناطة وكان يحمل منها إلى مختلف البلدان[4]، البلدان[4]، وجادت زراعة شجر الحناء بمدينة درعة دون سواها ومنها ظل يحمـــل إلى سائر بلاد المغرب[5].

3.1.2.5 **الثروة الحيوانية والسمكية**:

لا شك في أن الثروة الحيوانية شكلت ركناً حيوياً من أركان الحياة اليومية فـــي الدولة الموحدية، نظراً لأهميتها في الزراعة وقيمتها كمصدر غذائي، ناهيـــك عـــن كونها واسطة النقل الأكثر استخداماً. ويبدو أن ولايتي إفريقية وتلمسان كانت مناطق إنتاج الخيول الرئيسية في عهد الخليفة أبي يعقوب، حتى أن الخيول كانـــت جـــزءاً أساسياً من خراجهما وإسهامهما في حملات الموحدين للجهاد في الأندلس، ففي عام 566هـ/1170م وصل للخليفة أبي يعقوب أربعة آلاف فرس من إفريقية وألف فرس من تلمسان[6]، أما تربية الخيول العتاق فقد اشتهر بها سكان جبـــل فـــازاز، يقـــول

---

(1): ابن غازي، الروض الهتون، ص5-6.

(2): القلقشندي، صبح الأعشى، جـــ5، ص176.

(3): سنبل الطيب: نبات طيب الرائحة جداً له سنبلة صغيرة، يطيب النكهة ويخفف اللسان إذا مسك في الفم. انظر: القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، المكتبة الأموية، (د. ت)، ص251. سيشار إليه فيما بعد: القزويني، عجائب المخلوقات.

(4): المقري، نفح الطيب، مج1، ص141.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص206.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص419.

صاحب كتاب الاستبصار:" وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخـدمتها، وهي مدورة القدود حسنة الخلق والأخلاق"[1].

وكانت مناطق تربية الإبل درعة وسلجماسة وصحراء صنهاجة[2]، وانتشـرت تربية الماشية والأغنام بين أوساط الفلاحين وسكان البادية في سائر أنحاء المغـرب والأندلس، وكثيراً ما كانت هذه المواشي عرضة للضياع من أصحابها في الفتن، أو للسلب والنهب حين يضرب العدو على بلاد المسلمين وخاصة بالأنـدلس، فعنـدما قضى الخليفة أبو يعقوب على فتنة ابن منغفاد سنة 562ه/1166م، غنم من جبـال غمارة " من البقر اثنا عشر ألفاً، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائـة "[3]. ولما تعرضت مدينة إستجة وقرطبة لهجوم القومس الأحدب سـنة 568ه/1173م، غنم من نواحيها خمسين ألف رأس من الغنم، وألفي رأس من البقر[4]، وذلك مـرة واحدة. وعاش في بلاد لمتونة وهي المنطقة الصحراوية مـا بـين بـلاد السـوس والسودان، حيوان اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون رقاق حادة، ومن جلودها كان تصنع الدرق أحد أنواع الأسلحة زمن الموحدين[5].

وعن الطيور الداجنة عمل سكان بلاد المغرب في تربية أنواع كثيرة من الأوز والحمام والدجاج ونحوها[6]، وعني أهل فاس خاصة بتربية الدجاج وحمايتـه فـي أقفاص كبيرة[7].

أما عن الثروة السمكية فقد كان لموقع بلاد المغرب والأندلس المطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي مع كثرة الأنهار التي تخترق أراضي البلدين، أثر كبير في وفرة إنتاجهما من الثروة السمكية، وكان أكثر ما يصاد السمك في المغرب فـي

---

(1): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص187.

(2): ابن سعيد، بسط الأرض، ص46؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص200.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص321.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص125.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص213-214.

(6): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص177.

(7): طه، مدينة فاس، ص209.

السواحل عند تونس وبنزرت وسبتة[1]، وفي الأندلس عند سواحل المنكب وشــذونة وجزيرة شلطيش[2].

ومن الأنهار التي عرفت بغناها بالثروة السمكية، نهر الجوهر الــذي يختــرق مدينة فاس والذي كان فيه من أنواع السمك حسب الجزنــائي " اللبــيس والبــوري والسلباح والبوقة وذلك كله حوت لذيذ الطعم "[3]، وتميــز نهــر ســبو[4] باســماكه المتنوعة والكبيرة الحجم، يقول صاحب كتاب الاستبصار: " ويتصيد في هذا الوادي الشابل الكثير.. ويتصيد في بعض الأحيان البوري الكبير.. ويصــل إلــى المدينــة الحوت الكبير المسمى عندهم بالقُرب يحمله الحمار.. وأخبرني الثقــات أنــه كــان بمدينة فاس ومكناسة الحوت الذي يسمى بالشولي، وهو ألذ ما يوجــد مــن أنــواع السمك"[5].

وفي الأندلس كان يصاد من نهر الوادي الكبير " من أصناف السمك والحيتــان البوري والشابل وغير ذلك شيء كثير "[6].

هذا وقد وردت فصول كثيرة عند صاحب كتاب الطبيخ في المغرب والأنــدلس في عصر الموحدين عن أهمية الطيور والأسماك في الموائد المغربيــة والأندلســية وطرق طبخها وتقديمها[7].

---

(1): موسى، النشاط الاقتصادي، ص203.

(2): الزغول، الحرف والصناعات، ص67.

(3): الجزنائي، زهرة الآس، ص35.

(4): نهر سبو: هو من أعظم أنهار بلاد المغرب، ينبع من جبال صنهاجة (بلاد بني واريتن)، واريتن)، ويخترق مدينة فاس حيث يتشعب في داخلها أنهاراً وجداول، ويصب في المحيط الأطلسي. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص79؛ الحميري، الروض المعطار، ص606.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص184-185.

(6): مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص62.

(7): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص53-76، ص172-179.

2.2.5 الصناعة:

تعد الصناعة أحد مظاهر النهضة الحضارية التي تميزت بها الدولة الموحديـــة في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، ولا شك أن ما اشتملت عليه مملكته الواسعة من توفر في المواد الخام بأنواعها المعدنية والنباتية والحيوانية، قد ساعده على النهوض بها، فقامت في بلاده العديد من الصناعات، لعل أهمها:

1.2.2.5 صناعة السفن:

حظيت صناعة السفن على عهد الخليفة أبي يعقوب بأهمية كبيرة، وذلـــك لمـــا للأساطيل من دور في حماية حدود الدولة الساحلية من جهة، ومواصلة الجهاد ضد الممالك الاسبانية وخاصة أرغون والبرتغال من جهة أخرى. ونستطيع أن نلمس ما وصلت إليه صناعة السفن على عهد الخليفة أبي يعقوب من تفوق من قـــول ابـــن خلدون: " وانتهت أساطيل المسلمين على عهده – أي أبي يعقـــوب - فـــي الكثـــرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه "[(1)].

وعرفت أماكن صناعة السفن بدار الصناعة أو دار " صناعة القطائع "[(2)]، وكان عبد المؤمن وابنه يوسف قد استفادا من دور الصناعة التي ورثوها عن المـــرابطين فوسعوا القائم منها وجددوا ما اهمل[(3)]، وتمثلت القواعد الرئيسية لصناعة الأسطول الموحدي في عهد الخليفة أبي يعقوب في مرسى طنجة وسبتة وبادس وبلاد الريـــف والمهدية وتونس ووهران وهنين وبجاية[(4)]، هذا في بر العدوة، أما فـــي الأنـــدلس

---

(1): ابن خلدون، المقدمة، ص255.

(2): المراكشي، المعجب، ص169؛ سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص220.

(3): موسى، النشاط الاقتصادي، ص233.

(4): موسى، عز الدين عمر: دراسات في تاريخ المغرب الإســـلامي، ط1، دار الشروق، بيروت 1983م، ص52. سيشار إليه فيما بعد: موسى، دراسات في تاريخ المغرب.

فكانت المرية وقادس ومالقة وجبل الفتح ودانية وبلنسية[1]، ثم قام الخليفة أبو يعقوب مع نهاية فترة حكمه في إنشاء دار صناعة إشبيلية، إذ يذكر ابن صاحب الصلاة أن أبا يعقوب أمر واليه على إشبيلية أبا داود بن جلداسن سنة 580ه/1184م، أن يقوم " ببناء دار للقطائع من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع إلى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل "[2]، وقد قامت الدار بصناعة العديد من السفن الحربية.

إلى جانب هذه الدور وجدت هناك مصانع أخرى لإنشاء سفن النقل، منها دار الصناعة بقصر مصمودة التي كانت تنشأ بها المراكب والحراريق التي يسافر عليها إلى بلاد الأندلس[3]، ودار الصناعة المعروفة بالحبالات التي تقع قرب مدينة فاس، وهي من إنشاء عبد المؤمن وكانت تنشأ بها السفن الصغار التي يستخدمها أهل فاس للصيد في نهر سبو[4]، واختصت دار صناعة لقنت بإنتاج المراكب السفرية والحراريق[5].

ولم تجد دور صناعة السفن صعوبة في الحصول على خامات الحديد والخشب وكل ما هو ضروري لبناء السفن، إذ كان ذلك متوفراً في جبال وغابات العدوتين، فمثلاً كانت إشبيلية تعتمد في صناعة مراكبها على الأخشاب التي تردها من الغابات المنتشرة في بياسة[6]، وقادس اعتمدت على وفرة الأشجار الصنوبرية التي كانت

---

(1): سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة الأسطول الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1984م، ص51. سيشار إليه فيما بعد: سالم، تاريخ مدينة المرية؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص263.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص481.

(3): المنوني، حضارة الموحدين، ص171.

(4): الجزنائي، زهرة الآس، ص37.

(5): الحميري: صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، عني بنشره: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت 1988م، ص170. سيشار إليه فيما بعد: الحميري، صفة جزيرة الأندلس.

(6): المكناسي، أبو عبدالله محمد بن عبد الوهاب (ت 1214ه/1800م): الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، المركز الجامعي العلمي، الرباط 1965م، ص68. سيشار إليه فيما بعد: المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير.

تنمو فيها[1]، واعتمدت دار صناعة بلنسية ودانية في إنتاجهما على شجر الصنوبر الوارد إليهما من قلصة[2](Callosa) فتصنع بهما السفن الكبار والمراكب الصغار[3]، وفي بلاد المغرب استفاد الموحدين من خشب أرز جبال غمارة[4]، ومن ومن أشجار البلوط العالية التي كانت تنمو بكثرة في الغابات قرب مدينة فاس[5]، واستفادت بجاية من الخشب الموجود في أوديتها، ومن الزفت والقطران ومعادن الحديد البالغة الجودة المتوفرة في أقاليمها[6].

ويذكر الإدريسي (ت560ه/1164م) أن جزيرة شلطيش انفردت بين سائر بلاد المغرب والأندلس بصناعة المراسي التي ترسي بها السفن والمراكب، لانفرادها بإنتاج الحديد الصلب الذي يعجز غير أهلها عن صنعه[7].

2.2.2.5 صناعة الأسلحة:

حققت الدولة الموحدية في عهد الخليفة أبي يعقوب ضروباً من التفوق والتقدم في صناعة الأسلحة، وكانت معامل صناعته منتشرة في سائر أنحاء البلاد، وتشير الدلائل أن هذه المعامل كانت تنتج كميات ضخمة من مختلف أنواع الأسلحة، فعندما تهيأ الخليفة أبو يعقوب لغزوة الأندلس سنة 566ه/1170م، واجتمع لديه مئة ألف فارس من العرب والموحدين " أعطى الجميع الرماح والدروع والبيض والسيوف "[8]، ولم يقتصر اهتمام الموحدين على صناعة الأسلحة الخفيفة بل مهروا في

(1): الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص154.

(2): قلصة: حصن منيع، يقع شرق مدينة قونكة على بعد ثلاثة مراحل منها. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص195.

(3): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص195.

(4): موسى، النشاط الاقتصادي، ص233.

(5): طه، مدينة فاس، ص215.

(6): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص90-91.

(7): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص179.

(8): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص437.

صناعة الأسلحة الثقيلة وخاصة المجانيق القاذفة بالحجارة والنار، فقـد أنتجـت دار صناعة الأسلحة بمراكش سنة 579ه/1183م عشرة مجانيق[1].

وتفنن صناع السلاح في مهنتهم، ويظهر ذلك في قيامهم بصناعة سيف بسنانين اثنين، وتقديمه للخليفة كهدية تذكارية بمناسبة تجديد البيعة له سـنة 563ه/1167م، فاعجب الخليفة بذلك وطلب من الصناع أن ينقشوا له على السيف " لأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين "، فتم له ذلك[2].

3.2.2.5 صناعة استخراج المعادن:

اعتنى الموحدين بصناعة استخراج واستغلال المعادن التي توافرت بكثرة فـي العدوتين، وكان للخليفة أبي يعقوب عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة في بلاد المغرب ومدينة جيان[3]، وفي عهده اكتشف لأول مرة معدن الفضة في حصن زكندر بالسوس، حسبما يورد ذلك ابن أبي زرع في حوادث سنة 578ه/1182م، إذ يذكر أنه في هذه السنة خرج أبو يعقوب يوسف بنفسه من مراكش وأشرف على بناء حصن زكندر على المعدن الذي ظهر هناك[4].

وإلى جانب الذهب والفضة يشير المراكشي إلى المعادن الأخرى التـي كانـت معروفة لهذا العهد في المغرب والأندلس، وهي معدن الكبريت الذي وجد بين برقة وطرابلس، ومعدن الحديد في موضع يسمى تمسامان فيما بين سبتة ووهران، وفـي موضع آخر يعرف ب " إبسنتار " فيما بين سلا ومراكش، وفي بلاد السوس وجـد معدن النحاس ومعدن التوتيا التي تستخدم في صباغة النحاس الأحمر ليصبح أصفر، وبجزيرة الأندلس وجد معدن الزئبق في منطقة شلوان قرب قرطبة، والرصاص في

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص155.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص352.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص254.

(4): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 212.

دلاية من أعمال المرية، والحديد في حصن بكارش وفي منطقة أوربة فيما بين دانية وشاطبة[1]، ومناجم الذهب في البيرة[2].

واشتهرت مدينة مجانة[3] بتوفر معدن استخدم لقطع حجارة الأرحاء، الذي ليس على الأرض مثله ولذلك عرفت ب " مجانة المطاحن "[4].

4.2.2.5 **الصناعات الغذائية**:

شكلت صناعة طحن الحبوب واستخراج زيت الزيتون وصناعة السكر أهم أنواع الصناعات الغذائية في عهد الخليفة أبي يعقوب، فكانت صناعة طحن الحبوب من الصناعات المزدهرة في المغرب والأندلس لوفرة المنتجات الزراعية من الحبوب، ووفرة مياه الأنهار والعيون التي كانت الأكثر استعمالاً في الطحن، فقد كان في مدينة مليانة عين خرارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها[5]، وكان يخترق أغمات نهر ليس بالكبير أقام عليه الناس أرحاءهم التي يطحنون بها الحنطة[6]، وبلغ وبلغ عدد أرحاء الماء بمدينة فاس لوحدها حسب إحصائية محتسب المدينة سنة 585هـ/1189م (472) رحاً[7].

وفي الأندلس جرت العادة على إقامة الأرحاء بالقرب من الجسور والأرصفة على ضفاف الأنهار، حتى أن بعض الأرحاء كانت تتخذ على أبواب المنازل، فيذكر الشقندي أن مدينة قرطبة اشتهرت بكثرة أرحائها التي كانت تنيف على خمسة آلاف

---

(1): المراكشي، المعجب، ص260-261.

(2): ابن غالب، فرحة الأنفس، ص283.

(3): مجانة: مدينة قديمة ببلاد إفريقية، بينها وبين القيروان خمس مراحل. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص56.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص161.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص171.

(6): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص66.

(7): الجزنائي، زهرة الآس، ص44.

حجر[1]. وعرف الوحدون الأرحاء الهوائية ففي عام 555هـ/1160م، صنع المهندس الحاج يعيش المالقي في مدينة جبل طارق رحى تطحن الأقوات بالريح[2].

وقامت على محاصيل الزيتون الوفيرة في مراكش، ومكناس، وفاس، وتازة[3]، وإشبيلية التي كانت تغطي أشجار الزيتون فيها مسافة أربعين ميلاً[4]، صناعة استخراج الزيت، حيث كانت تقام في هذه المدن معاصر لثمر الزيتون تعرف بالمساكب[5]، وتحدثنا المصادر عن شهرة زيت زيتون إشبيلية في المشرق الإسلامي الإسلامي حتى أصبح يضرب به المثل من حيث عذوبة الطعم وعدم تغير لونه مع طول الزمن[6].

وحازت صناعة قصب السكر على اهتمام الموحدين، وكانت مناطق إنتاجه الرئيسية في عهد الخليفة أبي يعقوب مدينة أغمات وإيجلي وقرية تارودنت التي وصفت بأن " فيها معاصر السكر كثيرة "[7]، وتميز إنتاج مراكش من السكر بأنه كان في غاية البياض إذ إن معاصر السكر بها والتي بلغ عددها أربعين معصرة، كانت تنتج السكر الفائق التكرير[8]، أما في الأندلس فقد قل إنتاجه في فترة الدراسة، غير أن إشبيلية والمنكب ظلت مناطق إنتاجه الرئيسية فيها[9].

وعرفت أماكن صناعة السكر بالمعاصر والمطابخ والمسابك، وكانت هذه المعاصر تشتمل على قاعة الآلات (آلات السحق) وساقية ماء لإدارة الآلات، وقاعة

---

(1): الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص55.

(2): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص245.

(3): ابن غازي، الروض الهتون، ص6-7؛ المنوني، حضارة الموحدين، ص162.

(4): الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص19.

(5): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص265.

(6): الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص51؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص21؛ القزويني، آثار البلاد، ص497.

(7): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص211-212.

(8): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص176.

(9): مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص62؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص240.

معالجة السكر التي تحوي الأفران والمواقد، وكان السكر يوضع بعد معالجته في قوالب خاصة حيث يصبح جاهزاً للاستهلاك(1).

5.2.2.5 **صناعة النسيج:**

تشير المصادر الجغرافية والتاريخية العربية إلى إيلاء الموحدين صناعة النسيج اهتمامهم، فاشتهرت جيان ومالقة بالأندلس وقابس بإفريقية على عهد الخليفة أبي يعقوب بالمنسوجات الحريرية؛ لكثرة إعتناء أهل هذه المدن بادية وحضر بدود الحرير(2)، ويبدو أن إنتاجها كان عظيماً بدليل تنبه الخليفة المنصور سنة 580هـ /1184م إلى انتشار لبس الغالي من الحرير بين الناس فأمر بقطعه والاكتفاء منه بالساذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من عهد والده من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب " فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص"(3).

واشتهرت بلاد السوس بصناعة الأكسية الرفيعة الخارقة، والثياب الفاخرة السوسية المشهورة في الدنيا(4)، وسجلماسة بصناعة الأزر والغفارات المحكمة الصنعة التي تضاهي ما يصنع منها بمصر(5)، وقفصة بصناعة الأردية والطيالس والعمائم الصوفية، وبمدينة وجدة تصنع الأكسية الصوفية التي ليس لها نظير في الجودة يساوي الكساء الجيد منها 50 ديناراً(6)، وبرع أهل مدينة فاس بصناعة مختلف أنواع المنسوجات والملابس الكتانية والقطنية والصوفية وصبغها بالألوان المختلفة، ويمدنا الجزنائي بإحصائية لدور الغزل ودور الأطرزة المعدة للحياكة

---

(1): الزغول، الحرف والصناعات، ص181-182.

(2): الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص55-58؛ المقري، نفح الطيب، مج3، ص217؛ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص113.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص174.

(4): ابن الوردي، خريدة العجائب، ص27.

(5): ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص192.

(6): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص154، 177.

الموجودة في مدينة فاس سنة 585ه/1189م، والتي بلغت (141) داراً خاصة بالغزل، و(3064) داراً للحياكة، و(116) داراً معدة للصباغة(1)، وهذه الإحصائية تعطينا مؤشراً واضحاً لمدى ضخامة الإنتاج والأعداد الغفيرة التي كانت تعمل في مثل هذه الصنعة خلال فترة الدراسة.

ولم تكن صناعة المنسوجات قاصرة على المغرب في عهد الخليفة أبي يعقوب، بل كانت مزدهرة في الأندلس أيضاً، فقد اشتهرت بلنسية بصناعة الملابس الكتانية(2)، وفي تنتالة من عمل بلنسية قامت صناعة البسط التي نسبت إليها وكان يغالى في ثمنها بالمشرق(3)، وبمدينة المرية كان تنتج مختلف أنواع طرز الثياب المعينة الفاخرة والحلل والديباج والستور المكللة، وبلغ ما بها لنسج الحلل النفيسة والديباج ألف نول، وكانت منسوجاتها لجودتها تحمل إلى المشرق الإسلامي وإيطاليا وفرنسا(4).

6.2.2.5 **الصناعات الخشبية:**

بالإضافة إلى صناعة السفن والآلات الحربية التي اعتمدت على الأخشاب، قامت هناك صناعات خشبية عديدة في العصر الموحدي لم تلبث أن شقت طريقها في مضمار التفوق والتقدم، فعندما بنى الخليفة أبو يعقوب مسجد إشبيلية أقام له منبراً في غاية الجودة والإتقان، فالقيت منه أول خطبة في يوم الجمعة 24 ذي الحجة سنة 577ه/ 3 نيسان 1182م، وقد صنع هذا المنبر من أكرم الخشب حسب رواية ابن صاحب الصلاة الذي يقول " وصنع هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة، اتخذ من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غريب العمل، وعجيب الشكل والمثل، مرصعاً بالصندل،

---

(1): الجزنائي، زهرة الآس، ص44.

(2): أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص273.

(3): المقري، نفح الطيب، مج1، ص201.

(4): الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص184؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص163؛ سالم، تاريخ مدينة المرية، ص171.

مجزعاً بالعاج والأبنوس، يتلألأ كالجمر المشع.. ثم اردفت له بالعمل المقصورة (باب المحراب) من أحسن الخشب مختصرة من قضبة.. وكان الخليفة يتطلع بناءه في أكثر الأيام بنفسه "[1].

وبرع النجارون في عهد الخليفة أبي يعقوب في صناعة أثاث وأدوات المنزل والمطبخ من الخشب، فكانوا يصنعون الخزائن والصناديق الخشبية والكراسي والطالات والمشاجب التي تعلق عليها الثياب[2]، ومن أدوات المطبخ المهارس والمغارف والملاعق والعود الذي يقطع عليه اللحم، والألواح التي تمد عليها أطعمة الخبز والكعك، ويشير صاحب كتاب الطبيخ إلى أن هذه الأدوات يجب أن تكون من الخشب الصلب كخشب البلوط أو البطم أو الزيتون أو البقس أو العناب[3].

7.2.2.5 الصناعات الجلدية:

قامت صناعة الجلود على خامة الجلد من الحيوانات المختلفة، التي تملأ المراعي في العدوتين، ويأتي في مقدمة هذه الصناعة دبغ الجلود التي كانت تتم في أماكن خاصة أقيمت خارج المدن بالقرب من مجاري المياه، وعرف باب المدينة الأقرب لمكان إقامتهم باسمهم " باب الدباغين "[4]. ومن المدن التي اشتهرت بأعمال الدباغة في عهد الخليفة أبي يعقوب مراكش وسلا وفاس التي كان فيها عام 585ه/1189م (86) داراً للدباغة[5]، وفي الأندلس اشتهرت مدينة مالقة وإشبيلية وباجة[6].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص478.

(2): الزغول، الحرف والصناعات، ص129.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ، ص84.

(4): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص98؛ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص341.

(5): الجزنائي، زهرة الآس، ص44؛ النشاط الاقتصادي، ص230.

(6): الزغول، الحرف والصناعات، ص120.

أما عن مراكز المصنوعات الجلدية، فقد تمثلت في تلمسان التي كانت مركـزاً للصناعات الجلدية التي يتجهز بها الفارس[1]، وبمدينة نول لمطة كانت تصنع الدرق من جلود اللمط، كما كانت تحمل منها جلود الفنك إلى سائر أنحاء المغرب والأندلس[2]، وتفوقت مدينة فاس على سواها في صناعة أكياس النقود الجلدية وأحزمة الجلد المزخرفة والأحذية المطرزة من خفاف ونعال[3]، واحتلت مدينة مالقة شأناً عظيماً في صناعة الأغشية والحزم والمدورات الجلدية[4]، وظهرت غرناطة وإشبيلية وقرطبة في صناعة الأحذية[5].

8.2.2.5 صناعة أدوات الموسيقى:

اتخذت الدولة الموحدية منذ فترة مبكرة من تاريخها سياسة متشددة تجاه آلات اللهو والموسيقى، وفي هذا يقول البيذق: " فقال لنا – أي ابن تومرت – تفرقوا على الحوانيت، وكانت الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر ومزامير وعيداناً.. وجميع آلات اللهو، فقال لنا.. اكسروا ما وجدتم من اللهو، فقام أربابها بالصراخ، وساروا شاكين"[6].

وعلى سنن ابن تومرت سار عبد المؤمن وابنه يوسف في طرح فن الموسيقى جانباً، فالمراكشي يتحدث عن ابن طفيل إبان خدمته للخليفة أبي يعقوب فيقول: " كان يأخذ – أي ابن طفيل – الجامكية (الراتب) مع عدة أصناف من الخدمة، من الأطباء والمهندسين.. إلى غير هؤلاء من الطوائف، وكان يقول: لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم"[7].

---

(1): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص246.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص214.

(3): طه، مدينة فاس، ص216-217.

(4): القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص219.

(5): موسى، النشاط الاقتصادي، ص230-231؛ الزغول، الحرف والصناعات، ص126.

(6): البيذق، أخبار المهدي، ص23-24.

(7): المراكشي، المعجب، ص177.

ويفهم من نص المراكشي هذا تعطل سوق الموسيقى ببلاد المغرب في عهد أبي يعقوب، إلا أن ابن عذاري يورد ما يخالف رواية المراكشي، وهو أن آلات اللهـو والمغنين لم ينقطع وجودهم في عهد أبي يعقوب، فيقول إن المنصور ما أن جلـس على أريكة الحكم سنة 580ه/1184م، حتى " أمر أصحاب الشرطة بقطع الملهـين والقبض على من شهر من المغنين فثقف من وجد منهم بكل مكان – فغيروا هيئاتهم وتفرقوا على الأوطان "[1].

وكانت مدينة إشبيلية هي مركز صناعة آلات الموسيقى في العصر الموحـدي ومنها تجلب تلك الآلات إلى سائر المغرب، ومن أصناف هذه الآلات حسـب مـا يرويه الشقندي " الخيال والكريج والعود والروطة والربـاب والقـانون والمـؤنس والكثيرة والفنار والزلامي والشقرة والنورة، وهما مزماران الواحد غليظ الصـوت والآخر رقيقة، والبوق "[2]. وكثير من هذه الآلات لم يرد ذكرها في المعاجم اللغوية مما يشير إلى انها محلية الصنع والاستخدام.

غير أن أشهر أدوات الموسيقى في عهد أبي يعقوب كانت الطبول، لكن لم يكن استخدامها بغاية الطرب وإنما لأغراض عسكرية، فكانت تستخدم لإرهـاب العـدو وتنظيم رحيل ومسير الجيش، فيذكر ابن صاحب الصلاة أنه كان يصـحب جـيش الخليفة أبي يعقوب في غزوته لمدينة وبذه سنة 567ه/1172م طبل كبير مسـتدير الشكل دورة خمسة عشر ذراعاً، منشأ من خشب أخضر اللون مذهب، إذا ضـرب فيه ثلاث ضربات علم أنه طبل الرحيل، وكان يسمع على مسيرة نصف يوم، هـذا إلى جانب مئة طبل أخرى أصغر في الحجم[3]، ووجود هـذه الطبـول يعنـي أن صانعي أدوات الموسيقى ظل حضورهم قائماً في المجتمع الموحدي خـلال فتـرة دراستنا.

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص174.

(2): الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص52.

(3): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص152؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص495-502.

وهكذا نلاحظ أن الحركة الصناعية في عهد الخليفة أبي يعقوب قد نهضت في عدة مدن مغربية وأندلسية، وإن كل مدينة اختصت بعدد من الصناعات بحسب توفر المواد الخام والأيدي العاملة وحاجات المواطنين، ويظهر من خلال عدد المعامل وكميات الإنتاج ونوعها أن مدينة فاس قد احتلت المركز الصناعي الرئيسي في دولة الموحدين على عهد أبي يعقوب ومن ثم تلتها في المركز الثاني العاصمة مراكش.

3.2.5 **التجارة**:

1.3.2.5 **جهود الخليفة أبو يعقوب في تشجيع التجارة**:

احتلت التجارة ركناً أساسيا من أركان الدولة الموحدية، وقد أولاها الخليفة أبو يعقوب عنايته واهتمامه، ويظهر ذلك جلياً من خلال الإجراءات العديدة التي اتخذها في سبيل تنشيط التجارة داخلياً وخارجياً، نذكر منها:

1. اتبع خطة والده عبد المؤمن بإلغاء المغارم والمكوس والقبالات التي كانت تقف عائقاً في طريق ازدهار التبادل التجاري بين حواضر المغرب من جهة وبين المغرب والأندلس من جهة أخرى، يقول ابن أبي دينار " كان ملكه – أي أبي يعقوب - من قاصية إفريقية إلى السوس الأقصى إلى بلاد القبلة وبلاد الأندلس تجبى إليه خراجها دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال وأمنت الطرقات "[(1)].
   كما حرص على بناء الجسور وتسبيلها دون قبالة نظراً منه لمصلحة العامة والتجار، ففي عام 567ه/ 1171م، أمر ببناء جسر بواسطة سفن مربوطة يصل إشبيلية بربضها المعروف بطريانه، وأمر تسبيل المرور عليه دون قبالة، وكانت عادة دفع القبالة من قبل المستعملين للجسور والقناطر قبل عهده من الأمور المعتادة، وسميت قبالة لأنها متقبلة، أي أن متوليها ومكتريها ضامن لتحصيل مدخولها[(2)]، غير أن أبا يعقوب أبطل قبالة الجسور، يقول ابن صاحب الصلاة عن بناء جسر طريانة " وان القنطرة المصنوعة مما تمصرت بها إشبيلية وطريانة وحصل للناس بتسهيل العبور عليها غبطة واتصال.. كما حصل لأمير

---

(1): ابن أبي دينار، المؤنس، ص113.

(2): أسكان، المالية الموحدية، ص94.

المؤمنين ابن أمير المؤمنين.. فيها من الأثر الجميل.. ما لم يتقدم قبله لملك من أهل الطوائف، ولا من الخلائف.. بتسبيل المرور عليها للسابلة دون قبالة تؤخذ منهم فيها "[1].

2. استغل كل فرصة ممكنة لتنشيط حركة البيع والشراء في مملكته، ومن ذلك أنه انتهز فرصة تجديد البيعة له بالحكم عام 563هـ/1167م فقام بتوزيع الأموال على الناس وإسقاط الضرائب عنهم مما دفع بعجلة التجارة لتدور سريعاً، يقول ابن صاحب الصلاة " بعد كمال هذه البيعة السعيدة جمع العباد.. وأمنهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدواوين فزاد الانبساط والنشاط عند الناس.. وزادت المخازن أثر ذلك وفوراً، ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة ودرت على الناس الخيرات دروراً "[2].

3. حرص على إشاعة الأمن والاستقرار في سائر ربوع بلاده، فلم يتردد في تسيير حملة على كل ثائر أو معتدي على طرق التجارة، فعندما بلغه أن سبع بن منغفاد بسط سلطانه على جبال غمارة سنة 562هـ/1166م وأخذ يعيث فساداً في تلك المنطقة، ويقطع طرق التجار فيما بين المغرب والأندلس، خرج بنفسه إلى مقاتلة ذلك الثائر ومزقه شر تمزيق، وأعاد الأمن لذلك الشريان الواصل بين المغرب والأندلس[3]. وكذلك فعل مع الثائر عبدالله بن عبيدالله الذي تغلب على حصن طبيرة وتمادى في خطره حتى غدا في عام 563هـ/1167م، " شجى على أهل العدوة والأندلس في نهب أموال المسافرين والتجار في البراري والبحار، فأمر الخليفة قادته بملازمتها حتى فتحها الله له في خلافته بسعده ويمنه عقب شهر ذي الحجة من السنة المؤرخة"[4].

4. إعادة بناء الحوانيت والأسواق إذا تعرضت لطارئ كالهدم بفعل الحروب، أو يأمر ببناء غيرها إذا اتسعت المدينة، ففي عام 570هـ/1174م أمر بإعادة بناء

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص463.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص347.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص22.

(4): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص379.

الحوانيت والرباع في مدينة باجة بعد أن تعرضت للهدم بفعل الاجتياح البرتغالي لها[1]. وفي سنة 572ه/1176م أمر ببناء أسواق وحوانيت جديدة حول جـــامع القصبة بإشبيلية ونقلت إليها الأسواق القديمة فتزاحم الناس في المزايدة في كرائها واغتبطوا به وبفعله فنما الخراج جراء ذلك نمواً غالياً[2].

5. أولى اهتمامه بالأسطول حتى أضحى في عهده قوة ضاربة قادرة علـــى حمايـــة سواحل المغرب، وطرق التجارة البحرية في حوض البحر المتوسط من خطـــر القرصنة والسطو الذي كان منتشراً آنذاك، وهذا ما جعل المغرب الأقصى فـــي عهده ممراً آمناً للقوافل التجارية القادمة من السودان والمتجهـــة إلـــى الأنـــدلس وأوروبا[3].
6. جدد المعاهدات التجارية التي كان والده عبد المؤمن قد عقدها مع بعض الممالك والجمهوريات الإيطالية مثل جنوة وبيزة، كما دخلت الدولة الموحدية لأول مـــرة في عهده بإتفاقية تجارة وسلام مع مملكة صقلية[4].

2.3.2.5 التجارة الداخلية:

انتظمت التجارة الداخلية في بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الموحدي في أماكن مخصصة للبيع والشراء عرفت بالأسواق، واختصت كل سوق بصـــناعة أو بضاعة معينة شأنها في ذلك شأن أسواق المدن الإسلامية عامـــة آنـــذاك، كســـوق البزازين في سبتة، وسوق الغزالين في مراكش[5]، وحوانيت الصباغين والخنـــاقين

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص134.

(2): أسكان، المالية الموحدية، ص93.

(3): حسن، الحضارة الإسلامية، ص275.

(4): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص237-238؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جـــ2، ص332؛ زبيب، نجيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، 5 أجزاء، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت 1995م، جـــ2، ص349. سيشار إليه فيما بعد: زبيب، الموسوعة العامة.

(5): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص459، 475.

والقصابين والسفاجين في مدينة فاس[1]، وفي إشبيلية وجد سوق البزازين والخياطين والمركطيين وهو السوق الذي تباع فيه الثياب المستعملة[2]. واقيمت أسواق المـــواد ذات المخلفات والروائح الكريهة التي يمكن أن تسبب تلوث أو إعاقة لحركة النـــاس خارج أسوار المدن، فسوق الدباغين في مدينة مراكش كان يقع شرق المدينة خارج باب الدباغين[3]، وأسواق الفخارين والطوابين في مدينـــة غرناطـــة، اقيمـــت فـــي الأرباض الكائنة في أطراف المدينة[4].

غير أن أهم المرافق التجارية التي انتظمت فيها التجارة الداخليـــة فـــي المـــدن المغربية والأندلسية كانت القيسارية، وقد يقال لها " قيصارية "، وهي سوق متعـــدد الاختصاصات تقع غالباً بجوار المسجد الجامع، وتضم مجموعة من المباني تكـــون على شكل أروقة حولها حوانيت ومصانع ومستودعات، وكذلك حجرات معيشـــة[5]، وكانت القيسارية سوقاً تجارية لخزن وبيع السلع وعلى الأخـــص المـــواد الكماليـــة الغالية الثمن من جميع أصناف السلع[6].

ومن القيساريات التي استحدثت في عهد الخليفة أبي يعقوب قيسارية سلا، وذلك أنه في عام 574هـ/1178م قام أبو يعقوب ببناء مدينة جديدة بسلا متصلة بالقصـــبة القديمة، التي كان قد بناها والده عبد المؤمن، واستحدث فيها قيسارية عظيمة ضمت عدداً كبيراً من الحوانيت، وبنى جوارها الفنادق والحمامات لتعم المنفعـــة وتتحـــق الفائدة بها[7].

---

(1): الجزنائي، زهرة الآس، ص44.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص485.

(3): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص98.

(4): القلقشندي، صبح الأعشى، جـــ5، ص214.

(5): دائرة المعارف الإسلامية، شريك. م: مادة القيسارية، 33 جزءاً، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة 1998م، جـــ 27، ص8460. سيشار إليه فيما بعد: دائرة المعارف الإسلامية.

(6): القاسمي، تاريخ الحضارة العربية، ص75.

(7): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص140.

وإلى جانب القيسارية والأسواق المتخصصة، وجد في عهد الخليفة أبي يعقوب أسواق اتخذت شكلاً هندسياً رباعياً بالقرب من الأسواق المركزية عرفت باسم " الرباع "، ويبدو أنها كانت تشيد من قبل الدولة ثم تمنح للناس لاستغلالها مقابل الكراء، وهذا ما يشير إليه ابن عذاري عند حديثه عن إعادة بناء مدينة باجة سنة 570هـ/1174م، فيقول: " وبنوا الحوانيت والرباع ورفعت إلى دار الأشراف بإشبيلية الأزمة بأعشارها وكراء رباعها "[1]. وجاء تعريف الرباع عند عبد الوهاب الدبيش على أنها: " مكان صغير محاط بدكاكين اتخذ هيئة مربع، حوانيته معلقة وسط فناء عار "[2]، وانتشرت الرباع بكثرة في مدينة مراكش وسبتة وبشكل أقل في مدينة فاس[3].

ووجدت ايضاً في الدولة الموحدية أسواق أسبوعية تعقد في يوم معين من أيام الأسبوع، يعرض فيها التجار بضائعهم من كل نوع ولون، منها سوق أغمات وريكة[4]، الذي ينعقد كل يوم أحد وتباع فيه كل أنواع السلع[5]، وسوق الجمعة في مدينتي درعة وأسيلة[6]، وفي الأندلس كانت مدينة شوذر من أعمال جيان تعقد سوقها يوم الثلاثاء، أما مدينة قبرة فقد كانت لها سوق مشهودة تعقد يوم الخميس[7].

ولم تقف أنواع الأسواق الموحدية عند هذا الحد، بل تعدتها إلى إيجاد أسواق خاصة ترافق الجيوش والحملات في غزواتها، حيث يقيم التجار أسواقهم قرب

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص134.

(2): الدبيش، توزيع المرافق الاقتصادية بفاس، ص43.

(3): الدبيش، توزيع المرافق الاقتصادية بفاس، ص43.

(4): أغمات وريكة: مدينة تقع في أسفل جبل درن إلى الغرب من مدينة أغمات أيلان، ومسافة ما بينهما ستة أميال. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص65-69.

(5): باشا، نجاة: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس 1976م، ص128. سيشار إليه فيما بعد: باشا، التجارة في المغرب الإسلامي.

(6): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص203؛ باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص128.

(7): الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص117، 149.

المحلات العسكرية، فيقوم الجندي الموحدي بالشراء والتزود منها بكل مـــا يلزمـــه، وكان نفاذ الأقوات من هذه الأسواق أحياناً سبباً في وقف القتـــال والانســـحاب مـــن ساحة المعركة، مثال ذلك: ما حدث في غزوة وبذة سنة 567ه/1172م[1].

ولما كان الهاجس الأمني وصلاح أمور الناس يشكل اولى أولويات الموحـــدين على عهد الخليفة أبي يعقوب، فقد كانت الأسواق تخضع لمراقبة أمنـــاء الأســـواق والمحتسبين، الذين هم بدورهم كانوا تحت إشراف ولاة الأمر، كما عنيـــت الدولـــة بحماية الأسواق من اللصوص والسرقات من خلال تعيين حرساً للسهر عليها لـــيلاً، ولم يتوان هؤلاء الحرس من جلد كل مشتبه يقبض عليه حتى قبل سؤالة أو تقديمـــه للمحاكمة[2].

ونشطت المبادلات التجارية البينية بين المدن الموحدية بســـبب تنـــوع الإنتـــاج وتباينه، فمن صفاقس كان يحمل الزيت إلى سائر إفريقية، ومن جلولا كانت تحمـــل الفواكه إلى القيروان، ومن سوسة كانت تحمل الثياب الرفيعة إلى سائر بلاد المغرب شرقاً وغرباً، ومن مدينة بنزرت حمل السمك إلى جميع بلاد إفريقيـــة، واعتمـــدت مدينة بجاية في فواكهها على ما يجلب لها من مدينة جيجل[3]، وكان تمر سجلماسة وحناء درعة يتجهز بهما التجار إلى كافة مناطق بلاد المغرب[4]، ومن هنين كانـــت

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص441-442، 500-502؛ المقري، نفح الطيب، مج4، ص479؛ زغروت، الجيوش الإسلامية، ص150.

(2): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص231، 398؛ بوتشيش، إبراهيم القادري: إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 2002م، ص104. سيشار إليه فيما بعد: بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي.

(3): جيجل: مدينة صغيرة على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين بجاية 50 ميلاً. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص97-98.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص119، 125، 128؛ علوي، حسن حافظي: النشاط التجاري بسجلماسة وعلاقته بمجالها القروي، منشور ضمن كتاب: أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، جـــ2، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب

تحمل الأخشاب إلى بادس[1]، ومن تلمسان حمل التجار الثياب الصوفية، ولجم الخيل والسروج إلى سائر بلاد المغرب[2]، واختصت تينملل بالزبيب الأخضر الذي عـم جميع بلاد المغرب[3]، ومن مدينة تنس وبلد أزمور كانت المراكب تحمل القمح إلى مالقة وسواحل الأندلس وتعود محملة بالتين[4].

وصدرت إشبيلية الزيت وآلات الموسيقى إلى سائر بلاد المغرب[5]، ومنها حمل التجار القطن والسكر اللذان يجودان بها دون سواها إلى جميع مدن الأندلس، كمـا كان خشب الزان الذي لا يوجد في الأندلس إلا بجبال الشرف منها، هو الذي يعـم جميع بلاد الأندلس[6]. ومن حصن قلصة حمل خشب الصنوبر إلى دانية وبلنسـية حيث استخدم في أعمال البناء وصناعة السفن[7]، واختصت مدينة المرية بتصـدير آلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من أدوات العروس والجندي إلى بلاد إفريقية والمغرب[8].

ولا شك أن حجم التبادل التجاري البيني بين مدن بلاد المغرب كان أكثر من هذا بكثير، وما هذه الأمثلة إلا غيض من فيض.

العلوم الإنسانية، عين الشق-الدار البيضاء، 121-23 فبراير 1989م، ص31-33. سيشار إليه فيما بعد: علوي، النشاط التجاري بسجلماسة.

(1): البادسي، المقصد الشريف، ص74.

(2): ابن سعيد، بسط الأرض، ص74.

(3): ابن سعيد، بسط الأرض، ص59.

(4): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص190؛ ابن سعيد، بسط الأرض، ص76.

(5): الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص19؛ البادسي، المقصد الشريف، ص87؛ الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص51-525.

(6): مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص63؛ دائرة المعارف الإسلامية، بروفنسال، ليفي: مادة إشبيلية، 33 جزءاً، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة 1998م، جـ3، ص782. سيشار إليه فيما بعد: دائرة المعارف الإسلامية.

(7): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص195.

(8): سالم، تاريخ مدينة المرية، ص171.

3.3.2.5 التجارة الخارجية:

1.3.3.2.5 علاقات الموحدين التجارية بالبلدان الأخرى:

بقدر ما كان هناك اهتمام بالتجارة الداخلية وتطويرها عند الموحدين، كان الاهتمام بالتجارة الخارجية، حيث نجد أن الخلفاء الموحدين بدءاً من عهد عبد المؤمن قد اجتهدوا بوضع الأنظمة الضابطة لها عن طريق المعاهدات والاتفاقيات التجارية، التي شملت أغلب الدول الأوروبية الساحلية، وكانت جمهورية جنوة أول الفائزين بتوقيع معاهدة تجارية مع عبد المؤمن سنة 548ه/1153م، وفي أعقاب فتح المهدية سنة 555ه/1160م عادت جنوة وأرسلت مبعوثاً خاصاً من قبلها إلى البلاط الموحدي وهو أوطوبون (Ottobne) الشهير النسب، فأبرم مع عبد المؤمن إتفاقية تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة براً وبحراً، بحيث تؤدي جنوة بمقتضاها ضريبة 10% عن البضائع الواردة إلى بجاية، و8% عن البضائع الواردة للموانئ الأخرى، على أن تكون مدة الإتفاقية خمسة عشر عاماً[1]. وفي عهد الخليفة أبي يعقوب جددت الإتفاقية عام 571ه/1175م بنفس البنود لمدة خمسة عشر عاماً أخرى[2].

أما جمهورية بيزة فلم تحصل على امتيازات تجارية مع الموحدين إلا في خلافة أبي يعقوب، وذلك سنة 561ه/1166م، حيث في هذه السنة وصل أحد قناصلة الجمهورية وهو كوكو كريفي (Cocco Griffi) إلى بلاط الخليفة أبي يعقوب، وأبرم معه إتفاقية سلام وتجارة تستمر طوال مدة ملكه، وبموجب هذه الإتفاقية أعاد الخليفة للتجار البيزيين الامتيازات التي كانوا يتمتعوا بها زمن المرابطين، واعترف لهم بحق الفندق التجاري الذي كان لهم في مدينة زويلة التابعة للمهدية[3].

وحدث في عام 576ه/1180م أن جنح أحد مراكب تجار جمهورية بيزة بفعل الرياح ورسى بأحواز طرابلس، وما كان من والي المدينة الموحدي إلا أن قبض على تجار المركب وسجنهم بتهمة القرصنة، وعندما بلغ رئيس بيزة ذلك كتب للخليفة أبي يعقوب يطلعه على حقيقة الأمر ويتوسل إليه لينفذ أمره بتسريحهم

(1): الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص332.

(2): نجار، المغرب والأندلس، ص455.

(3): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص173.

بجملتهم وجميع أموالهم إلى أوطانهم، فاستجاب أبو يعقوب لرجاء رئيس بيزة التزاماً منه بمعاهدة الصداقة بين البلدين[1].

غير أن هذه الحادثة تلاها أعمال قرصنة حقيقية واعتداءات من قبل تجار بيزيين على بعض أبناء وأملاك الموحدين، الأمر الذي اسخط عليهم السلطات الحاكمة في المغرب، وعادوا للتضييق عليهم من جديد، فلم يسمحوا لأي تاجر من بيزة بالتجارة في الموانئ الموحدية، إلا إذا جلب بضاعة بقيمة خمسمائة دينار[2].

وهنا عاد الرئيس البيزي لمخاطبة الخليفة أبي يعقوب في رسالة أخرى يبرهن فيها على رغبته في احترام اتفاقية السلام بين البلدين، ومعاقبة الذين يعملون على انتهاكها من المواطنين، وفي ضوء ذلك جددت المعاهدة السابقة بين بيزة والموحدين بتصديق وإقرار جديد من لدن الخليفة أبي يعقوب في سنة 580ه/1184م[3].

وارتبطت مملكة صقلية لأول مرة بعلاقات تجارية مع الموحدين أيضاً في عهد الخليفة أبي يعقوب، وذلك سنة 576ه/1180م، حيث استغل ملك صقلية وجود أبي يعقوب في إفريقية في تلك السنة، عندما قدم لتأديب الثائر ابن الرند في قفصة، فأرسل له رسولاً من عنده يسأله الصلح والسلام، ولم تطل المفاوضات حيث ابرمت في نفس السنة إتفاقية سلام وتجارة بين البلدين حددت مدتها بعشر سنين، وعلى أثر ذلك أنشأ التجار الصقليين فندقين لهم في زويلة والمهدية[4].

ومما تجدر إشارته هنا أن الفندق لم يكن مجرد مكان للمبيت ومستودع للبضائع، بل كان أشبه بمقاطعة نصرانية منعزلة داخل أرض الإسلام، يتمتع داخله التجار بنوع من الاستقلال الداخلي، لهم فيه فرنهم وحاناتهم وحماماتهم ومعبدهم، وسوقاً

---

(1): خلف الله، العلاقات، ص440-441.

(2): مارسيه، بلاد المغرب، ص309؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص276.

(3): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص179.

(4): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص237-238؛ نجار، المغرب والأندلس، ص455.

يزدحم داخله الحمالون والمترجمون والسماسرة، وفيه تتم تبادل السلع بين تجار المغرب والتجار النصارى[1].

ولم تقتصر علاقات الموحدين التجارية مع الدول الأوروبية على الممالك الإيطالية، بل تعدتها إلى فرنسا وخاصة مع مرسيليا[2] ومونبلية (Montpellier)[3]، فقد لاحظ الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي عند وصوله إلى مدينة مونبلية في جنوب فرنسا سنة 561ه/1165م، وجود تجار من بلاد المغرب والأندلس، كانوا قد قدموا لها للإتجار مع غيرهم من تجار النصارى والمسلمين، لأنها كانت القاعدة التجارية للجنويين والبنادقة، وفيها يتجمع التجار من مختلف الأمصار[4].

وفي الوقت الذي نشطت فيه المبادلات التجارية بين الموحدين ودول الساحل الأوروبي الجنوبي، لم نجد في المصادر ما يشير إلى قيام تبادل تجاري بين دولة الموحدين والممالك الاسبانية في الأندلس، بل على العكس من ذلك نجد أن قرارات المقاطعة بين الجانبين في عهد عبد المؤمن وابنه يوسف هي التي فرضت نفسها، فقد حرم الملوك الاسبان على رعيتهم الإتجار مع المسلمين من أهل المغرب والأندلس في عصر الموحدين، وكان التحريم لا يشمل الرقيق المسيحيين فحسب بل كذلك المواد الغذائية، لا سيما الحبوب والثياب والأسلحة ومواد البناء[5]. وفي المقابل اتخذ الخلفاء الموحدين قرارات مماثلة للمقاطعة، وهنا تتحدث نجاة باشا عن بعضها

---

(1): باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص78-79؛ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص101-102.

(2): جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص160.

(3): مونبلية: تقع في إقليم لنغدوقية (Lanquedoc) في جنوب فرنسا. انظر: التطيلي، بنيامين (ت569ه/1173م): رحلة بنيامين، ترجمة: عزرا حداد، بغداد 1945م، ص53. سيشار إليه فيما بعد: التطيلي، رحلة بنيامين.

(4): التطيلي، رحلة بنيامين، ص53

(5): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص392؛

O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p297.

فتقول: " وكانت السلطة الإسلامية من جهتها تقرر التحريمات المقدرة، ولا سيما فيما يخص القمح والمواد الغذائية والخيل والعتاد الحربي والرقيق من المسلمين "[1].

وإذا انتقلنا إلى العلاقات التجارية الموحدية مع بلاد السودان، نجـد أن تجـارة القوافل عبر الطرق الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي قـد لاقـت ازدهاراً خاصاً في عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبـد المـؤمن وحتـى آخـر عهـد المنصور[2]، ونستطيع القول أن تلك الحركة التجارية النشطة التي قامت بين دولـة الموحدين وبلاد السودان عائدة لأمرين: أولهما حاجة كل من البلدين إلى سلع البلـد الآخر، فقد كان المغرب الموحدي يعتمد على بلاد السـودان فـي تـوفير الـذهب والرقيق، في حين اعتمدت بلاد السودان على المغرب في تـوفير الملـح والتمـر والتوابل[3]. والأمر الآخر، قيام بلاد المغرب بدور الوسيط التجاري بين دول أوروبا وبلاد السودان، وذلك بتزويد كل منهما بسلع الطرف الآخر.

أما عن علاقات الموحدين التجارية بالمشرق الإسلامي، فبـالرغم مـن عـدم اعتراف الموحدين بالخلافة العباسية في المشرق؛ لأنهم كانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد، وبالرغم من استياء الخليفة أبي يعقوب من قيام الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية، لأنه كان يرى في ذلك ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك البلاد[4]، إلا أن العلاقات التجارية بين المغـرب والمشرق الإسلامي ظلت متواصلة ومستمرة. وقد شكلت رحلة الحج إلى الأمـاكن المقدسة أحد أسباب توطيد العلاقات التجارية بين الموحدين والمشـرق، وذلـك أن رحلة الحج لم تكن دينية فحسب بل كانت ذات فوائد أخرى منها تبادل المنتجات[5]، كما ساهم التجار العلماء الذين سافروا من الأندلس والمغرب إلى المشرق طلباً للعلم

---

(1): باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص64.

(2): بلعربي، تجارة القوافل، ص37.

(3): القبلي، محمد: تاريخ المغرب (تحيين وتركيب)، ط1، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط 2011م، ص240. سيشار إليه فيما بعد: القبلي، تاريخ المغرب.

(4): العبادي، دراسات، ص115.

(5): أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص341.

والتجارة في تشكيل حلقة أخرى من حلقات الاتصال التجاري بين المشرق والمغرب، وتقدم لنا كتب التراجم مواد قيمة عن هؤلاء التجار، نذكر منهم على سبيل المثال أبو بكر محمد بن أحمد ابن طاهر الأنصاري من أهل إشبيلية، الذي رحل إلى المشرق حاجاً وتاجراً وطالباً للعلم، فدخل فاس ومصر وحلب والبصرة محترفاً بالتجارة ثم أدى فريضة الحج، وعاد إلى المغرب فاستقر في مدينة بجاية حتى وفاته سنة 580ه/1184م[1]، ونجد عند السلفي (ت576ه/1180م) إشارة إلى تاجرين من الأندلس قدماء إلى المشرق طلباً للعلم والتجارة وقد لقيهما السلفي في الإسكندرية وسمعا منه في حدود سنة 560ه/1164م، دون أن يذكر تاريخ وفاتهما لمعاصرتهما له، وهما التاجر العالم أبو العباس أحمد ابن مروان الأنصاري، الذي دخل الإسكندرية والعراق وأصفهان[2]، وأبو إبراهيم عامر ابن علي الأنصاري، الذي قدم مكه حاجاً ثم توجه إلى العراق والشام " في طلب الرزق والمعيشة "[3].

ومن ناحية أخرى وفد إلى المغرب والأندلس العديد من التجار المشارقة من مصر ودمشق وبيت المقدس واليمن والعراق وخراسان، حيث كانت المغرب والأندلس تنعم بالاستقرار والازدهار التجاري تحت حكم الخليفة أبي يعقوب[4].

2.3.3.2.5 الصادرات والواردات:

الصادرات:

لم تكد تمر سنوات قلائل على اعتلاء الخليفة أبي يعقوب أريكة الحكم، حتى كانت موانئ بلاد المغرب كله تعج بحركة التجار الأوربيين من بيزة وجنوة ومرسيليا، وكان هؤلاء التجار يشترون أشياء كثيرة أهمها الزيت والصوف

---

(1): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص56.

(2): السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني (ت576ه/1180م): أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، ط1، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1963م، ص21. سيشار إليه فيما بعد: السلفي، أخبار وتراجم أندلسية.

(3): السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص93.

(4): أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص340.

والشب[1] وريش النعام والعاج والشمع وجلود الضأن والمعز والزبيب وسائر الفواكه الجافة، وأنواع معينة من الأقمشة والأواني الفخارية المطلية[2].

ومن الأندلس تجهز التجار بالزيت والتين الأندلسي إلى مختلف الجهات، وخاصة إلى فرنسا ومصر والشام والعراق وربما وصل بعضه إلى الهند، ويذكر الشقندي أن التين الأندلسي وخاصة المالقي كان يباع في بغداد على سبيل الاستطراف كأي شيء ثمين وغالٍ[3]، وكان الزئبق القرطبي والكبريت المرسي الأحمر يصدر إلى عدة أقطار منها الشام والعراق والهند[4].

ونقل التجار إلى الأسواق السودانية الملح، الذي شكل أهم سلعة في المبادلات التجارية مع السودان، والتوابل والمصطكي وهو نوع من الصمغ، كان يجلب من البحر المتوسط، والمصنوعات الخزفية ومنتوجات فلاحية كالتمر والتين المجفف والزبيب والزعفران والقمح[5]، ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن السميد والنحاس المسبوك كانت من السلع الهامة التي تجهز بها التجار من فاس وإيجلي إلى بلاد السودان[6].

الواردات:

استوردت بلاد المغرب القسطل والجوز والفستق والبندق من صقلية[7]، ومن بيزة وجنوة وفرنسا استوردت المعادن كالذهب والفضة والنحاس والفولاذ والحديد،

---

(1): الشب: نوع من الأحجار المعدنية يستعمل في صباغة الثياب، وله فوائد علاجية منها أنه ينفع في تخفيف أوجاع الأسنان، ويحبس نزف الدم ويجفف القروح. انظر: القزويني، عجائب المخلوقات، ص200.

(2): مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج2، جـ1، ص199؛ جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص160-161؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص333.

(3): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص178؛ الشقندي، فضائل الأندلس وأهلها، ص51، 57؛ المقري، نفح الطيب، مج1، ص151.

(4): موسى، النشاط الاقتصادي، ص327.

(5): القبلي، تاريخ المغرب، ص240.

(6): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص181، 212.

(7): موسى، النشاط الاقتصادي، ص327.

والأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد واللؤلؤ، وأنواع مختلفة من الأقمشة والثيـاب القطنية والحريرية والصوفية، والأواني الزجاجيـة والعطـور والأدويـة ومـواد الصباغة[1]، والأسلحة والخرداوات[2].

وشكلت السيوف الهندية[3] والأقمشة والتوابل والعطور بأنواعها، من حب الفلفل الفلفل والزنجبيل والقرفة والمسك والكافور والعود[4]، أهم واردات بـلاد المغـرب والأندلس من المشرق الإسلامي.

وجاء الذهب والرقيق الأسود على رأس قائمة واردات المغرب الموحدي مـن بلاد السودان، وأفضل ذهب السودان ما كان مجلوباً من مدينة غياروا التي تقع على بعد 20 يوماً من غانة، ويقال إن ملوك غانة لم يكن يسمحوا أن يخرج من بلادهـم من الذهب إلا ما كان رقيقاً؛ خوفاً من أن يكثر الذهب بأيدي الناس فيهـون ويقـل ثمنه[5]، ولعل الذهب كان من أول المغريات؛ لقيام تجارة القوافل الصـحراوية مـع بلاد السودان والتي كانت سجلماسة أهم محطاتها.

أما فيما يخص الرقيق السودان فقد كانت تجارتهم نافقة في المجتمع الموحـدي، ويبدو أنهم كانوا يشكلون شريحة كبيرة، بالرغم من عدم توفر إحصائية مضـبوطة بأعدادهم، واختلفت أثمانهم باختلاف أعمارهم ومهاراتهم التـي يملكونهـا ودرجـة الجمال إذ كن إماء، فقد بيعت الإماء السودانيات اللواتي يتقن الطبخ بمئة دينـار[6]، في حين بيعت مملوكة طاعنة في السن في نفس الفترة بعشرين دينـاراً[7]، وكانـت المملوكات الحبشيات الأقل سعراً؛ لأن الزواج بهن كان عاراً عند المصامدة[8].

---

(1): التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص257؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص333.

(2): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص339.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص160.

(4): المقري، نفح الطيب، مج1، ص199؛ جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص161؛ باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص65.

(5): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص221.

(6): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص216.

(7): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص224.

(8): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص328.

وإلى جانب الذهب والفضة جلب التجار من بلاد السودان الشب الكواري المستخدم في تبييض الأقمشة، وقسي الزان وطيور الببغاء وريش النعام وعظام السلاحف التي تتخذ منها الأسورة والأمشاط[1].

هذا ولم تقف تجارة الرقيق في الدولة الموحدية على الرقيق السوداني، بل نجد أن أسواق النخاسة في العدوتين كانت مليئة بالرقيق البيض، فبالإضافة إلى ما كانت تشكله الغزوات الموحدية ضد الممالك الاسبانية في الأندلس من مصدراً للرقيق البيض، صدرت جزيرة ميورقة في فترة حكم إسحاق بن غانية (550-579ه /1154-1183م) أعداداً كبيرة منهم إلى بلاد المغرب وخاصة إلى مدينة بجاية[2].

4.3.2.5 **الطرق التجارية:**

انتظمت الطرق التجارية على الصعيد الداخلي في ثلاثة محاور هي: محور مراكش - تلمسان مروراً بمدينة فاس وتازا[3]، ومحور طريق الشرق من سجلماسة مروراً بالسفح الجنوبي من الأطلس الصحراوي حتى طرابلس وبرقة[4]، ومحور سجلماسة – سبتة مروراً ببلاد السوس ومراكش وفاس[5]. وسلك التجار فيما بين مراكش وإشبيلية الطرق نفسها التي سارت معها الجيوش الموحدية، وهي من مراكش إلى رباط الفتح، فمدينة فاس ثم سبتة وقصر مصمودة، ومنها يكون الجواز إما إلى جزيرة طريف، أو إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى إشبيلية[6].

---

(1): القبلي، تاريخ المغرب، ص241.

(2): الغبريني، عنوان الدراية، ص45-46.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص186؛ موسى، النشاط الاقتصادي، ص313.

(4): الإدريسي، المغرب وأرض السودان،ص63-64؛ باشا، التجارة في المغرب الإسلامي،ص102.

(5): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص224؛ زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص407.

(6): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص157-159؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص65-67.

الطرق التجارية في العصر الموحدي(1)

المفتاح

- - - - الطرق الأكثر استعمالاً

———— الطرق الكثيرة الاستعمال

.... الطرق القليلة الاستعمال

+ + + + + طرق كثر استعمالها بالنسبة للنصف الأول من القرن السادس

مقياس الرسم : ١ سم لكل ١٠٠ كلم

خريطة رقم (6)

(1): موسى، النشاط الاقتصادي، ص310.

ويذكر الإدريسي أن الطريق لمن غادر الأندلس باتجاه المغرب، إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى جزيرة طريف وبعدها إلى مرسى قصر مصمودة على ساحل البحر بالمغرب الأقصى، ومنه إلى فاس أو سبتة[1]، وهناك طريق البحر المباشر من ميناء سبتة إلى ميناء مالقة[2].

أما الطرق الرابطة بين المغرب وبلاد السودان فانتظمت في ثلاثة محاور كذلك، وهي الطريق الساحلية التي تسير بمحاذاة المحيط الأطلسي حتى نول لمطة ثم تنحرف شرقاً نحو أودغشت فبلاد غانة[3]، ويتفرع الطريق الصحراوي إلى فرعين: الأول يبدأ من سجلماسة في الشمال وينتهي بأودغشت في الجنوب ومنها إلى مدينة غانة السودانية، ومسافة ما بين سجلماسة وأودغشت 50 يوماً، وما بين أودغشت وغانة 20 يوماً، والثاني يبدأ من وادي درعة مروراً بقرية مزوكن الصنهاجية، حتى تصل القوافل مدينة غانة[4].

ويمكن استجلاء الطريق البحري الرابط بين الأندلس والمغرب مع المشرق بوضوح من خلال رحلة ابن جبير سنة 578ه/1182م، فقد عبر المضيق من جزيرة طريف إلى قصر مصمودة ومنه إلى سبتة، حيث أقلع من هناك على متن مركب جنوي يقصد الإسكندرية، فسار بمحاذاة الساحل الشرقي للأندلس حتى دانية، ثم اتجه صوب الجزائر الشرقية، ثم صقلية فجزيرة كريت ومنها سار إلى الإسكندرية، وقد استغرق في رحلته هذه على متن البحر ثلاثين يوماً، ومن الإسكندرية اتجه إلى القاهرة براً ومنها إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومن هناك استقل مركباً إلى جدة فزار الأراضي المقدسة[5].

---

(1): الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص168.

(2): البادسي، المقصد الشريف، ص98.

(3): القبلي، تاريخ المغرب، ص238.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص212-216؛ بلعربي، تجارة القوافل، ص40.

(5): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص8-19؛ ص41-46.

4.2.5 السكة (النقود):

لا شك أن دراسة السكة تسهم في إعطاء صورة صادقة عن الوضع الاقتصادي في الدولة، باعتبارها الوسيلة الأساسية للتعامل بين الأفراد في الحياة اليومية من بيع وشراء، وعليه فإن الدولة الموحدية شأنها شأن بقية الدولة الإسلامية، عملت على سك النقود بمختلف أنواعها، ولا سيما الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية والبرونزية.

غير أنه في الوقت الذي التزمت فيه المجتمعات الإسلامية كافة حتى نشوء الدولة الموحدية، بضرب نقودها على شكل مستدير والكتابة عليها في دوائر متوازية، عمد الموحدون إلى ضرب دنانير ودراهم مربعة الشكل تميزهم عن سواهم، مستفيدين مما كان يتناقله الرواه آنذاك عن زمان يظهر فيه درهم مربع، استبعاداً له، فأراد المهدي وخليفته عبد المؤمن، بتحقيق هذا الأمر المستبعد عادة والممكن في حد ذاته، أن يقرنوا مجيء دولتهم بمشيئة الله وإرادته، ويؤكد ذلك ابن خلدون بقوله: " ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كتبا في سطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد. ولقد كان المهدي فيما ينقل، ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله، المخبرون في ملاحمهم عن دولته "[1]. ويقول الحكيم: " كانت الدراهم قبل ظهور الدولة الموحدية كلها مدورة، فأمر المهدي أن تكون دراهمه مركنة"[2].

وفي الواقع بالرغم من كل ما يقال عن ضرب ابن تومرت للعملة المربعة (المركنة)، فإن ذلك يبقى مجرد تخمينات، إذ ليس بين أيدينا ما يؤكد أنه ضرب

---

(1): ابن خلدون، العبر، جــ 1، ص464-465.

(2): الحكيم، أبو الحسن علي بن يوسف (ت 759ه /1357م): الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد6، العدد 1-2، مدريد 1959-1960م، ص49. سيشار إليه فيما بعد: الحكيم، الدوحة المشتبكة.

نقوداً، فهو حتى تاريخ وفاته سنة 524ه/1129م لم يكن قد فرض سيطرته السياسية على البلاد، ولم يكن بأمير أو خليفة، وبالتالي ظلت العملة المرابطية هي السائدة، لكن الثابت أن عبد المؤمن بن علي هو أول من ضرب عملة مربعة، ولكن بنصح وإلهام سيده ابن تومرت، فنسبت إليه أول عملة موحدية وهي " العملة المؤمنية "[1].

حتى إذا تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة الموحدية، قام بضرب عملة باسمه فأطلق عليها " العملة اليوسفية "، يقول ابن خلكان: " والدنانير اليوسفية منسوبة إليه "[2]، وظلت الدنانير المؤمنية واليوسفية حتى نهاية عهد الخليفة أبي يعقوب تزن ما بين 2.27غم و2.51غم وقطرها بين 19 – 22مم[3]، أي ما يعادل نصف الدينار الأيوبي الذي كان يزن وقتذاك 4.722غم[4]، وهذا ما يؤكده ابن جبير عند حديثه عن إلغاء صلاح الدين الأيوبي لضريبة المكس على الحجاج المغاربة سنة 572ه/1176م، فيقول: " ومن مفاخر هذا السلطان.. إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج.. وكانت سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس"[5].

وكان ينقش على الدينار الموحدي في عهد الخليفة أبي يعقوب عبارات دينية وسياسية، مثال ذلك عثر على دينار يوسفي إلا أنه لا يحمل تاريخاً، نقش عليه:

---

(1): الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص49، هامش رقم (1)؛ حسن، الحضارة الإسلامية، ص228.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص131.

(3): محمد، عبد النبي: مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقية والأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة 1979م، ص43. سيشار إليه فيما بعد: عبد النبي، مسكوكات المرابطين والموحدين.

(4): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص10.

(5): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص30.



بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

المهدي إمام الأمة

على داير الوجه

وإلهكم – إله واحد –

لا إله إلا هو

الرحمن الرحيم



شكل رقم (1): دينار يوسفي/ الوجه[1]

على مركز الظهر

القايم بأمر الله

الخليفة أبو محمد

عبد المؤمن بن علي

أمير المؤمنين

على داير الظهر

الأمير الأجل – أبو يعقوب

يوسف بن– أمير المؤمنين[2]



شكل رقم (2): دينار يوسفي/ الظهر

ومن أجزاء الدينار نصف الدينار وربع الدينار التي احتوت على نفس كتابات الدينار تقريباً، فقد عثر على نصف دينار يرجع إلى عهد الخليفة أبي يعقوب، إلا أنه

---

(1): Castro, Francisco Vidal: Almoravides y Almohades en al-Andalus el Magreb, Exposicion Triangulo de al-Andalus, Alcazaba de Los Udaya, Rabat Octubre 2003-Enero 2004, p84.

(2): عبد النبي، مسكوكات المرابطين والموحدين، ص185.

لا يحمل تاريخاً ولا مكان ضرب أيضاً، نقش عليه " بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله، المهدي إمام الأمة، وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم"، وعلى الوجه الآخر نقش " القايم بأمر الله الخليفة أبو محمد عبد المؤمن ابن علي أمير المؤمنين، أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين "[1]. وبلغ وزن نصف الدينار 1.15غم وقطره ما بين 14-16مم، في حين بلغ وزن ربع الدينار 0.55غم وقطره 13مم[2].

ومما تميز به عهد الخليفة أبي يعقوب ضرب الدنانير الجشمية التي يطلق عليها زيفاً اسم الدينار الذهبي، وإذا كان ظهور الدنانير الجشمية في العصر المرابطي جاء لضعف الدولة وتراجع اقتصادها[3]، فإن الحال في عهد أبي يعقوب جاء على العكس من ذلك، إذ لم تضرب الدنانير للتداول في الأسواق، وإنما خصصت لدفع فدية الأسرى من الجيش الموحدي، وذلك أن الخليفة أبا يعقوب وجد في دفع الفداء من الذهب تدعيم لقوة أعدائه، فاحتال لمنع ذلك بسك الدنانير الجشمية التي تضرب من النحاس وتطلى بالذهب، وقد استخدمها والي بطليوس أبو يحيى ابن الشيخ أبي حفص سنة 564ه/1168م في فداء بعض الأسرى المسلمين من يد العلج جراندة، حيث دفع " ثلاثمائة دينار جشمية "[4]، كما استخدمها الخليفة أبو يعقوب نفسه في فكاك أسر أخويه أبو علي وأبو موسى من يد عرب بني سليم سنة 579ه/1183م[5].

أما عن الدرهم، فقد تميز أيضاً بشكله المربع، وقد نقش على مركز وجهه كتابات دينية في ثلاثة سطور " لا إله إلا الله، الأمر كله لله، لا قوة إلا بالله "، ونقش

---

(1): أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص320؛ أبو الفضل، شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ص289.

(2): طه، مدينة فاس، ص231؛ نجار، المغرب والأندلس، ص465.

(3): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص16.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص393.

(5): المراكشي، المعجب، ص198؛ أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية،ص97-98.

على الوجه الآخر في سطور ثلاثة أيضاً " الله ربنا، محمد رسولنا، المهدي إمامنا "[1]. وتراوح وزنه بين 1.41غم و1.60غم، وقطره بين 13 - 19مم[2]، أي أن الدرهم الموحدي في عهد أبي يعقوب كان يعادل تقريباً نصف الدرهم الشرعي الذي يزن 2.97غم[3]، وهذا ما يؤكده المراكشي بقوله: " الدرهم المؤمني، هو نصف درهم النصاب "[4]، حيث بقي الموحدون يتعاملون بالدرهم المؤمني إلى أن ضربت الدراهم اليعقوبية في عهد المنصور سنة 581هـ/1185م[5].





شكل رقم (3): الدرهم الموحدي (الوجهان)[6]

وكان مكان سك الدنانير الذهبية في عهد الخليفة أبي يعقوب بمدينة فاس – القرويين والأندلس – حيث وجد بكل عدوة منهما داراً لذلك، وقد خضعت هاتين الدارين إلى نظام دقيق ومضبوط مما جعل الدنانير اليوسفية الصادرة عنها مطلوبة

---

(1): المنوني، حضارة الموحدين، ص173.

(2): عبد النبي، مسكوكات المرابطين والموحدين، ص52.

(3): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص10.

(4): المراكشي، المعجب، ص169.

(5): موسى، الموحدون في الغرب، ص269-297.

(6): فهمي، عبد الرحمن: دراسة لبعض التحف الإسلامية، مجلة كلية الآداب، مج22، جـ1، القاهرة 1964م، ص239، لوحة (17). سيشار إليه فيما بعد: فهمي، دراسة لبعض التحف الإسلامية.

في جميع أسواق حوض المتوسط لجودتها العالية[1]، " أما الدراهم فكانت ترد من جميع الآفاق مختلفة السكة والوزن، وكان الناس يتعاملون بكل سكة منها "[2].

5.2.5 **الموازين والمكاييل والمقاييس:**

عند الحديث عن الحياة الاقتصادية في الدولة الموحدية لا بد لنا من التعرف على الموازين والمكاييل والمقاييس السائدة في البلاد، باعتبارها من أصول المعاملات الرئيسية، التي كان يستخدمها الناس في قضاء حوائجهم ومعاملاتهم اليومية من بيع وشراء.

فمن حيث الموازين كانت وحدة الوزن الشائعة في المغرب والأندلس هي الرطل، الذي كان يزن 16 أوقية، في حين كانت الأوقية 20 درهماً[3]، مع الإشارة هنا إلى أن وزن الرطل لم يكن موحداً في كل دولة الموحدين، بل تبايع الناس أحياناً بالرطل الشرعي الذي يزن 12 أوقيه، كل أوقيه 40 درهماً[4]، وتعاملوا كذلك بأرطال عرفية محلية اختلفت باختلاف المناطق والبضائع الموزونة، فابن أبي أصيبعة يذكر أن أبا بكر بن زهر الحفيد، طبيب الخليفة أبي يعقوب، " كان شديد البأس يجذب قوساً مائة وخمسين رطلاً بالإشبيلي، والرطل الذي بإشبيلية ست عشرة أوقية، وكل أوقية عشرة دراهم "[5].

ولوزن المعادن الثمينة من الذهب والفضة وبعض المواد النادرة كالتوابل استخدم المثقال لوزن الذهب والدرهم لوزن الفضة، وكان وزن المثقال الشرعي في

---

(1): الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص49؛ العروي، مجمل تاريخ المغرب، جـ2، ص162؛ المنوني، حضارة الموحدين، ص162.

(2): الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص49.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص442، هامش رقم (3)؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص521؛ أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص323.

(4): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص30.

(5): ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص521.

بلاد المغرب والأندلس خلال القرن 6ه/12م يزن 4.722غم تقريباً[1]، ووزن الدرهم الشرعي 2.97غم، في حين بلغ وزن الدرهم الموحدي في عهد الخليفة أبي يعقوب حوالي 1.50غم[2]. ويشير ابن صاحب الصلاة إلى استخدام الموحدين لهذه الأوزان على عهد الخليفة أبي يعقوب بقوله إنه في سنة 567ه/1172م بلغت بركة الفارس الكامل خمسة مثاقيل، وبيع رطل الدقيق الواحد بثلاثة دراهم، وكل ستين أوقية من اللحم بدرهم[3].

أما عن المكاييل فقد تعددت وتنوعت هي الأخرى في عهد الخليفة أبي يعقوب، ومما شاع استخدامه منها المد المراكشي، فابن صاحب الصلاة يشير إلى المد عند حديثه عن ارتفاع السعر في معسكر الموحدين أثناء عودته من حملة وبذة سنة 567ه/1172م فيقول: " وعدم الشعير حتى بيع المد المراكشي بثلاثة دراهم "[4]، والمد المراكشي هذا هو غير المد النبوي الذي يزن 400 غرام إذا كان من الشعير و525 غرام إذا كان من القمح، وذلك أنه فوق هذا الوزن بقليل[5]، وحسب هنتس الذي يتحدث عن فترة لاحقه فإنه يزن 2.786 كغم من القمح، أو مكيال سعته 4.32 لتر[6].

كذلك يتحدث ابن صاحب الصلاة عن مكيال الربع الذي استخدم لكيل الدقيق وكان يزن 25 رطلاً[7]، غير أن الصحفة (الوسق) والصاع كانت الأكثر استخداماً بين الناس في كيل الحبوب، فأما الصحفة فتعادل ستين صاعاً بالصاع النبوي، وهنا يذكر ابن الزيات أنه كانت لدى أبي عبدالله المهدوي (ت 595ه/1199م)، وهو من

---

(1): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص18.

(2): عبد النبي، مسكوكات المرابطين والموحدين، ص52.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص442، 510.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص509.

(5): حسن، الحضارة الإسلامية، ص230.

(6): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص75.

(7): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص442.

سكان مدينة فاس " ألف صحفة من قمح "[1]، أما الصاع الشرعي فيتألف من أربعة أمداد، أي ما يعادل 1987.65غم تقريباً([2])، ويرد عند البادسي أن الخليفة أبا يعقوب كافأ أبو داود مزاحم (ت578ه/1182م) نظير علاجه له من البرص قدر الصاع من الدراهم[3].

وفيما يتعلق بالمقاييس استخدم الموحدون المرجع كمقياس فلاحي، حيث يذكر عن الخليفة أبي يعقوب أنه اشترى من أحد أهالي مدينة إشبيلية سنة 567ه/1172م ثمان مئة مرجع، بثلاثة آلاف مثقال وذلك بغية بناء قصوره الملكية[4]. وتقدر مساحة مساحة المرجع بحوالي 467.4 متر مربع[5]. ومن المقاييس الفلاحية أيضاً الفدان وتقدر مساحته ب 6368 متر مربع[6]. كذلك استخدمت الأميال والفراسخ لقياس المسافات[7]، وكان الفرسخ يتألف من 3 أميال، أي حوالي 6كم، بينما يساوي الميل 3/1 الفرسخ، أي 2 كم[8].

---

(1): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص333، 376.

(2): القبلي، تاريخ المغرب، ص243؛ هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص63.

(3): البادسي، المقصد الشريف، ص50-55.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص466؛ أسكان، المالية الموحدية، ص97.

(5): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص98.

(6): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص98.

(7): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص150.

(8): هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص94-95.

3.5 الحياة العلمية والأدبية:

1.3.5 جهود الخليفة أبي يعقوب في دفع الحركة العلمية:

مثلت الحياة العلمية مظهراً مهماً من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، وقد لاقت على عهد الخليفة أبي يعقوب ازدهاراً عظيماً، ولعل مرجعية هذا الازدهار تعود إلى عوامل عديدة، أولها الأساس الديني المحض الذي قامت عليه الدولة الموحدية، فهي بدعايتها السرية والعلنية قامت لتعيد الناس إلى جادة الدين، ونشر الدين والتمكين لتعاليمه يستلزم بلا شك رفع راية العلم والمعرفة، وهذا ما يفسر ازدهار العلوم العقلية والنقلية في هذا العهد، حتى صار أدباء المغرب الموحدي لأول مرة في تاريخ المغرب ينافسون أدباء الأندلس.

وكان الخليفة أبو يعقوب نفسه كوكباً لامعاً ونبراساً ساطعاً في العلم، فكان أديباً متمكناً، ومحدثاً بارعاً، وفقيهاً فذاً[(1)]، لذا لم يكن بالأمر الغريب أن يحظى العلم والعلماء باهتمامه وعنايته، وأن يبالغ في تكريمهم وتقديرهم حتى وصل به الأمر كما يذكر ابن سعيد أنه كان ينزل عن فرسه إذا خرج للقاء فقيه الأندلس أبي بكر بن الجد[(2)].

ومن بين العوامل التي أثرت في نهضة المعارف على عهد الخليفة أبي يعقوب، شيوع الحرية لكل صوت يخدم الإنسان والدين، ولكل إفراز ذهني بشتى ألوانه وأشكاله سوى ما يخالف أو يعارض مبادئ التوحيد[(3)]، حتى تجرأ الفقيه محمد بن عبدالله بن مجاهد الإشبيلي بتشبيه الدخول إلى مجلس الخليفة أبي يعقوب بالدخول إلى الخلاء، وذلك بتقديم الرجل اليسرى عند الدخول إليه وتقديم اليمنى عند

---

(1): المراكشي، المعجب، ص187 ؛ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص646.

(2): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص343.

(3): السعيد، محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ط2، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1985م، ص64. سيشار إليه فيما بعد: السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين ؛ الشناوي، علي الغريب: النثر الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الآداب، القاهرة 2009م، ص70. سيشار إليه فيما بعد: الشناوي، النثر الأندلسي.

الخروج[1]. وحتى استطاع الشاعر أبو العباس الجراوي أن يرد على أبي يعقــوب رده المشهور عندما تعجب الخليفة أن يكون هناك شاعر من جراوي، فــرد عليــه (الجراوي) قائلاً: " وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه "[2]، " أعجب منهما والله خليفة من كومية "[3]. ولم يحرك الخليفة تجاههما ساكناً.

ولا شك أن تدفق المال وتوفر الأمن الذي ساد البلاد على عهد أبي يعقوب كان له بالغ الأثر في دفع الحركة العلمية في شتى أنحاء المملكة، فقد بلغ خراج إفريقيــة وإشبيلية كل واحدة منهما في السنة حمل مائة وخمسين بغلاً من المال الصــامت[4]، وبالطبع نال أهل العلم حظاً وافراً من هذا المال، ومن أمثلته أن أبا يعقــوب جعــل مرتبات ثابتة للأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم[5]. وســاعد انتشــار الأمن على تمهيد الطريق لمن أراد أن يسافر من المغرب والأندلس أو اليهما للعلــم أو للسياحة، حتى بلغ من الأمر أن المسافر يسير لوحده من نول لمطة أقصى بلاد المغرب إلى برقة قاصية بلاد إفريقية لا يرى من يعرض له[6].

ونرى أيضاً من جهود الخليفة أبي يعقوب في نهضة الحياة العلميــة والأدبيــة حرصه على إقامة المجالس والمجامع العلمية وإجراء المناظرات والمناقشات الفقهية والفكرية، ولم تكن تلك المجالس خاصة بفن، بل كانت تتناول شتى أصناف العلوم، ثم أنها لم تكن قاصرة على علماء الحضرة، بل كان يستدعى لها العلماء من ســائر أنحاء البلاد، ويبدو أن ابن طفيل هو من قام بمهمــة اســتدعاء العلمــاء للحضــرة وتعريفهم بالخليفة، يقول المراكشي: " ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء مــن جميع الأقطار وينبهه عليهم، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم "[7].

---

(1): التنبكتي، نيل الابتهاج، ص376-377.

(2): سورة يس، آية 78.

(3): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جــ7، ص137.

(4): المراكشي، المعجب، ص187 ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جــ7، ص135.

(5): المنوني، حضارة الموحدين، ص16.

(6): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206.

(7): المراكشي، المعجب، ص179.

وكان لهذه المجالس نظام خاص في ترتيب الجلوس، وطرح المسائل ومناقشتها، فكان الخليفة يتصدر المجلس وإلى جواره يجلس خطيبه، فقاضي الجماعة، فــرئيس الأطباء، فأكبر علماء الحضرة، ثم باقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مــراتبهم، وتفتتح الجلسة بإلقاء مسألة علمية، ويذكر المراكشي أن الخليفة أبا يعقوب حــرص على أن يلقي المسألة بنفسه، ويناقش الحاضرون المسألة بجد مع المحافظــة علــى الآداب الملوكية، وتختتم الجلسة بالدعاء للخليفة(1).

وفي عهد أبي يعقوب قوي الاحتكاك بين المغاربة والأندلسيين، خصوصاً بعــد قضائه على ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس وضــمه بلنســية ومرســية إلــى سلطانه، فكان عمله هذا من الناحية الفكرية والثقافية بمثابة توحيد لمعاهد ومراكــز الثقافة المغربية في مراكش وفاس وتونس، والمعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبــة وغرناطة وبلنسية ومرسية(2)، ليتهيأ بذلك الجو المناسب لما ستنتجه براعة الأدبــاء وقريحة العلماء.

2.3.5 مؤسسات ومعاهد التعليم:

تنوعت المؤسسات والمعاهد التي عنيت بالتعليم على عهد الخليفة أبي يعقــوب، فبالإضافة إلى المجالس العلمية التي كانت تنعقد بين يديه، ومنها كان يتخرج عليــة العلماء على مختلف طوائفهم ودرجاتهم، اتخذ الموحدون للتعليم المدارس والمساجد والكتاتيب والرباطات.

فأما المدارس فقد ظلت طوال عهده قاصرة على المدرستين اللتين هما من إنشاء والده، إذ لم نسمع عن إنشاء مدارس على عهد أبي يعقوب، وهما: المدرسة العامــة بمراكش المخصصة لتخريج ما تحتاجه الدولة من قادة أكفاء ومحــاربين بواســل،

---

(1): المراكشي، المعجب، ص246 ؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص529 ؛ المنوني، محمد: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط2، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977م، ص39-40. سيشار إليه فيما بعد: المنوني، العلوم والآداب والفنون.

(2): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـــ 2، ص255.

وفيها كان يتلقى الطلبة مختلف العلوم السائدة في ذلك العصر وخاصة تعاليم الإمام المهدي والعلوم العسكرية من رماية وسباحة وركوب الخيل[1]. والمدرسة البحرية برباط الفتح والتي جاء تأسيسها لتعليم البحرية وفن الملاحة، ولم نقف من منهاجها على قليل ولا كثير[2].

وبالمساجد ارتبطت التربية الإسلامية، فهي المراكز الرئيسية لنشر الثقافة العربية وتعاليم الدين الإسلامي[3]، وقد حظيت الدولة الموحدية بعدد من المساجد الكبار التي جلس فيها العلماء لإلقاء دروسهم، مثل المسجد الجامع بمراكش وهو من بناء الخليفة عبد المؤمن اختطه المهندس يعيش المالقي[4]، وجامع القرويين بمدينة فاس الذي كان مركزاً للإشعاع العلمي في هذا العهد، حتى أن قضاة حضرة الخلافة بمراكش من أمثال قاضي الجماعة عيسى بن عمران (ت578ه/1182م)، كانوا يبعثون بأبنائهم من مراكش للتزود من معين القرويين[5]، وجامع إشبيلية الذي هو من بناء الخليفة أبي يعقوب[6]، هذا إلى جانب جوامع كبريات المدن المغربية والأندلسية.

وكانت العادة أن لا يتقدم للتدريس في المساجد الكبار، إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين في وقته، فيذكر ابن الآبار أن أبا علي حسين بن محمد الأنصاري (ت 563ه/1167م) جلس للتدريس في جامع مرسية؛ لأنه " انفرد في وقته بطريقة الإقراء، وأخذ عنه الناس وكانت له حلقه عظيمة وكان ربما علم بالعربية والغالب عليه التجويد والتحقيق والإفادة للقراءة وحسن التفهم مع التواضع لهم "[7]. وكان أحمد بن عبد الصمد الأنصاري، من أهل قرطبة، قد رأس أهل عصره في علم

---

(1): مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص150 ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص248.

(2): المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص23.

(3): بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة، ص97.

(4): أشباخ، تاريخ الأندلس، ص495.

(5): طه، مدينة فاس، ص274.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص474.

(7): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص222.

الحديث، وقد استوطن مدينة فاس والتزم فيها بتدريس الحديث والتكلم على معانيـة بجامع القرويين لمدة تسع سنوات حتى كانت وفاته سنة 582ه/1186م[1].

أما الكتاتيب فكانت معروفة قبل الموحدين بالمغرب والأندلس، إذ هـي أمـاكن المرحلة الأولى التي كان يتعلم فيها صبية المسلمين مبادئ القراءة والكتابة والحساب إلى جانب حفظ القرآن الكريم[2]، وبالرغم من انتشارها على نطاق واسع بالأنـدلس قبل الموحدين، إلا أنها كانت قليلة إلى حد ما بالمغرب، فلما آل الأمـر إلـى عبـد المؤمن فرض على الناس التعليم الإجباري، وشمل هذا الإلـزام الرجـال والنسـاء والأحرار والعبيد، وجرى تعميم الكتاتيب وأناب لتعليم الناس فيها قـراءة التوحيـد وحفظه، وحفظ أم القرآن، وما تيسر معها من السور من ثبت علمه وحفظة[3].

وانتشرت الكتاتيب في مراكش والمدن الأخرى، يقول ابـن الزيـات: إن أبـا إبراهيم الهزرجي (ت581ه/1185م) كان يسكن الجانب الشرقي من مراكش " وكان يتفقد الصبيان في مكاتبهم فيسأل عن الأيتام وأولاد الفقراء فيكسوهم "[4].

وعرف من امتهن التدريس بالكتاتيب باسم " المعلم "، وكان يقوم بهذا العمل إما احتساباً لوجه الله أو لقاء أجر معين، يحصل عليه من والد الصبي سواء كان نقداً أو عيناً، وتمدنا المصادر بترجمات عديدة لبعض أولئك الذين عملوا على تعليم الصبيان بالكتاتيب، نذكر منهم على سبيل المثال أبو يحيـى الوريـاغلي المعلـم (ت بعـد 561ه/1165م) من أهل مدينة سلا، وبها كان يعلم الصبيان القرآن الكريم[5]، وأبو عبدالله محمد بن يعلا المعلم (ت580ه/1184م) من أهل مدينة فاس، " كـان يعلـم

---

(1): المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص239-240.

(2): العريني، يوسف بن علي: الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ط1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 1995م، ص87. سيشار إليه فيما بعد: العريني، الحياة العلمية.

(3): مجموع رسائل موحدية، ص132 ؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص291.

(4): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص241.

(5): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص184.

الصبيان في المكتب ويأخذ الأجر من أولاد الأغنياء ويرده على أولاد الفقــراء "[1]، ومنهم أبو إسحاق إبراهيم الإشبيلي، نزل مدينة تلمسان وبها مــات نهايــة القــرن 6ﻫ/12م، وكان يعلم بالكتاب القرآن محتسباً دون أجرة عليه، فإذا صرف الصــبيان احتطب من الجبل العزف يصنع منه حصر الصلاة، فيبيعها ويشتري بثمنها شــعيراً يقتاته[2]، كما قام بالتدريس بالكتاب الفقيه موسى المعلم (ت 599ﻫ/1203م)، كــان يعلم الصبيان في دار الكتاب بقنطرة أبي الرءوس بمدينة فاس، فلم يزل كذلك حتى ولي الخطبة بمسجد القرويين سنة 581ﻫ/1185م[3].

وإلى جانب المدارس والمساجد والكتاتيب قامت الرباطات بدور هام في العملية التعليمية بالمغرب الموحدي، فهي إلى جانب كونها ذات مهام حربية، كانت أمــاكن للعبادة ومعاهد تدرس بها شتى العلوم ولا سيما العلوم الدينية[4]، ويشير البادسي إلى انتشار الروابط على طول ساحل البحر المتوسط من برقة شرقاً إلى ســبتة غربــاً، وأنها كانت في ذلك العهد منزلاً للمنقطعين للعبادة والدراسة[5]، ولعل أبرز مثل على على تلك الرباطات خلال فترة دراستنا، الرابطة التي أنشأها الشيخ أبو داود مزاحم (ت578ﻫ/1182م) في قرية المزمة على ساحل البحر المتوسط، وقد انفق في بنائها مالاً جسيماً أعانه فيها رجال صالحون موسرون، وكان أبو داود ينقطع فــي هــذه الرابطة مع أصحابه وتلامذته للعبادة، والتذاكر، وقراءة القرآن، ودراســة العلــوم الدينية[6].

---

(1): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جــ1، ص219.

(2): ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص294.

(3): الجزنائي، زهرة الآس، ص57-58.

(4): علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص293.

(5): البادسي، المقصد الشريف، ص52-67.

(6): البادسي، المقصد الشريف، ص51-56.

3.3.5 ميادين الحياة العلمية والأدبية:

قسم العلماء المسلمين في العصور الوسطى العلوم إلى قسمين: العلوم النقلية والعلوم العقلية، يقول ابن خلدون: " إعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه، والأولى هي العلوم الحكمية (العقلية).. والثاني هي العلوم النقلية الوضعية "[1]. وفيما يلي سنعرض لأهم جوانب الأنشطة العلمية بفرعيها النقلية والعقلية التي اشتهرت بالمغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف.

1.3.3.5 العلوم النقلية:

هي العلوم التي جاءت لاستيعاب ما وضع في الميدان الديني واللغوي للحفاظ عليها والدفاع عنها[2]، وتشتمل على العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية.

1.1.3.3.5 العلوم الدينية:

1.1.1.3.3.5 علم القراءات:

يأتي علم القراءات في مقدمة العلوم الدينية، وهو " علم يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة ومبادئه "[3]، ويشتمل على

---

(1): ابن خلدون، المقدمة، ص435.

(2): شقرون، محمد بن أحمد: مظاهر الثقافة المغربية في القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، مطبعة الرسالة، الرباط 1982م، ص191. سيشار إليه فيما بعد: شقرون، مظاهر الثقافة المغربية.

(3): حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت 1067ه/1697م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلدان، عني بتصحيحه ونشره: محمد شرف الديت يالتقايا ورفعت الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت)، مج2، ص1317. سيشار إليه فيما بعد: حاجي خليفة، كشف الظنون.

أنواع متعددة منها علم الرسم والتجويد والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتهـا[1]، وقد حظي هذا العلم على اهتمام الموحدين وليس أدل على ذلك من أن الخليفـة أبـا يعقوب نفسه كان قد درسه ونال منه حظاً وافراً، يقول المراكشي " إنه - أي أبـي يعقوب – كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن "[2].

ومن أبرز من عني بهذا العلم على عهد الخليفة أبي يعقوب المقرئ علـي بـن أحمد ابن أبي بكر الكتامي، أصله من طليطلة وولد ونشأ بمدينة قرطبة، وفي سـنة 553ه /1157م نزل مدينة فاس، وتصدر لإقراء القرآن بهـا حتـى وفاتـه سـنة 569ه/1173م[3].

والمقرئ فتح بن محمد بن فتح الانصاري من أهل إشبيلية، كان مقرئـاً عارفـاً بالقراءات ضابطاً أحكامها ذاكراً أصولها، أقرأ بمدينة قرطبة زمناً، ثم انتقـل إلـى شلب وأقرأ بها، ثم تحول إلى مدينة فاس واستقر فيها لتعليم هذا العلم، حتى كانـت وفاته سنة 574ه /1178م[4]. وهناك أيضاً المقرئ أحمد بن محمـد بـن عبـدالله الانصاري، أصله من بادية بلنسية، وسكن المرية، وبها أخذ علم القراءات عن أبي الحسن بن موهب وعلي بن عريب وغيرهم، وكان حافظاً حافلاً متحققاً بـالقراءات، وقد تصدر للإقراء بمسجد العطارين بمالقة مدة طويلة ثم أقرأ بجامع المرية حتـى وفاته سنة 581ه/1185م[5].

وممن عني بالقرآن وقراءاته من بلاد المغرب، المقـرئ محمـد بـن عبـدالله المعافري القلعي (ت581ه/1185م)، أصله من قلة بني حماد، وقد انتقل في خلافة أبي يعقوب إلى بجاية واستوطنها وأقرأ بها، ووصف بحسن التلاوة وصدق القراءة، بحيث إذا أحيا ليلة القدر يرغب الناس في القيام خلفه لصدق قراءته، وكـان والـي بجاية - أخو الخليفة أبو يعقوب - يحضر الإحياء بالجامع ليلة سبع وعشرين، فمـا

---

(1): كنون، النبوغ المغربي، جـ1، ص195.

(2): المراكشي، المعجب، ص175.

(3): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص480.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ4، ص60-61.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص75-76.

دام المعافري يقرأ، يصلي الوالي قائماً، فإذا قرأ غيره يجلس، وذلك بجامع القصــبة المحروسة، وخطب بالجامعين الأعظم والقصبة[1].

2.1.1.3.3.5 **علم التفسير**:

يعنى علم التفسير ببيان معاني القرآن الكريم وشرح آياته، وإذا أمعنا النظر في تفاسير الموحدين وجدنا أنه بالرغم أن صاحب الدعوة الموحدية ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن قد تبنوا الفكرة المهدوية الشيعية، وتــأثر مــذهبهم التوحيــدي بــآراء المعتزلة، إلا أن ذلك لم يخرجهم عن الجو السني مطلقاً، حيــث ظلــت تفاســيرهم كفقههم في نطاق المذهب السني، ولم نسمع عن تفسيراً واحداً يتنحى ناحية المذهب التأويلي الشيعي[2].

ولقي علم التفسير على عهد أبي يعقوب اهتماماً كبيراً، بدليل استدعائه للمفسرين الأندلسيين ليتعانوا مع المفسرين المغاربة[3]، ثم أن أبا يعقوب نفسه كان " مستظهراً للقرآن كتاب الله تعالى بشرحه في ناسخه ومنسوخه "[4]. ومن العلماء الذين قــاموا على هذا العلم وتدريسه، الفقيه المفسر أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناف، ولد بمدينة ورجلان[5] سنة 500ه /1106م، وبها نشأ وتعلم، ثم رحــل إلــى الأنــدلس واستقر بقرطبة وعن علمائها تخرج، ثم كانت له رحله إلى أواسط افريقيا والحجاز، وله مؤلف في تفسير القرآن يقع في سبعين جزءاً، وتوفي سنة 570ه/1174م[6].

---

(1): الغبريني، عنوان الدراية، ص133-134.

(2): علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص296-297.

(3): المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص44-46.

(4): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص233.

(5): ورجلان: مدينة في طرف الصحراء بين إفريقية وبلاد الجريد، سكانها من البربر وتشتهر وتشتهر بكثرة النخيل. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ5، ص371 ؛ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص224.

(6): يوسف، حلقات من تاريخ المغرب، ص161.

وأبو الحسن علي بن محمد الغرناطي (ت577ه/1181م)، قدم مراكش في عهد الخليفة أبي يعقوب ونزل بالجانب الشرقي منها، وبها توفي، وظل علمـــه مقتصـــراً على التفسير، حيث كان يجتمع إليه الناس فيفسر لهم القرآن من أوله إلى آخره(1).

والفقيه المفسر أحمد بن عبد الصمد الانصاري، أصـــله مـــن قرطبـــة وســـكن غرناطة، ثم ارتحل إلى فاس واستقر بها، إلى أن كانت وفاته ســـنة 582ه/1186م، وله العديد من المؤلفات منها " آفاق الشموس " في الأقضية النبوية، و" نفس الصباح " في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه، و" مقام المدرك في إقحام المشرك "(2).

وهناك أيضاً المفسر بيبش بن محمد العبدري من أهل شاطبة، أجاز له عدد من علماء الأندلس والمشرق، وكان يحفظ صحيح البخاري، وله مؤلف في التعليق عليه، وبالإضافه إلى نبوغه في علم التفسير كانت له مشاركة بعلم النحو(3).

3.1.1.3.3.5 **علم الفقه**:

الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحـــذر والنـــدب والكراهية والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة(4). وقد شغل هذا العلـــم مكانـــة هامة في النشاط العلمي في دولة الموحدين، على عهد عبـــد المـــؤمن وابنـــه أبـــي يعقوب؛ للصراع الخفي الذي قام على عهدهما بين مذهبين متناقضين هما: المذهب المالكي السني الصريح، والمذهب الظاهري، ولعل عدم الارتياح الذي أظهره عبـــد المؤمن وابنه أبو يعقوب تجاه المذهب المالكي وشيوخه، عائـــد لســـيطرة المالكيـــة الكاملة على الفقه والقضاء في عهديهما، هذا إلى جانب عدم إقرار فقهـــاء المالكيـــة بمذهب المهدية الإمامية الذي اتخذته الدولة مذهباً رسمياً لها(5).

---

(1): ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص98-99.

(2): المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص239-240.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـــ1، ص185-186.

(4): ابن خلدون، المقدمة، ص445.

(5): مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج2، جـــ1، ص138-139.

ولما كان عبد المؤمن لا يستطيع المناداة بترك المذهب المالكي، ولا اضـــطهاد الفقهاء المالكيون لرسوخ هذا المذهب في الأوساط الشعبية، فقد اتجه تفكيـــره إلـــى سحب البساط من تحت المالكية من خلال ارجاع الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، فأمر في سنة 550هـ /1154م إحراق كتب الفروع، ورد الناس إلى قـــراءة كتـــب الحديث واستنباط الأحكام منها[1]، لكن يبدو أن عبد المؤمن خشي من ثورة النـــاس فتراجع عن رأيه ولم يتم حريق كتب الفروع على عهده.

ولما تولى أبو يعقوب الخلافة، حاول أن ينفذ فكرة والده في التخلص من كتـــب الفروع، ورد الناس في الفقه إلى ظاهر الكتاب والسنة، غير أن الزمن لم يمهلـــه إذ بقيت الفكرة في الأذهان ولم تر النور إلا على عهد ابنه المنصور. ويثبت المراكشي ميول أبي يعقوب لحمل الناس على اعتناق المذهب الظاهري بقوله " لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي احدثت فـــي ديـــن الله؛ أرايت يا أبا بكر، المسألة فيها أربعة أقوال، أو خمسة أقوال، أو أكثر من هذا، فأي هذه الأقوال الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف. فظهر أيام يعقوب مـــا خفي في أيام أبيه وجده "[2].

وعلى ذلك يظهر أن أبا يعقوب كان ينتحل المذهب الظاهري، وإنه كان يمنـــي النفس في أخذ الناس على اعتناق هذا المذهب، لكن خشيته من انتفاض الناس وعدم استجابتهم له، حال دون تجرأه على دعوتهم لاعتناقه، الأمر الذي جعـــل المـــذهب الظاهري على عهده يبقى محصوراً في الأسرة الحاكمة، وبعض الفقهاء الموالين لهم فقط.

ويقودنا ما سبق إلى حقيقة واقعة وهي انقسام الفقهاء على عهد أبي يعقوب إلى فريقين: ظاهرية ومالكية، فأما من اعتنق المذهب الظاهري وانتصر له، فيمثله الفقيه

---

(1): السلاوي، الاستقصا، جـــ1، ص261.

(2): المراكشي، المعجب، ص204.

أبو الحسن علي بن محمد بن خيار، أصله من بلنسية ودخل مراكش وغيرهـــا مـــن بلاد العدوة، ثم استقر بمدينة فاس، وكان فقهياً مشاوراً تاركاً للتقليد مـــائلاً للنظـــر، توفي بعد سنة 601هـ/1205م، ومولده سنة 541هـ/1145م[1].

ومن مشاهير الذين اعتنقوا المذهب الظاهري، وعمل في بـــلاط الخليفـــة أبـــي يعقوب، عبد الملك بن صاحب الصلاة - صاحب كتاب المن بالإمامة الذي اعتمدنا عليه كثيراً في دراستنا - الذي يقول عنه عبد الهادي التازي " أما عقائده فيتأكد أنه كان يعتنق مذهب الموحدين في الاعتقاد على الأصول من الكتاب والسنة ونبذ كتب الفروع "[2].

وفيما يتعلق بفقهاء المالكية ذكرنا أنهم استمروا يمارسون نشاطهم على عهد أبي يعقوب، بل أن الغلبة كانت لهم، وذلك أنا لنعد من فقهاء المذهب المالكي الذين نبغوا في عهده العشرات، قبل أن نعد ظاهرياً واحداً، وكان من أعظم فقهاء المالكية على عهد أبي يعقوب، أبي بكر محمد بن عبدالله بن يحيى بن الجد، وهو إشبيلي الأصل، ولد بمدينة لبلة سنة 469هـ /1101م، ودرس بها العربية والآداب واللغات على أبي الحسن ابن الأخضر، والحديث على أبي القاسم الهوزني، ثم انتقل إلى قرطبة ولقي بها ابن رشد الذي ناوله كتاب البيان والمقدمات، وعني في أول أمره بالعربية وعزم على التخصص فيها، والتصدر لإقرائها لكنه عدل عن ذلك بنصح ابن رشد ومالـــك بن وهيب ومال إلى دراسة الفقه والحديث، فتفوق في هذا الميدان حتى أصبح فريـــد عصره في الحفظ والفتيا، وقدم للشورى مع أبي بكر بن العربي ونظرائه من الفقهاء بإشبيلية. وما أن تولى أبو يعقوب الخلافة سنة 558هـ/1163م، حتى كان ابن الجـــد فقيه الأندلس والمغرب الأوحد دون منافس ولا منازع، ومتصدر عصره في التمكين من مذهب مالك، ولكن مع سعة علمه وغزارة حفظه لم يشتغل بالتأليف، ولم يتـــرك لنا اثاراً ذات شأن، وتوفي بإشبيلية سنة 586هـ/1190م[3].

---

(1): ابن الآبار، التكملة، جـــ3، ص247 ؛ المنوني، حضارة الموحدين، ص39.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص20.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـــ2، ص64-65؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ق1، ص323-326.

ونال ابن الجد الحظوة عند الخليفة أبي يعقوب منذ فترة مبكرة، وحتى قبـل أن يسير إليه أمر الموحدين، إذ ترأس ابن الجد وفد إشبيلية الذي قدم مراكش سائلاً عبد المؤمن تعيين أبي يعقوب والياً لإشبيلية سنة 551ه/1155م، يقول ابن عـذاري: " وصرح ابن الجد بطلب السيد أبي يعقوب فقال لهم عبد المؤمن إنه صغير فقالوا بل كبير فاسعفهم في ذلك وبعثه معهم أميراً "[1]، فأكرمه أبو يعقـوب وقـت إمارتـه بإشبيلية وآثره على غيره من طلبة مجلسه، وزادت منزلته إليه بعد توليـه الخلافـة حيث استدعاه إلى مراكش فحظي عنده بدنيا عريضة واستفاد ثروة عظيمة، وكـان أبو يعقوب يصغي إلى حديثه ويستحسن كلامه ويستطرف ما يأتي به في جميع مـا يشفع فيه من أمور أهل إشبيلية وغيرهم بالرغم من مالكيته، وهـو مـن الأعيـان الخمسة[2] الذين حضروا موقعة وبذة مع الخليفة أبي يعقوب، وفي كل مرة يتوجـه فيها أبو يعقوب إلى مدينة إشبيلية كان أبو بكر بن الجد على رأس مستقبليه، حتـى ولو كان يسير في موكب الخليفة، فإنه يتعمد إلى أن يسبقه ليهيء مراسيم اسـتقباله، واستمرت كذلك حال ابن الجد في ترقي الرتبة ونماء الحظوة إلـى أن تـوفي أبـو يعقوب[3].

ونذكر كذلك من الفقهاء بيبش بن محمد بن أحمد بن خلف العبدري، نشأ بمدينة بلنسية ودرس بها الفقة حتى نبغ فيه، وولي فيها الشورى والأحكام، وعنـدما سـار الخليفة أبو يعقوب لغزو مدينة وبذة سنة 567ه/1172م تطوع في جيشه، ولم يلبث أن توفي عقب عوده من الغزوة المذكورة في سنة 568ه/1173م[4].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص56.

(2): يقصد بالأعيان الخمسة: ابن طفيل وابن رشد طبيبا الخليفة، وأبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضرة، وأبو موسى عيسى بن عمران قاضي الجماعة، إضافة إلى ابن الجد. انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص495.

(3): المراكشي، الذيل والتكملة، س6،ق1، ص325؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص516.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص185.

ومن فقهاء المغرب عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي، من أهل فـــاس، دخـــل الأندلس في أواخر العصر المرابطي، وفيها نشأ ودرس على يد عدد من علمائهـــا، وكان فقيهاً متمكناً وأديباً محسناً، وعالماً متفنناً، ولاه الخليفة أبو يعقوب قضاء مدينة فاس، وهو في طريقه لغزوة شنترين سنة 579هـ/1183م، وتـــوفي بمكنـــاس ســـنة 597هـ/1201م[1].

4.1.1.3.3.5 علم الحديث:

الحديث النبوي هو المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ويقصد به كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قـــول، أو فعـــل، أو تقريـــر، أوصفة، وهو ما اصطلح على تسميته أيضاً بالسنة، والمحدث هو من ينقل أو يروي ما سمعه من الأحاديث[2].

وقد عني الموحدين على عهد أبي يعقوب بالحديث النبوي عناية فائقـــة، وكـــان صحيح الإمام البخاري (ت256هـ/869م)، وصحيح الإمام مسلم (ت261هـ/874م)، وسنن أبي داود (ت275هـ/888م)، وسنن النسائي (ت303هـ/951م)[3]، إضافة إلـــى موطأ ابن تومرت، وأحاديث الجهاد التي أمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بجمعهـــا[4]؛ هي من أهم الكتب والمصنفات الحديثية التي كانت تـــدرس فـــي حلقـــات العلمـــاء والمعاهد العلمية ببلاد المغرب والأندلس على عهده.

وكان الخليفة أبو يعقوب نفسه من المتبحرين في علم الحديث، إذ نجده يحرص على طلبه من أصوله الموثوق بها يقول المراكشي: " صح عندي أنـــه - أي أبـــي

---

(1): ابن الآبار، التكملة، جـــ2، ص306.

(2): حاجي خليفة، كشف الظنون،مج1، ص635-636 ؛ ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص170.

(3): المراكشي، المعجب، ص202-204 ؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص299-300.

(4): العريني، الحياة العلمية، ص235-237.

يعقوب – كان يحفظ أحد الصحيحين، الشك مني إما البخاري أو مسلم، وأغلب الظن أنه البخاري "[1].

ولم يكتف أبو يعقوب بحفظ الحديث ودراسته، بل عني بجمعه وترك لنا فيه مؤلفاً يكشف عن براعته في علم الحديث، وهو كتاب " الجهاد " الذي الحق بكتاب " أعز ما يطلب "، وفيه يورد أبو يعقوب طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه وتبيان محاسنه، ويحمل هذا الكتاب في خاتمته صراحة اسم مؤلف أبو يعقوب، وتاريخ الانتهاء من تأليفه وهو سنة 579هـ/1183م[2]، وكان أبو يعقوب يملي ما تضمنه كتابه هذا من أحاديث على رجال دولته بنفسه، وربما قرأ بعضه على الجند أثناء المسير لغزوة شنترين سنة 580هـ/1184م، ترغيباً لهم في الجهاد[3].

ومن اشتهر في علم الحديث من العلماء لعهد أبي يعقوب، محمد بن عبد العزيز ابن علي الغافقي، من أهل قرطبة، ويعرف بالشقوري؛ لأن أصله من شقورة، كان حافظاً لأخبار الأندلس ومعتنياً بصناعة الحديث، وقد طاف قواعد الأندلس في طلبه حتى نال منه حظاً وافراً، وأصبح بصيراً بطرائقه مميزاً لرجاله، وحدث وأخذ عنه الناس، وتوفي سنة 579هـ/1183م[4].

ومن أهل المرية اشتهر بعلم الحديث عبدالله بن محمد بن علي بن ذي النون الحجري، درس الحديث والفقه على علماء بلده ثم رحل إلى قرطبة، فلقي بها من أئمة الحديث أبا القاسم بن بقي، وأبا بكر بن العربي، ولقي بإشبيلية أبا الحسن شريح، فسمع منهم وأكثر عنهم، واشتهر ببحرة وغزارة حفظه، ثم عبر البحر إلى العدوة، ونزل بمدينة سبتة وعكف فيها على تدريس الحديث، فشاع ذكره وبعد

---

(1): المراكشي، المعجب، ص175 ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ21، ص99.

(2): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص412-437.

(3) : العريني، الحياة العلمية، ص237.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص53-54.

صيته، الأمر الذي دفع الخليفة أبو يعقوب لاستدعائه إلى مــراكش ليســمع منــه، فاستجاب له وأقام بمراكش حتى كانت وفاته سنة 591هـ/1195م[1].

ومن أئمة الحديث الذين كانوا مقصداً للرحلة في روايته لإتساع مشيخته وعلــو أسانيده الإمام الشيخ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزردي الإشبيلي، رحــل إلى بجاية أثناء الفتنة الواقعة بإشبيلية عند انقراض دولة المــرابطين، وولـــي بهـــا القضاء ثم الخطبة والصلاة، وكان أحد العلماء المتفننين في وقته، فقيهاً حافظاً عالماً بالحديث وعلله، وله تآليف كثيرة منها " الأحكام الكبرى فـــي الحـــديث "، و" بيـــان الحديث المعتل "، و" الجمع بين الصحيحين "، وتوفي ببجاية سنة 581هـ/1185م[2].

ومن أئمة المحدثين المغاربة جابر بن أحمد بن إبراهيم القرشـــي، مـــن أهــل تلمسان، له رحلة إلى بلاد الأندلس في طلب الحديث، حيث قيل أنه دخــل إشـــبيلية وسمع من علمائها سنة 578هـ/1182م، يقول عنه ابن الآبار: " كان زكياً جليلاً نبيلاً صاحب أدب ولغة محباً في الحديث وتحصيله، وكانت له إجازات من مشـــايخ مـــن أهل الحديث وعناية بفنه وطرقه "، وتوفي بتلمسان[3] دون أن نعثر له على تـــاريخ وفاة.

2.1.3.3.5 علوم اللغة العربية:

ارتبطت علوم اللغة العربية ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الدينية، إذ كان من الضروري لمن يعمل في العلوم الدينية من قراءات وتفسير وفقه وحديث أن يلم باللغة العربية، وذلك من أجل فهم معاني القرآن الكريم واستخراج الأحكام الشرعية، ويقصد بعلوم

---

(1): ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص278-281.

(2): ابن فرحون، الديباج المذهب، جــ2، ص59-61 ؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص279 ؛ الغبريني، عنوان الدراية، ص41-44.

(3): ابن الآبار، التكملة، جــ1، ص201.

اللغة العربية هنا علوم اللسان العربي وهي حسب ابن خلدون وحاجي خليفة تتكــون من أربعة أركان هي: اللغة والنحو والبيان[1] والأدب[2].

1.2.1.3.3.5 علم اللغة:

يعتبر علم اللغة من مكملات الثقافة الدينية والأدبية، فهو أساس ضروري لكــل باحث وعالم، فبه يستقيم اللسان، وبه تفهم مسائل الدين والقــرآن، ويبــدو أن ابــن تومرت كان يعي ذلك جيداً، إذ نجده في رحلته إلى المشرق ينكب على دراسة اللغة العربية حتى أصبح " متضلعاً بليغاً فيها "[3]، ذو " فصاحة في العربيــة والبربريــة "[4]، وعندما عاد إلى المغرب حرص على تلقين علومه الدينية لاتباعــه وخاصــة عقيدته المعروفة بالمرشدة باللسانين العربي والبربري[5]. وعلى سنن ابن تــومرت سار عبد المؤمن وابنه يوسف، إذ تخيروا لابنائهم مؤدبين هم رؤساء عصرهم فــي الأدب واللغة[6]، كما أنهم حرصوا على أن تكون الدراسة في المؤسسات التعليميــة باللغة العربية، وأن يكون أئمة المساجد وخطباؤها على دراية تامة باللغتين العربية والبربرية[7]، وعلى عهد عبد المؤمن وأبي يعقوب شهدت بلاد المغــرب الأقصــى حركة تعريب واسعة؛ بفعل قدوم العرب الهلالية واستيطانهم بعض المنــاطق مــن البلاد؛ لتمسك هذه القبائل البدوية باللسان العربي، الأمر الذي أثر كثيراً فــي دعــم

(1): البيان: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ. انظر: السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد (ت 626هـ/ 1228م): مفتاح العلوم، ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000، ص249. سيشار إليه فيما بعد: السكاكي، مفتاح العلوم.

(2): ابن خلدون، المقدمة، ص545 ؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، مج1، ص55.

(3): الغناي، قيام دولة الموحدين، ص199.

(4): الذهبي، سير أعلام النبلاء، جــ19، ص541.

(5): عبد الحميد، محمد بن تومرت، ص21.

(6): منصور، أعلام المغرب العربي، جــ3، ص302-303.

(7): حسن، الحضارة الإسلامية، ص488 ؛ نجار، المغرب والأندلس، ص485.

اللغة العربية، وتحويل أجزاء واسعة من المغرب إلى بلاد عربية إسلامية خالصة[1].

ويذكر المراكشي، أن أبا يعقوب حرص أثناء ولايته على إشبيلية أن يتلقى علوم اللغة العربية على يد أساطين علماء الأندلس، أمثال الأستاذ اللغــوي أبــو إســحاق إبراهيم ابن ملكون، حتى غدا " أعرف الناس كيف تكلمت العرب.. وأحفظهم للغــة العربية "[2].

ومن أشهر علماء اللغة على عهد أبي يعقوب من المغاربة محمد بن أحمد بــن هشام اللخمي السبتي، درس ما كان ينتحله العامة من العلوم في مدينة سبتة طويلاً، فكان قائماً على العربية واللغة، وألف فيهما مؤلفات عديدة استعملها الناس، منهــا " كتاب الفصول "، و" تقويم اللســان "، و" لحــن العامــة ". وكانــت وفاتــه ســنة 577هـ/1181م[3].

ومن اللغويين الأندلسيين: أبو الوليد عبدالله بن أحمد الحجري، من أهل قرطبة، مهر

في صناعة العربية والأدب وضبط اللغات، وتصدر لاقرائها والتعلــيم بهــا زمنــاً، وتوفي بقرطبة سنة 575هـ/1179م[4].

ومن علماء بلنسية باللغة، نبغ أبو عبدالله محمد بن جعفر بن أحمد الأموي، الذي تنقل بين المدن الأندلسية طلباً للعلم، فمكث عند الأستاذ أبي بكر بن مسعود بمدينــة جيان ثلاثين شهراً يأخذ عنه العربية واللغات، وعاد إلى بلنسية بعلم جــم وروايــة عالية، وجلس فيها لتعليم العربية فأخذ عنه الناس القراءة والعربية، واعتمدوا عليــه فيهما؛ لتقدمه في معرفتهما إلى أن كانت وفاته سنة 586هـ/1190م[5].

---

(1): مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص177-178؛ الميلي، تاريخ الجزائر، جــ1، ص322-325.

(2): المراكشي، المعجب، ص175.

(3): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ق1، ص70-75؛ ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص157-ص157-158.

(4): ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص272.

(5): ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص62-63.

2.2.1.3.3.5 **علم النحو**:

هو العلم الذي تعرف من خلاله تراكيب اللغة والإعراب والبناء؛ لتأدية المعنى الأصلي للكلام[1]، ومن اللافت للانتباه ازدهار علم النحو والدراسات النحوية على نطاق واسع في بلاد المغرب على عهد أبي يعقوب، وإن ظلت إشبيلية قطب الدائرة في تلك العلوم على ذلك العهد، إلا أن علماء المغرب أظهروا اهتماماً بهذا العلم فاق غيره من العلوم، حتى إننا نجد الاهتمام بتدريس النحو يصل إلى مدن المغرب الثانوية، فها هم نحاة مدينة طنجة يرفعون سؤالاتهم للنحويين من أهل إشبيلية، ويبدو أن أسئلتهم كانت كثيرة ومتجددة الأمر الذي دفع نحاة إشبيلية لإنتداب العالم النحوي أبي بكر محمد بن خلف الإشبيلي[2]؛ للإجابة عن مسائلهم[3].

وإذا اتينا إلى مشاهير علماء النحو خلال فترة الدراسة، لوجدنا أن الخليفة ابا يعقوب يأتي على رأس قائمة نحاة عصره، فقد درس علم النحو في صغره على يد الأستاذ النحوي أحمد بن حسين بن سيد الجواي (ت 560ه/1164م)، الذي كان من كبار نحاة الأندلس فاستخلصه عبد المؤمن لتدريس أبنائه علم النحو[4]، وقضى أبو يعقوب زهرة شبابه في إشبيلية منذ عينه والده والياً عليها سنة 551ه/1155م، وهناك تفتحت مواهبه العلمية والأدبية، حيث اتصل فيها بأقطاب اللغة، وخاصة الأستاذ اللغوي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن ملكون (ت 584ه/1188م)، الذي لازمه مدة ثماني سنوات التي قضاها والياً على إشبيلية فأخذ عنه علم اللغة

---

(1): السكاكي، مفتاح العلوم، ص125.

(2): هو محمد بن خلف بن محمد اللخمي الإشبيلي، درس على يد أبي الحسن شريح وأبي القاسم بن الرماك، كان عارفاً بالقراءات والعربية مقدماً فيهما، ويقال أنه أقرأ النحو لمدة خمسين سنة، وتوفي سنة 586ه/1190م. ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص61.

(3): السيوطي، بغية الوعاة، جـ1، ص100.

(4): منصور، أعلام المغرب العربي، جـ3، ص302-304.

والنحو، ولم تؤول الخلافة لأبي يعقوب، حتى كان من المتبحرين في علـــم النحـــو، وأسرع الناس نفوذ خاطر في غامض مسائله(1).

ويأتي في مقدمة علماء المغرب النحويين لهذا العهد أبو موسى عيسى بن عبـــد العزيز الجزولي المراكشي، كان إمام عصره في علم النحو، كثير الإطـــلاع علـــى دقائقه وغريبه وشاذه، وله تصنيف خطير فيه أسماه " القانون "، وأطلق عيه النحـــاة عدة أسماء منها: " المقدمة "، و" الجزولية "، و" الاعتماد "، وهو كتاب فـــي غايـــة الإيجاز، لكنه مشتمل على كثير من مسائل النحو، وقد اعتنى جماعة من الفضـــلاء فشرحوه، وله يعود الفضل في تأسيس المدرسة النحوية بـــالمغرب، وقـــد تصـــدر لتدريس العربية والنحو في بجاية زمناً طويلاً ثم بالمرية، وتـــوفي مـــراكش ســـنة 607ه/1211م(2).

وإلى جانب الجزولي اشتهر العالم النحوي الكبير أحمد بن عبد الرحمن بن مضا اللخمي، أصله من جيان، وولد بقرطبة سنة 513ه/1117م، وقد انقطع منذ صـــغره إلى طلب العلم واستجماع المعارف، وعرف عنه شدة الحفظ وسرعة الفهم، ونتيجة لظلم لحق به من أحد حساد بلده، انتقل إلى المغرب في عهد عبد المؤمن، واســـتقر بجبل تينملل ينشر ما عنده من علم، فلما ذاع صيته، استقدمه عبـــد المـــؤمن إلـــى مراكش واختصه لنفسه، وفي عهد أبي يعقوب قلده قضاء فـــاس، ثـــم بجايـــة، ثـــم استدعاه وأنزله في قصره كواحد من كبار العلماء الذين يحضـــرهم فـــي مجلســـه الخاص ويستأنس بمحادثتهم، وفي عام 578ه /1182م، عينه الخليفة قاضياً للجماعة بمراكش، ولابن مضا في علم النحو مؤلفات منها: " تنزيه القرآن عما لا يليق مـــن البيان "، و" الرد على النحاة "، وهما من أهم المؤلفات العلمية والنحوية، التي ظلت

(1): المراكشي، المعجب، ص175 ؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـــ1، ص431.

(2): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـــ3، ص488-490 ؛ ابن الآبار، التكملة، جـــ4، ص17-18.

تدرس في المعاهد العلمية بالمغرب والأندلس حتى زوال الدولة الموحدية، وتـــوفي ابن مضا في إشبيلية سنة 592هـ/1196م[1].

3.2.1.3.3.5 **الأدب**:

يقول ابن خلدون: الأدب هو " الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أســـاليب العرب ومناحيهم "[2]، وعلى ذلك يقسم الأدب إلى قسمين همـــا: الشـــعر والنثـــر، وكلاهما لقيا ازدهاراً عظيماً على عصر الموحدين.

1.3.2.1.3.3.5 **الشعر**:

ويقصد به الكلام الموزون على روى واحد، أي الحرف الأخير من القافية، وهو من أعظم معارف العرب؛ لقدمه عندهم[3]. وعلى عهد الخليفة أبي يعقــوب حظـــي الشعر باهتمام خاص، حيث أجزل العطاء للشعراء وقربهم إليـــه، وصـــرف لهـــم المرتبات الثابتة مع غيرهم ممن يعملون في سلك الدولـــة كالأطبـــاء والمهندســـين وغيرهم، كما اصطحبهم معه في غزواته وجميع تحركاته، وشـــاركوه فـــي كافـــة المناسبات والاحتفالات الرسمية، يسجلون بشعرهم ما يجري حـــولهم مـــن أحـــداث ومعارك وبطولات، ومن أجاد منهم نال الحظوة والمكانة الرفيعة فضلاً عن المـــنح والعطايا[4].

---

(1): المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص212-222 ؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص142-143 ؛ منصور، أعلام المغرب العربي، جـ3، ص357-360 ؛ الآوسي، الأدب الأندلسي، ص39.

(2): ابن خلدون، المقدمة، ص553.

(3): ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص191.

(4): المراكشي، المعجب، ص177 ؛ عيسى، فوزي: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2007م، ص79-80. سيشار إليه فيما بعد: عيسى، الشعر الأندلسي.

ولم يقتصر الاهتمام بالشعراء على الخليفة أبي يعقوب، بل كـــان أمـــراء وولاة دولته ينافسونه في استقطاب الشعراء والاستئثار بهم، مثال ذلك والي غرناطة السيد عثمان ابن عبد المؤمن، الذي وصف " بأنه كان محباً للآداب، مؤثراً لأهلها، يهتــز للشعر ويثيب عليه، حتى لقد اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة لم تجتمع لملك من الموحدين بعده "[1].

ولا شك أن تشجيع الخليفة أبي يعقوب للشعراء والإغداق عليهم بالعطايا، لم يكن فقط للحصول على مدائحهم وتسجيل ما يجري حوله من أحداث، بل كانــت هنـــاك غاية أسمى تتمثل في تثبيت دعائم الدولة وبث دعوتها في الأقـــاليم والحـــث علـــى الجهاد، فالقبائل العربية بإفريقية لم تستجب لنداء الخليفة للمشاركة في غزوته الأولى للأندلس، إلا بعد أن وجهت إليها قصيدتان من نظم ابن طفيل وابن عياش[2].

هذا وقد عاش خلال فترة البحث الكثير من الشعراء الذين خلفوا لنا ثـــروة فـــي مختلف الأغراض الشعرية من وصف ومدح وغزل ورثاء وهجاء وغيرها، ولم يكن الشعراء الأندلسيون وحدهم هم من استأثر بهذا الفن، وإنما شاركهم في ذلك بعـــض الشعراء المغاربة أمثال: أبو عبدالله محمد بن حسين بن حبوس الفاســـي، الشـــاعر النابه المجيد، الذي قال عنه المراكش: كانت طريقته في الشعر على نحـــو طريقـــة محمد بن هانئ الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة، والقعاقع المهولة وإيثار التقعيـــر، وقال ابن الآبار: كان عالماً محققاً، وشاعراً مفلقاً. وقد نال ابن حبوس الحضوة عند عبد المؤمن وابنه يوسف، ونال في أيامهما ثروة عظيمة[3]، حتى أطلق عيله شاعر

---

(1): عيسى، الشعر الأندلسي، ص81.

(2): الآوسي، الأدب الأندلسي، ص118-122.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـــ2، ص159 ؛ المراكشي، المعجب، ص156-157 ؛ كنون، النبوغ المغربي، جـــ1، ص167.

الخلافة المهدوية(1)، وكانت وفاته سنة 570هـ/1174م(2). ومما قاله ابن حبوس في مدح خلافة الموحدين:

فلأنتم الحق الذي لا يمترى   فيه وليس بجائز أن يجهلا
ولأنتم سر الإلاه وأمركم   ملأ العوالم مجملاً ومفصلا
كاثرتم زهر النجوم أسنة   وأدرتم فلكاً عليها القسطلا(3)

غير أن أعظم شعراء المغرب على عهد أبي يعقوب وفخر الدولة الموحدية على الاطلاق، أو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي، وهو من أهل تادلا، عاش فترة طويلة فخدم عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، لكن كان له مع أبي يعقوب يوسف شأن غير شأنه مع الآخرين، فكان يعد شاعر دولته الخاص، وكان لا يبرح مجلسه. قال عنه ابن خلكان " كان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة.. وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر.. سماه " صفوة الأدب وديوان العرب " وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق "(4). وكانت وفاته بإشبيلية سنة 609هـ/1213م(5). ويمتاز مدحه بالمبالغة التي كان يطرب إليها الخلفاء الموحدين، ومن ذلك ما قاله في مدح الخليفة أبي يعقوب عند دخوله مدينة إشبيلية سنة 566هـ/1170م:

حللت من العلى أسمى ذراها   وجاريت النجوم إلى مداها
وواليت السماح فقد تناهت   أمانٍ للعفاة وما تناها
وجودك نعمة لله عمت   وجودك نعمة أخرى سواها

---

(1): التجيبي، أبي بحر صفوان إدريس المرسي (ت 598هـ/1201م): زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، اعتنى بنشرة: عبد القادر محداد، بيروت 1939م، ص1. سيشار إليه فيما بعد: التجيبي، زاد المسافر.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص159.

(3): التجيبي، زاد المسافر، ص2.

(4): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص136-137.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص113.

وعذر الشمس لو حسدتك باد   لأن سناك أشهر من سناها[1]

وكان الجراوي سليط اللسان لا يعترف بالفضل لاحد، حتى لقد هجا قبيلته بني غفجوم، فقال:

يابن السبيل إذا نزلت بتادلا   لا تنزلن على بني غفجوم

أرض أغار بها العدو فلن ترى   إلا مجاوبة الصدى للبوم[2]

ومن شعراء الأندلس أبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي، نسبة لرصافة بلنسية، ولد ببلنسية وسكن غرناطة ثم استقر بمدينة مالقة حتى وفاته سنة 572ه/1176م، قال عنه ابن الخطيب " كان فحلاً من فحول الشعراء، ورئيساً في الأدباء.. شاعراً مجيداً، رقيق الغزل، سلس الطبع "[3]، ومن الأغراض الشعرية التي تناولها الوصف والرثاء والغزل، ومن نظمه يرثي أبا محمد عبدالله بن العباس المالقي (ت 562ه/1166م) وهو من أعلام مالقة:

أبنى البلاغة فيم حفل النادي   هبها عكاظ فأين قس أياد

عرشت سما علا بكم ما أنتم   من بعد ذلكم الشهاب الهادي

إيه عميد الحي غير مدافع   إيه فدى لك غابر الأمجاد

إبنى العباس أي حلاحل   سلبتكم الدنيا وأي معاد[4]

ومنهم أبو عمر أحمد بن حربون، من أهل مدينة شلب، كان من الكتاب الموهوبين والشعراء المرموقين، استكتبه السيد أبو حفص عمر سنة 560ه/1164م، فانتقل به المقام إلى مدينة مراكش وبقي ملازماً للبلاط الموحدي طيلة الأربع السنوات التالية يسجل بقصائد بليغة تتفاوت طولاً وقصراً أحداث تلك السنوات ووقائعها، ولا نجد في المصادر ذكراً له بعد سنة 564ه/1168م، حيث أن آخر خبر

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص120.

(2): المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، 4 أجزاء، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، القاهرة 1939-1942م، جـ2، ص365. سيشار إليه فيما بعد: المقري، أزهار الرياض.

(3): ابن الخطيب، الأحاطة، جـ2، ص505-506.

(4): ابن الخطيب، الأحاطة، جـ2، 509-511.

عنه هو قوله قصيدة ميمية يمدح بها الخليفة أبا يعقوب بمناسبة انســحاب القــوات البرتغالية من مدينة بطليوس في السنة المذكورة[1].

ومن آثاره الشعرية التي حفظتها لنا المصادر (14) بيتاً أثبتها التجيبي فــي زاد المسافر[2]، و(537) بيتاً أوردها ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة.

وجاءت أشعاره في معظمها قاصرة على المدح، ومن ذلك قوله يمدح الخليفة أبا يعقوب:

بسعدك أضحى الدين جدلان باسما   وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما
قدمت أمير المؤمنين مؤيدا   على كل من عاداك بالقسط قائما[3]

ومن شعراء الأندلس أيضاً أبو الوليد اسماعيل بن عمــر الشــلبي المعــروف بالشواش (ت 569هـ/1174م)[4]، وأبو العباس أحمد بن سيد الإشــبيلي المعــروف باللص (ت 578هـ/ 1182م)[5]، وأبو محمد عبد الحق بــن عبــد الــرحمن الأزدي الإشبيلي (ت 582هـ/1186م)[6]، ومن النساء اشتهرت الشاعرة حفصة الركونية (ت (ت 586هـ/1190م)، ولدت وعاشت في غرناطة، وتنوع شعرها بين غزل ومــديح ووصف[7]، فمن نظمها في الغزل:

أزورك أم تزور فإن قلبي   إلى ما ملتم أبداً يميل
وقد أمنت أن تظمى وتضحى   إذا وافى إلى بك القبول
فعجل بالجواب فما جميل   أناتك عن بثينة يا جميل[8]

---

(1): منصور، أعلام المغرب العربي، جــ3، ص310-313.

(2): التجيبي، زاد المسافر، ص89-90.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص383-387.

(4): انظر ترجمته: السيوطي، بغية الوعاة، جــ1، ص202.

(5): انظر ترجمته: ابن الآبار، التكملة، جــ1، ص72-73 ؛ منصور، أعلام المغرب العربي، جــ3، ص339-345.

(6): انظر ترجمته: ابن الآبار، التكملة، جــ3، ص120-121.

(7): قجه، محطات أندلسية، ص200-204.

(8): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جــ2، ص166.

وعند الحديث عن الشعر الأندلسي، فإن ذلك يقودنا للإشارة إلى الموشحات[1] كأحد فنون الشعر العربي التي ابتكرها الأندلسيون، وتطور نظمها على عصر الموحدين، ولعل أشهر رواد هذا الفن خلال فترة الدراسة أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الحفيد (ت595هـ/1199م)، الذي كان أحد أطباء الخليفة أبي يعقوب؛ لاشتهاره بالطب أيضاً، وقد تفوق ابن زهر على أقرانه في الموشحات حتى رأس أهل زمانه فيه، يقول المراكشي " كان – أبو بكر بن زهر – بارع النظم فائق التوليد والاختراع، بذ أهل زمانه في النظم الذي اختص أهل الأندلس باختراعه المعروف بالتوشيح، لا يقاومه أحد من أهل الأندلس في ذلك كله عندهم؛ وكان معظماً عند ملوك عصره من آل عبد المؤمن "[2]، ويقول ابن أبي أصيبعة " له – أي ابن زهر – موشحات مشهورة يغنى بها، وهي من أجود ما قيل في ذلك "[3]، ولابن زهر موشحات كثيرة منها قوله:

حي الوجوه الملاحا وحي كحل العيون

هل في الهوى من جناح وفي نديم وراح رام النصوح صلاحي

وكيف أرجو صلاحا بين الهول والمجون[4]

ويقول ابن سعيد: أحسن موشحات ابن زهر موشحته التي أولها:

مد الخليج ورفّ الشجر لقد تعانقا منظر ومختبر[5]

---

(1): الموشحات: مفردها موشحة وهي فن من فنون الشعر التي ابتكرها الأندلسيون، وتتألف الموشحة من نحو سبعة أبيات، تضم كل منها ثلاثة أبيات متفقة القوافي، وينسب فيها الشعراء ويمدحون كما يفعل في القصائد. انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص583.

(2): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص399-400.

(3): ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص521.

(4): ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص527.

(5): ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص271.

2.3.2.1.3.3.5 **النثر**:

إن ما ينسحب على الشعر من تطور وإزدهار على عهد أبي يعقوب، ينسحب أيضاً على النثر، فقد ازدهر هو الآخر بمختلف فنونه وضروبه من خطابه ورسائل ومناظرات، فالأول من هذه الأنواع وهي الخطابة وجدت لها سوق نافقة، حيث كانت الاحتفالات الرسمية والدينية مناسبات انتهزها الخطباء لإظهار قدرتهم وبراعتهم في ارتجال الكلام ونسج التعابير المنمقة بمحضر الخليفة، الذي كان يثيبهم على قدر إجادتهم[1]، وقد تألق في هذا العهد العديد من الخطباء، منهم الفقيه أبو محمد المالقي (ت 574ه/1178م)، الذي القى بين يدي الخليفة أبي يعقوب خطبة معلومة يوم شفائه من مرضه سنة 566ه/1170م، فاستبشر الناس بكلامه، يقول ابن عذاري: " وخطب أبو محمد المالقي الخطبة المعلومة فاستبشر الناس وشكروا الله على شفائه "[2].

وبرع الفقيه أبو موسى عيسى بن عمران (ت 578ه/1182م) في إلقاء الخطب البليغة في النوازل المهمة، حسبما يذكر ذلك المراكشي بقوله: " كان – أبو موسى عيسى ابن عمران – خطيباً مصعقاً وبليغاً لسناً.. نال في أيام أبي يعقوب حظوة ومكانة، كان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة "[3].

وكانت حركة الجهاد التي قادها أبو يعقوب ضد الممالك الاسبانية في الأندلس وما تمخض عنها من معارك عديدة، مجالاً لإنشاء الخطب الجهادية، التي من شأنها شحذ الهمم وبث الحمية والحماس في نفوس المقاتلين، ومن ذلك الخطبة التي ألقاها الشيخ أبو محمد بن عبد الواحد بن عمر في صفوف الجيش الموحدي عندما ظهر عليهم التخاذل أثناء غزوة وبذة سنة 567ه/1172م، وهذا نصها " قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا لجاهدنا الله عز وجل واجتهدنا، فلما حضرتم معهم قصرتم وجبنتم وخنتم الله عز وجل ونكلتم وما نصحتم، ما أنتم بمؤمنين ولا بموحدين إن تسمعوا النواقيس تضرب وتعاينوا الكفر ولا تدفعوا المنكر، إن أمير المؤمنين بن

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص525.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص116.

(3): المراكشي، المعجب، ص181.

أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى مـن الجهـاد علـى كثرتكم من الأعداء "[1].

وإن ما تجدر ملاحظته على خطبة الشيخ عبد الواحد هذه – التي مـا هـي إلا صورة عن خطب الجهاد الارتجالية على ذلك العهد – أنها مع ما اتسمت به مـن إيجاز، جاءت سهلة الأسلوب، بعيدة عن استعمال المحسنات البديعية المتكلفة كتلـك التي شاع استخدامها في رسائل وخطب النصر والاحتفالات الرسمية والأعياد، ثم إن الصفة الغالبة عليها هي الاعتماد على عنصر التأثير، كلفت انتباه الجند إلى النواقيس تضرب، وعدم رضا الخليفة عنهم لتقصيرهم في الجهاد، هذا مع قوة الشكيمة عنـد المتحدث، وذلك أن الموقف لا يسمح للاعتماد على الإقناع، فلا مجال إلا لمواصـلة الحصار ومعاودة القتال.

أما في مجال كتابة الرسائل سواء أكانت ديوانية أم إخوانية، فقد برز عدد مـن الكتاب الذين أظهروا مقدرة فائقة في نسج التعابير وصياغة الألفاظ والتفنن بأساليب البلاغة، وقد أثبت المراكشي أن أبا يعقوب استكتب ثلاثة من كبار كتاب عصـره، وهم: أبو الحسن ابن عياش، وأبو القاسم المالقي، وأبو الفضل جعفر بن محشرة[2].

ولحسن الحظ حفظ لنا كتاب المن بالإمامة، وكتاب مجموع رسائل موحدية مـن جمع ليفي بروفنسال، عدداً من الرسائل الرسمية التي نسبت إلى كتاب أبي يعقوب، بلغ عددها سبعة رسائل، كتب ابن عياش خمسة منها[3]، وكتب أبو القاسم المـالقي رسالة[4]، وابن محشرة رسالة واحدة أيضاً[5]، وكانت الصفة الغالبـة علـى هـذه

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص501.

(2): المراكشي، المعجب، ص180.

(3): مجموع رسائل موحدية، ص138-141، ص141-149 ؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص276، 302، 309، 376.

(4): مجموع رسائل موحدية، ص121-126.

(5): مجموع رسائل موحدية، ص149-157.

الرسائل أنها من النوع الدعائي، وهناك رسائل أخرى بعضها جوابية اثبتهـــا ابـــن صاحب الصلاة عن الخليفة أبي يعقوب، لكنه لم يذكر اسم كاتبها[1].

أما مضمون هذه الرسائل فلا أجد ضرورة للبحث فيه، لذا ننتقـــل إلـــى النـــوع الآخر من الرسائل التي ظهرت على هذا العهد وهي الرسائل الإخوانية، ومن تلـــك الرسائل الرسالة التي كتبها قاضي الجماعة بمراكش أبو موسى عيسى بن عمـــران إلى ولده بمدينة فاس في حدود سنة 570ه/1174م، وكان قد أرسله إلى هناك لينهل من علم القرويين، وقد بلغ الحلم، إذ يقول: " إلى ولدي.. هداه الله ورعاه، وجمّلـــه بالعلم والتقوى وزانه، كتبت إليكم عن اشتياق كثير، وبمشـــيئة الله تعـــالى تتيســـر الأمور، ويتكاثف السرور، وإذا وجدتكم على ما أحبه مـــن أدوات الحفـــظ والأداء، ولزام آداب العقلاء، جازيتكم بما يرضيكم، وبما يزيد على أقصـــى تمنـــيكم، وقـــد أجمعت الأئمة عن الراحة، لا تنال بالراحة، وإن العلم لا ينال براحة الجسم، فادرس ترؤس، وأحفظ تحفظ، وأقرأ ترق، ومهما ركنت إلى الدعة، كنت من أهل الضـــعة، وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، وما رأيتهم مجتمعـــين علـــى ذمـــه فاجتنبه، والأعدل الأقسط، أن تسلك السبيل الأوسط "[2].

ومثّل فن المقامات[3] شاهداً آخر على ازدهار الحياة الأدبية علـــى عهـــد أبـــي يعقوب، وممن اشتهر بهذا الفن أبو عبدالله محمد بن غالب الرصـــافي البلنســـي (ت 572ه/ 1176م)، الذي كان له عدد من المقامات الشعرية والنثرية، منهـــا مقامـــة يصف بها القلم، قال فيه شعراً:

قصير كالأنابيب لكنه   يطول مضاً طوال الرماح
إذا عب للنفس في دامس   ودبّ من الطرس فوق الصفاح

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص324، 346، 354، 357.

(2): كنون، النبوغ المغربي، جـــ2، ص475-476.

(3): المقامات: هي فن أدبي ينشأ في موضوعات مختلفة كالمدح والهجاء والغزل، وقد يكون موضوعها أحياناً نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية، والقصد منها غالباً الموعظة، وأول من كتب فيها بديع الزمان الهمذاني الذي توفي سنة 398ه/1007م. انظر: ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص202 ؛ العريني، الحياة العلمية، ص312.

تجلت به مشكلات الأمور   ولان له الصعب بعد الجماح

وقال فيه نثراً: " فلولاه لغدت أغصان الاكتساب داوية، وبيوت الأموال خاوية.. وهو رأس مالها، وقطب عمالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسـرها، وتحكم في طيها ونشرها"[1].

وأبو بكر محمد بن خلف الهمذاني (ت 573هـ/1177م) من أهل غرناطة، نبـغ في علوم كثيرة كالفقة والحديث والنحو واللغة والأدب، ويقول السيوطي عنه أنـه " صنع مقامة حسنة في أهل بلدة "[2]. كما يذكر ابن فرحون أن عبد الرحمن بن أحمد الأزدي المعروف بابن القصير (576هـ/1180م)، وهو من أهل غرناطة، أنه كـان صاحب " تآليف وخطب ورسائل ومقامات، جامعاً لمناقب من أدركه من أهل عصره "[3].

وشكل فن المناظرات نوعاً آخر من فنون النثر التي واكبت حركـة الازدهـار الثقافي والأدبي على عهد أبي يعقوب، ويقصد بها النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب[4]، وكان المهدي بن تومرت أول منـاظر فـي دولة الموحدين عندما ناظر علماء المرابطين وأفحمهم بمجلس الأميـر علـي بـن يوسف بن تاشفين، وعلى خطى ابن تومرت سار أبو يعقوب، حيث أظهر تفوقاً بهذا الضرب من الفن حتى أفحم مناظرية، مثال ذلك عندما ناظر أبو عمـران موسـى العنسي[5] في شأن قرطبة، يقول المقري: " قال السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي: ما عندك في شأن قرطبة ؟ قال له: ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السلطان: إن ملوك بني أمية حـين

---

(1): ابن الخطيب، الأحاطة، جـ2، ص514-515.

(2): السيوطي، بغية الوعاة، جـ1، ص101.

(3): ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص486 ؛ ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص30.

(4): المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص119.

(5): هو أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي، من أعلام مدينة بلنسية، كان شغوفاً التاريخ، وتوفي الإسكندرية سنة 573هـ/1177م. انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص170.

اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة، الديار المنفسحة الكثيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج الناضر، والمحرث العظيم، والشعراء الكافية، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها، قال، قلت: ما أبقى لي أمير المؤمنين من قول "[1].

وممن عني بالمناظرة لهذا العهد الفقيه علي بن عبدالله المتيطي الأنصاري (ت 570ه/1174م)، أصله من قرية متيطة من أعمال الجزيرة الخضراء، وقد أقام بمدينة سبتة زمناً طويلاً لازم فيها مجلس أبي محمد عبدالله ابن القاضي أبي عبدالله بن عيسى بالمناظرة والتفقه[2].

وهكذا نلاحظ من خلال هذا العرض الموجز، إن نهضة علوم الأدب كانت شاملة على عهد الخليفة أبي يعقوب، وإنها واكبت ازدهار الحياة الثقافية والفكرية بالبلاد.

2.3.3.5 **العلوم العقلية**:

هي العلوم التي تتطلب جهداً فكرياً لاعتمادها على العقل، وغير مختصة على أمة أو دين[3]، ومن هذه العلوم التي عرفت على عهد الخليفة أبي يعقوب:

1.2.3.3.5 **علم الفلسفة**[4]:

في الوقت الذي اتسم فيه موقف المرابطين من علم الفلسفة بالتشدد والتعنت، واضطهادهم للمشتغلين بهذا العلم لاعتقادهم الراسخ أنه يجر للإلحاد[5]، وقف الموحدون من ذلك على طرف نقيض فدعو إلى التحرر الفكري ومحاربة الجمود

---

(1): المقري، نفح الطيب، مج1، ص154.

(2): ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص480.

(3): شقرون، مظاهر الثقافة المغربية، ص191.

(4): الفلسفة: هي كلمة يونانية الأصل معناها الحكمة، وفيلسوف معناها محب الحكمة. انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص514 ؛ حاجي خليف، كشف الظنون، مج2، ص1289-1290.

(5): الشناوي، النثر الأندلسي، ص86.

العقلي، وعملوا على بعث النشاط في الشعب لنشر الكتب على اختلاف مشاربها، وخاصة كتاب إحياء علوم الدين الذي تعرض للتحريق زمن المرابطين، بل لقد سمحوا بقراءة مثل هذه المؤلفات على كراسي المساجد[1].

ولا غرو أن يجد المشتغلون بالفلسفة على زمن الموحدين الرعاية والتشجيع، إذا علمنا أن دعوة ابن تومرت تعتمد أصلاً على العقل في تأكيد ارائها، يقول ابن تومرت: " بضرورة العقل يعلم التوحيد "[2].

هذا وإذا كان علم الفلسفة قد لقي نفاق كبير زمن الموحدين عامة، فإن عهد الخليفة أبي يعقوب يمثل أوج عطاء هذا العلم وزهرة شبابه، وذلك أن أبا يعقوب نفسه كان على رأس المشتغلين به والمحبين له، وهذا ما يثبته المراكشي بقوله: " وكان له – أي أبي يعقوب – مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة.. ثم طمح به شرف نسبه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيراً من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب.. ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي "[3].

وكما جمع كتب الفلسفة كذلك جمع إليه علمائها، يقول المراكشي ولم يزل أبو يعقوب " يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب "[4].

وإلى الخليفة أبي يعقوب يرجع الفضل في نشر فلسفة أرسطو على الناس وشرحها شرحاً وافياً، بعد أن كانت غامضة غائبة، إذ هو الذي وجه إليها ابن رشد وبعث فيه روح النشاط للعمل بمشورة ابن طفيل فاخرجها للناس على خير مرام[5].

---

(1): الجيلالي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص25.

(2): ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص321.

(3): المراكشي، المعجب، ص175.

(4): المراكشي، المعجب، ص176.

(5): الجيلالي، تاريخ الجزائر، جـ2، ص24 ؛ ديورانت، ول: قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ط3، ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1974م، ص371-372. سيشار إليه فيما بعد: ديورانت، قصة الحضارة.

وعلى عهد أبي يعقوب ظهر اثنان من أشهر الفلاسفة المسلمين على الإطـــلاق، وهما ابن طفيل وابن رشد، فأما ابن طفيل فهو أبو بكر محمد بن عبد الملـــك بـــن محمد بن طفيل القيسي، ولد في بلدة وادي آش سنة 494هـ/1100م، ودرس الطـــب في غرناطة ثم درّسه، وفي سنة 549هـ/1148م غادر الأندلس متوجهاً إلى المغرب فعين أميناً لسر السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن والي سبتة وطنجة، وعندما آل أمـــر الموحدين لأبي يعقوب سنة 558هـ/1163م استدعاه واتخذه طبيباً له، فصـــار مـــن قرنائه المقربين لا يصب على فراقه لا ليلاً ولا نهاراً[1].

وقد استغل ابن طفيل معظم ساعات فراغه في حضرة أبي يعقوب فقضاها فـــي المكتبة الملكية، ووجد بين الدرس وشؤون الحكم متسعاً من الوقت كتب فيه أعظـــم قصة فلسفية في أدب العصور الوسطى، وهي قصة " حي بن يقضان "، تلك القصة التي قصد منها بيان الصلة بين العقل والدين، وخلاصة هذه القصة أن حي بن يقظان الذي سميت القصة باسمه القي وهو طفل في جزيرة نائية، فالتقطته ظبيـــة وحنـــت عليه، فلما شب استطاع بتأمله أن يصل إلى معرفة الله وحقائق الوجود[2].

هذا وقد تعددت إنجازات ابن طفيل وحسبنا أنه نقد نظرية بطليوس في محاولـــة لاصلاح نظامه في حركات الأفلاك، وإنه صاحب أبدع نظرية في المعرفة بقوله: إن المعرفة تكون من طريق الحواس أو من طريق الذات، كما إنه وصف بشكل جدير بالاهتمام جسم ظبية شرحها ووصفها من جلدها حتى أحشائها وقلبها[3].

ويذكر المؤرخون أن الخليفة أبا يعقوب عندما أحب أن تشرح له فلسفة أرسطو لشدة ولعه بمطالعة كتب الفلسفة، طلب من ابن طفيل أن يقوم بذلك لما علمه عنه من

---

(1): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص409 ؛ زبيب، الموسوعة العامة، ص348 ؛ حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، 6 مجلدات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996م، مج5، ص456. سيشار إليه فيما بعد: حميدان، أعلام الحضارة العربية.

(2): ديورانت، قصة الحضارة، جـــ2، مج4، ص369-370 ؛ أمين، ظهر الإسلام، جـــ3، ص242-245.

(3): حميدان، أعلام الحضارة العربية، مج5، ص457.

جودة ذهنه وصفاء قريحته، لكن ابن طفيل اعتذر لكبر سنه وكان قد شارف علـــى الثمانين، غير أنه اختار لهذه المهمة تلميذه ابن رشد[1]، ويرى ديورانت أن ترشـــيح ابن طفيل تلميذه للقيام بهذا العمل إن دل على شيء، إنما يدل على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود في بني الإنسان[2].

ولابن طفيل العديد من المؤلفات منها بالإضافة إلى قصة حـــي بـــن يقظـــان، " الأرجوزة في الطب "، و " رسائل في الفلك وتركيب الاجرام وحركاتهـــا "، وهـــي لاتزال مفقودة على حد علمنا، و" أسرار الحكمة المشرقية "[3].

وتوفي ابن طفيل في السنة التالية لوفاة الخليفة أبي يعقوب، وذلك ســـنة 581ه /1185م، ودفن بمراكش وحضر الخليفة المنصور جنازته[4].

أما الفيلسوف ابن رشد فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ويلقب بأبي الوليد الحفيد، وهو قرطبي المولد والنشأة، يقول عنه المراكشي " كان متقـــدماً في علوم الفلسفة والطب منسوباً إلى البراعة فيها وإدامة الفكر وتدقيق النظـــر فـــي معانيها"[5]. ويعود الفضل في ربط الصلة بين ابن رشـــد والخليفـــة أبـــي يعقـــوب للفيلسوف ابن طفيل، ويظهر من الحوار الذي دار بين الخليفة وابن رشد فـــي أول لقاء بينهما أن ابن رشد رغب في إخفاء معرفته بالفلسفة ولم يشأ أن يظهر بها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على إنه حتى عهد الخليفة أبي يعقوب لـــم يكـــن هنـــاك اطمئنان من قبل الفلاسفة لمحيطهم النافر من الاشتغال بهذا العلم، لكن بعـــد انتهـــاء المقابلة خرج ابن رشد متحرراً وقد اطمأنت نفسه؛ لتتفتح مواهبه الفلســـفية تحـــت حماية قوية، وأي حماية، حماية الخليفة أبو يعقوب.

---

(1): المراكشي، المعجب، ص179 ؛ جوليان، تاريخ افريقيا، جـــ2، ص163 ؛ المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص99.

(2): ديورانت، قصة الحضارة، جـــ2، مج4، ص370.

(3): ابن الخطيب، الأحاطة، جـــ2، ص479 ؛ حميدان، أعلام الحضارة العربية، مج5، ص458 ؛ المليجي، ابن طفيل، ص126.

(4): ابن الخطيب، الأحاطة، جـــ2، ص482.

(5): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص22.

ونقل لنا المراكشي تفاصيل هذا اللقاء عن طريق أحد تلاميذ ابن رشد فقال – أي ابن رشد _: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب في أول لقاء وجدته هو وابن طفيل، فأخذ ابن طفيل يثني علي بأشياء لا يبلغها قدري، فلما التفت إلي الأمير سألني: ماذا يعتقد الفلاسفة في السماء، هل هي أزلية أم لها بداية، فداخلني الخوف والوجل من هذا السؤال، وأخذت انكر اشتغالي بعلم الفلسفة، فأدرك الخليفة ما أنا عليه من اضطراب، فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث معه في الموضوع، ويروي كل ما قاله ارسطو وافلاطون وغيرهما من الفلاسفة، وما لفقهاء المسلمين عليهم من احتجاج، فطمأنت نفسي عندئذ، ولكني عجبت لما رأيت من غزارة حفظ الأمير لم أظنها حتى في من كانت الفلسفة صنعته، ولم يزل يطمئنني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك، وعند انصرافي أمر لي بمال وخلعة سنية وجواد[1]. ولعل إعجاب ابن رشد بحفظ الخليفة يشير إلى ما سبق ذكرناه من تمرس أبي يعقوب وتفوقه بعلم الفلسفة، حتى اننا نستطيع أن نعده من ضمن فلاسفة عصره.

ومنذ هذا اللقاء الذي لا نستطيع تحديد تاريخه على وجه الدقة – لكن الثابت أنه كان قبل عام 565ه/1169م، وذلك أنه في هذه السنة ولّى الخليفة أبو يعقوب ابن رشد قضاء إشبيلية- أصبح ابن رشد من أحب الناس لأبي يعقوب، وفي سنة 567ه/1172م عين أبو يعقوب ابن رشد على قضاء قرطبة، واستمر كذلك حتى استدعي إلى مراكش سنة 577ه/1181م؛ ليكون طبيب الخليفة الخاص إلى جانب ابن طفيل[2]، وكان أثناء شغله لمنصب قاضي قرطبة صنف في الفقه كتابه المسمى " بداية المجتهد وكفاية المقصد "[3].

أمضى ابن رشد طيلة مدة وجوده بمراكش بحضرة الخليفة أبي يعقوب منذ سنة 577ه/1181، إلى أن صدر أمر تعيينه مرة أخرى قاضياً لقرطبة سنة 579ه

---

(1): المراكشي، المعجب، ص179.

(2): أمين، ظهر الإسلام، جـ3، ص246-247 ؛ ديورانت، قصة الحضارة، جـ2، مج4، ص371 ؛ Imamuddin, S. M: A Political History of Muslim Spain, second edition, Najmah Sons, Dacca 1969, p275.

(3): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص22.

1183م/[1] على دراسة آثار أرسطو وأفكاره، إذ تناول كل ما امكن الحصول عليه من مؤلفاته أو من شروح هذه المؤلفات بالدراسة العميقة والمقارنة الدقيقة والتحليل الوافي، حتى أعد لكل كتاب منها خلاصة موجزة في أول الأمر، ثم شرحاً موجزاً أيضاً، ثم شرحاً مطولاً للطلبة المتقدمين، وبفضل هذا الجهد استطاع العلماء فهم فلسفة أرسطو وتقريبها إلى أذهان الناس، كما ذاعت شهرة ابن رشد في كافة الأرجاء وخاصة في أوروبا ولقب ب " الشارح الأعظم "[2].

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن ابن رشد مزج في فلسفته بين الفكر الفلسفي المحض، وبين التصورات التي جاء بها الإسلام في شأن الحياة والكون، كما أنه فسر الفلسفة على أنها البحث في معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان، وقال بأن العالم أزلي، وأن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية[3].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الحظ لم يستمر مبتسماً لابن رشد، فقد نكب في عهد المنصور ونفي ومنعت كتبه من التداول، لكن يبدو أن حالة الجفاء التي لقيها على عهد المنصور لم تستمر طويلاً، حيث عفي بعد سنتين واستدعي إلى مراكش وتوفي بها سنة 595ه/1199م[4].

ولابن رشد كم عظيم من المؤلفات منها: كتاب "الجوامع في الفلسفة"، و"شرح كتاب البرهان للحكيم"، و"تلخيص كتاب الأخلاق لأرسطو طاليس"، و"كتاب الكليات" في الطب[5].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص156.

(2): جوليان، تاريخ افريقيا، جـ2، ص163 ؛ ديورانت، قصة الحضارة، جـ2، مج4، ص372 ؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص367 ؛ O'callaghughan, Ahistory of Medieval al Spain, p322.

(3): العريني، الحياة العلمية، ص268 ؛ أمين، ظهر الإسلام، جـ3، ص252 ؛ ديورانت، قصة الحضارة، جـ2، مج4، ص373.

(4): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص26-30.

(5): المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص23 ؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص532-533.

2.2.3.3.5 **علم الطب**:

لا شك أن الطب من العلوم المهمة لأي دولة تعنى بصحة مواطنيهــا، والدولــة الموحدية اهتمت بذلك أيما اهتمام، فكان حكامها يعتنون بصحة مواطنيهم اعتنــائهم بصحتهم، يقول المنوني " كان للطب دولة وصولة، وقد اهتبل به الموحدون وبخاصة يوسف ويعقوب اهتبالاً فائقاً، ففوق اعتنائهم بالطب الخاص بهم، كذلك اعتنوا بشؤون الرعية الصحية؛ فبنوا المستشفيات ونظموا هذه المهنة "[1].

وكان الخليفة أبو يعقوب من عشاق الطب، إذ أقبل على دراسته ونال منه حظاً وافراً، حتى عد في الأطباء وإن كان ذلك بالعلم وليس بالعمل[2]، وممن قــام علــى خدمة الخليفة أبي يعقوب من الأطباء إلى جانب الطبيب الفيلســوف ابــن طفيــل، والطبيب الفيلسوف ابن رشد – سبق ذكرهما – كان هناك الطبيب أبو مروان عبــد الملك بن قاسم القرطبي، وهو من أهل التبريز في صناعة الطب، وقد لازم الخليفة خلال مرضه الذي استمر عاماً كاملاً سنة 565ه/1169م، وتوفي أبو مروان ســنة 575ه/1179م[3].

ومنهم الوزير الحكيم أبو بكر محمد بن أبي مروان بن العلاء بن زهــر، ولــد بمدينة إشبيلية ونشأ بها، وقد تلقى العلم عن أبيه وجده وانفرد بالإمامة فيه، يقول ابن أبي أصيبعة " لم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب "[4]، كما برع ابن زهر في اللغة العربية والأدب والحديث والتفسير، وكان يحفظ كتاب البخــاري بأســانيده[5]، والتحق ابن زهر بخدمة خلفاء الموحدين مبكراً منذ عهد عبد المؤمن ثم أبي يعقوب يوسف، ويذكر ابن أبي زرع أن ابن زهر كان خلال خدمته لأبي يعقوب يتردد على

---

(1): المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص88.

(2): المراكشي، المعجب، ص175.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 207 ؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص410.

(4): ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص521.

(5): ابن الآبار، التكملة، جــ2، ص75.

الحضرة، يقيم بها ثم يرجع إلى إشبيلية حيث أهله، حتى سمعه أبو يعقوب ذات يوم ينشد أبيات شعرية تشوقاً إلى ولده الذي تركه بإشبيلية، جاء فيها:

ولي واحد مثل فرخ القطاة صغير تخلفت قلبي لديه

نأت منه داري فأوحشني لذلك الشخيص وذاك الوجيه

تشوقني وتشوقته فيبكي علي وأبكي عليه

وقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلي ومني إليه

فما كان من الخليفة أبي يعقوب عند سماعه لهذه الأبيات، إلا أن أمر بنقل عائلة ابن زهر بجملتها إلى مراكش بعد أن هيأ لهم سبل المقام، وكان ذلك سنة 578ه/1182م، فاقام بها إلى أن كانت غزوة شنترين واستشهاد الخليفه[1]، ثم اختصه المنصور لنفسه، وتوفي ابن زهر بمراكش سنة 595ه/1199م[2].

ومن أطباء هذا العصر أيضاً أبو مروان عبد الملك بن علي بن سلمه المددي (ت 575ه/1179م)، من أهل إشبيلية، كان مشاركاً في علم الطبيب واحترف به، حتى ذاعت شهرته[3].

ومنهم أيضاً الطبيب أبو جعفر بن هارون الترجالي، من أعيان أهل إشبيلية، يقول عنه ابن أبي أصيبعة " كان محققاً للعلوم الحكمية.. فاضلاً في صناعة الطب، متميزاً فيها، خبيراً باصولها، حسن المعالجة موحود الطريقة، وخدم لابي يعقوب والد المنصور"[4]، وكانت وفاة الترجالي بإشبيلية غير أننا لم نعثر له على تاريخ وفاة.

ومن قرطبة نبغ علي بن عتيق بن عيسى الخزرجي، الذي كان ماهراً في الطب موفق العلاج، وله تآليف فيه، وقد طاف بعدد من مدن المغرب مثل بجاية وفاس وغيرهما يفيد الناس بعلمه، وتوفي ابن عتيق سنة 598ه/1201م[5].

---

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 207.

(2): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص75.

(3): ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص83-84.

(4): ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص530.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص221-222.

ومن أطباء المغرب وردت هناك إشارة إلى الطبيب سعيد الغماري عرضاً عند ابن خلكان أثناء حديثه عن قصة جرت بين الخليفة أبي يعقوب والشاعر عبد السلام الجراوي[1]، ولكن للأسف لم نعثر على ترجمة لهذا الطبيب في المصادر التي أمكن الإطلاع عليها.

3.2.3.3.5 **علم الهندسة والحساب**:

شهد علم الهندسة نهضة كبيرة على عهد الموحدين وخاصة زمن عبد المــؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، وذلك لتشجيع هؤلاء الخلفاء لهذا العلم مــن خــلال اعتنائهم بالمنشآت العمرانية، وليس أدل على تقدم هذا العلم في عهد الخليفــة أبــي يعقوب من نصب ساعة على باب جامع مراكش ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعاً، وتنزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم، وتتحرك بنزولها أجــراس يسمع وقعها من بعد[2]. وكان من أفذاذ المهندسين على عهد أبي يعقوب المهنــدس المعروف بالحاج يعيش المالقي، من مدينة مالقة، وكان قد استقر في مراكش علــى عهد عبد المؤمن، وصنع له المقصورة الشهيرة بجامع مراكش التي صممت وفــق حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله، وقــد اســتعان بــه الخليفة أبي يعقوب في تنفيذ مشاريعه العمرانية بمدينة إشبيلية سنة 567ه/1172م. وإلى جانب الحاج يعيش اشتهر المهندس أحمد بن باسة، ويدلنا اســمه علــى أنــه أندلسي الأصل من إشبيلية، ولعله ينتسب إلى أسرة الباصة المستعربة بطليطلة، وقد عمل ابن باسة جنباً إلى جنب مع الحاج يعيش المالقي في بنــاء قصــور البحيــرة وجامع إشبيلية سنة 567ه/1172م[3].

---

(1): ابن خلكان، وفيات الأعيان، جــ7، ص137.

(2): الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب، مج2، جــ3، ص265.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص139-140 ؛ سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص244.

ومن علماء الهندسة أيضاً أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عيسى الأنصـــاري (ت 593ه/1197م) من أهل بلنسية، يقول عنه ابن الآبار أنه " قعـــد لتعلـــيم الحســـاب والهندسة وأخذ عنه جماعة من أهل بلده وانتفعوا به "[1].

ومن المهندسين الذين اختصوا بالأملاك والأراضي أبو عبدالله محمد بن مفـــرج بن أبي العافية، من أهل مرسية، اشتهر بالفهم والذكاء والمعرفة بأنساب أهل مرسية، ويقول عنه الضبي " كان عارفاً بأملاك مرسية كلها " وتوفي سنة 587ه/1191م[2].

أما بالنسبة لعلم الحساب، فقد كان من العلوم المقرر تدريسها عنـــد الموحـــدين؛ لحاجة الدولة لمن يقوم بالمهام الحسابية في مؤسساتها، لا سيما في المحـــاكم، ومـــا تتطلبه التركات وفروض النفقة من حساب[3].

ومن العلماء الذين اهتموا بهذا العلم وقاموا بتدريسه، أحمد بن أبي المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن جزي، وهو من أهل بلنسية، يذكر ابن الآبار أنه غلب عليه علم الفرائض والحساب، وقام بتعليمه بجامع بلنسية، وكانت وفاته سنة 583ه/1187م[4].

ومنهم علي بن محمد بن فرجون القيسي، من أهل قرطبة، كان بصـــيراً بعلـــم الحساب، وقد رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج وطلباً للعلم، وعندما عاد استقر في مدينة فاس لتعليم الحساب ووالفرائض بها، ومن مؤلفاته كتاب " لب اللباب فـــي مسائل الحساب "، وتوفي بمكة المكرمة سنة 601ه/1204م[5].

4.2.3.3.5 علم التاريخ والجغرافيا:

برز في عصر الموحدين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية، فمـــن بلاد المغرب تألق من المؤرخين أبو علي حسن بن عبـــدالله بـــن حســـن الكاتـــب، المعروف بالأشيري، وهو من أهل تلمسان نشأ بها وأخذ عن أعلامها، كمـــا كـــان

---

(1): ابن الآبار، التكملة، جـــ1، ص80-81.

(2): الضبي، بغية الملتمس، جـــ1، ص172.

(3): المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص103 ؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص369.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـــ1، ص77.

(5): ابن الآبار، التكملة، جـــ3، ص223 ؛ العريني، الحياة العلمية، ص342.

ناظماً ناثراً في الوقت ذاته، حيث كان ممن أنشدوا بين يدي الخليفة أبـــي يعقــوب بمناسبة الانتصار الـــذي تحقــق علـــى القشـــتاليين فـــي موقعـــة كركـــوى ســـنة 568ه/1172م، ويذكر ابن الآبار أن له قصيدة مستجادة في غزوة الســبطاط ســـنة 569ه/1173م. ومن تآليفه في التاريخ كتاب مختصر في تاريخ الموحدين ســـماه " نظم اللآلى في فتوح الأمر العالي "، وهو معدود ضمن الكتب الضائعة وقد نقل عنه ابن عذاري وابن صاحب الصلاة، وتوفي الأشيري سنة 596ه/1200م[1].

ومن المؤرخين أيضاً عبد الحق بن عبد الـــرحمن الأزدي الإشـــبيلي البجـــائي (ت582ه /1186م)، الذي استوطن بجاية منذ الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض دولة المرابطين، وألف في السيرة من خلال كتابه "الأنيس في الأمثـــال والمـــواعظ والحكم والأدب من كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين"، ومختصر "كتـــاب الرشاطي في الأنساب من القبائل والبلاد"، وهو في ســفرين، وكتـــاب "معجـــزات الرسول صلى الله عليه وسلم" في سفر واحد[2].

ويأتي في مقدمة المؤرخين الأندلسيين ابن صاحب الصلاة، وهو أبو محمد عبد الملك ابن محمد بن أحمد الباجي، الذي نستطيع أن نســـميه بحـــق مـــؤرخ الـــبلاط الموحدي على عهد أبي يعقوب، وذلك من خلال كتابه الذي أعطاه اسماً طويلاً وهو " المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الـــوارثين، وظهـــور الإمام بالموحدين على الملثمين وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفـــة أميـــر المؤمنين وأخيّر الخلفاء الراشدين "، ويقصد بالخلفاء الراشدين هنا الحكام من بنـــي عبد المؤمن لا الخلفاء الراشدين الأولين، ولابن صاحب الصلاة كتاب آخـــر هـــو " تاريخ ثورة المريدين بالأندلس "، لكنه معدود ضمن الكتب المفقودة.

وكان ابن صاحب الصلاة أديباً وكاتباً محسناً، غلب عليه حفظ التاريخ وتقييـــده حسبما يذكر ذلك ابن الآبار، وفي الواقع لا نعرف شيء عن حيـــاة ابـــن صـــاحب

---

(1): البيذق، أخبار المهدي، ص58؛ ابن الآبار، التكملة، جـــ1، ص 218؛ التجيبي، زاد المسافر، ص59؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص524.

(2): الغبريني، عنوان الدراية، ص41-44 ؛ ابن الآبار، التكملة، جـــ3، ص120-121 ؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، جـــ2، ص59-61 ؛ الضبي، بغية الملتمس، جـــ2، ص508.

الصلاة إلا ما ورد عرضاً في كتابه المن بالإمامة، أو بالأحرى ما وصلنا من هــذا الكتاب وهو السفر الثاني منه الذي يعالج أحداث الفتــرة مــن 554هـ/1158م إلــى أواخر سنة 568هـ/1173م، فنجده يظهر على مســرح الأحــداث صــراحة ســنة 557هـ/1161م عندما تقدم لتهنئة الشيخ عبدالله ابن أبي حفص الــذي قــاد عمليــة استرداد قرمونة من يد ابن همشك، وبعد ذلك نجده يتنقل بــين العاصــمة مــراكش والأندلس، ويشارك طلبة الحضر في مجالسهم، ويرافق الخليفة في معظم تحركاتــه وغزواته، وخاصة غزوة وبذة التي أطنب في وصفها. أما عن تاريخ وفاته فلــيس بين أيدينا ما يؤكده، لكن الثابت أنه كان حياً سنة 594هـ/1198م، ويظهر ذلك مــن خلال تأريخه للانتهاء من بناء مئذنة جامع إشبيلية بتركيب التفافيح عليها في آخــر شهر ربيع الآخر سنة 594هـ/19 آذار 1198م[1]، ويرجح عنان وفاته سنة 605هـ/ 1209م[2].

ومن مؤرخي التراجم ظهر أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى ابن بشكوال، أصله من شريون بشرق بلنسية، لكنه ولد ونشأ بقرطبة، يقول عنه ابن الآبار: " كان متسع الرواية شديد العناية بها.. حافظاً إخبارياً ممتعاً تاريخياً مفيــداً، ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة "[3]، وقد عني بالتأليف حتى بلغت مؤلفاتــه حوالي الخمسين كتاباً في مختلف أصناف العلوم، ولعل أهمها " كتاب الصـــلة فـــي تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم "، وهو كتاب تراجم، قصد من تأليفه أن يكون صلة لكتاب ابن الفرضي (ت 403هـ/1013م) المســمى تــاريخ علماء الأندلس، ومن مؤلفاته الأخرى في علم التاريخ والتراجم كتــاب " المحاســن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل، " يقع في واحد عشــرين جــزءاً، وكتــاب "

(1): ابن الآبار، التكملة، جــ3، ص85 ؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، جــ2، ص154، ص207-208 ؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص185، 484.

(2): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص703.

(3): ابن الآبار، التكملة، جــ1، ص249.

الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة " في عشرين جزءاً، وتـوفي ابـن بشـكوال بقرطبة سنة 578هـ/1182م[1].

أما علم الجغرافيا فقد كان مصدر اهتمام الخلفاء الموحدين، ويظهر ذلك جلياً في مناظرة الخليفة أبي يعقوب لأبي عمران العنسي عندما قال له: ما عندك في شـأن قرطبة؟. ومن مؤلفي المصنفات الجغرافية الذين عاشوا لهذا العهد صاحب كتـاب " الاستبصار في عجائب الأبصار، "والذي يظهر من حديثه عن عومه ورفقـاؤه فـي البحيرة التي أنشأها عبد المؤمن في مدينة مراكش[2]، أنه كان أحد الطلبـة الحفـاظ الذين اختصهم عبد المؤمن بالتعليم والتدريب لتولي وظائف الدولة، ومما يفهم مـن حديث المؤلف أن تصنيفه للكتاب كان سنة 587هـ/1191م[3]، أي أنـه خـدم عبـد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، ويقدم لنا هذا المصنف معلومات جداً غزيرة وتفصيلات غاية في الدقة عن المدن المغربية من حيث المسافات والعادات والتقاليد والحياة الاقتصادية والعمران، بدءاً بطرابلس وانتهاءً بالسوس الأقصـى وصـحراء لمطة، مع ذكر لبلاد السودان وأشهر مدنها.

وعلى صعيد ذي صلة بالجغرافيا، شهد عهد الخليفة أبي يعقوب نشاطاً لحركـة السياحة والرحلات؛ لتوفر الأمن وولع المغاربة والأندلسيين في الإطلاع على أحوال الأمم، وكان للدين الإسلامي الفضل الأكبر في غرس عادة السياحة والرحلـة فـي نفوسهم بالذهاب إلى المشرق؛ لإداء فريضة الحج أو طلباً للعلم.

ولعل من أبرز الرحالة الذين عرفتهم بلاد المغرب، الرحالة الشهير المعـروف بابن جبير، وهو أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني البلنسي، أصله من بلنسية وسكن غرناطة، يقول عنه ابن الآبار " عني بالآداب فبلغ منها الغاية وتقدم فـي صـناعة الكتاب "[4]، لكن شهرته لم تقم لذلك وإنما لكتابه المعروف ب " رحلة ابن جبيـر "، الذي سجل فيه تفاصيل رحلته إلى المشرق والتي استغرقت قرابة ثـلاث سـنوات،

---

(1): ابن الآبار، المعجم، ص91-92؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص248-250.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص210.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص188.

(4): ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص110.

بدأها 19 شوال سنة 578ه/ 3 شباط 1182م، وختمها يوم 22 محـــرم 581ه/ 25 نيسان 1185م، وقد وصف في هذه الرحلة التي شملت مصر والحجاز والشام، كل ما شاهده من مشاهد وتعرض له من أهوال ومواقف. هذا وقد كـــان لابـــن جبيـــر رحلتين أخرى للمشرق، احداها سنة 585ه/1189م والأخرى سنة 601ه/1204م، غير أن الرحلة الأول التي كانت على عهد أبي يعقوب هي التي ســـجل تفاصـــيلها. وتوفي ابن جبير بمدينة الإسكندرية سنة 614ه/1217م وهو ابن خمـــس وســـبعين سنة[1].

5.2.3.3.5 **علم الفلاحة**[2]:

اهتم الموحدون بغرس الأشجار وإنشاء البساتين، وأجروا إليها المياه من علـــى مسافات بعيدة لسقيها، وإذا كانت كتب الجغرافيا والـــرحلات قـــد أمـــدتنا بـــبعض المعلومات عن المنتجات الفلاحية، فإن كتب الفلاحة والنبات أمدتنا بمعلومات عـــن الفلاحة العملية، وأنواع التربة وما يصلح فيها من الغرس والزرع.

ومن أشهر علماء الفلاحة على فترة الدراسة، أبو زكريا يحيى بن محمـــد بـــن أحمد الشهير بابن العوام الإشبيلي، الذي عاش في إشبيلية في منطقة الوادي الكبيـــر المزدهر بنباتاته المتنوعة. وقد أهتم ابن العوام بالفلاحة فاتقنها، وصنفها علماً كاملاً في كتابه الفلاحة الأندلسية، أو كتاب الفلاحة الذي يتضمن وصفاً دقيقاً لأنواع التربة والسماد وطرق التطعيم، وأعراض أمراض النبات وطرق علاجها، ووصفاً لطريقة زراعة (585) نبتة، منها (55) شجرة فاكهة، كذلك يتضمن على (367) صـــورة ملونة لنبات وحيوانات، كما يبحث في بعض النظريات فـــي الكيمـــاء، والطبيعـــة، وطرق الري ووسائله، وبالمجمل يعد هذا الكتاب أكمل البحوث في علم الفلاحة في

---

(1): ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص5-6 ؛ ابن الآبار، التكملة، جـــ2، ص109-110 ؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س5، ص595-621.

(2): علم الفلاحة: هو علم يتعرف منه على كيفية تدبير النبات من أول نشوءه إلى منتهى كماله. انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، مج2، ص1288.

العصور الوسطى، ولابن العوام مؤلفات أخرى في الفلاحة منها " رسالة في تربية الكرم"، وتوفي ابن العوام نحو سنة 580ه/1184م[1].

وهكذا وبعد هذا العرض المختصر لنواحي الحياة العلمية والأدبية في المغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب الموحدي، نلاحظ أن الحياة الثقافية والفكرية لهذا العهد قد بلغت أوجها وعلى مختلف الصعد، وذلك بفضل مناخ الحرية الذي أتاحه الخليفة للعلم والعلماء وتشجيعه لهم، وليس أدل على ذلك من ظهور أساطين العلماء بين ظهراني هذه الدولة، وخلال هذا العهد أمثال ابن طفيل وابن رشد وابن زهر وابن جبير وابن العوام.

4.5 الحياة العمرانية والفنية:

لم تقف عظمة الدولة الموحدية وشأن تأثيرها على حضارة المغرب والأندلس على النواحي العسكرية والعلمية فحسب، بل امتد تأثيرها إلى ميدان البناء والتعمير والفن، فعظم على عهدها العمران ونشطت الصنائع وكثرت المنشآت المدنية والعسكرية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن عصر الموحدين وخاصة عصر الخلفاء الثلاثة الأوائل عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، كان أزهى عصور المغرب في البناء والتعمير، وليس أدل على ذلك مما شيد على عهدهم من قصور شاهقة، ومساجد جليلة رائعة، وقناطر وجسور واصلة، وحصون وأسوار مانعة. وفيما يلي سنعرض لأبرز ملامح العمارة والفن على عهد الخليفة أبي يعقوب.

1.4.5 العمارة:

عرف الخليفة أبو يعقوب بشغفه الشديد بالعمارة وحبه لها، وعلى عهده ارتبطت المغرب والأندلس لأول مرة في وحدة فنية، تجلت عراها في اشتراك العرفاء

---

(1): السرجاني، راغب: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، جزءان، ط1، مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة 2011م، جـ2، ص575-576. سيشار إليه فيما بعد: السرجاني، قصة الأندلس ؛ حميدان، أعلام الحضارة العربية، مج5، ص537-538 ؛ ديورانت، قصة الحضارة، جـ2، مج4، ص359.

والبنائين من أهل الأندلس مع نظرائهم من مراكش وفاس، وأهل العدوة فـي بنـاء جامع إشبيلية سنة 567ه/1172[1].

هذا وإن كانت عناية الخليفة أبي يعقوب بإشبيلية والمغرب الأقصى أكثـر مـن عنايته ببقية أجزاء مملكته بما شيد فيهما من منشآت، إلا أن آثاره المعمارية جاءت شاملة لكل أنواع العمارة من بناء مدن ومساجد وقصور وحصون وأسوار وقناطر.

1.1.4.5 المدن:

1.1.1.4.5 المدن المغربية:

مدينة تازا[2]:

في عام 527ه/1133م افتتح الخليفة عبد المؤمن بلاد تازا التي تصل بين فاس والمغرب الأوسط، واتخذ منها قاعدة عسكرية للحملات التي كـان يوجههـا إلـى المغرب الأوسط الذي كان تحت حكم المرابطين آنذاك، وفي سـنة 529ه/1135م أمر عبد المؤمن ببناء رباط تازا، فبنيت وحصن سورها وأمدها بجيش كامل العـدد والعدة، وظلت تازا محتفظة بأهميتها الحربية؛ لوقوعها على الطريـق المـار بـين المشرق والمغرب[3]، حتى كانت سنة 568ه/1172م، إذ في هذه السـنة صـدرت أوامر الخليفة أبي يعقوب ببناء مدينة رباط تازا، فشيدت على الطريق المار بين بلاد المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وأحيطت بسور من الجير والحصى، وأطلـق عليها اسم مكناسة تازا[4].

وهكذا تحولت تازا في عهد أبي يعقوب من مجرد قاعدة عسكرية إلـى مدينـة عامرة بالسكان، غنية بدورها ومساجدها وبساتينها.

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص474.

(2): تازا: مدينة في المغرب الأقصى، تقع إلى شرق من مدينة فاس، في منطقة جبلية حصينة، ويسكنها قبائل من البربر يعرفون بغياتة. انظر: مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص186.

(3): سالم، تاريخ المغرب، ص752.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص186.

مدينة رباط الفتح:

تقع مدينة رباط الفتح جنوب مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلسي[1]، وكـــان الخليفة عبد المؤمن أول من اتخذها معسكراً لتعبئة جيوشه للجهاد بالأنــدلس عنــد الحاجة، وذلك سنة 545هـ/1150م[2]، فشيد بها قصراً ومسجداً وبناءً واسعاً، وأجرى إليها الماء من عين غبولة، التي تبعد عن الرباط نحــو 20 مــيلاً، وســميت هــذه المجموعة من المباني بالمهدية نسبة إلى المهدي بن تومرت[3].

أما المراكشي فله رأي آخر في بنيان مدينة رباط الفتح، إذ يرجع الفضــل فــي تأسيسها إلى الخليفة أبي يعقوب فيقول: " بنى المصامدة على ساحل هذا البحر ممــا يلي مراكش مدينة عظيمة، سموها رباط الفتح كان الذي اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واتممها ابنه يعقوب "[4].

ولعل ما يستقى من رواية المراكشي هذه أن مدينة رباط الفتح ظلت حتى وفــاة عبد المؤمن قاعدة حربية تضم قصراً للخليفة ودوراً لحاشيته وثكنات للعسكر، ولــم تفتح أبوابها لسكنى عامة الناس إلا على عهد أبي يعقوب، وهذا ما يؤكده المراكشي أيضاً بقوله: " هو – أي أبي يعقوب – اختطها ورسم حدودها وابتدأ في بنيانها "[5]، ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة شاهداً آخر على عدم استقرار الناس بالمدينة حتى سنة 566هـ/1170م بقوله إن أبا يعقوب قد زار مدينة الرباط بهذه السنة فوجد أن ســاقية الماء التي أجراها والده قد سدت وأسن ماؤها، واهملت بساتينها وبطاحها[6].

وهنا التفت أبو يعقوب إلى بناء مدينة الرباط عندما نزل بموضعها وهــو فــي طريقه إلى غزوة الأندلس سنة 566هـ/1170م، فأمر في الحال بتجديد الساقية التـــي

---

(1): ياقوت الحموي، معجم البلدان، جــ3، ص231.

(2): نجار، المغرب والأندلس، ص541.

(3): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 264 ؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، جــ1، ص341.

(4): المراكشي، المعجب، ص257.

(5): المراكشي، المعجب، ص195.

(6): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص450.

كانت على عهد والده حتى عادت إلى حالها، وأنشأ عند مصبها في طرف المدينة صهريجاً عظيماً لتجميع المياه، تتوزع منه القنوات لمواضع شرب الناس وسقي المواشي والبساتين، ثم شرع في إقامة جسر يربط المدينة المحدثة بمدينة سلا لإجازة الناس والعساكر عليه(1).

وهكذا عادت الحياة إلى مدينة رباط الفتح من جديد، وأذن للناس في بناء الدور والقصور بها وبدأت وفودهم تتزاحم لسكانها، وأهتم أبو يعقوب بتوسيع المدينة لتتناسب وزيادة السكان، ثم بدأ ببناء أسوارها من جهة الشرق والغرب غير أن المنية عاجلته، فأتم ابنه المنصور عمرانها سنة 594هـ/1198م(2).

وهكذا نلاحظ أن بناء مدينة رباط الفتح قد جاء على ثلاثة مراحل، بدأت في عهد عبد المؤمن واستمرت حتى أواخر عهد المنصور، وهي فترة دامت زهاء نصف قرن، وأن الخليفة أبا يعقوب أول من التفت إلى تحويل المدينة من قاعدة حربية إلى مدينة عامرة بالسكان.

مدينة سلا:

اعتنى الخليفة أبو يعقوب بعمران هذه المدينة؛ لأهميتها الاقتصادية كونها مركزاً تجارياً ومقصداً سياحياً فضلاً عن أهميتها العسكرية، فأمر في عام 574هـ/1178م، ببناء مدينة كبيرة تتصل بقصبة المدينة الكبيرة التي هي من إنشاء والده عبد المؤمن، فتم إنشاء مدينة جديدة زودت بقيسارية عظيمة وحمامات وفنادق ودور كثيرة وصهاريج وقنوات للسقي، وكل ما يحتاجه المسافرون لموقعها أيضاً على الطريق الواصل بين الأندلس والعاصمة مراكش في الذهاب والإياب(3).

توسعة مدينة مراكش:

شهدت مدينة مراكش ازدهاراً عظيماً وتقدماً كبيراً على عهد أبي يعقوب، حتى أصبح السكن بها حلماً يراود كل مغربي، ولم يأت عام 579هـ/1183م حتى أضحت المدينة عاجزة عن استيعاب سكانها وحركة عمرانها الضخمة، وكان الخليفة قد أمر

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص449-450.

(2): المراكشي، المعجب، ص195.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص140-141.

قبائل هسكورة وصنهاجة في العام المذكور بأن يتركوا بلادهم وأن يرحلوا إلى العاصمة بأهلهم لسكناها، ليكونوا تحت نظره خشيةً من تمردهم، فلما وصلوا لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم، فشكوا للخليفة حالهم، الأمر الذي أوجب توسعة المدينة، وفي ذلك يقول ابن عذاري " ولما دانت لأمير المؤمنين المغرب والأندلس وإفريقية.. انجلى الناس إلى مراكش من كل مكان، وتفاخروا في سكناها بحسب القدرة والإمكان.. فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعاً للبناء ولا محلاً للسكنى، وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكناها بأهلهم وبنيهم، فامتثلوا ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلوا، فشكوا ضيقهم وحيرتهم "[1].

دفعت هذه الظروف الخليفة أبو يعقوب إلى التفكير في توسعة المدينة، فعهد لابنه المنصور بدراسة المشروع، فسار المنصور ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع لتنفيذ التوسعة، فاتفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبلية، بإنشاء مدينة جديدة تكون امتداداً للعاصمة، فوافق الخليفة على رأيهم وصدرت الأوامر للعبيد والفعلة بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة، وابتدأ بوضع الأساسات للمواقع الجديدة، ولم تمض سوى أربعين يوماً حتى كمل بناء السور الجديد، واستمرت عملية بناء الدور والرباع في هذه الإضافة الجديدة من العاصمة حتى وفاة الخليفة[2]. ويشهد صاحب كتاب الاستبصار لدور الخليفة أبي يعقوب في تعمير مدينة مراكش وتوسعتها بقوله: " ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالاً بما زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف "[3].

---

(1): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص153.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص154.

(3): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص209.

2.1.1.4.5 **المدن الأندلسية**:

إعادة بناء مدينة باجة:

تعرضت مدينة باجة في عام 568ه/1172م للاحتلال من قبل القوات البرتغالية بقيادة ألفونسو هنريكيز، وبعد أن مكثوا فيها مدة خمسة أشهر ارتأوا إلى الانسحاب منها؛ لما وجدوه من صعوبة في الدفاع عنها بسبب ضخامتها، لكنهم قبل انسحابهم منها قاموا بهدم أسوارها وإحراق دورها ورباعها[1].

نتيجة لذلك عانى أهالي مدينة باجة من التشرد والضياع، فسار وفد من أهالي المدينة سنة 570ه/1174م إلى الخليفة أبي يعقوب، الذي كان آنذاك بإشبيلية، يشكون له حالهم، فاستقبلهم الخليفة ووعدهم بتعمير مدينتهم وإعادتهم إليها، وعين لهم في نفس المجلس والياً، ومن ثم أرسل في حشد البنائين والفعلة للسير إلى باجة لتعميرها، فسار والي شلب عمر بن تيمصلت في نحو خمسمائة رجل، وأخذوا في بناء أسوارها فبنيت في نحو شهر، وعاد أهل باجة إلى مدينتهم وكانوا يومئذ نحو مائتي شخص، والتحق بهم حشود أخرى للعمل والبناء، واستمر التعمير بهمة عالية حتى كمل بناء الدور والحوانيت والرباع في أشهر قليلة[2]. وبذلك استعادت باجة سابق عمرانها ورونقها، وعادت لها الحياة من جديد بهمة أهلها وكرم الخليفة.

وإلى جانب إعادة بناء مدينة باجة، يعود الفضل للخليفة أبي يعقوب في بناء قصبة مدينة بطليوس الشاهقة المانعة، والتي لا تزال آثارها ماثلة إلى اليوم[3].

2.1.4.5 **القصور**:

كان أول ما عني به الخليفة أبو يعقوب في أول زيارة له إلى الأندلس بعد توليه الخلافة، هو اضطلاعه بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية حاضرة الأندلس، التي اختصها بحبه وإعجابه عن سائر مدن دولته؛ لسابق الأيام الجميلة التي قضاها بها أثناء ولايته لها على عهد أبيه، فاهتم بتعميرها وتجميلها وزودها بالعديد من

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص91.

(2): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص132-134.

(3): سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ص235 ؛ مؤنس، رحلة الأندلس، ص323.

المنشآت، منها القصور المعروفة ب " البحيرة "، فبالرغم مما كانت تزدان به مدينة إشبيلية من قصور عديدة كقصور بني عباد، التي كانت ما تزال تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها[1]، لكن أبا يعقوب أراد أن يخلد ذكراه ويختص دولته بعظيم الآثر في هذا الشأن، فرأى أن يجعل من قصور إشبيلية القديمة منزلاً للأمراء وخاصته، وأن يقيم له قصور خاصة به وبدولته.

ومن هنا جاء أمر أبي يعقوب ببناء قصور البحيرة في شهر صفر سنة 567ه/1171م، واختار لها مكاناً خارج باب جهور[2] في الأرض المنسوبة لأحد أهالي إشبيلية وهو ابن مسلمة القرطبي، وذلك بعد أن عوض أبنائه بجنان مماثلة في مكان آخر، وأقيمت في هذا الموضع مجموعة من القصور الفخمة للخليفة وحاشيته، وكان الذي أشرف على بنائها عريف البنائين بالأندلس أحمد بن باسة، فاخرجها في نهاية الحسن والبهاء، ثم أقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الجيار والرمل والحصى.

وبعد أن انتهت أعمال البناء بالقصور، أمر الخليفة قاضي إشبيلية أحمد بن محمد الحوفي، وإمام جامع إشبيلية أبو بكر محمد بن يحى، لأمانتهما وخبرتهما بالمساحة وشؤون الفلاحة، أن يقوما بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور، فاختطا له جنات بديعة غرست بآلاف الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه والاجاص والتفاح، وسائر الأنواع النادرة والغريبة من الأشجار والغراس، التي جلبت لها من جبل الشرف ووادي آش وغرناطة وغيرها[3].

ولكن وللأسف اندثرت جميع معالم هذه القصور، شأنها في ذلك شأن جميع القصور الموحدية، ولم يبق من آثارها سوى الموضع الذي كانت تشغله[4].

---

(1): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص70.

(2): باب جهور: هو أحد أبواب مدينة إشبيلية، يقع في الطرف الجنوبي الغربي منها، ويطلق عليه اليوم اسم (بويرتا ريال) أي الباب الملكي. انظر: مؤنس، رحلة الأندلس، ص128.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص463-468.

(4): حركات، المغرب عبر التاريخ، جـ1، ص348 ؛ سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص203.

ومن القصور الموحدية الأخرى التي تعود لهذا العهد، قصر السيد أبي يحيى ابن الخليفة أبو يعقوب في مدينة قرطبة، والذي شيده خارج أسوار قرطبة على متن نهر الوادي الكبير تحمله أقواس، وذلك أثنـــاء ولايتـــه عليهـــا فـــي عهـــد أبيـــه ســـنة 579ه/1183م، وقد تأنق في بنائه وبالغ في إتقانه، وانفق فيه مالاً كثيـــراً، ويـــذكر المقري أنه عندما سئل السيد أبي يحيى: كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع ابتعادك عن أهل قرطبة ؟ فقال: علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله، لما بقي في رؤوسهم من الخلافة الأموية، فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر اذكر به على رغمهم، وقـــد وصف أحد الشعراء هذا القصر بقوله:

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به   على الماء من تحت الحجارة أقواس
هو المصنع الأعلى الذي أنف الثرى   ورفعه عن لثمه المجد والباس[1]

3.1.4.5 المساجد:

بناء جامع إشبيلية الكبير:

يعد جامع إشبيلية من أعظم المنشآت العمرانية للخليفة أبي يعقوب، وقد شرع في بنائه في شهر رمضان سنة 567ه/1172م، بعد أن جمع لإنشائه العرفاء والبناؤون من أهل إشبيلية ومن سائر قواعد الأندلس، ومن أهل العـــدوة، ولا ســـيما مـــراكش وفاس، وعهد بالإشراف على أعمال البناء للعريف أحمد بن باسة[2].

أما عن أسباب بناءه فيذكر ابن صاحب الصلاة أن جامع إشبيلية المعروف ب " جامع ابن عدبس " قد ضاق بأهل المدينة، فكانوا يصلون في رحابه وأفنيته، وفـــي جوانب الأسواق المتصلة به، فيبعد عنهم التكبير بالفريضة، وربمـــا فســـدت لـــذلك

(1): المقري، نفح الطيب، مج1، ص470.

(2): اسماعيل، كمال عناني: الآثار الإسلامية في الأندلس، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2014م، ص208. سيشار إليه فيما بعد: اسماعيل، الآثار الإسلامية في الأندلس.

صلاتهم، ثم إن المسجد الذي كان الموحدين قد أنشأوه عند افتتاحهم لإشبيلية، أضحى هو الآخر يضيق بهم، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم[1].

وبني هذا الجامع بالأجر والحصى والأحجار، وجعلت أسس الدعائم المعقود عليها أعمدة المسجد على عمق كبير في باطن الأرض، وجمع للعمل به من الفعلة والخدم، ومن آلات الخشب المجلوب من سواحل العدوة بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبل الخليفة أبي يعقوب، وظل العمل بالبناء مستمراً حتى كمل بالتسقيف مدة أربعة أعوام متتالية بدون توقف، يقول ابن صاحب الصلاة " لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السنين مدة إقامة الخليفة بإشبيلية إلى أن كمل بالتسقيف، وجاء في أبهى المنظر الشريف.. قارب به جامع قرطبة في السعة، وليس في الأندلس جامع على قدره وسعته"[2].

وأبدع العرفاء ببناء قبة المحراب من الجبس وأجود أنواع الخشب، وتفننوا في بناء قبو إلى اليمين من المحراب لحفظ المنبر الجميل الصنع والنقش، وأعدوا قبواً آخر إلى اليسار من المحراب يوصل للساباط الواصل بين الجامع والقصر، والمعد لدخول وخروج الخليفة. كما صنعت للمسجد مقصورة من أحسن الخشب وزينة بالفضة، وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه في أكثر الأيام[3].

أما عن تخطيط المسجد فقد تبع طراز الجامع ذي الصحن المركزي، الذي تحيط به أربع ظلات، وكان يشغل مساحة مستطيلة، بحيث بلغ عرضه 150م، وطوله 100م، وهو يشتمل على (17) رواقاً عمودياً تتجه من الشمال إلى الجنوب[4].

ومع أن أعمال البناء في المسجد انتهت عام 571ه/1175م، إلا أنه لم يفتح بصفة رسمية للصلاة، وتقام به الخطبة إلا بعد نحو ستة أعوام، حيث اقيمت أول

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص475.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص476.

(3): اسماعيل، الآثار الإسلامية في الأندلس، ص210-211 ؛ سالم، تاريخ المغرب، ص770.

(4): بالباس، ليوبولدو توريس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة: سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية 1976م، ص80. سيشار إليه فيما بعد: بالباس، الفن المرابطي والموحدي ؛ اسماعيل، الآثار الإسلامية في الأندلس، ص213.

خطبة فيه يوم الجمعة 24ذي الحجة سنة 577ه/ 30 نيسان 1182م، وكان أول خطيب خطب فيه السيد أبو إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبي يعقوب[1]، ومنذ ذلك التاريخ توقفت الخطبة في مسجد ابن عدبس الذي تحول إلى مسجداً موضعياً غير جامع[2].

وفيما يتعلق بصومعة (مئذنة) الجامع فقد شرع في بنائها سنة 580ه/1184م، وذلك أنه عندما جاز الخليفة أبو يعقوب إلى الأندلس في تلك السنة برسم غزوة شنترين، ونزل في مدينة إشبيلية أمر أبي داود يلول بن جلداسن متولي أعمال المخزن بإشبيلية، أن يقوم بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية، وبناء مئذنة للجامع في موقع اتصال السور بالجامع، فقام أبو داود فور مغادرة الخليفة إشبيلية للغزو بحفر أساس السور، ولكن لم يلبث أن توفي عقب شهر ونصف، ثم أعقبه وفاة الخليفة في الغزوة المذكورة، وهنا يتوقف أثر الخليفة أبي يعقوب في بناء جامع إشبيلية، ليواصل ابنه المنصور فيما بعد بناء المئذنة، التي اكتمل بناؤها سنة 591ه/1194م[3]، ويخالف ابن عذاري رواية ابن صاحب الصلاة في شأن بناء المئذنة، إذ يذكر أن أبا يعقوب بنى المئذنة إلى نصفها، فيقول: " وابتنى فيها – أي أبي يعقوب – الجامع الكبير لاتساع الناس فيه فكمل في مدة قليلة من الأعوام على عظمة وسعة جرمه وابتنى الصومعة إلى نصفها "[4].

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص479.

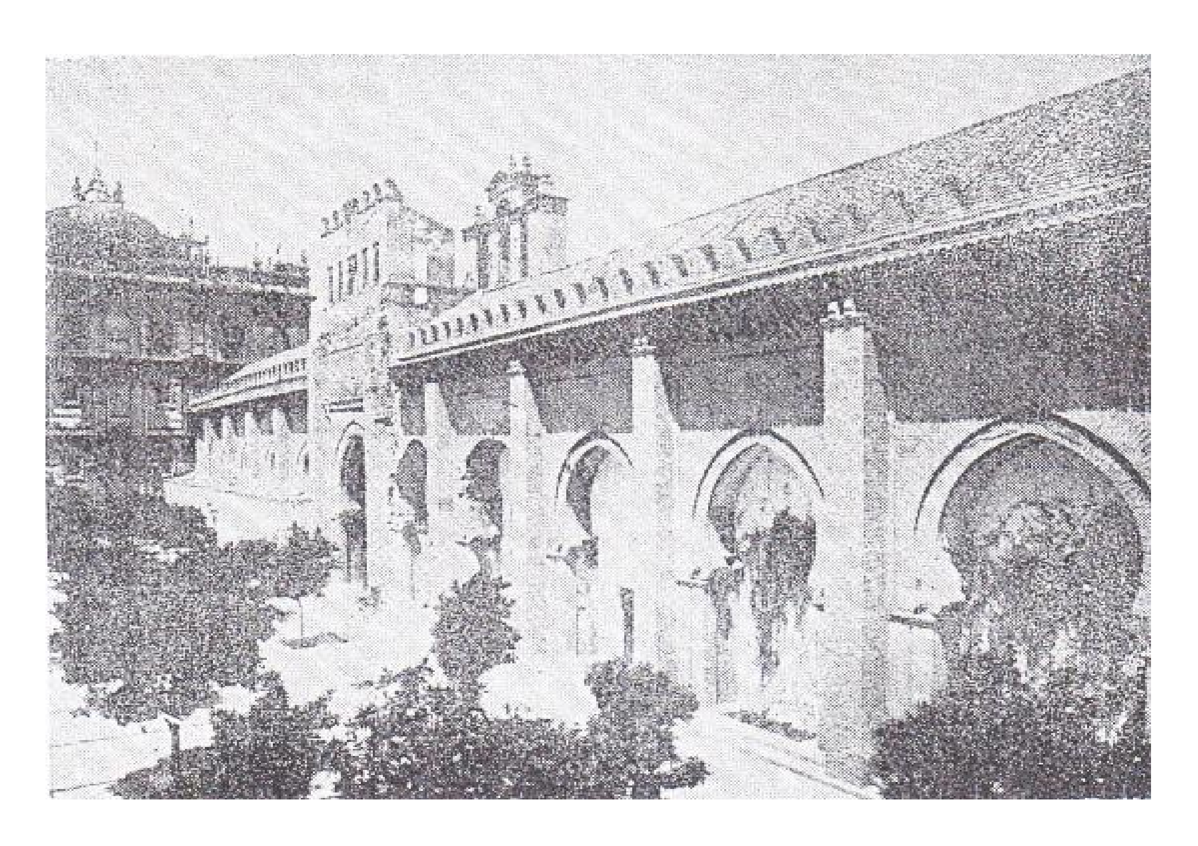
(2): بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة، ص104.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص481-482 ؛

Imamuddin, A Political History of Muslim Spain, p274.

(4): ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص165.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه بسقوط مدينة إشبيلية بيد الأسبان سنة 646هـ /1248م، تحول الجامع إلى كنيسة سانتا ماريا، كما تحولت المئذنة إلى برج للنواقيس ملحق بالكنيسة، واليوم لم يبق من المسجد إلا المئذنة وصحنه الذي يعرف باسم (Patio de Los Narnjos)، ومعناها صحن أشجار البرتقال (أنظر الشكل رقم (4))، هذا مع باب يطلق عليه اسم باب الغفران[1].



الشكل رقم (4): صحن المسجد الجامع في إشبيلية بعد ترميمه[2]

(1): دائرة المعارف الإسلامية، جـ3، ص789-790 ؛

Rrad, Jan: The Moors in Spain and Portugal, First Published, London .1974, pp164-165

(2): بالباس، الفن المرابطي والموحدي، ص80، لوحة رقم (16).

4.1.4.5 **الحصون والأسوار والأبراج**:

اهتم الخليفة أبو يعقوب بإنشاء الحصون والأسوار والأبراج؛ لأغراض كثيـــرة منها أحكام سيطرة الدولة على مناطق نفوذها، وتحصين المدن ضد هجمات الأعداء. ومن الحصون التي انشأت في هذا العهد، الحصن الذي أنشـــأه الخليفـــة بالســـوس الأقصى سنة 578ه/1182م؛ للإشراف على استخراج معدن الفضة الذي اكتشـــف بالمنطقة وحمايته من استيلاء القبائل عليه[1].

وفيما يتعلق بالأسوار نجد أن الخليفة أبا يعقوب يقوم في عـــام 566ه/1170م، ببناء سور ضخم على مدينة رباط الفتح من جهة الشرق والغرب مستخدماً في بنائه الجير والحصى[2]، كما شيد السيد أبو عمران موسى بن عبد المؤمن أثنـــاء ولايتـــه على تلمسان (566-571ه/1170-1174م)، سياجاً من الأسوار على المدينة ووسع خطتها وشيد بناءها[3].

وفي الأندلس يذكر ابن عذاري أن أبا يعقوب أمر ببناء سور إشبيلية من جهـــة الوادي الكبير على نفقته الخاصة، بعد أن هدمه السيل ســـنة 564ه/1168م فبنـــي بالحجارة والجص والجيار[4]. وفي عام 570ه/1174م أمر الخليفة بإعادة إعمـــار أسوار مدينة باجة التي تهدمت بفعل هجمات البرتغاليين، فجد الفعلة والبنـــائين فـــي بنائها حتى كملت في نحو شهر[5].

كذلك حرص الخليفة أبو يعقوب على تحصين مدينة قاصرش؛ لوقوعهـــا فـــي منطقة تتنافس عليها الممالك الاسبانية قشتالة وليون والبرتغال، فجدد بناء أســـوارها على أسس الأسوار الرومانية القديمة المبنية من كتل الجرانيت الضخمة، مســـتخدماً

(1): ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 212.

(2): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص186.

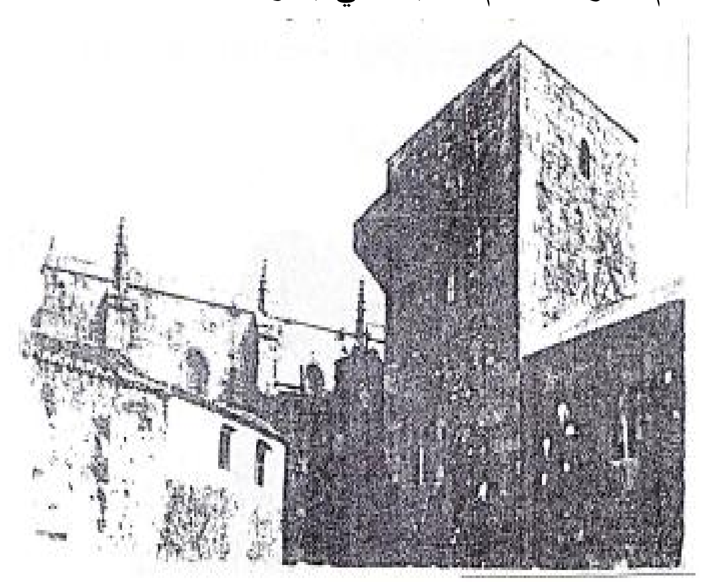
(3): الجيلالي، تاريخ الجزائر، جـــ2، ص27.

(4):ابن عذاري، البيان المغرب،قسم الموحدين،ص165؛بروفنسال،سلسلة محاضرات عامة،ص103.

(5): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص91.

في بنائها الطابية (التراب المدكوك) والبلاط[1]. ولاننسى هنا سور إشبيلية الذي شرع في بنائه أبو داود بن جلداسن عامل المخزن في إشبيلية، بأمر الخليفة سنة 580هـ/1184م، والذي لم يكتمل لوفاة أبي داود ثم وفاة الخليفة[2].

وأما فيما يتعلق بالأبراج فمن أهم ما انشئ منها في عهد أبي يعقوب برج ميرتلة، الذي جاء بناؤه؛ لتحصين المدينة من غارات البرتغاليين التي زاد خطرها في عهد ألفونسو هنريكيز، وقد وصف بأنه شاهق العلو[3]. غير أن أهم الأبراج التي تعود لهذا العهد كان برج قاصرش، الذي بلغ طوله 10.83م، وعرضه 10.20م، وارتفاعه 25م، ولاتزال آثاره ماثله حتى اليوم، ويطلق عليه برج بوخاكو (Bujaco) وهو اسم محرف لاسم الخليفة أبي يعقوب[4].



الشكل رقم (5): برج بوخاكو (أبو يعقوب) في مدينة قاصرش[5]

---

(1): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص98.

(2): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص481.

(3): أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص254.

(4): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص99.

(5): سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، شكل رقم (41).

5.1.4.5 **القناطر والجسور**:

تعتبر القناطر والجسور من منشآت المنافع العامة، التي انشئت على الأنهار أو الأودية لمرور وانتقال العامة والخاصة من السكان، أو لانتقال العساكر عند الحاجة. وتتميز القناطر عن الجسور بالمفهوم الموحدي، أنها متحركة وغير ثابتة إذ كانت تبنى من المراكب والخشب لاستخدامها في وقت السلم، في حين كانت ترفع في حالة الحرب(1). ولعل من أبرز القناطر التي بنيت على عهد أبي يعقوب قنطرة إشبيلية، التي أمر ببنائها سنة 566ه/1170م لتصل ما بين إشبيلية الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير وربضها المعروف ب " طريانة " الواقع على الضفة الأخرى من النهر، وذلك حرصاً من الخليفة على تيسير سبل المواصلات بين المدينة وربضها لإنجاز مصالح الناس وحاجاتهم اليومية(2)، فضلاً عن اهميتها لإجازة الجند عند الحرب، ولإنجاز هذا العمل حشد الخليفة العرفاء والصناع والمهندسين، وابتدأ العمل بها في أول محرم 567ه/1171م وتمت في اليوم السابع من صفر من العام نفسه، وعقدت القنطرة على النهر بواسطة سفن مربوطة معاً بالسلاسل، وأقام الخليفة حفلاً يوم افتتاحها روى تفاصيله ابن صاحب الصلاة إذ يقول: " وحضر أمير المؤمنين يوم كمالها ووضعها على الوادي وكان يوماً حفيلاً من قرع الطبول، وكمال ما أمر فيها من المأمول، من حضور الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود.. وحصل للناس بتسهيل العبور عليها غبطة واتصال، وأمنة وآمال "(3).

أما الجسور فقد كانت ترفع على أقواس من الحجارة، وتميزت بأنها ثابتة ودائمة، وفي عهد أبي يعقوب تم بناء جسراً متيناً بين مدينة سلا والرباط سنة 566ه/1170م، استخدم في بنائه الحجر العادي والجيار الثابت المقاوم لأمواج البحار، ثم مدت عليه أوصال الخشب وثبتت عليها الألواح وغطيت بالفرش الوثيق

(1): اسماعيل، الآثار الإسلامية في الأندلس، ص437.

(2): Imamuddin, A Political History of Muslim Spain, p273.

(3): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص462-463.

الذي لا يؤثر فيه حوافر الخيل[1]. وبذلك يسر الاتصال بين مدينة رباط الفتح وسلا سواء للمسافرين أو العساكر.

وإضافة إلى ما قام به أبي يعقوب من بناء قناطر وجسور جديدة، اهتم بترميم ما كان موجود منها على عهد والده، مثل قنطرة تانسيفت[2] التي رممها وأعاد بناءهـا سنة 566ه /1170م[3].

6.1.4.5 تزويد المدن بالمياة:

قام الخليفة أبو يعقوب بجهود كبيرة في سبيل توفير المياة إلى المدن، فقد جلب المياة إلى العاصمة مراكش من أودية درن، وابتنى صهاريج كبيرة خارج المدينة لتجميع المياه، وصفت بأنها أعظم من تلك التي بناها والده، ومنها كانت تتوزع المياة على المدينة[4]، كما قام أبو يعقوب بنقل المياة إلى مدينة رباط الفتح من عين غبولة التي تبعد عن المدينة 20 ميلاً[5].

---

(1):ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص461-462؛مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص141.

(2): يعود تاريخ بناء هذه القنطرة إلى عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، الذي استعان في بنائها بخبراء الأندلس فشيدوها واتقنوا بنائها، وعلى زمن الموحدين أعيد بناؤها أكثر من مرة لتعرضها للسيول الجارفة، وتعد هذه القنطرة من ضمن المنشآت الإسلامية التي ضاعت معالمها. انظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص69.

(3): السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص278.

(4): مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص210.

(5): الغنيمي،موسوعة تاريخ المغرب،مج2،جـ3،ص263؛ علام، الدولة الموحدية بالمغرب،ص381.



الشكل رقم (6): قناة نقل المياة من عين غبولة إلى مدينة رباط الفتح[1]

وفي عام 580هـ/1184م وهو في طريقه إلى غزوة شنترين، أمر الخليفة أبو يعقوب بجلب الماء إلى مدينة سبتة من قرية بليونش، التي تبعد عنها 6 أميال، في قناة تحت الأرض[2].

وفي الأندلس قام والي بطليوس الحافظ أبو يحيى ابن الشيخ أبي حفص عمر بحفر بئر ماء كبيرة داخل المدينة سنة 564هـ/1168م؛ تنفيذاً لأمر الخليفة، وذلك تحسباً لما قد يقع عليها من حصار أو غيره، وعرفت هذه البئر باسم " القيوراجة "[3].

وإلى الخليفة أبي يعقوب يعود الفضل في حل مشكلة توفير المياه العذبة إلى مدينة إشبيلية، وذلك أنه بعد أن انتهى من إنشاء قصور البحيرة، نظر في استجلاب الماء لتوفير السقاية للناس والبساتين وأوكل بهذه المهمة للمهندس يعيش المالقي، وكان يوجد خارج باب قرمونة اطلال لجسر روماني قديم، لم يبق منه سوى سلسلة رفيعة من الحجارة، فقام المهندس يعيش بالحفر حول هذا الأثر، فإذا به قنطرة رومانية معدة لحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية، فتتبعه يعيش بالحفر حتى انتهى إلى أصل القنطرة قرب قلعة جابر، فاصلحها وأعاد إجراء الماء من خلالها

(1): القبلي، تاريخ المغرب، ص278.

(2): الحميري، الروض المعطار، ص103.

(3): عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق2، ص41.

إلى مدينة إشبيلية، وقام المهندس يعيش بإنشاء محبس داخل المدينة حيث وزع منه الماء على القصور والحدائق والمنازل، وكان تاريخ وصول الماء للمدينة على هذا النحو يوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة 567ه/1172م، وحضر الخليفة حفل إجراء الماء إلى المحبس داخل المدينة في جماعة كبيرة من العسكر والفقهاء والطلبة، وضربت الطبول ابتهاجاً بذلك[1].

2.4.5 **الفن والزخرفة**:

اندثرت معظم المنشآت المعمارية التي تعود إلى عهد الخليفة أبي يعقوب، ولم يتبق لدينا منها إلا النز اليسير والتي تتمثل في باب الغفران، أحد أبواب مسجد إشبيلية الأعظم الذي كان يؤدي إلى بيت الصلاة، وقد اتسمت زخارف هذا الباب بالصفاء فلم يشبها الافراط في التنميق، وغلب عليها الأشكال الهندسية والزخارف النباتية، كما تم اللجوء إلى سعفة النخيل الملساء والخط الكوفي في الكتابة الزخرفية، وهذا ما أوجد زخرفة في غاية الإتقان والإبداع تعد بحق شاهد على تطور الزخرف النباتي والمعماري على عهد أبي يعقوب.

فقد تزينت الصفائح النحاسية التي تغطي مصراعي الباب بخطوط متقاطعة تؤلف أشكالاً هندسية مسدسة متطاولة تتوالى بين عمودية وأفقية، وتحددها قضبان توحي عند تقاطعها بأن بغضها يمتد تحت الآخر أو فوقه، حاصرة بينها نجوماً ذات أربعة أطراف تتوسطها مثمنات، وتتزين المسدسات من الداخل بتوريقات نباتية رائعة، وبعبارات كوفية مثل " الملك لله " و" البقاء لله "[2]، (أنظر الشكل رقم (7)).

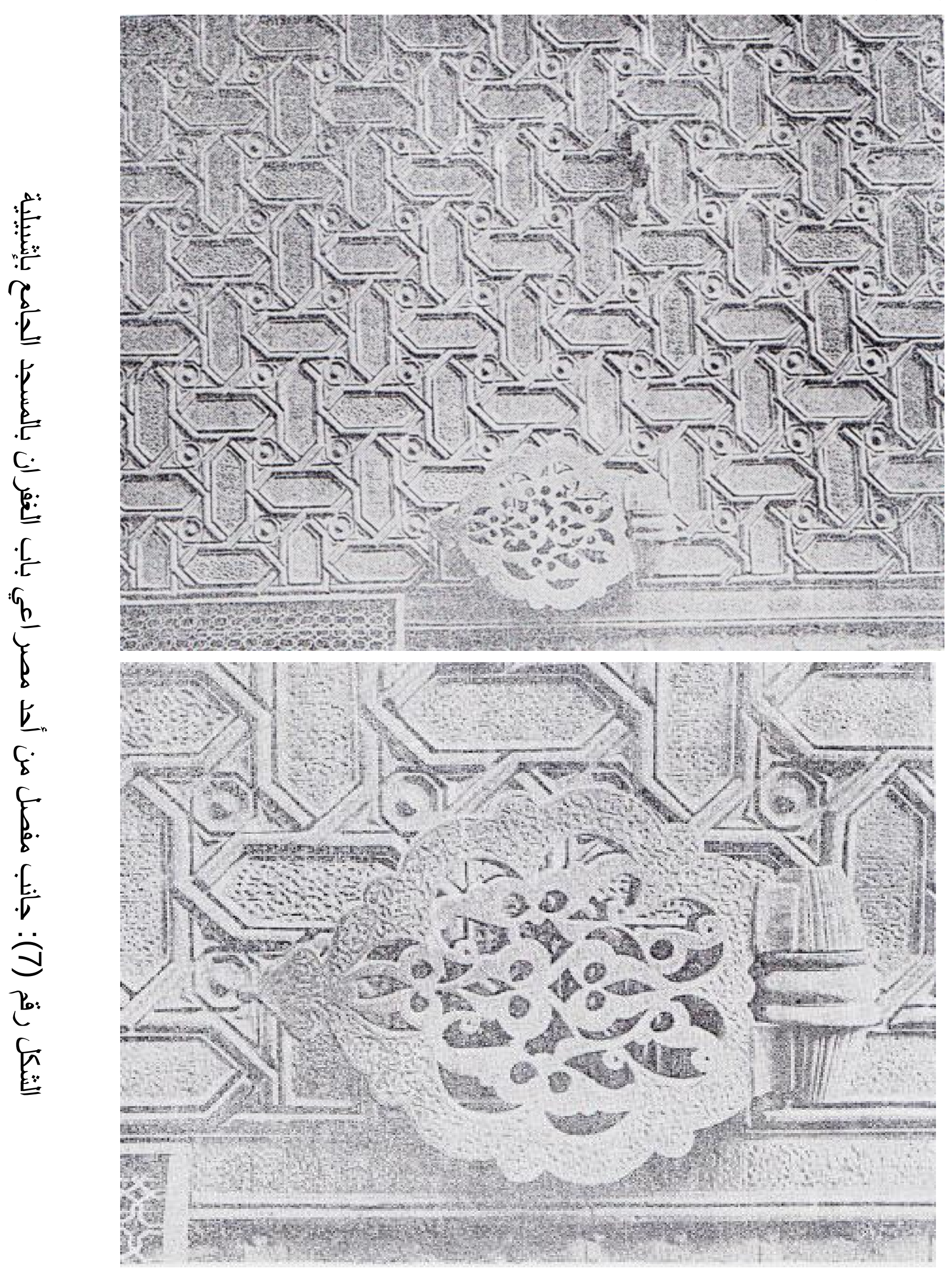
---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص468-469 ؛ سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام، ص223-224 ؛ بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة، ص103 ؛

Imamuddin, A Political History of Muslim Spain, p275.

(2): بالباس، الفن المرابطي والموحدي، ص94 ؛ أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص408.

أما العقد الداخلي للباب فقد تزين بأشرطة بارزة ترتسم في مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها، ويتألف الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد مـن سـعفات ملساء تخلو من السيقان، تطوقها خطوط محززة تتلاحم في تناسـق وإيقـاع، وقـد حفرت التوريقات على طبقتين مما أضفى عليها نوعاً من التباين الشديد بين الظلمة والضوء[1].



الشكل رقم (7): جانب مفصل من أحد مصراعي باب الغفران بالمسجد الجامع بإشبيلية
نقلاً عن: بالباس، الفن المرابطي والموحدي، لوحة 42، 43.

---

(1): سالم، تاريخ المغرب، ص771.

ويقدم لنا منبر الجامع ومقصورته الخشبية صورة صادقة لما بلغه فـن النحـت على الخشب من تقدم لهذا العهد، وقد أبدع ابن صاحب الصلاة في وصفهما، فقال: " وصنع هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة، اتخذ من أكـرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غريـب العمل وعجيب الشكل والمثل، مرصعاً بالصندل، مجزعاً بالعاج والأبنـوس يـتلألأ كالجمر بالاشعال، وبصفائح من الذهب والفضة، وأشكال في عملـه مـن الـذهب الابريز يتألق نوراً، ويحسبها
الناظر لها في الليل البهيم بدوراً، ثم اردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب مختصرة من قضبة، وثيقة لحجبة "[1].

وفيما يتعلق بالمنصوعات الخزفية فقد تميزت لهذا العهد بتقنية الخـتم المطلـي بطلاء أخضر وطلاء بني لماع، وترتبت زخارفها بشكل أفقي تتوالى فيها النقـائش الكتابية والأقواس المنكسرة والزخارف النباتية السعفية[2]. وتميز الخزف الأندلسـي بأنه جاء أكثر تكلفاً إذ عثر في مدينة مالقة على فخار مذهب يرجح أنه يعود لهـذا العهد.[3].

وتميزت زخارف المنسوجات باختفاء الصور الحيوانية، وسـيطرة الزخـارف الهندسية من تشابكات ومربعات وكتابات نسخية[4].

وهكذا يتضح من ملامح العمارة والفن على عهد أبـي يعقـوب إن الموحـدين ابتعدوا خلال هذا العهد عن حياة التقشف والزهد التي طبعت بها دولتهم فـي عهـد مؤسسها المهدي ابن تومرت، ومالوا إلى الأخذ بأسباب الحضارة والعظمة ومجاراة الأمم الأخرى، هذا مع محافظتهم على تسامي منشآتهم وفنونهم التي جاءت قوية من قوة الخليفة.

---

(1): ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص478.

(2): القبلي، تاريخ المغرب، ص278.

(3): أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص409.

(4): القاسمي، تاريخ الحضارة العربية، ص88.

الخاتمة

قامت الدولة الموحدية على أساس دعوة دينية، طابعهـا الاصـلاح والتجديـد، وهدفها اقامة وحدة تشمل كافة أرجاء العالم الإسلامي، وقد استطاع صـاحب هـذه الدعوة وهو محمد بن تومرت الملقب بالمهدي بمجرد وصوله إلى مـراكش سـنة 514هـ/1120م عائداً من رحلة العلم الطويلة التي قضاها في مراكز العلم والاشعاع الثقافي في المشرق، أن يحصل على تأييد كبير وإقبال شديد من سـكان المغـرب الأقصى، الذين نظروا إلى دعوته على أنها حركة اصلاحية تحمل في طياتها بوادر تجديد واصلاح للمجتمع الذي ابتعد عن الدين وانغمس في ملذات الحيـاة، فشـاعت تعاليمه الاصلاحية في العقيدة والشريعة بين الناس بسرعة عجيبة، وحقق انتصارات عسكرية ذات شأن على المرابطين وأنصارهم، وأطلق على أتباعه تنزيهاً وتمييـزاً لهم عن غيرهم لقب " الموحدين ".

هذا وقد هدف برنامج ابن تومرت الاصلاحي من الناحية الدينية إلـى القضـاء على الجهالة الدينية والزندقات المنتشرة في المجتمع، في حين سعى مـن الناحيـة السياسية والعسكرية إلى ايجاد دولة خلافة إسلامية تعيد إلى الإسلام مجده، بحيـث تنضوي تحت لوائها سائر دول العالم الإسلامي؛ لتحـل محـل الخلافتـين اللتـين استشرى فيهما الضعف والفساد وأصبحتا عاجزتين عن حماية نفسيهما من الخطـر الصليبي، وهما العباسية في العراق والفاطمية في مصر.

لكن يبدو أن المنية قد عاجلت ابن تومرت عن تحقيق مشروعه، إذ توفي سـنة 524هـ/1130م، وكان قبل وفاته أوصى أصحابه بتقديم عبد المؤمن بن علي الكومي وتسليم الأمر إليه، ولقبه بأمير المؤمنين، ويظهر أن ابن تومرت قـد أحسـن فـي اختياره إلى عبد المؤمن، حيث استطاع هذا الرجل بحنكته وحزمه القضاء على دولة المرابطين سنة 541هـ/1146م، وإنشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغـرب، جـاعلاً منها دولة خلافة إسلامية عامة تضارع أكبر الدول العامـة التـي عرفهـا تـاريخ الإسلام، وقبل وفاته شعر عبد المؤمن بقوته فجعل الحكم وراثياً في أبنائه من بعده. ومن هنا نستطيع القول بحق أن عبد المؤمن هو المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين.

وخلف عبد المؤمن على عرش الدولة الموحدية ابنه أبا يعقوب يوسف، الذي كانت فترة حكمه موضوع دراستنا هذه، وقد خضنا غمار البحث لتاريخ بلاد " المغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف 558-580هـ/1163-1184م " من مختلف النواحي السياسية والحضارية، مستعرضين في ثناياه جميع القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية التي تخص هذه الفترة، ويمكن ايجاز أهم النتائج المستخلصة من دراستنا هذه في النقاط التالية:

1. أن عبد المؤمن بن علي كان قد اختار لولاية العهد في بداية الأمر ابنه الأكبر محمد منذ سنة 549هـ/1154م، ثم لما تأكد له من أمور لا يصلح معها ابنه هذا للخلافة مثل إدمانه على شرب الخمر، وكثرة طيشه، قام بخلعه وإسقاط اسمه من الخطبة، وولى مكانه أبو يعقوب يوسف، على إعتبار انه كان أصلح ابنائه، وذلك قبيل وفاته بأيام، غير أن محمد استمسك بالحكم عقب وفاة والده ولم ينزل لقرار العزل، وهنا عالج أبو يعقوب الموقف بشجاعة ولباقة، فقاد مع أخيه الشقيق السيد أبي حفص عمر حملة دعائية ضد أخيهما محمد، صوراه فيها بعدم صلاحيته لتدبير شؤون المملكة وضبط أمور الرعية، لينتهي الأمر بخلع محمد مكرهاً بعد خمسة وأربعين يوماً من توليه العرش، فبايع الناس أبا يعقوب واتفقت عليه الكلمة سنة 558هـ/1163م.
2. واجهت أبو يعقوب منذ توليه الخلافة ثورات عدة في بلاد المغرب الأقصى وإفريقية، واجهها بكل ثقة وحزم، واستطاع أن يتغلب علىها جميعها، ففي عام 559هـ/1164م أعلن مرزدغ الصنهاجي التمرد والعصيان في منطقة غمارة، فأرسل إليه أبو يعقوب جيشاً كثيفاً بقيادة أحد أشياخ الموحدين فتمكن من هزيمته والقضاء على حركته، وفي سنة 561هـ/1165م عادت قبائل غمارة للثورة من جديد بقيادة زعيم آخر يدعى سبع ابن منغفاد، وقد فرض هذا الثائر سيطرته على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطئ البحر المتوسط حتى مدينة سبتة، فاضطر الخليفة إلى الخروج إليه بنفسه وهزمه واستأصل شأفته، وفي سنة 575هـ/1179م ثار في مدينة قفصة أحد أعقاب ملوكها من بني الرند، وهو علي المعروف بالطويل، الذي استطاع تخليص قفصة من تحت حكم

الموحدين، فسار إليه الخليفة بنفسه أيضاً على رأس جيوش جرارة، وحاصره إلى أن استنزله، وأرجع قفصة لحكم الموحدين سنة 576ه/1180م.

3. لم تقتصر الثورات على بلاد المغرب، بل قامت في الأندلس أكبر وأخطر الثورات التي شهدتها دولة الموحدين عامة على عهد أبي يعقوب، وهي ثورة ابن مردنيش في شرق الأندلس، إذ لم يمض عامان على ارتقاء أبي يعقوب أريكة الخلافة، حتى كان ابن مردنيش قد عاد لحشد قواته، ومن انضم إليه من حلفائه القشتاليين والأرغونيين، وبدأ بالإغارة على أراضي الموحدين، فقاد أبو يعقوب ضده حرب مضنية كانت حافلة بالخسائر، ولما طال أمد تلك الثورة عزم الخليفة قطع شأفتها بنفسه، فحشد الحشود وجاز للأندلس سنة 566ه/1170م، وحاصر ابن مردنيش في مرسية، وأثناء الحصار توفي ابن مردنيش سنة 567ه/1172م فانهارت ثورته، واستسلم أبناؤه، واسترد الخليفة مرسية وبلنسية وبذلك تم تطهير شرق الأندلس، وعادت أجزاء الجزيرة تشد بعضها بعضاً تحت راية الموحدين، بعد أن انهكت تلك الثورة قواهم واستنزفت جهودهم، والهتهم عن الاستعداد لمواجهة عدوهم الرئيسي في الأندلس والمتمثل بالممالك الاسبانية، الذين وجدوا في ابن مردنيش قوة أندلسية تحارب المسلمين نيابة عنهم.

4. كان للخليفة أبي يعقوب أعمال جهادية ضخمة ضد الممالك الاسبانية في الأندلس، نجح خلالها في إنهاء ما حققته تلك الممالك من تفوق في فترة الانتقال بين دولتي المرابطين والموحدين، كما نجح في إيقاف الزحف الاسباني تجاه الأراضي الإسلامية فترة من الزمن، ولم يقف جهد أبي يعقوب في هذا المجال على حشد الجيوش وإرسالها لميادين الجهاد، بل قاد بنفسه حملتين عظيمتين إلى الأندلس، وبالرغم من عدم توفقه في تحقيق نصر حاسم في حملتيه المذكورتين؛ إذ سجل فشله الأول تحت أسوار مدينة وبذة سنة 567ه/1172م، ثم سجل فشله الثاني أمام أسوار شنترين سنة 580ه/1184م، إلا إنهما كانتا محاولتين جادتين لوقف خطر القشتاليين والبرتغاليين. وحقيقة أن أعمال تلك الممالك في هذه الفترة مثلت تهديداً لحواضر المسلمين في الأندلس، لكن معظمها جاءت بمثابة غارات

مفاجئة ما تلبث أن تعود إلى أراضيها، وإن حدث أن استولوا على بعض الحصون؛ فإن الموحدين سرعان ما يستردوها.

5. بالإضافة إلى شغفه بالجهاد من الناحية العملية، أظهر الخليفة أبو يعقوب شغفاً شديداً بالجهاد من الناحية النظرية، ويظهر ذلك جلياً في تأليفه لكتاب " الجهاد " الذي الحق بكتاب " أعز ما يطلب "، وفيه يورد أبو يعقوب طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد في سبيل الله، والحث عليه وتبيان محاسنه.

6. استخدم الخليفة أبو يعقوب اسلوب الحصار في جميع حملاته العسكرية، سواء تلك التي قادها ضد الخارجين على سلطانه، أو ضد الممالك الاسبانية في الأندلس، ولعل الذي دفعه لذلك، هو لجوء أعدائه للقتال عن طريق نظام الحصون بعيداً عن المواجهة المباشرة.

7. اتسمت علاقة الموحدين على عهد الخليفة أبي يعقوب بالمشرق الإسلامي بالكراهية المتبادلة مع الخلافة العباسية، حيث لم يعترف الموحدون بسواهم ممن يستحق لقب الخلافة، ورأوا أن دار الخلافة الشرعية هي مراكش وليس بغداد، أما بالنسبة للأيوبيين فقد استقبل الخليفة أبو يعقوب نبأ قيام دولتهم في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية بإستياء شديد؛ لأنه اعتبر في ذلك ظهور لشعار العباسيين من جديد في تلك البلاد، ولم تلبث أن توترت العلاقة سريعاً بين البلدين، حتى وصلت إلى الصدام المسلح الذي تمثل في غزو شرف الدين قراقوش، أحد قادة صلاح الدين الأيوبي، لبعض نواحي إفريقية وإخضاعها لسلطان الأيوبيين. ولكن مع ذلك يظهر أن الصراع السياسي والعسكري بين الموحدين في المغرب والعباسيين والأيوبيين في المشرق الإسلامي، لم يؤثر في معاملتهم للعامة من الناس، فقد استمر التبادل الثقافي والتجاري بين الطرفين، كما شكلت بلاد الشام خلال هذا العهد مركز جذب للمغاربة الراغبين في الجهاد، حتى أن بطولاتهم وأعدادهم المشاركة في الحروب ضد الصليبيين قد استهوت أهل الشام وأثارت غضب الملوك الصليبيين.

8. حكم الخليفة أبو يعقوب دولته حكماً مركزياً، فكان دائب النظر في الأمور، يتفقد كل كبيرة وصغيرة في البلاد من نواحي الحياة جميعها، وكان عارفاً بالشؤون المالية، ضابطاً لخراج مملكته، لا يتكل على أحد من وزرائه في ذلك، بالرغم من انشغاله بالجهاد والحروب وطلب العلم والمعرفة، وإذا ما وقف على ظلم أو عسف ارتكبه أحد عماله ضد الناس فإنه شديد الإيقاع به، وكان من أبرز ما فعله في ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها سنة 579ه/1183م.

9. نجح الخليفة أبو يعقوب في إصطناع القبائل العربية والإستفادة منها في حروبه بالأندلس، مستغلاً شجاعتهم وحبهم للجهاد، وقد أظهرت هذه القبائل التي كان أغلبها من زغبة ورياح والأثبج شجاعة وإستماتة كبيرة في القتال، ذوداً عن المسلمين وديارهم في الأندلس، وكانت لهم اليد الطولى في الهزيمة التي الحقت بابن مردنيش في موقعة فحص الجلاب سنة 560ه/1165م، واسترجاع مدينة بطليوس من قبضة الملك البرتغالي ألفونسو هنريكيز سنة 566ه/1170م.

10. أولى الخليفة أبو يعقوب الجوانب الاقتصادية اهتماماً خاصاً، إذ نالت الزراعة وافر عنايته من خلال اهتمامه بإنشاء البساتين وغرسها بمختلف أنواع الثمار، والاهتمام باروائها من خلال بناء القناطر والقنوات لجر المياه، فضلاً عن تشجيعه للصناعات المختلفة، واهتمامه بتأمين الطرقات، وبناء الجسور، وإلغاء الضرائب والمكوس، وعقد الاتفاقيات التجارية مع الدول الأخرى مثل جنوة وبيزة وصقلية، وسك النقود وفق عيار ثابت، مع حرصه على مراقبة المكاييل والموازين.

11. شهد عهد الخليفة أبي يعقوب ازدهاراً عظيماً من الناحية العلمية والأدبية، وجاءت مرجعية هذا الإزدهار من جو الحرية الذي أتاحه الخليفة لكل افراز ذهني بشتى ألوانه وأشكاله، فضلاً عن أن أبا يعقوب نفسه كان أديباً بارعاً ونبراساً ساطعاً في العلم، حافظاً للقرآن الكريم، ومتمكناً من الحديث حتى قيل أنه يحفظ صحيح البخاري، وليس أدل على ذلك الإزدهار من ظهور أساطين العلماء المسلمين بين ظهراني هذه الدولة وخلال هذا العهد أمثال: ابن طفيل، وابن رشد، وأبو بكر بن زهر، وابن العوام، وابن جبير، وقد انعكست طبيعة

العلاقة الطيبة بين الخليفة والعلماء وتشجيعه لهم، على غـزارة التـأليف فـي مختلف العلوم حتى عم إنتاج علماء المغرب والأندلس خلال هذا العهد كثيراً من حواضر العالم الإسلامي.

12. كانت عناية الخليفة أبي يعقوب بالعمران تناول المغرب والأندلس على السواء، بإعتبارهما لديه وطناً إسلامياً واحداً، وقد قام بإنشـاء طائفـة مـن المنشـآت العمرانية التي خلدت اسمه وجعلته في مقدمة خلفاء الموحدين، منها إعادة بنـاء قنطرة تانسيفت، والجسر الواصل بين مدينة رباط الفتح وسلا، وتوسعة مدينـة مراكش، وفي الأندلس يظهر كلفه بالمشاريع الإنشائية ببناء قصبة مدينة إشبيلية وقصبة بطليوس، وبناء جامع إشبيلية الأعظم، وقنطرة طريانة وقصور حـدائق البحيرة بإشبيلية، وبرج قاصرش.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1. **المصادر:**

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم (ت 668ه/1269م). (1965م). **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت 1110ه/ 1698م). (1286ه). **المؤنس في أخبار أفريقية وتونس**، ط1، مطبعة الدولة التونسية سنة.

ابن أبي زرع، علي الفاسي (ت في منتصف القرن 8ه/14م). (1972م). **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط.

ابن الآبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت 658ه/1259م). (1989م). **المعجم في أصحاب القاضي الصدفي**، ط1، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن الآبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت 658ه/1259م). (1995م). **التكملة لكتاب الصلة**، 4 أجزاء، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت.

ابن الآبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت 658ه/1259م). (1985م). **الحلة السيراء**، جزءان، ط2، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت 630ه/ 1233م). (2003م). **الكامل في التاريخ**، 11 جزءا، ط4، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي (ت729ه/1328م) . (1937م). **معالم القربة في أحكام الحسبة**، عني بنقله وتصحيحه: روبـــن ليـــوي، مطبعـــة دار الفنون، كيمبرج.

ابن الخطيب، لســـان الـــدين (ت 776ه/ 1374م) . (1956م). **تـــاريخ إســـبانية الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملـــوك الإسلام**، ط2، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776ه/ 1374م) . (1964م).**تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، القسم الثالث من كتاب أعلام الأعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء.

ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776ه/ 1374م) . (1974م). **الإحاطة فـــي أخبـــار غرناطـــة**، 4 مجلدات، ط1، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت 627ه/1230م) . (1997م). **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، ط2، تحقيـــق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشـــقي (ت1089ه/1678م) . (1986م). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، 10 أجزاء، ط1، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت.

ابن القاضي، أحمد بن محمـــد بـــن محمـــد المكناســـي (ت 1025ه / 1616م) . (1973م). **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينـــة فـــاس**، جزءان، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.

ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي (كان حياً في منتصف القرن 7ه/ 13م) . (1990م). **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، ط2، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإســـلامي، بيروت.

ابن الكردبوس، أبو مروان عبدالملك التوزري (عاش في أواخر القرن 6ه/ 12م) . (1965-1966م). **كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 13، مدريد.

ابن المؤقت، محمد بن محمد بن عبدالله المراكشي (ت 1369ه/ 1949م) . (2011م). **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، ط3، مراجعة وتعليق: أحمد متفكر، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش.

ابن أمير المؤمنين، إسماعيل بن إبراهيم (ت 1237ه/1822م) . (2007م). **تاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط**، ط1، تحقيق: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578ه/ 1182م) . (1989م). **كتاب الصلة**، 3 أجزاء، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578ه/ 1182م) . (2004م). **الآثار المروية في الأطعمة السرية والآلات العطرية**، ط1، تحقيق: أبي عماد محمد ياسر الشعيري، مكتبة أضواء السلف، الرياض.

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت799ه/1377م) . (1997م). **رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار**، 5 أجزاء، تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

ابن تومرت، أبو عبدالله محمد (ت 524ه/ 1130م) . (د.ت). **أعز ما يطلب**، تحقيق: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728ه/ 1328م) . (1999م). **مسألة في المرشدة**، ط1، تحقيق: علي رضا عبدالله، دار الوطن للنشر، الرياض.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني (ت 614ه/ 1217م) . (د. ت). **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت.

ابن حزم، علي بن أحمد الظاهر (ت 456ه/ 1063م) . (1982م). **جمهرة أنساب العرب**، ط5، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة.

ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808ه/1406م) . (2000م). **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، 8 أجزاء، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808ه/1406م) . (د. ت). **مقدمة ابن خلدون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت 681ه/1282م). (د. ت). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صار، بيروت.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 685ه/ 1286م) . (1945م). **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار المعارف، القاهرة.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 685ه/ 1286م) . (1958م). **بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق: خوان قرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 685ه/ 1286م) . (1987م). **رايات المبرزين وغايات المميزين**، ط1، تحقيق: محمد رضوان الداية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت 685ه/ 1286م) . (د. ت). **المغرب في حلى المغرب**، جزءان، ط4، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي (ت 458ه/ 1065م) . (د. ت). **المخصص**، السفر الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي (كان حياً سنة 594ه/ 1198م) . (1964م). **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، السفر الثاني، ط1، تحقيق: عبد الهادي التـــازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة 712ه/ 1312م) . (1985م). **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين -**، ط1، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ دار الثقافة، الدار البيضاء.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة 712ه/ 1312م) . (1983م). **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، 3 أجزاء، ط3، تحقيق: ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.

ابن غازي، أبو عبدالله محمد بن أحمد العثماني (ت 919ه/ 1513م) . (1964م). **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، المطبعة الملكية، الرباط.

ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي الأندلســـي (عـــاش فـــي القـــرن 6ه/12م) . (1955م). **قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كور الأنـــدلس ومدنها بعد الأربعمائة**، تحقيـــق: لطفـــي عبـــد البـــديع، مجلـــة معهـــد المخطوطات العربية، مج1، ج2، نوفمبر.

ابن غلبون، أبو عبدالله محمد بن خليل الطرابلســـي (ت بعـــد 1133ه/1721م) . (1349ه). **تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طـــرابلس وما كان بها من الأخبار**، تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة.

ابن فرحون، إبراهيم بن علـــي اليعمـــري (ت799ه/1396م). (د. ت). **الـــديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، جزءان، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

ابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم الـــدينوري (ت 276ه/ 889م) . (1997م). **الإمامة والسياسة**، جزءان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي القسنطيني (ت810ه/1407م) . (1968م). **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (774ه/ 1372م) . (2010م). **البداية والنهاية**، 20 جزءاً، ط2، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711ه/1311م) . (د. ت). **لسان العرب**، 20 جزءاً، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697ه/1298م) . (1957م). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، 5 أجزاء، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، الطبعة الأميرية، القاهرة.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت 732ه/ 1331م) . (1988).**المختصر في أخبار البشر**، 4 أجزاء، ط1، المطبعة الحسينية المصرية.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت 732ه/ 1331م) . (د. ت).**تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (ت 665ه/ 1266م) . (1997م). **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، 5 أجزاء، ط1، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت.

أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت458ه/1066م) . (1961م). **الأحكام السلطانية**، شركة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة.

الإدريسي، عبدالله بن محمد الحسيني (ت560ه/1164م) . (1863م). **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مطبعة بريل، ليدن.

الإشبيلي، بكر بن إبراهيم (ت629ه/ 1231م) . (1959-1960م). **كتاب التيسير في صناعة التسفير**، تقديم: عبدالله كنون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلدان 7-8، مدريد.

الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت 617ه/1220م) . (1401ه). **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة.

البادسي، عبد الحق اسماعيل (ت 722ه/ 1322م) . (1993م). **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، ط2، تحقيق: سعيد اعراب، المطبعة الملكية، الرباط.

البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز (ت 487ه/1094م) . (1968م). **جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري**، ط1، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن 6ه/12م). (1971م). **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.

البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن 6ه/12م). (1971م). **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.

التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد (ت بعد 717ه / 1319م) . (1981م). **رحلة التجاني**، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس.

التجيبي، أبي بحر صفوان إدريس المرسي (ت 598ه/1201م) . (1939م). **زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر**، اعتنى بنشرة: عبد القادر محداد، بيروت.

التطيلي، بنيامين (ت569ه/1173م) . (1945م). **رحلة بنيامين**، ترجمة: عزرا حداد، بغداد.

التنبكتي، أحمد بابا (ت 1036ه/ 1627م) . (1989م). **نيـــل الابتهـــاج بتطريـــز الديباج**، ط1، وضع هوامشه وفهارســـه: طـــلاب مـــن كليـــة الـــدعوة الإسلامية، طرابلس.

الجزنائي، علي (عاش في القرن 8ه/16م) . (1991م). **زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، ط2، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت 1067ه/ 1697م). (د. ت). **كشف الظنـــون عن أسامي الكتب والفنون**، مجلدان، عني بتصـــحيحه ونشـــره: محمـــد شرف الديت يالتقايا ورفعت الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الحكيم، أبو الحسن علي بـــن يوســـف (ت 759ه / 1357م) . (1959-1960م). **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، تحقيق: حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 6، العدد 1-2، مدريد.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 866ه/1461م) . (1984م). **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 866ه/1461م) . (1988م). **صـــفة جزيـــرة الأندلس**، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، عني بنشره: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت.

الـــذهبي، شـــمس الـــدين محمـــد بـــن أحمـــد بـــن عثمـــان (748ه / 1374م) . (1985م).**العبر في خبر من غبر**، الجزء الثالث، ط1، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بـــن عثمـــان (748ه / 1374م) . (1996م). **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، 53 جزءاً، ط1، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748ه / 1374م) . (1996م).**سير أعلام النبلاء**، 29 جزءاً، ط11، تحقيق: شعيب الأرنـــؤوط وآخـــرون، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الزجالي، أبو يحيى عبيدالله بن أحمد القرطبي (ت 694ه/ 1294م) . (1975م). **أمثال العوام في الأندلس،** قسمان، دراسة: محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس.

الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت في القرن 11ه / 17م) . (1966م). **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية،** ط2، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (771ه/1370م) . (د. ت). **طبقات الشافعية الكبرى،** 10 أجزاء، تحقيق: عبد الفتاح محمد الجلو ومحمود محمد الطناجي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

السقطي، أبو عبدالله محمد بن أبي محمد المالقي (ت نهاية القرن 5ه/11م) . (1987م). **في آداب الحسبة،** تحقيق: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد (ت 626ه/ 1228م) . (2000م). **مفتاح العلوم،** ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

السكوني، أبو عبدالله محمد بن خليل (ت بعد 646ه/1248م) . (1993م). **شرح مرشدة محمد بن تومرت،** ط1، تحقيق: يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

السلاوي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري (ت 1315ه/ 1892م) . (2007م). **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،** 3 أجزاء، ط1، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت.

السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني (ت576ه/1180م) . (1963م). **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي،** ط1، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911ه/ 1505م) . (1979م). **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،** جزءان، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، (د. م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911ه/ 1505م) . (د. ت). **تاريخ الخلفاء**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشقندي، اسماعيل بن محمد (ت629ه/1232م) . (1968م). **فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم وابن سعيد والشقندي**، ط1، نشرها وقدم لها: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد.

الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد (ت 599ه/1202م) . (1989م). **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، جزءان، ط1، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ؛ دار الكتاب اللبناني، بيروت.

الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله (ت714ه/1314م) . (1979م). **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، ط2، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

القزويني، زكريا بن محمد (ت 682ه/ 1283م) . (1969م). **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت.

القزويني، زكريا بن محمد (ت 682ه/ 1283م) . (د. ت).**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، المكتبة الأموية.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821ه/1418م) . (1963م). **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، 14 جزءاً، قدم له الشيخ محمد رسول، المكتبة المصرية، القاهرة.

مؤلف مجهول (عاش في القرن 6ه/ 12م) . (1985م). **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة " آفاق عربية "، بغداد.

مؤلف مجهول (عاش في القرن 8ه/14م) . (1979م). **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، ط1، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

مؤلف مجهول. (1965-1966م). **وصف جديد لقرطبة الإسلامية**، تقديم: حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 13، مدريد.

مؤلف مجهول. (1983م). **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق: لويس مولينا، المجلس الأعلى للابحاث العلمية، مدريد.

مؤلف مجهول. (1989م). **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**، ط2، تحقيق، إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة.

مؤلف مجهول. (2005م). **مفاخر البربر**، ط1، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط.

مؤلف مجهول، (كان حياً في النصف الأول من القرن 7ه/ 13م) . (1961-1962م). **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 9-10، مدريد.

الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (ت 450ه/1058م) . (2014م). **كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: سمير مصطفى رباب، وزارة الثقافة، عمان.

الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (ت 450ه/1058م) . (1941م). **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، اعتنى بإصدارها: ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط.

المجيلدي، أحمد بن سعيد (ت 1094ه/1682م) . (1970م). **كتاب التيسير في أحكام التسعير**، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري (ت 703ه/1303م) . (د.ت). **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر من 1-6، ط1، تحقيق: محمد بن شريفة وآخرون، دار الثقافة، بيروت.

المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت 647ه/ 1250م) . (1997). **وثائق المرابطين والموحدين**، ط1، تحقيق: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

المراكشي، أبو محمد عبد الواحـــد بـــن علـــي (ت 647ه/ 1250م) . (2006م). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط1، شرحه واعتنى بـــه: صـــلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041ه / 1631م) . (1939-1942م). **أزهار الرياض في أخبار عياض**، 4 أجزاء، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، القاهرة.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041ه / 1631م) . (1968). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 8 مجلدات، تحقيـــق: إحســـان عباس، دار صادر، بيروت 1968م.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845ه/ 1441م). (1997م). **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ط1، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، 8 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت.

المكناسي، أبو عبدالله محمد بن عبـــد الوهـــاب (ت 1214ه/1800م) . (1965م). **الإكسير في فكاك الأسير**، تحقيق: محمـــد الفاســـي، المركـــز الجـــامعي العلمي، الرباط.

النباهي، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن المالقي (ت 792ه/1389م) . (1983م). **تاريخ قضاة الأندلس، المسمى المرقبة العليا فـــيمن يســـتحق القضـــاء والفتيا**، ط5، تحقيق: لجنة احياء التراث العربي، دار الآفـــاق الجديـــدة، بيروت.

النووي، ابن زكريا يحيى بـــن شـــرف (ت 676ه/1278م) . (2006م). **ريـــاض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، ط1، شركة القدس للتصدير، القاهرة.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبـــد الوهـــاب (ت 733ه/ 1333م) . (1983م). **نهاية الأرب في فنون الأدب**، 27 جزءا، تحقيق: حسين نصار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف ب" ليون الإفريقي "(ت بعد 957ه/1555م) . (1983م). **وصف إفريقيا**، جزءان، ط2، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت 768ه/ 1367م) . (1997م). **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، 4 أجزاء، ط1، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله البغدادي (626ه/ 1228م) . (1979م). **معجم البلدان**، 5 أجزاء، دار صادر، بيروت.

2. المراجع الحديثة:

أبا الخيل، محمد بن إبراهيم.(1998م). **جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى (483ه/1090م – 640ه /1242م)**، ط1، دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع، بريده - السعودية.

أبا الخيل، محمد بن إبراهيم.(1998م). **دائرة المعارف الإسلامية**، بروفنسال، ليفي: مادة إشبيلية، 33 جزءاً، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة.

أبا الخيل، محمد بن إبراهيم.(1998م). **دائرة المعارف الإسلامية**، شريك. م: مادة القيسارية، 33 جزءاً، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة.

أبو الفضل، محمد أحمد.(1996م). **شرق الأندلس في العصر الإسلامي (515-686ه/1121-1287م)**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

أبو رميلة، هشام.(1984م). **علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس**، ط1، دار الفرقان، عمان.

أبو ضيف، مصطفى.(1982م). **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**، ط1، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.

أبو مصطفى، كمال السيد. (د.ت). **تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية.

أرسلان، شكيب .(1936م). **الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية**، ط1، 3 أجزاء، المطبعة الرحمانية بمصر،.

أسكان، الحسين.(2001م). **المالية الموحدية**، منشور ضمن كتاب وقفات في تاريخ المغرب دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بو طالب، ط1، منشورات كليـــة الآداب، الرباط.

إسماعيل، كمال عناني.(2014م). **الآثار الإسلامية في الأندلس**، ط1، دار الوفـــاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

أشباخ، يوسف.(1941م). **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، جزءان، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبدالله عنـــان، مطبعـــة لجنـــة التـــأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

أشباخ، يوسف.(1958م). **تاريخ الأندلس في عهد المـــرابطين والموحـــدين**، ط2، ترجمة: محمد عبدالله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

أمين، أحمد.(1969م). **ظهر الإسلام**، 4 أجزاء، ط5، بيروت.

الآوسي، حكمة علي.(1976م). **الأدب الأندلسي فـــي عصـــر الموحـــدين**، مكتبـــة الخانجي، القاهرة.

باشا، ضياء.(1989م). **الأندلس الذاهبة**، 3 أجزاء، ط1، تعريب: عبـــد الـــرحمن ارشيدات، منشورات وزارة الثقافة، عمان.

باشا، نجاة.(1976م). **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القـــرن الثامن للهجرة**، منشورات الجامعـــة التونســـية، كليـــة الآداب والعلـــوم الإنسانية، تونس.

بالباس، ليوبولدو توريس.(1976م). **الفن المرابطي والموحـــدي**، ترجمـــة: ســـيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية.

بروفنسال، ليفي.(1951م). **سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخهـــا**، ترجمة: محمد عبد الهادي شقيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة.

بشتاوي، عادل سعيد.(1983م). **الأندلسيون المواركة**، ط1، مطابع انترناشـــيونال برس، القاهرة.

بوتشيش، إبراهيم القادري.(2002م). **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي،** ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

بورويبة، رشيد.(1982م). **إبن تومرت**: ترجمة: عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

بولقطيب، الحسين.(2002م). **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين،** منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

التازي، عبد الهادي.(1987م). **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم،** 10 مجلدات، مطابع فضالة، المحمدية.

تورنو، روجي لي.(1982م). **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر،** ترجمة: أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس.

جوليان، شارل أندري.(1983م). **تاريخ افريقيا الشمالية،** جزءان، ط2، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس.

الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد.(1983م). **تاريخ الجزائر العام،** 5 أجزاء، ط6، دار الثقافة، بيروت.

حاطوم، نور الدين.(1967م). **تاريخ العصر الوسيط في أوروبة،** جزءان، ط1، دار الفكر الحديث، بيروت.

حتاملة، محمد عبده.(2001م). **الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس،** ط1، (د. د)، عمان.

حتاملة، محمد عبده.(2001م). **موسوعة الديار الأندلسية،** جزءان، ط1، عمان 1999م.

الحجي، عبد الرحمن علي.(1981م). **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897ه/711-1492م)،** ط2، دار القلم، دمشق.

حركات، إبراهيم.(2000م). **المغرب عبر التاريخ،** 3 أجزاء، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

حسن، إبراهيم علي.(1986م). **يعقوب المنصور الموحدي**، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.

حسن، حسن علي.(1980م). **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين "**، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة.

حسن، علي حسن.(د.ت). **دراسات في تاريخ المغرب العربي**، مكتبة الشباب، القاهرة.

حقي، محمد.(2001). **البربر في الأندلس**، ط1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء.

حلاق، حسان.(1986م). **العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (الأندلس – صقلية – الشام)**، الدار الجامعية، بيروت.

حمادة، محمد ماهر.(1986م). **الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية (64-897هـ/683-1492م)**، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

حميدان، زهير.(1996م). **أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية**، 6 مجلدات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

الخالدي، خالد يونس.(2011م). **اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس 92-897هـ / 711-1492م**، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، غزة.

خلف الله، ابتسام مرعي.(1985م). **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي 524-936هـ/1130-1529م)**، دار المعارف (د.م).

الدبيش، عبد الوهاب.(1989م). **توزيع المرافق الاقتصادية بفاس المرينية**، منشور في: أعمال ندوة التجارة في علاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج2، جامعة الحسن الثاني، عين الشق- الدار البيضاء، 21-23 فبراير.

دندش، عصمت عبد اللطيف.(1988م). **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين – عصر الطوائف الثاني 510-546هـ/1116-1151م**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الدوري، تقي الدين عارف.(1997م). **تاريخ العرب المسلمين وحضارتهم في الأندلس**، ط1، منشورات جامعة ناصر الخمس، ليبيا.

الدوري، عبد العزيز.(1988م). **النظم الإسلامية**، بيت الحكمة، جامعة بغداد.

دوزي، رينهارت.(1971م). **المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب**، ترجمة: أكرم فاضل، دار الحرية للطباعة، بغداد.

ديورانت، ول.(1974م). **قصة الحضارة**، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ط3، ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

زبيب، نجيب.(1995م). **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، 5 أجزاء، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت.

الزركلي، خير الدين.(2002م). **الأعلام " قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين "**، 8 أجزاء، ط15، دار العلم للملايين، بيروت.

زغروت، فتحي.(2005م). **الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين**، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

الزغول، جهاد غالب.(2001م). **الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة** (92-897ه/ 711-1492م)، ط1، مركز الأفق، عمان.

زنيبر، محمد.(1999م). **المغرب في العصر الوسيط (الدولة - المدينة – الاقتصاد)**، ط1، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

السائح، الحسن.(1986م). **الحضارة الإسلامية في المغرب**، ط2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.

سالم، السيد عبد العزيز.(1984م). **تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة الأسطول الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

سالم، السيد عبد العزيز.(1985م). **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

سالم، السيد عبد العزيز.(2008م). **تاريخ المغرب في العصر الإســلامي**، مؤسســة شباب الجامعة، الإسكندرية.

سالم، سحر السيد عبد العزيز.(د. ت). **تاريخ بطليوس الإسلامية، أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي**، جزءان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

السامرائي، خليل وآخرون.(د. ت). **تاريخ العرب وحضارتهم فــي الأنــدلس**، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل.

السامرائي، عبد الحميد حسين.(2002م). **تاريخ حضارة المغــرب والأنــدلس فــي عهدي المرابطين والموحدين**، ط1، دار شموع الثقافة، ليبيا.

السرجاني، راغب.(2011م). **قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط**، جزءان، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة.

السعيد، محمد مجيد.(1985م). **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأنــدلس**، ط2، الدار العربية للموسوعات، بيروت.

السلمي، إبراهيم بن عطية.(1430ه). **العدوة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائــف إلى سقوطها في أيدي الاسبان (422 -867ه/1030-1462م)**،رسالة دكتوراه غير منشورة،جامعة أم القرى.

السملالي، عباس بن محمد.(1993م). **الاعلام بمن حــل مــركش وأغمــات مــن الاعلام**، 10 أجزاء، ط2، راجعه: عبد الوهاب بن منصــور، المطبعــة الملكية، الرباط.

سمور، قتيبة علي.(1996م). **العلاقات الحربية بين الموحدين والممالك الاســبانية في شمال الأندلس (540-620ه/1145-1225م)**، رسالة ماجســتير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان.

السيد، محمود.(2007). **تاريخ دولتي المــرابطين والموحــدين**، مؤسســة شــباب الجامعة، الإسكندرية.

سيسالم، عصام سالم.(1984م). **جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإســلامي لجــزر البليار 89-685ه/708-1287م)**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.

شحلان، أحمد.(2006م). **التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي**، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط.

الشطشاط، علي حسين.(2001م). **نهاية الوجود العربي في الأندلس**، دار قباء لطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

شقرون، محمد بن أحمد.(1982م). **مظاهر الثقافة المغربية في القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر**، مطبعة الرسالة، الرباط.

الشناوي، علي الغريب.(2009م). **النثر الأندلسي في عصر الموحدين**، مكتبة الآداب، القاهرة.

الصلابي، علي محمد.(2005م). **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي**، ط1، دار المعرفة، بيروت.

طارو، جان وجيروم.(1349ه). **أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة وتعليق: أحمد بلافريج ومحمد الفاسي، المطبعة الوطنية، الرباط.

الطرابلسي، أحمد بك النائب الأنصاري.(د.ت). **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب.

طه، جمال أحمد.(2004م). **الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)**، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

طه، جمال أحمد.(د.ت). **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين 448ه/1056م إلى 668ه/1269م**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

عاشور، سعيد عبد الفتاح.(د.ت).**مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، دار النهضة العربية، بيروت.

عاشور، سعيد عبد الفتاح.(1975م). **أوروبا العصور الوسطى**، جزءان، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

العبادي، أحمد مختار.(د. ت). **في تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت.

العبادي، أحمد مختار.(2000م). **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية.

العبادي، أحمد مختار.(د.ت). **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

العبادي، أحمد مختار؛ سالم، عبد العزيز.(د. ت). **تاريخ البحرية الإسلامية**، جزءان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

عبد الحميد، سعد زغلول.(1973م). **محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس**، دار الأحد، بيروت.

العدوي، إبراهيم.(1957م). **الأساطيل العربية في البحر المتوسط**، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

العروي، عبدالله.(2000م). **مجمل تاريخ المغرب**، 3 أجزاء، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

العريني، يوسف بن علي.(1995م). **الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين**، ط1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض.

علام، عبدالله علي.(1968م). **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، القاهرة.

علوي، حسن حافظي.(1989م). **النشاط التجاري بسجلماسة وعلاقته بمجالها القروي**، منشور ضمن كتاب: أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج2، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب العلوم الإنسانية، عين الشق-الدار البيضاء، 121-23 فبراير.

عمار، عمورة.(2002م). **موجز في تاريخ الجزائر**، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر.

العمايرة، محمد نايف.(1999م). **مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان**، ط1، (د.د)، عمان.

عنان، محمد عبدالله.(1961م). **الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال**، ط2، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

عنان، محمد عبدالله.(1964م). **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأنـــدلس، ط1، مطبعـــة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

عيسى، فوزي.(2007م). **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين**، ط1، دار الوفـــاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

الغناي، مراجع عقيلة.(1971م). **قيام دولة الموحـــدين**، ط1، المكتبـــة الوطنيـــة، بنغازي.

الغناي، مراجع عقيلة.(1981م). **سقوط دولة الموحـــدين**، ط2، مطـــابع الثـــورة للطباعة والنشر، بنغازي.

الغنيمي، عبد الفتاح مقلد.(1994م). **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، 3 مجلـــدات، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة.

القادري، إبراهيم.(1993م).**الإسلام السري في المغرب العربي**، سينا للنشـــر، (د. م).

القاسمي، خالد محمد.(1998م).**تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فـــي الأنـــدلس**، ط1، دار الثقافة العربية، الشارقة.

القبلي، محمد. (2011م). **تاريخ المغرب (تحيين وتركيب)**، ط1، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط.

قجه، محمد حسن. (1984م). **معركة العقاب بدايـــة انهيـــار الأنـــدلس**، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية.

قجه، محمد حسن. (1985م). **محطات أندلســـية**، ط1، الـــدار الســـعودية للنشـــر والتوزيع، جدة.

كنون، عبدالله. (1960م). **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، 3 أجـــزاء، ط2، (د. د)، طنجة.

لانجر، وليم. (1959). **موسوعة تاريخ العالم**، 3 أجزاء، ترجمة: محمد مصطفى زياده، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

مؤنس، حسين. (1985م). **رحلة الأندلس حديث الفردوس الموعود**، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.

مؤنس، حسين. (1987م). **أطلس تاريخ الإسلام**، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.

مؤنس، حسين. (1992م). **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، مجلدان، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت.

مؤنس، حسين. (2002م). **فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711 – 756م)**، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

مؤنس، حسين. (2004م). **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد،.

ماجد، عبد المنعم. (1978م). **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، ط4، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

مارسيه، جورج. (1999م). **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمه من الفرنسية: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية.

محاسنة، محمد. (1991م). **النظم الإسلامية**، ط1، دار الكتاني، اربد.

محمد، عبد النبي. (1979م). **مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقية والأندلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة.

منصور، عبد الوهاب. (1983م). **أعلام المغرب العربي**، الجزء الثالث، المطبعة الملكية، الرباط.

المنوني، محمد وآخرون. (1991م). **التاريخ الأندلسي من خلال النصوص**، ط1، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء.

المنوني، محمد. (1977م). **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، ط2، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.

المنوني، محمد. (1989م). **حضارة الموحدين**، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

موسى، عز الدين عمر. (1983م). **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، ط1، دار الشروق، بيروت.

موسى، عز الدين عمر. (1983م).**النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، ط1، دار الشروق، بيروت – القاهرة.

موسى، عز الدين عمر. (1991م).**الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الميلي، مبارك بن محمد. (د. ت). **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، 3 أجزاء، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

النجار، عبد المجيد. (1995م). **تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت**، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن – فيرجينيا.

نجار، ليلى أحمد. (1989م). **المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية 580-595ه/1184-1198م**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

النخيلي، درويش. (1979م). **السفن الإسلامية على حروف المعجم**، ط2، دار المعارف.

النشار، محمد محمود. (1995م). **تأسيس مملكة البرتغال**، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

نواره، شرقي. (2008م). **الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين 524-667ه / 1126-1268م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر.

هنتس، فالتر. (1970م). **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ط2، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان.

هونكه، زيغريد. (2013م). **شمس العرب تسطع على الغرب**، نقله عن الألمانيـــة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، وزارة الثقافة، عمان.

وات، مونتغمري. (1998م). **في تاريخ إسبانيا الإسلامية**، ط2، ترجمـــة: محمـــد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

وهبه، مصطفى. (1997م).**موجز تاريخ الحروب الصليبية**، ط1، مكتبـــة الإيمـــان للنشر والتوزيع، المنصورة.

يوسف، سليمان داود. (1993م). **حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي**، مطبعة أبـــو داود، الجزائر.

3. الدوريات:

أحمد، علي. (1989م).الموحدون وبني غانية، **مجلة دراســـات تاريخيـــة**، الســـنة العاشرة، العددان 31 و32، آذار – حزيران.

أحمد، علي. (1996م).اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، **مجلة دراسات تاريخية**، العددان 57 و58، السنة السابعة عشر، أيلول- كـــانون أول.

أحمد، علي. (1998م). من الاصطلاحات التاريخية والحضارية الأندلسية والمغربية في العصور الوسطى، **مجلة دراسات تاريخية**، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، العددان 63 و64، السنة التاســـعة عشـــرة، آذار – حزيران.

إلياس، علي قنبر. (2010م). أسرة بني غانية ودورهم السياسي والعســـكري فـــي التصدي لدولة الموحدين في المغرب والأندلس، **مجلـــة التربيـــة والعلـــم**، المجلد 17، العدد 1.

بلعربي، خالد. (2011م). تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، العدد 15، للعام.

بوّز، فارس. (1988م). مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين، **مجلة دراسات تاريخية**، العددان 29 و30، السنة التاسعة، آذار - حزيران.

حسين، عباس فضل. (2009م). مدينة قفصة في عصر الموحدين (541-668ه/1146-1269م)، دراسة في أحوالها الاقتصادية والسياسية، **مجلة آداب البصرة**، العدد 50.

عبد العزيز، هشام فوزي. (1996م). يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي 92-897ه/ 711-1492م، **مجلة دراسات أندلسية**، العدد 15، تونس.

غضبان، أكرم حسين. (2007م). التأديب في عهد الموحدين، **مجلة آداب البصرة**، العدد 44.

الفاسي، عبد الرحمن. (1981م). خطة الحسبة، **مجلة المناهل**، تصدرها وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، العدد 20، السنة الثامنة، مارس.

فهمي، عبد الرحمن. (1964م). دراسة لبعض التحف الإسلامية، **مجلة كلية الآداب**، مج22، ج1، القاهرة.

كلاس، فايزه. (1989م). الجيش عند الموحدين، **مجلة دراسات تاريخية**، العددان 31 و32، السنة العاشرة، آذار – حزيران.

مؤنس، حسين. (1950م). السيد الكمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، **الجمعية الملكية للدراسات التاريخية المصرية**، المجلد 3، العدد 1، مايو.

المغراوي، محمد. (1988م). ملاحظات حول مسألة الحسبة في الدولة الموحدية، **مجلة دراسات**، تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، أغادير.

المليجي، محمد أحمد. (1970م). ابن طفيل وفلسفته، **مجلة العربي**، العدد 45، كانون أول.

الهاشمي، التهامي الراجي. (محرم 1400ه/ دجنبر 1979م). الأبواب في الأندلس، **مجلة المناهل**، العدد 16، السنة السادسة.

4. المراجع الأجنبية:

Castro, Francisco Vidal. (2004). **Almoravides y Almohades en al-Andalus el Magreb**, Exposicion Triangulo de al-Andalus, Alcazaba de Los Udaya, Rabat Octubre 2003-Enero .

Charles, E. Champan. (1966). **A History of Spain** ,2nd , New Yourk.

Huci, Miranda. (1956). **Historia Politica Del Impeerio Almohade**, t1, Tetwan.

Imamuddin, S. M. (1969). **A Political History of Muslim Spain**, second edition, Najmah Sons, Dacca.

Juan, Lalaguna. (). **A Traveller's History of Spain**, New York.

O'callaghughan, F.Joseph. (1975). **Ahistory of Medieval al Spain**, Cornell University, New York.

Rrad, Jan. (1974). **The Moors in Spain and Portugal**, First edition, London.

Stephens, H. Morse. (1891). **Portuqal**, London.

الملاحق

ملحق (أ)

صفة أحوال الموحدين في إقامة صلاة الجمعة
على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف وسائر الخلفاء الموحدين

ملحق (أ)

صفة أحوال الموحدين في إقامة صلاة الجمعة

على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف وسائر الخلفاء الموحدين

يقول المراكشي :

" فأما صفة أحوالهم وخطبتهم في جمعهم، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة[1] في القبلة، ويخرج معه خواص حشمه[2]، ويركع ركعتين ثم يجلس؛ فيقرأ قارئ قدر عشر آيات، حسن الصوت. ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول : قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين، يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر، ثم يناوله ذلك الرجل العصا. فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذّن ثلاثة من المؤذنين مفترقين، أصواتهم في نهاية الحسن، قد انتخبوا لذلك من البلاد؛ ثم يقوم الخطيب فيخطب، فأول شيء يقول : الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة؛ من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا؛ أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه؛ فإنما نحن به وله .

ثم يتعوذ ويقرأ سورة قاف من أولها إلى آخرها، ثم يجلس؛ فإذا قام إلى الخطبة الثانية قال :

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونبرأ من الحول والقوة إليه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جداً وعزماً، وأنفذوا وسعهم في نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاءً وصدقاً وحزماً، وعلى الإمام المعصوم المهدي

---

(1): الخوخة: هي كوة في البيت تؤدي إلى مكان الوضوء، أو باب صغير وسط باب كبير.

(2): حشمه: خاصته من أهل أو خدم.

المعلوم أبي عبدالله محمد بن عبدالله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي، الذي أُيد بالعصمة فكان أمره حتماً، واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاماً ولا ظلما؛ وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه – رضي الله عنه – في النسب الكريم، المجتبى لوراثة مقامه العلي، الخليفة الإمام أبي محمد عبد المؤمن بن علي؛ وعلى أبي يعقوب وليّ ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص. اللهم كما شددت به عرا الإسلام؛ وجمعت على طاعته قلوب الأنام، ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام؛ فاقض له بالنصر المقرون بالكمال والتمام؛ اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، فاجعله من المقتفين لآثارهم، المهتدين بمنارهم، المقتبسين من أنوارهم. اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة، إخوان نبيك، وطائفة مهديك، الذين أخبرت عنهم في صريح وحيك أنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة؛ وأمدهم وكافة من انتظم في سلكهم من أنصار الدين، وحزبك الموحدين، بمواد النصر والتمكين، والفتح المبين؛ واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعز ظهير، وأكرم نصير.

ثم يدعو وينزل فيصلي؛ فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على ما تقدم؛ فهذه كليات سيرتهم مجملة على ما يقتضيه شرط التقريب " .

المراكشي، المعجب، ص247-248 .

ملحق رقم (ب)

رسالة من الخليفة أبي يعقوب يوسف بعث بها من مراكش إلى أخيـــه أبـــي سعيد في قرطبة سنة 561ه/1165م، وهي من إنشاء أبي الحسن بـــن عيـــاش، تتضمن طائفة من النصائح والأمر بالعدل والنهي عن المنكر،وهي أول رسالة لـــه بعد أن أصبح خليفة.

ملحق رقم (ب)

رسالة من الخليفة أبي يعقوب يوسف بعث بها من مراكش إلى أخيــه أبــي سعيد في قرطبة سنة 561ه/1165م، وهي من إنشاء أبي الحسن بــن عيــاش، تتضمن طائفة من النصائح والأمر بالعدل والنهي عن المنكر،وهي أول رسالة لــه بعد أن أصبح خليفة.

" بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونتــه، إلــى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد وأصــحابه الطلبــة الــذين بقرطبة أعزهم الله، وأدام كرامتهم بتقواه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصــلي علــى محمد نبيه المصطفى ورسوله، ورضي عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، نجله وسليله، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله، وإنــا كتبناه إليكم – أكرمكم الله بتقواه وكلأ جانبكم وحماه – من حضرة مراكش، حرسها الله، والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه وموالاة شكره على ما هدى إليه أولياء أمره وأنصار دعوته، وحمــاة كلمتــه مــن صرف أعنة المحبة والاهتمام، وإحكام قراير الأحكام فيما وكله إلــيهم مــن أمــور الإسلام، إلى أن تجري على السداد وتتسق على سبيل الرشاد، وتستقيم على المَهيع، وتمضي على المنهج وتسير في الواضح، وتهدي على اللاَّحب ويسلك بها في الجدد الذي سلكه أحمدت منه الآثار، وأمن عليه العثار وارتضى له الإيــراد والإصــدار، فيكون العمل فيها على اليقين الهادي إلى الصراط المستبين المأمون في سلوكه مــن المزلة والضلال، المرجو في الاهتداء به حسن العاقبة وصلاح الحــال. فنســأله – تعالى جده- عوناً من قبله على هذا الغرض العام الجدوى، يصاحب، وتوفيقاً مــن لدنه في هذا النظر الشامل المنفعة يجاوز ويصاقب، وأنه – أدام الله كرامتكم – لمــا كانت مباني هذا الأمر العزيز – أدامه الله – على التقوى مؤسسة، وأوامره ونواهيه على أمر الله ورسوله جارية مترتبة، وإليها في الأخذ والترك مستندة، وبمقتضــياتها في جميع الأحكام آخذة عاملة، إذ هي نور الحق وسراجه، وعمود الصدق ومعراجه،

وسبيل الفوز ومنهاجه، ورائد الثواب وبشيره، وقائد العقاب ونذيره، ممن ائتم بكتاب الله الذي هو الإمام الهادي، والحق الواضح البادي وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي جعل العمل بها كالعمل بكتابه، والوقوف عند حدها كالوقوف عند حده، أمن من الغوايل في العاجل والآجل، وبلغ من السلامة في الحالين إلى أقصى أمل الآمل، ولم يوجد للناظر إليه سبيلاً، ولم يتمكن للشيطان أن يجد في تضليله، واستهدائه صــرفاً ولا حولاً، فتوفرت الدواعي على الدعاء إليها، وحمل الكافة عليها، وأخذ الجميع بما يقفهم لديها وقد أمر الله تعالى من أمر الناس بطاعته، أن يحكموا بالعدل، ويضــعوا للعباد موازين القسط، فلم يكن بد من امتثال أمره والاستناد إلــى حكمــه. وكانــت الوجوه التي تفضي إلى الحق في فصل قضايا العباد متنقبة، والطرق المؤدية إلــى معنى الصدق ومعناه ملتبسة متشعبة، فخرج فيها بنيات تخطئ الصراط المســتقيم، وتضل الضلال البعيد، فصار إمضاؤها عن غير استناد إلى هذا الهــدى المتبــوع، والعلم المرفوع، خطراً على ممضيها، وإنفاذها على غير هذا السنن غــرراً علــى منفذيها. ولما كان الأمر كذلك تعين ووجب، وثبت وترتب أن نخاطب جميع عمــال بلاد الموحدين – أعزهم الله – شرقاً وغرباً وبعداً وقربــاً، خطابــاً يتســاوى فيــه جميعهم، ويتوازى في العمل فيه كافتهم بألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم، ولا يهريقوها بباد أو برأي من آرائهم، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم، ويتقــرر فيما يرونه لديهم، إلا بعد أن ترفع إلينا النازلة على وجهها، وتــؤدى علــى كنههــا وتشرح حسب ما وقعت عليه، وتنهي بالتوثق والبيان على ما انتهت إليــه، وتقيّــد بالشهود العدول، المعروفين في مواضعهم بالعدل والرضى الموجبين للقبول، وتكتب أقوال المظلومين وحججهم وإقرارهم وإعترافهم، وحجج الطــالبين فــي مقــالاتهم، واستظهارهم في بيّناتهم، معطي كل جانب حقه، موفي كل قائــل وقولــه، فتكــون مخاطبتكم – أعزكم الله – ومخاطبة من يتناوله هذا الكتاب، وتوجه إليه هذا القصد، خطاب من تحمل الشهادة، ويؤدي فيها الأمانة، على ما يجب من البيــان الــذي لا يعتوره التباس، ولا يطمس وجهه إشكال، ويتوثقون في المطلوبين بالدماء بســجنهم وتثقيفهم، ويتوكَّفون ما تصلكم به المخاطبة فتقفون عند مقتضاه، ولا يعــدلون عــن شيء من معناه، مراقباً كل منكم إلاهه ومولاه، عالماً بأنه يعلم سره ونجواه، وانــه

يسمعه ويراه، واعلموا – وفقكم الله وأسعدكم – أن هذا الحكم عام في سائر النوازل التي أطلقت السنة فيها القتل وسنته، وحكمت به وشرعته، كمن قتل نفساً وأقر بالقتل، أو شهد العدول عليه به، ومن بدّل ديناً وارتد عنه، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان باعتراف أو دليل أو شهادة مقبولة، وما خير الأيمة فيه من قتل المحاربين والساعين في الأرض بالفساد، والمتأولين أمر الله بالاستهزاء والعناد، سواء سن ذلك كله، أو وقع فيه ضرب بشكله، فمجراه واحد في التوقف عن إمضائه، والتأخر عن تنفيذه إلا بعد المطالعة، وتعرّف وجه العمل من المجاوبة، وكذلكم – وفقكم الله – يكون التوفيق فيما عدا المذكور من النوازل التي تكون أحكاماً دون النفوس من قتل الخطأ وديات الشجاج، وعقول الأعضاء وأروش الجراحات، ووجه القصاص، والقطع في السرقات، إلى غير ذلك من القضايا المشكلة في الأموال وإطلاقها واستحقاقها، وفي الرقاب وإعتاقها واسترقاقها، وملتبسات المناكحات والمعاملات، وما أشبهها من الأمور التي الإقدام على الحكم فيها تهجم، والعمل فيها بغير استناد إلى ما يجب تسوّر. فتوقفوا – أعزكم الله – عن جميع ما فسر لكم ولواحقه توقّف الساعي في نجاته، العامل لدنياه وآخرته، فقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام من الحظر الوكيد، والوعيد الشديد، في إراقة الدماء، واستباحة الأموال، واستحلال المحرمات، إلا بوجه صحيح لا يسلم إلا من طريق العصمة، ولا تهتدي إليه إلا أنوار الحكمة، ما يزع العقلاء، ويكف الألباء، ويحذرهم من سطو الله تعالى وعقابه، ويخوفهم من أليم عذابه، فعولوا على ما رسم في هذا الكتاب من التعريف بما يطرأ، وإنها كل ما ينزل، ليصلكم من التوقيف، والبيان والتعريف، لما يظهر لكم به بركة الاقتداء، وتشرق منه عليكم أنوار الأيتام والاهتداء، ويتراءى لكم به الحق في صوره الصادقة، ومثله المطابقة، ومناظره الموثقة، ومطالعه المشرقة، بفضل الله ورحمته، وملاك ما يسدد مقاصدكم في جميع أحوالكم، ويوجب لكم الرضا في كافة أقوالكم وأفعالكم، تقوى الله في السر والجهر، وخيفته في الباطن والظاهر، وقمع النفس عن هواها، وكبحها بلجام النهي عن الركض في ميدان رداها، وطاعة أمره العظيم، والجري على سننه المستقيم، فذلك عصمة من الزلل، وتوفيق في القول والعمل، بفضل الله، وقد وجب – أكرمكم الله – لهذا الكتاب بما انطوى عليه من

الأعراض الشاملة المنفعة، العامة المصلحة، أن يعطي حقه من الإشاعة والتشـــهير، وينهض مقتضاه إلى الصغير والكبير، ويجمع الناس لقراءتـــه، وتلقـــي مضـــمنه، ويساوى فيه بين الغائب والشاهد، والبادي والحاضر، بإسماع من حضر، ومخاطبة من غاب، ممن يتعلق بنظركم، ويدخل تحت عملكم، فتوجهوا بنسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم، وعمل من أعمالكم، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة به وتعرّف بركته، واستشعار عائدته، وأنسه بما أمر به هذا الأمر العزيز من إفاضة العـــدل، وبســـط الدّعة والأمن، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعيّن، وسننه الواضح البـــيّن إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. كتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة احدى وستين وخمس مائة .

ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـــ2، ص302-307 .

ملحق رقم (ج)

رسالة من رئيس جمهورية بيزة وأسقفها أوبالد (Ubalde) إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف، مؤرخة في 6 ذي الحجة 576هـ/1181م،

ملحق رقم (ج)

رسالة من رئيس جمهورية بيزة وأسقفها أوبالد (Ubalde) إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف، مؤرخة في 6 ذي الحجة 576ه/1181م، يذكر فيها أن مركباً لتجار بلده أوسق بالقمح من جزيرة صقلية وبينما هو في طريقه إلى وجهته اضطرته الريح إلى الرسو بأحواز طرابلس، وأن والي طرابلس قبض على من بالمركب وسجنهم بعد أن صادر أموالهم، متوسلاً من الخليفة أن ينفذ أمره العلي بتسريحهم بجملتهم وجميع مالهم إلى أوطانهم. ويحتفظ أرشيف مدينة فلورنسا بنص هذه الرسالة المحررة بالعربية إلى الخليفة أبي يعقوب، وهذا نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حق حمده

إلى أمير المؤمنين أيد الله أمره وأعز نصره معظمون مقامه وملتزمون أعطايه أبلده

أرك بشه وصاحب كرسقة وسردانية وقناسلتها وقمامستها وشيوخها وأهل الحل والعقد فيها

سلام كريم حفيل على الحضرة المعظمة ورحمت الله تعالى وبركاته، أما بعد فالحمد لله

على العلم والإيمان له أنه الحكيم العليم الأول القديم الذي لا تدرك الابصار ولا تحيط به الأقدار ولا تقيف على كنه عطا ... الاخطار الموجود بكل مكان الخارج عن كل زمان كان بلا ابتداء الدايم بلا فناء نحمده جل وتعالى ونسألوا بعزته وعظامة قدرته أن يديم العزة إلى أمير المؤمنين موفور الجملة متواصل النعمة منصور الرايات منجح الطلبات ملا الله أيامه سعداً ونجحاً وواسع جنده نصراً وفتحاً بمنه وطوله وحوله وقوته كتابون اليكم أيدكم الله ونصركم من مدينة بيشة حرسها الله أنا مركب من تجارنا وأهل قطرنا وأنظارنا أوسقا بالقمح من جزيرة سقلية وأقلعوا يردون مدينة طرابلس حماها الله فأسقطهم الريح في أحوازها وكان الماء قد عجزهم فنزلوا إلى البر ليستقوا فلم يتركهم أهل الموضع إلا حتى بعوا منهم من القمح قليلاً فلما كان في إثر هذا وصل من مدينة طرابلس غراباً معمراً من عند واليها ومقدمها وقبض على القوم وأنهبهم وقبض على الذي وجد في المركب من التجار ونجا بعض منهم من العشارى وقذفوا حتى وصلوا إلى طرابلس وهم منتسوين بصاحبها فقبض على جميعهم وأنهـــ... جميع ما وجد عندهم من قمح ومال وهم في سجنه وتحت أسره حتى الآن، فرغبتنا جميعاً إلى فضل سيدنا أمير المؤمنين أيده الله لينفذ أمره العلي بتسريحهم بجملتهم وجميع مالهم

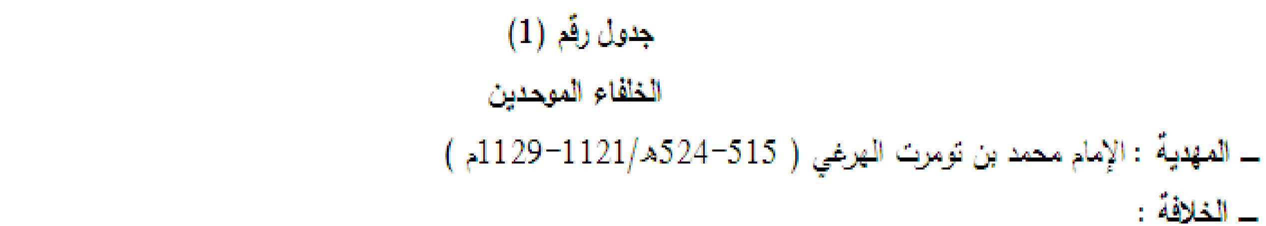
ويصرحوا على التي هي أحسن إلى أوطانهم إذ هم وسواهم ممن شملهم هذا الأمر الملتزم والعهد النافذ المحكم مومّنين في أنفسهم وأموالهم من جميع بلاد الموحدين لا نائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد أخذه منهم والله بعزته مجعلنا ممن وفيا بعهده وحافظ على عقده بمنه وفضله .

والسلام الأعظم الأكرم على الحضرة العليا ورحمة الله تعالى .

أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين أيد الله أمرهم وأعز نصرهم .

التازي، التاريخ الدبلوماسي، مج6، ص176-177 .

الجداول

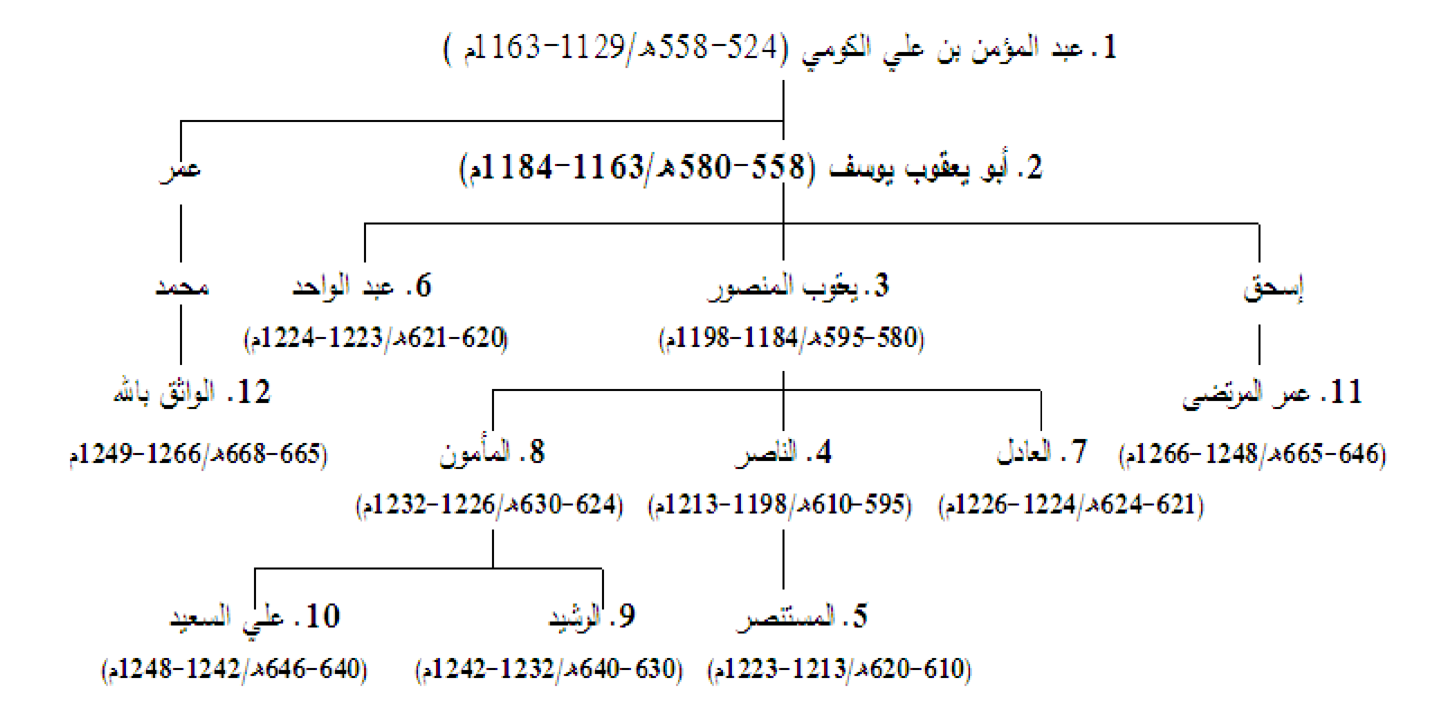


جدول رقم (1)

الخلفاء الموحدين

ـ المهدية : الإمام محمد بن تومرت الهرغي (515-524هـ/1121-1129م)

ـ الخلافة :



جدول رقم (2)

نواب الخليفة أبي يعقوب في الحكم

الرقم	الاسم	الفترة الزمنية	المصدر
1	أبو عمران موسى بن عبد المؤمن	566-571هـ/ 1170-1175م	ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص278.
2	أبو حفص عمر بن عبد المؤمن	572هـ/1176م	ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137.

جدول رقم (3)

الوزراء على عهد الخليفة أبي يعقوب

الرقم	الاسم	الفترة الزمنية	المصدر
1	أبو حفص عمر بن عبد المؤمن	558-560هـ/ 1163-1164م	المراكشي، المعجب، ص180.
2	أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع	560-573هـ/ 1164-1177م	ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص91 .
3	أبو يوسف يعقوب المنصور	573-580هـ/ 1177-1184م	المراكشي، المعجب، ص180؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص206 .

جدول رقم (4)

كتّاب الرسائل على عهد الخليفة أبي يعقوب

الرقم	الاسم	الفترة الزمنية	المصدر
1	أبو الحسن بن عياش	558-568هـ/ 1162-1173م	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص160؛ ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص82-83 .
2	أبو القاسم عبد الرحمن القالمي	568-؟؟هـ/ 1173-؟؟م	المراكشي، المعجب، ص149-150، 180 .
3	أبو الفضل جعفر بن محشرة	؟؟-580هـ/ ؟؟-1184م	الغبريني، عنوان الدراية، ص53-55 ؛ مجموع رسائل موحدية، ص149-157 .

جدول رقم (5)

قضاة الجماعة على عهد الخليفة أبي يعقوب

الرقم	اسم القاضي	مدة ولاية القضاء	المصدر
1	أبو محمد عبدالله بن محمد المالقي	558-560هـ/ 1163-1164م	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص121-122؛ المراكشي، المعجب،ص150، 181.
2	أبو يوسف حجاج بن يوسف التجيبي	560-572هـ/ 1164-1176م	ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص230 .
3	أبو موسى عيسى بن عمران التازي	572-578هـ/ 1176-1182م	الضبي، بغية الملتمس، جـ2، 527-528 ؛ المراكشي، المعجب، ص181.

4	أبو العباس أحمد بن مضاء اللخمي	578-580هـ/ 1182-1184م	المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص212-220؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص153 .

جدول رقم (6)

قادة الجيش الموحدي على عهد الخليفة أبي يعقوب

الرقم	الاسم	المناسبة	المصدر
1	الخليفة أبو يعقوب	- قاد غزوة وبذة سنة 567هـ/1172م . - حارب قبيلة صنهاجة القبلة سنة 572هـ/1177م . - حارب ابن الرند في مدينة قفصة سنة 576هـ/1181م . - قضى على تمرد قبيلة هرغة سنة 578هـ/1182م .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص487؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 137،147؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص212
2	أبو حفص عمر بن عبد المؤمن	- حارب ابن مردنيش في شرق الأندلس وانتصر عليه في معركة فحص الجلاب سنة560 / 1165م . - قضى على ثورة أهل جبل تاسررت سنة 563هـ/1167م. - قاد غزوة السبطاط ضد مملكة ليون سنة 570هـ/1174م .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص269-274،360؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص137،147؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص279 .
3	الشيخ يوسف بن سليمان	قضى على ثورة مرزدغ الصنهاجي سنة 559هـ/1164م.	البيذق، أخبار المهدي، ص86 .

4	الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي	- حارب سبع بن منغفاذ سنة 562هـ/1166م . - حارب ابن مردنيش في شرق الأندلس . - انتصر على القومس الأحدب في معركة كركوى سنة 568هـ/1173م .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص402-405،519-524؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص95؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص321.
5	الشيخ أبو عبدالله بن أبي إبراهيم	حارب ابن مردنيش وحلفائه النصارى للفترة 562-564هـ/1167-1169م .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص356-359، 405،
6	أبو العلاء بن عزرون	قاد جيش الأندلس في غزوة وبذة سنة 567هـ/1172م .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص492 .
7	أبو يعقوب يوسف بن تيجيت	- قاد غزوة طلبيرة سنة 568-1173م .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ2، ص525 .
8	أبو عبدالله يوسف بن وانودين	- قاد غزوة طلبيرة سنة 578-1182م .	ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين ، ص149-151 .

جدول رقم (7)

قادة الأسطول الموحدي على عهد الخليفة أبي يعقوب

الرقم	الاسم	المناسبة	المصدر
1	غانم بن مردنيش	غزو سواحل البرتغال سنة 575-576هـ/1180م .	ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص140-143 .
2	عبدالله بن جامع	غزو سواحل البرتغال سنة	ابن عذاري، البيان

		577هـ/1181م .	المغــــرب، قســــم الموحدين، ص145 .
3	أبو العباس الصقلي	قيادة الأسطول الأندلسي فـــي غزو سواحل البرتغـــال ســـنة 577هـ/1181م، وغزو مدينـــة أشبونة سنة 580هـ/1184م .	ابن عذاري، البيـــان المغــــرب، قســــم الموحدين، ص145، 159؛ ابن خلـــدون، المقدمة، ص255.

جدول رقم (8)

ولاة الأقاليم على عهد الخليفة أبي يعقوب

الرقم	الولاية	الوالي	المصدر
1	إفريقية	السيد عيسى بن عبد المؤمن وأخوه السيد أبو علي الحسن بن عبـــد المـــؤمن (576-580هـ/1180-1184م) .	المراكشي، المعجـــب، ص198؛ الزركشـــي، تاريخ الدولتين،ص14.
2	بجاية	أبو عبدالله محمد بن عبـــد المـــؤمن (555-560هـ/1160-1164م)، أبو زكريا يحيى بن عبد المؤمن (561-566هـ/1165-1170م)، أبو الربيع سليمان بن عبـــدالله (566-576هـ/1170-1180م)، أبـــو موسى عيسى بـــن عبـــد المـــؤمن (576-580هـ/1180-1184م) .	ابن صاحب الصـــلاة، المن بالإمامة،ص293 ؛ ابن عذاري، البيـــان المغرب، قسم الموحدين ، ص143؛ الجيلالي، تاريخ الجزائر، جـــ2، ص314.
3	تلمسان	أبو عمران موسى بن عبد المـــؤمن (556-571هـ /1161-1175م)، أبو علي الحسن بن عمر بـــن عبد المؤمن (571-؟؟هـ/1175-؟؟م)، أبو زكريا بن عمر بن عبد المؤمن (؟؟-580هـ/؟؟-1184م).	ابن خلـــدون، العبـــر، جــــــــ6، ص322؛ الجيلالـــــي، تـــــاريخ الجزائـــــر ، جـــــ2، ص315؛ موســـــــى، الموحدون في الغرب، ص321 .

4	سبتة	أبو محمد عبدالله بن إبراهيم بن جامع (558-562ه/1163-1166م)، أبو علي الحسن بن عبد المؤمن (562-؟؟/1166-؟؟) .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة،ص295 ؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص207 .
5	سجلماسة	أبو علي بن عبد المؤمن (571- ؟؟/1175-؟؟م)، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن (؟؟-574ه/؟؟-1178م) .	ابن خلدون، العبر، جـ6، ص322؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص280.
6	إشبيلية	الشيخ أبو عبدالله بن أبي إبراهيم (561ه/1165م)، السيد أبو إبراهيم بن عبد المؤمن (561-571ه/1165-1175م)، السيد أبو علي الحسن بن عبد المؤمن (571-574ه/1175-1178م)، السيد أبو اسحق بن يوسف (574-580ه/1178-1184م).	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة،ص293-296 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين ، ص143؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص207؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277-280.
7	غرناطة	السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن (558-562ه/1163-1166م)، الشيخ أبو عبدالله بن أبي إبراهيم (562-566ه/1166-1170م)، أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن (574-579ه/1178-1183م)، السيد أبو زيد بن يوسف بن عبد المؤمن (579-580ه/1183-1184م) .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص297-298؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320،324؛ السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص277-280 .
8	قرطبة	السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن (560-561ه/1164-1165م)، السيد أبو اسحق إبراهيم بن عبد المؤمن (561-564ه/1165-1168م)، أبو الحسن علي بن عبد المؤمن (571-576ه/1175-1180م)، أبو يحيى بن يوسف بن	ابن القطان، نظم الجمان، ص207-208 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين ، ص93،

		عبد المؤمن (579-580هـ/1183-1184م) .	156؛ ابن خلدون، العبر، جـ6، ص320-322 .
9	مالقة	السيد محمد بن عمر بن عبد المؤمن (؟؟-571هـ/؟؟-1175م)، أبو محمد عبدالله بن أبي حفص بن عبد المؤمن (571-580هـ/1175-1184م) .	السلاوي، الاستقصا، جـ1، ص280؛ موسى، الموحدون في الغرب، ص322 .
10	بلنسية	أبو الحجاج يوسف بن مردنيش (567-580هـ/1172-1184م).	ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص271 .

جدول رقم (9)

ميادين العلوم وأشهر العلماء[1] على عهد الخليفة أبي يعقوب

العلم		الاسم	المصدر
العلوم الدينية	القراءات	علي بن أحمد بن أبي بكر الكتامي، فتح بن محمد بن فتح الأنصاري، أحمد بن محمد بن عبدالله الأنصاري، محمد بن عبدالله المعافري القلعي .	ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص480؛ ابن الآبار، التكملة، جـ4، ص60-61؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص75-76؛ الغبريني، عنوان الدراية، ص133-134 .
	التفسير	أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناف، أبو الحسن علي بن محمد الغرناطي، أحمد بن عبد الصمد الأنصاري، بيبش بن محمد	ابن الموقت، السعادة الأبدية، ص98-99؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س1، ق1، ص239-240؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص185-

(1): تجدر الإشارة هنا إلى أن الجدول يتضمن أسماء مشاهير العلماء فقط وليس كافة العلماء لقلة المصادر في هذا الجانب.

			العبدري .	186؛ يوسف، حلقات من تاريخ المغرب، ص161.
	الفقه		أبو الحسن علي بن محمد بن خيار، أبو محمد عبد الملك بن صاحب الصلاة، أبو بكر محمد بن عبدالله بن الجد، بيبش بن محمد العبدري، عبدالله بن محمد بن عيسى التادلي .	ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص247؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص20؛ ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص64-65، 306؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص185 .
	الحديث		محمد بن عبد العزيز الغافقي، عبدالله بن محمد الحجري، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزردي، جابر بن أحمد بن إبراهيم القرشي .	ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص53-54،ص278-281 ؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ2، ص59-61؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص201 .
علوم اللغة العربية	اللغة		أبو إسحاق إبراهيم بن ملكون، محمد بن أحمد بن هشام اللخمي، أبو الوليد عبدالله بن أحمد الحجري، أبو عبدالله محمد بن جعفر الأموي .	المراكشي، المعجب، ص175؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ق1، ص70-75؛ ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص62-63، ص272.
	النحو		أبو بكر محمد بن خلف الإشبيلي، أبو موسى عيسى الجزولي، أحمد بن عبد الرحمن بن مضا اللخمي.	ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص61؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ3، ص488-490؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ1، ص142-143 .
	الأدب	الشعر	أبو عبدالله محمد بن حبوس، أبو العباس أحمد بن عبد السلام	ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص159؛ ابن الآبار، التكملة،

			الجراوي، أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافي، أبو عمر أحمد بن حربون، أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشلبي، أبو العباس أحمد بن سيد الإشبيلي، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي، حفصة الركونية، أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر .	جـ1، ص72-73، ص113؛ ابن الخطيب، الأحاطة، جـ2، ص505-506؛ منصور، أعلام المغرب العربي، جـ3، ص310-313؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ1، ص202؛ ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص120-121؛ قجه، محطات أندلسية، ص200-204؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص399-400 .
		النثر	الفقيه أبو محمد المالقي، الفقيه أبو موسى عيسى بن عمران، أبو الحسن بن عياش، أبو القاسم المالقي، أبو الفضل جعفر بن محشرة، أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافي، أبو بكر محمد بن خلف الهمذاني، عبد الرحمن بن أحمد الأزدي، علي بن عبدالله المتيطي الأنصاري .	ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص116؛ المراكشي، المعجب، ص180-181؛ ابن الخطيب، الأحاطة، جـ2، ص514-515؛ السيوطي، بغية الوعاة، جـ1، ص101؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ1، ص486؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، جـ2، ص480.
العلوم العقلية	الفلسفة		أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد .	المراكشي، الذيل والتكملة، س6، ص409؛ ابن الخطيب، الأحاطة، جـ2، ص479-482؛ المراكشي، المعجب، ص179-180 .

	الطب	أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي، أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر، أبو مروان عبد الملك بن علي المددي، أبو جعفر بن هارون الترجالي، علي بن عتيق بن عيسى الخزرجي، سعيد الغماري،	ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 207 ؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص410؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص521، 530؛ ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص83-84، ص221-222؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ7، ص137 .
	الهندسة	الحاج يعيش المالقي، أحمد بن باسة، أحمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري، أبو عبدالله محمد بن مفرج بن أبي العافية .	ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص139-140؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص80-81؛ الضبي، بغية الملتمس، جـ1، ص172 .
	الحساب	أحمد بن أبي المطرف عبد الرحمن بن جزي، علي بن محمد بن فرجون القيسي.	ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص77؛ ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص223 .
	التاريخ	أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبدالله الأزدي، أبو محمد عبد الملك بن صاحب الصلاة، أبو علي حسن بن عبدالله الأشيري .	ابن الآبار، التكملة، جـ3، ص85؛ الغبريني، عنوان الدراية، ص41-44؛ ابن الآبار، المعجم، ص91-92؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص248-250؛ البيذق، أخبار المهدي، ص58؛ ابن الآبار، التكملة، جـ1، ص 218.

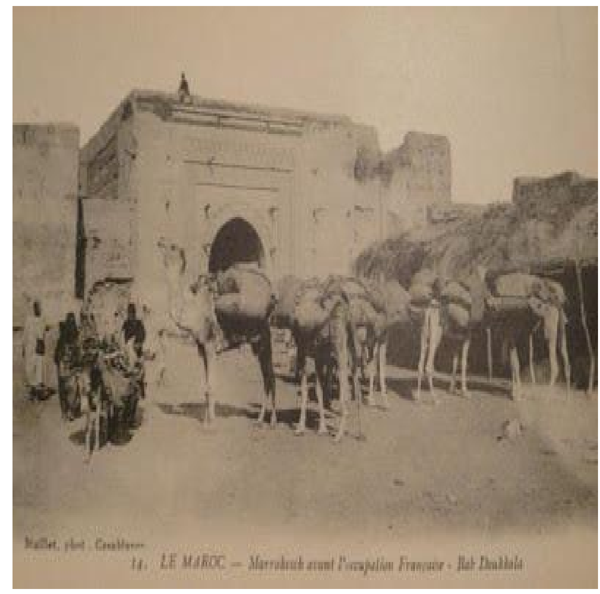
	الجغرافيا	مجهول صاحب كتاب الاستبصار، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الشهير بابن جبير.	مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص ب-ث، ابن الآبار، التكملة، جـ2، ص109-110 ؛ المراكشي، الذيل والتكملة، س5، ص595-621 .
	الفلاحة	أبو زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي .	حميدان، أعلام الحضارة العربية، مـج5، ص537-538 ؛ ديورانت، قصة الحضارة، جـ2، مـج4، ص359 .

الصور والخرائط والمخططات

أ. الصور :

صورة رقم (1)

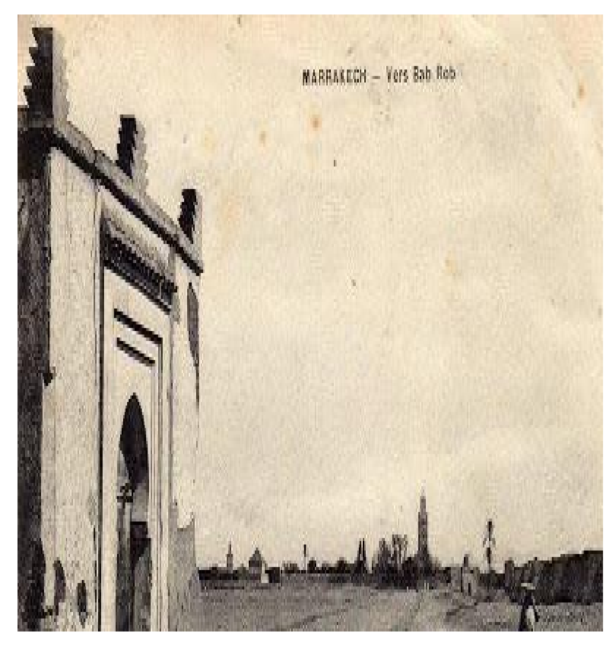
من أبواب مدينة مراكش



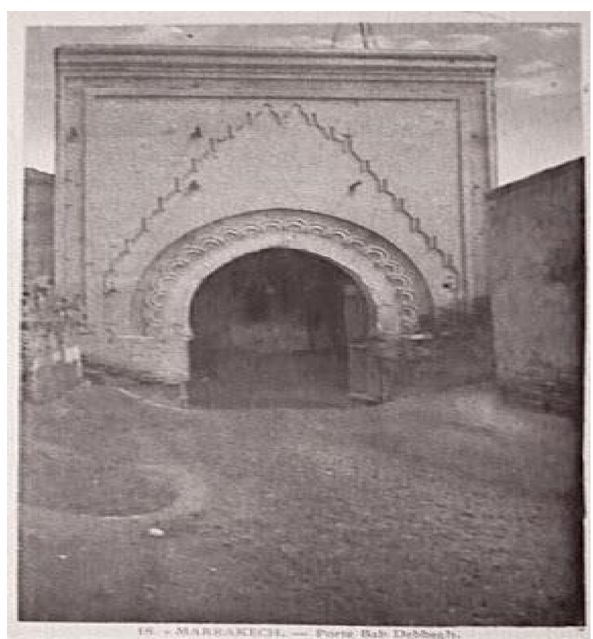
باب دكالة من الداخل

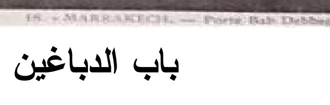


باب دكالة من الخارج



باب الرب

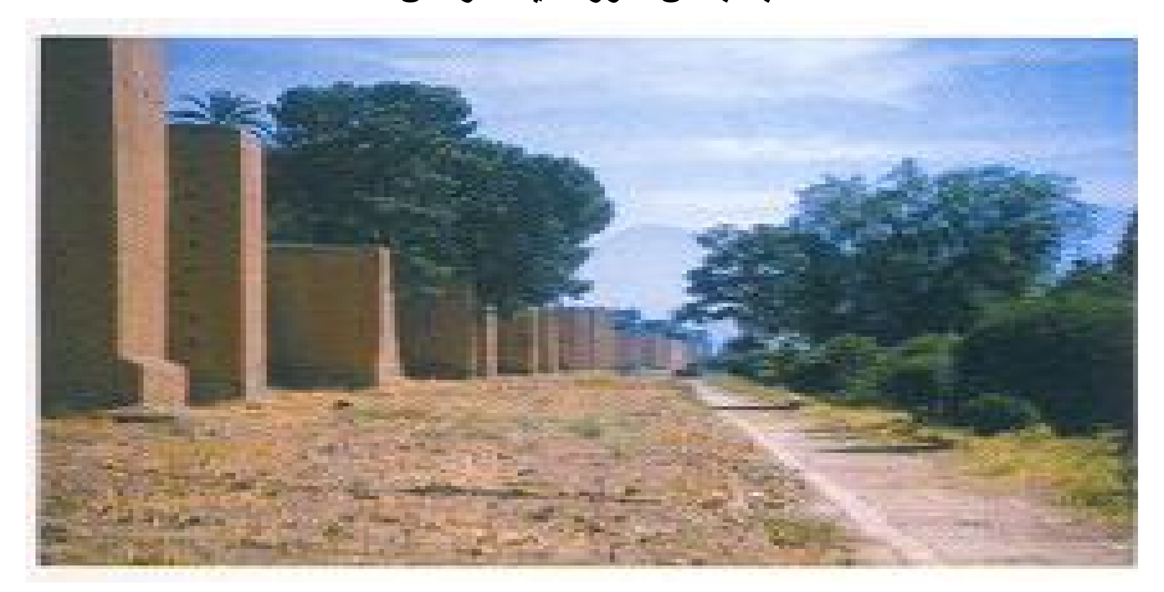




باب الدباغين

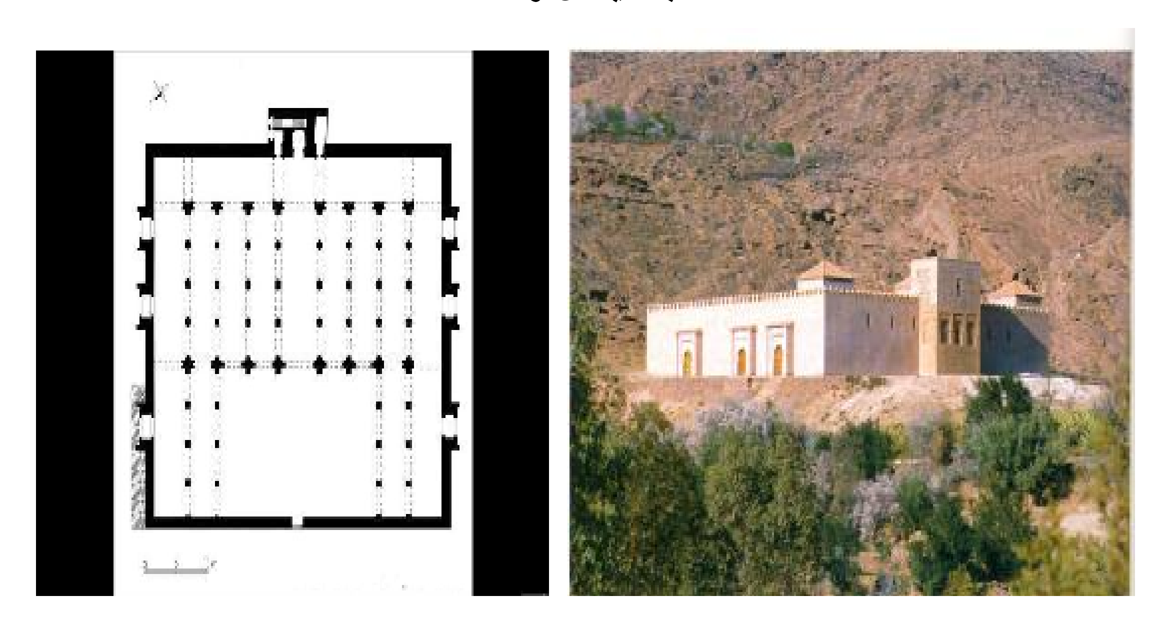
صورة رقم (2)

جانب من سور مدينة مراكش[1]



صورة رقم (3)

مسجد تينملل ومخططه[2]



---

(1): Castro, Almoravides y Almohades, p76.

(2): Castro, Almoravides y Almohades, p80.؛ بالباس، الفن المرابطي والموحدي، ص67، شكل رقم (2).

صورة رقم (4)

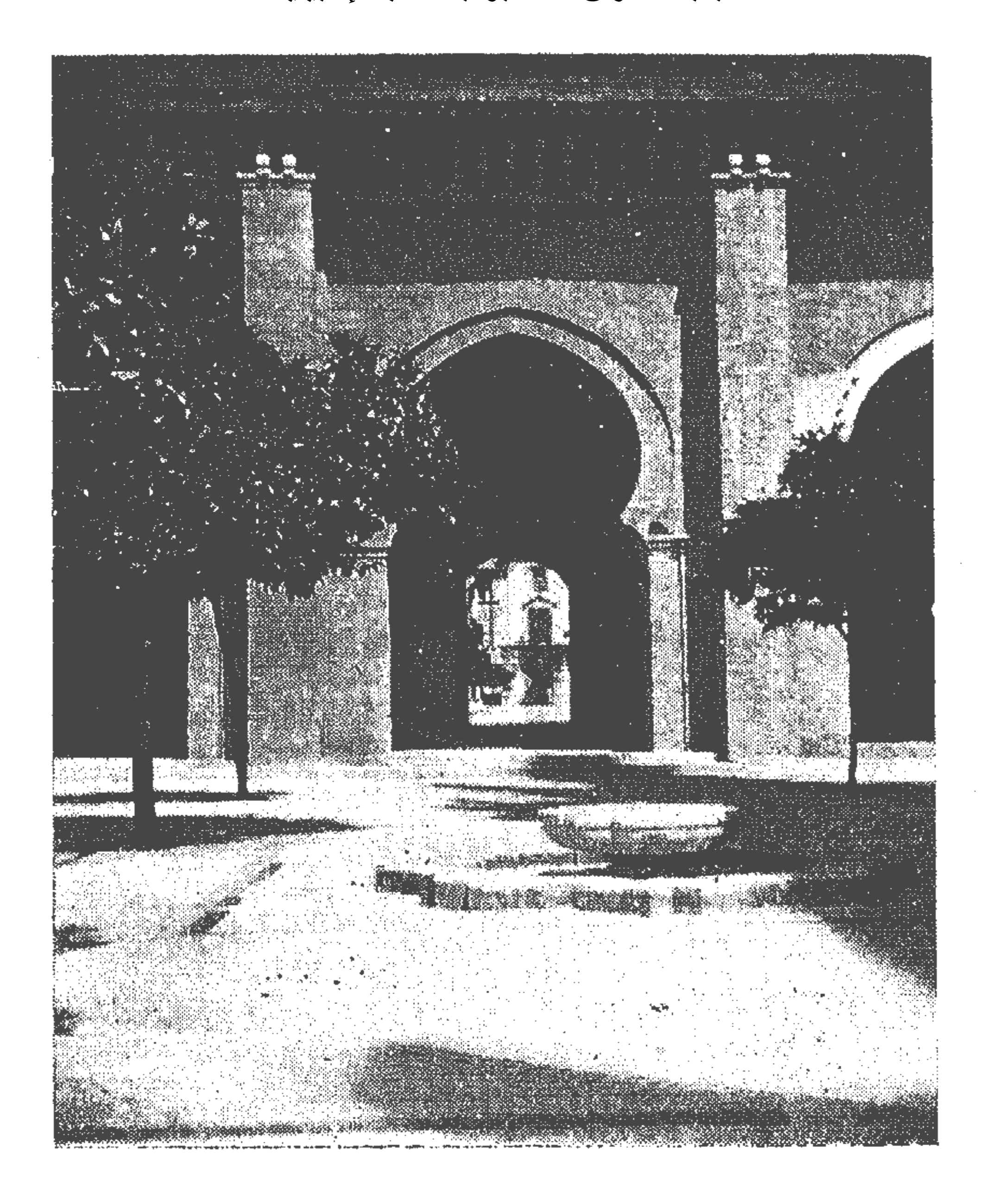
منارة مسجد إشبيلية - لاخيرالدا[1]



(1): عنان، الآثار الأندلسية، ص53.

صورة رقم (5)

باب الغفران أحد أبواب مسجد إشبيلية[1]

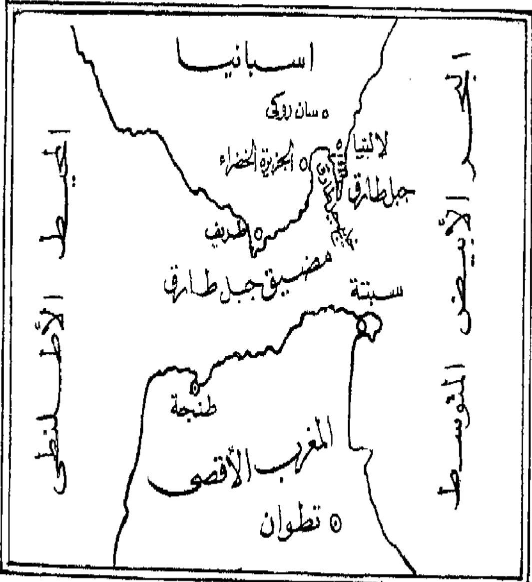


(1): عنان، الآثار الأندلسية، ص50.

صورة رقم (6)

مضيق جبل طارق وضفتي العدوة المغربية والأندلسية[1]





صورة رقم (7)

جبل طارق[2]



---

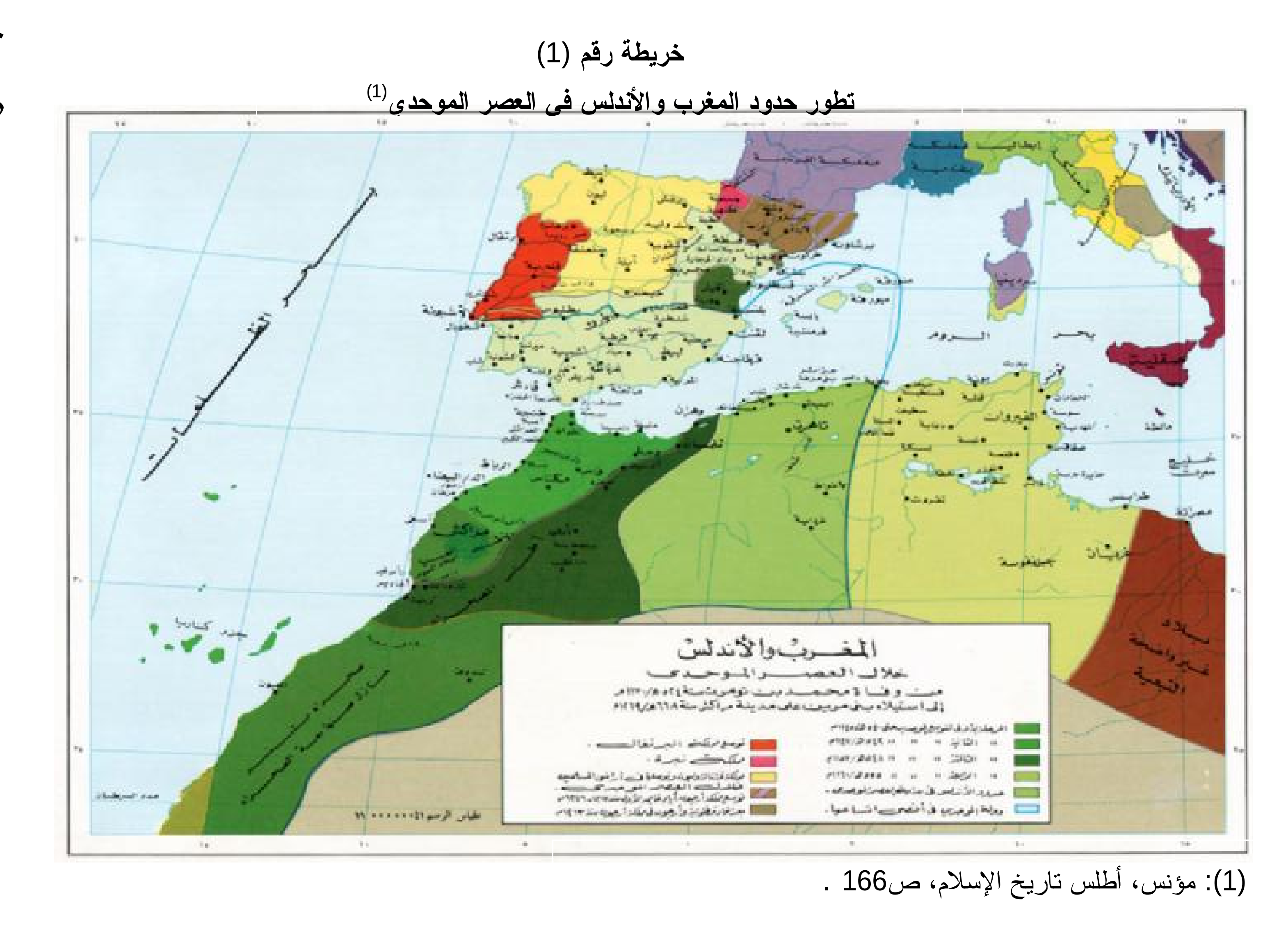
(1): عنان، الآثار الأندلسية، ص285؛ السلمي، العدوة الأندلسية، ص381.

(2): السلمي، العدوة الأندلسية، ص386.

ب. الخرائط :

خريطة رقم (1)

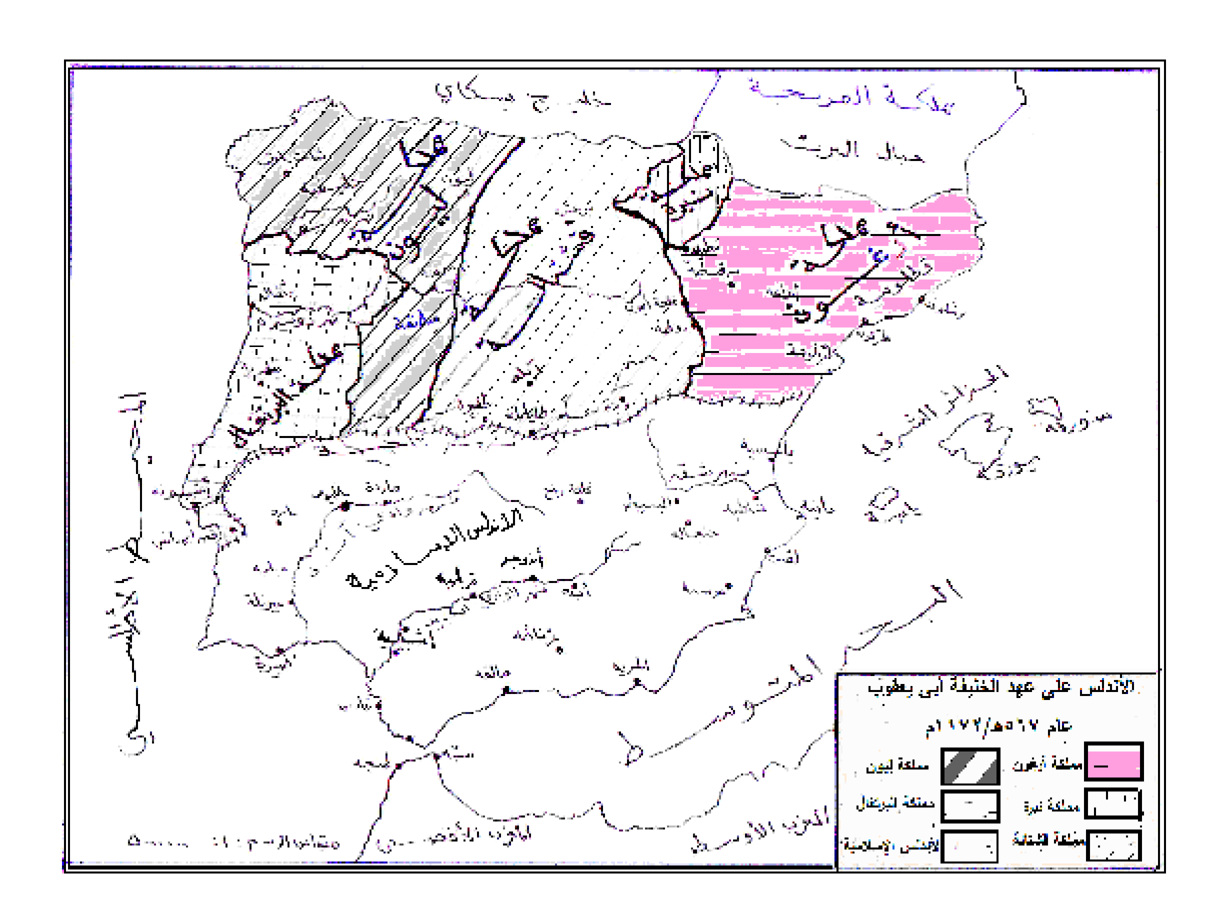
تطور حدود المغرب والأندلس فى العصر الموحدى[1]



(1): مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص166 .

خريطة رقم (2)

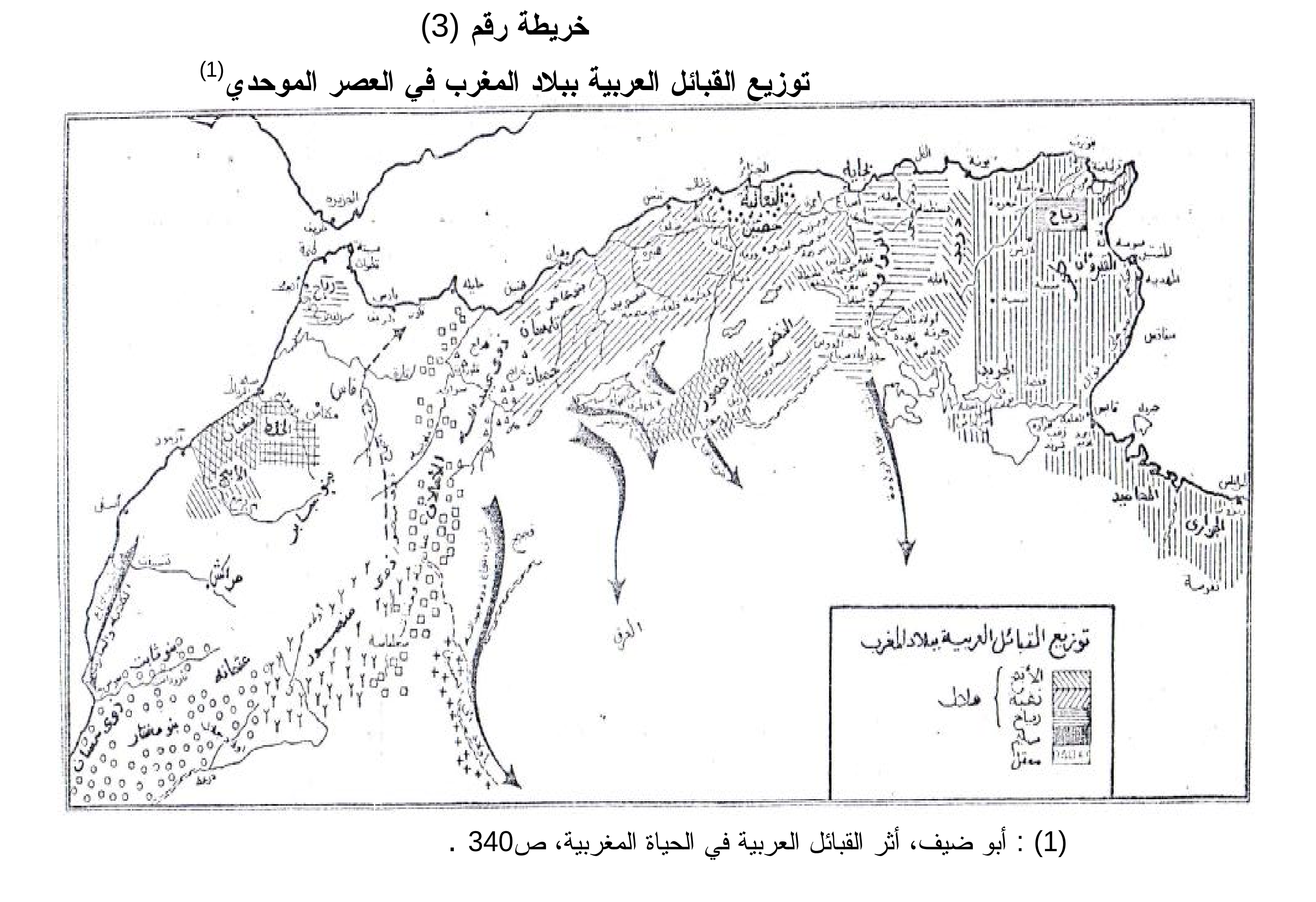
الأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب



الخريطة من إعداد الباحث .

خريطة رقم (3)

توزيع القبائل العربية ببلاد المغرب في العصر الموحدي[1]

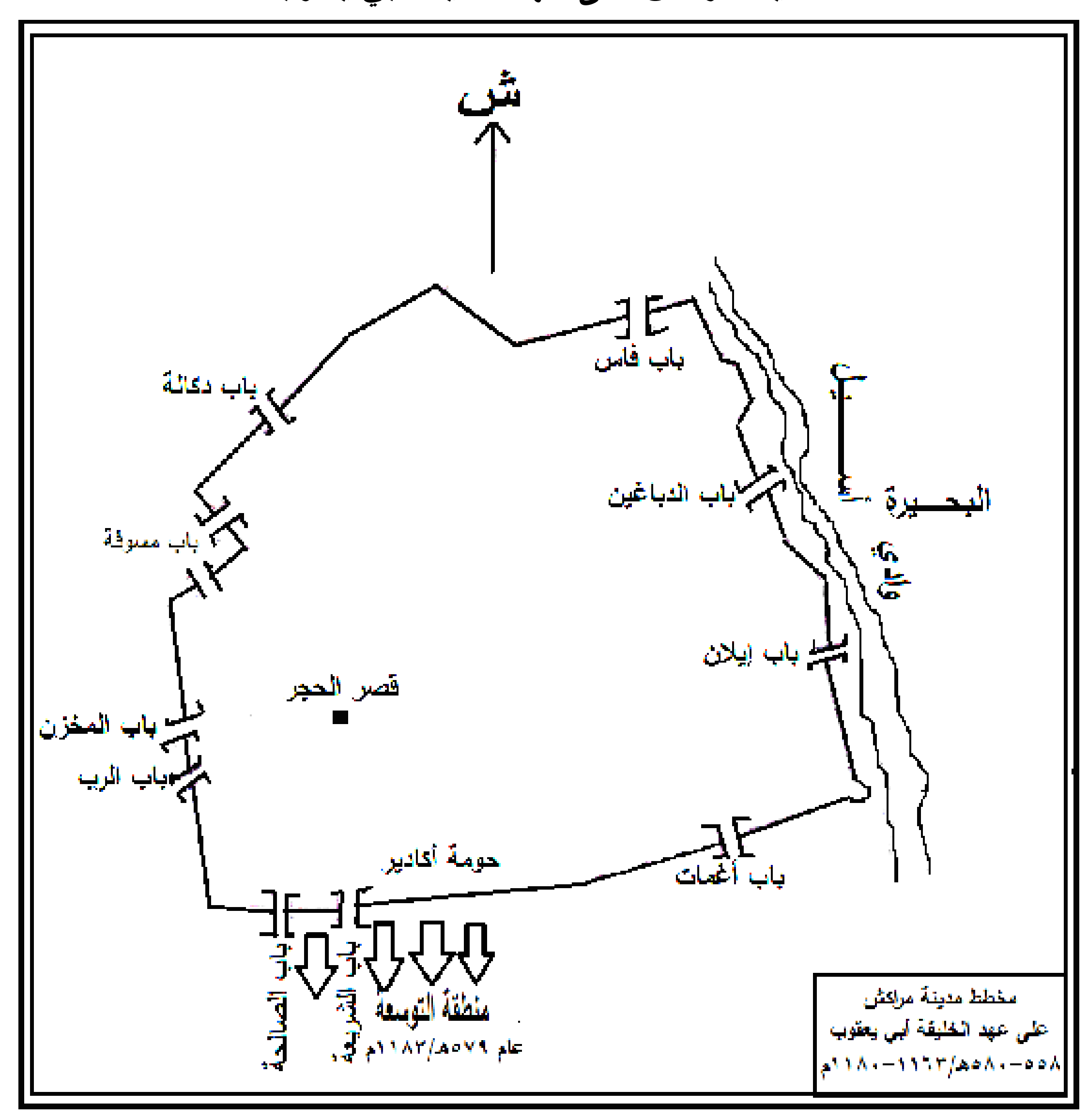


(1) : أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص340 .

جــ. المخططات :

مخطط رقم (1)

مخطط مدينة مراكش على عهد الخليفة أبي يعقوب[1]

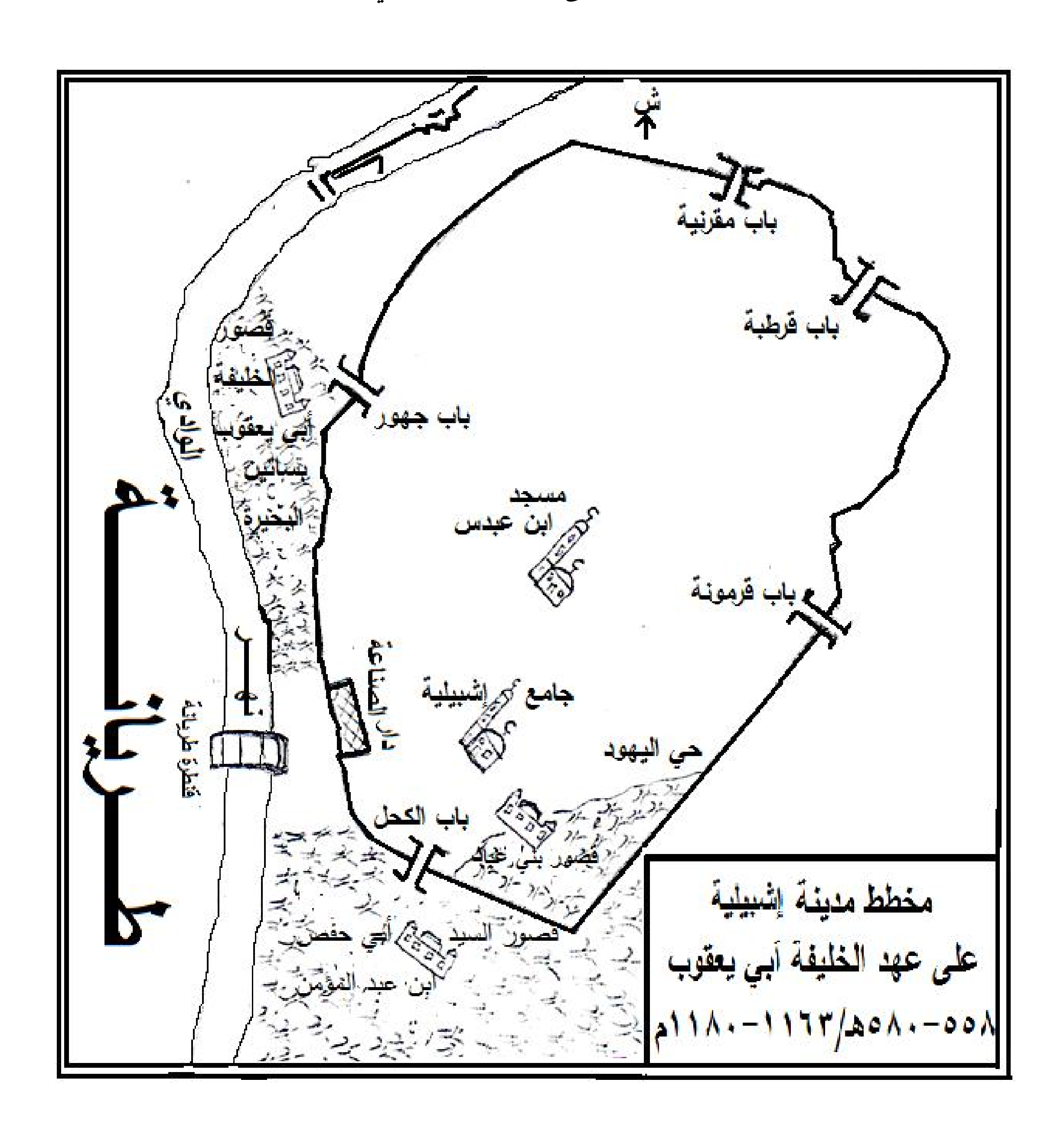


---

(1): بورويبة، إبن تومرت، ص83 (بالتصرف).

مخطط رقم (2)

مخطط مدينة إشبيلية على عهد الخليفة أبي يعقوب [1]



---

(1): مؤنس، رحلة الأندلس، ص116 (بالتصرف).

المعلومات الشخصية

الاسم: محمد عطا الله الخليفات

التخصص: دكتوراه التاريخ

الكلية: العلوم الاجتماعية

السنة: 2015